

مايكل هاج



المركز القومي للترجمة

الإسكندرية

مدينة الذكرى

ترجمة: فضيلة محجوب
مراجعة: طاهر البربري

2215



في يوليو 1942، عندما قام روميل بتهديد مصر، وتوقف عند منطقة العلمين، وتم إجلاء نانسي وابنتها إلى فلسطين، وكان زواج دوريل يشهد بالفعل حالة من التوتر الشديد، ولم ترجع نانسي. في العام التالي، التقى دوريل مع إيف كوهين في الإسكندرية، وأصبحت زوجته الثانية، "امرأة غريبة، وفاتنة، بعينين سوداوين، صائبة في كل استجاباتها، أهداها الجزء الذي عنوانه بـ "جوستين" ضمن الأجزاء الأربعة في روايته الشهيرة رباعية الإسكندرية Alexandria Quartet - "إلى إيف، هذه الذكريات من مدينتها الأم. أنهى الجزء الأول منه، والذي يحمل عنوان "رباعية الإسكندرية" في قبرص عام 1956. وكتب دوريل إلى صديقه هنري ميللر عنها قائلاً: "إنها قصيدة نشر من نوع ما، إلى واحدة من أحب عواصم القلب، عاصمة الذكريات، وتحمل صورًا لاذعة لسيدات الإسكندرية، هن بالتأكيد أحب النساء إلى نفسي، وأكثرهن كربًا وحزنًا في العالم"، ولكن الذكريات الوحيدة التي تنتظره الآن تعود إلى الأماكن القديمة، والأصدقاء القدامى والغراميات القديمة التي تلاشت منذ زمن.

"الإسكندرية، الأميرة والعاهرة، والمدينة الملكية والمؤخرة؛ فلن تتغير هذه المدينة أبدًا، طالما استمر هياج الأعراق هنا مثل العفن في الراقود. وبدلاً من التقاط الصور في فيلات فخمة تغطيها النباتات المزهرة؛ "حيث كان يقيم نسيم وجوستين حفلاتهما"، باتت مهجورة أو صودرت أو تُركت للتردي بسبب فقر أصحابها، وتجد البوابات الحديدية الصدئة مفتوحة على مصراعيها على حدائق مهملة حيث فسقيات المياه الرخامية والتماثيل المتهدمة تشهد على ما كانت تحمل هذه الفيلات من عظمة في الماضي.



الإسكندرية
مدينة الذكرى

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2215
- الإسكندرية: مدينة الذكرى
- مايكل هاج
- فضيلة محبوب
- طاهر البربري
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

ALEXANDRIA: City of Memory

By: Michael Haag

Copyright © Michael Haag, 2004

Arabic Translation © The National Center for Translation, 2016

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأويرا- الجزيرة- القاهرة.

ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الإسكندرية

مدينة الذكرى

تأليف : مايكل هاج

ترجمة : فضيلة محبوب

مراجعة : طاهر البربرى



2016

<p>بطاقة الفهرسة</p> <p>إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية</p> <p>إدارة الشئون الفنية</p>	
<p>هاج، مايكل.</p> <p>الإسكندرية: مدينة الذكرى / تأليف: مايكل هاج ؛ ترجمة: فضيلة محجوب ؛ مراجعة/ طاهر البربرى.</p> <p>ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦</p> <p>٦٠٨ ص، ٢٤ سم</p> <p>١ - الإسكندرية - تاريخ</p> <p>(أ) محجوب - فضيلة</p> <p>(ب) البربرى طاهر</p> <p>(ج) العنوان</p>	<p>(مترجم)</p> <p>(مراجع)</p> <p>٩٦٢،١١</p>
<p>رقم الإيداع: ٩٧٤٨ / ٢٠١٦</p> <p>الترقيم الدولى: 7 - 0654 - 92 - 977 - 978 - I.S.B.N</p> <p>طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية</p>	

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

9 مصادر تم الاعتماد عليها، وقراءات أخرى وتتويه
15 تمهيد: عاصمة الذكريات
33 الفصل الأول: ترام
105 الفصل الثاني: الإسكندرية من الداخل
145 الفصل الثالث: آه لو أن الحب أبدي
219 الفصل الرابع: مجتمع الرفاهية : تاريخ ودليل
301 الفصل الخامس: ثنائيات مختلطة كالعادة
347 الفصل السادس: صورة شخصية
409 الفصل السابع: مرايا
465 الفصل الثامن: قلعة بروسبيرو
515 الفصل التاسع: المدينة التي لا تتلاشى
557 خاتمة - الطريق إلى الإسكندرية
578 المراجع

إلى لطفية

ماذا في مدينتنا هذه بالأساس؟ ماذا نستعيد عندما ننطق كلمة الإسكندرية؟

لورانس دوريل

"رباعية الإسكندرية"

مصادر تم الاعتماد عليها، وقراءات أخرى، وتنويه

تم استقاء كثير من المعلومات الواردة في هذا الكتاب من أناس عرفوا الإسكندرية الكوزموبوليتانية وقد تحاورت معهم أو تلقيت منهم مكاتبات بشأنها أو طالعت يومياتهم وقرأت رسائلهم وشاهدت صورهم الشخصية... إلخ. سواء أخذت المادة منهم هم شخصياً أو من أصدقائهم أو من أحد أفراد عائلتهم، وقد أشرت إلى أسمائهم ضمن من عبرت عن امتناني لهم، كما أشرت إلى أسمائهم عندما اقتبست من أقوالهم أو مذكراتهم. ومع ذلك، في معظم الأحوال وخصوصاً مع الحوارات المتبادلة، لم يتم التنويه عنها في الهوامش، كما هو الحال في المصادر المكتوبة. زيارتي للإسكندرية مع "إيف دوريل"، أفاضت من ذكرياتها عن هذه المدينة وأضافت قيمة كبيرة لهذا الكتاب، وأيضاً نزهاًتي مع صديقي "برنارد دي زغيب" الذي يُعتبر آخر الإسكندرانيين الذين عرفتهم.

عادة يتم تنقيح الهوامش للكتب أو لمطبوعات أخرى لها اهتمام خاص. أما بالنسبة للقارئ الذي يريد حكايات عامة عن المدينة، وعن دوريل وفورستر وكفافيس فتلك الإشارات قد تفيده كثيراً.

باستثناء المقالات التي نُشرت في كتاب "الإسكندرية بين عالمين" (Aix-en-Provence 1988)، الذي حرره "روبرت ألبرت" (Aix-en-Provence 1988)، وكتاب الإسكندرية بين عامي ١٨٦٠-١٩٦٠ (Alexandrie 1860-1960)، وحرره "روبرت ألبرت"، و"إيوس ياتاكاكيس" (Paris 1992) لم يُنشر إلا النزر اليسير عن تاريخ الإسكندرية الكوزموبوليتانية المعاصرة.

ولكن القليل من الكتب التى نشرت على شكل مذكرات، ورغم أنها يمكن أن تسهم فى إلقاء الضوء على الظروف السائدة، ويمكن أن تجنح إلى التلفيق، ولذلك لا يمكن اعتبارها مصدراً تاريخياً، أو حتى من السجلات التاريخية للشخصيات، ومن هذه المذكرات الخيالية التى كتبها م "Andre Aciman" بعنوان "خارج مصر - نيويورك ١٩٩٤".

تم تغطية تاريخ المدينة فى العصر القديم على نحو رائع فى كتاب "بيتر م. فريس" الصادر عن دار "أكسفورد ١٩٧٢" بعنوان "الإسكندرية فى عصر البطالمة" Ptolemaic Alexandria، وكتاب "ألفرد ج. بيتلر" الذى أتى تحت عنوان "الفتح العربى لمصر - الطبعة الثانية" الذى أصدره "بيتر م. فريس" عن دار نشر "أكسفورد ١٩٧٨"، وكتاب م "Jean-Yves Empereur" وجاء بعنوان "إعادة اكتشاف الإسكندرية - لندن ١٩٩٨"، فى حين تم تسجيل التاريخ القديم والطبيعة الجغرافية الخاصة بمنطقة بحيرة مريوط والصحراء الغربية فى كتاب عن تلك المنطقة كتبه أنتونى دى كوسون "Anthony de Cosson" وصدر فى (لندن ١٩٣٥)، وإننى أشعر بالامتنان لكل هذه الكتب لما أمدتني به من معلومات وفيرة حول المدينة والمناطق المحيطة بها قديماً.

كما كانت هناك دراسات عن أعمال "فورستر"، وهما: "إ. م. فورستر سيرة حياة" E. M. Forster: Alif (oxford 1979) وهى رسالة ماجستير إعداد ب. ن. فوربانك "P.N.Furbank" - وصدر عن "أكسفورد فى سنة ١٩٧٩"، والأخرى "Morgan : ABiography Of E.M Forter" مورجان: إ. م. فورستر - لندن "أكسفورد ١٩٩٣" بقلم م "Nicola Beauman"، التى تقدم بعض المعلومات الجديدة. صدرت الطبعة الأولى من أصل كتاب "فورستر" (الإسكندرية - تاريخ ودليل) فى الإسكندرية عام ١٩٢٢، وصدرت الطبعة الثانية أيضاً فى الإسكندرية فى عام

١٩٣٨ وهذه الكتب ثمينة مثل التبر (الذهب). كما أعيد نشر الطبعة الأولى من الكتاب في نيويورك في عام ١٩٦١، ومرة أخرى في لندن عام ١٩٨٢ مصحوبة بمقدمة بقلم "لورانس دوريل"، ثم أعيد نشره في عام ١٩٨٦ للمرة الثالثة بهوامش منقحة: وذلك كانت نسخاً نادرة. تم جمع كتابي فورستر "الإسكندرية-تاريخ ودليل إرشادي، والثاني الفراعنة وأثينا (Pharos and Pharillon) ونشرته دار مريم ألوت في لندن عام ٢٠٠٤.

كما ظهرت أيضاً سيرتان لـ "دوريل": كتاب جوردون باوكر القوى الذي أتى تحت عنوان (عبر المتاهة المظلمة through the dark Labyrinth - لندن ١٩٩٦)، والسيرة الأخرى جاءت في سياق بحثي أفضل، وأنجزها "أيان ماكنيفين"، تحت عنوان (لورانس دوريل-سيرة Lawrence Durrell: A Biography لندن ١٩٩٨). واللافت للنظر على أية حال في كلتا الدراستين لأعمال "دوريل" وحياته أنهما يظهران القليل من المعرفة عن حياة "دوريل" في الإسكندرية، وكيف كتب الروايات التي تؤولف رباعية الإسكندرية وهي: "جوستين"، و"بلتزار"، و"مونت أوليف"، و"كليا" Justine, Balthe azar, Mountoive and clea، تلك الرباعية التي صدرت في لندن ١٩٦٢.

أما كتاب روبرت ليديل: "كفافيس: دراسة نقدية لسيرته الذاتية Cavafy: A Critical Biography" (لندن ١٩٧٤) فقد كتبه شخص عرف الإسكندرية وقدم صورة صادقة عن المدينة وعن الشاعر. أما أفضل الترجمات لأشعار "كفافيس" فهي تلك التي قام بها كل من "إدموند كيلليو فيليب شيرارد" وهي "ق. ب. كفافيس مجموعة أشعار - C.P.Cavafy : Collected Poems لندن ١٩٧٥).

خلال رحلة الإعداد لهذا الكتاب، وحتى قبل أن أعرف ببداية تلك الرحلة،
 أعترف بأنني استقدت كثيرًا من المعلومات والمعارف الموثقة ومن تشجيع ما قدمه
 عددٌ كبير من الناس ومساعدتهم، وإليهم أقدم جزيل شكرى وعرفانى، من بين
 هؤلاء مایسة أباطة، وخالد العظم، وحاج أحمد، وماریام اللوط، وناعومی،
 وموجی، وأثناسیان، ومحمد عوض، ومحمد بدر، وزینب نیازى بدر، ورالف
 باجنولد، ونیکولا بیومان، وموريس بیربیرر، وجون بودلی، وجوزیف بولاد،
 وجون کرومر براون، وألیس برینتون، وجون برینتون، وجوزیه برینتون، وجون
 بولار، وأدريانا بوتا — کالایس، ولیزا تشینی، ویلیام کلیفلاند، وماریو کولوتشین
 أرتمیس کوبر، وجاکلین کلات کوبر، ومارینجیلا کورتیزا، وروبرت کرسب،
 ولوسیین دالیل، وجیمی دارک، وإیف کوهین دوریل، ولورانس دوریل، وروجر
 ایفانسن، وفرانسیس فیدن، وباتریک لیی فیرمور، والیزابیث وایس فرنش، ومارتا
 لوریا فولر، ورونالد فولر، وب.ن. فیربانک، وبیاتریس جاتشى، وبول جوتش،
 وماری مولو هادیکنسون، وهالة حلیم، ویوسف حلیم، ودینیس هارفى، وماری
 بنتلی هونور، وبنلوب دوریل هوب، وجابریل جوزبوفیسى، وإیموند کیلالی،
 وسیر فرانک کیرمود، وفرانسواز کیستیسمان، وجورج کیریوس، وجورج
 کیرایکیدس، وکارولین لاسال، وماریا لیونکافالو، وکانون هوارد لیفیت، وروبرت
 لیدل، وصامویل لوك، وأیان ماکنیفین، وجاکى ماجار، وسیبیل ماجار، وساندرو
 مانزونى، وألفونسو دى مارتینو، وجاک ماواس، ونیکولیت بنتو ماواس، وتوفیق
 مجلع، وأناهدیمیر امیتجان، وديانا فورد میتشیل، ومايا مونسترلی، وأنثیا مورتون
 سانیر، وعادل روبى مرسى، وسهیلة نقیب، وأمین نیازى، وأن أولیری، وهیرتا
 بابو، ومافیس فوکاس، وفرانک بابک، وریشارد باين، والأب بیر ریتشیز، وسمیر
 رأفت، وجون رودینییک، ولیزلی روف، وجاکى رولو، وسیر ستیفین رونسمان،

وجاك سارفاتي، وعمرو شادي، وجين شماس، وفيليب شيرارد، ووجيدة سيد أحمد،
ومحمد سري، ويانا سيستوفاريسن آلان ج. توماس، وفيكتوريا تومبيسون،
ودونتانين تورتيلا، وموللي طوبى، وإريك فينسندون، وجواين ويليامز، ونيفين
يسري، وعادل أبو زهرة، ونادين زيدان، وجاستون زناني، وبرنارد دي زغب،
وعلى ذو الفقار.

كما أود أن أتوجه بالشكر لدار نشر (Faber and Faber-Duckworth,
Princeton University Press, The state of Lawrence Durrell)، وإلى
المكتبة البريطانية ومديرها والأساتذة في كلية -كينجز كوليدج - كمبريدج.

تمهيد عاصمة الذكريات

تقول لنفسك: سأذهب
إلى أرض أخرى.. إلى بحر آخر،
إلى مدينة أخرى بعيدة، وأكثر جمالاً من هذه..

مدينة لم يسبق لك أن رأيت لها مثيلاً
أو حلمت بوجودها
لن تجد أرضاً جديدة، يا صاح
ولن تجد بحراً جديداً
فسوف تلاحقك المدينة
وستهم في نفس الشوارع بلا نهاية

قسطنطين كفافيس من قصيدته "المدينة" ترجمها إلى الإنجليزية لورانس

دوريل^(١)

عاد لورانس دوريل إلى الإسكندرية في أكتوبر من عام ١٩٧٧، وأقام في
الفندق المعروف "فندق سيسل" على الكورنيش، حيث تنعكس أشجار النخيل
المتراصة بالخارج في المرايا الكبيرة المتألئة في بهو الفندق، وأنصت إلى رياح
البحر وهي تنفذ من عقب بابه. حتى في أثناء الحرب، كانت الإسكندرية

الكوزموبوليتانية تمثل موجة ناهضة في المد المُخسِر، فقد أصبحت أيام جالياتها الأجنبية معدودة؛ إذ بدأ ترحيلهم بعد ذلك بعشر سنوات، وخشى دوريل من أن تكون ثورة جمال عبد الناصر الاشتراكية التطهيرية قد تسببت في إهلاك البلد التي عرفها.

في ربيع ١٩٤١ كان دوريل قد أتم عامه التاسع والعشرين، عندما اجتاح الألمان الأراضي اليونانية؛ هرب مع زوجته نانسي وابنتهما الرضيعة إلى مصر. وقتئذ كانت مدينة الإسكندرية خمسة أعراق مختلفة، يتحدثون خمس لغات كما كانت توجد بالمدينة أكثر من عشر ملل دينية، وخمسة أساطيل بحرية تتحرك عبر انعكاساتها الملوثة بالشحوم خلف بوابة الميناء^(٢). والآن، وبعد مرور دهر، يواجه الإسكندرية بخوف وترقب، وكأنه قد أبعد إلى المنفى بمرور الزمن.

في يوليو ١٩٤٢، عندما قام روميل بتهديد مصر وتوقف عند منطقة العلمين، وتم إجلاء نانسي وابنتها إلى فلسطين، وكان زواج دوريل يشهد بالفعل حالة من التوتر الشديد، ولم ترجع نانسي. في العام التالي، التقى دوريل مع إيف كوهين في الإسكندرية، وأصبحت زوجته الثانية، "امرأة غريبة، وفاتنة، بعينين سوداوين، صائبة في كل استجاباتها"،^(٣) أهداها الجزء الذي عنوانه بـ "جوستين" ضمن الأجزاء الأربعة في روايته الشهيرة رباعية الإسكندرية *Alexandria Quartet* — "إلى إيف، هذه الذكريات من مدينتها الأم"^(٤). أنهى الجزء الأول منه الذي يحمل عنوان "رباعية الإسكندرية" في قبرص عام ١٩٥٦. وكتب دوريل إلى صديقه هنري ميلر عنها قائلاً: "إنها قصيدة نثر من نوع ما، إلى واحدة من أحب عواصم القلب، عاصمة الذكريات وتحمل صوراً لاذعة لسيدات الإسكندرية، هن بالتأكيد أحب النساء إلى نفسي وأكثرهن كرباً وحزناً في العالم."^(٥) ولكن الذكريات الوحيدة التي تنتظره الآن تعود إلى الأماكن القديمة، والأصدقاء القدامى والغراميات القديمة التي تلاشت منذ زمن.

ما كان دوريل ليعود إلى الإسكندرية لولا أن أقنعت "هيئة الإذاعة البريطانية" بعمل فيلم بعنوان "روح المكان". وتمثلت مهمته في اصطحاب فريق تصوير من هيئة الإذاعة البريطانية ليطوف المدينة التي أبداع في تصويرها، أبداعها من خياله؟ هذا ما ملأ قلبه بالقلق. في البداية كان دوريل يسير في الأيام التالية شريداً، يمشى على غير هدى، ثم بدأ يلتقط الخيوط إلى الطرقات التي عرفها، وسلك طريقه في شوارع الإسكندرية. لقد بدت المدينة أمام عينيه جامدة كئيبة، فالميناء لم يكن يتجاوز كونه مقبرة، ومقاهيها الشهيرة، مثل مطعم باسترانوس وبيدروت، لم تعد تصدح بالموسيقى أو تتلألأ بالأنوار، ويقول: "تلاشت الملصقات والإعلانات الأجنبية، وأصبح كل شيء مكتوباً باللغة العربية، في أيامنا كانت ملصقات الأفلام تعلق بلغات عديدة مع إعلان باللغة العربية"^(١). أما مكتبته المفضلة "سيتى دو ليفر" والتي كانت موجودة في شارع فؤاد، فقد اختفت تماماً من الوجود - وكانت عادة ما تمثل بطبعات "لا بلياد"^(٢). وجد أكواما من الكتب يُرثى لحالها. كل ما له به كامن في كلمة "إسكندرية Iskandariya"، وهى الكلمة العربية غير المفهومة التى تنتمى لساكنيها، لكنها ترجمة في الفراغ عارية من المعنى.

"الإسكندرية، الأميرة والعاهرة، والمدينة الملكية والمؤخرة. فلن تتغير هذه المدينة أبداً، ما دام استمر هياج الأعراق هنا مثل العفن في الراقود"^(٣). وبدلاً من النقاط الصور في فيلات فخمة تغطيها النباتات المزهرة، "حيث كان يقيم نسيم وجوستين حفلاتهما"^(٤)، باتت مهجورة أو صودرت أو تركت للتردى بسبب فقر أصحابها، وتجد البوابات الحديدية الصدئة مفتوحة على مصراعيها على حدائق مهملة؛ حيث فسقيات المياه الرخامية والتماثيل المتهشمة تشهد على ما كانت تحمل هذه الفيلات من عظمة في الماضى.

(٢) وعاء ضخم للسوائل يستخدم للتخمير أو التكرير.

وتحدث بيتر آدم، مخرج الفيلم، عن دوريل قائلا: "كان يفرط في الشراب، إنسان وحيد، حزين يجلس مرتخيا على البار، في فندق سيسل"^(١٠). فقال له دوريل: "يبدو سخيًا، ولكنني غير مبال، فإن حياتي تنقضى سواء في الكتب أو في الأحلام."^(١١) إلا أن حالته المزاجية تغيرت فجأة عندما لمح عاهرتين ترتديان تنورتين قصيرتين من الجلد تتخلان البار: "شكرا لك، شكرا، مصر! أى سحر هذا، أى تمايل ساحر هذا!"^(١٢)

تبع طاقم الفيلم دوريل، بينما تبع كل من نسيم وديرلي Durreland Nassim (وهو نفس اسم دوريل) وساروا خلف جوستين إلى ما يمكن أن نسميه بالحي الأصلية، المدينة القديمة التي يعود تاريخها إلى الحقبة التركية، وذلك رغم أن المدينة كلها أصبحت أصلية الآن. ويقع هذا الحي ما بين المنازل المهذمة والمفككة خلف شارع التتويج. "المشهد الذي اقتحمناه كان أصليا.. إذ كان منزل الفتيات الصغيرات العاهرات هناك في الظلام وهن يرتدين ملابس ليلية ساخرة، شفاهن مطلية باللون الأحمر، وفتيات - لا تتجاوز أعمارهن عشر سنوات يقفن على قارعة الطريق، هذه البراعة الغريبة من الطفولة والتي تبرز من فستان رائع، تتعارض تعارضا بائنا مع الشخصية الهمجية لرجل من البحارة الفرنسية والواقف في منتصف الغرفة" - هنا جاءت جوستين تبحث عن ابنتها المخطوفة^(١٣). وقد كان موضوع ضياع البنات قضية تثير الانتباه في حياة دوريل، وتجده في كتاباته يتحدث كثيرا عن موضوع غشيان المحارم أيضا، كما حمل اغتصاب طفولة بطلته جوستين إشارات إلى أحداث في حياة "إيف".

بالقرب من مفترق الطرق لما كان يعرف بالمدينة الأوروبية، دخل دوريل شارعا ضيقا، يسمى شارع شرم الشيخ، إحياء لذكرى المدينة الواقعة على مدخل خليج العقبة، والتي استولت عليها إسرائيل في حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، لكن

هذا الشارع كان يعرف من قبل باسم "حارة ليبسوس" — وهو اسم لعالم المصريات الألماني كارل ريتشارد ليبسوس (١٨١٠-١٨٨٤)، وقد عرفه الأديب الإنجليزي "إي أم فورستر"، هنا حيث بدأ التمجيد الأدبي لمدينة الإسكندرية، في رقم ١٠ (وهو حاليا يحمل رقم ٤) في الطابق الثاني، وقد عاش قسطنطيس كفافيس آخر سنوات عمره من عام ١٩٠٧ وحتى بداية عام ١٩٣٣ وهي فترة نضجه الشعري، في شقة فوق بيت دعارة.

وقد التقى فورستر الشاعر كفافيس إبان الحرب العالمية الأولى في الصليب الأحمر بالإسكندرية: "لم يجل بخاطره قط أنني ربما أحببت عمله، أو حتى فهمته.. وأذكر بهجتنا، ذات ليلة معتمة في شقته، عندما بدأ أنني كنت "التالي". عندما كان يشعر بالسعادة كان يقفز ويشعل شمعة، ثم أخرى، بل ويقسم السجارة إلى نصفين وأشعل النصفين وقدم قطعة لبان مع كسرات صغيرة من الخبز والجبن، وحديثه كان يتمايل على عالم البحر المتوسط وعلى الكثير من الحياة الكامنة بداخله." (١٤) ومنذ ذلك الحين، فعل فوستر ما هو أكبر من أي شخص آخر ليجمع أعمال كفافيس، فقد ذكر بعد ذلك بسنوات قال بعد : "لم أقدم سوى القليل من أجل ذبوع شهرته. لقد كان ذلك هو أفضل ما فعلت تقريباً" (١٥)

وفي عام ١٩٧٧، وجد دوريل أن شقة كفافيس تحولت إلى بنسيون صغير من النوع الذي ورد ذكره ووصفه في روايات الشرق الأوسط، على أنها شقة بسيطة وسيئة السمعة. (١٦) كانت الشقة تبدو بنسيون أمير، فعلى الرغم من حالتها الرثة، فقد كانت تحتفظ بظلال وأسرار منحت أحد ضيوف كفافيس انطباعات عن شقة سكنها "بطل من حكاية أسطورية من حكايات الكاتب الألماني هوفمان". (١٧) وفي رواياته، قدم دوريل مبلغ الإيجار إلى "بالتاسار"، غرفة أبلتها تقلبات الزمن، بها كرسي خيزران له صرير شديد مستمر طوال الليل، وهي المكان الذي تلا فيه

شاعر المدينة العجوز قصيدته "البربر" ^(١٨) The Barbarians؛ وقدم له أيضا نفس المدى المتسع من الحوار الذى وصفه فورستر فى بداية لقاءاته مع الشاعر بقوله: "تحدث بالناسار Balthazar باستطراد (وهو شبه نائم) من نشاط عمون Ammon ملك مملكة هاربون Harpoon Kingdom ومعاركهم، أو الخمر المريوطية، والتى أشار إليها الشاعر الرومانى، وليس التاريخ، وجعلها سببا فى اعتلال مزاج الملكة كليوباترا. ^(١٩) وقد آلت الشقة مؤخرا إلى القسم الثقافى فى القنصلية اليونانية، وتم تحويلها إلى متحف لتحقيق أهداف نبيلة، رغم أنه يجب عليك أن تنظر إلى الصور القديمة بها لتستعيد العبق العربى البيزنطى الذى كانت تتمتع به خلال فترة حياة كفافيس. فلون الجدران بين أحمر وبنفسجى زاه، وقد أعيد طلاؤها باللون الأبيض أو بلون فاتح، كما بدا مكتبه، وسريره، وبعض قطع أثاثه على قدر من الأناقة والترتيب فى غرف غير مناسبة، وبدا قناع موته يستند وسادته مثل كرنبة رائعة فى سوق فلاح.

كان كفافيس يخصص الصالون الأحمر الصغير المؤدى إلى الشرفة للخاصة من زواره، وفى هذا الصالون ذات مساء، رسم فوستر على قصاصات من كتاب مدرسى باليونانية، "يتبع" "الرب تخلص عن أنطونيوس" "The God Abandons Antony". القصيدة التى قُدر لها أن تصبح محور ارتكاز فى كتاب فوستر: "الإسكندرية: تاريخ ودليل" Alexandria: A History and a Guide، تحكى قصة بلوتارك Plutarch فى تلك الليلة التى سبقت معركة أنطونيوس الأخيرة ضد أوكتافىوس "سمع صوتا موسيقيا رائعا ينساب فى وسط المدينة باتجاه البوابة الخارجية، والتى تؤدى إلى معسكر العدو." ^(٢٠) لقد كان الإله ديونيسيوس الذى أحبه أنطونيوس وبادله الحب، ومر على طريق كانوبى نحو بوابة الشمس. وفى قصيدته، يستبدل كفافيس كلمة دايونسيوس أو هرقل فى مسرحية وليام شكسبير التى تحمل

عنوان "أنطونيوكليوباترا" Antony Cleopatra بكلمة الإسكندرية، مشيراً إلى أنه كان بالمدينة دائماً "قوة تشبه قوة الرب تنقل العقول الفانية مستخدمة تصورات شعرية لذاتها". (٢١)

وكان دوريل حينئذ يتبع الموسيقى الراحلة عن المدينة ناحية الشرق، والتي تتخذ نفس الطريق القديم الذي كان يعرفه باسم شارع فؤاد إلى كافيس وفورستر بشوارع "روزييتي، لكن تغير اسم الشارع أثناء حكم الزعيم "جمال عبد الناصر" مرة أخرى حتى أصبح يحمل اسم شارع الحرية، ثم سرعان ما جاءوا إلى شارع باسترويس، وهو المقهى الذي يذهب إليه نسيم وبلتزار لتناول مشروب عرق التمر، وذلك حسبما جاء في رباعية داريل. وبدأت علاقة دوريل وإيف في هذا المكان في عام ١٩٤٣. وعن ذلك تقول إيف: "لقد أحسست وكأنني ممسوسة. وبهذه الطريقة أستطيع أن أقول = إنني لم أعد كما كنت، فلم يكن لدى ما أقوله في الأمر. كان أمراً محسوساً، كما أن لاري كان يحس به أيضاً مثلي، إذ كان غراماً متبادلاً. وهذا هو ما يسمونه "الحب من أول نظرة".

وفي مكان يبعد قليلاً، وبالتحديد في ٦٣ شارع الحرية أمام مبنى البلدية، تقدم دوريل بطاقم إذاعة الـ"بي بي سي" ومر على مبنى جميل من الشقق حيث كانت امرأة أخرى عاشت خلال تلك الفترة التي قضاها بالمدينة، وذلك على الرغم من أنهما لم يتقابلا في الإسكندرية (٢٢)؛ وإنما مرت عشر سنوات بعد الحرب وقبل أن يتقابلا أول مرة في قبرص بينما كان ما زال مشغولاً في كتابه جوستين Justine. ثم كتب إلى ميللر في عام ١٩٥٦ يقول: "لقد أصبت بنوبة حزن شديدة، وفنور بعد رحيل إيف مع ابنتنا، والتي افتقدتها كثيراً، إلا أن الحظ ابتسم لي وأهداني فتاة جميلة من فتيات الإسكندرية وقعت بين أحضانى ومنحتنى القوة الكافية للاستقرار والانتهاء من الكتاب". (٢٣)

كانت هذه الفتاة هي كلود فينسدون، زوجته الثالثة وعلى حد قوله: "أفضل امرأة تزوجتها"^(٢٤)، وهى فتاة تنتمى إلى واحدة من أغنى وأشهر العائلات فى الإسكندرية. وقد طافا معا فى خيالاتهما أرجاء المدينة التى عاش بها من قبل مع إيف، ولكن من خلال كلود دخل مملكة إعادة الاستكشاف، حيث ساعدته ليعيد كتابة كل من المدينة وقصة حياته- تقول له: "أتعرف، يا ديرلى، أردت أن أقوم بعمل يشبه إعادة ترتيب المدينة لك حتى تستطيع أن تعود إلى الصورة لتراها من زاوية أخرى، فتشعر بالراحة والاسترخاء."^(٢٥)

وانتقلا من قبرص إلى فرنسا ليعيشا فيها، هناك حيث كان إلهامها له هو السبب وراء استكمال رباعيات جوستين "Quatret-Justine" التى طبعها فى عام ١٩٥٧ إلى جانب كتاب بالتاسار Balthazar وكتاب موننتو أوليف "Mountolive" الذى طبع فى عام ١٩٥٨ وأخيرا كتاب كليا "Clea" الذى طبع فى عام ١٩٦٠ فى حين وضع الكثير من جوانب شخصية إيف فى روايته جوستين، وضع بنفس الطريقة الكثير من شخصية كلود فى عمله "كليا". كما أهدى لها الكتاب أيضا بقوله: اسمها هو "اسم الروح التى تحرسني". ويبدو هذا الإهداء كعبارة مقتبسة من ذلك المطبوع على المجلد الثالث بعنوان "Mountolive".^(٢٦) ومع حلول أعياد الميلاد لعام ١٩٦٦، نُقلت كلود إلى المستشفى وشخص الأطباء حالتها بأنها تعاني من التهاب بكتيرى يمكن أن تتعافى منه، وفى أول يوم من أيام العام الميلادى الجديد توفيت كلود على إثر إصابتها بسرطان الرئة، ورحلت كلود تاركة دوريل، حسب وصفه هو، "شاردا فى غموض هائل"^(٢٧)، إلى الحد الذى خشيت أسرته من أن تتعرض قواه العقلية لمكروه.

وقبل شهرين من عودته إلى الإسكندرية فى عام ١٩٧٧، كان دوريل قد طلق زوجته الرابعة، السيدة غيسلين دى بويسون Ghislaine de Boysson، وهى عارضة أزياء فرنسية. لم يدم زواجهما طويلا، وقد اعترف دوريل بأنه كان زواجا موصوفا بسوء الاختيار من البداية، ولكنه أثر فى حالته المزاجية: "لقد مرت بسنة كئيبة، تضمنت وقوع الطلاق وكل ذلك."^(٢٨) وبعد أن أصبح عمره خمسا وستين

سنة وبعد أن أصبح وحيدا، عاد دوريل إلى المدينة التي شكلت حياته، وكانت قصيدة "المدينة" هي قصيدته المفضلة من بين قصائد كفافيس^(٢٩) التي قام بترجمها ووضعها في نهاية كتابه جوستين Justine.

أراد المخرج بيتر آدم من دوريل على وجه الخصوص أن يكتشف المنزل الذي قضى فيه حياته خلال الحرب، وبالرغم من أنه نسي العنوان، فإنه كان يعلم الطريق إلى الشوارع بما يكفي. ولكن قبل وصوله إلى بوابة الشمس المختفية، التفت لليمين إلى شارع نيروتسوس، ثم حول الإستاد وإلى الطريق الرئيسي المؤدى إلى القاهرة، حيث الدخول إلى شارع محرم بك المجاور في جنوب المدينة، عندها وبالصدفة عثر على المنزل القديم رقم ١٧ (وهو حاليا رقم ١٩) بشارع المأمون.

تبدل حال دوريل واعتزته حالة من السعادة والسرور، وأحس فجأة كما لو أن السنين لم تمر وأن عجلة الزمان قد عادت إلى الوراء، فصاح وهو يندفع إلى درجات السلم: "هنا جلسنا نتناول العشاء"، ثم قال وهو ينظر إلى الحديقة "وهناك، كان ذلك الإستديو الخاص بالسيدة التي تمتلك المكان، وهو الإستديو الذي كانت تعمل به "كليا"^(٣٠)، وهو يتذكر أمليا أمبرون وصديقتيها كليا بادارو، الرسامة التي كانت أيضا نموذجا لشخصية كليا التي قدمها في رواياته، ويقول: "بالتأكيد إنها أغرب مشاعر أجد فيها نفسي بعد نحو أربعين سنة مضت في هذه الحديقة الغربية التي يمتلكها مهندس معماري إيطالي، وفي هذه الحديقة وفي البرج الصغير الذي قمت بإصلاحه في سقف البيت ونظمت فيه قصيدة Prospero's Cell إلى جانب عدد من القصائد الأخرى في عملي الصورة الشخصية "Personal Landscape"، وعشت سنتين ونصف السنة في هناء وترف وحياة مرفهة في الإسكندرية في أثناء الحرب. وقد كانت فترة رائعة للكتابة، بمعنى أنه رغم ظروف الحرب كانت لحظات تطلق طاقات الفكر حول ما سوف تكتبه، فلا يوجد مستقبل مرتبط بأى شيء يفعله الإنسان. ولكن ربما يكون جيدا من ناحية كونه قد كنف حياة المرأ وأجبره على أن يؤدي ما يجب عليه فعله دوما، وتحديدًا ألا يفكر في أمر الغد، بل يعيش يومه فقط."^(٣١)

تعاقبت الذكريات فى ذلك اليوم عليه، كما لو أنه فتح حافظة مليئة بالأوراق والصور والأغلفة، وتذاكر السينما، صورة النُقْطت (البواب مصر، "مثل عيش غراب ضرير يجلس على كرسيه" ^(٣٢)): إلى جانب "أكوام من الأوراق القديمة أو تذكرة أوتوبيس أو تذكرة دخول متحف الإسكندرية ملتصقة بكتاب يروى حكايات السنين التالية حتى تتذكر أجزاء كاملة من أمور جدية بالكتابة عنها" ^(٣٣). ودعتهما السيدة "عفت ناجي" الساكن الحالى للمكان، التى ينظر إليها بيتر آدم على أنها (شخصية بالغة الجمال والروعة" فهى مزيج يجمع ما بين أنيس نين Anais Nin وإسحاق دينزن ISAK DINESES)، ^(٣٤) دعتهما إلى اجتماع فى ذلك المساء، وتمتلى غرفة الجلوس لديها باللوحات التى رسمتها هى وبعض اللوحات التى رسمتها كلى، التى تقول عنها لدوريل: إنها توفيت سنة ١٩٦٨ إثر إصابتها بمرض سرطان الثدي.

وسرعان ما شاع الخبر فى أنحاء الإسكندرية بأن الكاتب الشهير لورانس دوريل موجود بالمدينة. وفى عشاء آخر، دعا إليه أدهم نجيب وزوجته الإنجليزية تاليا فى فيلتها المقابلة لنادى سبورتنج، لاحظ بيتر آدم أن "لارى مثير جدا ومأخوذ بسحر وأناقة النساء الفرنسيات واليونانيات واليهود الأصليين، وهو ما يعتبر الناتج الحقيقى للإسكندرية الذين ورد ذكرهم فى الرباعية the Quartet ^(٣٥). وقد انصب جل اهتمام هؤلاء الأفراد على أن يعرفوا من المؤلف من هم الذين اشتركوا فى رواياته. يقول دوريل: "لقد كانوا مزيجاً رائعاً" رغم اعتراف دوريل بأن مدى هذه الشخصيات لم يكن واسعاً. ويتابع قوله: "فعدد الناس الذين يقابلهم المرء فى الحياة ليس بالكبير - أعنى الأفراد الذين يتركون بصمتهم عليك" ^(٣٦). ثم ركز بصره على فتاة شعرها كستنائى غامق وعيناها لامعتان تفيضان حيوية، هذه الفتاة اسمها "لوسيان ذليل" وتتحدث من أصول يونانية أرمنية، وأضافها إلى مجموعة يعتبرها تحمل نفس صورة جوستين.

غير أن دوريل، الذى يكره المناسبات الاجتماعية، قد ترك انطبعا فى نفس الآخرين مفاده أنه لا يعيرهم أدنى اهتمام. إذ تعلق على ذلك تاليا بقولها: "لم يكن لطيفا بشكل خاص، ولم يكن لطيفا مثل بيتر آدم والآخرين معه"، بينما قال دوريل لآدم بعد ذلك: "إن جمال تلك السيدات يأتى نتيجةً لضعف فى نسبة ذكائهن، فهو أشبه بممارسة الحب مع قطعة كريم شانتيه^(٣٧). وكان يعيد الحديث عن موضوع قديم، مثل قوله لميلر بأنه لم يكن هناك ما هو أجمل ولا أنقى خلال الحرب من الفتاة الإسكندرانية، ففراغهن هو دلال. تخيل أنك تمارس الحب مع فراغ".^(٣٨) إلا أن موقفه من النساء كان شبيها باستجابته للإسكندرية، إذ كان موقفا ملينا بالتناقض والتضاد دائما، كما كانت إشارات لا تضيف كثيرا عن اللحظة، بل كانت تشير إلى الكثير من خيبة أمله فى الحياة فى علاقاته بالسيدات اللاتي كن يتركه أو يمتن بين يديه ويتركه يغوص فى بحر الأحزان.

وبعد خمس سنوات من عودته للمدينة، تحديدا عام ١٩٨٢، كتب دوريل فى مقدمته للطبعة الأولى لكتاب فورستر: الإسكندرية: تاريخ ودليل " Alexandria : A History and a Guide" يقول "لقد غاصت الإسكندرية ثانية فى غياهب النسيان، ولا بد أن يُغفر لى إذ وجدت أن المدينة الحالية كئيبة ولا تحتل".^(٣٩) ولكن حينما كان هناك، بدا له وكأن الإسكندرية ما زالت صورة تترجرج. وبعد لقائه بلوسيان، كتب إلى ميلر بأن للإسكندرية فضلا عليه فى أنها أوتته إلى جوستين، لتثبت بأن شجرة الورد العجوز لا تموت"^(٤٠) وعلى ظهر الصورة كارت لسيسل كتب عليه لصديقه القديم، آلان توماس، فى لندن يقول: "ما أدهشنى كثيرا هو أنه لم تحدث الكثير من التغييرات على مدينة كفافيس وما فيها، كل نواحي التناقضات الساحرة حارة جدا بالجنس، مثل شريحة لحم مشوية، صورنا فى حديقة مهجورة من الأمبرونز حيث قضيت آخر سنتين من سنوات الحرب - وهو جمال شعرى غريب

أشبه بفيلا كليوبولوس فى جزيرة رودس Rhodes، آه من غدر الذاكرة، لقد نسيت كثيرا من جراء كتابته! (٤١)

لم يكن دوريل وحده هو الشخص غير الحاسم فى استجابته تجاه الإسكندرية، بل كانت تلك سمة يتصف بها كفافيس وفورستر أيضا. ولكن المدينة كانت تطاردهما، فالمدينة العالمية قد أعيد تشكيلها على خيوط هشة من الذاكرة. وعلى عكس مدينة روما أو أثينا وما تحويان من آثار عديدة، فإن مدينة الإسكندرية تحمل الكثير من الخصوصية، فيها (بعض الأماكن) مثل قبر الإسكندر الأكبر، كما أنها المدينة التى شهدت قصة الحب بين كليوباترا وأنطونيوس، وهى المدينة التى توجد بها مكتبة الإسكندرية، والقيصرية وغيرها من الأماكن - ولم يتبق شيء تقريبا على نحو مادى هناك. ولو كانت الكثير من الآثار قد بقيت بها إلى يومنا هذا، لما كانت لتلح عليك بهذه الصورة، وإنما الخيال يتركك للأحلام، وتصير الأحلام بالنسبة للبعض ملموسة ومحسوسة وحقيقية - "فالمدينة التى نتصورها (وإن كانت كلها حقيقية)، تبدأ وتنتهى فى صدورنا، وتستقر جذورها فى ذاكرتنا". (٤٢)

أما الجذور فترجع إلى الحضارة الغربية ذاتها، إذ أتى على مدينة الإسكندرية زمان كانت فيه مركز العالم الهيلينى، كعبة الفنانين والشعراء والعلماء يقصدونها من كل أنحاء دول البحر المتوسط، وتجذبهم إليها الرعاية الملكية للبطالمة وسط بيئة من اليونانيين واليهود الهيلينيين وكذا المصريين. فكثيرا ما كانت تحمل فنونهم مرحا ودعابة، وكانت صورهم التى أصبحت بالية فى الوقت الحالى، صورا أصيلة فى ذلك الوقت، إذ كانت تحمل كما يقول فورستر: "حركات سريعة ومشاهد وعيون، وأثناء وصدور، كلها نشأت فى الإسكندرية"، كما فى المقطع الشعري المزين للجدران الذى يحمل تلميحات وإشارات تُصف أحد أمراء المكتبة الأوائل بالتالى:

”من الذى نحت الحب وأقامه بجوار الخوض،
ظانا أنه بالماء سيطفى مثل هذه النيران؟“^(٤٣)

لقد احتفظت المكتبة بالتراث الأدبى لليونان ومنحت الوظائف لأعظم شعراء العصر الهيلينى: نذكر منهم على سبيل المثال ثيوقريطيس والذى وصفه خلفاؤه بأنه هوميروس مرسم الإسكندرية، والذى أظهرت قصيدته الرعوية الخامسة عشر صورة حية للحياة اليومية فى المدينة، وكذلك الشاعر أبولونيوس Apollonius من جزيرة رودس والذى مثل نموذجا للشاعر الرومانى فيرجيل والشاعر كليماخوس Callimachus الشهير بقصائده الساخرة والذكىة، والشهير أيضا ببعض قصائده الأكثر تأثيرا والمكتوبة باللغة اليونانية.

وكان المتحف، الذى كانت المكتبة جزءا منه، بمثابة إسهام فكرى بالغ الروعة للبطالمة، فقد كان المتحف يضم قاعات كبيرة وفسيحة للمحاضرات، ومختبرات علمية ومراصد فلكية، وصالات للطعام، وحديقة عامة وحديقة حيوان. لقد كان المتحف فى الإسكندرية أشبه بجامعة، إلا أن أساتذته وعلماءه وأدباءه كانوا يقدمون على التعليم فى المتحف طواعية. وكان من بين الرياضيين والعلماء الذين تعلموا فى ذلك المتحف، العالم الرياضى إقليدس الذى أثبت فى نظرياته الرياضية وفى الهندسة المستوية والفراغية الكيفية التى يمكن من خلالها توليد المعرفة من الطرق المنطقية وحدها، كما كان العالم إراتوستينس Eratosthenes، الذى حدد قطر الأرض، من العلماء الذين حضروا إلى متحف الإسكندرية، وكذلك العالم الفلكى أرسطاخوس ساموس Aristarchus of Samos الذى سبق الفلكى ”كوبرنيكوس بنحو ١٨٠٠ سنة، وهو صاحب نظرية مركزية الشمس للكون، إلى جانب الطبيب إيراسيستراتوس Erasistratus الذى كان قد أوشك على اكتشاف الدورة الدموية وكان أيضا أول من قام بالتمييز بين أعصاب الجهاز الحركى والجهاز الحسى.

فيما بعد، وخلال العهد الروماني، ازدهرت الفلسفة ، حتى إن الأفراد هنا، هؤلاء القاطنين بين الصحراء والبحر، بحثوا في قضايا الكون بطريقة لم يعهدها أحد في مصر من قبل، وذلك رغم أنهم لم يشككوا في وجود إله للكون كما فعل الفلاسفة السابقون في اليونان. وهكذا نشأت في الإسكندرية وتطورت بها العديد من المسائل الفلسفية التي كان من بينها الأصول اللاهوتية للمسيحية المبكرة ومحاولة الربط على المستوى الفكري بين ما هو بشري وما هو إلهي من خلال الأفلاطونية، أو الربط على المستوى الروحاني من خلال الحب.

ولقد ساعدت جيوش كثيرة قبل الغزو العربي لمصر في عام ٦٤٠-٦٤٢ على تدمير ما تحمله المدينة من حيوية، إلا أنه بالتأكيد على مدى ما يقرب من ١٢٠٠ سنة، تراجعت المدينة كثيرا، فأصبحت قرية بائسة يقطنها خمسة آلاف نسمة عندما رست سفن نابليون على سواحل المدينة على مقربة منها عام ١٧٩٨. ويعتبر حفر ترعة المحمودية في عام ١٨٢٠ في عهد محمد على هو الأمر الذي أعاد الحياة إلى الإسكندرية من جديد. ومحمد على، كما نعلم، هو الحاكم الطموح والمغامر العثماني الذي كان ميالا للحضارة الغربية والذي ينحدر من شمال اليونان، ونصب نفسه حاكما على مصر بعد أن أجبر نابليون على الانسحاب من أمام نيلسون. فقد أسهمت الترعة التي تربط بين نهر النيل وبين ميناء المدينة الغربي في توفير مدخل للإسكندرية مع الإمكانيات المعاد ترتيبها للمناطق العليا من مصر، كما أعادت مصر إلى المواجهة مع البحر من جديد. وبهدف جذب رؤوس الأموال والخبرات الأجنبية، منح محمد على أراضي الليونانيين والإنجليز والفرنسيين والأرمن والجاليات الأخرى في قلب المدينة الجديدة في توزيع الأراضي لتشجيعهم على الاستقرار. وقد عمل محمد على على توسيع الميناء الغربي الخاص به حتى جعله أكبر موانئ البحر المتوسط. وفي خلال قرن من

الزمن، تضاعف سكان الإسكندرية حتى وصل إلى نحو نصف مليون نسمة، وهو نفس العدد تقريبا الذى كان موجودا فى عهد الملكة كليوباترا. وكان أغلب هؤلاء السكان من اليونانيين والإيطاليين، هذا إلى جانب اليهود والسوريين واللبنانيين وغيرهم ممن غرسوا جذور عائلاتهم هناك. وعلى هذا النحو، فإن جميع ما يعرف حاليا بوسط الإسكندرية والساحل الشرقى باتجاه حى المنتزه، كان قد أصبح موطننا عالميا.

وقد أدت الاستثمارات البريطانية والفرنسية فى إنشاء قناة السويس، التى تم افتتاحها للملاحة الدولية فى عام ١٨٦٩، إلى تزايد الاهتمام الأجنبى بالبلاد، وخصوصا بريطانيا التى كانت مهتمة بها لتأمين طريقها إلى الهند. وفى عام ١٨٨٢، قاد الزعيم أحمد عرابى^(٤٤) - وهو مصرى عمل وزيرا للجهادية (الدفاع الآن) - ثورة شعبية ضد حكومته، عارض فيها ميولها باتجاه تركيا وأوروبا. واندلعت الثورة فى الإسكندرية، وقُتل فيها ما يربو على المائة والخمسين فردا من الأوروبيين، فرد الأسطول البريطانى على ذلك بقصف حصون ميناء الإسكندرية، فأدى هذا القصف إلى اندلاع عدة ثورات أخرى أدت إلى حرق جزء كبير من المدينة الأوربية. وعندئذ دخلت القوات البريطانية إلى مصر وتمت هزيمة أحمد عرابى، والبلد، رغم أنها من الناحية الوطنية تخضع للمصريين - أو بالأحرى تخضع فى الأساس لأبناء وأحفاد محمد على وأتباعه وخصوصا الطبقة الأرستقراطية من الأتراك الشراكسة - الذين أصبحوا يشكلون موضع اهتمام خاص لبريطانيا، وسرعان ما أعطى لهم نفوذ أكبر بعد اندلاع الحرب فى عام ١٩١٤، عندما تم إعلان الحماية البريطانية على مصر. وبعد إلغاء الحماية البريطانية فى عام ١٩٢٢، تم إعلان استقلال محدود لمصر ولكن لم تحصل البلاد على الاستقلال الكامل إلا عام ١٩٣٦، بل وحتى فى ذلك الوقت كان الوجود

العسكري البريطاني مستمرا في صورة تحالف مدته عشرون عاما. وتعتبر فترة نصف القرن من الزمان، أى ما بين عامى ١٨٨٢ وبين عام ١٩٣٦، هى ذروة نجاح مدينة الإسكندرية العالمية فقد امتدت فرص التعايش معا - والزمن يساعد في الحافز على التعايش- بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية.

ولقد مات كفافيس قبل النهاية، رغم أن رسالة الانهيار والنهاية فى أشعاره كانت توحى بذلك، ظن فورستر أن مستقبلها "شأنها فى ذلك شأن كثير من المدن التجارية الكبرى مستقبل تحوم حوله الشكوك"^(٤٥). ومع مرور الوقت، أكمل دوريل The Alexandria Quartet "رباعية الإسكندرية". ويقول: "خرجت إلى الشارع وفى نفسى ابتسامة، مرة ثانية لكنى أشكل دائرة فى الحى الذى كان لا يزال ينبض بالحياة الواقعية الساخرة للرجال والنساء... تمهلت فى خطواتى مستغرقا فى أفكارى أحدث نفسى بعبارات هذا الحى الكامل من الإسكندرية، إذ إننى كنت أعلم أنه سيطويه النسيان عما قريب ويعود لزيارته أفراد تأسرهم الذكريات التى عاشوها فى هذه المدينة، هذه الذكريات العالقة فى أذهان كبار السن مثل بقايا عطر على كم الجاكت: إنها الإسكندرية عاصمة الذكريات"^(٤٦).

لقد عرف كفافيس وفورستر ودوريل جميعا ذلك العطر: "تنشقت عبير الصيف الدافئ الذى يفوح من جسدها وفستانها - العطر الذى سميت به "أبدا فى هذه الحياة *Jamais De La vie*"^(٤٧)، ولا أدري لماذا سميت كذلك. وعلى أساس كونه مأخوذا تارة بالفشل وتارة بالعظمة، كنت أسمع لبرهة رنيناً ما بين المدينة العالمية المعاصرة وتلك المدينة التى أنشأها الإسكندر الأكبر منذ زمن بعيد على هذا الشاطئ الأفريقي.

لقد تلاشت المدينة الكوزموبوليتانية هذه الأيام ولم يبق منها أى تاريخ
رسمى، ولم يبق من وثائقها إلا بعض القصائد وبعض الروايات وبعض الذكريات
وبعض الكتب السياحية والرسائل الجامعية. إلا أنه رغم ذلك يوجد أيضا رسائل
ويوميّات وكذلك شهادات شفوية لشهود عيان بالمدينة على ما شهدته حياة المدينة
وهناك الشوارع وخطوط الترام وأساليب العمارة المتفككة للمدينة ذاتها، كلها
تستعيد ما قد مضى.

الفصل الأول

تـرـام

أتينا إلى الإسكندرية في نفس الوقت، ولكن كان هذا قبل عامين من توطد صداقتنا. رأيتك أول مرة في ربيع عام ١٩١٦ عندما كنت أقف مع فورينس في "أبو النواير". كنت في ترام "باكوس" بشريطه الأزرق، رفعت عيني عن الأرض عند مرورك بي، "رائع" هكذا ظننت، وكان الصباح منعشًا ومشمسًا."

(من خطاب "إى إم. فورستر" إلى "محمد العدل" في سبتمبر ١٩٢٢^(١))

كان الأديب الإنجليزي إى إم فورستر يقيم في الإسكندرية، خلال معظم فترة الحرب العالمية الأولى، نبت الحضارة الأوربية يترعرع في رفاة على الساحل الأفريقي، لقد كان يشك في أنها تمثل بالنسبة له ملاذًا آمنًا من الخوف^(٢)، ولكنه قدم إلى المدينة وهو يحمل معه عقلاً يحمل أعمق أحداث عمره الجسام، هناك قابل شاعرًا يونانيًا تسمه الحكمة ورقة المشاعر^(٣). رجل كان يرى التاريخ مجالاً خصباً لأفكاره وخياله، وفي وقت كانت الإسكندرية بالنسبة له ملاذًا آمنًا ونقطة ارتكاز وأداة يفتح بها طلاس الحاضر في خضم الكارثة التى تجتاح القارة الأوربية وتستأثر بالاهتمام الأكبر، "أدركت تمامًا سحر المدينة وعبق التاريخ وغموضه وقررت أن أكتب عنها" كتيبًا إرشاديا يتحدث عن نفسه^(٤)، ولكنه لم يكن كتيبًا عاديًا، بل كتيبًا يساعدك على أن تعلم الطريقة التى تُحب بها، وربما لم يكن هذا الكتاب ليُكتب أبدًا لو لم يجد فورستر لأول مرة فى حياته الطريق إلى الحب والمجون فى الإسكندرية.

كان إدوارد مورجان فورستر Edward Morgan Forster فى السادسة والثلاثين من عمره عندما رست سفينته فى ميناء بورسعيد يوم ٢٠ نوفمبر ١٩١٥، ثم ركب القطار عبر الزقازيق وطنطا ودلتا نهر النيل متجها إلى الإسكندرية، كان يتوق لرؤية مصر، ولكن خاب رجاؤه. فالمناظر الطبيعية للريف تبدو كأنها هى ذات المناظر التى رآها فى طريقه من كامبريدج إلى سبرى، والأثر الذى تتركه مناظر المحاصيل والترع والأشجار.. فتصوير المناظر مختصر من قصص ألف ليلة وليلة "لرجل زار الهند، بدا الأمر مثيرا للغىظ، فالشرق الحقيقى يبدو دائما محجوبا فى ركن قصى ترفرف حواشى ثوبه الرقيق بعبير غامض. (٥)

قبل ثلاث سنوات زار "فورستر" الهند. كانت رحلة لتلك البلاد قصيرة استغرقت خمسة أشهر ووصفها بأنها زيارة مكلفة جدا، وإن كانت زيارة ممتعة ومريحة طوال حياته، عندئذ سافر وهو فى لهفة شديدة لرحلة مثيرة للحواس وللطريقة التى أعد بها الرحلة "سيد روس مسعود"، وهو شاب غير متحفظ يفيض عاطفة قوية كان قد التقاه فى إنجلترا فى عام ١٩٠٦، كان ينتظر أن يسلك طريقه إلى أكسفورد، وقد تعهد "فورستر" أن يعلمه اللغة اللاتينية، وبدلاً من ذلك فإنه أدخل البهجة على قلب أستاذه بأقاصيصه عن عظمة المغول فى الماضى، يتذكر "فورستر": "لقد أخرجنى من ضيق الحياة فى الحى الذى أسكنه والحياة الجامعية، لقد فتح آفاقا جديدة أمامى، وتعرفت على حضارات جديدة، كما ساعدنى فى فهم قارة بأسرها" (١)، وكتب "فورستر" فى يومياته يقول "لقد تزامن ذلك مع مشاعر حب جارفة أحسست بها تجاه مسعود، رغم عدم يقينى بأن هذه المشاعر متبادلة إلا عندما تلاقينا بعد غياب طويل فى يناير عام ١٩١٣ آه..آه..آه.. وكان اللقاء ممتزجا بالموع". (٧)

سبقت زيارته للهند إصدار عدة روايات ناجحة منها "حيث تخاف الملائكة أن تحط" *Where Angels Fear to Tread* التى صدرت فى عام ١٩٠٥، والرحلة الأكثر امتدادًا *The Longest Journey* وصدرت فى عام ١٩٠٧، وغرفة تطل على مشهد *A Room with a View* التى صدرت فى عام ١٩٠٨، ثم كتابه نهاية هواريس " *Howards End* الكتاب الذى كان سببا فى شهرته الأدبية وصدر الكتاب فى عام ١٩١٠، ثم تبع ذلك فترة مجدية لم يبدع شيئا جديدا، وتفسير ذلك هو ما قاله "فورستر" فى مذكراته فى ١ نوفمبر ١٩١١ كتب يقول: "فى الليلة الأخيرة كنت وحيدا وانتابتنى ثورة شيطانية عارمة تجاه أمى لتذمرها الدائم منى وتصيدها لأخطائى، رسمت صورة قلمية قمت فيها بسحب رف الموقد بذراعى واندفعت خارجا أو قطعت عنقى، بعدها كنت أرتعش غارقا فى دمايى، كتبت ذلك على أمل أن أتبين كم هى سخيقة ومن ثم أرفض التسليم بقبولها مرة أخرى،^(٨) كانت محاولة وحيدة كتنفسير لذلك فى أوائل العام التالى وذلك عندما حل شهر نوفمبر الماضى، أدعى أنه لم يكتشف مطلقا، ولكنه اكتشف بعدها بشهور أن ٣١ أكتوبر هو ذكرى وفاة والده. فبعد ولادة "فورستر" بعامين وفى ١ يناير ١٨٧٩ توفى والده بعد صراعه مع السل فى "بورن ماوث" تاركاً أرملة فى الخامسة والعشرين ترعى يتيما وحيدا وتغدق عليه عاطفيا وبدون مشاكل مادية، كان ذلك هو أساس العطاء المتبادل والذى سيلعب دورا حيويا فى حياة "فورستر".

الرواية الشرقية التى بدأها فورستر بعد عودته الحزينة من الهند، والتى شرع فيها باسم *A Passage to India* فى عام ١٩٢٤، إذ كان يتعثر فى كتابتها مع نهاية عام ١٩١٣.

وبدلاً من ذلك بدأ فى كتابة روايته "موريس" *Maurice* والتى يدافع فيها عن العلاقات المثلية وينادى بقبولها، ومدافعاً عن شخصية "موريس" لصديق له ينتقده كتب "فورستر" يقول: "إن الرجل الذى أقدمه فى كتابى يتكلم بالكاد، طيب إلى حد

كبير ولكن المجتمع يسحقه، فهو يعيش حياته متخفياً وخائفاً يتحمل أعباء هائلة من الشعور بالذنب... لا بد أن تلوم المجتمع بدلاً من لوم موريس، وكن راضياً عندما يكون رجل ما - حتى فى رواية- قادراً على أن يعيش حياته كأفضل ما يستطيع!... إن دفاعى الأخير فى أى محاكمة نهائية على لسانه سيكون "أننى حاولت جاهداً تجميع شتات حياتى مُستخدماً كل المزايا والمساوئ التى ولدت بها".^(٩) ولكن آماله التى كانت تتجسد فى أن نشر كتاب "موريس" يمكن أن يعيد شحن بطاريات الإبداع لديه كان يحد منها إدراكه أن هذه الرواية لا يمكن نشرها حتى يموت هو أو تموت إنجلترا.^(١٠)

لم يمر الكثير من الوقت حتى قامت إنجلترا بغزو بلجيكا، وفى يوم ٤ أغسطس ١٩١٤ أعلنت إنجلترا حالة الحرب. وكما كتب المؤرخ العسكرى "تيريان": "كل اعتراضات محبى السلام، وكل الباحثين عن الأمان، وكل آمال الحرية تبددت، فلقد بدأت الحرب العالمية الأولى، ومعها بدأت كل عمليات التغير الضخمة والخاطفة والمخيفة التى عرفها الإنسان".^(١١)

كتب فورستر لصديق له بعد نشوب الحرب بشهور قليلة يقول متنبئاً: "لا تستغرق فى الرومانسية، أو تفترض أن قوميات صغيرة ومزدهرة مآلها إلى زوال، أيا كان من يكسب الحرب، فإن نتيجتها هى هزيمة الحضارة فى أوربا"، ثم أضاف مؤكداً "الأمر سواء، أنا واثق من أننا لم نكن نستطيع أن نأى بأنفسنا عن الحرب؛ لأنه كان يعتقد أن هجوم الألمان على فرنسا من خلال بلجيكا يمثل تهديداً مباشراً للأمن فى إنجلترا وكان مقتنعاً بصحة قرار إرسال الكثير من القوات المُدربة عبر القنال الإنجليزي".^(١٢)

لقد تحطم حلم الحرية، ولكنه كان يظن أن الأمر لا يجب أن يصل إلى هذا الحد، عندما كتب "فورستر" قبلها بأربع سنوات فى كتابه "Howards End" إذا

تكررت ملاحظات معينة بدرجة كافية لتصبح حتمية التحقيق، كالملاحظة التى تقول: "إن إنجلترا وألمانيا تتجهان إلى الحرب"، فى كل مرة كان يُعطى الكثير من اهتمامه للحرب (١٣)، ولما أصبحت الحرب حقيقة واقعة حل به اليأس واعتبر هذا الأمر نصراً للغوغاءية. لم يكن هناك تجنيد إجبارى بعد، و"فورستر" لن يتطوع للجندية، صحيح أنه لا يعتبر نفسه فوق مستوى عامة عوام البشر ولكنه لن يسلم نفسه لهذه الهستريا السائدة والخضوع التى تقابل بها من العامة والتى تقوم بسحق القيم الفردية تحت الغرائز الجامحة للدهماء. ولكن وعلى النقيض من رفاقه فى "كامبريدج" و"بلوم سيبري" والذين كانت عواطفهم ضد الحرب، ولكنهم يتعللون بأنه ليس فى وسعهم أن يفعلوا شيئاً حيالها، كان "فورستر" يشعر أن الأمر يعنيه، فلقد كتب فى مذكراته بتاريخ ٤ أغسطس "أشعر أن الحرب قد نشبت بسببى، فإذا مُت فإنها ستتوقف، ولكنها مستعرة لتعطيني بعض الخبرات إذا ما كنت مؤهلاً لاقتصاصها". (١٤) وكاستجابة للإحساس بالفشل الذى كان يكتنف العالم الذى يعرفه كما كان يشمل هو فى حياته الشخصية والأدبية كان قد عقد العزم على أن يجعل نفسه مفيداً على الأقل وحصل على وظيفة كمفهرس بالإضافة إلى وظيفة مؤقتة كمسئول للدفاع المدنى فى المتحف الوطنى، حيث كان يتم حفظ أكثر اللوحات قيمة، وقال لأصدقائه: إنه إذا مات ضرباً بالقنابل فإنه سيموت على وجه ملائم محاطاً بتحف فنية من الدرجة الثانية.

لقد كان شبه ميت بالفعل، قال يصف حياته فى منزل والدته فى سبرى فى أغسطس ١٩١٥: "إننى أعيش حياة فتاة صغيرة طالما كنت مقيداً بالمنزل، إنها لا تشبه أيضاً التوقف عن الكتابة لأدخل السرور على قلب أمى، فهى تريدنى أن أكون فى الخامسة من عمرى مرة أخرى، ولذا فإن الشعور بالسعادة أمر مستحيل بالنسبة لها". (١٥)

تصاعدت حدة الحرب فى إنجلترا، مع تزامن الوزع الدينى والتعطش للدماء مما أصاب "فورستر" بالإحباط، وكان واثقاً أن ذلك سيقوده فى النهاية إلى الجنون التام، وقرر فى النهاية أن كل ما يمكن أن يفعله المرء فى هذا العالم الذى أصابه الجنون هو أن يأخذ بيد الفقراء المعذبين والمطحونين فى محاولة منه لتخفيف آلام الحياة عليهم^(١٦)، كان يفكر فى الالتحاق بفرقة للمُسعفين المتطوعين فى إيطاليا، ولكن أمه كانت خائفة عليه من أخطار هذا العمل، وبدلاً من ذلك فإنه قام بتسجيل اسمه فى فرقة للصليب الأحمر بالإسكندرية كباحث عن المفقودين يقوم بسؤال الجنود الجرحى عن رفاقهم الجنود المفقودين.

وعلى الرغم من أنه مدنى ولم يكن عسكرياً فقد ارتدى الزي الكاكى، وتحمل حياة الجنود القاسية، ومع ذلك كان عليه أن يقوم بتدبير شئون طعامه وحياته عموماً. أستأجر حجرة فى فندق "ماجستيك" الذى تم بناؤه على طراز حديث ويطل على الحدائق الفرنسية التى تمتد شمالاً من قصر محمد على فى قلب المدينة، ويقول كتيب الفندق فى ذلك الوقت: "إنه يحتوى على كل وسائل الراحة والرفاهية الحديثة"^(١٧)، كان الدخول إلى فندق "ماجستيك" من شارع "رو دى ليجليس إيكوسبي" والذى كان يمتد بطول الجانب الشرقى من الحدائق ماراً بكنيسة القديس أندرو والقنصلية الفرنسية إلى الميناء الشرقى، بينما يقع على أقصى الركن الشمالى للفندق شارع "تيمبل مينيس"، وسمى باسم المعبد الذى تم بناؤه فى عام ١٨٧٣ بتمويل من "يعقوب ليفى مينيس". وما أن استقر فى الفندق كتب لأمه رسالة يطلب أن ترسل له بودة كوليفوس لتنظيف الأسنان، وأضاف "لا يمكن للمرء أن يكره الإسكندرية... لأنه من الصعب أن يكره البحر أو الصخور، ولكن فى حدود علمى لا يوجد شيء آخر فى المدينة حتى الآن، إلا أنها مدينة نظيفة تضم بشراً من جنسيات شتى ومياه بحرهما زرقاء".^(١٨)

تغيرت أسماء الشوارع، والحدائق، فما كان يسمى "بليزنت ستريب" (الشريط البهيج) **Pleasant Strip** فى عهد "فورستر"^(١٩) أصبح الآن "ميدان عرابي" توجد فيه محطات الترام بطول الشارع، أما فندق "ماجستيك" فقد تغير اسمه وشكله تماماً، وتم تحويله إلى مكاتب تجارية. مدخله مظلم، تتناثر حوله أكوام القمامة كما كان مأوى للعاطلين الكسالى، وخلفه مصعد محطم أشبه بالمشنقة، معطل دائماً أو معلق بين طابقين، ولكن الصعود إلى طبقات المبنى عن طريق سلالم درجاتها قديمة ومتهاكة ترتفع بك إلى الطوابق العليا وطرقاتها الشاهقة ونوافذ الردهات بدون زجاج، وحجرات واسعة ضخمة، لا معنى لحديثك مع السكرتيرات الصغيرات المحجبات ورغم ذلك من المظاهر التى تحيط بهن أن تجد شيئاً حولهن يذكرك بأن هذا المبنى كان من قبل فندقاً ساحراً، ولا يمكن أن يفهم من رغبتك فى أن تنظر من الشرفة للتمتع بمشاهدة المناظر المحيطة. لقد حدث تغير كبير فى الإسكندرية فى المظهر وفى طبيعة سكانها وتاريخهم الذى يفصل عن تاريخ المدينة ذاتها.

عزم "فورستر" فى بادئ الأمر على البقاء فى الإسكندرية ثلاثة شهور، ولكن مدة إقامته امتدت لأكثر من ثلاث سنوات، أكثر من مجموع زيارته للهند قبل وبعد الحرب. ومثال للتطور الذى طال فندق "ماجستيك" هو العدد الكبير من الأحياء العصرية لمدينة الإسكندرية التى عاش فيها "فورستر" إذ يمكنهم تتبع رحلة التطور الذى حدث للمدينة حتى اليوم، إنها رحلة تقليدية.

كتب منذ عقد مضى يقول فى "A Room with a View": "لقد سئمت يا سيدتى لوسى، أرجو أن نحرك يوماً من أسر الكُتَيَات السياحية الإرشادية، إنها تُرشدك بالطبع، ولكنها تلمس سطح الأشياء فقط دون جوهرها."^(٢٠) أن تسافر بدون دليل سياحي فأنت تخاطر بعدم التعرف على "الجيتو" إذا صادفتك واحدة منها ولكن لن تتاح الفرصة لمصادفة الفروق الثقافية والاجتماعية غير العادية بالنسبة لك، ربما لحسن الحظ يمكنك أن تقابل شخصاً مريباً أو شخصاً يمكن أن تحبه من حيث لا تقصد، وكلتا الحالتين حدثتا مع "فورستر" إبان وجوده فى الإسكندرية.

كانت أولى انطباعات "فورستر" عن الإسكندرية وكما روتها أمه انطباعات متحفظة وثرية إذا ما قورنت بدراسة نشرت في عام ١٩٠٩، فكل الاهتمامات العلمية والفنية والهندسية يتم خنقها بأنشطة المدينة التجارية الشاقة، وتؤكد صراحة أن الشئون التجارية، وحالة التجارة، وحركة الأسهم والسندات كانت من أساس المناقشات اليومية في الأندية والشوارع وأرصعة السفن وفي عربات الترام والقطارات، وباختصار فإن كل مكان في هذه المدينة كان يشتهر بأنه كان مكاناً للصراع بين الديانات والأعراق والعداء الشديد للآخرين وأنها الآن مكرسة بالكامل لعبادة الآلهة الجديدة المتمثلة في المال، الذي يستغرق معظم جهود وتكريس أتباعه. (٢١)

لم يكن اهتمام السائحين بالإسكندرية وافرًا، "كانوا يصلون إلى الميناء الغربى وبعد أن تطأ أقدامهم الأرض يهرولون إلى القاهرة حيث الشمس المشرقة والأمطار الخفيفة وهناك الكثير الذى يمكن مشاهدته. وهناك أيضا يقل الكلام عن التجارة والأعمال." لا يقيمون في الإسكندرية لدراسة الفن الإغريقي- المصرى، ولكن بعد قضاء يوم واحد فى شارع "شريف باشا" يهرعون إلى الجنوب، ولذلك فإن الإسكندرية كنيية فى الشتاء وهو موسم السياحة لمصر، أما فى الصيف فإن القاهرة لا تطاق حيث الحرارة الشديدة، كما أن الآلاف من الطبقات الثرية فى القاهرة اعتادوا على قضاء شهرين أو ثلاثة أشهر على شواطئ البحر المتوسط، ومن ثم فإن ذلك يكون موسم المرح لهؤلاء المصطافين وللإسكندرية أيضًا، ولكن حينما ينفق السياح بسخاء فى المدينة فإن هؤلاء المصطافين لا ينفقون كثيرًا لأنهم يعرفون الأسعار السائدة، وعادة يكون المصطافون من كبار الموظفين الذى يقضون بضعة أيام إجازة من أعمالهم فى القاهرة، وبعض رجال الأعمال الذين لا يستطيعون السفر إلى أوروبا، وبعض الفئات من أهل المشرق والذين يعودون إلى

القاهرة أكثر ثراءً، وعندئذ وحتى ولو كانت وسائل الترفيه نادرة فإن الاستحمام فى البحر هى وسيلة الترويح الرئيسية المتاحة.

وتطرح هذه الدراسة رأيها فى أسى وتقول: "إن كان هناك أمل فى التخلص من هذه المادية المقيتة والممل فمن خلال استكشاف آثار الماضى، وفى أعقاب أفول القرن الماضى تم الكشف عن أثر تحت الأرض لحمار برعى فى العشب بالقرب من "عمود السواري"، وأسفر ذلك عن الكشف عن مقابر كوم الشقافة الحقيقية، حيث قدم أبرع النحاتين براهين ساطعة فى أعمالهم الفنية فى المزج بين المعتقدات الكلاسيكية والمعتقدات المصرية القديمة وبفضل هذه الاكتشافات، يمكن فى غضون سنوات أن تكون مدينة الإسكندرية مدينة تجارية كما تكون مدينة أثرية وفنية أيضاً." (٢٢)

فى الحقيقة إن أهل الإسكندرية قانعون بتجاهل السياح لمدينتهم وذلك لإحساسهم بأنهم ليسوا جزءاً من مصر، فأحياناً يقومون بزيارات إلى القاهرة بغرض التجارة أو لأى أمر من الأمور السياسية، ولكنهم كانوا يزدرون ما يلاقونه من عنف فى سبيل البحث والوصول إلى مكان ما فضلاً عن مظاهر حادثة النعمة فى العاصمة. إن الإسكندرية مدينة لم يشيدها العرب، كما لم تكن مقراً للحاكم البريطانى فى مصر ولكن الجاليات الأجنبية تكاثفت فيما بينها - رغم تنوعها الدينى والعرقى - فى بناء مدينة الإسكندرية، فاستقرت عائلاتهم هناك، كما أن كثيراً من الأجيال التالية تشعر بالفخر والتباهى بانتمائها للمدينة. أما بالنسبة للتركيبة الاجتماعية وأوجه الحياة المختلفة فى المدينة فتستمر الدراسة للمؤرخة عام ١٩٠٩ فى الكلام بأن السكان هم خليط متنوع، تبرز فيه الطبقات الدنيا من المصريين والأجانب بشكل لا يمكن حدوثه فى القاهرة، كما أن الطبقات المتميزة كانت تعيش فى ونام وتجانس مع بعضها البعض، وسادت حالة من الرضا والتى

تُعزى غموما إلى وجود المجلس البلدى لمدينة الإسكندرية- والتي كانت المدينة الأولى فى الشرق الأوسط التى تتمتع بحكم ذاتى، فقد تم إنشاء المجلس البلدى فى عام ١٨٩٠، بينما وُجدت الحكومة المحلية فى القاهرة فى عام ١٩٤٧- وبسبب غياب جيوش الموظفين الحكوميين لم تلعب السياسة فى المدينة إلا دوراً بسيطاً فى الحياة اليومية لنفس الأسباب المحتملة". (٢٣)

فى أثناء الحرب العالمية الأولى كان عدد سكان مصر ١٣ مليون نسمة تقريباً (مقارنة بعدد السكان حالياً الذى يزيد على ٧٠ مليون نسمة) منهم على الأقل نحو مائتى ألف من جنسيات أجنبية، وإجمالاً فإن عدد سكان مدينة الإسكندرية يصل إلى نصف مليون بينما كان عدد سكان القاهرة ضعفها تقريباً، ولكنها كانت المدينة الأصغر والتى يقطنها نصف عدد الأجانب الموجودين فى مصر كلها، من بينهم ٣٠ ألفاً من اليونانيين.

ولكن حق المواطنة والأصول العرقية للمواطن لم يكونا متوافقين دائماً، كان من بين هؤلاء ٢٥ فى المائة تقريباً من بين هؤلاء الذين كانوا يعتبرون أنفسهم يونانيين، وعلى سبيل المثال لم يكونوا مواطنين يونانيين، وبنشوب الحرب فإن عدد السكان الذين كانوا من رعايا العثمانيين بمن فيهم ذوو الأصول اليونانية، والأرمنية والسوريون واللبنانيون واليهود وجدوا أنفسهم بلا وطن، أو اعتبرهم مواطنين روساً وبلغاريين وفرنساً أو من شمال إفريقيا أو مصريين. قامت بعض القوى الأجنبية- الفرنسيون خصوصاً - فى محاولة منها لزيادة نفوذها فى مصر بشراء، أو بالأحرى منح أوراق جنسيتها للبعض، بينما كان الكثير من البريطانيين من مواطنى مالطة، أو جبل طارق، أو قبرص.

صحيح أن عدد السكان الذين ليسوا من أصول مصرية أكثر مما تشير إليه الأرقام الرسمية، وربما كانت تصل إلى ما يقرب من ربع عدد السكان أو ثلثهم.

أما من حيث الدين فلم تكن المدينة أقل تنوعاً، فالمسيحيون كانوا يتمثلون في اليونانيين الأرثوذكس، واليونانيين السوربيين الأرثوذكس، والأقباط الأرثوذكس، والكنائس الأرمنية، والذين كانوا يتبعون الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وبالمشاركة مع الكنيسة الأم في روما، ثم الموارنة، واليونانيون الكاثوليك، والأقباط الكاثوليك، والأرمن الكاثوليك، ثم الكنائس الكاثوليكية للكلدانيين، ثم البروتستانت، والإنجيليون وكنائس طائفية أخرى. كان تعداد اليهود في مصر في ذلك الوقت في أثناء الحرب العالمية الأولى حوالى ستين ألفا يعيشون في المدينتين الرئيسيتين، منهم خمسة وعشرون ألفاً في الإسكندرية، وثلاثون ألفاً في القاهرة، ثلث اليهود كانوا يحملون الجنسية المصرية، كما كان خمس عددهم من الأجانب (معظمهم من الإيطاليين خاصة الطبقات العليا من اليهود السفارديم في الإسكندرية، ولكن كان بينهم يهود فرنسيون وبريطانيون)، في حين أن نصفهم تقريباً لا ينتمون لأى بلد، كما كانت المدينة تضم الكنائس والمعابد والمساجد للمسيحيين واليهود والمسلمين.

كتب "إيفارستو بريشيا" مدير المتحف اليوناني-الروماني في دليله السياحي عن المدينة قديماً وحديثاً: "ربما يميل المرء إلى الاعتقاد بأن مثل هذا التنوع في الأعراق، واللغات، والأديان والسلوكيات لا يمكن أن تضمه مدينة تكون من أساسيات خصائصها التحلى بالتسامح المطلق، والاحترام المتبادل"، وتم نشر هذا الكتاب في فرنسا عام ١٩١٤ قبل الحرب مباشرة، كما ظهرت طبعة باللغة الإنجليزية في عام ١٩٢٢.

ويرد قائلًا: "تعد مدينة الإسكندرية المثال الحى على أن الكثير من الكبرياء، والتطرف الممقوت، والغلو فى الوطنية، والكثير من التطرف الدينى يمكن أن يقل تدريجيًا، بل يمكن أن يختفى إذا ما أتيحت الفرصة لمختلف الأعراق أو الجنسيات للتعايش فيما بينهم. ويحتفظ كل منهم بعقائده ومبادئه وتقاليده الاجتماعية والأخلاقية، وفى نفس الوقت يتبادلون الاحترام، ولا يدعى أحد منهم أنه صاحب أفضل العقائد والمثاليات أو الادعاء بأن عقيدته المثالية يجب أن تكون السائدة". (٢٤)

فى المنطقة الخلفية لبحيرة مريوط حيث تمتد مصر وحيث تقع مدينة الإسكندرية والتى تضم مختلف الأجناس منعزلة، كما يُذكر عنوان الكتيب الإرشادى قُراءه (إن المدينة فى مصر ولكنها ليست منها)، وهو تعريف ينطبق عليها قديمًا وحديثًا بنفس المقدار، ففيها يتعلم الرعايا الأجانب بعض العبارات العربية الخاصة بالمطبخ، وذلك حتى يمكنهم التفاهم مع الطهاة والخدم المصريين، ومع ميدان محمد على وبامتداد شارع شريف باشا فى وسط المدينة، وباتجاه الشرق بطول شارع "روسيتي" أمام الحى الأنيق للمربع السكنى الخاص باليونانيين، وخارج الحى تقع الفيلات الأنيقة لمنطقة الرمل، يسهل أن تجد مغسلة مصرية ولكن يصعب أن تجد متجرًا واحدًا لمصرى.

وباستثناء أقلية من السكان الغربيين والمصريين الأثرياء، فإن السكان الأصليين للمدينة وهم الأفقر والأكثر عددًا يعيشون فى المنطقة الغربية من ميدان محمد على فى الحى التركى القديم جنبًا إلى جنب مع الطبقات الدنيا من الأوروبيين فى الشوارع الضيقة المكتظة بشقق الإيجار وتجاه "عمود السواري" إلى الجنوب الغربى، حيث موقع "راكوتيس أو الإسكندرية القديمة" مساكن المصريين من خفر السواحل ورعاة الأغنام كانت معروفة للإسكندر الأكبر عندما قام بتأسيس مدينته

العالمية على شواطئ قارة إفريقيا في عام ٣٣١ ق.م، وكما كان الأمر بالنسبة للمدينة اليونانية القديمة قام هو أيضًا بإعادة إنشاء الإسكندرية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، السكان الغرباء عن المدينة كانوا يتكونون من المصريين البسطاء الذين هجروا محط رؤوسهم وجذبتهم المدينة تحت إغراء النشاط الاقتصادي لمؤسسى المدينة القادمين إليها من وراء البحار، والذين لا يقاسمونهم خلفياتهم الثقافية إلا بالكاد.

كانت نظرات مدينة الإسكندرية تتجه صوب البحر، كما أنها مدينة تنتمى إلى البحر الأبيض المتوسط شأنها شأن مدينة "تابلز"، ومدينة "جنوه"، ومدينة "مرسيليا"، و"أثينا"، ولقد أصبحت اللغة الفرنسية هى اللغة السائدة فى مطلع القرن العشرين، ثم سادت اللغة الإنجليزية إلى حد ما فى فترة تالية، ولكن كما يمكن أن تلاحظ على الشواهد الحجرية للمقابر القديمة كانت اللغة الإيطالية سابقًا هى اللغة السائدة ولا زالت حتى الآن مسميات مثل "روب فيشي- ملابس قديمة"، "والزجاج القديم" وهى نداءات وصيحات لباعة الروباكيا فى شوارع الإسكندرية.

كان اليونانيون يشكلون القاسم الأكبر من الرعايا الأوروبيين فى الإسكندرية يسيطرون على مجال محلات البقالة بما يملكونه من مهارة وطاقة فى هذا المجال، بالإضافة إلى الصناعات الغذائية، وصناعة المشروبات الغازية، والمشروبات الكحولية والسجائر وحلج وتصدير القطن، ولكن بناء المدينة كانوا إيطاليين وهم من المهندسين والمعماريين الذين ساهموا فى إنشاء مدينة الإسكندرية الحديثة.

كتب الرحالة "دوجلاس سلادين" فى عام ١٩١٠ وهو يصف المدينة التى ولدت من جديد بعد الحرائق التى حدثت من جراء أعمال الشغب والقصف البريطانى بالقنابل فى عام ١٨٨٢:- "ربما استوحيت فكرة الشوارع فى المنطقة

من الميناء وحتى محطة السكك الحديدية من نظيرتها في مدينة "نابلس"، وفي الواقع فإن الشوارع قد تم استيرادها من الخارج، فبلاط رصف الشوارع تم استيراده من صقلية وشمال إيطاليا، هناك ميناءان في الإسكندرية يفصل بينهما شريط من اليابسة، هذا الشريط كان عبارة عن الطريق المُعبَد الذي شيده بطليموس ويسمى بالهيبستاديون Heptastadion وهو الميناء الشرقي وهو خليج دائري يتميز بالجمال والروعة التي كانت تكبر حوله مدينة "إسكندرية" الجديدة وتضارع مرة أخرى مع خليج نابلس.

كان الميناء الغربي (Eunostos) أو الميناء الآمن لقدامى الإغريق، هو الميناء التجاري الذي كان يعج بالنشاط على غرار ميناء "جنوة"، والذي كان بالكاد يمكن أن يتسم بسمات الحياة الشرقية على مينائها مثيلاً لما يمكن أن يتسم به أي ميناء إيطالي^(٢٥)، بينما كان بطول ترعة المحمودية التي تجاور جنوب المدينة، تُعطى الفيلات المتهمة التأثير البهيج لتلك التي كانت منشأة على بحيرة فينسيا، والتي كانت تضم قصوراً تحيط بها الحدائق إذا أمكن فقط أن تكون حولها مساجد.^(٢٦) وباختصار يعتقد "دوجلاس سلادين" أن الإسكندرية هي مدينة إيطالية: فنباتاتها جاءت من إيطاليا، وفيها زهور برية، كما أن المناخ فيها يماثل المناخ في إيطاليا تقريباً، هبوب رياح وأمطار، وأيضاً سماء زرقاء تتسم بالتقلبات العنيفة، شوارعها أشبه بالشوارع الإيطالية، كذلك اللغة الإيطالية هي اللغة السائدة، وحتى أطلالها من الأطلال الرومانية، فإذا لم يكن من أجل جامع قايتباي، حيث كان يجب أن تكون "فاروس"، وبعض المنارات المتناثرة في الشريط الذي يمثل الإسكندرية القديمة بين القلعتين، فلا يمكنك أن تُصدق أنك في مدينة إسلامية".^(٢٧)

لكن الآثار الملموسة لمدينة الإسكندرية التاريخية والتي كانت شاهدة على مركزها في وسط الحضارة الغربية غير موجودة بالكامل تقريباً، ومع ذلك فإن

خيال الماضى ينبعث من صورة الإسكندرية لدرجة غير عادية، كانت روما والقسطنطينية وهى المدن المنافسة لها فى الماضى كانتا دائماً مأهولتين منذ العصور القديمة وتحفظان بآثارهما كذاكرة تاريخية ملموسة، ولكن إسكندرية البطالمة تم زيادتها بالبناء عليها بواسطة الرومان والبيزنطيين ثم فى سنوات أفولها بواسطة العرب وتم فيها إعادة استخدام الأنقاض الأثرية فى عملية إعادة البناء، طبقات من الأنقاض التى تكونت عبر القرون قبل أن يتم هجر هذه المواقع كلية فيما عدا المدينة التركية قبل أن تطمر طبقات الغرين الطريق المُعبد والذى كان يطلق عليه (Heptastadion)، والذى لم يلق الاهتمام فى الماضى سواء بإلغائه كلية أو الحفاظ عليه، والذى كان فى يوم من الأيام مرصوفاً بالرخام اللامع الذى يخطف بريقه الأبصار حتى إن الفرسان العرب بقيادة عمرو بن العاص كانوا يضطرون إلى حجب عيونهم عند دخولهم المدينة فاتحين فى عام ٦٤٢م، أما نابليون فلم يجد غير "عمود السواري"، وهى مسلة "سيزاريم" (كليوباترا)، وبعض الأعمدة والنقى ربما كانت تُشكل جزءاً من الجنائز يوم القديم وجانباً من الحائط الرومانى على الشاطئ الشرقى لا تزال آثارها باقية أعلى من مستوى الأرض، ولذا فإن الإسكندرية تبدو وكأنها مقبرة ضخمة وصامتة.

صاحب إعادة إنشاء المدينة تطورات سريعة، وكان على "إيفارستو بريشيا" أن يعترف فى كتيبه الإرشادى أن إسكندرية اليوم مُتهمة بإهمال الآثار الباقية من ماضيها التليد وتجاهلها، ففى نشاطهم المحموم لرفع الأنقاض والبناء تسببوا فى تحطيم العديد من الآثار الثمينة أو طمرها ربما للأبد،^(٢٨) أغلب الاكتشافات التى حدثت بينما يقومون بالحفر من أجل بناء الإنشاءات كانت بالطبع بطريقة عارضة، ولكن وعلى أية حال وكما يوضح "إيفارستو بريشيا" هنالك بعض المؤشرات الدقيقة التى تُحدد منهج التنقيب عن الآثار: "على قدر التدمير الكامل لصروحها

وعدم التأكد من الطبوغرافيا أو السمات السطحية للمدينة، فإن الإسكندرية ولسوء الحظ تتال قصب السبق في العظمة عن أى مدينة أخرى فى العالم القديم^(٢٩) هناك أوصاف لمعاصرين، أكثرها شهرة وتفصيلاً هى تلك التى أوردها سترابو^(٣٠)والذى زار المدينة فى القرن ٢٤ قبل الميلاد، ولكن على الرغم من وصفه للمعابد والآثار والقصور، فإنه كان دائماً من المستحيل تحديد مواقعها بالضبط، لدرجة أنه حتى الآن فإن الموسييون الشهير والمكتبة وأيضاً مقبرة سوما ومقبرة الإسكندر كلها تبدو عصية على خبراء الآثار، كما أن تحديد أماكن وجود بقايا هذه الآثار هو نوع من الرجم بالغيب.

وليس هناك مدينة فى العالم لها هذا الشكل الواضح والدائم: سلسلتان من تلال الحجر الجيرى تمتدان بالتوازي مع طول الشاطئ، السلسلة الداخلية تحمى الإسكندرية وتثبتها ضد ترسبات الطمى فى مصر، أما السلسلة الخارجية فتعمل حاجزاً للأمواج المتلاطمة كما تُشكل ميناء للسفن. إنها ملامح خالدة و لا مثل لها فى مصر والتى ربما لو عاد الإسكندر للحياة لكان فى مقدوره أن يتعرف على المدينة. ويُخبرنا "بلوتارك Plutarch" لقد تم بناء مدينة الإسكندرية هنا فى هذا المكان نتيجة حلم رجل أشيب وقور انتصب واقفاً يتلو عبارة من الكتاب الرابع لملمحة الأوديسا The Odyssey جزيرة فى بحر هائج، يسمونها "فاروس" تمتد بعيداً عن مصر.^(٣٠)

فى صباح اليوم التالى استيقظ الإسكندر من نومه وقام بزيارة جزيرة "فاروس"، فرأى بعينه المزايا الطبيعية للمكان فقال إن "هوميروس" Homer إضافة إلى سماته التى تثير العجب، فإنه معمارى ثاقب النظر، وأمر بتشييد مدينة إغريقية رائعة أهلة بالسكان هناك وتحمل أولاً اسم الإسكندر.

الإحساس بالوجود فى الحاضر والذى يأخذ شكل الماضى ولا يزال يعيش حتى اليوم بينما تذرع الطريق الرئيسى للمدينة، والشعور بأن الأرض تميل برفق كلما أوغلت بعيدًا تجاه الميناء الشرقى، وأنت تتبع للحافة الداخلية للمنحدر طوال الطريق القديم، "الطريق الفخاري" Canopic Way. الأبحاث المنهجية التى تم إجراؤها فى القرن التاسع عشر كتلك التى قام بها "محمود الفلكي"، و"د. تاسوس نيروتوسوس" والتى تتعلق بتخطيط الشارع فى المدينة القديمة وعلاقتها بالمدينة الحديثة، وذلك عندما تساءل "إيفارستو بريشيا" فى مقدمته التى أورها فى كتيبه الإرشادى عما أضحت إليه المدينة صاحبة حيث لا يوجد عاطل واحد، وحيث هناك الفنانون، والشعراء، والفلاسفة، والنقاد الذين يصقلون مواهبهم الراقية، وحيث الميل إلى جنى المكاسب يتساوى مع حبهم للمرح والسعادة، وحيث النساء بقدر ما هن جميلات بقدر ما هن ضعيفات ومنقادات،^(٢١) ينتابك الشك أنه يعتقد فى إمكانية إعادة اكتشاف نفسه فى شوارع هذه المدينة العالمية.

أما بالنسبة "لفورستر" والذى جاء فى أعقاب الكارثة، فإن مثل هذه الأفكار كانت بعيدة جدًا عن مخيلته. أصبحت الإسكندرية فى إبريل ١٩١٥ مركزًا للعمليات الحربية للموقعة التى جرت فى "جالبولي" بتركيا والتى انتهت نهاية كارثية للحلفاء، والتى كانت تهدف إلى تخليص مضيق الدردنيل من قبضة تركيا وتهديد القسطنطينية، وابتداء من الإبرار الأول على خليج "جالبولي" للقوات البريطانية وقوات الأنزاك (الأسترالية والنيوزلندية) وحتى انسحابهم النهائى فى نهاية العام، أصبحت مستشفيات الإسكندرية غاصة عن آخرها بقوافل الجنود الجرحى والمشوهين فى الحرب.

كان فندق "ماجستيك" مناسبًا تمامًا لمهمة "فورستر" فى خلال الأشهر الأولى كباحث عن المفقودين فى الصليب الأحمر والذى كان مركزه الرئيسى يبعد بضع

دقائق فقط سيرًا على الأقدام شرقًا تجاه مباني "سان مارك" على ناصية شارع "سان مارك" وشارع "البورصة القديمة"، من هنالك يمكنه أن يبدأ فى العاشرة صباحًا ليبدأ نوبته فى زيارة المستشفيات، ثم يعود للفندق لتناول الغداء، ثم يعود مرة أخرى للمستشفيات حتى نهاية دوام عمله فى الساعة السابعة مساءً، ثم يبدأ فى إعداد كتابة تقاريره التى يتم إرسالها إلى "مكتب الحرب" فى لندن، ومن هناك يتم توزيعها على أقارب الجنود، صحيح أنه عمل يسبب الإحباط، فعندما يحصل على أى خبر خاص بالجنود المفقودين، غالبًا تكون أخبارًا سيئة، ولكنه كان يجد بعض العزاء فى عمله أنه قد يكون مفيدًا لبعض الجنود الجرحى كما كان يعيّرهم كتبًا للقراءة ويقوم بكتابة رسائلهم لأقاربهم، أو يقوم بإصلاح ساعات الجنود، ليجدهم ممتنين وشاكرين مساعيه.

لقد وجد "فورستر" نفسه بطريقة غير متوقعة يفيض بمشاعر بطولية وعلى العكس من وعوده المطمئنة لأمه بأنه لن يتورط فى أى أعمال قتالية، ثمة تهديد بغزو تركيا، وبرغم كونه مدنيًا فإنه سيكون على جبهات القتال، كانت حملة "جالبولي" رداً على محاولة تركيا الاستيلاء على قناة السويس وغزو مصر فى عام ١٩١٥، وظل تهديد الأتراك مستمرًا فى سيناء طوال العام التالى، وتمكن عملاء تركيا وألمانيا من إقناع "السنوسي" والبدو فى الصحراء الليبية بالهجوم على الحدود الغربية لمصر، ولكن وللعجب الشديد فقد تم عزل الإسكندرية عن هذه الأحداث من خلال فرض الرقابة على المطبوعات، وقد وصف أحد المواطنين الإنجليز المقيمين بالإسكندرية كيف أن الغموض كان يغلف المدينة مثل الضباب الكثيف الذى يظهر بعض الأشياء القريبة ولكنه يطمس البعيد بسدود منيعة. (٢٢)

ولكن المشهد لم يكن قريبا ولا بعيدا بل كان غامضا بالنسبة "لفورستر" الذى ما إن وصل حتى اتصل بروبين فورنيس" بمجرد وصوله، وهو أحد معارفه القدامى فى "كينجز كوليدج" والذى أصبح رئيسا لقسم الرقابة على المطبوعات الصحفية ومقرها فى الإسكندرية وليس فى القاهرة وذلك لأنها تتميز فى قطع الاتصالات مع الخارج، فى خلال بضعة أشهر من مجيئه من "كينجز كوليدج" بدأ فورنيس دخول مجال الخدمة المدنية فى مصر إذ بدأ وظيفته من برجه العاجى، فكتب لصديقه "جون ماينراد كينيز" فى عام ١٩٠٧ "لقد كنت دائما شرطيا أو مفتش مباحث فى هذه المدينة الفوضوية، يوميا أغذى عيوني بزوجة حاكم ويلز السكير، وعاهرات جركسية مطعونة، أو أنقص مؤخرات الغلمان الذين يتعرضون للواط، وأقوم بالتحقيق فى حوادث متسولين ماتوا وأكلتهم الديدان". (٣٣)

لقد كان مطلعا على غرائب المقتطفات اليونانية *The Greek Anthology*، وأشعار غزل فاضح يزيد عمرها عن ألف سنة من عصور الإمبراطورية الهيلينية إلى البيزنطية وبدأ ينشر ترجمات الشعراء الأقدمين فى المدينة. بينما كان للرجل مذاق أدبى غريب، يتذكر "لورانس جرافتى سميث" نائب القنصل فى الإسكندرية إبان الحرب "إن ذوق الرجل على المستويات الأخرى كان ذوقا أدبيا رفيعا فإن ذوقه فى مجالات أخرى كان واسع الأفق ومتحررا على نحو شامل، كما تقاسمنا بعض الرحلات الغربية". (٣٤)

كان على "فورنيس" والذى سيُدعى فيما بعد "سير روبنسون" قضاء كل حياته المهنية فى مصر، ففى عام ١٩٢٠ وما بعدها شغل منصب المندوب السامى البريطانى فى القاهرة، بينما كان مستمرا فى تكريس جهوده للبحوث الأدبية كتابه "كليماخوس وترجمات من مختارات الإغريق الأدبية" وقد نشره فى لندن بين عامى

١٩٣١ و ١٩٣٢، وظل الكتاب فترة طويلة يتم الاقتباس منه فى هذا المجال، كما عمل أستاذًا للغة الإنجليزية فى جامعة فؤاد (جامعة القاهرة حاليًا)، ثم استأنف عمله القديم السابق إبان الحرب العالمية الثانية رئيسًا للرقابة على المطبوعات.

أحب "فورنيس" "عايدا بوركجريفنك" وهى سيدة فى أواخر الخمسينات، فى عام ١٩١٠ مات زوجها النرويجى والذى كان يعمل مديرا للإمدادات والتموين فى المحاكم المختلطة بمصر، وكانت عايدا سيدة أمريكية الأصل ابنة أحد ملوك القمح فى منطقة الغرب الأوسط فى أمريكا، تعلمت الغناء الأوبرالى قبل الزواج، وغيرت اسمها من "آدا" إلى "عايدا" بعض حضورها عرضا لأوبرا عايدا للموسيقى الإيطالى فيردى" أثناء فترة شهر العسل، وكان "فورنيس" الذى يبدو مشوش الفكر شبيهاً بمالك الحزين، وعرفها كسيدة رومانسية وجياشة العاطفة تقوم بقيادة سيارتها فى المدينة وهى تغنى بعض أغانى الأوبرا للموسيقى الألمانى ريتشارد فاغنر بأعلى صوتها، كان الرباط الذى يجمعهما حبا أفلاطونيا ورغم ذلك فقد كان حبا قويًا، كما كان يعتمد على مساعدتها فى بدايات مشواره فى الحياة المهنية، وخصوصا كانت "عايدا بوركجريفنك" هى التى قامت باختيار معظم الموظفين الدوليين فى إدارة الرقابة على المطبوعات ومن بينهم "بيرسلز أنستاسياديس" التى كانت صديقة "قسطنطين كفافيس" لفترة طويلة، كما صادقت أيضًا "جورج أنطونيوس" الذى كان يتميز باللطف والكراسة وسرعان ما أصبح كلاهما جزءًا من الدائرة المقربة من "فورستر".

كتب "فورستر" فى ٢٩ ديسمبر ١٩١٥ إلى مسعود يقول "لا أدري إلى متى أبقى هنا، "أشعر بأننى لست فى وطنى وأنا بينهم (المصريين)، وإن كنت أشعر بين الهنود بأننى فى وطنى".^(٣٥) ورغم اعتراض مسعود على عروض الصداقة التى كان يقدمها "فورستر" طوال ثلاث سنوات من قبل فقد ظلّا صديقين، وخصوصا

عندما وجد مسعود هدفاً آخر لعواطفه، إذ بدأ "فورستر" باستخدام مراسلاته فى التعامل على مصر فى مقارنات يجريها مع الهند، "الشخص غير الإنجليزى الوحيد الذى رأيته هنا هو شخص سورى فهو شخصية لطيفة مسلية جداً، سأتناول معه العشاء غداً، وسأخلع الزى الرسمى، وأصعبه إلى السوق الشرقية، لنجد ما يمكن رؤيته، ولكن يجب أن تعرف أنه لا يوجد شيء كثير يمكن رؤيته." (٣٦)

أما السورى "جورج أنطونيوس"، فقد كان يبلغ من العمر ٢٥ عاماً وهو سكندرى من عائلة فلسطينية يحمل الجنسية البريطانية، مسيحى أرثوذكسى يونانى، يجيد اللغات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والعربية، وقد التحق بكلية فيكتوريا، وهى مدرسة للبنين وإدارتها إنجليزية فى ضاحية "الرملة الشرقية"، كما التحق بكلية "كينجز كوليج - كامبردج" تماماً مثل "فورستر"، و"فورنيس". كان "جورج أنطونيوس" يعمل فى إدارة الرقابة على المطبوعات توطئة لحياة مهنية متميزة فى الشؤون الشرق أوسطية، فى البداية مع البريطانيين ثم حصل بعدها على وسام (الإمبراطورية البريطانية CBE)، ثم بعد ذلك من عام ١٩٣٠ فى القضية العربية الفلسطينية. ثم فى عام ١٩٣٩ ذهب إلى لندن فى وظيفة أمين عام للوفد العربى لمؤتمر المائدة المستديرة بشأن القضية الفلسطينية، وقد ذاع صيته فى العام الذى سبق كمؤلف لكتاب "اليقظة العربية The Arab Awakening" والذى قال عنه إدوارد سعيد "إنها من أفضل الدراسات العربية عن النضال من أجل الاستقلال." (٣٧)

فى عام ١٩١٥ كان "جورج أنطونيوس" شأنه شأن الكثيرين من العرب خارج مصر يرى ضرورة التحالف مع بريطانيا على أمل تحريرهم من ضعف العثمانيين.

ولكن "فورستر" بنظرة فاحصة على العالم الذى يعرفه بعيداً عن الإسكندرية يرى فقط مظاهر التفسخ، فكتب إلى مسعود فى نفس شهر ديسمبر وهو ينتظر النزهة التى يصحب فيها جورج أنطونيوس للمدينة، كتب يقول : "كل ما أهتم به هو انهيار هذه الحضارة للأبد". (٢٨)

وعلى الرغم من أن "فورستر" كان فى المدينة لأكثر من شهر، وعلى الرغم من أن السوق الشرقية كانت بالكاد أكثر بُعداً جهة الغرب من فندق "ماجستيك"، بينما كان المركز الرئيسى للصليب الأحمر من جهة الشرق- فإن "فورستر" لم يغامر أبعد من ميدان محمد على الذى كان يتوسط المدينة.

يطلق الإنجليز على "ميدان محمد علي" لفظ "قصر محمد علي" وكان يقع فى قلب المدينة ويضم البورصة وفيها بورصة القطن، وبورصة الأسهم والسندات وعلى الجانب الشرقى منها، والكنيسة الإنجيلية للقديس سان مارك وملاصق لها (مبنى القديس سان مارك والتى تتبعها)، والمحاكم المختلطة على الجانب الجنوبى منها،^(٢٩) يوجد تمثال برونزى لفارس يمثل محمد على نفسه فى الوسط (على الرغم من أنه لا توجد كتابة عليها تميزها فى تناقض مع التعاليم الإسلامية التى تحرم تماثيل آدمية أو حيوانية)، مقهى أنيق، ومطاعم ومحلات تحيط بكل المكان.

كما أن الميدان هو تذكّار لذلك الصيف من عام ١٨٨٢ والتى يؤرخ بها السكندريون لتاريخ مدينتهم فيقولون "قبل الأحداث"، و"بعد الأحداث"، بعيداً إلى الشمال شارع الراهبات *Rue des Soeurs* وهو شارع طويل بدأت فيه أحداث الشغب، ويعود اسمها إلى دير الكاثوليك الرومان والمدرسة، وبالرغم من السمعة السيئة التى اكتسبها حينئذ للخدمات التى يقدمها للبحارة، بينما بعدها بشهر واحد

وفى الميدان نفسه فإن الثائرين تم دفنهم تحت أشجارها، وكان قد تم تقييدهم وربطهم إلى جنوع الأشجار قبل أن يتم إطلاق النار عليهم.

كان لدى "فورستر" نسخة من الدليل السياحي، يقرأ منه، خلف ذلك الميدان المزدان بالأشجار يظهر الحى الوطنى وهو يقدم صورة جميلة للحياة فى الشرق،^(٤٠) على الرغم من أنها لم تذكر شيئاً محدداً يمكن مشاهدته، ولكن كتيب "إيفارستو بريشيا" كان مفيداً، ويبدو أن "فورستر" لم يكن قد حصل على نسخة بعد، رغم أنه اعتمد عليها بعد ذلك كثيراً. وعوضاً عن ذلك فإن دليله السياحي خلال الشهور الأولى من إقامته فى الإسكندرية كانت الكتابات التى كتبها "جورج أنطونيوس"، وقد أدرج اسمه مع الذين يدين لهم بالعرفان بسبب مساعدتهم فى إعداد الكتاب السياحي والخاص عن المدينة ومبانيها الجميلة ومساجدها غير المعروفة على نطاق واسع.^(٤١)

ولكن بعد ذلك بدأ "فورستر" فى إعداد كتابه: **Alexandria : A History and a Guide** "الإسكندرية: تاريخ ودليل" بداه فى أكتوبر ١٩١٨، قبل شهر واحد من نهاية الحرب، وقبل ثلاثة شهور من مغادرته لمصر، كما لم يتمكن من مراجعة مسوداته النهائية حتى فبراير ١٩٢٢.

كانت نزهته مع "جورج أنطونيوس" هى أول مواجهة لفورستر مع المصريين، فلم يعجبه كل ما رآه، فمثلاً كتب فى أغسطس عام ١٩١٦ يقول "فى خلال عشرة شهور كرهت كل شيء: الصوت العربى والشخصية العربية وطريقتهم فى رؤية الأشياء وطريقتهم فى الأكل والإخراج أو الضحك أو أى شيء يفعلونه" إلا أن هذه النظرة أزعجته كثيراً: "فهى نفس المشاعر التى أحس بها واستهجنها فى العلاقة الأنجلوهندية مع السكان الهنود... مشاعر بغیضة ومخزية."^(٤٢)

فالفور من القيم الجمالية عند فورستر يتألف من التناقض الشديد الذى أحسه من سلوك أحد المخبرين المصريين فى قسم الشرطة والذى دعاه لزيارة "غرزة" لتدخين الحشيش يديرها شخص مالطى أعور: "دخلنا الغرزة فوجدنا فيها شلة مهذبة يدخنون المخدرات، جالسين خامدين ومسطولين. بينهم فتاة عربية صغيرة حافية القدمين منهكة القوى، أما الشباب فيلعبون الورق والصمت يلف الغرفة المقفلة. دخل ثلاثة شباب متأنقين، يرتدون قبعات قش، يقصدون الباعة الإيطاليين فى المحل، ولكن عندما رأوا فورستر ورفيقه الشرطى يسحب نفسا أو نفسين من الجوزة انصرفوا." "وكان ما فعلوه هو سبب مجيئهم إلى هنا." (٤٣) لقد وجد فورستر الشلة مسلية، وبدونهم كان سيشتعر بالوحدة. بعد أيام أخبره المصرى بأنه أبلغ الشرطة عن الرجل المالطى، فشتعر فورستر بالاشمزاز، أضاف المصرى: "هذا عملي؛ مخبر فى الليل وموظف بالنهار. ولأحاول الاحتفاظ بالمهمتين. فالأمر بالنسبة لفورستر أنه فى حال عدم احتفاظه بالمهمتين منفصلتين فهى خيانة للأمانة وفساد للأخلاق.: "قطط كان يعتبر ملقاطا لأبناء البلد هنا، ويؤدى عملا فاسدا تماما." (٤٤)

كان رد فعل فورستر لحياته فى الإسكندرية يختلف عن مشاعره تجاه الهند. فعندما زار الهند قبل الحرب، ذهب إليها لينشئ صداقات يفتح من خلالها خياله على البلد. فهذه البلد الكبيرة كانت هادئة إلى حد ما، ولكن فى الحكم Raj مطمئنا. ولم تضغط عليه الآراء السياسية، ولكنه كان مشاركا برأيه لرفيق رحلاته روبرت تريفيليان Robert Trevelyan وجولنزورثى لوز ديكنسون Goldsworthy Lowes Dickinson وأصدقائه الليبراليين الآخرين من الحركة الوطنية الحاكمة، والاستقلال هدف بعيد المنال. (٤٥) وعندما غادر فورستر الهند فى عام ١٩١٣ كان انطباعه عن الهند حالما: "بلا ريب فإن المضحك أن تعشق قارة.. ولكن يبدو أننى أحببتها فعلا." (٤٦)

لقد كانت الهند حلما لأمة بأسرها، نموذج أحكم غلقه فى عام ١٨٧٧، أى قبل عامين من مولد فورستر، عندما تم إعلان رئيس وزرائها بنيامين ديزرائيلى بأن الملكة فيكتوريا إمبراطورة الهند. وكان ديزرائيلى ينتمى لحزب المحافظين، ومن مسؤوليته إسكات الليبراليين المعارضين، الذين رأوا أن الإمبراطورية لا يمكن توزيعها ولكنها مسئولية. فقال ديزرائيلى "إن المعارضين يخطئون عندما يرون كل شيء من زاوية مادية متجاهلين أهمية الأفكار الأخلاقية والسياسية التى تخلق الأمم العظيمة، من خلال تأثيرها على الإنسان المتميز عن الحيوان.. فيتعين على إنجلترا أن تحسم أمرها بين المبادئ الوطنية والعالمية. وهذه قضية ليست بسيطة. فإما أن نقتنع بأن تكون إنجلترا مريحة ونموذجاً يحتذى ويتشكل وفقا للمبادئ الأوربية ومواجهة مصيرها المحتوم أو أن تكون بلدا عظيما- بلدا إمبراطوريا - بلداً يكون فيه أبناؤك حين يشبون، يشبون نحو الأهداف السامية ويكتسبون التقدير ليس من أبناء بلدهم وحسب بل من جميع أنحاء العالم".^(٤٧)

ثم ذهب فورستر أولا إلى الهند وقد اقتنع الليبراليون بأن الإمبراطورية هى جزء من مجموع أشياء منظمة، وليست أقل، وكما فهم ديزرائيلى، لأنها تروى غليل الإنجليزى إلى رومانسية القرن التاسع عشر المختلطة بمشاعر المهمة الوطنية أن يأتى بمكاسب واستحقاقات التنوير والتقدم إلى العالم. وبعبارة اللورد كورزون، نائب الملك فى مطلع القرن العشرين، فإن الهند، "هى أكبر شيء يحققه البريطانيون فى أى مكان من العالم"^(٤٨) والانسحاب منها يعنى خيانة الهند وتخلي إنجلترا عن مبدئها المثالى.

حقا إن فورستر، فى كتابه "Howards End" ذكر أن "المؤيد للحكم الإمبريالى ليس كما يظن أو يبدو. بل هو شخص مدمر".^(٤٩) ولكنه كان يشير إلى نمط مازال يؤمن بعالم أفضل حيث يلعب الإنجليز دورا وأخذة على محمل الجد قبيل أن يتركه صديقه الهندى مسعود سعيد ميرزا والذى كان مصاحبا فورستر فى

رحلة برية، قد انفجر غاضبا ضد الإنجليز. "ربما بعد خمسين سنة أو خمسمائة سوف نطردكم."^(٥٠) بعد مزور عشر سنوات من هذه العبارة تكررت ثانية فى صرخة فشل وخسارة انتهت بكتاب "A Passage to India" ولكن فى كتاب Howards End خطأ من الإمبريالية يكمن فى القمع أقل من الاقتلاع، وهنا اعترض فورستر على تفسير ذرائعلى للرومانسية: إن المؤيدين للحكم الإمبراطورى يتأهبون لطريقة "العالمية، وبرغم أن طموحاته التى تتشبع بها الأرض والتى ورثها ستكون كئيبة."^(٥١)

وقد استطاعت أيضا والدته أن تستوعب المعنى حينما كتب فورستر إليها يقول إن الإسكندرية كانت مدينة عالمية نظيفة: فلم تقدم المدينة شيئا لتفصله عنها. فإن قيمه ومشاعره كانت موجهة نحو "روكسنيس"، منزله فى "هارتفوردشاير" Hertfordshire حيث عاشا معا من عمر خمس سنوات حتى بلغ سن الخامسة عشر والذي كان نمونجا مباشرا إلى Howard End:

"عاش هنا جنس أكبر، ننظر إليه بقلق. البلد التى زرناها فى عطلة نهاية الأسبوع، كانت وطننا فعليا، وأهم جوانب الحياة، والموت والفراق ولهفة الحنين والحب، لها أقوى العبارات فى تلك الميادين. ليست كلها الحزن، فالشمس تشرق بدونها. وطائر السمان يغرد على أغصان الورد. والأطفال يمرحون فى صخب على أكوام القش الذهبية... فى تلك المزارع الإنجليزية، فى أى مكان، يرى المرء حياة مستقرة وكاملة، مجموعة فى صورة واحدة لتغيرها، ولشبابها الدائم، مرتبط - مرتبط بدون مرارة حتى إن كل البشر إخوة."^(٥٢)

وعلى الجانب الآخر لهذه الرؤية الشاملة وللحب كانت المدينة: "كرهت هذا التدفق المستمر على لندن. إنها نموذج لنا فى أسوأ حالتنا - حالة من التشوه، كل

الصفات سواء كانت الحميدة أو السيئة والمختلفة، تتابع، وتتدفق، للأبد^(٥٣). فالإمبريالية والكوزموبوليتانية cosmopolitanism والمدنية كلها تؤدي إلى نهاية واحدة، وعندما أشارت هيلين إلى لندن تسال إلى الأحرار باتجاه هوارد ايند Howard End وقال لمارجريت، "إن لندن ما هي إلا جزء من شيء آخر. وإننى أرى بأن الحياة سوف تنتهى فى كل أنحاء العالم." (٥٤)

كانت لندن باستثناء هذه الحضارة البدوية والتي غيرت الطبيعة البشرية بقوة وفتحت الباب على مصراعيه للعلاقات الشخصية تضغط بشكل أكبر، أكثر مما لو كانت موجودة من قبل. ففي ظل المدينة العالمية الكوسموبوليتان، إذا حلت فلن نتلقى مساعدة من الأرض. وتصبح الأشجار والمروج والجبال مشهدا وقوة إلزامية مارسوها ذات يوم على إنسان لابد أن يكون مؤتمنا بالحب وحده. أتمنى لو أن الحب مساوٍ للمهمة. (٥٥)

ورغم أسلوب فورستر الوصفى الإبداعى الذى طاف بنا فى وسط الإسكندرية على الأقدام أو فى الحنطور وزيارته إلى الضواحي الشرقية من منطقة الرمل Ramleh جعلت السفر بالترام ضرورة - الرحلة التى تحمل شيئا من الروعة : "أرادت شيئا كبيرا، وأرادت أن تصدق بأن هذا الشيء جاء إليها على جناح السرعة إلى رصيف الترام" (٥٦)، فى حين أنه يكتب عن لوسى فى كتابه A Room with a View. رايات صليب حُمِر على عدد من الفيلات على امتداد حى الرمل، وكلية فيكتوريا التى تحولت إلى مستشفى عسكري وأبعد من ذلك عند المنتزه، وهو المنتجع الصيفى للعائلة الملكية، السلاميك (وهو مربع سكنى للرجال أقامه الخديوى عباس الثانى فى مطلع القرن العشرين بطريقة تدخل البهجة والسرور إلى عشيقته النمساوية) وقد أصبح دار السلاميك دار النقاهة المفضل للجنود. فى يوم ٩ يناير ١٩١٦ زار فورستر إلى قصر المنتزه أول مرة ولفترة

طويلة بعد بلوغه السابعة والثلاثين، وقف على بوابته الغربية، لمح فى دهشة علامة باهتة - مكتوبة من عهد سكن الخديوى: ممنوع الدخول فى هذا الطريق حتى لو سقط السور.^(٥٧) هنا وفى أماكن أخرى خلال جولاته كان يتصرف بحنو مع الجنود البريطانيين،^(٥٨) وعلى مدى الشهور التالية، ودون بحثه، كان يقرأ بصوت مسموع مشاهد من روايات تشارلز ديكنز وتوماس هاردى، وتولستوى.

"أنسجم مع الجنود ومع الآخرين الذين لا يهتمون بشيء أو بأوهام إراقة الدماء." لقد أحب الجنود لشرفهم وجسارتهم وكرهيتهم مشهد جراحهم وتشوهاتهم التى يكابدونها وتعاطفه معهم، فجزاء الحرب موت داخلى. "فالحرب هى استبدال كل الأشياء الجميلة الكبيرة - مثل الحب، والسعادة، والتأمل واليأس - وتضليل الرجال بمظهرها الخارجى".^(٥٩) لقد أثارت حفيظته الرقابة على المطبوعات، فغضب من الروايات الرسمية المحرفة حول القتال ضد الأتراك على طول قناة السويس. إذ قرأ مذكرات الجنود لأنه كان يرى أن الأدب العظيم "يساعدنا على التجرد من الخوف والكرهية ومن الدين العشائرى. "فتلك الكتب 'عالم من العظمة، عالم من الروح يساعدنا على تحمل المخاطر والجهود كما نجد فيها إجابة كامنة عن الحقيقة"^(٦٠)

وقد قرر فورستر فى يناير أن يستمر فى الإسكندرية، وكان سعيدا بعمله ومنسجما لحالة المدينة؛ "فالطقس رائع، وملاعب التنس فى نادى سبورتنج مزدهمة نهارا والمواخير ليلا".^(٦١) وفى تنقلاته بين المستشفيات بدأت ترسم عليه ملامح الرومانسية. "تعال هنا.. مصطفى باشا، تعال هنا.. فى سيدى بشر" صاح رجل ضخم الجسم كأنه يستحضر نفرا من الجن، كان هذا الشخص هو ناظر محطة ترام الرمل "نعم.. نعم هنا بوكلى وجليم Bulkeley and Glymenopoulo"^(٦٢) "زعق،

بينما انصاع فورستر وركب العربة السحرية. بدأ يلقي محاضراته على الجنود حول تاريخ الإسكندرية في ماضيها وحاضرها، وإذا أصبح الفضاء منطقة عسكرية، لركب المترو وانطلق فيه بحرية خلال الزمن. "أول نصف ميل من خط الترام ويجتاز الأماكن ذات الشهرة التاريخية" سيكتب في دليله وصف رحلته بدءاً من خروجه وانتهاء إلى محطة الرمل. كل بوصة من هذه المدينة كانت في يوم من الأيام إما مقدسة أو ملكية. ملاعب كرة القدم على اليسار.. هنا كانت قصور البطالمة.. وجدران المتحف تشهد بعظمة العالم القديم. على اليمين، المنظر يطل على المسرح القديم، حيث شهد عروضاً لمسرحيات أسخيلوس *Aeschylus* ويوريبيدس *Euripides* تشهد بعظمة اليونان. فلم تشهد عين ما تحقق، ولن يتصوره عقل. لقد حل محله اليوم صخور رملية وحصباء. (١٢) في دليل فورستر تمر وتتوالى المحطات تباعاً، الأزاريطة *Mazarita* كنيسة القديس مارك، حيث دفن فيها، ترتفع لعنان السماء شامخة على شاطئ البحر، وراءها لا ترى شيئاً آخر.

هنا في الشاطبي *Chatby*: تم العثور على طرق قديمة ومصارف. وفي كامب شيزار *Camp Cesar* : لم يأت قيصر إلى هنا أبداً. وهذه منطقة كليوباترا لم تشهد كليوباترا هذه المنطقة أبداً.. فقد غادرت المكان من موقع عند قاعدة الجرف على حافة البحر، وهذا قبر بطلمي *Ptolemaic* جدرانه مطلية، ولكن حتى لو وصف شخص هذه الأشياء فإنها قد تهدمت. وهذا مسجد سيدى جابر *Sidi Gaber* : وهو مسجد بناه أحد أولياء الله الصالحين، الذي ظهرت كراماته ليلاً وهو يطير ليرعى الأطفال، إلخ. هنا محطة "مصطفى باشا: على اليمين. على الطريق تل أبو النواير *Abou el Nawatir* وهي أعلى منطقة قريبة من الإسكندرية، منظر ساحر". (١٤)

وقد تداعى تل أبو النواطير بسبب كثرة الاستخدام حتى بات من الصعب رؤية التل من عربة الترام فقد أخفته المباني الشاهقة المحيطة. يتذكر "جرافتى سميث" فى خلال الحرب العالمية الأولى، وهو منزل صغير كان المسكن الصيفى للمندوب الحكومى - يقف المنزل وحيدا شامخا، وغير بعيد عنه بعض الفيلات الفاخرة التى كانت تشاركنا الجانب الأرسقراطى. (١٥) حاليا نفس المنطقة تسمى "رشدى" فإذا ارتقيت المنطقة فستمر على فيلا بعد فيلا ولكن فى الغالب بيعت حدائق تلك الفيلات لتقام فيها مبان سكنية لتكون مثل المنطقة السكنية البريطانية، أقيمت بعد رحيل فورستر، ولم يعد لها شكل حاليا.

كتب فورستر إلى "فيرجينيا وولف" فى ١٥ أبريل ١٩١٦ "أتصور أن الحضارة هنا سوف تنتهى، لقد ماتت فى القاهرة فعلا، القاهرة التى تضم مراسلى الحرب و ١١٩ لواء الأندية المرتبكة ورجال جادين. ولكن الأمر مختلف فى الإسكندرية إذ تستطيع أن تقرأ كتباً وتستحم" (١٦) كان يكتب من حديقة فيلا فورنيس Furness على تل أبو النواطير، حيث قطعة مدفعية، وهى من قطع السلاح البريطانى القديم من عام ١٨٨٢، موجودة بالقرب من الرمل، الإسكندرية تبدو أنها بعيدة عن الحرب الأوروبية الحالية: المحلات مازالت تتباهى بأنها قدمت لولى عهد فيتمبرج Wurttemberg وشركة الترام كانت تعلن "ملجأ للشابات Schutz fur junge Madchen" كان لدى فورستر مشروع كتاب غامض عن الإسكندر الأكبر (مثل Maurice وإن لم ينشر الكتاب)

وكلمة Furness كانت ترجمة لـ Anthologia Palatina وأحيانا كان فيها جماعة فى منزل ليفانتين Levantine. "إلى متى قد يستمر؟ ياه أ" (١٧)

بعض من أصدقائه الكثيرين كانوا يحملونه المسئولية. "أنا عشت تماما على Furness والذي يبدأ مع مطلع أبريل يستريح من النفقات الحياة على الفخامة - فالراتب الذى كان يتقاضاه فورستر من الصليب الأحمر قليل ولا يكفيه، وفعلا كان يعتمد على الدخل الخاص به، الذى كان يأتيه من إنجلترا - ويكتب فى رسالته إلى فيرجينيا وولف (٦٨) "كما أننى أعطى دروسا فى اللغة الإنجليزية مقابل أربعة جنيهات إسترلينية فى الشهر لشاب يونانى مذهب" واسمه بيرسل أناستاسيد Perciles Anastassides فقد ولد وتربى فى إنجلترا، وأى مساعدة يتلقاها فى اللغة الإنجليزية فلن يزيد مبلغها عن مجرد تلميع احتياجاته من الدروس الخفية أكثر من قناع خفى لرعايته.

ولقد كان أناستاسيد تاجر قطن يعيش على ناصية شارع رشيد وشارع يونج غرب المتحف اليونانى الرومانى، وهو شاب يهوى الرسم وله اهتمامات ثقافية، كان صديقا مقربا لقسطنطين كفافيس منذ نحو سنة ١٨٨٩ وإلى حد ما كان من مؤيديه، فكان يُعيره الكتب وقد دفع له مصاريف أول زيارة له إلى اليونان فى عام ١٩٠١، وربما صاحبه فى بعض المضاربات التى قام بها فى البورصة حيث دفع له راتبًا باعتباره موظفا حكوميا. لقد كان هو الذى قدم Furness إلى كفافيس، واكتشف الرجلان أنهما يشتركان فى الكثير من الاهتمامات، يتذكر كفافيس، فيما بعد، حوارا دار بينهما حول The Greek Anthology المختارات الأدبية اليونانية "وقد كانت تعبيراته محكمة بليغة ورائعة" ووصف Furness بأنه "أفضل رجل متقف من أصول طبقة فنية". (٦٩)

وكان اللقاء بين كفافيس وفورستر حينما حان، أهم لقاء أدبى فى القرن العشرين - كتب فورستر "أظن أنه من حسن حظى أنه فى ظروف الحرب الرهيبة التى كنا نعيشها أتاحت لى الفرصة للقاء أحد أعظم الشعراء فى عصرنا". (٧٠) -

وليس من الغريب تلك الادعاءات التي شاعت حول من قام بدور الوساطة. وفقا لتقاليد عائلة أنطونيوس Antonius أن جورج أنطونيوس هو الذى قدم فورستر إلى كفافيس. بينما ذكرت مصادر أخرى أنه كان أنستاسياديس هو من أسهم فى هذه المعرفة، على حين قال فورستر، بعد سنوات من اللقاء، إن فورنيس Furness هو الذى اصطحبني لرؤية كفافيس فى عام ١٩١٦-١٩١٧. (٧١)

وأيا كان الشخص الذى ساعد فى اللقاء بين فورستر وكفافيس، فلقد كان أنستاسياديس هو حلقة الوصل الرئيسية وربما كان الفريق اليونانى الذين تناول فورستر العشاء معهم فى يوم ٧ مارس عام ١٩١٦ حينما تم تقديمه أول مرة إلى كفافيس. وقد شهد اللقاء نادى محمد على فى شارع رشيد Rue Rosetta (٧٢) وهو على بعد عشر دقائق سيرا على الأقدام من فندق ماجيستك Majestic حيث كان فورستر مقيما فيه. ولقد كان فورنيس Furness وأصحابه أعضاء، وسرعان ما سجل فورستر العضوية فيه أيضا. كان النادى فخما وعالميا، وقد استحوذ على اهتمام رجال البنوك وتجار القطن وذوى الأملاك الذين يجلسون فى الشرفة يطالعون النساء الجميلات المتسوقات على طول شارع شريف باشا، أما فى داخل النادى فهناك ردهات وأريكات مريحة، ومكتبة وقاعات للقراءة والموسيقى وموائد للعب القمار.

وقد تعاقبت أمسياته الأدبية مع أصدقائه اليونانيين الجدد، ولكن صداقة فورستر لكفافيس وتقديره لخياله الشعرى المتميز قد استغرق بعض الوقت لينضج. مرت ستة شهور قبل أن يصف كفافيس بأنه "عضو من الطراز الأول فى المجموعة" (٧٣) وبعد مرور سنة لم يكن فورستر متأكدا مما يفعله له، كتب إلى جولدزورثى لويس ديكنسون Goldsworthy Lowes Dickenson فى يوم ١٠ يناير

١٩١٧ بأنه وجد كفافيس "شخصية رقيقة، فهو مثقف ومرهف الحس - ولديه قدرات هائلة ولكنه خصصها في إعادة ترتيب وبعث الماضي". (٧٤)

في غضون ذلك، حاول فورستر أن يستبعد ماضيه، وتابع بإصرار حريته الشخصية في حاضر مدينة الإسكندرية. بعد شهر من تعرفه على الشاعر في نادي محمد علي وخلال بقائه مع فورنيس Furness في أبو النواطير، أول شيء لمحته عين فورستر (ذات صباح مشرق) لمح محمد العدل، وهو شاب يعمل محصل تذاكر في الترام. في الأيام التالية وفي نفس الموعد يقف في محطة مصطفى باشا - ينتظر مجيء الترام المتجه إلى باكوس، لقد ميز الترام بلونه الأزرق^(٧٥)، كان يلاحظه يتحرك بين الركاب دون أن يدوس على أقدامهم. و ذات مرة حينما ركب فورستر مع فورنيس رأى محمدا يضحك مع جندي، ثم حينما وصل إلى محطة الرمل، لمس زرا من بذلته بعد زر آخر بعد ملاطفة للوداع لقد كانت جميلة، وابتسما، فقال فورستر : "إن الشاب تمتزج فيه دماء أفريقية سوداء" (٧٦) وافقه فورنيس.

ولكن إشارة محمد إلى الجندي ذكرت فورستر كيف أنه شعر في نفسه بالإحباط الجنسي. بعد أسبوع من وصوله إلى فيلا فورنيس، كتب فورستر إلى صديق: "لقد استمرت هذه الوحدة مدة شهر ... إنني متأكد من أن بعض الناس المذهبين الذين أقابلهم يوميا يريدون أن يساعدوني إذا عرفوا ولكنهم لا يعرفون، فإنهم لا يفهمون ماذا أريد... أجلس معهم وأميل عليهم مقابل أشياء بسيطة - وتنتهي اللحظة وتظهر بعض الخيالات في منامي." كان يشير إلى الجنود الذين قابلهم في المستشفيات:

"أمر فظيع أن تعيش فى حرمان، تكبته الآن وفيما بعد ولكنك لا تستطيع أن تقتله ولا تريد أن تقتله." (٧٧)

ربما كانت بريطانيا أفضل قوة شرطة منذ الإمبراطورية الرومانية، ولكن ميزان القوى الحالى قد خلق مطلوبون جديدة. حتى لو اتضح تماما فى نهاية عام ١٩١٤ بأن الملايين من الرجال مطلوبين للقتال فى الحرب، فإن تجنيد جيش ضخّم فى التاريخ البريطانى اختياري. اعتقد فورستر بأنه حسم التزاماته وانضم للصليب الأحمر، ولكن فى يناير ١٩١٦ وافق للبرلمان على قانون التجنيد الإلزامى وفى يونيه قرر الصليب الأحمر أن يأذن للعاملين فيه القادرين على الخدمة العسكرية. كان مزاج فورستر مضطربا. قال لرئيسه فى الصليب الأحمر فى مصر إن قتل إنسان آخر أمر فظيع ويثير الاشمئزاز، وتم التصريح له بالعودة إلى إنجلترا حيث يعرض قضيته أمام المحكمة بأنه من معارضى الضمير. ولكن فى ذات الوقت "أصدقاؤه المخلصون والمتعاطفون معه" (٧٨) تدخلوا مع الجيش الذى أبلغ الصليب الأحمر بأنه قد استغنى عن فورستر، ثم إلى أمه: "إننى أشعر بالخزي من لعبة شد الحبل. إن لم أستطع تفادى الجيش بالوسائل الواضحة، إذن فمرحبا بالفساد! فضلا عن أن يكون هناك ضمير!". (٧٩)

ثم كتب فى ٢ يوليو إلى فلورنس بيرجر -وهى زوجة طالب جامعى من أيام الدراسة فى كوليدج كنج College King- والتي اكتشف أنها صديقة حميمة- كتب يقول لها : "إننى فنان، فبعد أسبوع من التوتر فهذا الشخص من حقه أن ينطق بهذه العبارة البذيئة - ويجب على الفنان (نعم! إننى أسعى إلى أن أقول أيضا!) أن يعيش حياته". ثم يهمس قائلا : "ذكرت هذا لك لأننى لا ينبغي أن أقوله لأمى - فليست أمامى فرصة مناسبة لتعرف شيئا عن تلك الروح المثيرة." (٨٠)

كانت الإسكندرية مدينة من المدن غير النظيفة ولكن تجد في بيتنها ومحيطها سحرا يجذبك إليها^(٨١). من "أبو النواطير" ينزل جنوبا باتجاه بحيرة حضرا Lake Hadra تقع مقابل حدائق قصر النزهة، والتي كانت ضاحية إليسيس Eleusis، حيث عاش هناك الشاعر كليماخوس Callimachus. لقد قرأ عن كليماخوس وهو جامعة كامبريدج، ولكن لا يمكن أن تكون موضعا للمقارنة مع الماضي والآثار القديمة وقراءة أبيات الشاعر فورنيس في قصيدته in situ :

أخبرني أحدهم، هيرقليطيس عن همايتك
بكيت وتأملت كم مرة أنت وأنا
غابت الشمس مع كلامنا، حسنا وتمدد
الخرائب المهجورة في كل مكان، صديق كاربان
ولكن عندليبك، وأغانيك مازالت تتردد
حتى إن الموت القابض على كل شيء لن يقتلها.^(٨٢)

إن حافة البحيرة والحدائق إلى الجنوب كان ترعة المحمودية، وهي الشريان الذي أعاد الحياة إلى مدينة الإسكندرية في عهد محمد علي، ولم تكن الترعة تلتف على طول الجانب الجنوبي للمدينة المعاصرة، بل كانت ربما تتبع نفس طريق الترعة القديمة، إلى منطقة كانوباس Canopus (حيث اعتاد أهل الإسكندرية الخروج في قوارب للترفيه عن أنفسهم ولعبادة سيرابيس Serapis^(٨٣)). هنا يتناول فورستر العشاء في مطاعم متوسطة.^(٨٤) ويتابع سيره على شاطئ الترعة في اتجاه الغرب ومياه المربوطية في الشمال، إلى الجانب المجاور للبحيرة من أشجار النخيل والموز وحدائق الخضروات لا تبعد كثيرا عن منطقة "كوم الشقافة" ومحطة

الجابري Gabbari، حيث ترقد قرية صيد صغيرة أقيمت على خليج صغير، اعتقد أنها قرية يابانية. وقام فورستر بنزهات طويلة سيراً على الأقدام على طول ساحل البحر المتوسط، والذي كان في تلك الأيام على مرمى بصر من ترام محطة الرمل. وقد تم بناؤه بين عامي ١٨٦٠ و ١٨٧٩، كانت إضاءة خط محطة الرمل قد تغيرت في عام ١٩٠٤، إلى خط إضاءة كهربائي. في فصل الشتاء كان المكان مغطى بنباتات جليدية والزعفران والزهور البرية، حتى إن الرمل وضع مع براعم متفتحة مشرقة كأنها مطلية بالذهب. أما في فصل الربيع وحتى فصل الخريف فالشاطئ يمتلئ على مرمى البصر بهواة السباحة على الشواطئ الرملية والخلجان الصغيرة ويمتد لمسافة تسعة أميال من الميناء الشرقي إلى المنتزه، وربما يقترب من مدينة مثل كليوباترا، ورأى فورستر من نفسه أنه يستطيع السباحة دون ملابس "قالمشى على طول الساحل من الإسكندرية إلى محطة الرمل نزهة ساحرة دائماً- جرف مفتت وشواطئ رملية ممتدة وصخور مسطحة وأطلال منازل قديمة ومقابر تعين المرء على اكتشاف مدى غوص موقع المدينة." وفي مكان كيب لوكياس Cape Lochias هناك أقام البطالمة قصرهم الملكي لتتسم عبير البحر العليل كل ذلك حالياً تحت ماء البحر المتوسط، أطلال الموقع الضيق من السلسلة Silsileh، حيث تم في عهد العرب تربية الخنزير. فاريلون Pharillon المصغر ليس أكثر من وميض تذكيري لعظمة الفراعنة التي تحلقت على اللسان المقابل للميناء. "لا يوجد طريق شرق السلسلة Silsileh. إن الدافع لمشروع فخامة الكورنيش أخفق، والمشهد الرائع حل محله كآبة قياسية لأن البيئة هي أكبر المدن." (٨٥)

يذهب فورستر إلى السباحة قبل الإفطار، يتذكر في مباني القديس مارك، بعد ذلك في الصباح، وبعد ذلك يتسلل إلى المطعم الإيطالي الصغير، ثم نقل إلى المستشفى (٨٦) وكتب إلى ديكنسون في ٢٨ يوليو يقدم لها لمحة عن الجنية

الأرضية: "والمنتزه بين أيكة من شجيرات وطرق تظللها النباتات المزهرة العطرة، وعلى صخورها البحرية نغوات ساحرة من صخور ورمال، ومئات من الشباب. يمشون عراة الصدور والسيقان حفاة يرتدون شورطات قصيرة زرقاء وقمصاناً زهرية شاحبة تؤكد على بشرتهم القمحية الرائعة، وهناك يقضى الكثير من أولئك الشباب نهارهم عرايا، دون إحساس بالخل أو توبيخ (الكلمتان الأخيرتان تم شطبهما)... لقد سعدت بالمنظر، ولكنى فى ذات الوقت حزين جداً، لقد جاءوا من منطقة سيئة، كل هؤلاء الشباب، وفى غضون أسبوعين، وفى أقل من أسبوعين سيعودون إليها: زيد الموج يوحى بجمال أخاذ،.. فى كل مرة أخرج من هذا المكان وأفكر فيها" جمالها الطبيعي يضعفه الموت والشيخوخة والفقر والمرض، ولكن العالم الذى لا يجب أن يعذب نفسه من الاستقراز المتكلف؟ فمن الواضح أنه ليس فى يومنا وليس فى حياتنا الوطنية" (٨٧)

ربما فى المنتزه كان من الممكن أن يمارس الجنس مع جندى على الشاطئ. فى ١٦ أكتوبر كتب إلى فلورنس بارجر يقول: "أمس ولأول مرة فى حياتى انتزعت الاحترام عنى". لقد أحس بمجيء اللحظة منذ بضعة شهور وعندما حانت لم يجدها رائعة ولا قذرة، بل تركت فيه حزناً. فلم يجد شيئاً حميماً فى العمل، لا شيء إنسانياً، لا شيء أبعد من إشباع النهم الجسدى، وهذا يبدو تأكيداً على أن روحه متعلقة بالحياة" مشدوداً بعاداته التى اكتسبها طوال سبع وثلاثين سنة، من إرادته الحرة، أو طموحاته. ثمّة سيل جارف فى نفسى لا يهدأ أبداً ولكن لم يكتشف منفذاً: "حياتى.. محكوم عليها بتهذيب الكلمات ومحكوم على بالوحدة بنينا. ولكن الرسالة تلح : "حسناً عزيزى، هذه أخبار غريبة يتلقاها ما ترون، ولكن عليك أن تتلقاها لأنك الشخص الوحيد فى العالم الذى أود أن أحكى له." (٨٨)

ولكن ثمة شيء آخر حول ثقته، ففضلا عن قدرتها على التحمل وراحته فى معرفة بأنك "مثلى تحب أن تروى الأشياء." (٨٩) كانت فلورانس بارجر أيضا صديقة لوالدته وعاشت وحيدة بعيدا بمسافة خمسة أميال بعيدا عن منزلها فى منطقة ويبريدج، سيورى Weybrige Surrey، كلتا السيدتين عند دعوة فورستر، عرضنا خطاباته، فيما عدا تلك الخطابات التى يعتمد فيها وصف عيون فلورنس، والتى كانت تحمل رعدة التحدى.

شيء فى آخر الربيع، أو فى مطلع الصيف، كانت عايدا بورشجريفينك Aida Borchgrevink قد وجدت غرف فورستر مع وصيفتها السابقة "أيرين" اليونانية الطائشة من كورفو حيث اللغة الإيطالية كانت ممزوجة باللغة الفرنسية حتى عام ١٨٤٨، كما لو أنها توقفت لتكون فقط فى الإسكندرية. كانت أيرين تمتلك عقارين: أحدهما فى شارع سابا باشا Saba Pasha لا يبعد كثيرا عن عقار عايدا، والآخر فى منطقة كامب شيزار قريب من المدينة، وبدت دائما أنها كانت تنتقل بين العمارتين، تسحب وراءها وتشعره وكأنه، كما يقول "أشبه بدمية. كانت تتسلى به، وهو يتمتع باعتراضاتها التافهة ويأكل الكثير حتى يسعدها، ويتقبل عطفها، قال ذات مرة "لقد نسيت تماما أننى فى منفى." (٩٠)

لو أن أيرين كانت شخصية غريبة الأطوار، فإن عايدا بورشجريفينك روح متمرده تحلق فوق الأعراف والتقاليد. وقد وصفها فورستر بأنها فائقة ذكية وعاطفية، لقد كانت بين الذين يستحوون على اهتمامه خلال مشاكله فى التجنيد. بيتها المريح المليء بالكتب الكائن على جرف فوق خليج ستانلى فى قلب محطة الرمل.

(ضاحية ممتدة حيث يعيش البريطانيون والأجانب كما كتب لها فيما بعد فى دليله، "الحدائق الجميلة الخاصة هى أفضل شيء فى مصر") (٩١) وبالقرب من

محطة سابا باشا حيث الترام الأحمر لمنطقة فيكتوريا والذي يمشى فى طريق ساحلى مباشر يأخذه فورستر ليذهب إلى المنتزه. كان غالبا ما يقطع رحلته عندها ليتناول الغداء فى حديقته الغناء، ثم يمشى إلى الخليج حيث علم نفسه السباحة، يقول فى نفسه "عمل روتينى، قدمه لتكرار الحياة فى المدينة"^(١٢) "رغم أنه كان يشير إلى الطريقة التى بدأ فيها يستحوذ على اهتمامات عايدا، مظهره الأشعث، وعادته فى الوقوف على ساق واحدة لاويا الأخرى حولها جعلها تظنه خجولا، ولكنه كان يفاجئها بمداعباته الجريئة، وملاحظاته غير المتوقعة وهو حاليا يسر لها بشيء حول أشواقه الجنسية.

ففى مزاحها وربما فى دافعيته وحتى فى حذرها، فإن قراءة شخصيته أصرت على استدعاء ريكي بعد اكتمال فيليب من خلال إصرارها على استدعاء ريكي، بعد بطل رواية "The longest Journey" والتى تحتويها التفاصيل والموضوعات هى فى كثير من الأحوال تقليد لإبداع حياة فورستر. بعد سنوات طويلة أطلق على الرواية "واحدة من أسعد الروايات التى كتبتها، لقد جاءت دون معرفتى، "ومن خلال إحساس سحرى بأننى زرتها".^(١٣)

البقرة هناك - هكذا بدأ روايته "The Longest Journey" بدأ الحوار بين طلاب الجامعة، فى غرفة ريكي فى جامعة كامبريدج. "كانت فلسفة، موضوعهم، يتناقشون فى وجود الأشياء. هل الأشياء موجودة فقط عندما ينظر إليها المرء؟ أو أنها موجودة بذاتها؟ فكل ذلك مهم، ولكنه فى ذات الوقت أمر صعب. بدا الأمر تبسيطا للمسائل، لقد كانت أمورا مألوفة، حقيقية وبالتأكيد والحقائق التى فسرتها تصبح مع الوقت مألوفة وراسخة أيضا. فهل الشيء موجود أم لا؟ فهذا أفضل من التقرير بين الموضوعية والشخصية".^(١٤)

ولكن فى أول يوميات فورستر فى مقدمة *The Longest Journey* ذكر أن البقرة ليست موجودة هناك، "الفكرة التى تسرى فى الرواية كلها، هى أن الإنسان يكتشف أنه أخ غير شرعي"^(٩٥) كان ذلك فى عام ١٩٠٤، ولكن بعد ثلاث سنوات اكتشف أن الاختيارات الأخلاقية هى التى قدمها من خلال موضوعه: ريكى يكتشف أن الحقيقة حول ستيفن، الذى لا يعرف عن علاقاتهم شينا، ويقرر أنه يجب أن يقول الحقيقة.^(٩٦) فقد كان هدف زوجة ريكى هى أن تستأثر بزوجها. فلم يكن أى منهما أخرج مثل ستيفن ولكن كانت ريكى تضغط على موضوعه: بدا لى أن هنا وهناك فى الحياة تلاقيا مع شخص أو حادثة رمزية، فهى ليست شينا فى ذاتها ولكن اللحظة تبدو أنها تقف لمبدأ خالد. نقبل الموضوع كله، بأى ثمن كما قبلنا الحياة. ولكن إن خشنا من رفضها، فإن اللحظة التى نتحدث عنها تمر فإن الرمز لم يظهر ثانية- ولكن فى مؤخرة روحه قد عرف بأنها المرأة التى قهرها.^(٩٧)

وفى حالة الإخفاق فى قبول ستيفن كشقيق له، فإن واجبنا هو أن نعترف بأن كل إنسان كائن نافه.^(٩٨) - بينما كان ريكى يعانى من العواقب الأخلاقية من إخفاقه فى مواجهة الحقيقة. وتنتهى رواية *The Longest Journey* عندما يقوم ريكى بإنقاذ حياة شقيقه، على حساب التضحية بحياته. وبالنسبة للقارئ أمر غريب وعمل غير سار لمحو الذات. ولكن بالنسبة لفورستر فهى تحمل حقيقة سيرة ذاتية: العلاقات الشخصية يتم تشجيعها فى جامعة كامبريدج، ولكن فورستر يئس من أن حب شقيقه قد يكون ممكنا له، وفى لندن، على سبيل المثال قد دفعها لتجوب حديقة هايد بارك *Hyde Park* والتسكع فى المراحيض العامة. فهذه الحياة أو تلك هى التى تقتدر للروح وهى أقصى ما يبلغه - فى الواقع حتى عام ١٩٠٩ عندما كان فى الثلاثين من عمره كان حاله أسوأ من ذلك إذ طبع نحو ثلاث روايات، فهل عرف منها فعلا كيف تتم المعاشرة الزوجية. "فقط ارتباط" كتب فى روايته

"Howards End" بعد اكتشافه "... والحب الإنساني سوف يبلغ ذروته. فلم تعد الحياة في الشظايا.. فقط الارتباط والبهيمة والناسك، سرقا من العزلة وهى الحياة، التي تموت." (٩٩). ولكن في خريف عام ١٩١٦ بعد ممارسة الجنس مع جندى، خاف من أن يكون مصيره للأبد يسكن في أطراف معزولة من شظاياها وطوال أسابيع غاص في اكتاب ونشر الكآبة بين أصحابه.

فى أوائل نوفمبر، انهار، "ذات الشيء المتألق، ليقوم بأول زيارة" كتب إلى فلورانس بارجر Florence Barger. فى البيت عند شارلز ليفيكس فى ١١ شارع رشيد من العباسية فى الحى اليونانى وهى منطقة أوربية ثرية متفرعة من شارع رشيد نحو بوابة الشمس. عاش ليفيكس وهو بريطانى ويعمل بالمحاماة فى المحاكم المختلطة كما كان أيضا يهوديا وروحا معلما فى جمعية الإسكندرية الصوفية. كان الجميع يتحدثون عن العقائد والآداب وفى روح المدينة الهيلينية المسيحية قد وجدوا تعاليم التجسد فى رواية Howard Ends ثمة اهتمام كبير وتسامح بين الجاليات المختلطة هنا قال فورستر لفلورنس، رغم أنها مدينة رائعة بتوقعها الثقافى حيث تختلط الأديان فى عنصرها، لا تترك مجالا لم تعرفه جامعة كمبريدج باعتبارها فكرة.

يضعها على الفراش، ويدلها فى ليفيكس - "حمامات ساخنة، وثلاثة خدم من العرب يقفون على رأسى" (١٠٠) فكر فورستر كيف أن القديس أثناسيوس Athanasius وهو بطريرك الإسكندرية فى القرن الرابع الميلاد، دمر تتاعم المدينة الهيلينية القديمة من خلال نشر تعاليم الأرثوذكسية المسيحية فى إنكار الذات والتى اعتبرها فورستر تحولاً خاطئاً تبنته الحضارة الغربية.

بعد أسبوعين من زيارة ليفوكس تقياً، ورغم أن إيرين كانت تقوم بتقديم سوائل ساخنة من أعشاب طبيعية، فإنه استمر فى التقيؤ. اصطحبته للطبيب الإنجليزى، وشخص حالته بأنه مصاب بالصفراء، عندها تم إرساله إلى المستشفى

العسكري المطلّة على بحيرة مريوط. كانت المستشفى جميلة مع شروق أول شعاع للشمس في الصباح، وصفاء الأشجار، "فقد بدا لي أحيانا وكأنني في الهند." (١٠١) لقد اعترف بسعادته، فلم يكن مكلفا بعمل، لقد أحب الفراغ، ولكن تلك السنة التي قضّاها في الإسكندرية- وحتى ذلك اليوم- تركت في نفسه إحساس محصور في خندق. ثم انتقل إلى المنزلة ليستكمل علاجه ونقاها. (١٠٢)

في أول يناير ١٩١٧، عندما بلغ سن الثامنة والثلاثين، عاد إلى مسكنه وراح ينسخ من رواية والتر باتر Marius the Epicurean قطعة من ماركوس أوريليوس من المدينة المثالية، ولكنه كان يشعر أنها تكمن هناك أبعد من فهمه عما كانت في مدينة أفلاطون Plato، فقد كان ماركوس "مقتنعا بأنها كما تتضمن الرقة والشفقة والفضيلة والحكمة والجمال فهي صفات ليست كافية". (١٠٣)

في غضون بضعة أيام بدأ يتابع محصل الترام "محمد العدل" ومن خلاله أصبحت مدينة الإسكندرية مدينته الفاضلة.

عادت أيرين في وقت متأخر في أول يناير في عام ١٩١٧، ركب فورستر ترام باكوس وجلس هناك حيث كان يحتفظ محمد بمعطفه. كانت الليلة باردة، وطلب محمد منه أن ينهض ليأخذه. لم يتحدثا من قبل، وقد كان فورستر سعيدا باكتشاف أن محمدا يعرف الإنجليزية وفي المقابل تبادل كلاهما نظرات الإعجاب على سلوكهما. وبعد ذلك إن تكرر اللقاء في محطة الرمل، فإن محمدا يبادره بالتحية. وبعد ذلك في مارس، قدم له فورستر ثمن التذكرة، فقال محمد "لن تدفع شيئا" (١٠٤) وهو يذكره بواقعة المعطف، ويذكر له كم كان لطيفا معه إذ قدم له السعادة.

في الليلة التالية بينما كان فورستر عائدا إلى محطة الرمل أهداه نسخة من مجلة بنش Punch للكاريكاتير. كان فورستر يكتب بعض الملاحظات عن علامة

محمد ورقم ٦٨ ويضع دبوسا أبيض وأزرقي، ولكنه لا يعرف اسمه ولا جدول عمله، ويتوانى عبثا. وذات مرة وجد ترام محمد. ركبه وقدم لمحمد سيجارة ولكن محمدا رفضها وقال إنه نادرا ما يدخن لأن "وزير المالية لا يسمح لي بذلك".^(١٠٥) واعتبر فورستر هذا إشارة للبقشيش وعرض أكثر من أجره التذكرة، وقال له أن يحتفظ بالباقي، غير أن محمدا قبض يده وترك القروش تسقط على الأرض. منظر مضحك يرسمه فورستر حوله بعد أن جثا على ركبتيه ليقتنع محمدا بأن يقبل البقشيش. وبدوره فإن تردد محمد أسعده كثيرا، في ذلك الوقت زار فورستر منزل أحد معارفه، كانت عشيقته هناك، وكذلك عشيقة أحد أصدقائه - وهي فتاة نكية تحدثت معه عن ديستيفيسكي. حسدتهما على طمأنينتهما وليس على علاقتهما. لقد كان مداهنة واستحياء وأساسا تجاريا: والتي وجدت فيها - ليس خطأ ولكنه بعيد عن الإثارة الجنسية بشكل كبير.^(١٠٦)

وقد استمر الغزل حتى أبريل ومايو، وفورستر يقضي الساعات الطويلة ينتظر الترام المطلوب، والمحصل المرغوب، وهو طوال الوقت يجد الوسيلة ليرتب اللقاء لكي يبدو لقاء مصادفة. ذات مرة بينما كان فورستر على موعد مرتبط بالمستشفى في المنتزه، قال محمد "أريد أن أسألك سؤالا عن المسلمين وأرجوك أن تجيب عنه بصراحة يا سيدي". ولكن لم يسعفه الوقت للإجابة وقال إنه سوف يلحق به في رحلة العودة، وقد طلب فورستر من محمد بأن يحدثه عن كيفية قضائه وقته. ثم سأله محمد: "لماذا يكره الإنجليز المسلمين. فقال فورستر "إنهم لا يكرهون المسلمين. فرد محمد "بل يكرهونهم، لقد سمعت أحد الجنود يقول لزميله في الترام "هذا مسجد لممارسة الرذيلة (عذرا أيها المسلمون) اعترض فورستر على ذلك قائلا إن أعز أصدقائه هو مسلم، وقد ذهب إليه في الهند ليزوره. بدأ محمد يفكر في طريقة أفضل في إنفاق المال: "لو كنت غنيا لبنيت مستشفى للعيون، ثم مسجدا".^(١٠٧) ثم أنفق الباقي على نفسه، ويفعل كما يفعل فورستر يسافر ليرى العالم.

وعرف فورستر وقت دوام محمد، وبدأ يتخلى عن فكرة أن اللقاءات التى يجريها معه مصادفة، كما كان يتجنب المناقشات الطويلة حتى يدفع تذكرة الترام، ولكن خلال رحلتها المتكررة معا كانا يقضيان وقتا جميلا يتبادلان فيه أطراف الحديث. ولكن الحادثة التى استحققت التوبيخ فى لحظات ركوب المترو الممتعة، والتى سببت أزمة العلاقة بينهما، فهى ما كان ذات مرة حين صعد مفتش التذاكر واكتشف أن فورستر استقل المترو بدون تذكرة، التفت إلى محمد غاضبا. بعد ذلك سأله فورستر عما حدث، فقال محمد: "لقد طردنى من العمل". أحس فورستر بالرعب وقال "هذا أمر مؤسف" ولكن محمدا قال "لماذا؟ لقد قمت بعمل جيد وحاول أن يغير الموضوع، وسأله كم المسافة من هنا إلى الهند. "صاح فورستر "لا أعرف ولا أهتم! متى أراك ثانية؟" (١٠٨)

فى صباح اليوم التالى ذهب فورستر لزيارة فورنيس Furness الذى استدعى ناظر المحطة وعاد بأخبار طيبة وبأن كل شيء على ما يرام. ورغم التعاطف، فقد طلب من فورستر بأن يكون حذرا - "من الظروف العامة والمتفرجين... إلخ. - كما نصحه بأن يعود للترام الذى فات محمدا. فتجاهل فورستر النصيحة: "بل على العكس، تقدمت للأمام وهو الشيء الذى تباهيت به طوال حياتي". قال محمد له إن هذا الموضوع قد سقط من اهتمامى، وسأله إن كان قد قابل ناظر المحطة. فأجابه فورستر بالنفى، ولكن عندما سأله فى طريق عودتهما إن كان يمكنه أن يقابله، فأجابه محمد بكل امتنان فى أى وقت وفى أى مكان وفى أى ساعة. (١٠٩)

كان محمد يبلغ نحو سبعة عشر عاما عندما رأى فورستر أول مرة فى ربيع ١٩١٦ خلال بقاءه مع فورنيس، ولم يزد عن الثامنة عشر عندما بدأت علاقتهما. كان آخر لقاء بينهما فى فبراير ١٩٢٢، وعندما مر بمصر ثانية فى

طريق عودته من زيارته الثانية إلى الهند. في إنجلترا في غضون بضعة شهور تناول مذكرة وبدأ يكتب "رسالة" إلى محمد، استمر يكتب فيها بين الحين والآخر وطوال سبع سنوات. وأخيرا في ٢٧ ديسمبر ١٩٢٩، كتب فيها :

إلى محمد العدل :

الذي توفي في مدينة المنصورة في الثامن من مايو ١٩٢٢ وعمره يناهز الثالثة والعشرين، مات بعد معاناة من داء السل الرئوي، كما ماتت أمه، ومات أبوه وشقيقه وابنه، جميعهم ماتوا قبله، ثم ماتت ابنته، أرملته التي تزوجت بعده.

وإلى حبي له.

لقد بدا فورستر في "خطابه" كأنه يعود إلى تلك الليلة في مايو ١٩١٧ عندما قال له محمد "في أي وقت وفي أي مكان وفي أي ساعة: "الليلة يجب أن أكتب إليك بكل اشتياق حتى لو كنت مضطرا لتمزيق صفحات الرسالة فيما بعد. لا بد أنني أحببتك بنفس الطريقة ولكن كيف يأتيني الإحساس ويختفي! لقد جاعني ذلك الإحساس عنوة عندما وافقت أول مرة أن تقابلني. فنزلت من الترام في محطة سيدى جابر ثم عرجت على البيت في الظلام". (١١٠)

ومحطة سيدى جابر لم تكن المحطة التي يجب أن ينزل فيها فورستر من الترام. فمن هناك كانت المسافة سيرا على الأقدام طويلة إلى أبرين، سواء في عودته إلى كامب شيزار أو محطة سابا باشا، (حيث كان يعيش أحيانا) وربما يتذكر تحذير فورنيس في ذلك الصباح، لقد كان مبتلى بالكثير من الحذر وكأنها عاطفة مشبوبة في منزل متعثر من حيث هو فعل. فإن التأثيرات المانعة والمشوهة من مخاوف الكثيرين وتأثيراتهم على عقلية فورستر. وفي خلال أحداث الحرب العظمى على الإسكندرية، كان يخوض معركة شخصية وقد رأى أن المعركتين

مرتبطتان: فهو ليس جنديا ولكنه كان يقاتل ضد أهوال الحرب غير الإنسانية، يناضل من أجل العواطف والعلاقات الخاصة.

كان ثمة خوف من متابعة فورستر المحمومة لمحمد محصل الثرام، بينما هو يعترف أنه انتهك تلك العلاقة بالنسبة لفلورانس في ٢٩ من مايو ١٩١٧: "لقد غمرني قلق شديد من تلك العلاقة الجميلة. ولكنه اعترض في نفسه، لا ضير من الإحساس بالخوف، فالخوف هو عاطفة المواجهة بأمانة، ما كان سببا للفساد الذي يضغط على العادة وعلى العرف الاجتماعى محاولا أن يجعله يتصرف بزيغ وخداع.^(١١١) فهذا العالم هو الذى عرفه فى إنجلترا وعالم أمه، والذى احتفظ فيه بطفولته، وبعد ثلاثة أيام تالية، مشيرا مرة أخرى إلى محمد، قال لفلورانس عن مروره إلى البعد الجديد: "أشعر أنني رجل ناضج".^(١١٢)

كان شوقه يفوق حدود العالم الاجتماعية والعاطفية التى كان يسعى لتحقيقها فى رواياته، ولكن مع رواية *Howards End* ضرب الحائط، وهو يعترف بأن ما كتبه عن الهند بعد حادثة مسعود، "شئ يفوق مجال العمل والسلوك: مياه الأنهار ترتفع عن الأرض لتربط نهر الجانج بنهر جومنا *Jumna* ويلتقيا"^(١١٣) - وهذا شئ أكبر من أى حيلة يمتلكها روائى، بركة بالنسبة لنهر الجانج ونهر جومنا يقال إنه يمكن جمعهما معا فى نقطة التقاء النهرين عند ساراسواتى، استثناء خفى من عين الإيمان. هنا يأتى الحجاج الهندوس ليغتسلوا ويطهروا أنفسهم من الذنوب والعواقب الأخلاقية المتراكمة من أفعالهم الماضية. ولكن رغم أن فورستر استطاع أن يهيب السعادة إلى الأخوات شيلجل *Schlegel sisters* فى شكل زواجهم المثلى الصريح فى رواية *Howards End* فإن بحثه عن الارتواء ظل خفيا ومخيبا للأمل، كما أنه لم يستطع أن يتباحث مع نفسه من خلال كتابة *Maurice*، وهى روايته الصريحة عن الجنسية المثلية.

أما في الإسكندرية فقد أصر فورستر على أن يربط العاطفة بالجسد وفي محمد العدل وجد البركة التي كان يبحث عنها. في تلك الليلة من ليالى مايو نزل فورستر في محطة الرمل في سيدى جابر واتفقا على اللقاء في مكان يسميه محمد "حدائق الشاطبي"^(١١٤): لم يكن يعرف اسمها الحقيقي فشرح له محمد المعنى وأن الحدائق كانت قريبة من الشاطبي فسُمي كل شيء باسمه. تذكره الترام احتفظ بها ضمن مذكرات لقاءاته: وعلى ظهر التذكرة كتب: "الأzarبطة وليس محطة الرمل على الطريق عند العمود".^(١١٥)

في منزله المضطرب من سيدى جابر: "من خلال الرمل فهو لا يقصد الضواحي الشرقية، ولكن محطة ترام الرمل في المدينة لم تجذب انتباهه في أثناء لقائهما هناك، بدلا من ذلك محطة واحدة هي الأzarبطة وفي الطريق منه إلى حدائق البلدية (حاليا حدائق الشلالات) في دليله يصف فورستر الحدائق بعد الخط التالى من جدران العرب وتقاطع طريق عند ترعة "قرخة Farkha Canal القديمة التى كانت حتى بداية القرن العشرين مرتبطة بترعة المحمودية، والبحر: "فكانا الترعتين كائنا كنا نستخدمان، وانقلبت الحصون إلى لوحة رائعة من الروابي أو ما بقى من صلوات الماسونيين، وبالرغم من القليل الذى يستحقونه لأنفسهم، فقد اتضح تماما أنها تجمعت وبدت مثل قطعة من العصور الوسطى تحت نور القمر، فى حين يتم حفظ ماء القناة فى حوض صناعي هو مسكن للبط، فإن الحدائق يجب أن يتم استكشافها على الفور".^(١١٦)

حتى من محطة الترام فى الأzarبطة، يمكن رؤية العمود يرتفع من الطرف الغربى من الحدائق. قسبة موحدة من عهد البطالمة مأخوذة من جرانيت أسوان، وربما من المبنى الضخم من الناحية الملكية المحيطة. يحيط بجانبى المبنى تماثيل سيخمت Sekhmet وهى إلهة الحرب برأس أسد، وقد تم نصب العمود لإحياء

ذكرى استعادة مدينة الخرطوم بواسطة الجنرال كيتشنر فى الثانى من سبتمبر ١٨٩٨، بعد ثلاث عشرة سنة من سقوطها فى أيدى الإمام المهدي Mahdi فى السودان و وفاة الجنرال جوردون Gordon.

هنا فى مايو ١٩١٧ تم أول لقاء بين محمد المصرى الأنيق والمعتز بنفسه وفورستر الإنجليزى مقبدا له الكعك. جلس الاثنان على أريكة أمام مشهد بط يسبح. "لا أهتم بالكعك، ماذا دفعت لهم؟ كم من القرون مضت وأنت تشترىها؟" (بعد ذلك ذكر لفورستر أنه يعتقد أنهم مخدرون.) ثم قال فجأة "أتود أن ترى مسكن بؤسى؟ سيكون مريعا." (١١٧) ثم مشيا إلى الأزاريطه ليأخذوا الترام إلى باكوس، بينما كان محمد يسلى نفسه بتوزيع الكعك بين الركاب.

باكوس حى مزدهم جدا وفقير، وكما أنه منطقة هادئة للطبقة الفقيرة، ومنزل محمد يقف فى وسط حديقة تظللها شجرة الجكرندة، (نموذج تقليدى لبيت متواضع فى منطقة باكوس، وربما لا يشبه ذلك البيت الذى عاش فيه محمد، الذى كان فى ١٢ شارع الكنواى وهو متفرع من شارع مصطفى باشا، هنا فى ١٥ يناير ١٩١٨ حيث ولد جمال عبد الناصر، ابن ساعى البريد وحاكم مصر القادم). إن محمدا قد يستخف بقدره بطريقة ساخرة ويقول "مسكن البؤس" ربما بشيء من المبالغة، فحياته بسيطة جدا، غرفة واحدة تبدو لفورستر غرفة بائسة وخالية من الأثاث - فتح محمد صندوقا يضم كل مقتنياته، نثرها أمامه، وقال "مش كثير ولكنها نظيفة، لقد عرضت عليك كل ما عندي." (١١٨) ثم جلسا معا على السرير والطعام بينهما وراحا يتبادلان أطراف الحديث، ولأول مرة ينطق محمد باسم فورستر ويحدثه عن حياته. فقال إنه حضر إلى الإسكندرية قبل أقل من سنتين من مدينة المنصورة فى شرقى الدلتا، حيث تعلم القراءة والكتابة كما تعلم اللغة الإنجليزية فى مدرسة التبشير الأمريكية American missionary. بينما بقيت أسرته فى المنصورة، ولكنى

"أشعر دائما أنني منفصل عنهم أكل وحدى، وأعيش بعيدا عنهم وأفكر بطريقة مختلفة. ربما لم أكن ابن أبى. "شعر فورستر بعدم الارتياح من سنوات حرمان محمد ولكنه كان متأكدا من نضجه، واستقلاله وأخلاقه، كتب إلى فلورانس، "نادرا ما كنت أصدق ابن مصر، فلا يوجد فى جسمه ولا فى عقله طمى النيل". (١١٩) وكان محمد مثيرا حتى إن الإنجليزى قد دخل بيته، قال له وهو يودعه "هذه أسعد ليلة فى حياتى". (١٢٠)

ثم عاد فورستر إلى غرفة محمد وقدمه إلى بعض أصدقائه، القابلة السورية، ومصرى يدير مكتبا للزواج، يتحدث الإيطالية، ولكن اهتمام فورستر كان منصبا على محمد: "إننى مفتون بشخصيتك وكلامك" كتب إليه رسالة فيما بعد: "وأبحث عن علامات توحى بأننا نتبادل المشاعر الحسية، "لاحظت أنك تضع يدك فى جيب الجاكت حينما نلتقى". (١٢١) الآن فقط نطق باسمه "محمد" ولكن لم يذكر شيئا عما فعله فى الحياة.

كان لقاءهما الثالث، هى لحظة من السعادة - فى غرفة فورستر بمنزل أيرين فى محطة الرمل، فى منتصف شهر يونيه، و"بدأت الملاطفة". فى "خطابه" يتذكر فورستر كيف لعب الشطرنج ثم رقد على السرير:

"لمست ركبتيك - انحنيت نحوى، مددت يدي ولمست شعرك، قلت لى "إن شعري قصير ولكنه مجعد" ولمست شعري وقلت "شعرك جميل" ومالت رأسي إلى رأسك، وعلى الوسادة، وضعت ذراعيك الأيسر تحت رأسك. ثم تبعته أول قبلة لنا.. وبالنسبة للباقي.. كان المساء مشوشا، رأيت كتلة فى بنطلونك، فككت الأزرار، كما فككت أزرارى، أول شيء قلته لك "إننى مغرم بك؟" قد تكون هذه العبارة أثارت استيائك وتقول "ماذا تقصد؟" ثم همهمت عندما رأيت حالى رغم

أننى كنت مهيباً لك. شيء ما أثار ضجرك. وعندما لمستك ثانية، دافعت عن نفسك وأوجعت يدي. لم تنصرف عن سريرى، ولكنك لم تدعنى أقرب منك وصدفة خدشت وجهك، سال الدم، هنا انتبهنا. ذهبنا إلى المغسلة لنوقف الدم، ظننت أنك كنت تؤمن بالخرافات وأنتك ستنتقم منى لأننى أذيتك، ولكن فى اليوم التالى، تقابلنا فى الترام وضحكنا معا مما حدث." (١٢٢) لقد استخدم فورستر نفسه عبارة "تاعم بالسعادة" فى وصفه لفلورانس ما قد حدث، فإن معناها "منحة" ولكن محمد يجب أن يدافع عن نفسه أمام عنف فورستر. وصفه ذات مرة بأنه أشبه "برجل جاء ليلاً ساعات الحائط" (١٢٣) فى الحقيقة، كان فورستر رجلاً اعتاد على الوصول إلى طريقه من خلال صياغة عبارات تبدو عكس ما حدث، رغم أنه بمعنى آخر للكلمة فإن استخدامه كلمة "مبارك" كان دقيقاً تماماً، فمعناها الحقيقى هو أن يجعلها مقدسة من خلال العلامة بالدم أو التضحية.

فى آخر يوميه كتب إلى جولدزورثى لويس ديكنسون قائلاً: "لا أعرف كيف ستنتهى. ولكن كيف ينتهى أى شيء؟ يجب على المرء أن يعمل كما لو أن شيئاً يدوم." (١٢٤)

لن يستغرق وقتاً طويلاً..

توضحها سنوات من الخبرة

وفى السطور التالية من "فى المساء In the Evening" والتى نشرت فى ١٩١٧ وكتبها فى السنة السابقة، إحساس بالضيق يسود فى شعر كفافيس. وما يعوضه هو تذكر إحساس تختلط فيه الحياة بالمدينة:

ذكرى أيام اللهو
عاودنى صدى تلك الأيام
حريق من أيام الصبا الذى اقتسمناه
تناولت الرسالة ثانية
قرأتها مرات ومرات حتى ذبل الضوء
وفى أسى خرجت للشرفة
خرجت لأغير أفكارى عند آخر ما رأيت
شيء ما فى هذه المدينة التى أحببتها
حركة ضعيفة فى الشوارع، وفى المحلات (١٢٥)

كان كفافيس قد بلغ الرابعة والخمسين فى عام ١٩١٧، حينما تعرف عليه فورستر، وقد كان فى قمة نشاطه الجنىسى المثلى، لأكثر من ثلاثين سنة. أما وقد صبغ شعره، وبدأ يعتنى ببشرته، فراح ينسحب إلى الذاكرة باستمرار ليستعيد ذكرياته. ولكن فى أيام صباه فى الإسكندرية، بدا وكأن لم تكن له علاقات جنسية، ولم يعرف عنه يوما أن كانت له علاقة دائمة مع أى صديق، ولكن، كان كفافيس سخيا فى دفع النقود من أجل الجنس:

الغرفة رخيصة وقذرة
متخفية فوق حان مشبوه

...

وهناك على فراش عادى مستوى
أحببت جسدا..

"ذات ليلة" (نشرت فى عام ١٩١٥) (١٢٦)

عندما كان كفافيس في العشرينيات والثلاثينيات من عمره، ويعيش مع أمه في شارع دى لا جار في محطة الرمل، كان يدفع رشوة للخادم ليقلب له السرير ليبدو أنه قضى ليلته في البيت ثم انسل إلى ضاحية العطارين Attarine أو إلى أبعد من المطردة في الجنيّة في شارع أنستاسى Anastasi الموازى لشارع الرّاهبات Des Soeurs. هنا على الأطراف القذرة من المدينة الأوربية، شباب يونانيون أغلبهم من المهاجرين الفقراء يقومون بأعمال شاقة وساعات طويلة في مقابل أجور هزيلة، عمال في محلات البقالة، أو سعاة في حانة يعملون سبعة أيام في الأسبوع، وعطلة يوم واحد في السنة هو شم النسيم، وهو عيد الربيع في مصر ويعود تاريخ الاحتفال بهذا العيد إلى عهد الفراعنة، والذي كان يصادف عيد "الثنين الفصح" في الكنيسة الأرثوذكسية. "كل ذلك الشقاء والحركة جعل أجسامهم رشيقّة وخفيفة" كما لاحظ كفافيس، "أنهم كانوا يميلون دائما إلى النحافة. وجوههم بيضاء حين يعملون في داخل المحلات بينما في خارج المحلات تميل بشرتهم إلى السمرة، وعموما بشرتهم جميلة وشاعرية." ولكنه لم يكن محايدا بالنسبة لظروفهم الاجتماعية والتي يعارضها مع الشباب الثرى المريض وهو من الناحية النفسية قنر، أو سمين بسبب كل أنواع الطعام الدسم والمشروبات والأسرة الوثيرة.^(١٢٧) لقد كان مفتونا بجمال أولئك الشباب الفقير ورأى أن يعوضهم عما يفتقرون إليه، رغم أنه لم يحاول أن يستغلهم، لقد كان منجذبا لقدراتهم. من الغرف العلوية في الليل تسمع الصرخات والصيحات من المواخير حيث تتناول الفتيات والشبان كل طعام ومذاق: هنا من أجل حفنة من القروش كان شباب قصاد كفافيس يقدمون له أجسادهم المنهكة:

في الأمسيات، وبعد قفل المحلات،

ثمة شيء يشاق إليه

....

قميص لبني جميل معروض في أحد المحلات
يبيع جسده بنصف قرش أو قرشين
سألت نفسي إن كانت الإسكندرية العظيمة
من العصور القديمة تتباهى بولد
أكثر فتنة وبهاء وجمالا..
.. ليس لدينا تمثال أو صورة له،
مندفعا في محل الحداد المسكين
مجهدا من العمل، منهك القوى، يعرض على إغواء رخيص
ثم يهده الجهد تماما.

"أيام من ١٩٠٩" "١٠ و ١١"
(نشرت في عام ١٩٢٨) (١٢٨)

في المدينة القديمة، يقول كفافيس في هذه القصيدة، إن الجمال تم تشريفه في
الرخام. وكذلك تناقض الحاضر مع الماضي، ويقترح كفافيس شيئا إضافيا: إن
الشذوذ الجنسي يعتبر حالا في الإسكندرية فسادا أخلاقيا كبيرا، أما في ماضي
الإسكندرية العظيمة وفي العصور القديمة فقد كان الشذوذ الجنسي أمرا طبيعيا،
كان يحتفل به النحاتون والرسامون ويهتف له الشعراء في المقتطفات اليونانية The
Greek Anthology تماما مثل أغلب أشكال الإثارة الجنسية الهيلينية. وإن كان
الأمر كذلك، فلماذا يستهجنونه الآن؟ إنه الجدل الذي نسج طريقه خلال شعر
كفافيس، هنا في قصيدة وحيدة غير مألوفة ولكن أكثر من كونها انسجاما يبدع بين
قصيدة وأخرى وبين الماضي والحاضر.

ولكن كما عرف عن كفافيس (فى مكان آخر من شعره، كان شديد التدقيق فى اهتمامها بالتفاصيل التاريخية غير المعروفة) إن اللواط لم يكن لديه هذا الموقف فى الإسكندرية القديمة. فالشاعر كليماخوس Callimachus الذى كان فورستر يقارن به، بالرغم من أنه كان ينشر بحرية شعره الجنسى الماجن، لم يعتبر منبوذا لكونه لوطيا، يعانى من عشق الشباب، وقد صاغ إحدى قصائده. فما كان الأقدمون يحتفلون بالجمال الجسدى، ولم يبدُ أى نوع من الدهشة بأن الرجل قد يرغب أيضا فى عناق وحب رجل جميل آخر، ولكن كان هذا فى سياق الخنثى وخصوصا الممارسة بين الشباب فى سنوات المراهقة الأولى وقبولهم المسؤوليات الاجتماعية للرجولة. إن اللوطية تعتبر بغیضة لسببين: السبب الأول للحفاظ على التماسك فى العالم؛ إذ إن معدلات الوفيات عالية، والسبب الثانى هو الرجال الأحرار الذين تقع على عاتقهم المسؤولية المدنية كاملة فى وضع هيكل بناء الاجتماعى، للحفاظ على مكانتهم السيادية والمتعلقة خصوصا بالنساء والعبيد. فالسماح للمرء فى أن ينخرط فى علاقة مع رجل آخر يعنى أن يضع نفسه فى مكانة المرأة من الناحية الجنسية والناحية الاجتماعية. والنتيجة هى عهر الرجال مخاطرة بعقوبات قانونية واجتماعية غليظة أشد من العقوبات التى تتعرض لها الإناث، بالإضافة إلى النفور من طمعهم وشرائهم التعويضية. كان الشاعر اليونانى القديم كليماخوس يرثى حال ضياع الفضيلة فى عالم يكون فيه الأثرياء من الرجال يعرضون عليه ثمنًا للإشباع، ويكون موردا قصيرا يصبح على المدى الطويل ازدياء متزايدا: "أكره الشاب الذى يستطيع أى رجل أن يمتلكه ولا يعمل. أشرب من نافورة عمومية، كل الأشياء المشتركة تثير اشمئزازى." كان كفافيس محظوظا لأنه عاش فى مدينة الإسكندرية المعاصرة حيث الشباب الرخيص، ولكنه أيضا كان يعرف كليماخوس

Callimachus اللوطى الوحيد الذى لم يتقبله المجتمع، مثلما يجب أن يعترف بأن الإسكندرية فى شعره هى المدينة المثالية، كان حزينا من خفة اليد.

فى يناير ١٩١٧ أبدى فورستر استخفافه بأن القوى الإبداعية لكفافيس كانت مكرسة لمراجعة وإحياء الماضى، ملاحظة من المحتمل أن تركز على الحوار فقط، وبالنسبة له على ما يبدو أنه لم يعد قادرا على قراءة أى من شعر كفافيس. ولا أن يشاركوا فى التفاصيل الحميمة لحياتهم، وغير قادرين على تقديم - كذلك - الملاحظات المختلفة.

(اليونانيون يدفعون نقدا، والإنجليزى يقوم بتحويل العملة بما يسميه الحب) هل يستطيع أن يقدم لكل منهم نصيحة عملية، فى الأغلب تشجيع عام. كانت صداقتهم أدبية وحتى كانت فقط بداية، ولكن فى النهاية غيرت رؤية فورستر للتاريخ كله.

كتب فورستر إلى روبرت تريفلين فى أغسطس ١٩١٧ "إن الهروب من حرب الإسكندرية أمر لا نظير له: هروب الرقص السورى. البدو يضعون البيض، الفرنسيون يقدمون المحاضرات حول الثقافة للفرنسيين. أما الإيطاليون فإنهم يشيدون القنصلية جديدة فى مواجهة محطة الرمل. لقد شاهد الإنجليز مسرحية كانديدا Candida أو كاشف الرذيلة "Vice Detected" (١٢٩)

ولكن هروبه المفضل هو اللغة اليونانية، فاليونانيون هم الجالية الوحيدة هنا التى تسعى لفهم ما يتكلمون عنه، وحينما تكون معهم يعنى أن تعيد الدخول إلى عالمهم الأكاديمى المنقوص. فهم الوحيدون المهتمون فى شرق مدينة فينتميجليا Ventimiglia: مدينة قنطرة، خادعة، غير أرسقراطية، متقلبة ومغلقة بأحلام هيلينية وببزنطية - غير أنهم يثورون ولديهم رغبات إبداعية، ويطوف عليهم فى

النهاية. من خلال اللغة اليونانية كان اهتمام كفافيس: لقد قرأت قصيدة أو قصيدتين من (أشعاره) وكنت أظن أنها جميلة. (١٣٠)

انتقل التعارف بين فورستر وكفافيس من اجتماعات نادى محمد على وأمسيات أدبية فى الضاحية اليونانية. يروى فيها ما يتردد من الشارع القريب من مركز المدينة ويسعى لرؤية الجنّلمان اليونانى وهو يرتدى قبعة من القش، واقفا ساكنا عند زاوية من العالم. لقد كان كفافيس فى طريقه إلى مكتبه وربما اختفى بإشارة بسيطة من اليأس. ولكن إن عاد من مكتبه إلى شقته ربما يقتنع فى أن يبدأ بصياغة عبارة قوية "عبارة تتحرك من المنطق إلى نهايتها الخفية، ولكن فى النهاية ثمة شيء دائما مثير ومشرق أكثر مما يدركه المرء. يلقيها بسهولة متساوية باللغة اليونانية أو الفرنسية أو الإنجليزية، عبارة تحمل مستمعها أحيانا طوال الطريق. فى عودته إلى الشقة. "إذ تتعامل مع سلوك مخادع للإمبراطور ألكسيوس كومينوس Alexius Comnenus فى سنة ١٠٩٦، أو مع الزيتون وأسعاره المحتملة أو مع ثروات الأصدقاء، أو مع جورج إليوت، أو اللهجات المحلية من أسيا الصغرى. "ففيها يكشف فورستر بأن شيئا يخرج من نطاق ما عرفته كميريدج، كفكرة، بالنسبة لثراء المتقنين والنظرة الإنسانية، رغم نضج آرائها الخيرية، يشعر المرء بأنها فى زاوية واحدة من الكون: إنها عبارة شاعر. (١٣١)

حاليا يقوم فورنيس باصطحاب فورستر لزيارة شقة العائلة المعتمدة (١٣٢) فى شارع ليبسيوس Lepsius حيث عاش الشاعر سنواته الخمس والعشرين الأخيرة من حياته التى بدأت من عام ١٩٠٧ حتى مطلع عام ١٩٣٣. لم يكن يقصد البقاء هناك طويلا، وحتى فى سنة ١٩٢٥، كان يقول لأحد أصدقائه، "هل أترك المكان أو أدخل الكهرباء؟" (١٣٣) كان كفافيس بوجه عام يعيش فى البيت بين نحو خمسة أو سبعة من الأصدقاء الذين يهتمون بزيارته، يقضون الساعات عندما كانت غرفه، تطل على الشارع الشرقى للحديقة للمستشفى اليونانى وكنيسة القديس سابا، خلفها يغوص فى ظلمة شديدة، يقول فورستر: "لقد كانت لقاءاتنا فى العتمة." (١٣٤)

ولم يضى لهم شعر كفافيس الذى لم يترجم بعد إلى اللغة اليونانية، صحيح أنه من الصعب نشره بالمعنى التقليدى للعبارة. ولكن بعض قصائده، كانت تظهر أحيانا في بعض المجلات الأدبية اليونانية الرئيسية التى تصدر في المدينة مثل Nea Zoe أو مجلة Grammata ولكن غالبا كان كفافيس يطبع كل قصيدة على حده وبطبعة خاصة، ومن ثم فإن القصائد المطبوعة يتم جمعها في ملفات ويتم توزيعها على مجموعة منتقاة من جمهور القراء. "وكونك مفهوما في مدينة الإسكندرية ومقبولا في أثينا هو أقصى طموحاته".^(١٣٥) يذكر فورستر، أن إمبراطوريته الأدبية كانت تمتد إلى أقصى العالم حيث تنتشر اللغة الإنجليزية، رغم تنازل كفافيس، الذى كان يتحدث عن شكسبير وكأنه عاش خارج أسوار المدينة التى لا تتكلم غير اللغة اليونانية. «^(١٣٦) كما أن فورستر أيضا وقف بدون تلك الجدران ولكن كفافيس كان يتحدث كثيرا عن التاريخ، والتجربة وحساسية اللغة حينما يقول، "عزيزى فورستر لن تفهم شعري أبدا".^(١٣٧)

وفي واحدة من الأمسيات في شارع ليبسيوس Lepsius - ظهرت قصيدة "الله يتخلى عن أنطونيوس" واكتشفت بعض تزامن الأحداث بين سياقها اليونانى والمدرسة العامة اليونانية. لقد كان كفافيس مندهشا. "آه ولكن هذا جيد، عزيزى فورستر، هذا رائع فعلا" ورفع يده، تولى المسؤولية وصاحبني فيها. فهى ليست معرفتي أننى لمسته، ولكن رغبتي في أن تعرف وأن تتلقى".^(١٣٨)

في ساعة من منتصف الليل

نسمع فرقة موسيقية تمر

تعزف موسيقى فاتنة - وأصواتهم الساحرة -

لا تنعني حظك بأنه يهبط أخيرا،

فقد أخفق سعيك في الحياة، بينما كانت خططك أوهاما

ولكن مثل إنسان يستعد، مثل رجل شجاع

يودعها، الإسكندرية يرحل عنها.

ووراء ذلك، لا تخدع نفسك ولا تقل كان حلما
إذ أخطأته أذنك.

لا قبط إلى تلك الأمانى الخاوية
كإنسان يتأهب طويلا، مثل شجاع
مثل إنسان يستحق تلك المدينة
يمضى راسخا نحو الشرفة
ويسمع بحب
ولكنه بصلوات الناس وشكاواهم
(آه! نشوة غالبية!)

استمع إلى شذو الموسيقى الرائعة للفرقة الصوفية
ويودعها، يودع الإسكندرية، التى تخسرهما. (١٣٩)

الإسكندرية هى عاصمة خيال كفافيس - "ملكة العالم اليوناني/ عبقرية كل
المعارف، وكل فن" (عظمة البطالمة) وبرغم مواقع القصائد التاريخية التى تنتقل
خلال الشنات اليونانى من إيطاليا إلى اليونان إلى أسيا الصغرى، إلى سوريا ثم إلى
بلاد فارس، فإن الإسكندرية القديمة تستحق الرقم الأعظم. إنها الإسكندرية، المدينة
الروحانية (إن كانت فعلا ماتت) فأين ترى القصور والآثار التى تذهلك، ("المنافي")
حيث إن الجميع رائعون، متألقون، قادرين وخيرون، كل شيء يتناولونه يفيض
حكمة ("قيصرون" - وهو ابن كليوباترا ويوليوس قيصر وقد عرف باسم بطليموس
الخامس عشر المعروف بقيصرون أو قيصر الصغير - المترجم) ولكن فى كل
قصيدة موضوع هو الفشل. (١٤٠)

فعلى سبيل المثال فى قصيدته "ملوك الإسكندرية" والتى نشرت فى عام ١٩١٢، فإن الجماهير يتحولون إلى قدرة للعطاء من الإسكندرية، تم تنظيم احتفال كبير أقامته كليوباترا وأنطونيوس، حيث تم تسمية أبنائهما ملوكا على أرمينيا وميديا وبارثيا وصقلية وسوريا وفينيقيا، حيث إن قيصر هو الابن الأكبر لكليوباترا ووريث يوليوس قيصر الذى أعلن عنه بأنه ملك الملوك:

.. اليوم دافى ورائع،

السما صافية زرقاء

أما جيمانيزم الإسكندرية، فانتصار للفن

مظاهر رجال البلاط

قيصرى يفيض ألقا وجمالا

...

وأهل الإسكندرية يتسابقون لرؤية العرض

يملؤهم الحماس والتهليل

باليونانية والمصرية والبعض يهلل بالعبرية

وهم مفتونون بالمشهد الرائع

رغم أنهم يعرفون تماما كم هو رخيص

يا لها من كلمات جوفاء يصوغها الملوك. (١٤١)

فالحقيقة التاريخية هي أن العطايا ليست كلمات جوفاء ولا عظمة بلا مغزى، بل هي جزء من واقعية أنطونيوس، فإن طموحات الإمبراطورية الهيلينية الجديدة البعيدة المنال، تتركز في الإسكندرية. ونفس الشيء، فنحن نعلم أن الأشياء لا تصلح بهذه الطريقة، وهي أن كليوباترا وأنطونيوس هزما في معركة أكتيوم بعد ثلاث سنوات في سنة ٣١ قبل الميلاد، وانتحرا في السنة التالية وكان انتصار أوكتافيوس موجها لنفس الحشود في الجيمانيزيوم، واعداء الإسكندرانيين بالمزيد من التسهل والرفق لأن مدينتهم كانت رائعة جدا، ولأن الإسكندر هو مؤسسها- ثم قُتل قيصر. ("من الأمور السيئة أن يكون لديك كثير من القياصرة")^(١٤٢) ولكن بالنسبة لسكانهم في المشاهدة وبهجتهم في الخوض في الأحلام، فإن الإسكندرانيين عند كفافيس يعرفون أيضا: لن تستمر طويلا/ فسنوات الخبرة توضح ذلك"- ثلاثة آلاف سنة من الخبرة في المدن اليونانية والممالك والإمبراطوريات والأحلام كلها سقطت مرة بعد مرة من سخریات التاريخ.

وعندما جاء فورستر إلى الإسكندرية اعتقد بأن الحرب قد تضع نهاية للحضارة التي عرفها، ولكنه أصر على الأقل أن يقاوم الموت الداخلي. ثم اكتشف أن كفافيس، يقف في شرفته، والتي تكشف مجالا أوسع لمنبؤ المجتمع. لم يكن نموذجه هو الإسكندر، الذي أسس الإسكندرية ولكن أنطونيوس الذي ودع الإسكندرية: وسقطت أمام الرومان وأمام العرب، لقد رأى كفافيس القشل والضياح باعتبارهما التجربة المركزية للإسكندراني، مدينته الأصلية العالم الجريح من أيام الحضارة الهيلينية، والتي تحدث عنها ليشير إليها بأنها هي الحضارة الكلية لبنى البشر. ومثل الجماهير في "ملوك الإسكندرية" حاول انتزاع ما يمكنه من اللحظة التاريخية.

كان فورستر ومحمد يتقابلان كل أسبوعين في غرفة أحدهما- غير أن ساعات عمل محمد الطويلة في الترام منعت من تكرار اللقاء على فترات متقاربة-

ويتمتعان بما كان يسميه فورستر "التفاهم الجسدى إن لم يكن توافقا". ولكن حتى تلك اللقاءات غير الدورية انقطعت فى وسط يوليو بخطاب من محمد يقول فيه إن والدته توفيت وأنه مسافر إلى المنصورة لتشييع جثمانها. كان فورستر غاضبا من غيابه، وفى نهاية يوليو اعترف لفلورانس بأن لديه ما يدفعه لطبيعة علاقتهما: "قلت لك منذ أسابيع - بأننا افترقنا باحترام، لم نستكمل العلاقة تماما، وتمنيت _ أن نتجاوز الاعتراضات التافهة. لقد جعلنى أرى أننى ما يجب أن أفعل هذا.. إننى شارد حاليا- لقد أصبحت مشكلة كبيرة على، أن محمدا يجب أن يتحدث بهدوء وضعف وشغف: "وبمجرد أن يعطى فإنه سوف يعطى.. أعلم أنه سوف يساعدى".^(١٤٣)

فى أغسطس تضاءلت فرص اللقاءات الحميمة عندما حضر الأخ غير الشقيق لمحمد من المنصورة ليقدم معه فى باكوس (حيث جلس فى أحد أركان الغرفة والتي كانت ستكون لنا)^(١٤٤) بينما فى شقة إيرين فى الرمل زادت شكوكه، بدأ هو ومحمد يقضيان ساعتين معا كل أسبوع فى أحد المنتجعات العامة، يلتقيان ويفترقان هناك ولم يركبا الترام معا. وفى صباح يوم أحد قام محمد وفورستر بزيارة عمود السوارى ومقابر كوم الشقافة ومن ناحية أخرى خرجا إلى حدائق النزهة أو أحيانا فى المساء يعودون إلى البط فى حدائق البلدية فى وسط المدينة.

أما بخصوص الترتيبات والمحاذير فإن حلاوته وظرفه رائعان. إننى خجول، خجول أن أطلب منه أن يتصرف كما أريد.^(١٤٥)

وفى المقابل حافظ محمد على كبريائه: فعمله لم يترك له فراغا كبيرا- ويضيف قائلا: "أنا مستاء باستمرار من حالتى الصحية".^(١٤٦)

ثم يستثنى فورستر ويقول له، "لم أعد أريد المزيد من الأصدقاء فلدى ما يكفينى حالياً".^(١٤٧) ولكن أحيانا تبدو ملاحظاته تطرق المرارة أو ربما ثمة معرفة ساخرة بأن الموافقة والتحمل هو قدره وأكثر مما يعرفه فورستر. "وجدت بأن قدرًا من الكذب مطلوب وضرورى للحياة".^(١٤٨) كانت تلك حكمته فى الحياة، ولكن مع فورستر كان مستقيماً وبسبب من يلاحقه فهو قد يسمح. التملق والتأثر من اهتمام وعاطفة فورستر، قدمها له بدون تمثيل ولكن بعاطفته القوية.

كانت نزواتهم الخارجية تدخل البهجة عليهم من خلال حماقة محمد وسحره، ولكن وراء كل هذا كان هناك وضوح ونضج وخصوصاً تلك الدعوة التى تروى لفورستر. لقد اعتبرها فى بادئ الأمر وقاحة أن يدعو محمد بـ "فورستر" لكنه بعد تروى قرر الموافقة عليها، حتى تم تصميمها لتكسر الحواجز المادية والاجتماعية. وبذات الطريقة كان سعيداً عندما انتقده بعنف على مظهره: تعلم، فورستر، بأننى - رغم أنى أكثر فقراً منك ولكنى لا أرى ذلك فى معطف. فأنا لا ألومك - ولا أمدحك - ولكن لم يرنى أحد، وقبعتك بها تقب، وفى حذاءك تقب، وكذلك فى جوربك تقب".^(١٤٩)

وفى أحسن الأحوال كان فورستر يبدو شخصية خسيصة وأخرق، ولكن بالنسبة إليه فإن الغرابة تكمن فى مكان ما. كان محمد يرتدى دائماً طربوشاً وبذلة واحدة يرتديها فى خروجهما معاً، وعندما يكونان معاً فى باكوس يرتدى محمد جلباباً طويلاً وفوق الجلباب عباءة، كان الجلباب يفنقر إلى الأناقة: يضع فى قدميه قبقاباً، ولكن لا يهم أينما كانوا "يمكن ملاحظة تقاربنا": ووصف لفلورانس أن محمداً لسوء الحظ لونه أسود.. لا يشغل باله أن جاء للعالم بهذا اللون، إنها مشيئة الله التى منعت أمه من أن تنق وشماً لعصافير صغيرة على جانب عينيه. ونقاط على معصمه تفى بغرضها.^(١٥٠) بالطبع كان التقارب جزءاً من الإغراء، ولكن

بالنسبة لفورستر بدا وكأنه تحرر. ويقول "إن علاقتهما ليس فيها شيء من المهابة إذ يبدو أن المسيحية لها فكرة أساسية عن الرومانسية.. فلا أحد يخاف من أنه يرتكب عملا مشينا." (١٥١)

غير أن محمداً وبعد أن استمع إلى فورستر وهو يفلسف الأمور عن الصواب والخطأ، كتب إليه قائلاً، تأكد بأن آرائك الدينية لا تثير استيائي طالما أنك تحترم معتقداتي كما أحترم معتقداتك. لقد قلت من قبل إن الله يعرف ما حدث، وما يحدث وما سوف يحدث. فإنه يعلم بأن بعض البشر يعتقدون أفكاراً شيطانية ولذلك فهو خلقهم، ولكنه لم يأمر بأن تخوض فيها." (١٥٢)

ومع ذلك فإن فورستر مضى في طريقه ليجد أن كل ما يراه متناقض. والأهم من ذلك أنه كان يوفر لنفسه مستمعا لآرائه - ولكن ليس في الإسكندرية، بل في كل مكان ومهما كانت نوازعه، ولكن لا يوجد شيء معروف بالنسبة لاستمرار علاقته بمحمد (فورنيس ظن أن المسألة قد تلاشت تماماً، عابداً بورثشجريفنك Aida Borchgrevink لم تكن معروفة في ذلك الوقت، بينما آخرون بمن فيهم كفافيس ربما لم يتم الحديث عنهم) كان جمهور فورستر في إنجلترا حيث كتب عن علاقاته العديدة مع أصدقائه المثليين، لم تكن منتظمة كما لم يكن فيها تفاصيل يحتفظ بها لفلورانس برجير. من بين قرائه كانت جولدزورثي لويس ديكنسون (التي كانت تميل إلى إشباع جنسي عن طريق الحذاء shoe-fetishist رغم أنها لم تلق أى اهتمام من أى عاشق من الشباب)، وإدوارد كاربنتر (مؤلف كتاب الجنس المتوسط The Intermediate Sex وإلهام لموريس Maurice) وكان من بينهم أيضاً ليتون سترانشي (وهو الجنسي المثلى المتوهج عميد جماعة بلومسبري Bloomsbury Group والذي أكمل كتابه Eminent Victorian). وسترانشي الذي كان رأيه الشخصي في روايات فورستر أنها روايات من "المرتبة الثانية" (١٥٣) كتب

يقول "إن مواقفك المرئية يمكن أن تكون مقبولة رغم أنني أفترض أنك تحاول أن تخفى مواطن الضعف. وربما تبالغ في الرومانسية- سواء لمصلحتي أو لمصلحتك" (١٥٤).

"البدر وعلامات زرقاء على زهور الربيع، وقف يراقب غروب الشمس. والعصافير - ترقزق كما لم ترقزق في إنجلترا- تأوى إلى أعشاشها في الميدان السفلى." كان الوقت في نهاية شهر أغسطس ١٩١٧، وفورستر يكتب إلى فلورانس بيرجر من شرفة نادى الخديوية في شارع البورصة. السكان الأصليون في المدينة وخصوصا من الطبقة الدنيا يعيشون في تخلف العقل وقذارة الجسد، وليسوا أهلا للجمال والصفاء، يخرجون فقط ليحصلوا على ما يريدون. وهذه نظرية أقرب بها - بعد طول تردد، وقد انهارت كغيرها من النظريات. "علاقته بمحمد كانت انتصارا على العبث والصعوبات الظاهرية.. فعندما كنت معه، كنت أدخن وأتحدث بهدوء وبشكل مباشر، أو مهما يكن فإننى قد رأيت ما هو أبعد من سعادتي ومودتي، لمحات سريعة من السعادة، الآلاف الآخرون وأسماءهم التى لم أسمع بها من قبل، وعرفت بأن قدرا كبيرا من التاريخ غير مسجل. لم يمر بحياتى شيء كهذا من قبل. كثير من الصداقة والتسامح، ولكن ليس هذا" (١٥٥)

أراد فورستر من خلال حبه لمحمد أن يحب كل الإنسانية. وبشكل مجرد، كلما استطاع أن يشغل اللحظات بالسعادة من خلال ثروة مع عصفور غريب. ولكن الحقيقة هى أن محمدا قد اعترض، فمشاعره نحو المصريين لم يُخفها أبدا. فى ذات الشهر وخلال زيارته لفورنيس فى المحافظة بين شارع العطارين وشارع الراهبات. كتب فورستر على ورقة الرقابة الرسمية خطابا إلى فلورانس: "لقد انتهى شهر رمضان قبل ساعة وكل الأغنام التى كان المصريون يسمنونها فى داخل وخارج المنازل للعيد سيتم ذبحها. ولكن لى أخفى عليك مدى اهتمامى بعادات المصريين. مساء أمس ارتديت ملابسى المدنية وخرجت، وكما كنت أفعل

غالباً مرة في الشهر، خلال أحياء المواخير والأحياء الأخرى لأهل المدينة. كانت نسيمات خفيفة من الرياح الشرقية ... لا يوجد شيء قوى لا لون : لا توجد ملابس أوربية ولا طعام ولا حتى ثرثرة أوربية... هذا كل شيء. أتساءل أحياناً إن كنت أنا أو (الحرب) من يتحمل المسؤولية، ولكني لا أظن ذلك: إنني على قيد الحياة حتى إن تلك الأشياء الأخرى ساكنة في مكانها." (١٥٦)

في ذات الشهر حينما كتب إلى مسعود، "إنني أشعر بالإنسجام أكثر مما تتخيل من الإسكندرية، سئمت من الشوارع ومن الترام. والمرء هنا من الشرق كما لو كان في لندن. فكل شيء بلا لون ومبتذل. لقد قابل أحد المصريين وقد أعجب به، "إذ يذكرني بك أحياناً"، ولكن عموماً لا أحب المصريين." (١٥٧)

رغم أن فورستر وجد أصدقاء صالحين وإثارة في المدينة (كوزموبوليتان) وخصوصاً من بين اليونانيين، كانت الحرب من ناحية ومحاولاته الفاشلة للبحث عن شيء مهم من بين سكانها الأصليين من ناحية أخرى قد تركت فيه إحساساً بأنه وقع في شرك الإسكندرية. لقد جعل كفافيس من المدينة عالماً الخاص، يربط بين الماضي والحاضر، يربط بين الدنيء والنبيل مخضبين الكل بإحساس، ولكنه فعل ذلك ليحافظ على هويته الحضارية اليونانية. لم يتحدث اللغة العربية، ولم يدخل منزلاً مصرياً، يرفض حضارة مصر القديمة بتعليق يقول فيه "لا أفهم تلك الأشياء الضخمة الجامدة" (١٥٨) ونادراً ما يعترف بالفتح الإسلامي لمصر ولم يدع أحداً من السكان المحليين لعلاقة. ولكن عندما استمع كفافيس إلى موسيقى المدينة استمع إلى الغناء الصوفي الجماعي، ففي ذات ليلة خرج فورستر مع محمد ليستمع إلى بعض الموسيقى المحلية، فوجد أن موسيقياً أصلع يعزف على العود، ويصاحبه طبلية إيقاع صغيرة. إن هؤلاء الناس هم غالباً ليسوا فنانيين أو مبدعين كما أن لهم تصرفات صيبانية. (١٥٩)

فى الحقيقة إن الاختلافات الاجتماعية والثقافية والعرقية بين فورستر ومحمد لم تكن بعيدة عن المجال العقلى لآى منهما، وجعلت كل واحد منهما يتعامل بحذر مع الآخر. فى سبتمبر تحايل فورستر على محمد وأخبره بأنه يعمل فى الصليب الأحمر ثم قال محمد بدوره، : "يجب أن أكون حرا- فإن لم أشأ أن أقابلك يجب أن أقول "لن أقابلك"، فإن لم أكن متأكدا، يجب أن أكون قادرا على أن أقول "ربما" إذا يجب أن تحترمنى كما أحترمك." (١٦٠) أحب فورستر هذا الرد، ومرة أخرى اعتبر رد محمد انتصارا للاحترام والثقة على حواجز الجنس والطبقة الاجتماعية، إلا أن محمدا لم يكن متأكدا بأنه قادر على المساومة: هل رأيت يوما أن رغبتك تقودك إلى أن تكون عارفا بوظيفة محصل الترام؟ وهل فكرت يوما فى الشفقة والعار بالنسبة لك؟ كانت هذه آخر ما كتبه فى نهاية شهر سبتمبر، عندما وافقه فورستر ثانية على ممارسة الجنس. ولكن محمدا رفض ذلك العرض وقال "أبدا! أبدا لن أفعل." (١٦١)

وفى صيف ١٩١٧ أتيحت الفرصة لفورستر أن يترك المدينة. إذ قالت له منظمة الصليب الأحمر فى شهر يوليه إن الباحثين مطلوبون فى مدينة سالونيك شمال اليونان، وبدون أى تردد رفض الذهاب، "لأسباب شخصية وعامة." (١٦٢) ولكن فى أغسطس، أعاد التفكير فى أخذ إجازة ليزور بلده، أمه فى مرضها الأخير كانت تمرضها واحدة من أخلص صديقاتها، كان حزينا (١٦٣) فلم يكن هناك، وحتى بعد وفاة الصديقة فى سبتمبر مازال يشعر بأنه منجنب. ولكن الخطر يكمن فى أن ذهابه إلى بلده ربما يكون إلزاميا. نقل مشكلته إلى أصدقائه غير أن أصحابه كانوا ينفرون من المحنة التى أصاب بها نفسه: فورنيس وأنطونيوس نصحاه بعدم الذهاب، وربما نصحته عابدا أيضا، وعندما تحدث مع محمد عن قلقه من تهديد

التجنيد الإلزامى الذى قد تسببه له أمه، نصحه أيضا ألا يذهب، لأن أمه لن تكون سعيدة فى حال أنهم أخذوك جنديا فى الحرب." (١٦٤)

وفى سبتمبر كتب إلى فلورانس على نحو غامض، "للمرة الثالثة منذ أن حضرت إلى مصر فإن شيطانى يوسوس لى بأن أقوم بشيء كبير وعظيم وخطير." (١٦٥) ثم أنكر أمام فلورانس أن علاقته مع محمد انتهت إلى: "أنها كانت علاقة غريبة بشكل كبير، ولا تستحق أى اهتمام." (١٦٦) ولكنه لن يسلم من تحدى أمه، ولكن على ما يبدو أنه سمع فى الشوارع همسا بضرورة أن يعيش.

كانت أعمال وأفكار فورستر توحى بانحرافاتنا: إذ كتب مقالا فى ذلك الوقت لجريدة الأحد "ذى إيجبشيان ميل Egyptian Mail" مقالاً بعنوان "Diana's Dilemma". وبدأ المقال بقراءة فورستر لملصق إعلان فيلم سينمائى: ديانا وماضيها المشبوه وإحساسها بأنها لا تستحق الرجل الذى أحبه، فألقت بنفسها فى بحيرة كومو، ولكنه أنقذها وتزوجها وعاشا سعيدين. وقد رأى فورستر تلك الملصقات من قبل، تعلن عن مشاكل ميرا وليديا وجولييت وسكافا، وسيلفيا، وجراتسيا: "شعرت إلى حد ما أنها لن تقدم لى شيئا جديدا. فقط أحداث ماضية وتتغير من فيلم إلى فيلم بحث عن النسيان بشكل مختلف فى نياجرا أو ويندرمير أو القناة العظمى Niagara, Windermere, or the Grand Canal.

ثم راح فورستر يتذكر كيف أنه بعد ظهور أحد تلك العروض يرى محل فاكهة: "يظهر فى الظلام وكأنه مربع ضوء ليس أكثر من شاشة السينما، ولكن البرتقال والخيار والموز والمشمش كل هذه الفاكهة تلمع فى المحل مثل جواهر، أو تكومت على أرضية أمام استراحة مظلمة يقابلها شعاع حيث يتحرك عربى مثل ساحر.. إن مشكلة ديانا ممتلئة. ومحل الفاكهة يتجاوزها مثل الشعر، مثل موج البحر وهو يرتطم فى السد المقابل، يروى الكثير عن الحب أكثر من كل مياه كومو Como المقدسة رغم أنها ثمينة وفاحشة."



فورستر يحتفظ بصورة محمد الممزرقة معه لبضع سنوات. وهي الصورة الوحيدة التي حفظها من الضياع من تذكرة الترام ذهاباً وعودة. من الإسكندرية إلى كليوباترا لحظات من الحب.

وهذا يعنى الكثير فبداية مقال فورستر تعلن أنه كان يقرأ، إعلان " Diana's Dilemma وهو ينتظر الترام فى محطة الرمل وقد اقترب من نهاية مقالته عندما قال إن الفيلم الذى رآه لم يكن جميلاً ولا رومانسياً تماماً مثل شارع مبتذل مشيت فيه متجهاً إلى الترام. كان الوقت ليلاً، وفى الليل سحر يفوق الفن ويفوق النهار. ولكن العالم مغمم بالخبرات العادية يبدو أنه يئن من الشكوى: فانحراف الإنسان لن يجده فى أى فيلم، إنه هنا، هنا. "ووقف ثانية فى محطة الرمل، أمام محل الفاكهة" (١٦٧) ولكن الإضاءة كما تعتقد أنها أكثر تعبيراً عن مزاج فورستر، فهو ينتظر الترام الذى يهدر بعجلاته معانى الحب والشعر ومحصل التذاكر، الذى يمشى مثل ساحر.

فى أكتوبر كتب فورستر إلى فلورانس، "أرسلت برقية اليوم بأننى لن أ حضر. لقد زال القلق. ويجب ألا أ حضر (إذا حضر) لرؤية أمى، فيسكون عبنا عليها كثيرا. وشوقى لرؤيتها جزء من مشاعرى العامة والتي تكونت من اللمسة وعدم الجدوى والابتذال، ومن تلك الحياة سواء فى السلم أو فى الحرب، فهل فى مقدور المرء أن يعيش إلا مرة واحدة! وأنا أكبر بستنتين، وفى اعتقادى أن الحرب لن تنتهى ولن تقود الإنسان إلى زمن أفضل، بل لن يسعف الأم اختيار تعبير جميل عنها.

وفى ذات الخطاب، ولكن بعد نحو سبعة فقرات، عرض فورستر سببا آخر لزوال قلقه. فقبل بضعة أيام كان هو ومحمد قد حاولا أن يجدا وقتا يقضيانه معا فى بيت البؤس Home of Misery: لقد افترقا الصديقان المحترمان بطريقة بسيطة وحتمية، وكما تمنيت - وليس من أجل متعة حقيقية ولكن بسبب سقوط آخر الحواجز، وبلا شك، فإليها الكثير مما تفعله مع هدوء بالى المفاجئ." (١٦٨)

كان شهر أكتوبر هو وقت الرحيل - "فكل شيء يتحطم هنا" (١٦٩). أرسلت فورنيس بطاقة بريدية إلى المفوض السامى فى القاهرة، حيث أصبح المنسوب السامى للشرق وفورستر قادرا على إقناعه بهذه الخدمة. ولقد كان يحاول أن يجد لمحمد وظيفة حكومية براتب أفضل. وعوضا عن ذلك - رأى فورنيس فى افتتاح مركز عسكري فى قناة السويس، حيث يمكن تكليفه بعمل مخابراتى صغير "أن يصير جاسوسا" (١٧٠) إلا أن محمدا قال بشجاعة نادرة، يتقاضى راتبا من الإنجليز ويبلغ عن مواطنيه، فإنه وحل تماما. ولكن فورستر لم ير الموضوع من هذه الزاوية. "أنا وهو فكرنا بطريقة بغیضة. وعلى أى حال فإنها وظيفة ممتعة كما أنها مربحة أكثر من عمله الحالى، وهو كغيره من الناس ليس لديه إحساس بالحقيقة إلا عندما يتعامل مع صديق. هى - على الأقل - لن تؤذيه. ولأننى رأيت مسحوقا ومنهكا ومرهقا فى وظيفته الحالية التى أفقدت مبادئ أخلاقى فقد تمنيت له أن يجمع مالا ليستريح أحيانا.

كان افتراقهما مؤسفاً، غير أن فورستر كان يرتجف على مستقبله والذي شعر أنه هدف صعب المنال، والآن أخيراً قاما بممارسة الحب كانت علاقتنا عميقة جداً ورأسخة من أن تهتز أو تنفصل.

ثم حل عائق آخر عندما وافق محمد أخيراً على أن يعطيه صورته. أرسل فورستر الصورة إلى فلورانس، ملخصاً لها بأن "منشئة الذباب والتي كانت تخصني" (١٧١) أعطاهما إلى محمد ليحتفظ بها كتذكّار ويتصور بها - تقولين أنها ثمينة ولكنني أظن العاج ليس من بين الأحجار الكريمة" (١٧٢) كان هذا تعليق محمد، ولكن المنشئة تحمل ذكريات جميلة بالنسبة لفورستر إذ أحضرها من الهند. "محمد العدل - في سنة ١٩١٧، صورة بالمنشئة"، ثم كتب فورستر على ظهر الصورة. بعد ذلك تشققت وتمزقت الصورة - يبدو أن فورستر كان يحملها معه لسنوات طويلة، وحافظ عليها من التلف، تذكره الترام الوحيدة لصقها من ظهرها، قصة حبه مع محمد والمدينة القديمة: من الإسكندرية إلى كليوباترا." (١٧٣)

سافر محمد إلى القناة في ١١ أكتوبر، يتذكر القطار وهو يتسلل من المحطة، "لا تتسنى، لا تتسنى - بالنسبة لفورستر فقد ترك وراءه الإسكندرية وهو يشعر أنه قد تم إسدال الستار، "الكثير بالنسبة لمحمد" (١٧٤) قال وهو لا يعلم إن كانا سيتقابلان ثانية أم لا.

الفصل الثاني

الإسكانية من الداخل

تبدأ مادته كشاعر بخبراته وحواسه: اهتماماته بالشجاعة، والجن، واللذات الجسدية، وهكذا. إنه يبدأ من الأعماق الداخلية، لكنه لا ينظر أبداً إلى نفسه أو ما يشعر. والتاريخ يومي إليه ويستدعيه طيلة الوقت، وخاصة تاريخ بني جنسه.

"الأشعار الكاملة ق. ب. كفافيس" إ. م. فورستر فى كتابه تحيتان

للديمقراطية" (Two Cheers for Democracy) سنة ١٩٥١

فى أعقاب رحيل محمد ومجىء الشتاء شعر فورستر أن الإسكندرية "مدينة موحشة متحجرة ليس فيها ما يجذب المرء على التجول فى شوارعها إلا زيارة عمود السوارى.^(١) إضافةً إلى أن رحيل روبن فورنيس إلى القاهرة قد زاد شعوره بالنفور والابتعاد عن كل ما يتعلق بإنجلترا، حتى كتابة الرسائل كانت صعبة جداً عليه — حتى بدا ما وراء العالم سرايا. وقد أسهم هذا التناقض بين حالة الإسكندرية وحال إنجلترا فى زمن الحرب فى مزاجه تَرَفٌ هنا، وِئُوسٌ هناك، وأخذ يرفض دعوات العشاء التى يقول فيها — "لم أكن أستطيع أن أتحمّل الجانب السعيد من هذه الأحداث"^(٢) — لكنه أقر بأن الأمر ما كان إلا نزوة عابرة ولم يكن اتجاهًا، وسوف يعاود الذهاب إلى ولائم العشاء بمجرد زوال هذه النزوة عنه. فى هذه الأثناء، كان يتناول طعامه فى غرفته بهدوء فى كامب شيزار ويعزف على آلة البيانو مقطوعات لشوبان وفرانك وفيردى وشومان وبيتهوفين. وقد كان خاصةً يعزف

مقطوعات لبيتهوفن كنوع من الاحتجاج وذلك منذ أن حضر حفلاً أقيم فى حى الرمل حيث طلب أحد المدعين أن يسمع سوناتا ضوء القمر لبيتهوفن، ولكن المضيفة صاحبة الحفل اعترضت على ذلك قائلة إن الموسيقى الألمانية قد تعرضهم للخطر. هنا تدخل فجأة ضابط شاب قائلاً "كلا، ليس فيه مشكلة إطلاقاً، فقد قال لى أحدهم وقد كان محيطاً بهذه الأمور إن بيتهوفن بلا شك بلجيكي".^(٣)

وقد كتب فورستر إلى فلورنس فى فبراير سنة ١٩١٨ "سوف ترى بالتأكيد فى مقالاتى الصغيرة كيف أصبح عقلى المصرى مبتهجاً ويقظاً وكيف لم يعد يتمشى مع الطابع الإنجليزي"،^(٤) لأنه حينئذ عندما يحاصره ألف سبب وسبب يدعو ظاهرياً للشعور بالوحدة والعزلة، كانت الحياة قد بدأت تدب فيه من داخله. لقد عرف مع محمد سحرًا خاصًا بمثابة تحرير للمشاعر اعتمدت كثيرًا على قدرته على وضع علاقته مع محمد فى إطار خيالى تدفعه العاطفة. الآن رحل محمد ولكن بقى مصدر وحيه، أخذ فورستر قلمه ليكتب عن المدينة التى جعل منها مستقرًا له.^(٥)

وقد علق فورستر فى مقاله الذى كتبه للإيجيبيسيان ميل The Egyptian Mail تحت عنوان "قراعة" على معالم المدينة وسكانها وتاريخها. فى منتصف شهر ديسمبر ١٩١٧، وبدعوة من رجل الأعمال أناستاسياديس، قام بزيارة سوق تداول القطن فى البورصة إذ بدا له صراخ واحتياج المتداولين فى البورصة شبيهاً بتلك التى تطلقها الأرواح المعذبة فى بيت الرعب فى حدائق الملاهى: "ما كانت لتصلنا القمصان القطنية ولا الصوف القطنى ولا بكر القطن لولا معاناة هؤلاء التجار فى الإسكندرية، ليس هذا فحسب بل إن الإسكندرية نفسها ما كانت لتنهض من جديد بعدما داهمتها أمواج عاتية، وما كانت أيضًا حدائق فرنسية ولا كنيسة إنجليزية فى بوكلى وربما حتى ما كانت هناك مصارف للمياه".^(٦)

ولكن روح فورستر المرحمة كانت تخفى هدفًا دفينًا بين ثناياها: إنقاذ أشعار المدينة العتيقة من براثن التجديد. كان قد تم بناء الكورنيش، أو الرصيف الجديد كما كان يطلق عليه آنذاك، سنة ١٩٠٦ حول الميناء الغربى، وقد كتب عنه بريشيا فى دليله عن المدينة لقد كان "عملاً عظيماً أثرى المدينة بمتنزهاته البديعة، وقد نَمَّ تجميله فيما بعد بالقصور والصروح والتماثيل ولكم نأمل أن يشكل بيتاً قيماً للفن والجمال".^(٧) وقد كتب فورستر فى مقاله "الرصيف الجديد" الذى نشر فى ديسمبر ١٩١٧:

إنه لأمرٌ مثيرٌ للاهتمام حين يحقق عملٌ عامٌ ضخماً كهذا فى الوصول إلى مخيلة العامة. فإذا ما سألنا مواطنينا عن أكثر الأشياء التى همهم فى أنحاء المنطقة فقد يجيبون "النصب التذكارى لـجُمباي" أو قد يجيبون بطريقة أكثرَ بهجةً "الكوزموغراف" ولا يعيرون بالاً للقوس الحجرى الذى يقبع وراءهم فى شموخ... غير أن الرصيف الجديد غاية فى الروعة، إلا أنه تاريخياً قد خَلَفَ الطريق المُعبد القديم الذى شيده بطليموس والذى كان فى الماضى يفصل بين الميناءين القديمين، وهو لا يستحق أن يتروى فى طيات النسيان. فإذا ما شوهد من الجنوب، حيث يغلفه الضباب فى الصباح، يبدو جماله أخاذاً كما فى قصص الأساطير؛ وإذا ما شوهد من أقصى الشمال فهو يشكل حلقة كاملة تلتف حول دائرة من المياه الزرقاء. وإنى لأضمّرُ له إعجاباً شديداً إلى الحد الذى يُخَوِّلُنِي الحق فى ذكر مساوئه، اثنان عددًا لا ثالث لهما: فالمياه تسرطم به وتضطخبُ عاليةً ناشرةً رذاذها كما أن له رائحة كريهة... ولا يابه بالرصيف كثيرًا، وإذا كان للناس ملابسٌ قد اعتادت البلى وأنوفٌ

اعتادت الروائح الكريهة فهذا شأنهم؛ فالأسماء تحيا بدوئها. ولم يُقَمَّ
هذا الرصيف ليدل أجساداً فانية، وإنما أقيم ليمتد يميناً ويساراً في
قوس متناغم بديع وإن كان يوحى بالشعر من خلال الرياضيات —
وهو الهدف الوحيد من بنائه، وإنه لهدف خلاق بالمدينة التي شيدها
العالمان إراتوستينس وإقليدس.^(٨)

وقد كتب فورستر في مقال له في مارس ١٩١٨ بعنوان "صور من
الإسكندرية: بين الشمس والقمر" أن الإسكندرية كانت "مدينة الروح"، ولم يكن
ليشير بذلك إلى المدينة الحالية ذات الطابع الحديث والتي لم ينل طريقها الرئيسي
سوى الأناقة والبهاء. ولكن، من غير شك، كان طريق رشيد ذات يوم الطريق
القديم المقدس الذي يتم عبره نقل الرفات المحنطة لمومياوات المصريين القدماء،
وكان يبدأ عند بوابة الشمس (بجانب حدائق البلدية) ويعبر المدينة حتى يصل إلى
الميناء الغربي (بالقرب من شونات أو مستودعات القطن بمينا البصل)، "حيث تقف
بوابة القمر لتنتهي ما بدأتها الشمس". وكان هذا الطريق المقدس "على امتداده يعج
بمشاهد خلابة لا مثيل لها... وكان يصطف على جانبيه كليهما أعمدة رخامية على
امتداد أقصى طرفيه، كما كانت الحال مع طريق النبي دانيال، وكانت نقطة التقاء
الطريقين (حيث يقف المرء الآن ينتظر في يأس قدوم ترام). إحدى أعظم الممرات
في تاريخ العالم القديم... وهناك (تحت مسجد النبي دانيال) يرقد جنمان الإسكندر
الأكبر. وهناك إذ يرقد يكسو جسده الذهب موضوعاً في تابوت من زجاج... لم
يتبق من كل ما صنعه من أشياء شاهدة على أمجاده سوى طريق؛ الطريق المحاذي
لطريق رشيد؛ إذ قام كل من المسيحيين والعرب بالقضاء على ما تبقى من أعماله
إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقضوا على اتجاه هذا الطريق.^(٩)

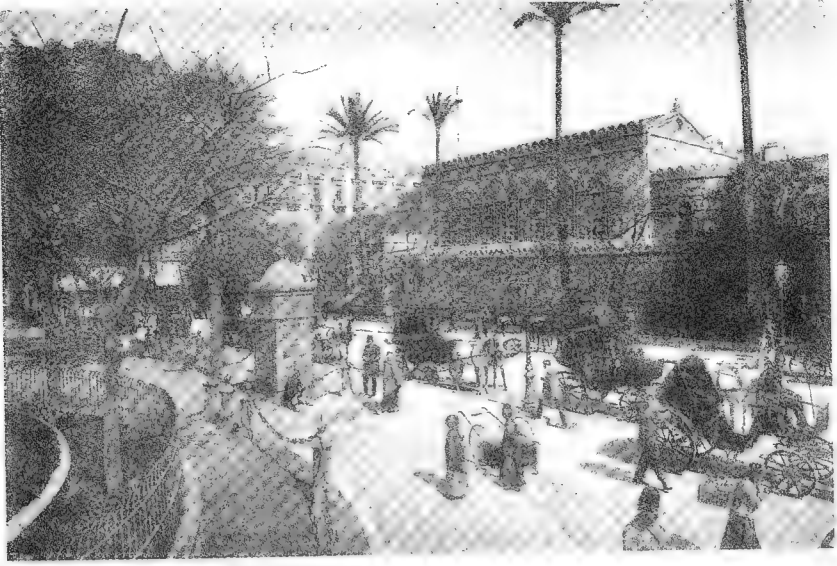
الأمر الذى يساعد المرء حتى يكون له رؤية خاصة عن مدينة الروح ألا يكون إنجليزيا. وقد قدم فورستر فى مقاله "صور من الإسكندرية: الموسيقىقار هاندل فى مصر" والذى نشر فى ٦ يناير بوصف حضوره للحفل الموسيقىقار للموشح الدينى المسيح للموسيقار هاندل الذى أقيم فى كنيسة سان مارك الواقعة فى ميدان محمد على. وموسيقى هاندل تحرك مشاعر أغلب الإنجليز وهم يستمعون إليها وقد كتب: "إن هذه الموسيقى توقظ فىنا ذكريات كثيرة، ذكريات حلوة وأخرى سخيفة" لدرجة "أننا ننسى بأن هاندل لم يكن إنجليزيا". كان أيضا ممن شملهم النسيان فى هذا الركن من سان مارك عازف الأرغن؛ لأنه - "دون أى ذنب - كان عربيا... ظل وجهه باسمًا لطبيعته البشوشة على أمل أن يرد عليه أحد تحيته عرفانًا لجهد غير أننا قد بلغ منا الوقار مبلغًا فلم نبادله الابتسامة... كان فى داخله يرى أن مصر والشرق متمثلون فى هذه الكنيسة - الشرق الذى ولد فيه ديانة هاندل والآن يستقبلها بدون حفاوة. ونسبة لهاندل فإن القداس سطحى بسيط للغاية يفتقر للعمق؛ فتشدو الأصوات العذبة "وسيقوم الراعى بإطعام خرافه" أعذب ما يكون فى المغترب. لا شيء هنا ذا مغزى روحى". (١٠)

كان فورستر فى مقالاته، بكل طرافة وسخرية، ينأى بنفسه عن بنى وطنه، عن أولئك الذين كانت أحاسيسهم ورؤاهم زائفة فى كل الأحوال، عن أولئك الذين كانوا أيضا يغضون أبصارهم عن حقيقة مصر، وتحت ذلك كله كان يكمن غضب: ذات يوم كانت توجد "حضارة أكثر قنما وأكثر قُرْبًا ومودة"، (١١) كما كتب فى مقاله عن الطريق القديم الذى كان يعبر مدينته التى سماها مدينة الروح.

كان فورستر، كما وضح ذلك فى مقاله "موسيقار يعيش فى مصر" الذى نشر فى ٢١ أكتوبر ١٩١٧، يجد نفسه أكثر ارتياحًا بين سكان الإسكندرية

الشرقيين الذين كانوا يدّعون أنهم يشكلون جزءاً من الإرث البيولوجي لإقليم شرق البحر المتوسط:

تتشكل الحضارات المصرية من قرابة الحضارات الثلاث: هناك مصر الفرعونية التي لم تزل تحرك مشاعر السائحين وكبار الروائيين إلا أنها لم تعد تعنى شيئاً بالنسبة للسكان المحليين، وهناك مصر العربية التي نعيش فيها بصورة أو بأخرى وبالكاد نستمد وجودنا منها — وهي تعتبر حضارة حقيقية فإنه يستعصى علينا فهمها، والثالثة الأخيرة هي مصر الشرق — ذلك الحزام الساحلي الواقع على البحر المتوسط الذي كان، منذ عهد هيرودوت، يخضع لسلطان النفوذ الأوروبي. وأنا شخصياً، كأوروبي، أشعر بحنين لهذا الحزام الساحلي؛ فهو يثير اهتمامي بل يثير في نفسي شعوراً رومانسياً، ورغم صغر مساحته فإنه أولاً وأخيراً كثير النفع، فهي حضارة كانت دوماً وينبغي أن تكون أبداً حضارة للصطفاء والاعترا ب، ولكن رغم هذه العيوب؛ فقد واصلت البقاء قرناً بعد آخر، أحياناً ما كانت تتدثر تحت رمال الجنوب ولكنها ما تلبث دوماً أن تظهر من جديد. ارتبط مصير طائر صغير — لا أذكر اسمه — بحيوان وحيد القرن يلازمه أينما ذهب يقوم عنه بمهام مختلفة لا يقدر وحيد القرن على القيام بها بنفسه، وبالفعل فمصر الساحلية ما هي إلا طائر صغير قابع في نشاط ويقظة مختفٍ عن الأنظار على ذلك الحيوان الضخم المتمثل في إفريقياء، وقد لا يكون هذا الطائر نسرًا أو بجعة لكنه على عكس مضيفه وحيد القرن يمكن أن يمرق بخفة في الهواء ذي اللون الأزرق الذي يضيفه عليه النهار وهو يزقزق من حين إلى حين.



بطاقة بريدية لكنيسة سان مارك الإنجيلية. تم بناء هذه الكنيسة فى منتصف القرن التاسع عشر على أرض قدمها محمد على للجالية الإنجليزية. واعتمد فى عمارتها على الطابع المعمارى للكنائس القديمة غير أن واجهتها تعلوها عناصر زخرفية عربية

وأردف قائلاً "إن الملاحظات التى ذكرناها قبل كانت من وحى بعض الموسيقى التى شهدها مؤخراً فندق سان ستيفانو بالإسكندرية: قصيدة سيمفونية ألفها موسيقار محلى يسمّى إنريكو تيرنى" - ليس موسيقاراً مصرياً وإنما موسيقار يعيش فى مصر، فمثله كمثل من سبقوه من الفنانين من زمن البطالمة والبيزنطيين "فتجد دوماً هذا الإجهاد للعينين من النظر فيما وراء الأفق، دوماً هذا الابتعاد عن الإسكندرية، تلك المدينة، كالحىوان الضخم، شاسعة وعديمة الشكل وعاجزة عديمة النفع. قد كان أحدث إنتاج هذه الحضارة الساحلية تلك الموسيقى من إبداع الموسيقار تيرنى والتى تعد، فى أشد عذوبتها وتلفها، موسيقى الاغتراب. (١٧)

كان إنريكو تيرنى، وهو من أصل إيطالى يهودى قد ولد بالإسكندرية، فى سن فورستر تماماً، وقد كانا هو وزوجه، فاوستا سيالنتى — صحافية وروائية — يواصلان إضافة إسهامات مهمة للحياة الثقافية للمدينة حتى الخمسينيات من القرن العشرين حتى غادراها إلى إيطاليا. وربما قد تقابل الرجلان فى ربيع سنة ١٩١٦ عندما كان فورستر يعد حفلاً للموسيقى الكلاسيكية فى المنزه للجند، وكان ذلك فى الوقت الذى كان يقيم مع فورنيس فى أبو النواطير، وأغلب الظن أنهما تعارفا من خلال أحد جيران تيرنى، عائدة بورتشجرى الأوبرالية. وبحلول فصل الصيف صارا صديقين، وقد كان فورستر يذهب إليه ليقيم معه قرب خليج ستانلى إذ كانا يسبحان ويتبادلان عزف الألمان القوية للموسيقار ريتشارد واغنر وماء البحر يغمرهما.

وقد تقابل الرجلان على الغداء، بعد أن نشر المقال، حيث قص تيرنى على فورستر عن واقعة حدثت معه مؤخراً فى المصرف الخاص به؛ إذ لاحظ أن عميلاً قد ترك عدد من العملات الورقية فئة المائة جنيه على طاولة المصرف، عندها جرى وراء العميل وأعاد إليه المال فشكره الرجل بحرارة، إلا أن تيرنى استوقفه وقال له "هل أنت تعلم يقيناً أنه يحق لى كما ينص البند رقم ١٩٣ فى مكافأة قدرها ١٠ فى المئة من مجموع ذلك المال"، فأجابه العميل "أنا أعلم ذلك، لكنى أحترم شخصك وقوامك الفنى احتراماً شديداً لأضع القانون موضع التنفيذ"، فقال له تيرنى "لا أوافقك فى هواجسك" والذى قال لفورستر إنه حينئذ كان يسعى فى المحكمة وراء حصوله على المكافأة. لقد بدت الواقعة تقليدية بالنسبة للإسكندرية حيث لا يراعى فيها البعد الأخلاقى كما لو أنه كان يتفق مع انحدار أراضيتها. ولأنه لم يكن هناك كارثة يهوى فيها المرء؛ إذن فلم يكن يترتب على المضى قدماً على حافة الهاوية "خطر أو شجاعة أو جمال"^(١٢).

كان الشاعر اليوناني كفافيس هو الاستثناء؛ إذ كتب له فورستر "إما أن تتطوى الحياة على الشجاعة والإقدام أو تفقد معناها كلياً" ^(١٤)، لكن لا ينبغي للحياة أن تأخذ "شكلاً اعتيادياً ولا مظهرين" ^(١٥). وفي قصة هزلية قصيرة تحمل عنوان "بيراكليزي في الجنة" أرسلها فورستر في صيف ١٩١٨ إلى روبرت تريفيليان، صور فورستر أناستاسياديس واقفاً على درج يمتد إلى ما لا نهاية لأعلى ولأسفل، وكان يقول "لا بد أن يأتي أحدٌ عما قريب، هنالك سوف أعرف في أي اتجاه أمضي، فقد يفترض المرء أن يتجه صوب أعلى غير أن هذه الأماكن تخذع المرء أليماً خداع"، عندها يظهر كفافيس ولكن هابطاً الدرك. لم يذهب في الاتجاه الخاطئ؟ "إنها نزعة ندم، عزيزي بيرى، إنها نزعة ندم"، ولكن يحتج أناستاسياديس قائلاً "تكن من المؤكد أن الأحداث كلها بأعلى"، ويجب عليه كفافيس "ربما أنتم وربما لا، في كلتا الحالتين، سأهبط سأهبط" ويختفي في الأسفل. ويردد أناستاسياديس على نفسه "ما عساني أن أقول في رجل ذى شأن مثل هذا الرجل؟ عجباً على رجل له مثل هذا الشأن يمتلك الموهبة العلمية ويهبط لأسفل رغم ذلك، أقسم أن كفافيس يعلم، وعلاوة على ذلك فأنا فنان، سوف أقوم بالمخاطرة ثم يهرع أسفل الدرك خلف كفافيس لكنه يصطدم بتيرنى الذى كان يصعد الدرج، فصرخ "يا له من حادث بغيض!" ويجب أناستاسياديس صراخه بصراخ "أندعو نفسك فناناً! فالأحرى بك أن تتجه لأسفل لا لأعلى، أسفل لا أعلى!" ^(١٦)

في تلك الأيام، وخلال العقدين الأولين من القرن العشرين، كانت مدينة الإسكندرية تتربع على عرش الأدب اليوناني، في حين لم تكن أثينا سوى قرية ريفية كادحة تدور في ظل دولة حديثة العهد ولها تطلعات قومية. كان ممن يرتادون شقة كفافيس الواقعة في ١٠ شارع ليسيوس (شارع شرم الشيخ حالياً) شعراء وكتاب وممثلون وموسيقيون وفنانون مبدعون، وقد شاركهم كفافيس

اهتماماته الأدبية والتاريخية، كما كان من بين المترددين عليه دبلوماسيون يونانيون وفرنسيون وبريطانيون وأصدقاء مثل أحد أقطاب تجارة القطن وجامع التحف أنتوني بيناتشى والذى كانت أخته، بينولوبى دلتا - الكاتبة - تمد كفافيس دوماً بمشروبه الروحى المفضل ماستيكا بطعم الينسون من مدينة خيوس اليونانية. وكان يمكن لأى شخص أن يأتى إليه بصحبة من يشاء من أصدقائه، إلا أن كفافيس كان يضع فوارق فى ضيافته؛ إذ كان يدخر أفضل مشروباته الروحية لمن يُكن لهم احتراماً عميقاً ويقدم للآخرين، إذا ما احتملهم من البداية، مشروباً روحياً أقل جودة وكان يطلق عليه "مشروب بالاماس" نسبة إلى الشاعر اليونانى المعروف فى ذلك الوقت الذى كان يعتبره كفافيس شاعراً من المرتبة الثانية.

وقد كان زوار كفافيس، قبل أن يهبطوا سلام الطابقيين حيث كان يقطن هو، يمرون بين صفيين من البغايا اللواتى كن يقمن بدعوة المارة من نوافذ منزل البغاء القابع فى الطابق الأول؛ حتى إن الشارع يعرف بين أواسط أهل الإسكندرية الظرفاء بشارع كلاسيوس. وقد كان كفافيس يقول عن هؤلاء الصبايا اللاتى كن يقطن الطابق السفلى "يا لهن من مسكينات! لا بد وأن يأسف المرء لحالهن، إنهن يستقبلن أناساً يثيرون الاشمئزاز، وحوشاً، ولكن" - هنا كان صوته يأخذ نبرة حماس دفيئة - "كن يستقبلن أناساً كالملائكة، حقاً ملائكة!" (١٧)

مخازن (شون) مينا البصل. كان يتم تنظيف وكبس القطن فى بالات فى منية النصر بالقرب من الميناء الغربى ليتم تخزينه فى هذه المستودعات لحين شحنه للتصدير.

لم يذكر فورستر شيئاً عن البغايا اللاتى ربما لم ينتقلن إلى هذا المكان إلا بعد الحرب العالمية الأولى، كما لم يكذب يقول شيئاً تقريباً عن الزيارات التى كان يقوم بها لشقة كفافيس أو عن نزعات كفافيس. ولكن بقيت شهادات أناس آخرين فى

ذلك الوقت ومن جاء لاحقاً. أما الآن فقد تم إعادة ترقيمه وتسميته ٤ شارع شرم الشيخ وفقد كل من المبنى والشارع ما كانا يتمتعان بهما من سحر ورنيلة معاً بعد أن صارت حالته إلى أسوأ حال، ولكن إبان العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من القرن العشرين، كما كان يتذكره جاستون زنانيري؛ كان ينضم إلى كفافيس "وقت بزوغ الفجر ووقت غروبها" في شرفته التي كانت تطل على حدائق المستشفى اليوناني وما يجاوزها من كنيسة سانت صابا البطريركية، أما اليوم فقد اكتظ بورش إصلاح السيارات. كانا يجلسان، وفي يديهما كأسان من الزبيب، وقد يتحدثان عن الحضارة البيزنطية. "هذا النموذج للشعر والعاطفة والجنس" كانت تلك كلمات زنانيري "أين يمكنني أن أجد مكاناً أفضل منه لأعيش فيه؟" فأجابه كفافيس "في الأسفل، حيث تجد الماخور والبغايا، وهناك الكنيسة التي تغفر الخطيئة، وهناك المستشفى الذي نموت فيه." (١٨)

كان وقت بزوغ الفجر أفضل أوقات اليوم عند كفافيس يستقبل فيه زائريه، وقد كان يفتح أو يغلق مصاريع نوافذه وكذلك يرفع أو يسدل ستائرهما بحيث يحدد قدر سقوط الضوء على زائريه، وعندما يدخل الغرفة وجه جميل فيوقد شمعة أو اثنتين يضيء بهما الغرفة بينما يقبع هو في الظلام فلا يرى منه شيء. وذات يوم في أثناء تلك الزيارات، جاء تيموس مالانوس - كان شاباً يافعاً خلال الحرب إلا أنه أصبح فيما بعد ذا نفوذ قوى على كفافيس - ليعرض عليه شعره: "لقد مكثت حتى وقت متأخر في غرفة الضيوف، لكنني أذكر أنه للحظة شعرت أن روحه كلها تركزت في نظرتة وفي لمسة يده مستعداً لينقض على بحركة تشبه حركة النبات آكل اللحوم." (١٩) وتلك كانت إحدى المواقف القليلة جداً التي سُجلت لكفافيس والتي لم يحاول فيها أن يدفع بطريقته؛ إذ شعر مالانوس بالتنافر ولم ينتج من الموقف شيئاً. وبدلاً من ذلك، كما يذكر زنانيري، كان هو وكفافيس "يرتادان الملهى الليلية، وكان كفافيس معتاداً قضاء الليل هناك ويلحق الشباب بنظراته وعندما يعود لمنزله يدون انطباعاته في مذكرات، وكما ستري في بعض أشعاره حيث

يقول فيها إن الرجال كبار السن يركنون إلى ذاكرتهم". فى ذلك الوقت كان زنانيرى أدبيا ناشئا، لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره عندما التقى كفافيس فى ١٩٢٦، وبعد مرور سبعين عاما كان يعيش كراهب كاثوليكي فى باريس فى مكان يطل على شارع فوبور سان أونوريه، وعندما سئل عما كان يجرى بينه وبين كفافيس بجانب الشعر، أجاب "كان الشعر الشيء الوحيد الذى كنا نتبادل فيه الحديث مع كفافيس! كانت علاقتى بكفافيس تنحصر فى الأمور الفنية فقط - الشعر والروح البيزنطية، ولم يجل بخاطرى قط أن أرى كفافيس أى شيء آخر سوى شاعر". وهكذا، حينما كان يشعر كفافيس بالوحدة فى الليل كان يخرج إلى الشوارع يبحث فى الحانات والمقاهى عن الشباب الفتى البائس من مثل سبيروس وجورج، الاسمين اللذين تم ذكرهما، أو ميكانيكى السيارات، ويدعى توتو، الذى كان يؤثره على غيره، ويقوم بغوايتهم بالمال لكى يصعدوا معه إلى شقته.

لقد قابل سكان الإسكندرية، لسبب وجيه، وهو الارتباطات التاريخية عن طيب خاطر حتى إنه صار أمرا لا مفر منه، وفوق كل شيء ما أبداه شاعر المدينة فى هذا الشأن، وقد صاغ فورستر هذا الأمر بطريقة أدبية حقاً عندما قال إن "الملوك والباطرة والبطاركة قد وطئوا الأرض التى تفصل ما بين مكتبته وشقته". (٢٠)

كان كفافيس يعمل لحساب مديرية الرى، وهو واحد من أقسام وزارة الأشغال العمومية، حيث كانت لـ "الدائرة الثالثة (المنطقة الثالثة)" (٢١) مكاتب فى مبنى يقع بالقرب من نهاية خط الترام الواقع على الطرف الشرقى لشارع محطة الرمل. (٢٢) وقد كان من الممكن أن يتذكر المسلتين اللتين كانتا، وهو ما زال فى ريعان شبابه، شامختين على مقربة من الشاطئ، إحداها منتصبة بينما كانت الأخرى منكفئة على وجهها ونصفها مدفون تحت الرمال، وقد كانتا علامة بارزة على موقع معبد القيصر أغسطس، أقامته كليوباترا تخليداً لذكرى يوليوس قيصر أو مارك أنطونيو إلا أنه تم استكمالهما بغرض عبادة القيصر أغسطس الذى

أعطى لنفسه تلك الصفة بعد أن أحرز انتصاره على مصر. كان هذا المعبد مشيذا بأسلوب عظيم وفخم، بديع فى شكله، يكسو الذهب والفضة جميع جوانبه، كما كانت تحوطه أروقة ومكتبات وحدائق تغلفها القداسة. وقد تحول فيما بعد إلى الكنيسة البطريركية. ولكن لم تبق المسلمان قائمين فى مكانهما إلا فى عهد هذا المعبد؛ إذ فى القرن التاسع عشر تم التخلّى عن "مسلّى كليوباترا"، انتصبت المسلة - التى كانت مستلقية آنذاك - على ضفة نهر التايمز بمدينة لندن، ووضعت المسلة الأخرى فى سنترال بارك فى وسط مدينة نيويورك. والآن بينما كان كفافيس يعود أراججه إلى منزله متخذاً طريق المسلة، يمكنه أن يتذكر بدقة أين كان موقع المسلة التى ذهبت إلى نيويورك والتى كانت منتصبة فى موقع المنطقة الثالثة التابعة للرى.

ارتبطت مع كفافيس مظاهر أخرى من الارتباطات التاريخية وهو يدنو من شارع ليبسيوس، حيث عقب التاريخ وإحساسه بالصلة الحميمة التى تربطه مع العالم اليونانى؛ إذ جعل كل ذلك لكنيسة سانت سابا البطريركية تأثيراً قوياً كغيرها، أما بالنسبة لموقع الكنيسة البطريركية الأرثوذكسية اليونانية فى الإسكندرية وليبيا ومدن بينتابوليس الخمسة الواقعة شرق ليبيا الحالية وإثيوبيا ومصر جميعها فهى تتحدر مباشرة من معبد القيصصر أغسطس^(٢٣) بنيت كنيسة سانت سابا سنة ١٦٨٧م،^(٢٤) على موقع كنيسة عتيقة وجدت سنة ٦١٥م، وكانت تمثل الكنيسة التى احتفظت بولاتها للبيزنطيين وإمبراطور مجمع خلقيدونية المجمع المسكونى الرابع سنة ٤٥١م، عندما تحول أقباط مصر المسيحيون فى اتجاههم العقائدى إلى أن المسيح عليه السلام ذو طبيعة كهنوتية واحدة. ويظل البطريرك مستقلاً، كما كان دوماً، لا يدين بالولاء لأى سلطة كنسية أعلى منه، وهو يصنف على مستوى العالم فى المرتبة الثانية فقط بعد بطريرك القسطنطينية الشمولى.

على الرغم من أن كفافيس كان يعتقد أن الأديان كلها "ملفقة"،^(٢٥) كان يحضر قداس يوم الجمعة الحزينة أو جمعة الآلام ويقف وسط المؤمنين حينما يمر موكب جنازة السيد المسيح ببهائها وسحرها عبر البطريركية:

عندما أذهب إلى هناك، داخل كنيسة اليونانيين،

بالبحور الذى يعبقها،

وترانيمها الطقسية وتآلف ألقائها،

والحضور المهيّب للقساوسة

وهم يرفلون في أرديتهم المبهرة

وإيقاع حركاتهم المهيبة

تنصرف أفكارى إلى الأجداد التليدة لسلالتنا

وفخامة تاريخنا البيزنطي

"In a Church" فى كنيسة

(كتبت فى عام ١٨٩٢، ونشرت فى عام ١٩١٢)^(٢٦)

بطريقة مماثلة سلمت المستشفى اليونانى كل متعلقاتها - بصورة حتمية - تقريباً، حينما كانت أعمال الحفر تتم قبل تشييدها فى عام ١٨٨٠، وتم للكشف عن أساسات ضخمة لمبنى أثرى مزدان بتمائيل رخامية اعتقد أنه قصر الإمبراطور هادريان Hadrian الذى زار مصر عام ١٣٠ ب.م. كما اكتشفت عدة تمائيل أخرى فى منطقة قريبة، كان منها تمثال هائل لماركوس أوريليوس Marcus Aurelius وتمثال هيلينستى لهرقل، كما أشار نقش إهدائى مخصص لإيزيس بلوسيا Isis Plusia

اكتشف في تقاطع شارع النبي دانيال وشارع المستشفى اليوناني، إلى وجود معبد لهذه الإلهة والذي ربما امتد تحت منزل كفافيس في شارع ليبسويه (Lepsius وهو اسم لمهندس فرنسي شهير يعرف الآن باسم شارع شرم الشيخ).



قسطنطين كفافيس، صورة له عام ١٩٠٣، وقد ظل يستخدم هذه الصورة الشخصية وغيرها لسنوات تالية. وعندما طلب منه ناشر الجرامات Grammata صورة حديثة له رد عليه كفافيس أنه يفضل أن يغير التعليق بعبارة "كفافيس منذ سنوات".

وأوحى هذه الاكتشافات وغيرها - وكان من بينها تتبع لتخطيط شوارع
أثرى للإسكندرية - أن هذا هو المكان الذى كان يمثل قلب المدينة القديمة،
واعتقدت بريتشيا Breccia أن المعبد The Museion والمكتبة كانا فى المنطقة
الواقعة بين شارع المسلة Missalla وشارع المستشفى القبطى وشارع النبى دانيال
وشارع رشيد Rosette وشارع شريف باشا. وفى Alexandria ad Aegyptum
(أو الإسكندرية ومصر فى "العصرين البطلمى والرومانى") قالت بريتشيا إن شارع
روزيت هو Canopic Way (الطريق الكانوبى، ويعرف حاليًا بشارع أبى قير)،
وشارع النبى دانيال هو شارع سوما، واضعة مقبرة الإسكندر (سوما) فى مكان
قريب من هذا التقاطع، وهو على بعد بضع درجات من شارع ليبسويه.

وأثناء عودته لمنزله من شارع المسلة، كان كفافيس يمر على اثنين من أكثر
الأماكن المفضلة لديه وهما مقهى السلام وقصر البلياردو Billiard Palace (١٧)
وقد أخذ الثانى هذا الاسم بسبب المناضد ذات الأسطح الرخامية الموجودة أمامها،
وبعض الشباب الذين ينتقلون جيئة وذهابا بين الشارع وبين مناضد لعب البلياردو
الستة عشر ومناضد لعب البلياردو الفرنسية الموجودة بالصالات الخلفية؛ وقد
يمكث كفافيس بالساعات فى هذا المكان فى شرب بعض المسكرات وقضم البلح،
وتظل أفكاره تتأرجح بين أحلام اليقظة والنزوة، (كما تشير الأبيات التالية):

لا بد وأن عمره قد قارب الثانية والعشرين عاما

ولكنى على يقين من أنه فى هذا الزمن البعيد

كنت أستمع بذات الجسد

...

هناك، حيث كان يجلس على الطاولة المجاورة
كنت أتابع كل حركة يقوم بها - ومن تحت ثيابه
كنت أرى أطرافه التي أحببتها - أراها عارية

"The Next Table" "الطاولة المجاورة"

(كتبت في يناير من عام ١٩١٨) (٢٨)

ويعد "الزمن البعيد" لكفافيس - حينما كان "يستمتع بالجسد ذاته" - حكاية من نوع خاص. كذلك، فهو على الأخص تجربة شخصية تغلفها اللذة الحسية، حيث كان هذا التجمع من الشباب الوسيم من مرتادى المقهى جزءاً من موكب القادة والملوك الطيفي. وقد كان هنا على الأرجح- بطول شارع المسلة- المكان الذى قابل فورستر فيه كفافيس وهو يقف فى "زاوية ضيقة من العالم"، وأقنعه أن يخرج (ما عنده) من أكثر العبارات تعقيدا وكثافة، "عبارة الشاعر" (٢٩). والتي ربما قد حملتهم على العودة إلى شارع ليسوييه قبل أن تنتهى. وهناك - مثملاً كان يفعل كفافيس وزنانيرى قبل عقد مضى- أخذاً يتجاذبان أطراف الحديث حول الشعر والماضى، وحول ما تعبر عنه مقولة زنانيرى "الإسكندرية - ليس حديثاً معاداً ولكنه استكمال لحديث." (٣٠)

وعلى الرغم من أن كفافيس كان يعمل موظفاً حكومياً فى مديرية الري الثالثة فإنه لم ينس على الإطلاق أنه ولد لأب موسر، غير أن الظروف التى تحيط به، والعسر الذى أتى من بعد يسر كانا جزءاً من حكاية كبيرة كذلك، حكاية التاريخ الطويل المحفوف بالخطر للشعوب اليونانى الذى يفخر (كفافيس) بانتمائه الثقافى إليه، وقد صرح أنه ليس يونانياً، ولكنه يعتبر نفسه إغريقياً، بالمعنى الوصفى لهذه

الكلمة، وموضحاً ارتباطه بتراث أقل نقاء ولكنه مع هذا لا يزال يحتفظ بكامل فخامته، من مرسيليا إلى الهند، ومن بحر قزوين لشلالات أعالي النيل، (فى تلك المساحة التي) امتد العالم المأهول بالسكان، oecumene، بها، بحسب ما كان القدماء يعرفونها وقتها، أو البشرية قاطبة؛ وحيث كانت اللغة والثقافة اليونانية هي القاسم المشترك بين الشعوب المتحضرة؛ الحضارة الهيلينية، ميراث الإسكندر، التي كان كل فرد فيها إغريقى الفكر أو المنهج إن لم يجر الدم الإغريقى فى عروقه، عالم لم يكن يتألف من قوميات بل كان ذا صبغة دولية وعالمية. وأخذ كفافيس - من خلال مشاعره لهذا التاريخ، ومن خلال المكان واللغة - يطالب بهذا الميراث لنفسه ولمدينته، (ويتضح هذا من خلال الأبيات التالية) :

حسناً نحن هناك تقريباً Hermippos

بعد غد على الأرجح - حسب ما يقول القبطان.

ويكفى أننا نخوض عباب بحارنا

فهذه مياه بلادنا - قبرص وسوريا ومصر -

لماذا يغلب الصمت عليك؟ فلتسأل قلبك

ألم تشعر، أنت أيضاً، بسعادة أكثر

كلما ابتعدنا عن اليونان؟

ما الغاية من خداع أنفسنا؟

فليس ذلك من سمة اليونانيين، أليس كذلك؟^(٣١)

"العودة من اليونان" Returning to Greece (كتبت فى ١٩١٤)

ولد قسطنطين كفافيس في ١٨٦٣، وكان الأصغر بين سبعة أولاد لرجل وامرأة استقرت جنورهما لأجيال عدة في المجتمع اليوناني المزدهر في القسطنطينية. وكان كلا الجانبين من عائلته يدعى انتسابه لأسلاف بارزين، مثل حاكم مولود وفيّ وكبير كهنة أنطاكي من ناحية سلالة الأب، وكبير كهنة قيسارية من ناحية الأم. كما كانت أسرة والدته تدعى انحدارها من سلالة بيت دوكاس الإمبراطوري البيزنطي. ومن ناحية أخرى، فإنه من المعتقد أن عائلة كفافيس نشأت على الحدود الأرمينية الفارسية، حيث اكتسبوا هذا الاسم، وهو المشتق من "ayakkabici"، وهو اللفظ التركي لصانع الأحذية^(٣٢).

وتبع بيتر والد كفافيس أخاه إلى إنجلترا، حيث أنشأ في ١٨٤٩ "إخوان كفافيس"، وهي شركة استيراد وتصدير مقرها في لندن، وكانت تتاجر في القطن المصري ومنسوجات مانشستر. وفي نفس السنة، أثناء زيارته للقسطنطينية، تزوج بيتر من هاريكليا، ابنة أحد تجار الماس، وعند عودته معها إلى إنجلترا عام ١٨٥٠، حصل على الجنسية البريطانية. وبعد خمس سنوات، أخذ بيتر عائلته إلى الإسكندرية حيث أسس بي. جيه. كفافيس وشركاه، وتاجر في القطن والحبوب، وكان له فروع في القاهرة ولندن وليفربول. وباستفادته من حرب القرم، التي رفعت أسعار الحبوب، وفيما بعد الحرب الأهلية الأمريكية، التي دفعت المصانع الإنجليزية إلى التحول إلى مصر من أجل الحصول على إمداداتها من القطن، فإن بيتر استطاع بسرعة أن يصبح أحد التجار البارزين في الإسكندرية، كما تمكن بثرائه وحيويته وثقافته أن يندمج في أرقى الأوساط، حتى اكتسب صداقة كل من الخديوى سعيد والخديوى إسماعيل.

وولد قسطنطين كفافيس في أوج ازدهار القطن في شارع شريف باشا الراقي، في عام ١٨٦٣ التي مثلت خطأ فاصلاً، حيث إن العائلات اليونانية التي

أتت إلى الإسكندرية قبل ذلك التاريخ، والتي أسس أفرادها التجارة اليونانية والصناعة المصرفية في المدينة، ظلت تتمتع بالأسبقية الاجتماعية على هؤلاء الذين قدموا بعد وصول إسماعيل إلى سدة الحكم وصعود التأثير ورأس المال الأوربيين، وبخاصة التأثير ورأس المال البريطانيين. ولكن توفي بيتر فجأة في ١٨٧٠، تاركاً أعماله مع القليل من العقارات لعائلته، وتبوا أولاده الكبار محدودو الخبرة مناصب قيادية في الشركة بالإسكندرية وليفربول ولندن، بينما كانت هاريكليا تقيم مع ابنها الأصغر الباقي في رعايتها في كل مدينة بالدور. وفي عام ١٨٧٦، أفلسَت الشركة وضاعت ثروة الأسرة، وعادوا في العام التالي إلى الإسكندرية، حيث عمل إخوة كفافيس في الوظائف التي تمكنوا من الحصول عليها، سواء ككتاب أو مديرين في شركات يونانية أخرى.

وقد طبعت وفاة والده وفقدان رأس مال العائلة تأثيراً عميقاً على كفافيس، وكذلك فعلت سنوات دراسته في إنجلترا، حيث ظل تأثير الأدب واللغة والعادات مصاحباً له طيلة حياته. وحتى يوم وفاته كان يتحدث اليونانية ولكنة إنجليزية، وربما كان "يفكر" في أشعاره باللغة الإنجليزية أولاً قبل أن يكتبها باليونانية. وكذلك لم تعجز أحداث ١٨٨٢ عن ترك انطباعاتها لديه؛ ففي ٥ يونيو من ذلك العام، حتى قبل أحداث الشغب في شارع الراهبات، أرسل إليه أحد أصدقائه السكندريين خطاباً من إنجلترا قائلاً له: "أرى في الصحف أن جميع الأوروبيين يفرون من مصر، ولا أستطيع أن أمنع نفسي من الضحك حين أتخيلك وأنت تفر حاملاً في إحدى يديك مظلة وفي اليد الأخرى كيساً بينما يتبعك ما يقرب من مائة بربري. فهل يثير هذا الباشا الأحمق القلاقل كما يقولون؟ فإنه يستحق صفقة على وجهه لوقاحته الفجة، ولا أستطيع فهم جلدستون الذي يصر على ترديد أنه من المستحيل فعل شيء، أو أي شغب من هذا النوع، وإذا كان ذرائلي هنا، لاستطاع أن يدبر ذلك في شكل

جماعة منظمة على دق الطبول.^(٣٣) وكانت تلك هي النظرة الحقيقية لليونانيين المصريين، وقد يكون من المدهش أنها ليست من الرؤى التي وافق عليها كفافيس. وكانت أسرة كفافيس من بين آخر هؤلاء الذين رحلوا على مضض، مبحرين إلى القسطنطينية قبل القصف بأقل من أسبوع.

وفي ١٨٨٥، عاد كفافيس ووالدته مرة أخرى إلى الإسكندرية حيث عاش معها حتى وفاتها في ١٨٩٩. وربما كانت لديها نزعة إلى التملك، وكانت كلما كبرت في السن يزداد خوفها من البقاء وحيدة، وكان ذلك سبباً آخر يدفعه إلى الانتظار حتى تذهب إلى النوم قبل أن يخرج خلصة في الليل ويتجه إلى العطارين. وقد قال أحد كبار أبنائها: 'كل حياتها كانت غير طبيعية، وكان عليها أن تتعايش مع هذا النمط غير الطبيعي وإلا ماتت! وعلى الرغم من شكوى قسطنطين من أنه كان شبه مستحيل بالنسبة له أن يتفق على موعد أو يقبل دعوة خشية أن تجعله طلباتها يلغى خططه في اللحظة الأخيرة، بالرغم من ذلك فقد كان مكرساً نفسه لها، وكانت تقول عنه: "أعتقد أن الشخص الوحيد الذي سيبكى من أجلى إذا مات هو كوستاكي."^(٣٤)

وفي الوقت الذي بدأت فيه الأسر الثرية في الانتقال من وسط المدينة إلى محرم بك أو إلى أبعد من ذلك في الرمل، عاشت أسرة كفافيس أولاً في شارع توفيق، الموازي لشارع شريف باشا وإن لم يكن على نفس طرازه، ثم في شارع محطة الرمل والذي كان يتمتع بالاحترام وحسن السمعة ولكنه كان يعج بتجار المتعة من الجنسين، حيث كانت الإناث تصطف على أحد جانبي الشارع، بينما يعرض الذكور أنفسهم على الجانب الآخر منه.

وعلى الرغم من الموارد المالية لعائلة كفافيس كانت محدودة، فإنها كانت تتمتع بوضع اجتماعي جيد، وسرعان ما اندمجت الأم وأبنائها في طيات المجتمع

السكندري، فكانوا يترددون على قصر الخديوى فى رأس التين، ويشاهدون السباقات فى نادى سبورتنج، ويذهبون إلى كازينو سان ستيفانو من أجل الترفيه، كما كانت تتم دعوتهم لحضور الحفلات الراقصة وغيرها فى الفيلات الفخمة المملوكة لليونانيين وغيرهم من أبناء المشرق. وذات مرة فى أحد الأسابيع، كانت هاريكليا "فى البيت" تستقبل الزوار، وتبدو فى قائمة ضيوفها دائرة الأثرياء والجنسيات المتعددة، التى انتقلت إليها عائلتها، والتى تضم الكثير من العائلات الإنجليزية والفرنسية، ومن بينهم عائلة كارفر وألدرسون، وعائلتا دبانه والزغبى من سوريا ولبنان، وعائلات بناتشى وكوريميس وأنتونى أس وسينادينوس وزيزينيا وزرغوداتشى اليونانية. وكان الثراء عاملاً رئيسياً لتحقيق المساواة فى المجتمع السكندري، وكانت فى مقابله تظهر جماعات من المتملقين، وكان زخرف هذه الحياة يتمثل فى أشياء مثل شراء الألقاب، وجمع القطع الفنية، بالإضافة إلى الاستعانة بالمربيات الإنجليزيات بشكل دائم تقريباً. وحيث لم تكن عائلة كفافيس ثرية، أو حتى حديثة الثراء، فإن جون شقيق كفافيس قد نظم أبياتاً من الشعر يستنكر فيها بأسلوب ساخر إحدى العائلات التى اتسمت بتلكما الصفتين: "كانت عائلة زرغوداتشى تقيم هنا لفترة، وكنت أقابلهم كثيراً بعض الشيء، وحين كنت أحنى لهم، كانت وجوههم المتجهمة تلين بتعبير يقصد به الابتسام."^(٢٥)

وقد عرضت أسرة بناتشى على كفافيس وظيفة فى شركة تصدير القطن المعروفة باسم كوريمى بناتشى وشركاه، ولكنه رفض، ربما لأنه لم يرد أن ينظر إليه كرفيق لليونانيين، فكان يفضل أن يحافظ على استقلاليتته، وعدم شهرته، كموظف مدنى صغير، وكمواطن بريطانى (ولكنه حصل فى وقت ما بعد ذلك، وفى تاريخ غير معروف، على الجنسية اليونانية) يعمل تحت مدراء بريطانيين فى الدائرة الثالثة للرئ، حيث كان يشرف على المراسلات باللغة الإنجليزية. وكان

رؤساؤه فى الرى يعاملونه باحترام كما كانوا مفتونين بمعرفته الواسعة، وكثيراً ما كانوا يدعونه إلى مكاتبتهم، ويحثونه على إلقاء حديث مطول عن المسائل التاريخية. وقد قال ذات مرة: "لدى مقدرتان، كتابة الشعر وكتابة التاريخ"^(٣٦)، وعلى الرغم من أنه لم يكتب التاريخ قط، فإن ولعه بالتفاصيل التاريخية كان يضى الحياة على الماضى، وكان يستطيع أن يتمتع مديره الإنجليز بحديثه عن الشخصيات البارزة فى المدينة العريقة، كما لو كان يكشف أسرار علاقة غرامية سرية قائمة فى الوقت الحالى فى العالم السكندرى بالخارج.

وقد بدأ عمله فى الرى عام ١٨٨٩، وكان يدين بمنصبه لجورج زنانيرى باشا، وهو من أصل سورى مسيحى، ولكنه فوق ذلك مواطن بريطانى، وكان مؤثراً فى الدوائر المالية والإدارية للمدينة. كما كان يدين أيضاً إلى مايكل زنانيرى، أخى الباشا، الذى كان رئيس الحسابات فى الرى (وكان جاستون زنانيرى، ابن الباشا، كريماً وكانت الأوقات التى تقضى معه غير شاقة). وكان من المفترض أن يبدأ عمله فى الثامنة صباحاً، ولكنه لم يصل قط قبل التاسعة والنصف (وكان رؤساؤه الإنجليز يصلون بعده أيضاً)، وكان عليه البقاء حتى الواحدة حين كان المكتب يغلق لبقية اليوم، مما كان يتيح له حرية قضاء فترة بعد الظهر العرضية فى تكملة دخله ببعض السمسرة فى البورصة. وحتى هذه الساعات القصيرة لم تكن موجهة بأكملها لشئون الرى: "كان كفافيس شديد المكر"، هكذا ذكره إبراهيم الكيار، الذى عمل تحت إدارته، "فكان يغطى مكتبه بالملفات، فيفتحها ويبعثرها فى كل اتجاه ليعطى انطباعاً باستغراقه فى العمل، فكان يجيب دائماً على التليفون قائلاً: "أنا مشغول بشدة"^(٣٧). وفى بعض الأحيان، كنت أنا وزميلى ننظر من خلال ثقب المفتاح، وكنا نراه يرفع يديه إلى أعلى مثل الممثلين، ثم يرسم على وجهه تعبيراً غريباً كما لو كان فى حالة نشوة، ثم ينحنى إلى أسفل لكتابة شيء ما،

وكانت تلك هي لحظة الإلهام. وبطبيعة الحال، كنا نجد ذلك مضحكاً فتتطلق
قهقهاتنا. (٣٨)

وكان جورج فالاسوبولوس، وهو محام وأحد رجال كينجز كوليدج ويعيش
فى ٩ شارع الفاطميين فى الحي اليونانى، يجمع كل من فورستر وكفافيس فى
شارع ليبسيوس. ويرشد فورستر فى مسألة الأشعار بلغتها اليونانية الأصلية، أكثر
مما كان كفافيس نفسه يفعله، وكان يقدم له ترجمات أنيقة وصحيحة كذلك، وفقاً
لتقييم كفافيس. وكان فالاسوبولوس هو الأداة التى اختارها لترجمة الأشعار إلى
الإنجليزية، حتى يتمكن فورستر من تقديمها إلى متحدثى الإنجليزية. ولكن
فالاسوبولوس كان يعمل ببطء: فحتى فى نهاية العشرينيات من القرن العشرين،
ورغم كل مدهانات فورستر، فقد نشر بالكاد أكثر من اثنتى عشرة قصيدة لكفافيس
فى إنجلترا. غير أنه أصبح ظاهراً بعد ذلك أن بطء فالاسوبولوس كان مرتبطاً
بنفوره للأشعار "المثيرة"، التى رفض أن يترجمها، قائلاً إنها قد لا تؤدى إلا إلى
الإضرار بسمعة كفافيس، كما أنه لم يتحدث بشأنها، كما يبدو، إلى فورستر (٣٩).

ولكن ربما كان من الصعب بالنسبة لفورستر ألا يكون على دراية بشعر
كفافيس اللوطى، وبالتحديد بعد فبراير ١٩١٨، حين لحقت الفضيحة بالمجتمع
الأدبى اليونانى فى الإسكندرية بمحاضرة عن كفافيس ألقاها ألكساندر
سينجوبولوس، وهو صديق شاب لكفافيس وفيما بعد أصبح الوصى الأدبى له، وقد
كتب كفافيس نفسه هذه المحاضرة بالفعل. وكان كفافيس ينشر أشعاره الجنسية منذ
عام ١٩١٢، ولكنه كان من الممكن ألا تعتبر لوطية أو حتى مبدية لأفكاره
ومشاعره الخاصة، وذلك لأن الضمير لم يكن ضرورياً فى اليونانية، وكان كفافيس
كثيراً ما يحذفه، فكان يمكن أن يبقى جنس المحبوب غير معروف، ولأنه كان
أحياناً يبعد نفسه باستخدام ضمير الغائب بدلاً من ضمير المتكلم: "وهو يقسم بين

الحين والآخر أن يبدأ حياة أفضل / ولكن حين يأتي الليل ... / يعود ضائعاً إلى نفس المتعة المميّنة" (هو يقسم"، المنشورة في ١٩١٥). ولكن المحاضرة، باستخدام أسلوب "ربما يكون رأى كفافيس... وإن كنت لا أستطيع أن أجزم بذلك"، بلغ حد "الإعلان الصريح عن حرص كفافيس على المتع الحسية: فلا يمكن أن يكون هناك بعد ذلك أدنى شك في تطابق الشاعر مع عمله، أو أن الأشعار التي تم تحليلها كانت سيرة ذاتية له، وأغلب الظن أن معظم الناس قد أدركت أنها أشعار لوطية"^(٤٠)، وذلك وفقاً لما كتبه فيما بعد روبرت ليندل، كاتب سيرته.

وقد ظهرت أيضاً العديد من أشعار كفافيس اللوطية في "كراماتا" في أثناء الحرب، وقد نشر "كراماتا" كل من ستيفين بارجاس، صاحب الاسم المستعار نيكوس زليتناس، الذي كان يدير مكتبة "كراماتا" في شارع دبان الممتد شمالاً من شارع شريف باشا. وكان كفافيس في بعض الأحيان يذهب إلى هناك متأخراً في الليل حاملاً قصيدة له أنهاها لتوه: "لقد أحضرتها إليك الآن يا نيكو، حتى أستطيع أن أذهب لأنام في سلام". وفي مناسبة أخرى كان يقول: "خذها يا نيكو، فإنها تحرق أصابعي"^(٤١). ومن المرجح بالتحديد أن يكون فورستر قد لاحظ المقال المكتوب عن روبرت بروك، والذي أرسله فيرنيس من القاهرة في عدد أكتوبر عام ١٩١٧، وكان يحتوى أيضاً على ثلاث قصائد جنسية لكفافيس، وهي "التفاهم" و"مقبرة لانيس" و"تذكر أيها الجسم..." (تذكر أيها الجسم ليس فقط كم أحبك آخرون / أو فقط الفرش التي ترقد عليها / ولكن أيضاً تلك الرغبات المتوهجة بصراحة / في العيون التي تنظر إليك / وترتفع أمامك بصوت مسموع - / ولم تحبها سوى عوائل صادفتها).^(٤٢) وكانت القصائد بلا شك باللغة اليونانية، كما كانت محاضرة سينجوبولوس، ولكن لم يكن ذلك ليمنع فورستر من إدراك مغزاها؛ بل إنه يبدو أيضاً أن فورستر لو كان قد علم بشأن شعر كفافيس الجنسي، لما أصبح شديد الاهتمام به وربما لم يناقشه أيضاً مع كفافيس. والدليل على

ذلك، أن اللذة الحسية التي عبر عنها كفافيس لم تكن هي ما أثار فورستر، ولكن ما أثاره هو نظريته للتاريخ^(٤٣).

وكتب كفافيس في ١٩٠٧، وهي السنة التي انتقل فيها إلى شقته في شارع ليبسيوس: "الآن أصبحت معتادا على الإسكندرية، وأغلب الظن أنى حتى لو كنت ثريا، لبقيت هنا. ورغم ذلك، كم يزعجني المكان، فكم هي مقلقة هذه المدن الصغيرة وكم تأتي بالأعباء - فما أنقص الحرية. وأنا أرغب في البقاء هنا (ولكنى بعد ذلك، أجدنى مرة أخرى غير متأكد على الإطلاق إن كنت أرغب فى البقاء) لأنها مثل بلدى الأصلى، فهى مرتبطة بذكريات عمرى. ولكن كم يحتاج رجل مثلى، غير تقليدى إلى حد بعيد، إلى مدينة كبيرة، ولنقل لندن." ^(٤٤) ولكن وفقاً لما جاء فى هذه السطور الأخيرة القليلة من "المدينة"، التى كتبت مسودتها فى ١٨٩٤ ونُشرت فى ١٩١٠، فقد انتهى به الأمر إلى إدراك أن المفر لا جدوى منه:

سوف ينتهى بك المطاف دائماً فى هذه المدينة، لا تأمل فى غايات أخرى
فى مكان آخر ... فى أشياء أخرى فى مكان آخر:

فلا توجد لك سفينة، ولا يوجد طريق.

والآن وقد أضعت عمرك هنا، فى هذا الركن الصغير،

فقد أهلكته فى كل مكان بالعالم.^(٤٥)

وبالنظر إلى الوراء فى "أيام ١٨٩٦"، نرى أن كفافيس كان يعتبر المجتمع السكندري قبل الحرب العالمية "ضيق الأفق تماماً"^(٤٦)، ولكنها لم تكن فقط شكوى شخص لوطى، فقد كتب أيضاً فى شبابه عن كرهه للمدينة بسبب ما بها من "كل هذا العبث"^(٤٧). فالمكان قد يبدو سطحياً ومملأً، وبينته الثقافية محدودة، ومن

المرجح بالفعل أنه لم يبدأ في إنشاء صداقات مع رجال إنجليز وفرنسيين من المقيمين في المدينة حتى وقوع الحرب، حيث كان ينضم بانتظام إلى صحبة نظرائه من المفكرين. ولكن في الوقت نفسه، تغلب كفافيس على علاقة الحب والكراهية المضطربة التي ربطته بالإسكندرية، فقد كتب في مسودة قديمة لكتابه "المدينة": "أنا أكره الناس هنا وهم يكرهونني / هنا حيث عشت نصف عمري"،^(٤٨) ولكن في النسخة المنشورة من القصيدة، استبدل بهذه السطور ما يلي: "أينما توجهت، وأينما نظرت، / أرى حطام حياتي السوداء": ولا يمكن الفرار من الواقع بلوم الإسكندرية على ما حل بك من بلايا، فالمدينة هي كيف تصنعها أنت، إذ يمكنك أن تصنع أية مدينة. ومن ثم، يتحكمه في الزمان والمكان، جعل كفافيس من الإسكندرية عاصمة لفنه.

وهذا التطور في تفكيره أصبح جلياً في ١٩١٧، حين جمع قصائده المنشورة في مجلد ليتداوله أصدقاؤه، وقد بدأت مجموعة القصائد بقصيدة "المدينة" على الرغم من أن المجموعات التالية كانت مكبرة ومحتوياتها معاد تنظيمها، بحيث يعاد نسج الماضي والحاضر، والفكر والحس، في قالب متطور. وكانت "المدينة دائماً ما تأتي أولاً، وكأنك باختراق جدرانها دخلت عالم كفافيس. وكان تطور كفافيس خلال حياته يظهر في مشاعره تجاه مدينته: ففي عام ١٩٢٩، أي قبل وفاته بثلاث سنوات، قام بنشر "في نفس المكان"، حيث تحولت "الحطام السوداء" إلى صورة ذاتية لإبداعه الخاص المعبر عن الانتصار:

يا منظر البيوت والمقاهي والحي

التي رأيتها ومشيت خلالها لسنوات:

لقد ابتدعتك في فرحي وفي حزني،

بالكثير من الأحداث، والكثير من التفاصيل،

وقد تحولت كلك بالنسبة لى إلى كتلة من المشاعر.^(٤٩)

وقصيدة "المدينة" هى بقوة قصيدة بطولية، ولكن يوجد أصداء مع عبارة "الرب يتخلى عن أنتونى". وفى كلتا الحالتين فإن حياتك فى انهيار والهروب مستحيل، فما يتبقى لك هو أن تعيش بصورة كامل، فى حالة واحدة فى هذه اللحظة، وفى اللحظة الأخرى تعيش فى هذه المدينة. بالنسبة لكفافيس فإن اللحظة والمدينة صالحتان كشيء واحد فقط، ولقد وصلت إليها من خلال التاريخ. كان بطله هو أنتونى والذى كان أشبه برجل شجاع وقف فى الشرفة وراح يستمع بعاطفة إلى الإسكندرية التى يشعر بأنه يخسرها. "وعلاوة على ذلك، لا تخدع نفسك، ولا تقل بأن هذا حلم": كلمات تنطبق كثيرا على كفافيس وهو يخرج من شرفته فى المساء:

لقد انقضت تلك الحياة الجميلة

ولكن كيف بقى ذلك الأريج الفواح

وذلك الفراش الوثير الذى نرقد عليه

أى مباحج نقدمها لأبداننا.^(٥٠)

وبينما قدم مسعود إلى فورستر الحضارة لقارة أخرى، فإن كفافيس قدم نفسه لتفسير آخر للحضارة والتى ظن أنه عرفها. لقد علمته الحضارة الغربية أن الانتصارات من ضمن الحدود الضيقة لليونان خلال الحقبة الكلاسيكية الذهبية القصيرة - فهناك المارثون وسلاميز و بلاتيا - ثم فقدت الاهتمام. كتب كفافيس عن هزيمة ثيرموبيلى وسينوسيفالى وماجنيسيا وبيدنا وكورنيث فى زمن رابطة

أخيون Achaeon League وأكتيوم والقسطنطينية ومرة أخرى ومرة ثالثة الإسكندرية- ولكن في عمل ذلك تغطي كلمة كبيرة وعالم أوسع من كراسة مدرسة في اليونان.

في كفافيس سمع فورستر صوتاً يتحدث من عبر القرون الغابرة ومن حضارة أخرى، بأن الحضارة اليونانية قد انهزمت، ولكن في شخصه وفي منفاه البعيد، لم تتكسر ولم تخبُ شعلتها "لقد ضجر من النقاء العرقى وكذلك من المثالية السياسية.. فالحضارة التي يحترمها كانت غير شرعية سادت فيها الصفة اليونانية وإليها، زمن بعد زمن، تأمل بأن تدفع لتعديل وإمكانية تغير. فإن انمحي الأصل لا يهم فقد أدت مهمتها." (٥١)

أما بالنسبة إلى فورستر، فإن الإنجليزى المضطرب قد تمرد على الإنجيل البسيط من أفراد شعبه، ووقف الشاب اليونانى وقبعتَه القش على رأسه، ومن زاوية تاريخية في عام ١٩١٨، وبينما يطرح سؤاله الأبدى: كيف تنتهى، وكيف تنتهى دائماً؟ فإن كفافيس إلمازح والجاد تحدى فورستر بما يظهر في ذلك الوقت بأنها فكرة مستحيلة: "لا تنس أبدا اليونانيين فإننا مفلسون. وهذا هو الاختلاف بيننا وبين اليونانيين القدامى، عزيزى فورستر، وبيننا وبين أنفسنا. عنى يا عزيزى فورستر بأنك - بجنسيتك الإنجليزية وبقدرتك على المغامرة - لن تفقد أبدا مصدر قوتك، وإلا سوف تكون مثلنا، قلقين ومخادعين وكذابين." (٥٢)

في نوفمبر عام ١٩١٧ قرأ فورستر ديوان تى إس إليوت "بروفروك وملاحظات أخرى Prufrock and Other Observations" والذي صدر في تلك السنة، وكتب فيما بعد، "إن المؤلف قد أثاره حفلات الشاي ولم يخف من أن يصرح بذلك.. هنا كان احتجاج، احتجاج ضعيف وأكثر تجانسا ليكون ضعيفا. لماذا، فى

ذلك العالم الرعب الشديد، كان ممكنا فيما عدا إشارات بسيطة من المعارضة؟ فهو الذى قارن نفسه بالحرب، فأطال قامته وتوجه بالكلام إلى أرماديلو-أرماجيدون: "انصرف"، وسقط جسمه فجأة على كوم من التراب. من يمكن أن يلتفت إلى شكوى السيدات وصلات الرسم تحفظ قدرا ضئيلا من احترامنا لأنفسنا، فإنه ماض فى تراث الإنسانية".

وقراءة فورستر لشعر إليوت فى ذلك الخريف تزامنت مع تطور فكرته بأن حياة الإسكندراني تبدو تافهة وحسية ومزرية كانت مفضلة وقد تكون استجابة إنسانية إلى استقامة الرأى والهسيتريا والكراهية التى تغذيها الحرب. لم تكن القصائد منغمسة فى الملمات، فمازالت قصائد بريئة من المرح الجماهيرى،^(٥٣) وبالنسبة إلى فورستر تعتبر قصائد "أغانى حب من الفريد بروفروك" (والتي تبدو فيها النساء يأتين ويمضين / يتحدثن إلى مايكل أنجلو) قصائد "إسكندرانية"^(٥٤) ففى هذه القصيدة ربما كان يفكر فى الأنشودة الخامسة عشر للشاعر اليونانى القديم ثيوقريطس، يصف الحياة فى الحى اليونانى فى القرن الثالث قبل الميلاد، وحواره هنا بين جورج و صديقها براكسينوى أشبه بما "تسمعه اليوم فى أى من صالات الرسم الصغيرة من منطقة كامب شيزار أو الإبراهيمية، فكما يكتب فى تاريخه ودليله: "إن التاريخ هو كثير من الشؤون العسكرية والملوك. والأنشودة الخامسة عشر تصحح الخطأ. فقط من خلال الأدب يمكن أن يستعيد الماضى وقد أثار ثيوقريطس هنا باستخدام الرقية المزدوجة للأدب والواقعية - مدينة كاملة من الموتى وملأ شوارعها بالرجال. وبينما يبدى براكسينوى على الأكبسة، فإنه يتساءل "لماذا تبدو الشخصيات واقفة وتحرك، إنها ليست قوالب جامدة بل شخصيات حية."^(٥٥)

لم يكن فورستر نفسه رجلاً مثبط الهمّة من حفلة شاي، كما كتب إلى فلورنسا، وليس لديه أى اعتراض مبدئى على تناول العشاء فى الخارج. فربما كان يفكر فى مأساة الحرب فى إنجلترا، فى الغارات الجوية وصفوف توزيع الطعام، ولكنه لم يكن كارها لسهولة حياة الرفاهية فى الإسكندرية. لقد كانت فى عمومها للحفاظ على إيمانه الراسخ، وكما كتب إلى سيجريد ساسون فى ربيع وصيف عام ١٩١٨ من كونه فى حرب مع العالم: يتذكر قائلا "شن حرب دفاعية" وخجل من الهروب.^(٥٦) فيحدوه أملان فى المستقبل، بأن يحدث ساسون عن فكرة "عصبة الأمم والأمل الآخر هو فتور عام وإجهاد مثل كل القوى التى تضل فى هذه الأيام."^(٥٧)

ورغم أن فورستر لم يتحدث كثيرا عن المجتمع الإسكندرانى، فإنه من الصعب عليه تجنب زيارة البيوت العريقة فى المدينة لأصحاب مزارع القطن وأقطاب البنوك فى الشركة لهؤلاء الأصدقاء مثل فورنيس وتيرنى وأنتونى وس وأنستاسيد وفالاسوبولوس وكفافيس نفسه. تيموس مالانوس يتذكر كيف أن كفافيس يتباهى بعلاقاته الاجتماعية معلنا: "مساء غد أنا مدعو إلى منزل أنتونى بيناشى وفى سعادة: "عندما كان فى صحبة المجتمع الراقى. فى تلك اللحظات، قال ميلانوس "نحن الأصدقاء العاديون لدينا انطباع بأن أولئك الناس قد حرمونا منه تماما وللأبد."^(٥٨)

وقد تم تقدير كفافيس مثل أى واحد، حيث إن سخاء عالم مسيين وسيفرى والسجاد العجمى واللوحات الفنية الفرنسية كانت موجودة أيضا على القطن. وقد قام محمد بجلب زراعة القطن فى القرن التاسع عشر وبعد ذلك بعقود أصبح القطن المحصول الرئيس فى الزراعة لمصر كما أصبح سلعة تصديرية تخدم الاقتصاد خلال النصف الأول من القرن العشرين ويمثل نحوًا من ٧٠ إلى ٨٠% من

المجموع الكلى لصادرات مصر. فيما عدا مدينة ليفربول، لم يتم التعامل في تجارة القطن على نطاق واسع أكثر من تجارة القطن، في الإسكندرية وكثير من مشاريع البنية التحتية في مصر كان يتم تمويلها من أرباح القطن بل كانت مدينة الإسكندرية كلها بشكل مباشر أو غير مباشر تستفيد من هذه التجارة. كانوا يطلقون عليه "الذهب الأبيض" وقد كان القطن لمصر ولأقطاب تجارة القطن في الإسكندرية ثروة هائلة وضخمة.

يجنى الفلاح المصري، القطن ويرزقه، ولكن الأوروبيين يقومون بمعظم الأعمال غير اليدوية، ويكون اليونانيون بينهم متسلطين، في الأقاليم كملاك أراض ووسطاء وتجار قطن، وفي الإسكندرية كمؤمنين، سماسرة، أصحاب بنوك ومصدرين. في الثروة والحضارة، كانت تمثل الطبقة العليا من يونان الإسكندرية عالما مستقلا عن البائعين والبقالين، المعلمين، والصحفيين، الموظفين المحليين، عمال التبغ وحراس الفنادق الرخيصة في المدينة، ويظنون أنهم يحافظون على روابط وثيقة الصلة باليونان ودائما ما يقضون الأشهر الصيفية هناك، ولديهم فخر في التحدث، حتى في المنزل، باللغة الفرنسية والإنجليزية التي تعلموها من مربيائهم. وهو ما يوضح لماذا لم تصبح اليونانية هي اللغة المشتركة في الإسكندرية (علاوة على ذلك أن معظم أسمائهم ترد بالفرنسية، كما هو معتاد وسط طبقات الإسكندرية العليا- في ذلك الوقت- على سبيل المثال أنتوان بيناشي، ميشيل سالفاجوس، جان شوريمي وهكذا). تنحصر اللغة اليونانية بين الطبقات الوسطى وطبقة العمال والمتقنين ومن بينهم كوستانين كافافي، الذي كان من الوارد رجوعه عن لغته الوطنية، إذ لم يكون أبوه ثروة من القطن ولم يفقدها أبناؤه.

هؤلاء اليونان الأثرياء، إذ لم يعيشوا في رملة- حيث كان من المحتمل أن يحصلوا على منزل آخر في أي وقت- قاموا في نهاية القرن التاسع عشر ببناء

"فيلاتهم" الرائعة فى الشرق فى نهاية المدينة داخل منحنى حائط العرب الذى يرجع إلى القرن التاسع، التى يمكن رسم بقية آثاره، التى كانت فى ذلك الوقت أفضل من الآن، من محطة سكة الحديد الرئيسية حول الحدائق المحلية، و قمعهم على بوابة الشمس المختفية فى المدينة القديمة، حيث إن شارع روزيت كان يمتد من المدينة مثل شارع أبو قير. لم يكن اليونان الوحيدون الذين عاشوا فى هذا الحى، ولكن قال الكثير من الناس إنه أطلق عليه الحى اليونانى، فى حين كان يطلق عليه الإنجليز "البلوبونيز".

فى الواقع فهم يأتون من أى مكان ولكن البلوبونيز (حيث يهاجر معظم فلاحها إلى أمريكا) وحيث كانوا متأثرين بشتى الحضارات قبل مجئهم إلى الإسكندرية. ومازال يعيش فى المدينة اليونانية أعضاء من أسرة جورج أفيروف. قد جاء أفيروف من مستوفو، وما هى الآن إلا مدينة جبلية فى شمال اليونان، ولكن من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، عندما تتمتع بمزايا خاصة من عند الباب، كانت منزل العديد من عائلات تجار كريستين الأغنياء. أفيروف، الذى جمع ثروته فى الإسكندرية، عاد إلى اليونان قبل موته عام ١٨٩٩. وهناك تبرع بمبلغ ضخم من أجل ترميم إستاد أثينا القديم، حيث أقيمت أولى الألعاب الأولمبية الحديثة عام ١٨٩٦، وقدم للأسطول اليونانى أول سفينة حربية. جاءت عائلة جون كاثيلى من رودس. وهو تاجر قطن يملك مجموعة من سلعة رودين-أيزنيك باهظة الثمن ويدير مزرعة نموذجية بالقرب من أبو قير، حيث يقدم قطع الجاموس أجود أنواع الألبان والزبد لانتقاء الزبائن، كان كاثيلى يدير ثروته بنفسه، حتى أفلس عام ١٩٢٩، و تحرر من جزيرته السلفية وباقي دوديكانيس من التعاليم الإيطالية. إن بيناشى، شوريمى وسالفاجوس(أقوى ثلاث عائلات يونانية فى الإسكندرية، يقيمون علاقات متبادلة ويتاجرون فى القطن) قد لجأوا من شيوس إلى سيروس، إنجلترا

ومرساى على التوالي- ربما تكون عائلاتهم من أصل جيونيس (الأكثر اقتراحا من الأكثر قرابة من عائلة بيناشى و بوناشيو)، لشيوس، مشهد فطيع من عام ١٨٢٢ الذى صدم الأوروبيين والذى دفع ديلاكروا إلى رسم أشهر أعماله إذ كانت غير مروعة بالقدر الكافى مذبى سيو، التى كان يقوم بها الجيونيس لفترة طويلة. هؤلاء كالعديد من العائلات اليونانية فى الإسكندرية- السينادينوس، مصارفة من تريسى رغم أنهم فى الأصل من شيوس، الكاسافيتى من زاجورا، التوزيساس من ميتسوفو إلى المكان الذى ولد فيه محمد على فى كافالا، حيث إن قصورهم فى الإسكندرية أصبحت البورصة فى ميدان محمد على، بعد عودتهم إلى اليونان فى القرن التاسع، الكافافيس من قسطنطينية إلى منشستر، ليفربول، لندن- جاءوا من المراكز التجارية اليونانية الهامة فى ظل القوانين التركية، حيث كانوا جزءا من الطبقة الوسطى التجارية بين الإمبراطورية العثمانية وأوروبا. فهم كانوا من البيزنطيين.

ولكن فورستر عرف أن هناك ما يجرى وراء التجمعات المتألقة الموجودة فى المنازل العظيمة فى الإسكندرية أكثر من الكسل الذى تظاهر به أو تمناء. فقد حولت حرب استقلال اليونان عام ١٨٢٠ مدينة خرجت سابقا من الإمبراطورية العثمانية، إلى الأمم المتحدة اليونانية، تطمح إلى إعادة بناء الأراضى فى آسيا الصغرى للحكم اليونانى، خاصة سميرنا على حساب أيجن ومنطقته الخلفية وأيضا القسطنطينية، مراكز اليونان القديمة والبيزنطية وحيث لا يزال يعيش اثنا مليون يونانى. فالحلم للكثير من الناس يبقى مسألة مقدسة. إن أصحاب كافافى، بيناشى، كانوا فى قلب المسألة التى تملأ غرف رسم اليونان ومقاهيهم فى المدينة- الفكرة العظيمة.

قدم رئيس وزارة العدل اليوناني، المشهور ألفتريوس فنزويلا الفكرة العظيمة، وفكر الإنجليز خلال حملة داردانيل في طلب العون من اليونان، مقدمين أراضي في آسيا الصغرى مقابل دخول اليونان الحرب، ووافق فنزويلا ولكن الملك المؤيد للألمان قام بإقالاته. وبعد شهر، في إبريل ١٩١٥، جاء فنزويلا إلى الإسكندرية، باحثاً عن دعم للمهجرين الذين لديهم النفوذ.

وقد استقبلت الإسكندرية فنزويلا استقبالا حافلا مصطحبا بالطرب. وبدأت الإسكندرية وكأنها ترتدى ثوباً أزرق وأبيض وهي ألوان علم اليونان، ويهتف خمسة وعشرون ألفاً قائلين: اليونان مسببو الزحام في طريقه، كما أنه كان مسافراً في سيارة مفتوحة من مطار نادى اليونان إلى قلب المدينة. وقد جاء العديد من المواطنين المؤيدين لفنزويلا إلى مصر هاربين من التعصب والرجعية السائدين في اليونان، في حين أن آخرين جاءوا من أماكن بعيدة لا يسكنها اليونان ولكن لا تزال تحت الحكم العثماني. وجد تجار القطن وأصحاب المتاجر، هنا في الإسكندرية، مجالاً لمهاراتهم التجارية، وعاشوا في حماية الإنجليز وكانوا يؤيدون سياسة فنزويلا للتحالف. وكانوا قريبين من الفكرة العظيمة، التي تتماشى جيداً مع وعيهم لمهمتهم الحضارية وتضرعهم لماضيهم المجيد من أجل تأكيد وجودهم في مصر. إذا كنا بحاجة إلى براهين إضافية لصحة الوجود اليوناني واستمراره، فما علينا إلا النظر حولنا : قامت الإسكندرية الحديثة محل المدينة القديمة التي أنشأها الإسكندر الأكبر.

لقد تم الترحيب برئيس الجالية اليونانية الأكبر بحماس عندما كان يلقى خطابه للترحيب، وهو ميشيل سينادينوس من عائلة ثرية من مصدرى القطن وتربطه بالإمبراطور شوري مي-بناشى صلات عمل وقرابة وطيدة.

جاء رجل الدولة اليونانى، ألفترىوس فنزويلا (اليساري) إلى الإسكندرية عام ١٩١٥ من أجل الحصول على دعم مواطنيه الأثرياء ومنهم أنتونى بناشى (اليمنى) وهو وثيق الصلة بكافافى. يعد فنزويلا الممثل الرئيسى للفكرة العظيمة، حلم تأسيس يونان أفضل على شاطئ أيجن فى كل من أوروبا وآسيا. ولكن انتهى الحلم بين النيران والمذابح فى سмирنا عام ١٩٢٢، فى حادث لفت انتباه يونان الإسكندرية.

فى شارع روزيت بالقرب من البطريركية الأرثوذكسية اليونانية، طريق قصير من شارع لبسيوس، ربما يكون كافافى هناك مع صديقه أنتونى بناشى، الذى كان والده أيمانويل رئيس الجالية سابقا. كان بناشى الكبير أحد أثرياء الإسكندرية، من الأثرياء الديسبورة فى اليونان، وقد أقام هيمنة شخصية هائلة للبنك الوطنى فى اليونان. كان يجتمع فنزويلا مع أيمانويل بصورة شخصية وكان يقنعه بالاستيطان فى أثينا، حيث سيصبح المحافظ قريبا، مساعدا كذلك قضية الفنزوليين فى نضالهم ضد الملك، حيث سيصبح قريبا مرشد يونان الإسكندرية. هل تتخيل كافافى فى النادي يستمع إلى فنزويلا الذى يصرح بحلمه (يونان العظيمة، يونان بها خمسة بحار ومحيطان)، ويفكر فى أنتونى وابن كليوباترا، فى الأفق التى لم يتم فتحها بعد، والسلطات الملكية الآسيوية التى سوف ينعمون بها.

تم انتخاب فنزويلا مرة أخرى وزيرا للعدل عام ١٩١٥، وكان يدافع فى هذا الوقت عن حملته فيما يخص التحالف مع الجيش البريطانى وحلفائه إيطاليا، وفرنسا، وروسيا وتحقيق الحلم القديم وهو الدولة البيزنطية الجديدة، ولذلك عندما أصبحت سياسته غامضة اتهم فنزويلا الملك بالتصرف غير الدستورى. ويسرى الآن انشقاق فى المدينة، بلغ أوجه فى أكتوبر ١٩١٦ مع تصريح فنزويلا بوجود

حكومة مؤقتة في سالونيك (تسالونيكى) التى أدركها الحلفاء بعد شهرين عندما استقر الجيش البريطانى والفرنسى فى المدينة.

وقد تابع فورستر هذه الأحداث عن كثب وكان يدونها فى خطابات، عندما كان يكتب لترافليان عن يونان الإسكندرية يحوط الحلم الهيلينى والبيزنطى. وبعد شهر، فى سبتمبر ١٩١٧، نشر مقالته (انحرافتنا: موسيقى الأحد) فى ميل، حيث كان يصف المستمعين الشرقيين فى حفلة بتهوفن مثل السوريين، الفرنسيين الإيطاليين، اليهود، الأرمن وبدلا من اليونان الملكيين والفرنزوليين. الشيء الطريف، كالمعتاد من فورستر، أنه يشير إلى الشيء الذى يمكن أن يسمه شخصا.

ذهب إلى اليونان مرة واحدة، عام ١٩٣٣، وأخذته السفينة إلى قنيس فى آسيا الصغرى حيث - بدلا من حد اليونان الحديثة نفسها - أصبح العالم اليونانى القديم قائما بالنسبة له. هنا حيث بقايا مقام الإلهة ديمتر، الذى تم نقل تمثالها إلى المتحف البريطانى حيث أصبح جزءا من العبادة فى حد ذاته: "ديمتر وحدها وسط الآلهة لها صفة أبدية حقيقية"، وكتب بعدها بعام: "لها، تقام صلوات الوثنية من قبل الرجال المتألمين والنساء المتألمات، لأنها تفوق كل مثل هذا النوع".

المتحف البريطانى الموجود به الإلهة ديمترى "دافى ومريح"، يظنون أن لا يمكن لمسها، تعد اليونان لفورستر وحدة كاملة، تفوق المكان والزمان. لكن الآن فإن محاولة تجسيد فكرة اليونان الروحية عن طريق الصراع فى المنازل وفى آسيا الصغرى فإنها بمثابة شيء خطير يثير الخلاف والفرقة بين الناس. وفى الإسكندرية نفسها ليس كل شيء من أجل الفكرة العظيمة، وكفاى، الذى لديه أصدقاء على الجانبين وعلى الأقل أخ معارض صريح، يلتزم الصمت المتكافئ.

ربما يكون هذا سببا من الأسباب ليس غير، متعلق بشعوره تجاه الحرب عامة أو تجاه أمه أو محمد، لماذا رفض فورستر "من الأسباب الشخصية والعامة" طلب الهلال الأحمر في صيف ١٩١٧ من أنه لا بد من الذهاب إلى حصن الفنزواليين في تسالونيكى.

تقدم البريطانيون في نوفمبر هذا ضد الأتراك في يافا، ودخل الجنرال أللبنى القدس في ديسمبر. وتحمس يونان الإسكندرية هؤلاء الذين كانوا يدعمون الفكرة العظيمة للحملة الفلسطينية ورأوا دخول البريطانيين في الأراضي المقدسة مبشرا لطموحهم في آسيا الصغرى. ومع حرب اليونان وهزيمة الألمان والإمبراطورية العثمانية في نهاية عام ١٩١٨، حصل فنزويلا على الفرصة التي كان يبحث عنها. في مايو ١٩١٩، في ظل الاحتلال البريطانى، الفرنسى، الأمريكى؛ فقد رست السفن الحربية اليونانية في سميرونا. ها هي بداية الكارثة بالنسبة لليونانيين، الكارثة التي بإمكانها أن تهز الإسكندرية.

الفصل الثالث

آه لو أن الحب أبدى

لا بد أن يعتريني شعور بالفرح حال موافقة جمعيتكم المتميزة التي ترأسوها على إعادة نشر كتابي "الإسكندرية": فهذا الكتاب ملك على مشاعري، إذ كتبه في أيام ثقيلة على ولا بد أن أراها مطبوعا.

إى إم فورستر إلى جاسبر يتس برنتون، رئيس الجمعية الملكية للآثار فى الإسكندرية، ٥ فبراير ١٩٣٦. (١)

"الإسكندرية بالرغم من أنها مدينة عالمية تضم عناصر من مختلف أرجاء العالم فهي تُعد ملتقى للحضارات" هذه هي الكلمات التي بدأ بها "فورستر" الفصل الافتتاحي للكتاب الإرشادي والذي يتحدث فيه عن بحيرة مريوط التي يمتد حدها الغربى إلى داخل الصحراء الليبية. وقد كان تجواله ما بين الماكس والعامرية "أفضل تجوال نهاري سيرًا على الأقدام بالقرب من الإسكندرية" متوجهاً نحو الشاطئ الجنوبي إلى منطقة تدعى كينج مريوط حيث وجد أن "الحياة النباتية المحلية في هذه المنطقة هي واحدة من أفضل البيئات النباتية على مستوى العالم". (٢) وقد قضى فورستر فصل الربيع لمدة ثلاثة أعوام متتالية في الإسكندرية حيث استكشف هشاشة هذه المناظر الطبيعية المحيطة بالجانب الغربى من البحيرة عند الاتجاه لمسافات بعيدة نحو الغرب حتى أبوصير - تابوزيريس ماغنا القديمة - والمعبد البطلمي "أوزيريس" والمنارة الحديثة (أطلق عليها منذ العصور الوسطى اسم برج العرب) على غرار الشكل الفرعوني ولكنها أقل في الحجم بما يقرب من

١٠ أمثالها. لم يتم إعادة بناء المدينة وأصبحت المناظر الطبيعية التى كانت موجودة بجانب البحيرة درساً لـ "فورستر" عن كيفية تلاشى الأشياء بشكل نهائى.

يمتد الحوض الرئيسى لمربوط بلونه الأزرق ومساحته الشاسعة إلى جنوب الإسكندرية وتنتشر على سطحه جزر الخيزران. وقد كانت هذه المنطقة منذ خمسة آلاف سنة هى موقع مملكة الحربون التى احتلها نارمر - ويطلق عليه أيضاً اسم مينا- وهو أول فرعون لمصر الموحدة. وعلى الرغم من انتهاكات المصانع منذ عهد "فورستر" فإن المنطقة لا زال يغلبها الطابع البدائى، حيث تنتشر الأكواخ القصبية بطول الشاطئ والقرى الصغيرة تختفى تحت خط الأفق حيث تنتشر الأماكن الزراعية ويتحرك الصيادون بقواربهم فى المياه الضحلة الهادئة لهذه البحيرة، ويمتد نحو الغرب جزء من البحيرة بين تلين متوازيين: أحدهما تلى ساحلى من الجبر والآخر تلى داخلى منخفض. وتضم هذه المنطقة "عناصر شرقية الطابع" مثل البدو والجمال وتحمل أيضاً طابع "الهدوء والعظمة" مما يذكر فورستر بالأراضى السبخية الأسكندنديّة "المنطقة بالكامل تثير لديك مشاعر عديدة وخاصة فى أوديتها، واللون الأرجوانى الداكن الذى قد يسود المكان نتيجة لانتشار الأراضى السبخة،^(٢) وفى فصل الخريف، تتجمع أعداد لا حصر لها من البط والإوز والسمان فى المستنقعات الممتدة إلى الأراضى الرطبة والأماكن التى تنتشر فيها ظاهرة السراب وصولاً إلى الصحراء الواقعة بين الإسكندرية والعلمين.

فى عصر البطالمة كانت هناك قناة تربط مريوطيس - حسب التسمية اليونانية لها- بالنيل بالقرب من مدينة كانويس وكانت بمثابة سلة الغذاء والمؤن لمصر التى كانت تمر خلال مرفئها الذى كان يستقبل أطناناً من المؤن أكبر من مرفأى الإسكندرية مجتمعين، وقد كان لسان هذه البحيرة الممتد غرباً- وقد كانت تغذيها المياه بصورة أفضل من الآن- يعزز انتعاش التمدن فى المناطق المطلّة

على البحيرة مقارنة بالبحيرات السويسرية والإيطالية اليوم. زراعة البردى والنباتات المائية الضخمة "Water Beans" التي يصل طولها إلى عشرة أقدام وتحمل أوراقا كبيرة كأسية الشكل فى المناطق الضحلة ونجد أيضا كروم العنب وبساتين الزيتون والتين التى تنتشر بالشواطئ المحيطة بينما تقع الحدائق والبيوت الصيفية للأثرياء من أبناء الإسكندرية بين المزارع. شهدت زراعة الكرم - بشكل خاص- كثافة كبيرة وكانت الشتلات يتم استيرادها بعشرات الآلاف من مختلف دول البحر المتوسط. هذا النوع من الكرم كان يستخدم فى إنتاج نبيذ عالى الجودة. ويرى أثيناوس- فى كتاباته فى القرن الثانى بعد الميلاد مستعينا بمصدر قديم- أن الكرم من المحاصيل التى كان يعاد استيرادها فقد تم اكتشافه لأول مرة فى بلينثين الواقعة شرق تابوزيريس ماغنا القديمة.

ويذكر هوراس أن كليوباترا كان لديها حديقة غناء وكانت تبهر باليخت الخاص بها فى مياه البحيرة وكان ذهنها يميل إلى الدعاية لأوكتافيان كما كانت مصابة بعدم اتزان بسبب احتساء نبيذ مريوط،⁽⁴⁾ ولكن فورستر يذكر أن أوكتافيان كان "واحداً من أبغض رجال العالم الناجحين وأنه كان يرى أن كليوباترا فى المستقبل ستكون لا شيء سوى واحدة من السوق المنغمسين فى الملذات، كما كان يرى أن نائب الملك يجب أن يتصف بالمكر".⁽⁵⁾

استمرت السلالة البطلمية الحاكمة لفترة ثلاثة آلاف سنة وطوال تلك الفترة اتصف "المصريون بظاهرة التسامح". ويرى فورستر أن عظمة هذا الحكم تكمن فى التركيب المعقد للدولة التى كان البطالمة يحكمونها؛ ففى "صعيد مصر حافظ البطالمة على تقاليد الفراعنة الراسخة هناك والحضارة الهلينية (حضارة بلاد اليونان القديمة) فى المناطق الساحلية مع استمرار التواصل مع ثقافة البحر المتوسط"⁽¹⁾، وعندما تعلق الأمر بسلطة الحكم وقصرها على السلالة الحاكمة

البطلمية، ذكر أحد المؤرخين أن البطالمة رأوا أنه من الأفضل أن لا يتبعوا نظام حكم اليونان وأن يحنوا حذو الفراعنة، فلم يكن إيزيس وأوزوريس زوجين فقط وإنما كانوا أيضًا إخوة وهذا يعنى "المحافظة على الحكم فى سلالة العائلة".^(٧) ويقول فورستر "ترى السلالة الحاكمة أنها تختلف اختلافًا كليًا وجزئيًا عن العامة وأنهم ثمرة إلهية متمثلة فى أفرادهم من الذكور والإناث"^(٨) وقد كانت كليوباترا السابعة - آخر هذه السلالة الحاكمة البطلمية - هى الأكثر المعية فى هذه الأجيال التى جاءت نتيجة لسفاح الأقارب.

ونظرًا لكون أنطونيو عاشقا لكليوباترا وكان يتم تشبيهه بالإله أوزيريس - يقابله الإله ديونيسوس إله الخمر لدى اليونان. وكان المتعبدون يعبرون البحيرة للوصول إلى معبد الإله فى تابوزيريس فى أيام الأعياد، حيث أصبح اللسان الغربى لبحيرة مريوط منتجعا ومزار لسكان المدينة. وفى أثناء الإبحار من جزيرة لأخرى يحتسى الناس الجعة والنبيذ أسفل تعريشات الكرم فى شكل حانات صغيرة قبل النزول من السفينة للاستهلاك والاستمتاع بالظل الذى توفره أوراق نباتات الخروع الضخمة بالقرب من الشاطئ والتمتع بالشعور بالعزلة أيضا، وبحلول المساء، ينتشر ضوء المشاكى وأصوات الغناء وسط ظلمة المياه أثناء حركة المراكب النشطة فى سيرها تجاه الديار إلى الإسكندرية.

ولكنه فى كتابه "صور موجزة للإسكندرية: المكان المعزول" (Alexandria Vignettes: The Solitary Place) الذى طبع فى "ميل"فى مارس ١٩١٨، رأى فورستر أن مريوط "تراجعت بشكل عام عن الحضارة وأصبحت الروح السائدة فى المكان - دون أن تتحول إلى الطابع البدائي - هى البساطة الشديدة والبعد عن الزخرف"، إلا أن هذه الأجواء كانت تختلف فقط بانتشار الزهور البرية فى يناير

وفبراير ومارس بألوانها الأرجوانية والبيضاء وأزهار شقائق النعمان والحوذان
القرمزي والأصفر ونباتات حشيشة السعال والقطيفة البرتقالية الصغيرة والخشخاش
والقراص والبنج والخباز وبقلة الخطاطيف واللبلاب والبليحاء العطرية، إلا أن هذا
الزخرف لا يمكن مقارنته بذلك الزخرف الذى ينتشر فى إنجلترا فى فصل الربيع
بشكل مرتب والمنقذ، حيث ينتشر هذا الزخرف هنا بشكل فوضوى وسريع،
"موكب الربيع يمر مرور الكرام كما لو كان شعاع ضوء ملون منتشر على
الأرض وليس نتاجاً للأرض ذاتها فإذا أراد الشخص أن يلتقط عدة ورود لوضعها
فى إناء على منضدة ذات طراز سكندرى، سيبدو هذا الأمر بالنسبة له كحلم ضخم،
وتحول فورستر من كتابة الأنشودة الرعوية إلى كتابة المراثاة الشعرية: "وبمرور
السنين اتخذت هذه المنطقة مظهرًا بدويًا غير عادى حيث اختفت مظاهر الحضارة
تحت الرمال ونمت الزهور فى الأواني الفخارية الأثرية فهل سيحدث نفس الشيء
للأواني المصنوعة من القصدير وللأسلاك الشائكة المنتشرة لدينا؟ على الأرجح لا،
فالإنسان الآن أمامه أشكال أخرى من الحياة نادرًا ما تسمح له بزراعة الزهور،
فستدفن الأواني المصنوعة من القصدير القديمة أسفل الجديدة وهو ما يعنى فى
رأى انتصار الحضارة، فالبصمة الأخيرة التى ستركها الإنسان على هذا الكوكب
والتي تمثل ما يمجده الإنسان المتحضر هى الغطاء الصلب للماكينات والقبور.

فى فبراير ١٩١٨، كتب فورستر خطابًا لصديقه فلورنس حول محمد قائلا:
"أفضل ما صادفته فى حياتي" ^(٩) فلم يكن هناك فى الإسكندرية أحد يمكننى أن
أحدث معه عدا محمد. وقد كان فورستر قلقًا للغاية من العزلة الهائلة لمشاعره،
والآن عادا يتقابلان فى شهر مارس وفى هذه المرة كان فورستر يقول لنفسه عندما
يعود محمد إلى الإسكندرية يجب أن يأتى ليعيش معى فى منزل إيرنى. وفى هذا

الوقت عندما ابتعدت الحرب عن مصر أكثر وظهرت آثارها على المواطنين المصريين العاديين اختلطت مشاعر فورستر بين حب صديقه محمد وكراهية الحرب.

ولاحظ فورستر حدوث تغيير ملحوظ في شخصية المصريين منذ بداية العام، فقد كانت مشاعر المصريين تجاه البريطانيين هي الود والصداقة ولكنهم الآن يستقبلونني بالصمت. وقد كان الأتراك في هذه الفترة موجودين على هضبة الجليل وكانت الحملة الموجهة إلى دمشق تواجهها مصاعب جمة، كانت القوات البريطانية تعتمد على المؤن التي تأتيها من مصر، وكان الفلاحون محملين بهمومهم يجبرون على الانضمام إلى الجيش لنقل المؤن إلى الجبهة لقاء مقابل لا يعرضهم عن أراضيهم التي تركوها دون حرث في قراهم، وفي أثناء انتظار فورستر لصديقه محمد وسيره بين مناطق المصريين داخل المدينة سمع الناس يرددون أغنية حزينة تقول:

"بلدى..... يا بلدى

والسلطة خدت ولدى"

توقع فورستر أن محمدا يكذب عليه في الخطاب الذى أرسله إليه من القناة يقول فيه إنه لن يستطيع المجيء إلى الإسكندرية، ونطق بكلمات لاذعة متهمًا إياه بالكذب، ولكنه حضر بمرض بسيط ودخل المستشفى والنقط عدوى بالحمى التي كادت تقتله، ولكن القصة كما يراها فورستر الذى كان يعتقد أن محمدا استخدم حجة المرض مبررًا ليخفى مشاعره ويقضى إجازته فى المنصورة بدلاً من الإسكندرية، ورد محمد على فورستر قائلاً: "ما الأكاذيب التي وجدتها فى خطابي؟ إننى أنكر أننى لم أخبرك بأى شيء كاذب فى خطابي، لقد أصابنى هذا الكلام

بالضيق الشديد، من فضلك عاود مراسلتى بسرعة، وأضاف أنه يعاني من انتكاسات المرض والتي عاودته وأنه من المحتمل أن يعود مرة أخرى إلى المستشفى. (١٠)

لقد استغرق الأمر بعض الوقت حتى يصدق فورستر ما قاله له محمد، وألقى فورستر باللوم على الجيش البريطانى وموقفه تجاه المصريين سواء أولئك الذين كانوا يرسلون المؤن إلى الجيش فى فلسطين أو الذين يعملون فى القناة، فقد كان البريطانيون يرون أن المصريين لن يمرضوا وإذا وصل بهم المرض إلى درجة تجعلهم قد يتعرضون للموت فلا يهم يمكن إرسالهم إلى المستشفيات التى كانت بدورها بؤرا لنقل الأمراض، وعندما أخبره محمد عن استعدادة لتقديم الرشوة ليحصل على سرير بينما الآخرون يموتون ولا يجدون من يرعاهم، رد فورستر قائلا:

"الجيش يتخلص منهم كما لو كانوا قاذورات" (١١)، وأراد فورستر أن يرى محمداً ولكن نظراً لانتشار وباء التيفود فى منطقة القناة، كان على محمد أن يمكث خمسة أيام فى الحجر الصحى قبل أن يعود إلى الإسكندرية، الأمر الذى لا تسمح به وظيفته، وفى خطاب أرسله محمد إلى فورستر "شعورى الآن هو نفس شعورك، أعتقد أننا لن نتقابل ثانية" فشعر فورستر بالعجز واليأس وأرسل إلى فلورنس خطاباً فى نهاية شهر مارس يقول فيه "إن الأحداث المأساوية تلقى بظلالها علينا". (١٢)

ولكن فى شهر مارس كانت الحالة الصحية لمحمد جيدة بما يكفى لقضاء إجازة من عدة أيام فقدم إلى الإسكندرية، ولم تكن شائعة عمله جاسوساً للبريطانيين فى القناة إلا وسيلة حيوانية لن تسبب له أى أذى. (١٣) وعلى الرغم من أن محمداً لم يكن يحمل آثاراً من طمى النيل، فإن البريطانيين عاملوه كالقاذورات، وبدأ فورستر

يشعر بالحنين إلى وطن الشقاء: "الذى جعلنا نتعارف ونثق في بعضنا بعضاً ثقة مطلقة".^(١٤)، وكتب فورستر إلى صديقه فيرنس ليرى إمكانية أن يجد وظيفة لمحمد في الإسكندرية ووعده بأن يعطيه نقوداً إلا أن محمداً رفض: "ومر اليومان كدقيقتين، ومع ذلك شعرت أن هذا أفضل، فإذا خرجت للسير مع نفس الصديق كل يوم قد أشعر في بعض الأحيان بالحاجة إلى صديق آخر، ولكننا الآن سنشعر بالقلق واللهفة لرؤية بعضنا بعضاً لمدة ٦ أشهر حتى نحصل على هذه السعادة"، ومن الجدير بالذكر أن "فورستر" أحب محمداً لمثل هذه الملاحظات، وقد كان دائماً ما يجد فيه البساطة والعاطفة الجياشة والنضج والنظرة الواقعية كما أنه لم ير أن صداقته بمحمد كانت تميل لصالحه، وفي نفس الوقت، تذكر "فورستر" رد فعل إيريني العام قبل الماضي عندما رفض أن أقوم باستضافة محمد في غرفتي: "عندما تلاحظ أن شخصاً مثالياً يتعامل معك بشكل غير المعتاد وبسخط"^(١٥) هذا هو ما كتبه فورستر إلى فلورنس حول إيريني وسأله فلورنس بعد ذلك عن عدم تركه لهذا المنزل بدلاً من قضاء الإجازة القصيرة مع محمد في باكوس في منزل صديق محمد المأنون الشرعي- أو الجلوس على سفح التل الجبيري في المكس لمشاهدة لسان بحيرة مريوط الممتد نحو الغرب.

وقد كتب "فورستر" ليشكر كل أصدقائه من أهل الإسكندرية الذين ساعدوه في إعداد كتابه وقال "بالإضافة إلى كل ما سبق، أود أن أشكر السيد/ جى إتش لادلوف الذى أعد هذا الكتاب بناء على اقتراحه والذى لولا مساعدته ما كنت استكملت هذا الكتاب"^(١٦) لادلوف هو رجل كبير فى السن يتمتع بجمال الشكل والعقل يعمل موظفاً فى أحد مكاتب البريد وهو باحث غير متفرغ كان يعيش مع زوجته "ذات الشخصية القوية والمنظمة"^(١٧) فى جليم على بعد محطة ترام واحدة من حى سابا باشا، لا نعرف الكثير عن عائلة لادلوف ولكن من المؤكد أنهم كانوا

يعيشون أيامًا جميلة وكان للسيدة/لادلوف صديقة في مصر هي السيدة/آن كنج-
نويل بلونت، بارونة وينتورث وحفيدة اللورد بيرون وزوجة ويلدفريد سكاوين
بلونت الشاعر والرحالة المعروف الذي كان نصيرًا صريحًا لعرابي باشا والتأميم.
لم يكن عمل لادلوف في مكتب البريد ضروريًا. وكان لادلوف يعرف المدينة جيدًا
وأرشد "فورستر" إلى الكثير من المناطق الهامة والتي لم يكن مسموحًا بدخولها.
وعلى الرغم من كونه بريطانيًا فإن والده كان ألمانيًا لذا أحبه فورستر كثيرًا؛ حيث
كان "فورستر" يستغل الجذور الألمانية له كفرصة ليحقق انتصارات خاصة عليه
بعيدًا عن أجواء الحرب الدائرة، ولهذا السبب أهده "فورستر" النسخة الأولى من
كتابه "الإسكندرية: تاريخ ودليل إرشادي" (Alexandria: A History and A
Guide).

وفي ١٩٢٣ أرسل دي إتش لورنس إلى فورستر خطابًا بعد نشر الدليل كتب
فيه "يا لها من وظيفة مسلية يمكنك أن تشغلها، فطالما تذكرت سعادتك بعد زيارة
معرض National Gallery وتصفح كتالوجات الصور".^(١٨) لقد كان عمل فورستر
بمثابة وسيلة تعالج آثار اندلاع الحرب، فتم نشر كتاب "الإسكندرية" بعد انتهاء
الحرب، وقد كتب "فورستر" إلى تريفيليان في أغسطس ١٩١٨ قائلاً: "مما لا شك
فيه أن الحقيقة كان يتم إخفاؤها علينا في الحروب السابقة، ولكن لم تكن هناك بدائل
متعددة للوسائل الرسمية، إنه مما يصيب الإنسان بالوهن كأكوام الجثث المتعفنة،
وتجبر الإنسان في الاتجاه بمشاعره نحو التطهر بالخيال أو الحنين للماضي"^(١٩)
ولكن في هذه المرة لم يكن ما أعجبه كتالوج صور، ولم يكن هو نصف حي، على
العكس تمامًا فقد وقع في الحب الذي أحياه وساعده على امتلاك زمام قدراته
الإبداعية. وفي بداية شهر نوفمبر، بعد شهر واحد من كتاب الإسكندرية كتب إلى

والدته والسعادة تغمره يقول: "لم أكن أفكر فى كتابة كتاب آخر ولكن حقيقة قدرتى على التركيز أصبحت بالنسبة لى مصدرًا للسعادة". (٢٠)

ومع ذلك، كان قراره لكتابة الدليل قرارًا خاصًا فلقد كان الكتاب الرائع "Alexandrea de Aegyptum" لبريشا وهو كتاب تاريخى كبير يذكر السمات الأساسية للمدينة الحديثة- مطبوعًا بالفعل وكان مكتوبًا باللغة الفرنسية- منذ ١٩١٤، كان "فورستر" يعرف جيدًا أن إصدار نسخة إنجليزية كان وشيكًا، ففى بداية ١٩١٧ تم الانتهاء من ترجمة هذا الكتاب إلى الإنجليزية وكان من المعتزم نشره بمجرد انتهاء الحرب. لقد كان بريشا مديرًا للمتحف اليوناني- الروماني وكان كتابه بمثابة الدليل الرسمى للمدينة ولذا كان سوق بيع هذا الكتاب مضمونًا.

كان السبب وراء شعور "فورستر" بالعرفان فى الحقيقة لما اقترحه عليه لادولف هو إصراره وحاجته للتعبير عن تجربته الشخصية مع الإسكندرية، والتي كانت تجربة مزدوجة فقد كانت حسية من ناحية وعقلية وروحية من ناحية أخرى، فكما أن تأثير كافافيس على فورستر كان واضحًا بشكل خاص فى الناحية العقلية والروحية شمل تأثيره أيضًا العلاقة القوية التى ربطت فورستر بصديقه محمد والتي فجرت بداخله مشاعر الحنان والحب. وكانت النتيجة وفقًا لكلمات لورينس دوريل الذى كان أحد أبناء الجيل التالى لفورستر والذى تأثر بكتاب فورستر واتبع خطواته أنه: "عمل فنى صغير يحتوى على عدد من أفضل النصوص النثرية لـ"فورستر" وتعبيرات تتميز بلباقة لا يمكن لأحد أن يكتبها سوى مؤلف قصص بارع وموهوب، كان الكاتب الذى عاش منعزلًا هنا خلال الحرب العالمية الأولى يشعر بالسعادة البالغة ربما لوقوعه فى الحب ولشعوره بالسعادة فى الحياة والذى كان يظهر فى كل بيت شعري بقصائد الحب التى كتبها. وعلى النقيض تمامًا وعلى

الرغم من هذه الكلمات، فإننا نجد أن الكتاب تغمره مشاعر الوحدة، إنها مشاعر وحدة إنسان صقلته التجربة يتحدث مع نفسه ويمشى وحده". (٢١)

ويعود هذا الدليل وما يحتويه جزئياً إلى تعامل فورستر مع النصوص النثرية. إذ إن كتاب "الإسكندرية" يختلف كلياً عن كتاب "Alexandrea de Aegyptum" في منهجه والذي يخالف أسلوب "الدليل السياحي" الذي يعنى بوصف ما يراه الشخص بنفسه بتقديم رؤية حول اللامرئى واشتمال الصفحات على عبارات مثل "مكان هادئ" و"بقايا قليلة" و"يجب البحث عنه بروية" و"يفترض خطأ أنه كان فى هذا الموقع" و"اختفى" و"لا يوجد ما يستحق أن تراه". ولكنه أحب هنا فى الإسكندرية وركب الترام أو سبح فى البحر وتطورت المدينة فى مخيلته فتخيل إنشاء مقبرة الإسكندر الأكبر فى تقاطع الطريق القريب من شقة كافافيس وتخيل أثناء انتظاره الترام فى محطة الرمل إنشاء معبد قصير أمام عينيه ونظر إلى المرفأ وقلعة قايتباى وتخيل الفراغة الذين وقفوا فى هذا المكان فى يوم من الأيام.

ينقسم كتاب فورستر إلى جزئين متساويين تقريباً أحدهما خاص بالتاريخ والآخر دليل لمدينة الإسكندرية. ويرى فورستر أن "الدليل له أهمية ليست بالكبيرة فمعالم الإسكندرية ليست ممتعة فى حد ذاتها ولكنها تفتتنا إذا ما نظرنا إليها من الناحية التاريخية والماضى". (٢٢) إذا نظرنا إلى كتاب فورستر "الإسكندرية" (Alexandria) الوقت من ناحية، والمكان من ناحية أخرى فإن المحاولات العديدة للانتقال فيما بينهما تودى إلى الخلط الواضح بين الفئات المختلفة. بدأت حقيقة الإسكندرية تتكشف وكما قال لنا فورستر بدأت حقيقة كليوباترا تتكشف لأنطونيو: "لم تجعله يشعر بالملل وحيث إن الارتباط بالمتع الحسية يودى إلى الرتابة قامت كليوباترا بشد عقل أنطونيو وتوجيهه إلى المباحج التى تتوحد فيها الحواس مع الروح، وقد رجع اختلاف شخصية كليوباترا إلى

هذا" (٢٣)، ويقوم فورستر بتوجيهك إلى الحب الذى جعله يعيش فى مدينة من خياله، كما قال دوريل فى كتابه "رباعية الإسكندرية": "عندما تكون فى حالة حب مع إنسان آخر يقطن فى مدينة تتحول المدينة إلى عالم خاص بك". (٢٤)

فى الإجازة الأسبوعية الثانية فى شهر يوليو ١٩١٨، ذهب فورستر إلى المنصورة لزيارة صديقه محمد الذى توفى والده مؤخرًا وغرق أخوه فى النيل بسبب إصابته بتشنج فى العضلات، فورستر رأى محمدًا وقد تملكه الحزن الشديد وغمره الشعور بالأسى وتناقلت عليه الهموم والمسئوليات، لقد ورث محمد بيت الأسرة المطل على زقاق طويل ضيق وقد وصف فورستر هذا المكان بأنه حى قدر "آه يا صديقى الظروف هناك غير صحية". (٢٥) كتب فورستر خطابًا إلى فلورنس يذكر فيه أن معظم حديثه خلال زيارته لصديقه محمد كان دائرا حول إمكانية أن يتزوج محمد من أرملة أخيه ليربى أبناءه الذين يحبهم كثيرًا، لم يشعر فورستر بالغيرة قط فقد حصل فورستر على اهتمام صديقه محمد طوال الفترة الماضية مما جعل إجابة السؤال الذى كان يسأله لنفسه دائمًا فى الماضى: "كيف سينتهى الأمر؟ إذا كانت ستنتهى حقًا". وعلى العكس قام "فورستر" بتشجيع صديقه وقام بكل ما يستطيع ليشعره بالسعادة.

وقام محمد باصطحاب فورستر للتجول فى أنحاء المنصورة والتقى كانت مركزًا تجاريًا مزدهرًا لمحصول القطن والمنتجات الأخرى التى تشتهر بها منطقة شرق الدلتا التى انتشرت فى أماكنها المأهولة بالسكان الطرق المحاطة بالأشجار والمنازل الأنيقة التى بنيت على الطراز الأوروبى، وتوجد بالمنصورة عدد من القنصليات وفرع للمحاكم المختلطة ومسرح والإرسالية الأمريكية حيث تعلم محمد، وقع فورستر فى حب المنصورة وكورنيش النيل والمقاهى المنتشرة هناك حيث يجلس الناس يتحدثون لساعات طويلة، وسعد فورستر كثيرًا بالتعرف على أصدقاء

محمد الذى يتكلم عدد منهم اللغتين الإنجليزية والفرنسية وكان عم أحدهم طبيبياً تخرج فى جامعة لندن، ولم يذكر محمد لأحد من هؤلاء الأصدقاء أنه كان يعمل فى الإسكندرية محصلاً فى الترام.

وأصبحت مشكلة إيجاد وظيفة لمحمد مشكلة حيوية فلم يعد بمقدوره البقاء لفترة طويلة بعيداً عن المنصورة ولكن إذا أعيد استدعاؤه للخدمة فى الجيش فى منطقة القناة فهذا يعنى البقاء فى الجيش لفترة غير محددة فالألمان كانوا لا يزالون يهددون باريس ولم يكن أحد يعرف متى ستنتهى الحرب، وشعر فورستر بالألم الشديد لعدم استطاعة فلورنس أن يجد وظيفة مناسبة لمحمد أو أن يذكر له هذا الموضوع مرة أخرى، ومرة أخرى ضغط فورستر على محمد ليأخذ منه مبلغاً من المال بينما يقوم فورستر بالبحث عن وظيفة له فى الإسكندرية، ووافق محمد على الذهاب إلى الإسكندرية فى الشهر التالى، وفى اليوم الأخير لمحمد وفورستر كانت حالة فورستر جيدة مما جعل "فورستر" يشعر بالفخر الشديد والسعادة وفى هذه الليلة مكث جميع الأصدقاء يضحكون ويجذبون بعضهم البعض: "سأضربك يا مورجان"، "سأقتلك يا إدوارد" حتى ناموا جميعاً. وقال فورستر لصديقه فلورنس إن الظروف لم تنهياً لهم بهذا الشكل من قبل وإنه شعر "بعمق مشاعره لمن حوله" فى هذه الإجازة، وعلى متن قطار الإسكندرية شعر فورستر بالسعادة البالغة لقرنته على التكيف والاندماج فى هذه الحياة البسيطة الفطرية ليس فقط فى المنصورة وإنما فى كل مكان زاره هناك. وقال لفلورنس: "ولننتهى من هذا الأمر، لقد سافرت إلى هنالك بالدرجة الثالثة". (٢٦)

لقد كان السفر فى قطار الدرجة الثالثة وسيلة للتذمر ضد الحرب وإصراراً على رؤية أشكال الحياة البسيطة وحياة المستضعفين فى بلد، حسبما جاء فى خطابه

إلى سيجفرايد ساسون بعد أسبوعين من عودته من المنصورة، "يتسلل فيها الحرب والنزاع إلى أعماق الإنسان".^(٢٧)

لقد كانت جميع الرسائل التي كتبها "فورستر" عندما كان في الإسكندرية بمثابة مجموعة من الآراء المناهضة للحرب على أعلى المستويات داخل المجتمع البريطاني، ومن الذين عرفهم مثل بيرتراند راسل الذي نشر كتابه "مبادئ الرياضيات" في الأعوام ما بين ١٩١٠ و ١٩١٣ والذي جعله يكسب شهرة كبيرة باعتباره أعظم علماء المنطق بعد أرسطو ولكنه سجن في بداية سنة ١٩١٨ بسبب مقالته المناهضة للحرب والتي اعتبرت مقالة تحريضية، فأرسل فورستر له رسالة في السجن قائلاً: "أرسل لك خالص حبي"^(٢٨). ومنذ فصل الربيع كان فورستر يرسل صديقه ساسون - سليل أسرة لها باع طويل في مجال المصارف بلندن - الذي أثار عمله في الجبهة شعوراً كبيراً بكراهية الحرب وكان يقرأ في هذه الفترة "نهاية آل هوارد" (Howards End) وكان يأمل في مقابلة فورستر لأول مرة عندما كان على متن السفينة التي كانت تنقل وحدته من فلسطين إلى فرنسا والتي وصلت بعد ذلك إلى ميناء الإسكندرية في مايو، ولم يستطع ساسون الانتظار حتى يترك السفينة فكتب قصيدته "الموكب المتجه إلى مارسيليا" والتي أظهرت تأثير رد فورستر "تقديم الدعم إلى الرجال الآخرين" وكان فورستر يقصد بهذا طبقة الضباط - و"الذي سرعان ما يتلاشى"، وقال فورستر لقد كانت القوات بكامل بهائها وأناقتها. وكان رأى فورستر مناقضاً لرأى ساسون فقال: "ليس لأنهم يعانون ولكن لأنهم منهكون ولأن الشيطان الذي يحكم هذا الكوكب رأى أن الضعفاء هم المحكوم عليهم بالمعاناة".^(٢٩)

وعلى الرغم مما سبق ولمقاومة سيطرة الحرب والغريزة القوية التى توجه الإنسان إلى إشعال الحرب، قال فورستر "أشعر كثيرًا بالسعادة لأسباب شتى، إن الإسكندرية القديمة - على سبيل المثال - تثبت لى دائماً أنها صديقى الذى يُشعرنى بالمتعة، أقوم ببناء مدينة ضخمة هادئة للغاية فى خيالى من خلال قراءتى لكتب الآثار والكتب الأخرى لتكون مدينة إقليدس وأفلوطين وتيموثى القطة التى لم أرها بعد، جميعهم كانوا هنا فى الإسكندرية وإن كانوا فى فترات تاريخية متفاوتة. تم نبح "هيبتايا" هنا فى الإسكندرية وفيها أيضاً أحببت كليوباترا وماتت" (٢٠)، كلهم فى بقعة واحدة، ورغم أنهم عاشوا فى عصور شتى، ولهم آراء متفاوتة، وحياة كل منهم مختلفة عن الآخرين، فإنه سيستحضرهم جميعاً فى المدينة العالمية التى تتجسد فى خياله.

كان "فورستر" فى مثل هذا الوقت تقريباً يقوم بالإعداد لإلقاء محاضرة فى "الجمعية الصوفية" عن التصوف والفلسفة الدينية لدى الفلاسفة والمتصوفين فى الإسكندرية القديمة، ومنذ مرضه فى "لوفوقى" الحى اليونانى لأكثر من عام ونصف قبل أن يستأنف الانتظام فى حضور اجتماعات "الجمعية الصوفية"، وسينكرها فيما بعد فى كتابه "الدليل الإرشادي" عندما يقوم بوصف ما كان يبدو آنذاك الميناء الغارق لفترة ما قبل التاريخ لرأس التين (والذى كان فى وقت ما جزيرة "فاروس"، قائلاً: "المفكرون الدينيون بحماسهم الزائد عن المتوقع، قاموا بالربط بينها وبين الحضارة الغارقة" "أطلانتس" (٢١) وعلى الرغم من الشك الساخر الذى كان يتميز به "فورستر"، فإن المفكرين الدينيين كانوا يثيرون اهتمامه بالنسبة لمجالات عديدة، كانت كبيرة الكهنة بريطانية المولد من أتباع الاشتراكية وتدعى "أنى بيزانت"، والتى كانت تعيش لفترة من الوقت فى الهند حيث المركز الرئيسى للجمعية الصوفية، وقامت فى عام ١٩١٦ بتأسيس "الرابطة الهندية للحكم المحلى"،

ومنذ عام ١٩١٧ وحتى عام ١٩٢٣ كانت رئيسة حزب "الكونجرس الوطنى الهندي". وصفها وزير الخارجية البريطانى "أدوين مونتاج" فى مذكراته عندما التقى بها فى نيودلهى فى عام ١٩١٧ مع وصفه لشخصيات أخرى مثل "غاندى"، "جيناى" الذى سيقوم بتأسيس دولة "باكستان" فيما بعد "كواحدة من العظماء الحقيقيين فى عالم السياسة فى الهند".^(٣٢)، كان الأكثر أهمية بالنسبة لـ"فورستر" هو الدور الذى لعبته "الجمعية الصوفية" فى نشر أفكار عن الديانات الشرقية مثل "الهندوسية"، و"البوذية" فى الغرب، قام المفكرون الدينيون "المتصوفة" بالترويج لشكل من أشكال الإخاء العالمى وكانوا ينشرون ضمن تعاليمهم أن كل الأديان فى طبيعتها شكل واحد من أشكال الحقيقة المحجوبة التى يمكن أن يستوعبها الفرد عن طريق فهمه المباشر لكل ما هو إلهى.

لقيت المحاضرة التى ألقاها "فورستر" فى "الجمعية الصوفية" طريقها إلى كتابه عن الإسكندرية فى المقدمة التى يحاول أن يشرح فيها الوسيلة التى يمضى بها موكب تاريخ حياته لترتيب فعاليات الإسكندرية منذ إنشائها، وهذا التاريخ تم تقسيمه إلى فترات زمنية: اليونانية- المصرية، والمسيحية، والعربية، ثم الحديثة، ولكن بعد العصر المسيحى تعتبر فترة فاصلة، "المدينة الروحية" التى ترى الفلسفة السكندرية والديانة متصفتين بصفة الوثنية والمسيحية: ويبدو أنه من الأفضل أن نقوم بالفصل بين هذه المواضيع من جانب لأنها ستقوم بتسلسل الأحداث الرئيسية ومن جانب آخر لأن الكثير من القراء قد لا تستهويهم هذه الموضوعات".^(٣٣) ولكنها قامت بشد انتباه "فورستر" أكثر من أى شيء آخر عن الإسكندرية.

قام الحكام البطالمة بتجميل مدينتهم عن طريق الاهتمام بفن العمارة والعلوم والتعليم والشعر، ولكن إذا أصبحت الإسكندرية مجرد عاصمة إقليمية للإمبراطورية الرومانية فما الذى يتبقى من مجدها وعظمتها؟ كان رد "فورستر":

"هذه ليست مقاييس لحيوية المدينة، هنالك جوانب العظمة التي لا يستطيع الملوك منحها كما لا يمكنهم سلبها، وعندما تفقد استقلالها فإنها على الفور تخذ التعويض في استكشاف المملكة التي وقعت في نطاقها". (٣٤)

وعلى العكس من المدينة الحديثة فإن الإسكندرية في الفترة من القرن الأول إلى القرن الرابع قبل الميلاد لم تكن مدينة عالمية للبشر فقط بل للأفكار أيضاً، ومع ذلك كانت العاصمة الفكرية لعالم اليونان - والإغريق كما أصبحت ينبوعاً للفكر في الغرب لفترة مقبلة بلغت ألقى عام، هذه مدينة موعلة في القدم، عاش وتعلم فيها اليهود والمسيحيون، فضلاً عن أولئك الذين لا يدينون بديانة معينة جنباً إلى جنب. هنا ازدهرت الأفلاطونية وارتفعت إلى مراتب الصوفية، وهنا اندمجت مع التعاليم اليهودية، وهنا اكتسبت التصوير في كلهما المسيحية واليهودية أسسها الفلسفية والعقائدية.

كما كانت اهتمامات "فورستر" المبكرة بالمدينة والتي من خلالها تمكن من تمهيد الطريق في أن يتتبع بطريقة نقدية تشكيل قيم الحضارة الحديثة. قال "فورستر" على لسان "مارجريت" في كتابه "تهاية آل هوارد": "إننا نهتم بالمال كما نهتم بالجُزر، إننا ننسى أنه من المؤكد أن يكون تحت أقدامنا وجود كل شيء... ففي الليلة الماضية عندما كنا نتجانب أطراف الحديث هنا حول المدفأة، بدأت أفكر في ماهية كل كائن حي في هذا الكون هو عبارة عن مادة، وأن أعماق الجحيم ليس في غياب الحب، ولكن في غياب العملة.... معظم الناس الآخرين هم الذين بالأسفل تحت سطح البحر (أو الفقراء)، ما يمكن اعتباره مزحة هنا هو أمر واقع بالأسفل هنالك". (٣٥)

كان "فورستر" راغبًا في الاحتفاظ بعالم "تهاية آل هوارد"، على الرغم من أنه لم يكن لاهيًا عن الميزة التي تدعم قيمها، تلك القيم القائمة على الحب والحياة الروحية، ولكن كما كانت تعلم "مارجريت": "بالمنطق لم يكن لهم الحق في البقاء على قيد الحياة، ولكن أملهم كان في ضعف المنطق" ^(٣٦) - والذي كان يعنى به "فورستر" قوة الحب، وهذا هو ما كان يعتقد أنه جوهر الفكر في الحياة الروحية للمدينة القديمة، "كان ملتصقًا بفكرة الحب، وكثير من السخافات الفلسفية، والموضوعات الدينية الخالية من التشويق، والتي تحملنا على التماس العذر للذين يعتقدون أن أفضل شيء في الدنيا من المحتمل أن يكون هو أفضل شيء في السماء." ^(٣٧)

كان من ضمن الفلاسفة الذين تحدث عنهم "فورستر" عندما تطرق إلى مختلف الأديان والأعراق والقوميات التي تجمعت في "ليفوو" "أفلوطين"، الذي جذبته رؤيته للأمور بشدة، ولم تختلف تلك الرؤية كثيرًا عن رؤية الفلاسفة المتصوفين أنفسهم. وكما ذكر "فورستر" مرارًا بعدها في كتابه "الإسكندرية" فإن "أفلوطين" من المحتمل أنه قد ولد في صعيد مصر، ولكن لا يمكن لأحد أن يجزم بذلك، لأنه كان متحفظًا في الحديث عن هذا الأمر قائلًا: إن حلول روحى فى جسدى كان فاجعة كبيرة، الفاجعة التى كان لا يرغب فى التحدث عنها" ^(٣٨) وأما كانت أصوله فإن ثقافته يونانية على وجه التأكيد، وإنه وفد إلى الإسكندرية فى بواكير حياته فى القرن الثالث بعد الميلاد لدراسة الأفلاطونية الجديدة على يد "أمونيوس ساكاس"، وهو عامل شحن وتفرغ سفن على الميناء وكان قد هجر الديانة المسيحية، وكان تلاميذه يضمنون من ضمن ما يضمنون الفيلسوف الوثني "لونجينوس"، وفيلسوف اللاهوت المسيحي "أوريجين".

كان "أفلوطين" يعتقد في وجود الله وكان يطلق على كينونته العليا "الواحد"، "الواحد" وحدة واحدة، وليس هناك أكثر من ذلك مما يمكن قوله في هذا الصدد، ولكن هذا الواحد يتجلى فيضه كما يتجلى الضوء من الشمس، أو كما يفيض النبع، ويفيض هذا الضوء على مراحل حتى يتغلغل في أبسط الأشياء في الحياة التي نعيشها، ولكن هذا "الواحد" لا ينقص منه شيء نتيجة لما ينبعث منه، ولكنه يحتوى الكل، وهو هائل في تجليه وفي تطهيره، وكل شيء في داخلنا يشاق إلى أن يعود مرة أخرى إلى هذا "الواحد" العظيم.

هذا الهبوط من روحه إلى جسد مادي، وهذا الانفصال عن الله، وهذا الحرمان من الاتحاد في "الواحد" ما كان يجعل أفلاطون محزوناً من أنه قد وُلِدَ، ولكن رغم أن هذا الحزن، ورغم أن هذا الأسى يسكن هذا العالم المحسوس، لكننا نجد فيه الجمال الذي ينادى أرواحنا إلى الجمال الكامن في العوالم العليا، ويستخدم "أفلوطين" هنا لغة الحب الحسية، فإن الحبيب تغمره الدهشة الهائلة والإثارة من رؤية وجه جميل، أو جسد جميل، لأنه في عقله الباطن لديه مخزون من جمال أعظم، والمحب ينهل من جمال المحبوبة بأحاسيسه، ولكنه يعشق حقيقة عندما ينجح في أن يطبع جمال المحبوبة في روحها، أين يقع الطريق؟ كيف يمكن رؤية الجمال الذي لا يمكن الوصول إليه؟ يتساءل بذلك "أفلوطين" بينما يقوم بتدريس كيفية الوصول إلى الرؤية:

"دعنا نفر إلى أرض الأجداد المحبوبة، فهذا هو الرأي الأصوب، ولكن ما الوسيلة للوصول إلى عرض البحر؟ أرض الأجداد هنالك حيث جننا منها لأول مرة، وهنالك حيث يوجد الأب، وماذا يكون مألنا حينئذ؟، وما وسيلة الفرار؟، هذه ليست رحلة تقوم بها سفينة، السفينة تتقلنا من أرض إلى أرض أخرى فقط، كل هذه الأشياء يجب أن نتجنبها جانباً ويجب أن ترفض مجرد رؤيتها، ويجب أن تغلق

عينيك، وتستدعى بصيرة أخرى توقفها من أعماقك، بصيرة شاملة مكتسبة بالولادة، ولكن القليلين منا يمكنهم استخدامها.

تراجع وانظر إلى داخلك... ستجد بصيرتك الشاملة، قم باستدعاء ثقتك الكاملة، تقدم للأمام، لن تحتاج إلى مرشد بعد الآن، ابذل ما في وسعك واشد بصيرتك. (٣٩)

ربما تحدث "أفلوطين" مع بعض التجار الهنود على أرصفة ميناء الإسكندرية، كما يعتقد "فورستر" والذي يرى أن هناك أفكارًا متوازية بين أقواله والكتابات الدينية في الهند، فمن وجهة نظر "أفلوطين" يمكن عبور الفجوة بين الإنسان والإله عن طريق النظر إلى داخل أنفسنا، لأن كل واحد منا هو صورة مصغرة من العالم، كل منا إله. كتب "فورستر" عن "أفلوطين" بتعاطف واضح مع أفكاره، ونقل عنه العبارات السابقة، والأكثر من ذلك، ربما كان معجبًا بالعبارة "لن تحتاج إلى مرشد بعد الآن" وقد نقلها عنه في عنوان الصفحة الأولى لكتابه الإسكندرية: "لأى بصيرة يمكن استقدامها لتوائم البصر إلى ما يمكن رؤيته".

عندما كتب "فورستر" في كتابه عن الإسكندرية أنها تقع على حافة الحضارة، والصحراء تمتد بعيدًا خلفها، فإنه أضاف قائلًا: "حقيقة وجود هذه الصحراء لا يتذكرها معظم قاطنى هذه المدينة، ولكنها لعبت دورًا عظيمًا فى تاريخها خاصة فى العصر المسيحى، ولا يمكن لأى واحد دارس لتاريخ المدينة أن ينكر دورها". (٤٠) جاءت اللحظة التى لم يعد بمقدور "فورستر" أن يتجاهل عندها الصحراء أكثر من ذلك فى يونيو ١٩١٨ عندما خرج لرحلة طويلة بالقطار والجمل إلى "وادی النطرون".

الأديرة المسيحية الأولى فى العالم تم إنشاؤها هنا فى العقود الأولى من القرن الرابع، وحتى اليوم فإن الأربعة التى لا تزال باقية ومسكونة باستمرار حتى الآن يبدو عليها أنها تنتمى إلى عالم آخر، الجدران العالية للدير والتى تم تعليقها فى القرن التاسع لحمايتها من غارات البدو، تعطى انطباعاً بأنها سفينة نوح تحمل المؤمنين فى بحر الصحراء، ولكن المنشآت الأصلية فى وقت من الأوقات نصفها كانت منشآت أكثر تواضعاً، يصفها سائح من القرن الرابع بقوله: "كان الطريق للوصول إليها غير معروف وبدون علامات مميزة، ولكن يجب أن تصل إليها عن طريق علامات وإشارات النجوم، الماء شحيح ونادر الوجود...ولذا فإنه هنا فقط يمكن أن يُعد الإنسان لحياة القداسة (لأنها بقعة مرعبة لا يمكن أن يتحملها أحد إلا هؤلاء الذين يملكون عزيمة صلبة وإرادة هائلة)، ولكن اهتمامهم الأول هو الحب الذى يبدونه لبعضهم البعض وتجاه أى شخص يمكن أن يصل إلى تلك البقعة بالمصادفة".^(٤١)

هذه الأديرة مذهلة، لموقعها وحتى لديكوراتها التى وإن كانت فقيرة إلا أنها جميلة، وفوق كل ذلك لتاريخها، كتب "يوسيبوس" وهو شاهد عيان للمدى الرهيب الذى وصل إليه الإمبراطور "دقلديانوس" فى عام ٣٠٣ "تعذيب المسيحيين فى أيام الإمبراطورية الرومانية وصل إلى حدود مرعبة كما حدث فى مصر فى القرن الثالث وأوائل القرن الرابع، لم يلتفتوا إلى التعذيب بأشكاله المرعبة، ولكنهم كانوا يتكلمون عن تقانيهم لله رب الكون بجرأة كما لم تكن عزائمهم وكانوا يضجون بالسعادة ويطلقون ضحكات عالية وهم فى حبور وهم يستمعون إلى الحكم النهائى عليهم بالموت".^(٤٢)

بحث القليل منهم عن المأوى فى الصحراء، ولكن فقط بعد أن أصدر "قسطنطين" إعلانه العفو عن المؤمنين فى عام ٣١٣ وعندما أصبح الهرب لا مبرر

له، وبدأ "الهروب الكبير"، كان الاستشهاد يُعطى طريقاً مباشراً إلى الجنة، ولكن أصبح هذا الطريق يمكن الوصول إليه أيضاً عبر الصحراء. كان رد الفعل المصرى ذلك غريباً، حيث إن غالبية النساك والرهبان كانوا من الوطنيين تقريباً كأفراد (وهذا يؤرخ لبداية الكنيسة القبطية المصرية). هجر المصريون مدنهم ومزارعهم فى واحدة من أعمال القوضى المدهشة إلى البرارى القاحلة بهدف ترك كل الممتلكات والامتيازات الدنيوية تحذوهم الرغبة إذا أمكنهم ذلك حتى فى هجر أحاسيسهم بأنفسهم من أجل التقرب إلى الله.

كان "فورستر" يفضل أن يحتفظ الرهبان بيقينهم لأنفسهم، ويحتفظوا بأنفسهم للصحراء، وبالأخص بمفهومهم للحب الذى تم تأسيسه على اعتراضهم على هذه الدنيا. كان "أفلوطين" يعتقد أن هذا العالم منبعه هو الله، وأن الحب يمدنا بالوسائل التى تجعلنا نعود إلى الله، وهذا هو الدرس الذى كانت "هيباتيا" المعلمة الأخيرة للأفلاطونية الجديدة تلقيه فى مكتبة الإسكندرية القديمة. ولهذا السبب، وبقدر ما كانت الإسكندرية أجنبية، فإن رهبان وادى النطرون كانوا يكرهون المدينة واتخذوا منها عدواً لهم.

عندما أصبحت المسيحية إجبارية فى أواخر القرن الرابع وطوال سيادة الإمبراطورية الرومانية، اندفع الرهبان إلى مدينة الإسكندرية، وقاموا بتدمير "السرابيوم" معقل الوثنية والمكتبة العظيمة أو المكتبة (الأم) مع المكتبة (الابنة) والملاصقة للميناء الشرقى، وقاموا بإنشاء دير فى موقعها. كتب "فورستر" يقول "لم تكن الوطنية بمعناها الحديث موجودة آنذاك، فلقد كان عصر الدين لا عصر الوطنية، ولكن المشاعر العنصرية كانت تتدثر تحت عباءة الدين". وفى غزوة أخرى وقعت عام ٤١٥، وبينما هم يعتر بهم القلق بشأن تنويع إيمانهم قبل العودة إلى أديرتهم قاموا بقتل "هيباتيا" فى مدينة القيصرية، وبمقتلها اندثرت الروح

الإغريقية، تلك الروح التي كانت تتأصل من أجل اكتشاف الحقيقة والجمال، والتي قامت بخلق مدينة الإسكندرية".^(٤٣) يمكن اعتبار هذا الأمر هو الجرح المميت بالنسبة لـ "فورستر"، لم يكن هنالك التوتر السائد الذي خلقته المسيحية قبل النصف الأخير من القرن الثالث، لم تكن هناك الأرثوذكسية المتعجرفة التي يمكن أن تنتهم الآخرين بالهرطقة، فلقد درس "أفلاطون" جنباً إلى جنب مع "أوريجون" وهو من الآباء الأوائل للكنيسة المصرية وكلاهما كان تلميذاً للفيلسوف "أمونيوس ساكاس"، الذي تحول من المسيحية إلى الوثنية، ولذا فإن أغلبية المسيحيين كانوا يؤمنون بكثير من المعتقدات المخالفة لأصول الديانة، ويقر "فورستر" بأن تأكيدات الأرثوذكسية المبكرة أن المسيح هو الرابط بين الله والإنسان هي فكرة بشرية، أعمال الباحثين الإغريق هي التي رفعت الديانة البسيطة لفلسطين وجعلتها عالمية ونقلت إليها التعاليم التي يقوم بتدريسها الوثنيون"^(٤٤)، ولكنه في أحد الملاحق ساق مقتطفات عديدة من أناجيل غير معتمدة موافقاً عليها، مثل ذلك الموقف الذي سألت فيه امرأة المسيح قائلة: متى يأتي يوم الدينونة فقال لها: "عندما تطرحين ثوب الحياء جانباً، وعندما يصير الاثنان واحداً، والرجل مع المرأة، ولا يكون هنالك رجل أو امرأة".^(٤٥)

ولكن مع القوة المتنامية للأرثوذكسية كتب "فورستر" في القسم الذي خصصه لحياة المدينة الروحية: "يجب أن نتنبه للمسيحية الآن وهي تتحول وتصبح أكثر قسوة".^(٤٦)، وبمجرد أن تم الاعتراف بالمسيحية بواسطة الدولة في أوائل القرن الرابع وأصبحت الديانة الرسمية للدولة مع نهاية القرن وأصبحت السيادة ليست فقط للمسيحية على الوثنية ولكن لمجموعة من المسيحيين على مجموعة أخرى، إذ كان لها طموح واضح واستطاعت أن تستقطب خدمات جهابذة السياسيين. قال "فورستر" "كان هنالك على سبيل المثال "أثناسيوس": وهو يعتمد

على إثارة رجل الشارع العادي" (٤٧) وكان يعتمد على مقدراته الفكرية، انتقاداته اللاذعة، العنف البدني، التصميم الذي لا يلين، أدار حججه تجاه "أريوس" حول "طبيعة المسيح" المتضمنة في "العقيدة النيسية" (٤٨)، وهي واحدة من الوثائق المهمة في تاريخ الكنيسة إلى اليوم.

لثلاثة قرون أو أكثر كانت طبيعة المسيح ميدانا للمعارك سواء في داخل الإسكندرية أو بين الإسكندرية والقسطنطينية ونتج عن هذه المعارك تولد الكراهية بين المسيحيين من جهة وبين المصريين والإغريق من جهة أخرى.

وكان قدوم العرب للمدينة في عام ٦٤٢ فيه الراحة من كل هذا العناء، ليس من السهل معرفة لماذا سقطت الإسكندرية، حيث لم تكن هناك أسباب مادية لذلك، ولكن هنالك ما يدفع للاعتقاد بأنها سقطت لأنها كانت بلا روح (٤٩)، ففي خضم المعارك المحتدمة بين المسيحيين حول الحقائق المتعارضة قدم لهم العرب حقيقة واحدة وبسيطة في جوهرها "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، وكما ارتحل الله عن "أنتوني" في قصيدة "كفافيس"، فإن الحب كان قد رحل عن الإسكندرية، ودخلها الإسلام بقوة من خلال نكوصهم عن الحب" (٥٠) ودخل المدينة بدون اعتراضات تذكر، لم يتم تدمير الكثير حتى الآن، يستمر "كفافيس" في وصفه: "وعندما دخل فرسان عمرو بن العاص إلى مدينة الشمس، كانت صفوف الأعمدة الرخامية لا تزال قائمة على طول طريق "كاتوبس" عبر الميناء، وكانت "منارة الإسكندرية" لا تزال أعجوبة قائمة آنذاك. كتب عمرو بن العاص إلى الخليفة يقول: "لقد استوليت على مدينة فيها ٤٠٠٠ قصر، و٤٠٠٠ حمام، و٤٠٠ مسرح، و١٢٠٠ محل بدالة، و٤٠٠٠ من اليهود". (٥١) لا توجد دراسات بصدد هذه اللامبالاة (٥٢)، حيث إن العرب لم يكن في مقدورهم معرفة قيمة الكنز الذي حصلوا عليه، فقط يعرفون أن الله قد وهبهم مدينة كبيرة وقوية، لم يدر في خلدكم أنه لا توجد مدينة على الأرض

تعالدها، وأن علوم الإغريق هي التي قامت بتخطيطها، وأنها مهد الفكر المسيحي. ربما دارت في أذهانهم أساطير باهتة عن الإسكندر، وأكثر قتامة عن كيلوباترا، ولكنهم لم يكونوا يملكون الحس التاريخي، لم يدركوا ما دار في هذه البقعة من العالم، وعلى الرغم من أنه لم تكن لديهم أي نوايا لتدمير المدينة، كما يبقى عليها طفل كنوع من التسلية لرؤيتها، فإنهم لم يقوموا بتطويرها فوق ما يقرب من ١٠٠٠ عام". (٥٣)

لم يأت محمد إلى الإسكندرية في أغسطس، وبدلاً من ذلك أرسل خطاباً إلى "فورستر" يخبره فيه أنه مريض، كان يبصق دماً ويفقد وزنه وكان على ثقة تامة بأنه مريض بالسل، وكتب يقول في يأس "لا يصيبني الاضطراب كثيراً لمرضى، فأنا أعتقد أن الموت هو الطريق الوحيد للراحة من هذا العالم المضطرب". ورث محمد بعض الأموال بالإضافة إلى المنزل، وبمجرد أن غادر "فورستر" المنصورة قرر محمد أن يقتحم مجال أعمال القطن ليتحين الظروف التي نتجت عن الحرب وتضاعف أسعار القطن وذلك بأن يقوم بالشراء من القرى النائية وبيعها للمتعهدين، ولكن القلق من الظروف المادية والإرهاق الناتج عن طول ساعات العمل ساعدتا في إحباط شهيته للطعام وبالتالي في ظروفه الصحية، قام "فورستر" بإرسال بعض النقود إليه ليتمكن من شراء المزيد من اللحوم واللبن لطعامه حتى يتمكن من استرداد عافيته، كما قام بالنيابة عنه ببعض المهام في الإسكندرية وكان يتابع تقلبات معنوياته بين اليأس والرجاء في الأمل، ورغم أن خطط زواجه من أرملة أخيه قد باءت بالفشل فإنه قرر أن يتطلع على حد قوله: "في أن أعيش كرجل سعيد في منزل الأسرة" (٥٤).

أثبتت الرحلة الأخيرة التي قام بها "فورستر" في نهاية الأسبوع من شهر يوليو إلى المنصورة كنقطة تحول في نهاية الحرب. فقد تم دحر الهجوم الألماني

فى موقعة "مارين" الثانية، وببداية شهر أكتوبر قام البريطانىون والفرنسيون والذين انضم إليهم الأمريكيون فى إبريل عام ١٩١٧ بدفع الألمان إلى التراجع بعزيمة لا تلين، كما كان الأمر مشابهًا تمامًا بالنسبة للأتراك، ففى بداية شهر أكتوبر تم الاستيلاء على دمشق، وبعدها بشهر واحد تمامًا فى ١١ نوفمبر كانت الحرب العالمية قد وضعت أوزارها. حتى الأنباء التى وردت من المنصورة كانت طيبة، كتب محمد إلى "فورستر" فى ٢ أكتوبر يقول: "كان يوم أمس هو اليوم الأول لى فى الزواج، كان يومًا سعيدًا، لقد كنت أشعر أن اليوم كان ساعتين فقط، فلحظات السعادة تمر بسرعة". (٥٥)

كما وجد "فورستر" ناشرًا لكتابه الذى ينتوى نشره كتاريخ ودليل إرشادى، كانت دار النشر هى "وايتهد موريس المحدودة" والتى تقع فى ١٥ شارع شريف باشا، والتى لم تكن من ضمن أنشطتها نشر الكتب على الإطلاق، فقد كانوا يعلنون عن أنفسهم كمطبعة للكتب وبيع الأدوات المكتبية، وصناع للأكليشيات وسجلات الحسابات، وكانت صناعة سجلات الحسابات صناعة ضخمة فى الإسكندرية، وكان هذا الناشر يعتبر فرعًا لمؤسسة فى لندن، وكان المدير الإقليمى لهم هو "مستر مان"، وهو رجل يشبه لون بشرته لون التبن ومتقلب وعصبى إلى حد بعيد، كما كانت أفكاره ضحلة عما يجب أن يفعله فى عمله، وليست لديه أى فكرة عن فصل الألوان أو الطباعات التجريبية". (٥٦) قام "مستر مان" بإبرام عقد اتفاق وكما أسماه "فورستر" فيما بعد "مستندًا غريبًا" (٥٧)، ولم يكن ما سيحصل عليه مقدمًا معقولاً، ولكن كان كل ما يهمه فى ذلك الوقت هو أن يكتب كتابًا ويراه مطبوعًا، حيث لم يحدث ذلك منذ نشر كتابه "تهاية آل هوارد" فى نهاية عام ١٩١٠.

أوشكت الحرب على أن تضع أوزارها فى خلال هذا الشهر، وبدأت أعداد الجرحى تتناقص فى المستشفيات، وبدأ "فورستر" فى إعداد كتابه عن الإسكندرية

فى المساء بعد العودة من العمل. كتب لعمته يقول: "ليس هناك الكثير مما يمكن رؤيته هنا، ولكن هنالك الكثير مما يمكن التفكير فيه"،^(٥٨) فى غضون الأشهر الحالية بدت أعماله الصحفية كما لو كانت إعداداً لما هو آت، فلقد كتب سلسلة من المقالات الساخرة عن شخصية المدينة القديمة:

كانت هنالك رحلة الإسكندر إلى واحة "سيوه"، حيث تم تفسير تحية أحد الكهنة فى معبد "أمون" بالخطأ سواء بالسماع أو فى النطق وتم اعتبار الغازى الشاب من "الآلهة"، مما تم اعتباره سلوكاً غير قويم فى قصور البطالمة وأسهم فى أقول عصرهم، كانت رحلة الفيلسوف "فيلو" المضطربة إلى روما لشرح أسباب عدم قدرة أتباعه اليهود عبادة "كاليجولا" كإله ليجد أن الرجل الذى تم تنصيبه كإمبراطور وإله للإمبراطورية الرومانية كان رجلاً تام الجنون، وأن "أثناسيوس" قد تم رفعه من مجرد "ولد شقى ومؤذ" إلى أن يصبح مطرقة فى يد المسيحيين الأرثوذكس، كل مقالة كانت بطريقة أو أخرى تدور حول ادعاءات السلطة، والحقيقة والدين، ولكن تم إعدادها لتصبح مناسبة لعمود عن الشائعات فى جريدة "الميل"، كما قام بمراجعة كتاب "أولاد الفراعنة المحدثين" وهى دراسة للمؤلف "س.ه.ليدر" عن الأقباط، كما قرأ للمؤلفين "بلوتارخ"، و"درايدن"، و"وليم شكسبير" فى "أنطونيو وكليوباترا"، وكان يكتب على حد قوله "توغاً ممتازاً من الكتب الإرشادية متضمناً جزءاً لا بأس به من التاريخ.... كان الغرض من هذه السلسلة هى أن تحكى عن التاريخ".^(٥٩)

أصبح محتملاً على "فورستر" ومع اقتراب الحرب من نهايتها بأن يُخبر "محمد" بأنه سيغادر الإسكندرية فى القريب العاجل، وأدى به هذا إلى الوقوع فى نوبة جديدة من الإحساس بالكآبة وأجابه محمد قائلاً: "أشعر بالضعف الشديد.. أعتقد أننى أميل إلى الهزال أكثر وأكثر، أنا لا أنطلع إلى الأمام سواء لمستقبلى أو لحياتى العملية، صديقك التعس - محمد العدل"^(٦٠).

فى حوالى منتصف شهر نوفمبر، وبعد الهدنة مباشرة، ذهب "فورستر" إلى المنصورة لمدة أسبوع حيث وجد الأمور أفضل مما كان يتوقع، وعلى الرغم من أن محمدًا كان يساوره القلق بشأن النقود وبشأن وضعه الصحى، فإنه كان يزداد فى الوزن ويتمتع بزواجه، وعلى حد قوله: "إنه لم يكن يعيش فى الدنيا من قبل"^(١١)، النقط "فورستر" بعض ملامح عروس محمد "جميلة" وقال لفلورنس يصفها: "هى صغيرة السن ويتميز بالبساطة وأخاذه، كنت أحب أن أسمع ضحكاتها معًا، إنها تشبه حيوانًا ريفيًا أليفًا صغيرًا وجميلًا، وسيحيطها بالحب والحنان"، شعر بالامتنان للطريقة التى استقبله بها، فلم يكن من المعتاد فى تقاليدهم أن يُستقبل أوروبى فى منزل رجل متزوج، ولكن وحتى الآن لم يكن "فورستر" يعرف كيف يذهب محمد إلى مدى أوسع من التلطف معه مستجيبًا على مضض لرغباته الجسدية، كما يحاول أن يبدو مبتهجًا فى حضوره على الرغم من مرضه ومتاعبه المادية. ولكن بالمصادفة انزلق لسانه بملاحظة تحمل المرارة عندما سأله "فورستر" أن يبحث له عن بعض المزامير الريفية (ناي) كهدايا يصطحبها معه عند العودة لإنجلترا، فقال محمد: لماذا لا تأخذ معك هدايا أغلى ثمنًا، وأشار إلى نفسه وإلى زوجته وهو يستكمل قوله: لماذا لا تأخذ معك زوجين مصريين؟

ورتب "فورستر" ومحمد للتقابل مرة أخرى فى شهر يناير، لقد رتب لمقابلته بين الحين والآخر حيث إن الغياب يمكن أن يخلق أوهامًا، قبل أن يغادر المنصورة نجح "فورستر" فى أن يجعل محمدًا، وبعد كثير من الإلحاح أن يقبل أن يقرضه سبعين جنيهًا من أجل أن يُستبر بها أعماله، كما أخبر "فلورنس" أنه سيجعلها هدية لمحمد عندما يرحل، حيث إن هذا المبلغ يساوى تمامًا المبلغ الذى سيتسلمه من دار نشر "وايتهيد موريس" وبصريح العبارة فإن "فورستر" كان قد كتب "الإسكندرية" خصيصًا من أجل محمد.

وصل "فورستر" إلى الإسكندرية وعمره ٣٦ عامًا، رجلاً بلا خبرة عن الجنس أو الحب، طفل كان أسير والدته بالمنزل، وكان ذلك هو السبب بنفس القوة بالنسبة للحرب والذي جعله يغادر إنجلترا، والآن في ١ يناير ١٩١٩ أصبح "فورستر" في الأربعين من عمره، وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يهرب كلية من اعتماده على أمه فإنه من ناحية أخرى استطاع أن يفرغ شحناته العاطفية في الإسكندرية وفي أن يجعلها وطنًا له.

ذهب لرؤية محمد في وقت ما من منتصف شهر يناير ووجده قد زاد وزناً، لم ييصق دماً منذ أشهر، كما لم يعد يعاني من مشاعر الإرهاق الكئيبة، على الرغم من أنه وعلى حد قوله "على حافة ما يمكن اعتباره الراحة من كل هذا العناء"، كتب "فورستر" إلى "فلورنس" يقول: "أتوقع أن أبحر وأنا أتمزق من مشاعر القلق، وأتركه واقفاً على قدميه، ولا أنكر على نفسي الشعور بالرضا من التفكير في أنني عاونته في الوقوف على قدميه. خرج هو ومحمد في صباح اليوم الأخير لهما معاً في نزهة طويلة سيراً على الأقدام عبر الحقول، تماماً مثلما عبر الدلتا من بورسعيد إلى الإسكندرية منذ ثلاث سنوات مضت، المناظر الطبيعية كانت تبدو شبيهة بمثلتها في "كامبريدج" بطريقة مذهلة، مسطحات ممتدة من الترع، وفي الأفق البعيد مزارع وأشجار يغلفها الضباب، ولكن هذه المرة، وبدلاً من أن يرفض مصر لأنها ليست الهند فإنه كان يرنو إليها بعين الحب^(١٢).

عاد "فورستر" إلى الإسكندرية بحلول اليوم السادس عشر من الشهر، وفي نفس اليوم ذهب في جولة حول شارع شريف باشا، وقام بتوقيع عقد النشر مع دار نشر "وايتهيد موريس". وفي يوم ٢١ يناير قام بتوديع "كفافيس"، و"فالسبوليس"، و"لودولف"، و"آل أناستاسيديس"، و"أنطونيوس"، و"تيرني"، "عايدة بورجريفنك"،

"إيرين" وكل الأشخاص الآخرين الذين ملأوا حياته، وأبحر إلى "مرسيليا" وفي اليوم الأخير من الشهر كان قد عاد أدرجه إلى إنجلترا^(١٣).

وبعد ذلك بخمسة أسابيع، وفي يوم ٨ مارس ١٩١٩ بالتحديد شبت ثورة في مصر. كانت دول الحلفاء تبذل الوعود طوال عام ١٩١٨ لشعوب أوروبا والإمبراطورية العثمانية، أعلن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية "وودرو ويلسون" في الأول من يناير من ذلك العام بيانه ذا النقاط الأربعة عشر والتي تجسد مبادئ "تقرير المصير العالمي"، ثم قامت الحكومة البريطانية بالتأكيد لمجموعة من الوطنيين السوريين الذين التقت بهم في القاهرة أن الاستقلال المطلق لكل المناطق التي تحررت من الاحتلال العثماني بواسطة القوات العربية سيتم الاعتراف به، وأخيراً وفي شهر نوفمبر أكد إعلان بريطاني-فرنسي مشترك أنه سيتم تشجيع تكوين حكومات وطنية من شعوب دول سوريا وبلاد ما بين النهرين. كانت "سوريا" آنذاك تعنى على وجه العموم المنطقة المسماة تاريخياً باسم "سوريا الكبرى"، والتي كانت تضم ما يسمى "سوريا" اليوم بالإضافة إلى الأردن، لبنان، وفلسطين، كل هذه الدول بالإضافة إلى العراق وشبه الجزيرة العربية كلها تلقت تأكيدات بأنها ستحكم نفسها بنفسها، لم يتم ذكر اسم مصر، ولكن المصريين كانوا يفترضون أن طموحاتهم الوطنية والتي تعود إلى ثورة "أحمد عرابي" في عام ١٨٨٢ سيتم الوفاء بها. كانوا يشعرون أن توقعاتهم ستتحقق نظراً لإسهاماتهم التي بذلوها في الحرب والتي لا تقل عن تلك التي بذلتها سوريا الكبرى أو عرب الحجاز، ولأن البنية الأساسية والسياسية لمؤسساتهم تعتبر أكثر تقدماً بكثير عن نظيرتها في أي مكان بالشرق الأوسط.

بعد يومين من الهدنة وانتهاء الأعمال العسكرية في ١٣ نوفمبر ١٩١٨، وبوفد منتخب من أعضاء المجلس التشريعي والتي تم تعليق أعمالها عشية اندلاع

الحرب وبزئاسة "سعد زغلول" قامت بدعوة المندوب السامي البريطاني في القاهرة "سير ريجنالد وينجيت" وقدمت له المطالب الوطنية في الاستقلال، كان كل أعضاء الوفد من الرجال المعتدلين الذين يتفهمون المصالح والاهتمامات البريطانية، كان برنامجهم وكما ذكر "وينجيت" يتمثل في الاستقلال الكامل لمصر، مع الاحتفاظ لبريطانيا بالحق في متابعة ديون القطر ومنحها تسهيلات معينة في "قناة السويس"، كما تعهدوا بعقد معاهدة صداقة دائمة مع بريطانيا التي اعتبروها الحليف المقرب لمصر، كما كانوا يتطلعون إلى إنهاء مبكر للأحكام العرفية والرقابة على الصحف، استمع "وينجيت" إلى الوفد وأبدى تعاطفه مع مطالبهم وقام برفع الأمر برمته إلى "لندن".

قدر "وينجيت" وكان على حق في تقديره- أنه على الرغم من أن الوفد كان يمثل الرأي الوطنى العام، فإنه لم يكن يمثل الحكومة المصرية، وعلى الرغم من ذلك فإنه كان يتفق فى المفهوم مع "سعد زغلول"، كانت الحكومة فى وضع دقيق حيث كان عليها أن تتعامل مع ثلاثة مسارات مختلفة، أن تتسم بالمرونة فى تعاملها مع بريطانيا، وأن تستجيب للسلطان "فؤاد"، وأن تستحوذ على احترام رجل الشارع العادى من المصريين.^(١٤) على الرغم من التمييز بين المصريين الوطنيين وأولئك الذين ينحدرون من أصول تركية-جركسية طوال عقود من الزمان فإن الأمر ازداد سوءاً منذ عصر محمد على من خلال الزواج المتداخل، والتعليم، وتقديم المصريين إلى الوظائف العليا فى الجيش والحكومة، فلقد كان رئيس الوزراء وأعضاء حكومته كالسلالة الحاكمة التى كانوا فى خدمتها من الأتراك- الجراكسة (إلا الأقباط الذين كان الأمر بالنسبة لهم إجبارياً) تلقوا تعليماً أجنبياً وملاحظهم عالمية، وذلك على العكس من "سعد زغلول" الذى كان يشبه "أحمد عرابي" وكلاهما يحملان ملامح فلاح مصرى مألوف، رغم أنه يمكنك أن تخمن من خلال

ملاحح "زغلول" المنغولية أنه يحمل فى تركيبته " شيئاً أجنبياً متراكماً منذ آلاف السنين عندما كان يتم حكم مصر من خلال أفراد من الأكراد أو التركمان أو ممن يحملون جنوراً من آسيا الوسطى.

ولد "سعد زغلول" فى عام ١٨٦٠، كان ذكاؤه ودأبه سبباً فى أن يترك مدرسته فى القرية إلى جامعة الأزهر الإسلامية فى القاهرة، حيث نال إجازة القانون وأخذ فى الترقى حتى أصبح قاضياً لمحكمة الاستئناف الوطنية، وحيث إن القانون المصرى كان مستمداً من القانون المدنى الفرنسى فإنه شرع فى تعلم اللغة الفرنسية، وهناك شائعة مفادها أن علاقة غرامية ربطت بينه وبين الأميرة تازلى فاسيلي" وهى ابنة شقيقة الخديو إسماعيل قد مهدت له السبيل فى حياته المهنية، ثم كان زواج "سعد زغلول" من كريمة رئيس الوزراء، حينئذ لفت انتباه اللورد كرومر القنصل البريطانى والحاكم العام إليه بشدة، وقام بتعيينه وزيراً للتعليم فى عام ١٩٠٧، وذكر فى حيثيات تعيينه "تظراً لقدراته واستقامته وشجاعته، وإذا لم أكن مخطئاً فإن "سعد باشا" سيكون له مستقبل مشرق".^(١٥)

ولكن ما جعل "سعد زغلول" محبوباً من الشعب هى صورته كابن النيل البسيط، وكانوا يلقبونه ببساطة "بالمصري"، لم تكن الحكومة تتصرف بدون علمه، كما أن "سعد زغلول" قد طلب "وينجيت" بناء على العلم المسبق للسلطان وكذلك مجلس الوزراء، تم التطرق إلى موضوع الاستقلال بنفس الطريقة لبريطانيا عن طريق "رشدى باشا" رئيس الوزراء الذى اقترح على "وينجيت" أن يذهب هو وأحد وزرائه وهو "على باشا" إلى "لندن" لتوضيح قضيتهم على أعلى مستوى، ولكنه أصر على أنه لن يحمل رأى الوطنى إلا إذا اصطحبه "سعد زغلول" ورفاقه أيضاً. أبرق "وينجيت" إلى "أرثر بلפור" وزير الخارجية أن تتم دعوة الوفدين إلى لندن.

وصل الرد بعد أسبوعين إلى "وينجيت" وقد أخطروه فيه بأن "استقباله للوفد المتطرف والمعادى لبريطانيا"^(٦٦) أمر غير ملائم، وأنه لا يجب السماح لهم بمغادرة مصر. يمكن مقابلة "رشيدي" و"عدلي" في وقت لاحق من العام القادم، ولكن في هذا الوقت فإن حكومة جلالته مشغولة للغاية في الإعداد لمؤتمر "باريس" والذي سيبدأ أعماله في ديسمبر، وبالطبع فإن رئيس الوزراء "لويد جورج"، و"بلفور" سيكونان هنالك للبحث في تطلعات وآمال السلام بين الـ ٣٩ دولة الممثلة في ذلك المؤتمر، ولكن مصر ليست من بين هذه الدول، ولا يمكن اعتبار شئون العلاقات البريطانية-المصرية شأنًا عالميًا، حيث إن وجهة النظر السائدة في بريطانيا هو أن تظل مصر جزءًا من الإمبراطورية البريطانية مع منحها بعض الحكم الذاتي.

كان الرد البريطاني الذي يحمل الكثير من الازدراء يمثل لكمة على وجه كل الأطراف المعنية في القاهرة، ولذا تقدم كل من "وينجيت"، و"رشيدي" باستقالتيهما، وتم رفض الاستقالات، ولكنهما تقدمتا بها مرة أخرى، وفي خضم الضجة والغضب الشعبي العارم، رأى السلطان أنه قد يكون من المناسب أن تتشكل حكومة جديدة، وتزايدت خشيته على مصير عرشه، وقام القائد العام للقوات البريطانية في مصر بالقبض على "سعد زغلول" وثلاثة من رفاقه وقام بنفيهم إلى "جزيرة مالطة"، استيقظت مصر في صباح اليوم التالي على صيحات الثورة، تتادى الطلاب بالإضرابات والمظاهرات، حمل رجال الدين المسيحي هذه النداءات إلى المساجد، كما حملها الشيوخ إلى الكنائس، امتلأت الشوارع بهتافات الاستقلال، والهِتاف بحياة سعد زغلول، تم قطع طرق السكك الحديدية والتلغراف، وتم عزل القاهرة والإسكندرية، أما في الريف فإن مرارة الفلاحين من التجنيد الإجباري خلال فترة الحرب كعمالة يدوية وقائدي إبل انفجر في نوبات عنف شديدة،

وهجمت الجماهير على القطارات فى الأماكن المتطرفة وقتلوا الجنود والمدنيين الذين يستقلونها.

دام الوجه الدموى للثورة المصرية لفترة قصيرة، ومع مرور الوقت وصل الجنرال "النبى" محرر "القدس" فى نهاية مارس كمبعوث خاص على مستوى عال، وقام الجيش البريطانى بمهمته فمقابل أربعين قتيلاً بريطانياً تم قتل ألف مصرى، ولتهدئة المصريين تم الإفراج عن "سعد زغلول" ورفاقه من "مالطة" فى يوم ٧ إبريل، ولكن المفاوضات وأعمال الفوضى استمرت للسنوات الثلاث التالية، والتى خلالها تم نفي "سعد زغلول" مرة أخرى، ثم الإفراج عنه، كانت عودته فى كل مرة انتصاراً، جماهير محتشدة على طول الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة، وفى بقعة يصفها "فورستر" بأنها بقعة مملّة من إسكندرية اليوم وعلى مقربة من محطة الترام فى منطقة الرمل يطل تمثال "سعد زغلول" على البحر الذى شهد نفيه.

تتبع "فورستر" هذه الأحداث واكتنفه القلق حيالها، وأرسل خطاباً نشرته "مانشستر جارديان" يصف فيه التجنيد الإلزامى للفلاحين خلال الحرب، والمعاملة المزرية التى يلاقونها من الجيش، وقام بسرد ما عرفه من محمد، الحالة المزرية للمستشفيات، إن الانتصارات البريطانية التى تحققت فى "فلسطين" تحققت بفضل المساندة الكبيرة للمصريين، لا يجب أن نستبدل الفلاحين الذين دمرناهم بالفقر الشديد، ولكن يمكننا أن نبحث فى مشاعر الذين بقوا منهم على قيد الحياة لنذكر لماذا يشاركون فى هذه الاضطرابات التى تحدث فى القرية والمدينة على حد سواء". (١٧)

وردت أنباء "مذبحة مقاطعة أمريتسار" بالهند بعد ذلك بأسبوعين، تبعها فترة من انتفاضة "السيخ"، تجمع منهم خمسة آلاف شخص فى تحد لإعلان الأحكام

العرفية، كانت المناسبة دينية ولكن متمردين معروفين كانوا مع الجموع، مما جعل القائد البريطاني يعتبر التجمع بأكمله عدائياً، وكان هناك هجوم وحشى على سيدتين بريطانيتين قبل ذلك بيومين، ولذلك فإن البريطانيين كانوا يشعرون بالذعر، أمر الضابط البريطاني الجموع بالانصراف، دون أن يدرك أن حديقة "جيانويللا بساه" التى تجمعوا فيها هو مكان مفتوح محاط بالحوائط وليس له سوى منفذ واحد، يقول الضابط عن ذلك الموقف: "كان على أن أتخذ قراراً فى خلال ثلاثين ثانية"^(٦٨)، ثم حدث إطلاق نار جماعى ١٥٠٠ طلقة قتلت ٣٧٩ فرداً من الهنود غير المسلحين. عبر "فورستر" عن مشاعره بنهاية شهر مايو فى خطاب ساخر قام بإرساله إلى جريدة "ديلى هيرالد" يقول فيه: "أوروبا تتضور جوعاً، وفى مصر يتم القبض على السكان بطريقة جماعية، وكذلك الأمر بالنسبة للهند، وفى روسيا يتم توظيف جنودنا فى مغامرات غير معروفة، وفى الداخل الأسعار ترتفع، والقلقل تزداد، وبيوتنا مليئة بحطام الحرب، فهل نحن يائسون؟"^(٦٩)

عصفت الاضطرابات بقلب "فورستر" عندما سمع بالأنباء التى وردت إليه بأن "محمد" تم إرساله إلى السجن، وعلى الرغم من أنه لم يكن يعلم شيئاً عن الجريمة التى ارتكبها، فإنه خمن أنه ربما يتعلق الأمر بالانتفاضة التى حدثت فى مارس والتى ربما غدت مشاعر العداء تجاه البريطانيين لديه، وارتبطت مشاعره بمصر كما حدث بالنسبة للهند، بعد لحظات كان يحاول جاهداً أن يستأنف كتابه "طريق إلى الهند"، والذى كان قد أنجز منه بالكاد سبعون صفحة فقط قبل الحرب قبل أن ينحيه جانباً، ولكن بنهاية شهر يونيو لم يستطع إكمال صفحتين أو ثلاث، قال عن ذلك وهو يكتب إلى "ساسون": "بينما أحاول كتابة روايتى، تتنابنى الرغبة فى الصراخ بصوت عال كالمجنون".^(٧٠)

فى غضون ذلك، استمر فورستر فى تجهيز كتابه "الإسكندرية" استعادة
ذكرىات قضاها فى المدينة. يسترجع من ماضيه ذكرى أول مغامرة فى مدينته
الأصلية (عسى أن يرى ما يستطيع رؤيته، غير أنه أدرك أنه لم يتبق الكثير" (٧١)
كما كتب فى رسالته إلى مسعود)، وعاد بالذاكرة إلى ماضى الإسكندرية، قاعة
الصلاة التى يرتفع سقفاها على أعمدة أثرية، ويظهر تمثال رأس الأسد الإلهة
"سيخمت Skhmet" منحوتاً فى الحائط، وقطعة حجرية عليها نقوش هيروغليفية،
وضع مقلوباً ليتم استعماله كمقعد، من خلال ذاكرته يرى فى الحى القديم مشهداً
مثيراً فى المساء، منظر ساحر رائع، ولعل أفضل وسيلة لنشبع عينيك من سحر
المنظر هو أن تهيم فى المكان بلا هدف" (٧٢) ولكن بالنسبة لباقى شوارع المدينة فقد
جعل طرق الترام هو المخطط الرئيسى لتنظيم دليله السياحى، وولفت انتباه القارئ
للمسرح الرومانى المتهاك إلى محطة الترام فى الرمل، كانت هنالك هزة من
البهجة وهو يقول "الآن نستقل الترام" (٧٣) وبينما شرع فى رحلته مع الزمن أيقظت
فى نفسه عصر الحب القديم لمدينة الإسكندرية فى عهد كليوباترا وما بعدها، وحتى
الكنيسة الإنجيلية للقديس مارك، مبنى لا بأس به (٧٤)، إنها نداعيات تاريخية، أمام
اللافتات التى تؤرخ لذكرى المقاومة ضد "عراي"، والأشجار تميل حانية فى قلب
حديقة الكنيسة، حيث تأوى إليها أسراب من العصفير عند مغيب الشمس وزقزقتها
التي تملأ الميدان بالبهجة والحياة. (٧٥) يستعيد ذكرىات مضت منذ عامين عندما
كتب إلى فلورنس وهو جالس فى شرفة نادى الخديوى عن الألفة والسعادة التى
وجدتهما مع محمد.

كان يطر "لودولف" بالإلحاح طيلة هذا الوقت يطلب مساعدته، لقد استلم
منه خريطة رائعة لمعبد سيرايوم (٧٦) كما طلب أعضاداً قديمة من جريدة "إيجيبشيان
جازيت" التى تروى الأخبار المعتادة - اختر لى عددا مشوقاً. (٧٧)

أما في إنجلترا فالأخبار العادية نقل مساحتها فى الجرائد. فكتب إلى "لودولف" قائلاً "إن الطبقة الاجتماعية التى ننتمى إليها أنا وأنت تتوارى وتنزل فى هوة سحيقة... لم أعد أشعر بكثير من الأمور، غير أن قدرا معيناً من الأشياء الثمينة، والسلوكيات التقليدية لتقافة بعينها سوف تندثر"، وبلا حماس سيعطى صوته لحزب العمل، لأنه "ولأسباب مغلوبة ينشد أشياء صحيحة ولكن وكأنه شعر بأن هذه آخر ورثة صغيرة من الحضارة التى فى طريقها للأفول". (٧٨)

جاءته أخبار من محمد أخيراً فى شهر نوفمبر تحملها له بعض الرسائل التى يتحدث فيها عما جرى. فخلال أحداث التمرد التى حدثت فى شهر مارس كان محمد وصديق له ينتهزان فرصة إضراب عمال السكة الحديد والنقص فى المواد الغذائية، فسافرا فى النيل إلى القاهرة واشترىا حمولة ملء قارب من الحبوب قاما بنقلها وحاولا بيعها فى شوارع المنصورة بأرباح طيبة" وكتب محمد يقول "كنت أفكر فى اللحظة التى كنت تقلب نظراتك فى وجهى، وكنت أبأدرك بابتسامة" (٧٩) غير أن سفرهم فى خلال ذروة أعمال التمرد لفت انتباه اثنين من الجنود الأستراليين إليهما اللذين حاولا اختبار شكوكهما فعرضا عليهما شراء مسدس من مسدسات الجيش، أخذ الصديق فى مساومتها لفترة بسيطة حتى أبعدهم محمد، ولكن بعد فترة وجيزة عاد الجنديان ومعهما أمر بالقبض عليه بتهمة محاولة شراء مسدس جيش. ومثل محمد وصديقه أمام محكمة عسكرية، واعترف صديقه بالتهمة وحكم عليهما بأربعة شهور أشغالاً شاقة، إلا أن محمداً الذى أنكر أى كلام عن مسدس، وقال إن الجنود هم الذين بادروه بالكلام حول البقشيش، قد حكم عليه بستة شهور أشغالاً شاقة بدلاً من أربعة، وفى السجن ذاق المهانة، فحلقوا رأسه، واعتكوا عليه، وقدموا له طعاماً لا يصلح للأكل حتى يموت من الجوع إذا لم يقيم بدفع رشاوى إلى حراس السجن من مخدراته ليحضروا له طعاماً من المنزل، قام بالاستئناف عن تهمته فى المحاكمة قائلاً: إنه كان يعرف مواطناً إنجليزياً قال له إن الإنجليز أناس عادلون وكان يصدقهم، والآن قال لـ"فورستر" إنه يكره البريطانيين.



شارع شريف باشا. وهو الشارع التجارى فى الإسكندرية. وهنا ولد كفافيس، رغم أنه ولد قبل أن تشغله المحلات المختلفة. فى هذا الشارع أقيمت مؤسسة وايتهد موريس، للنشر وهى التى نشرت الدليل السياحى الذى قام فورستر بتأليفه.

كان فورستر يترقب شيئاً كهذا ولكن بعد شهور من الوقوع فى براثن نوبات عصبية والمزاج السيئ، والألم الذى كان يعانيه فى انتظار أنباء بعينها تحول إلى نوبات من الغضب، وكما اتضح له أن الضباط والسياسيين الذين قامت الحرب بتحويلهم إلى أناس متعجرفين ومستهترين هم الذين يديرون الإمبراطورية البريطانية الآن، أما محمد فقد رأى فيه مثلاً صارخاً لكل هؤلاء الذين عانوا الولايات من ظلمهم فى الهند ومصر، وكما شعر فورستر بأن هذه الحرب عندما اندلعت كانت بسببه، فإنه يشعر الآن بأنه شريك فى خطايا الإمبراطورية. ولكن أكثر ما كان يشعره بالقلق هو الحالة الصحية لمحمد، فقد كان يخشى كثيراً أن

تتدهور إلى حد كبير في السجن، وقد اعترف لودولف، بدون أن يخبره بالسبب بأن صحته في تلك الشهور كانت على غير ما يرام، وهو الآن يلازم الفراش بسبب الأنفلونزا، كما يسجل في يومياته في نهاية ذلك العام أنه أصبح حطاماً^(٨٠) بسبب سجن محمد.

ولكن صمدت قدرته على الاحتمال بما يكفى بحيث استطاع في مطلع شهر أكتوبر أن ينتهى من كتابه "الإسكندرية"، وعندما كان السيد مان في زيارة لمدينة لندن التى تشهد إضراب عمال السكك الحديدية، ركب فورستر دراجته من منزل والدته في "مدينة سوراي" وهو يشعر بالإثارة^(٨١) إلى "تاور هيل" حيث مقر المركز الرئيسى لدار "وايتهد موريس" حيث سلم مسودات الكتاب إلى السيد مان، وقد تسلم شيكا لحقوق التأليف مقدما. ولكن حديثهما معا جعل فورستر يشعر بعدم الارتياح حيث احتج مان بأن الصور والخريطة الكبيرة الملونة رغم أنها نفيسة جدا، فإن تكلفتها ستكون عالية، ترك كل الصور بتردد شديد ولكنه ازداد قلقا من أن الخرائط سيتم رسمها بشكل جيد وأن الكتاب سيتم طباعته بسرعة. كتب إلى لودولف في اليوم العاشر من الشهر يقول له: إنه لا بد أن يزور مان عندما يعود للإسكندرية ويضغط عليه في إعداد المسودات للطبع كما ألح عليه في أن "بروفات الطباعة للخرائط والنص يجب أن يتم إرسالها إليه وبسرعة".^(٨٢)

وفى الحقيقة لم يكن فورستر قد انتهى من إعداد الكتاب فقد طلب من لودولف بأن يبحث في موضوع التوزيع الأشياء في القاعة رقم ١٢ من المتحف اليونانى الرومانى، حيث يتذكر أنه قد رأى رأس إلهة منحوتة من الرخام "شعرها جميل" (وهى عبارة بنص كلمات محمد على حد قول فورستر) وأيضا رأسين للملكة "برينيس" إحداهما "بها صفائر متقنة".^(٨٣)

لقد تولت برينيس عرش مصر فى عهد بطليموس يورجيتس عام ٢٤٦ قبل الميلاد وقد كانت عروسا صغيرة، وقد خرج "بطليموس يورجيتس" بجيشه معلنا الحرب على سوريا. وحزنت على فراقه فنذرت للإلهة أفروديت فى معبدها القريب من "كانوبيس" أن تقدم لها خصلة من شعرها إن رجع الملك سالما، وقد عاد الملك ووفت برينيس بوعدها، غير أن كارثة قد وقعت فقد تم سرقة خصلة الشعر من المعبد، واستدعى القصر الملكى كل علماء الطب والفن المشهورين فى ذلك الوقت فى الإسكندرية وبهفة غامرة اكتشف "كانون" وهو العالم الفلكى للقصر الملكى أن خصلة شعر الملكة أصبحت سبعة كواكب صغيرة قريبة من نذب برج الأسد وبين مجموعة كواكب "أكتوريس" والدب الأكبر. أما كبير الشعراء كليماكوس Callimachus الذى كتب مرثيته حول الخصلة المسلوقة ورغم أنها كانت تتمتع بمسحة سماوية، فقد كان يفضل أن تبقى الخصلة على رأس الملكة برينيس ليتشوق أريحا بفوح من شعرها ويستعيد ذكرى عطر كانت تتطيب به وهى عنراء".^(٨٤)

والقصة مألوفة كما وصفها فورستر بأنها، "متعة الدراسة وبهجة الحب"^(٨٥) تجمل عالم الإسكندرية، برغم أن الموضوع هو الشعر الذى حرك مشاعره وأثار غريزته. وتمضى القصة كفكرة رئيسية خلال كتابه "الإسكندرية: تاريخ و دليل إرشادي"، حيث تتشابه مع قصة أخرى وهذا هو جوهر الثبات فى جغرافيا الإسكندرية. اهتمام فورستر بالخرائط التى تؤكد هذا الموضوع، فالموانى والشوارع القديمة خُطت عليها شوارع وموان حديثة، وإن لم يكن هناك ما نراه حاليا، فإن التخطيط والحدود الخارجية للمدينة مازالت تحدها الصخور الجيرية التى وضعت الإسكندرية بعيدا عن مصر، حيث تركز نظراتها على البحر وفى الليل تتألق كواكب شعر برينيس كما كانت تتألق من قبل وحينما حركت مشاعر كونون الفلكي".^(٨٦)

كانت تلك مدينة الإسكندرية الخالدة كما رسمها فورستر، ووضعها بعيدا حتى لا تمتد إليها يد الزمان، غير أن تلك الكلمات قد صدرت فقط فى نهاية تاريخه، والذي ربما لم يكتبه بعد، أو ربما يغيره كثيرا فيما بعد، بعد سنتين ونصف السنة حينما عاد فى زيارة قصيرة إلى مصر وأجرى تعديلات نهائية على بياناته على الفرائش الذى توفى عليه محمد.

أما خطابات محمد التى تحدث فيها عن سجنه فقد جاءت صعبة فى ذيل التقارير المنشورة فى صحيفة "ذى إيجيبشيان جازيت" التى أرسلها لودولف عن المظاهرات الصاخبة فى مدينة الإسكندرية فى أكتوبر ١٩١٩ مع اقتراب وصول لجنة تقصى الحقائق والتحقيق برئاسة وزير المستعمرات البريطانى اللورد ميلنر، وبنود لجنة تقصى الحقائق هى التحقيق فى أسباب الاضطرابات التى وقعت أخيرا فى مصر وإعداد تقرير حول الوضع الراهن فى البلد وتشكيل الدستور، فى ظل حكومة وصاية، ستكون أفضل الحسابات المدروسة لتشجيع السلام والرفاهية، والتقدم لمؤسسات حكومية مستقلة وحماية المصالح الأجنبية.^(٨٧) أما العبارة المهيبة فكانت "تحت الوصاية" وهى إشارة إلى إبريل السابق إذ تحرر المصريون من وهم عبارات الرئيس ويلسون الرنانة حول تقرير المصير فى مؤتمر باريس للسلام عندما اعترفت الحكومة الأمريكية بالوصاية البريطانية على مصر. لم تكن لجنة ميلنر سوى مخطط لاستعمارى ولا أحد فى مصر، اللهم إلا من يمثل السلطان العثمانى ووزرائه، أما الإسكندرية فيها ممثلون عن المحاكم المختلطة، والغرف التجارية الأوربية كانت مستعدة لمقابلة أعضائها، والمقاطعة التى قادها حزب الوفد كانت مؤثرة تماما.

غضب فورستر عندما نشرت جريدة التايمز "سلسلة مقالات تقول فيها إن المصريين يجب أن ينالوا الحكم الذاتى - وكان أمرا عجيبا أن يعلن ذلك أندرياس كامبيرون، ثم جاء من بعده جيوفرى سميث القنصل البريطانى الأول فى الإسكندرية الذى أدلى بملوه بخطاب ثورى يقول فيه: إنه من الأفضل تعيين سعد زغلول رئيسا للوزراء". بينما "التزم فورنيس العجوز الصمت".^(٨٨)

كان فورستر يبحث في مصر عن شخص يستطيع أن يكون وكيله في مصر ويرسل له عونا ماليا ويقدمه إلى محمد، كتب فورستر إلى فلورنس "كان لودولف صديقا حميما، ولكنه لن يعي جيدا أنني لا أستطيع أن أحدثه عن "محمد" في حين أن تصرفات فورنيس تثير غضبي حينما أطلب منه خدمة لى، لا يوجد خط للتفاهم بيننا منذ أن شرحت له الموضوع في أغسطس". سافرت عابدة بورتشجريفنيك مؤخرا إلى إنجلترا وسألت فورستر إن كان قد سمع شيئا من فورنيس حول الموضوع فقالت لا. مما يوحى بأنه يثق فيها، فلماذا لم يتخذها مؤتمنة على أسرارها، لم يعرف سببا واضحا. وفي خضم هذا الإحباط طلب ليونارد وولف من فورستر أن يشترك في إعداد كتيب لـ "قسم أبحاث العمالة" عن مصر، وقد وافق قائلا "إكراما لمحمد ولألامه" (٨٩) - بين هذا وذاك فإن الموت يدنو هذه المرة من الطفل الرضيع ابن محمد واسمه مرجان.

أما بالنسبة للمذكرة، والمسماة "الحكومة المصرية" وقد اشترك فيها فورستر بكتابة الموجز التاريخي عن قصف الإسكندرية وهزيمة عرابي فقد كتب يقول فيها: "وهكذا ضاعت فترة تاريخية، فترة والتي إذا تم تناولها بعين العطف والود فقد كان يمكن أن تضع مصر على طريق الحرية الدستورية". أما بالنسبة للأحداث الأخيرة "فإن المصريين العقلاء المنشرحين يبدون - وخصوصا لشخص عرف الهنود عن قرب - شعبا بسيطا يحلو للمرء أن يعيش بينهم ومعهم" (٩٠) غير أن الاستعلاء البريطاني جعلهم ينفرون منهم، ولكن فورستر لا يستطيع أن يوصي بنفسه بالاستقلال، فضلا عن أنه بدا مهتما بالنضال في إنجلترا واللجوء إلى أن يستبدل بالنظام الإمبراطوري نظاما أبوى المعاملة رحيمًا يريح أكثر مما يتسم بالغموض، ولكنه تنازل للقبول بتفويض لعصبة الأمم. تم نشر المذكرة بمرور الوقت في صيف عام ١٩٢٠، ومضت لجنة ميلنر إلى أبعد من المذكرة الخاصة بها معتبرة

أن استقلال مصر يجب أن يتم الاعتراف به، على الرغم من أن ذلك مقيد بواسطة معاهدة التحالف الإنجليزية-المصرية، والتي تنص على منح قاعدة عسكرية للقوات البريطانية على الأراضي المصرية في مكان يتم الاتفاق عليه وذلك بهدف الدفاع عن البلد والاتصالات الإمبراطورية البريطانية (وهى المجال الجوى وقناة السويس) وكذلك السماح لبريطانيا بالقيام بإجراءات المراقبة والإشراف على الهيئات الإدارية والتشريعية لحماية أوضاع الأجانب، ولكن على مدار السنتين التاليتين تم إفساد محاولات بريطانيا لتأمين توقيع الاتفاقية بناء على مقترحات لجنة ميلنر عن طريق الانشقاق بين الحكومة المصرية والوطنيين، على الرغم من أنه كان يكفى هؤلاء الرجوع للبند الذى اقترحها سعد زغلول والتي تعود إلى عام ١٩١٨، وقد أصبح الوضع أكثر صعوبة بعد أن تم نفيه والانتفاضات الشعبية التى صاحبت ذلك. وراء مظهره الذى يمثل الاستقامة واستقامة رأى كان يختفى الرجل الحزبى الذى يخاف من النقد الشديد حينما يتخلى عن شعاره "الاستقلال التام" وفى مقابلة غير رسمية مع صحفى مصرى تم سؤاله عن رأيه فى مقترحات ميلنر فأجاب قائلا: "أنا كمصرى، مندهش ومسرور، ولكن باعتبارى رئيساً لحزب الوفد، فإننى أرى أن هذه التوصيات غير مقبولة". (٩١)

بدأ فورستر فى الدخول إلى عالم السياسة فى نفس الوقت، فكان لذلك تشويش على رؤيته لمدينة الإسكندرية، فعندما كان يرى أن : "أنطونيوس" أفنى عمره فى الكتيب الذى وضعه عن المسألة المصرية، لم يكن ذلك صحيحاً، فى حين كتب لودولف رافضا ذلك معتبرا أن أنطونيوس شخصية شريرة يختار الكلمة وموضعها ليتأكد أن فورستر لن يُسمح له بالعودة إلى مصر". وكتب فورستر إلى فلورنس فى شهر نوفمبر يقول: "إن أنطونيوس شخصية ذكية ولطيفة ولكنه مفسور على المكائد ويعلم يقينا أن وظيفته سواء كان رقيباً على المطبوعات أو أى

شيء آخر، ستختفى فى حال اختيار تقرير ميلنر - ناهيك عن مذكرتي! أما السوريون فكانوا يعيشون فى مصر مثل الأرمن هناك فقط يعملون كأذناب للبريطانيين، فعندما نرحل يرحلون وبمهانة، أما لودولف - والذى كان يكرههم ويحب المصريين - فكان يحب تسليط الضوء على هذه النقطة تحديداً، أما أنا فلم أكن أعى هذه النقطة تماماً، وكان يقول إنهم يعيشون على إلحاق الأذى بالآخرين، كما أنهم مسئولون عن تراجع شعبيتنا.. فإذا تم تمرير التقرير ووافق عليه البرلمان فإن (أنطونيوس) سيتم إلقاؤه كالقمامة إلى سوريا فلا يريد أن يكون مع الحمقى، لعنة الله على المسيحيين الشرقيين! لقد أدركت الآن لماذا كان الأتراك يقومون بنبحهم". (٩٢)

وفى الحقيقة إن الإسكندرية لم تعد تحتفظ بجاذبيتها القديمة لفورستر بسبب اهتمامه المتزايد بالسياسة. حتى تاريخه نفسه مرتبط بالنسيان، مرت سنة ونصف بين تقديم مسودات كتابه إلى السيد مان والخطاب الذى كتبه إلى كفافيس فى يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢١ ويقول فيه: "بالنسبة لكتابى عن مدينة الإسكندرية، فقد فقدت اهتمامى بالموضوع فما زالت المسودات فى شارع شريف باشا وستظل هناك حسبما أعتقد، فما فائدة أى مخطوطة؟ والأهم من ذلك كله ما أهمية شارع شريف؟ أتمنى فى المرة التالية عندما تمشى فى هذا الشارع، أن تسأل هذا السؤال بطريقتك الخاصة. لقد كتب فورستر هذا الخطاب على متن السفينة وهى تمخر عباب موح قناة السويس، وكلما اقتربت كنت أتمنى الوصول إلى شارع ليبسويس فى الوقت الحالى" (٩٣). فقد كان متجهاً إلى الهند حيث تم تعيينه فى وظيفة مؤقتة سكرتيراً خصوصياً لمهراجا هندى منطقة دواس بالهند، ثم كتب إلى محمد أنهما يجب أن يلتقيا فى ميناء بورسعيد.

وما إن وصلت السفينة حتى شق محمد طريقه إلى متن السفينة وهو يرشو العاملين عليها بالسجائر الفاخرة والتي أحضرها خصيصا ليهدئها إلى فورستر، كانت الليلة شديدة البرودة ولكن محمدا كان يرتدى معطفا فخما كان قد تركه له فورستر، كما كان يرتدى قفازا وكان يقوم بتدليك يديه وهو يقول "كيف حالك يا صديقي، كيف حالك؟" أما الحياة بالنسبة لمحمد فلم تكن على ما يرام، لقد فقد الكثير من وزنه، كما فقد عمله، وأشهر زوج أمه إفلاس، وحيث إن السفينة كانت ستبقى لمدة أربع ساعات لتعبئتها بالفحم اتفقا على أن يتحدثا فقط في الموضوعات التي تبعث على السعادة. وقد وصف فورستر ومحمد هذه الساعات بأنها كانت حلما جميلا، وبعد أن سارا سويا في جولة لمشاهدة عظمة الدرجة الثانية في السفينة وسفينة الملاحه الشرقية P&O خرجا إلى الشاطئ واحتسبا بعض القهوة التركية، يكتب فورستر إلى فلورنس يقول: "أتركه يدفع الحساب دائما"، ومشيا إلى تمثال فرديناند ديليسبس كان التمثال منتصبا على الشاطئ نظر إلى أصابع قدميه، أما الأجزاء الأخرى من التمثال فقد ابتلعها الظلام، ثم واصلا المشى على طول شاطئ البحر، إلا أنهما عادا أدراجهما بسرعة "خشية أن يشتبه فيهما خفر السواحل بأنهما من موردي الحشيش" (٩٤) جلسا معا على الرمل. وفيما بعد فى رسالة كتبها فورستر إلى محمد يقول فيها: "فى تلك المرة الأخيرة كنت فى كامل فحولتك متعافيا قويا لم أرك منذ سنتين، أسعدتني لمساتي لجسمك القوى، بادرني قائلا "أحمق. فقلت: "الكل يعانى من الحماسة وهذه حماقتى". (٩٥)

كما لو كان يصف رحلة من داخله فيصف لفلورنس "أن أمه كانت فى ذاكرتي دائما كلما كنت أصعد الدرج - فيما عدا الأوقات التى كان محمد خلالها يملأ خيالى، ولقد كان كذلك بلا توقف طوال الثلاثة الأيام الماضية!.. الآن نعبّر قناة السويس وغدا أتمنى أن أستطيع التفكير فى الهند". (٩٦) فى إنجلترا ثمة إحساس

سائد مخيف كان ينتابني بالحنين إلى الشرق" (٩٧) وطوال شهور وهو يتمزق أمام محاولات أمه في أن تمنعه يقرأ كلمات رسالتها التي تركتها له عشية سفره والتي تقول: "يجب أن أحاول أن أكون أما شجاعة وأظل في روح معنوية عالية وأنا أترقب عودتك" (٩٨)، وانطلق في رحلته، ولم تكن نيته في البحث عن إشباع شهواته الجسدية بالقليل (حيث لم يكن هناك رفيق له في إنجلترا)، ولم تكن هذه المرة هروبا من الحرب ولكنها استراحة متأنية من الوطن والغوص في الموقف المشحون سياسيا، غاندى وبمساندة الهندوس والمسلمين بدأ حملة العصيان المدني على بريطانيا، وجاب أرجاء الهند يعرض القضية وبات الموضوع الأول هو المنافسة على السلطة.

حاول فورستر مساعدة المهرجا في الحد من بذخه غير المسئول ولكن دون جدوى، لذا بدت خدمته بلا غاية يحققها ومضيعة للوقت، أما في حياته الخاصة فكان إحساسه بالقوة لا الشفقة تزداد في نفسه نحو الهنود. كشف فورستر للمهرجا هويته كرجل يمارس اللواط، وعلى الفور جلب له شابا جميل الوجه يسمى "كانيا" فقد كان يتخفى في القصر باعتباره حلاقا، بينما يقيم في سكن فورستر ويعمل على إشباع رغباته، وهذه كانت أول تجربة لفورستر في ممارسة الجنس بشكل منتظم، في السنة التالية راح فورستر يستعيد ذكرياته الخاصة ويقول عنها: "كان غلاما سعيدا معي وقد تحسنت حالتي الصحية تماما، ولكنني لم أستطع أن أصل إلى تبادل العواطف كما في مصر لأنه يملك جسد وروح عبد"، الفشل في الجمع بين شهوته وبين مثاليته بالشعور بالسيادة في العلاقات الشخصية أصابت فورستر بالإحباط من الهندي وازاد غضبه عليه حيث كان يضربه ويتعمد إيذاءه". (٩٩)

وسواء تم إيقافه أو طرد السائق فقد كان "بليدا غيبيا" (١٠٠) أو يجبر كانيا على الخضوع تلبية لرغباته الحسية، فقد اكتشف فورستر أن لديه قدرة على عدم الاكتراث، حتى مع القسوة واستخدام القوة وعندها لا يهتم تماما". وكتب عن "كانيا" لم أحاول عقابه، فأنا أعرف أن نفسه الوضيعة عصية على التعافى. أحسست أنه عبد بلا حقوق وأنا طاغية على من لا يعترض ولا يقاوم" (١٠١) فى يناير عام ١٩٢٢ نشر مقالا فى مجلة Athenaeum يتحدث فيه صراحة عن مرض "راج" مع الإشارة إلى الإنجليز الموجودين فى الهند باعتبارهم متعاونين مع النظام الذى يدعم قسوة وغلظة عربات السكك الحديدية" واختتم مقاله: "لم يحدث فى التاريخ قط أن أسهمت الوقاحة بهذا القدر فى انحلال الإمبراطورية". (١٠٢)

وقد أفضى بمآثره الجنسية إلى محمد الذى أجابه موبخا: ليس لدى ما أقوله فأنت سخيّف جدا، وأنا حزين من هذا اللهو ولقد فهمت الآن لماذا تسمى كل من يعارضك أناسا أشرارا ... إننى أترقب رؤيتك وألومك على أفعالك الشنيعة، أفعالك الحمقاء" (١٠٣) ولكن فورستر كان يترقب شيئا أكثر من مجرد اللوم والتوبيخ، كان يحلم فعلا أن يفعل شيئا ما مع محمد كما كان يفعل مع كانيا: "لقد عاهدت نفسى عند عودتى إليك أن أجعلك تولج من خلفى، مهما كان مؤلما ويقلل احترامك لى". (١٠٤)

فى حين أنه لم يستطع أن يكمل روايته، ولكن فى النهاية أرسل إليه وإيتهيد موريس بروفة الطباعة لرواية الإسكندرية. ومرة أخرى كتب إلى محمد يطلب منه أن يقابله فى مدينة بورسعيد وفى يوم ١٤ يناير أبحر على جناح الشوق إلى مصر. مر بالبحر الأحمر وعبر قناة السويس، وكتب إلى أمه يقول لها: "إن الجو فى مصر رائع، درجة الحرارة والألوان فاتنة ومنعشة مقارنة بالهند فكل شيء هناك قديم ومعقد، أما هنا فى مصر فإن الجوصباح مشرق، وصلنا إلى بورسعيد

قبل الموعد الأساسى بيوم ولا أعرف إن كان محمد، الذى وعدنى بمقابلتى، هل سينجح - وأضاف فورستر لأمه إن محمد صديق، وإننى شغوف لرؤية شيء من المصريين، لذا لا أريد أن أقع فى شرك الإسكندرية وبلا استثناء! - عزيزى لودولف، يجب كذلك قضاء يوم أو يومين مع إيرين" (١٠٥) لم يرد ذكر كفافيس ولا يوجد أى دليل فى طوال الشهر الذى قضاه فى مصر وعشرة الأيام التى قضاه فى الإسكندرية، راح يتجول فى شارع ليبوس Lepsius. ومهما يكن فإن كفافيس يعنى بالنسبة له الثقافة، وهذه زيارة من زيارات الهوى.

هبط فورستر فى ميناء بورسعيد فى يوم ٢٣ يناير عام ١٩٢٣، كان فى انتظاره خطاب من محمد يخبره فيه عن تدهور صحته بسبب داء السل الذى داهمه قبل أسبوعين، وقد عاد على الفور إلى مدينة المنصورة، كتب فورستر إلى فلورنس يقول "رغم أنه كان يستعيد عافيته من هذا الداء العضال، فقد كنت على يقين بأنها كانت آخر مرة أرى فيها محمداً،" إننى بخير ومازلت أحفظ بتوازنى". (١٠٦) سيعود لزيارة محمد وإن استطاع أن يصطحبه إلى الطبيب فى القاهرة، وربما يرافقه إلى حلوان، وهو منتج صحى فى جنوب القاهرة، وبعد قضاء يومين فى المنصورة، عاد فورستر من رحلته من الدلتا إلى الإسكندرية.

شاع خبر وصوله إلى المدينة ووصل الخبر بسرعة إلى إيرين، وقد شهقت من السرور حينما رآته يمشى مع لودولف، وهو يقبل يديه، ويبتهل للسماء وتناديه بابنها، وبعد أيام وهما يجلسان مع عائلة لودولف فى حديقة المنزل فى جليم، مر عليهم فورنيس وعابدة بورشجريفينك انحنيا من على جواديهما وتبادلا التحية من وراء سور الحديقة، ولكن عندما طلب منه فورنيس أن يبقى معه بضعة أيام فى القاهرة، وطلبت عابدة أن يكون ضيفها أيضاً، رفض الدعوتين. وبدأ فورستر يتحدث إلى لودولف عن محمد وقد شجعه تعاطفه إلى التفكير بأن يتخذه وكيلًا

ليحول مبلغا شهريا يقدمه إلى محمد، إذ لو دفع المبلغ كاملا إلى محمد فقد يأخذه الأطباء مرة واحدة. وعلى أى حال إلى متى يبقى في مصر. فقبل شهر توقفت المباحثات الإنجليزية- المصرية حول مقترحات لجنة ميلنر، وتم إبعاد سعد زغلول للمرة الثانية، ومرة أخرى كانت البلاد على شفا ثورة، وكتب إلى ديكنسون فى نهاية الشهر: "لا أستطيع أن أنظر فى وجه أى مصرى، لقد باتت عداوتهم واضحة للعيان، فهم يعترضون بشتى الطرق ويمكنهم عمل الكثير إن استطاعوا. هذا أمر كرهه فى هذا البلد. أما الهند فهى على النقيض تماما، فهناك لم نرتكب أخطاء كبيرة هناك". (١٠٧)

فى ذلك الوقت كان فورستر يراجع كتاب "الإسكندرية": شارع سيدى أبو العباس يودى إلى ميدان بنفس الاسم- وهو أهم مكان فى المدينة السكندرية، هنا وفى أضواء المساء، يشعر المرء أحيانا بأوهام الرومانسية الشرقية، (١٩٢٢) هنا مركز التجمع الوطنى للقيام بالمظاهرات". (١٠٨) لقد قرر أن يقوم برحلة أخرى إلى بحيرة مريوط لإضافته فى الدليل السياحى، هناك فى بحيرة مريوط حيث بدأت تفتتح براعم الورود ويصف المكان بأنه لم يكن موجودا عندما غادر الإسكندرية فى يناير ١٩١٩. وهذه برج العرب ليست تلك المنارة القديمة التى كانت معروفة من قبل على حافة بين البحر المتوسط وبين البحيرة فى تبوزيريس، ولكنها مستوطنة أولية قريبة منها. قد تكون مخرجا من بعيد "بجوار برج مصنع السجاد الجديد"، حيث تعمل فيه أرامل البدويات من قبيلة السنوسية، واللواتى استشهد أزواجهن فى الحرب، وحول المصنع تكاثرت الأبنية لتمتد إلى المنطقة الشرقية من الصحراء الغربية: "لقد تم التخطيط لها وتنفيذها بذوق رفيع، والفضل فى ذلك يرجع أساسا إلى عبقرية القائد و.إى. جيننجز براملى.. وترتفع مبانٍ أخرى لتضم مدينة صغيرة محاطة بأسوار. إنه مشهد رائع ومثير أن ترى بعض الأعمال الإبداعية المعاصرة قائمة فى تلك الأماكن". (١٠٩)

أما فورستر فإنه يدين بالفضل في مقدمته عن برج العرب إلى لودولف، والذي عرف براملى من خلال السيدة آن برنت Ann Brunt التى كانت تسكن بجواره فى القاهرة فى أعوام ١٨٩٠، حيث كان القصر السابق للخديوى إسماعيل فى الجزيرة قام براملى بتأسيس المدينة المشهورة بحديقة الحيوان.

ربما نالت برج العرب إعجاب فورستر لأنها كانت تتحدث عكس مخاوفه، فالمشاهد الطبيعية للمريوطية والتى أحبها يوما ما سوف تطمسها الأيام كما كتب فى "المكان المهجور" تغطيه أسلاك شائكة وعلب صفيح صدئة. ولم يقتصر حماسه، على هذا الدليل، بل بدا الأمر بالنسبة لفورستر كأنه "ميلاد فى الصحراء" وهو عنوان لمقال كتبه فى صحيفة Athenaeum الصادرة فى نوفمبر ١٩٢٤ كتب يقول: "فى التناقض والانسجام بين المكان وسكانه تشهد بزوغ تلك المباني الغامضة والفضة التى تراها من مسافة أميال... هل يبدو هم الذين شيّدوا تلك المباني المحيرة؟ مستحيل. فالبدو لا يقيمون مباني، وإن شيّدوا مباني فهل سيقومون مباني كهذه. من الواضح أن شيئا ما قد حدث، لا بد أن يكون تأثيرا ما قد مر على هذه الصحارى وتحركت للتسابق القدرات المعمارية الكامنة." (١١٠)

فى يوم ٦ فبراير كان فورستر مع محمد فى القاهرة يراجعان أشهر طبيب فى المدينة، وقد شخص حالة محمد بأنه يعانى من سل رئوى ثم ذكر الطبيب أن حالة محمد متأخرة ولا أمل فى شفائها، ذهبا إلى مدينة حلوان وجلسا معا فى غرفة بفندق لمدة خمسة أيام، وهناك استمر فى تصحيح بروفة طباعة كتابه "الإسكندرية" بينما يقوم ببعض التعديلات، كان يقوم بتدليك محمد الذى كان أثناء ذلك يفكر فى النساء، ففكر فى إحضار جميلة إلى حلوان فى نهاية الأسبوع أسكنها هى ومحمد فى منزل الضيوف وراح يشجع محمد على أن يمارس الحب معها وقال له: ربما الممارسة تضررك ولكنك تجنى منها سعادة فائقة." (١١١)

فى اليوم العشرين أبحر فورستر إلى إنجلترا ومن على متن السفينة كتب إلى فلورانس يصف لها مشهد فراقهما: لقد ودعنى فى القاهرة.. جلس بجوارى فى عربة القطار وقال لى "إنى أحبك ولا أجد شئنا آخر أقوله" وتلك كانت عين الحقيقة". (١١٢)

بعد ثمانية أيام، وبينما فورستر مازال فى البحر، أعلنت إنجلترا أنها منحت مصر الاستقلال، لكنها تحفظت على أربع نقاط ليتم الاتفاق، والنقاط الأربع هى: تأمين الاتصال بالإمبراطورية البريطانية فى مصر، والدفاع عن مصر ضد العدوان أو التدخل الأجنبى المباشر أو غير المباشر، وحماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات واستمرار نفوذ بريطانيا على السودان.

عاد فورستر إلى بريطانيا وكتب أو أعاد كتابة التعديل الأخير من خاتمة كتابه عن تاريخ الإسكندرية. لقد انفصل الارتباط عن الماضى بطريقة وحشية- فعلى سبيل المثال تم تغيير اسم شارع رشيد (إلى شارع فؤاد الأول: وفى الأول من مارس سنة ١٩٢٢ تم تغيير لقب السلطان فؤاد إلى "الملك فؤاد") و"السوق المغطى Covered Bazaar" التحفة المعمارية الساحرة القريب من شارع فرنسا تم تدميره تماما.. أما المناخ والرياح الشمالية والبحر فظلت هى الوحيدة الباقية بلا تعديل أو تغيير منذ عهد مينيلوس Menelaus وهو أول زائر حل برأس التين منذ ثلاثة آلاف سنة وهذا مرجع للكتاب الرابع من الأوديسا The Odyssey فهى إشارة إلى كفافيس الذى حضر من أجله فورستر ليرى شتات اليونانيين، وهذا الشتات بفعل قوة القاهرة: "فمن الناحية السياسية، فإن الإسكندرية حاليا أكثر ارتباطا وتوصلا مع بقية مصر أكثر من أى وقت مضى، غير أن العناصر الأجنبية القديمة فيها مازالت باقية، أما الآثار اليونانية والتي لها الفضل الكبير على الحضارة الحديثة فمازالت موجودة بها". (١١٣) فيما عدا بعض الإشارات، كان فورستر لا يتحدث عن محمد،

ولكن من خلاله وجد نفسه فى موقف استخفاف لبريطانيا: كان كفافيس درسا تاريخيا إلا أن محمدا كان محركا عاطفيا. أما دوريل وهو مولود فى الهند، فقد كتب خطابا فيما بعد يقارن فيه حياته وتجربته فى الإسكندرية بحياة وتجربة فورستر "من حسن حظى أننى بلا جذور أو ميراث استعماري. ومن اللافت للنظر أن فورستر الذى كان من أصول إنجليزية عريقة، يجب أن يستجيب لمنفاه بطريقة إيجابية، يغرس جذورا جديدة فى هذه للتربة الغريبة".^(١١٤) فى الحقيقة لقد حدث شيء مختلف تماما لفورستر فى أثناء حياته التى قضاها فى الإسكندرية، وهى كما شرحها بعد ذلك بسنوات بقوله: "لا أشعر بانتماء لأى مكان، وأتمنى أن أكون منتميا. فلست منفصلا عن جنورى. غير أن الأرض هى التى انسحبت من تحتي".^(١١٥)

أما بالنسبة لأصدقائه فى إنجلترا، ففى كتابه "ممر إلى الهند" يعود فورستر إلى الهند وكأنه عود فاشل، وتذكر فيرجينيا وولف أنه كان "محبطا وعلى شفا العجز التام". فقد كانت تعتقد أنه إذا خرج فلن يعود، "سيصبح لغزا غامضا، يجلس على قارعة الطريق وينسى أوروبا"^(١١٦)، ولكنه عاد إلى وبيريدج Weybridge عاد إلى المنزل القمىء البعيد عن المحطة لمسافة ميل، عاد إلى ذات الأم العجوز الصعبة.. "حدثهم عن الهند وعن التجديف فى بحيرة دواس، حدثهم عن العصفير المحلقة فى القصر الملكى، ولكن عقله كان مع محمد فى المنصورة. تسلم خطابه: "أعتقد أننا سنلتقى ثانية إن لم نلتق هنا فى عالمنا هذا فسنلتقى فى الجنة".^(١١٧) كتب محمد خطابه فى مارس. ولم ينتظر فورستر محمدا أن يصل إلى هناك، لقد لجأ إلى كتابة يومياته، "أريده أن يقول لى إنه قد مات، ويطلق عنانى لأتخيل صورته أمامى. فى تلك الأيام كان حبى الكبير يمنع مشاعرى من الاعتراف بأنه كان يمثل حقيقة" ثم حاول أن يبرئ نفسه من الذنب: عاقد العزم فى حياته على شيء واحد هو النجاح وأخفيت عن نفسى وعن الآخرين: فتور محمد، أما عواطفه

فكانت مضطربة أحيانا إما بسبب الأدب أو العاطفة أو إقراره بالفضل منى، ووفاته المنتظرة لن توجعني". (١١٨)

فى يوم ٨ مايو كتب فورستر إلى ديكنسون مبرراً ذلك بأنه سئم من الرواية الهندية، حتى إنه بصق على الورق بدلا من تصحيحه وتعديله، "لقد سئمت، ليس بسبب عجزى الإبداعى وحسب، ولكن سئمت من القواعد الشكلية لكتابة الرواية: فمثلا : الاصطلاح يجب أن يلتزم به فى عقل إحدى الشخصيات، ويردد ما يقوله الآخرون، ربما يظنون أو فى كل الأحداث يتبنون وجهة النظر الحالية فقط، فإن تظاهرت بأن تتماشى مع أفكار إحدى الشخصيات، فلماذا التظاهر لتلك الشخصية؟ فإننى أعرف السبب. إنها أوهام الحياة الفانية، المبدع الكاتب يتحلل إلى شخصية استعراضية، ولكن لابد من عمل بعض التعديلات من هذا النوع". (١١٩) لقد كان يقرأ أعمال بروسى وهو فى رحلته عائدا من مصر ولا بد أن يكون قد فكر فى محاولته الكاملة فى مهرجان الإسكندرية، وكيف اخترع تاريخه ودليله حتى خلط الزمن - كيف استطاع - مثل كفافيس - أن يبرع فى التغلب على أسباب القمع الشخصى لعالمه.

وبعد بضعة أيام تسلم خطابا آخر من محمد، أولا الخطاب مؤرخ بتاريخ ٦ مايو :

عزيزى مورجان:

أرسل إليك صورتي

صحتى سيئة جدا

لا أجد ما أقوله

عائلي بخير. تحياتي للوالدة

حيى لك

حيى لك

حيى لك

لا تنس صديقك أبدا

محمد العدل^(١٢٠)

ثم تسلم خطابًا آخر بعد يومين:

عزيزى مورجان:

استلمت اليوم النقود التى أرسلتها، شكرا جزيلًا لك.

إن حالتى متدهورة جدا ولا أستطيع القيام والوقوف

إنى هزيل جدا

كيف حالك اليوم

حيى وتقديرى لك

حيى لك^(١٢١)

تسلم فورستر تلك الخطابات، بمرور الوقت، كان محمد قد تسوفى، وتلقى فورستر تأكيدًا على وفاته فى ١٧ مايو من خطاب استلمه من شقيق محمد بأن محمدا قد أورثه خاتم فورستر وما إن أخذه حتى وضعه فى إصبعه مرة واحدة فى اليوم. كان ذلك فى لحظاته الخاصة، أما فى الأوقات الأخرى فكان يقوم بجولات

فى لندن يجلس مع عائلة وولف، أو يذهب إلى أكسفوردشاير ليجلس مع ستارتشى أو يقوم بنزهة قصيرة بالقرب من قرية جاريسنجتون مانور، حيث تعيش اللبدى أوتولاين موريل ويتمتع بالمشهد الرائع للندوات الأدبية والفنية لطليعة الأدباء فى آخر يوم أحد من الشهر. هنا التقى اللورد ديفيد سيسل، وهو الذى أصبح فيما بعد مؤلف السيرة الذاتية الرقيقة والرائعة للورد ميلبورن، "شاب جامعى ذكى جدا ومهذب. التقينا على نحو طيب ووعدنى بأن يأتى فى الأحد التالى للمزيد من الحوار والنقاش. ثم تحولت عنى اللبدى "أو O" إلى شاب جامعى آخر، لم يكن سليل عائلة نبيلة أو لطيفا مثل اللورد ولكنه كان يهوديا من الإسكندرية يعرف كفافيس".^(١٢٢) وهذه الإشارة غير الضرورية إلى والدته أظهرت سخطا يمسى إلى أبعد من مجرد انطباعات عن مواجهة بسيطة، جان دى ميناسى يعرف كفافيس بعيدا عن فورستر وقد هياتها لتشجيع عمل الشاعر بينما هو فى أكسفورد، ينشر بناء على موافقة كفافيس أربعا من ترجمات Valassopoulos فى مجلة أكسفورد Oxford outlook فى عام ١٩٢٤. ربما أحس فورستر بالتعدى على كفافيس شخصا فى ذلك المساء فى جاريسنجتون، وعلى أى حال فى خلال الأسابيع القليلة التالية راح يجدد حملته حتى يطبع أشعار كفافيس مع ترجماتها Valassopoulos.

فى كتابه "الإسكندرية: تاريخ ودليل سياحي" وضع فورستر قصيدة كفافيس "الله يتخلى عن أنطونيو The God Abandons Antony اعتبرها تقديما للشاعر الذى يجسد ماضى المدينة وحاضرها. ولكن رغم الملاحظات النقدية اللاذعة^(١٢٣) للسيد مان فلم تكن هناك إشارة على أن الكتاب يبزغ من قريحة وايتهد موريس. واتفق أيضا مع ليونارد وولف بأن مطبعة هوجارث برس Hogarth Press يجب أن تطبع كتاب Pharos and Pharillon وهى مجموعة من اثنى عشر مقالا عن "الإسكندرية" (وتم تجميعها أو تم تغيير القلب فيها) مع بعض المقطوعات الإضافية

من بينها "مقالات عن "شعر سى. بى. كفافيس" والتي تمنى أن تترك انطبعا أكبر هنا أكثر مما ظهرت فى كتابه *Athenaeum* الصادر فى عام ١٩١٩.

وقد كتب فورستر إهداءه باللغة اليونانية إلى هيرميس سايكوبومبوس *Hermes Psychopompous*، إشارة مبطنة بذكاء وأسى إلى محمد "محصل الترام، أما كلمة سايكوبومبوس فهي تعنى باللغة اليونانية "محصل الأرواح" وهى مهمة يشترك فيها مع الإله هيرميس. كان هذا أمام الناس كما كان يحب أن يذكر محمداً. ولكن فى لحظاته الخاصة "فإن هيرميس كان مفعماً بأفكاره: لقد كان الإله مقروناً بالخصوبة والإنجاب كما كان أحياناً يرمز للانتصاب.

فى يولييه كتب فورستر إلى لودولف يقول له : "مازلت أكتب روايتى الهندية القديمة (لا تخبر أحدا بذلك؛ فأنا أحب السرية)" (١٢٤) وفى الخامس من الشهر التالى بدأ بسر أكبر مازالت رسالته إلى محمد بين يديه كتب يقول: "فى هذه الليلة يجب أن أكتب بلغة حسية شهوانية، حتى لو اضطررت لتمزيق صفحات الخطاب فيما بعد. لقد كنت دائماً متيماً بك"، ثم واصل الكتابة إلى محمد فى نوفمبر، يقول: "محمد حاولت أن أجعل ذلك حقيقة إلا أن كلماتى تعترض السبيل، وأنت تضعف أمام أشياء مريعة، فى هذه المرة... موات ستة شهور، لا أهتم، ولكنى أخشى أن تصبح سرايا، وهكذا فإن كل كلامنا وليالينا التى قضيناها معا على فراش واحد يبدو أنها كانت لأناس آخرين... حبيبى الغالى، أود أن تكون تلك الذكريات منك أنت، وليست فساداً منى. لا أود أهنر على الحب المثالى، فقط لأكتب إليك وكأنك حقيقة. لذا فإننى أحاول أن أفكر فى حال تحلل جسدك فى القبر. إنها حقيقة ومعاصرة معى، وتعيدنى إلى حقيقتك". (١٢٥)

طوال الثلاث السنوات الماضية شاهدا معا المغامرة اليونانية فى آسيا الصغرى التى نقلتها إلى نهايتها المحتومة. فى مايو ١٩١٩، عندما جعل الجيش اليونانى انتصار هبوطه فى سميرنا Smyrna وتحت الحماية البريطانية ومدافع البحرية الأمريكية، كان مئات الآلاف من اليونانيين وعلى فترات متقطعة تحت تهديد السلاح لمدة سبع سنوات، منذ بدء حرب البلقان فى عام ١٩١٢. وفى حقول المزارعين، وثروات عائلاتهم، بما فى ذلك المواد الضرورية للمعيشة كادت تتضرب بسبب غياب أزواجهم وأبنائهم، وثمة شعور متزايد لتسريح المقاتلين، وقد نجح مؤيدو الحكم الملكى فى الاستفادة من هذا الشعور العام فى انتخابات نوفمبر ١٩٢٠. وعند هزيمة فينزيلوس Venizelos سحب البريطانيون دعمهم المالى، ولكن الملكيين، بدلا من التسريح كما تعهدوا من قبل، أو حتى تمركز جيشهم حول سميرنا، كانوا مخدوعين بشكل خطير بالقضية المقدسة وأمروا بهجوم شامل. وكان نتيجتها إثارة غضب الأتراك واشتراكهم فى الحرب.

فى أغسطس ١٩٢١ تقدمت القوات اليونانية باتجاه الشرق نحو أنقرة، إلا أن الانقسامات السياسية أضعفت معنويات الضباط وخطوط الجيش الممتدة ورجاله غير المجهزين الذين توقفوا بعد اثنين وعشرين يوما من القتال الدامى على ضفاف نهر سانجربوس Sangarios ضد الجيش التركى الذى أعاد تنظيمه مصطفى كمال (والذى عرف فيما بعد بكمال أتاتورك) والمنتصر جاليبولى Gallipoli. فى أغسطس من العام التالى استمر الأتراك فى عدوانهم وقد حشدوا قدراتهم استجابة لنداء كمال أتاتورك "إلى البحر المتوسط!" وفى غضون أسبوعين طردوا اليونانيين، فقد التحم الجيش والشعب فى سميرنا. وفى مساء ١٣ سبتمبر ١٩٢٢، كانت المدينة تحترق وقد هرب منها نحو نصف مليون لاجئ يعبرون بحر إيجه Aegean بينما لم يستطع عشرات الآلاف الفرار وواجهوا الموت إما فى النار أو فى المذبحة.

وهكذا انتهت الفكرة العظيمة وانتهت معها ثلاثة آلاف سنة من الحضارة الهيلينية
فى آسيا الصغرى.

ذكر كفافيس لصديق أنه قد تأثر كثيرا بالحرب فى البلقان (١٩١٢-١٩١٣)
عندما استعادت الدولة اليونانية أراضى الهيلينية القديمة من إيروس Epirus
ومقدونيا Macedonia ومن المدن تسالونيكى Thessaloniki (وهى مسقط رأس
كمال أتاتورك) ومدينة كىفالا Kavalla (مسقط رأس محمد على)، ولكن إلى أى
جانب اتجه، فعندما انقسمت اليونان بين قوى معسكر الملكيين ومعسكر فينزيلست
Veniselist غير المعروف، وأمام كارثة سميرونا كان صامتا، فيما عدا أصوات
الكتاب اليونانيين الذين يقصدون أنهم فقدوا سوقا لترويج مؤلفاتهم.

ولكن فى فبراير ١٩٢٢ كتب كفافيس ونشر قصيدة "أولئك الذى قاتلوا من
أجل عصابة الأخيون Achaean، والمقاطع الأخيرة منها مفعمة بالمرارة والمفارقة
المزدوجة :

أيها الشجعان الذين قاتلوا وقتلوا بشرف

لا تخافوا من أولئك الذين يظفرون بكل معركة

لا تثريب عليكم إن أخطأ دايابوس وكريتولاوس

فحينما يتباهى اليونانيون، يقولون

إنهم رجال من نسل شعبنا

هكذا يكون ثناؤهم

كتبه أخيون فى الإسكندرية

خلال السنة السابعة من عهد بطليموس لائروس.^(١٢٦)

وعصبة الأخيون، والتي يترجمها الجنرالات الجائرة دايابوس وكريتولاوس، هزمتها القوات الرومانية فى عام ١٤٦ قبل الميلاد، وحينئذ ضاع استقلال اليونان. أخيان، ربما كان محارباً قديماً فى معركة، يستعيد ذلك اليوم ولكنه أيضاً يتطلع للمستقبل الواعد. كتب السطور فى الإسكندرية وتاريخها بالطريقة التقليدية. غير أن لاثيروس Lathyros، أيضاً تحول ليكون جائراً: بعد نحو سنة أو سنتين بعد الذكرى السابعة لحكمه أجبرته الصراعات الأسرية على أن يهرب من الإسكندرية، بعيداً عن حصن ضد قوة روما عبر البحر، وقد اقترض نقوداً من الرومان ليستعيد عرشه، ويقرب اليوم الذى يمكن بطالمة مصر من استعادة حكمهم.

وهناك الذين رأوا تشابهاً مباشراً بين القصيدة وإخطار الكارثة فى أسيا الصغرى، قال عنها كفافيس بغضب وسخط شديد: إن قصيدته تصف البعد الداخلى، وذاكرتهم الحقيقية، ومشاعرهم وتداعياتها، وقضية أى لحظة ليست مرتبطة بالبعد المحلى ولكنها مرتبطة ببعدها العالمى الشامل. وبالمثل فهذا لا يعنى أن بيئة عصر كفافيس لم يُضمّنْها قصيدته التاريخية، ولكن يجب أن يدقق المرء فى الوطن أكثر من سميرنا، وخصوصاً حينما يكون منهما فى جعل مدينة الإسكندرية عاصمة عالمية وأنه نفسه رئيسها العبرى. إنه أمر ممتع، على سبيل المثال، لو أن أخيان حضر إلى الإسكندرية بعد هزيمة الرابطة، إذن فى السنة السابعة من حكم لاثيروس يكون قد عاش فى المدينة نحو سبع وثلاثين عاماً، كما عاد كفافيس إلى الإسكندرية فى عام ١٨٨٥، بعد قصفها: وفى عام ١٩٢٢ كان يستعيد ذكريات سبع وثلاثين سنة عاشها فى المدينة، وربما رأى أن مصير سميرنا يشبه المصير الحتمى لمدينة الإسكندرية.



شارع فؤاد. الحرب العالمية الأولى - فى مطلع العشرينيات. شارع رشيد أو
شارع فؤاد كما أصبح فى عام ١٩٢٢، أعقبه طريق كانوبى ولكنه كان أضيق
من الطريق القديم.

لم يكن كفافيس ينظر إلى سميرنا، بقدر ما كان يرى فى مدينة الإسكندرية
أن الجاليات الأجنبية بدأت حياتها فيها محصنة كما كانت فى عام ١٨٨٢، ولكن
البريطانيين حالياً، لم يُحضروا بنادقهم ليُشهروها، فقد بدا الأمر مختلفاً هذه المرة
تماماً. ومثل كل الأجانب الآخرين، كان محمد على هو الذى دعا اليونانيين للإقامة
فى مصر، وقد استفادوا من حماية الامتيازات والمصالح الأجنبية^(١٢٧) التى كانت
أساس القانون الدولى. ولكن فى مؤتمر باريس للسلام الذى عقد فى عام ١٩١٩
اعترضت بريطانيا باعتبار مصر شأنًا داخليًا، ومن ثم ازداد الاهتمام البريطانى
على اعتبار أن الامتيازات الأجنبية تتعرض لمضايقات سياسية ومن الناحية
الأخلاقية يصعب الدفاع عنها، وأُضيف إلى ذلك، طالما بقيت الامتيازات الأجنبية،

فإن العنصر الأجنبي في البلد قد ينشغل بالحصانة في مؤامرات مناوئة للبريطانيين. أما الوطنيون المصريون فهم مترددون: كانوا معارضين للأجانب أكثر من معارضتهم للوجود البريطاني، كما لم يكونوا مثلهذين على إلغاء الامتيازات الوطنية إن كان ذلك يعنى أن لبريطانيا الحق في تقوية نفسها، كما اقترح ميلنر، المسئول عن الجاليات الأجنبية. فلم يكن البريطانيون أحرارا في إلغاء الامتيازات، ضمن القانون الدولي واعتبروا ذلك أمرا يخضع للتفاوض والاتفاق بين كل قوى الامتيازات الوطنية، والأمريكان والإيطاليون وفرنسا على وجه الخصوص، في سعى حثيث على متابعة مصالحهم، لم يريدوا رؤية القوى البريطانية تزداد.

أما الحكومة اليونانية تحت رئاسة فينيزولوس، فقد اتخذت رأيا مخالفا، ومع ذلك فقد تورطت بتموحياتها واستقلالها في أسيا الصغرى واعتمدت على المساعدات البريطانية، وفي سبتمبر ١٩٢٠ وافقت من حيث المبدأ على تسليم حقوق امتيازاتها على مثل هذه الشروط وفي ذلك الوقت كما يقرر البريطانيون. ولكن بعد شهرين من خروج فينيزيلوس من الحكم سحبت بريطانيا دعمها المالي لليونان في مغامرتها في أسيا الصغرى وكان ذلك نذير شؤم لمستقبل الجالية اليونانية في مصر وفعلا تحققت مخاوف اليونانيين في الإسكندرية في مايو ١٩٢١ عندما اندلعت المظاهرات الوطنية واستمرت ثلاثة أيام.

اندلعت الاضطرابات في ضاحية حماميل Hamamil، وهي نفس الضاحية المجاورة التي يعيش فيها المصريون وفقراء الأوربيين جنوب ميدان محمد على في طول شارع الراهبات Rue de Soeurs هناك حيث بدأت أحداث عام ١٨٨٢. في ذلك الوقت لم يكن للبريطانيين رغبة في التدخل في البداية، ولكن عندما أرسلت قوة مؤلفة من ثلاث عربات مدرعة وثلاثمائة رجل - كثير منهم من موظفي المطبخ - وبمرور الوقت، استصدروا أمرا، نحو ثلاثة وأربعين مصريا، واتى عشر يونانيا وثلاثة

أوربيين آخرين قتلوا وكثير منهم جرح، ومائة محل، تسعين منها يمتلكها يونانيون، تم نهبها أو حرقها فصدرت صحيفة تاكيدروموس Tachidromos اليومية بالعنوان التالي: "قوضى وذعر في الإسكندرية- نبح الضحايا"

كان كفافيس يطالع الجريدة فقلب الصفحات إلى المقال الافتتاحي:

"لم تعد قضية ضحايا لثورة الجماهير المفاجئة، لننساها مع مرور الزمن مثل ضحايا الكوارث الطبيعية. وليست قضية تلف مواد يتم التعويض عنها، إنما هي قضية استمرار وجود الأوربيين في هذا البلد التي تعرضت لمشاعر جامحة، وغرائز السلب والنهب من السكان المحليين، مستعدين للتمرد الفوري لأى فرصة غوغائية أو عند أول إشارة من أولئك الموجودين فى السلطة. أمس فقدنا ما هو أغلى من دماء أصدقائنا اليونانيين وأغلى من ممتلكات تجارنا المتضررين، لقد فقدنا إيماننا فى المسمى (المصري) وفقدنا إيماننا فى السلطات الحقيقية (البريطانية) وفى تأكيدات حسن الضيافة التى يقدمها لنا السياسيون والوجهاء..

لم يكن للحكومة القدرة، حتى وإن كان لديها الرغبة فى حمايتنا، إن سلطة (بريطانيا) التى تحمى هذا البلد، تقف متفرجة وتجزى للحكومة بأن تعترف بعجزها فى الحفاظ على النظام لكى تتدخل وتحمى ذات المصالح التى تنتزع بحمايتها عند احتلال مصر فى المقام الأول! (١٢٨)

قام "مايكل سالفاجوس" رئيس الجالية اليونانية فى الإسكندرية بعد أيام قليلة من تلك القلاقل بالكتابة إلى "ألنبي" يشكره فيها على قيام قواته بالتدخل وإنقاذ حياة الآلاف ويعبر فيها عن الأمل فى أن تظل قوات جلالته الحصن الحصين لحياة المواطنين الأجانب وممتلكاتهم فى المستقبل، (١٢٩) وهو الأمل الذى لم يكن يشاطره فيه على نطاق واسع الكثير من اليونانيين.

وقعت هذه الأحداث بمجرد أن قام "فينزيلوس" بتقويض قضيته لبريطانيا، وشغلت هذه القضية أجواء الإسكندرية كثيرًا، بينما كتب "كفافيس" عن "بطليمسوس التاسع". تحرك "كفافيس" بسرعة غير معتادة وكتب بصراحة في اليومين الأولين من شهر فبراير ١٩٢٢ يقول: "هؤلاء هم الذين قاتلوا من أجل وحدة الأخيون"، أعلنت بريطانيا علانية ومن طرف واحد انتهاء الحماية البريطانية فى يوم ٢٨ فبراير، ولكن "النبى" كان قد قرر التوصية باتباع هذا المنهج، وهدد بتقديم استقالته إذا لم يتم تبني هذا المنهج، قال "جرافتى سميث": "كان تفكيره معروفًا للكثيرين"، (١٣٠) ونظرًا لعلاقة "كفافيس" الوثيقة بالكثيرين فمن المحتمل جدًا أنه كان من بين هؤلاء الذين يعرفون ذلك الأمر قبل إعلانه للعامة. كان اليونانيون وهم أكبر الجاليات الأجنبية فى مصر قد وضعوا أمنهم بين يدى بريطانيا، والآن ورغم أنها تحتفظ لنفسها بحق حماية الأجانب، فقد كانت تبدأ فى تفويض هذا الحق للمصريين، وبدا الشعور بالقلق على حياتهم يتسرب إلى الجاليات الأجنبية، لأنهم أصبحوا يتوقعون أنه فى أى مفاوضات مستقبلية مع المصريين فإن البريطانيين سيؤثرون التضحية بمصالح الجاليات الأجنبية والأقليات، إذا ما تنازل المصريون فى المقابل على تحفظاتهم عن نقطتين تعدهما بريطانيا ذات أهمية إستراتيجية حقيقية وهما الحفاظ على أمان طرق الاتصالات للإمبراطورية، والدفاع عن مصر ضد أى اعتداء أجنبى، كما كان يمكن أن يحدث حقًا فى عام ١٩٣٦.

كتب "وايتهيد موريس" فى جريدة الإسكندرية بمصر فى ديسمبر ١٩٢٢ يقول "هؤلاء الحمقى"، كما كتب "فورستر" موبخًا إياهم بعدها بثلاثة شهور: "أشك إذا ما كان الكتاب سيصدر منه طبعة ثانية، لن يُصدر، ولن تباع، والناشر لن يدع من هم ليسوا بائعى كتب يشترونها، ولن يتركوا بائعى الكتب أيضًا لشراؤها لأنهم

غير أمناء".^(١٣١) كان يعتقد أنه يعرف الكثير عن بائعي الكتب، كتب عن ذلك مؤخرًا إلى "لودليف" يقول: "دائمًا باستثناء السيد مان".^(١٣٢) وفي تعويض عن ذلك تم نشر كتاب "Pharos and pharillon" في إنجلترا في مايو مما أدى إلى تشجيع النقد الأدبي.

اجتذبت المقالة الخاصة عن "كفافيس" أنظار الكثيرين كما كان يأمل "فورستر"، فلقد كتب "ميدلتون موري" المحرر السابق لمجلة "أثنيوم" في الملحق الأدبي للتايمز يقول "لقد وجد فورستر مأواه الروحي في الإسكندرية، ولأنه شخصية مبهمة فإنه انطلق إلى مدينة مبهمة، ذلك الجزء المأهول من العالم حيث هنالك ميل واضح للجوانب الروحية، وحيث الطقس رائع بطريقة خارقة وتخالط واضح بين الطبقات، وعند هذه النقطة فإن تعقيدات محبوبة تميز التقارب بين العالمين، وتحاول أن توائم هذه الدوامة من التناقضات، إنه ليس أقل من تصدع في عالم الإنسان، يرتحل "فورستر" من أجل أن يستمع إليها، ووجد "كفافيس" مندمجًا هنالك بالفعل".^(١٣٣) كتب "فورستر" إلى "كفافيس" يقول: "تمضى المراجعة بشكل طيب،، وموخبًا إياه لأنه لم يقم بالرد على رسائله أو القيام بترجمة (valassopoulos)، أو القيام بإرسال المزيد من الأشعار قال معلقًا "أنت شاعر رديء"^(١٣٤)، وبنفس الدرجة التي كان "فورستر" يرغب بها في نشر أشعاره في الصحف، فإنه كان شغوفًا بنشرها كدواوين.

ولكنه عندما استمع كفافيس، أصبحت خطاباته تقريبًا تخلو من طابع دفء الصداقة، وبدلاً من ذلك أصبحت تعبيرات تتسم بالطابع الرسمي ومصطلحات الشكر المهذبة لمجهودات "فورستر" من أجله، كما لم تصله الترجمات المطلوبة أو كانت على فترات متقطعة وشحيحة. كما كان هناك على الجانب الآخر عدم رغبة "فالسوبوليس" في ترجمة أشعار الغزل والغرائز، على أن فورستر أدرك مؤخرًا

أن "كفافيس" كان ينظر للأمر بأعمق من ذلك. (١٣٥) حيث إن العمل الذي كان مطلوباً إنجازه كان من المستحيل أن يستكمله إبان حياته، كما أن "كفافيس" كان يرغب بالكاد في أن تُجمع أشعاره في إنجلترا خارج وطنه، عندما كان يظل يكتب ويرتب ويعيد ترتيب أصول كتاباته باليونانية في ضوء تطور خبراته.

ولكن القصة أيضاً بالنسبة لـ "فورستر" كانت لا تزال غير مكتملة حيث كان يحاول جاهداً ضد خيال "محمد" كان يقول له: إنك ميت يا محمد، أما "مورجان" (لقب فورستر) فهو حي ويفكر كثيراً في نفسه وفي القليل عنك في كل كلمة يكتبها، كنت تصرخ منادياً باسمي في محطة "بيبيت الحجر" بعد أن شاهدنا ذلك المعبود المتهم الذي يقع على بعد ميلين منها، والذي يبدو أن لا أحد رآه إلا نحن، كان الظلام يلف المكان وكنت أسمع مصرياً ينادى صديقه الذي فقدته صارخاً "مورجان..مورجان"...كنت تتاديني، وأحسست أننا ننتمي إلى بعضنا البعض، لقد جعلتني مصرياً". (١٣٦)

كان "فورستر" لا يزال يُجاهد مع قريحته لإكمال كتابه "طريق إلى الهند"، لا يشكو من أى تناقص في قريحته، ولكنه يقول "إن صبرى بدأ في النفاد مع عامة الناس" (١٣٧)، ينتابه الغضب لأنه لا يستطيع أن يجعل شخصياته تتصرف كما يريد لها هو باقتناع، في روايته "تهاية آل هوارد" أمكنه أن يجعل شخص روايته متحابين، وأن يندمج كل منهم في الآخر، الآن يشعر أن الشخصيات يتباعد بعضها عن بعض، يشعر أنها تتفسخ، الآن لا يستطيع أن يجعل شخصياته متماسكة، الجيشان الذي يحدث في المجتمع، وعلم النفس والطبيعة (كلهم في الوقت نفسه) من الكثرة بمكان على هذا النوع من فن الأدب الذي يفترض فيه قدر من الاستقرار في تلك العوامل جميعاً". (١٣٨)

ساعدته قراءته لكتابه "أعمدة الحكمة السبعة" فى الشهور الأخيرة من إعداد كتابه، كان قد التقى (ت. إ. لورانس) منذ عامين وذلك عندما دعاه "أنطونىوس" -وهو أحد موظفى القائد العربى "الأمير فيصل" أحد قواد الثورة العزبية ضد الأتراك- إلى الانضمام إلى ثلاثتهم لتناول طعام الغداء فى فندق بلندن، كان "فورستر" قد انبهر بشخصية "لورنس" حينئذ، والآن وبعد أن قرأ أعمدة الحكمة السبعة، فإنه وجد أن ميوله العاطفية تجاه الشرق قد ازدادت حدة خاصة من جراء العنف غير المحتمل السائد فى المنطقة^(١٣٩) فى هذه الحالة النفسية دفع الأمور نحو الانتهاء من روايته، ومثل شخصية "أنتونى" لدى "كفافيس"، ومحاولاته البائسة لجعل "محمد" يشعر بالتفسخ الذى أصبح يحيط به، فإنه قام بالانتهاء من "طريق إلى الهند"، بينما شخصيتا "عزيز" و"فيلدنج" يرددان صدى صرخات العالم لمشاعر الضياع والفشل:

"حتى لو اقتضى أن يستغرق الأمر خمسمائة عام سنقوم بالتخلص منكم، نعم سنقوم بإلقاء كل رجل إنجليزى ملعون فى البحر، ثم استدار بغضب وأردف قائلاً وهو يوجه له قبلة على الهواء وعندئذ سنصير أنا وأنت أصدقاء".

قال الآخر: "لماذا لا نصير الآن أصدقاء؟ وهو يمسك بيديه فى عطف هذا ما أرغب فيه، وهو أيضاً ما ترغب أنت فيه". ولكن الخيول لا تريد ذلك، إنها تتحرف مبتعدة عن بعضها البعض، الأرض لا تريد ذلك، وتقوم بوضع الصخور فى الطرق التى يمكن أن يمر منها أى طابور واحد، المعابد، صهريج المياه، السجن، القصر، الطيور، جثث الموتى، نُزل الضيوف الذى أصبح على مرمى البصر عندما خرجوا من الممر الضيق وبدأت لهم "ماو" موطن الغزل والنسيج تحتها، "إنهم لا يريدون ويريدونها معاً مئات الأصوات لا، كلا، وتردد السماء قائلة: لا، كلا، ليس هنالك".^(١٤٠)

كتب "فورستر" في يوم ٢١ يناير ١٩٢٤ "ليونارد وولف" يقول: "لقد كتبت الكلمات الأخيرة في روايتي والتي يجب أن أحيطك أنت و"فرجينيا" فقط علماً بهما، ولكن قبل كل شيء هنالك محمد والشلة" كان "فورستر" يملك قلمًا كتناكر كان قد تلقاه من محمد، وعندما انتهى من كتابة الكلمات الأخيرة: "لا، كلا، وتردد السماء قائلة لا، كلا، ليس هنالك"،^(١٤١) ألقى قلمه جانبًا، وأخذ القلم الرصاص الخاص بمحمد وخط في مذكراته أنه قد أكمل كتابه "طريق إلى الهند".

كتب بعدها بفترة في نفس العام لصديق له يقول: "إنني أشعر شعورًا عميقًا أن الناس يجب أن يبتعدوا عن بعضهم البعض من آن لآخر روحياً على الأقل، لتحسين علاقتهم أو تجربتها إذا أمكنها أن تصمد أمام الاختبار، "طريق إلى الهند" تصف كيف أن مثل هذا الابتعاد هو الحل المبدئي لتحسين العلاقة كمرحلة ثانية والتي أعجز عن وصفها".^(١٤٢)

تسلم "فورستر" في أوائل عام ١٩٢٨ خطابًا يدعو للأسف من "وايتهيد موريس" يخبره فيه أن النار شبت في المخزن وأن نسخ "كتاب الإسكندرية" التي بذلوا فيها جهدًا مضمينًا قد احترق منها ٢٤٦ نسخة من أصل ألف نسخة، ولكن لحسن الحظ، كما قيل، إن الكتب قد تم التأمين عليها، وتسلموا شيكًا بمبلغ سخي كتعويض.^(١٤٣) ولكن للمفاجأة، لم تكن هذه هي نهاية القصة كما يذكر "فورستر" مؤخرًا: "تسلمت بعدها خطابًا من الإسكندرية تحمل أخبارًا أكثر سوءًا، قيل إن الكتب لم تحترق على الإطلاق، فلقد كانت في قبو ونجت من النيران، وهذا كما يقول الناشر قد وضعهم في مأزق حرج، لأننا كنا قد تسلمنا مبلغ التأمين، ولذا تدبروا الأمر وقرروا أن المخرج الوحيد هو أن يقوموا بحرق الكتب عمدًا، وهذا ما فعلوه: كتاب "الإسكندرية: تاريخ ودليل إرشادي" تم إحراقه عن عمد، ولا أعلم مدى صحة هذه الرواية ولكنني متأكد أن دار النشر الحمقاء هذه تُعتبر جزءًا أصيلًا في هذه اللعبة".^(١٤٤)

ولذا فإنه يجب اعتبار النسخة التي أهداها "فورستر" إلى "ت.إ. لورانس" في يونيو ١٩٢٩ ذات قيمة نادرة، وكان ذلك قبل أيام قليلة من إبحار "فورستر" مع "آل بارجرز" في جولة بحرية حول رأس الرجاء الصالح متجهين إلى "إفريقيا الجنوبية" و"روديسيا" و"كينيا" ولشعوره بالفراغ في ذلك الوقت، سمح للأخبرين بإقناعه لمصاحبتهما في تلك الرحلة، ولكنه على الفور تقريباً شعر بالندم على قراره، كانت الرحلة قد تم تنظيمها بواسطة "الجمعية البريطانية"، التي كانت تضم عدة مئات من العلماء، سيشعر أنه ليس المكان المناسب له وتوقع أن يشاهد كل شيء، ألا يفهم شيئاً". (١٤٥)

كتب من "روديسيا" لصديق له وهو "سيباستيان سبروت" وهو رجل جامعي ووجهه مألوف في "جارسينجتون"، وواحد من محبي "ماينارد كينينز" يقول "إن علاقتي بـ"فلورنس بيرجر" هي علاقة شذوذ، ولقد أخبرتها عن كل شيء عن نفسي وحتى عام ١٩٢١، مثلاً في العام الذي توفي فيه "محمد" فعلت شيئاً باقياً ويستحق الاحترام من هذا الحدث، الذي ستفسده علاقات جديدة" (١٤٦) وبعيداً عن تحريف تاريخ وفاة "محمد" التي كانت تضطرم في ذهنه، فإنه كان يأتمن "فلورنس بيرجر" بخصوص مشاعره تجاه "محمد" وحتى نهاية عام ١٩٢٦ على الأقل عندما أخبرها: "عندما كنت أعيد قراءة خطابات "محمد" اليوم والأخيرة منها وجدتها تفيض عاطفة وعمقاً عن خطابه الأولى، منحتني الكثير من الاطمئنان، أنا أعرف أنني قمت بالتقليل من مخاوفه التي أهداها في أيامه الأخيرة، ولكنني لم أدرك كيف كان يفهم ذلك أيضاً". (١٤٧)

كان "فورستر" يجيد عدم رؤية ما هو واضح عندما يجد ذلك مريحاً، وعدم الدقة في ملاحظاته التي أهداها إلى "سيباستيان سبروت" أسهمت في إخفاء أن "فورستر" نفسه هو الذي فعل شيئاً باقياً ويستحق الاحترام" بعيداً عن علاقته

بمحمد، والآن يريد أن يبرئ نفسه، ولكن على وجه الدقة لأنه ولفترة طويلة وبطريقة مطلقة كان يشارك كلا من "محمد" و"فلورانس"، فإنه كان يشعر أنها عائق أمامه. وكانت هي كالألم بالنسبة له، على الرغم من ذلك بينما هي معه وهما يترجلان من الترام في الإسكندرية في ذلك اليوم من منتصف شهر سبتمبر ضالا الطريق على الفور لأن محطة الترام كان قد تم تغييرها.

وجد "فورستر" في غضون السنوات الست ونصف التي مرت منذ آخر زيارة له للإسكندرية، أنها قد تطورت كثيرا، هناك الكثير من المباني الجديدة، ومستوى المعيشة ارتفع بوجه عام، ولكن هذا التطور لم يغير من شخصية المدينة^(١٤٨) كانت رحلته حول إفريقيا قد أصابته بالإحباط، كما كتب يقول لـ"جو أكيرلي" مؤلف كتاب "إجازة في الهند" لأن "معظم الشعوب الإفريقية يبدو ببساطة نوى قلوب منكسرة، فإنهم يهيمنون على وجوههم كما لو كانت حياتهم ضائعة، فالتجارة والمسيحية أنهكتهم تماما".^(١٤٩)

وعلى العكس من ذلك، فإن مصر بعد الاحتلال البريطاني مذهشة وأجمل وأكثر إمتاعا مما نتخيله".^(١٥٠) وجعلته هذه التجربة يشعر كأنه عاد إلى ريعان شبابه، قضى في الإسكندرية حوالى الأسبوع ضيفا على "فالييسبوليس" في الحى اليونانى، وتوجه إلى "كفافيس" في "روو لوبسوس"، كتب له "كفافيس" بعدها بفترة قصيرة يقول: "كانت إقامتك هنا قصيرة جدا، والساعات التي قضيناها معا كانت قليلة جدا، كانت صداقتنا تحتاج إلى أكثر من ذلك، وعلى الأقل استطعت خلال تلك السويغات القليلة أن أعبر لك عن إعجابى الشديد لذلك الكتاب الجميل "طريق إلى الهند"، وشرح أسباب إعجابى به، لقد أصبحوا جميعا رفاقي منذ عام ١٩٢٤ "مس موور"، و"فيلدينج"، و"عزيز"، و"عديله هيلسلوب"، و"آل ناواب باهدور"، و"آل ماكبرايد" (أسماء شخصيات الرواية - المترجم).^(١٥١)

كان جل همه من زيارة الإسكندرية، ورحلته التى دار فيها حول إفريقيا، هو أن يقوم بإبعاد شبح روح محمد، ويرفقه "فلورنس" استقلاً تـرام "باكوس" إلى حجرة محمد التى كان يطلق عليها "منزل البؤس". وعند عودته إلى إنجلترا بعد ثلاثة أشهر قام بفتح الأجنحة التى كان يكتب بها رسالته لمحمد وأخذ يكتب مخاطباً محمداً للمرة الأخيرة:

"هذا الخطاب سأستكمله الليلة، والذي بدأت فى كتابته منذ أكثر من سبع سنوات، فى الوقت الذى قمت فيه بتذيل الخطاب بتوقيعى، عاهدتك ألا أعود إلى مصر مطلقاً بعد موتك، ولم يرق لك هذا العهد، ولذا فإننى خالفت هذا العهد وأخذت "فلورنس" بصحبتي لزيارة "منزل البؤس"، فلا يزال قائماً، وإعادة البناء حوله ما زالت مستمرة، ولكن الذى لم أتذكره أنه كانت هنالك شجرة كبيرة مزهرة فى الحديقة التى تقع خلفها (زهورها من نوع مجد الصباح)، لقد سعدت بعودتي للإسكندرية، لقد كنت سعيداً هناك، ودائماً ما كنت أفكر فيه، بينما لا أفعل ذلك لشهور عديدة هنا، وحتى عندما ألبس الخاتم الخاص بك. لقد غرقت فى الهوى العظيم، أنا أعرف أنك لابد أو لا تزال تسألنى عن رأيى فى المصريين، الشكل هنا، انحناء الرأس هنالك، يبدو لى عندما أتذكر الماضى أنك لم تكن متمسكاً بى بعمق، مبهوراً ومجماً فى البداية، ثم شاعراً بالامتنان بعد ذلك، وهذا هو كل ما هنالك، ولكن إذا ما كنت مخطئاً، وإذا كان المحبون يلتقون بعد الموت، ويستمرّون فى حبهم، فإننى أنهيت ٥١ عاماً من عمرى ولا يمكننى أن أحب أحداً مثل ذلك الحب، وإذا كانت هنالك ترتيبات بعيدة الاحتمال للسعادة الشخصية الخالدة، فإننى أفضل أن أنقاسمها معك، ليس لى إحساس بأن أحداً ما أو أنك تنتظرنى، ولا أعبأ بالحب أكثر مما سبق أن مرّ بى، احتياجاتى لهذه اللحظة هى الشهوة والصدقة، وأفضل أن تكون متجهة لنفس الشخص وإن لم يكن بالضرورة، إنها الفرصة فقط الفرصة الضعيفة: لا زلت قادراً على الكتابة "إليك" بدلاً من "إليه"، وغداً تنضم إلى

تمامًا، أنا أعتقد أنني سأرتدى خاتمك الليلة، لقد أحببتك، وإذا ما قُدر للحب أن يكون خالداً فسوف أبدأ مرة أخرى، وليس عليك فقط إلا أن تشير، لقد اعتراني الكثير من التغيير حتى إنه لا يمكنني التعرف عليك، وأنا واثق من ذلك تماماً، يقع على عاتقك فقط أن تبدأ في حبي وأن تتق في ذلك، لقد تغير الكثير بالنسبة لي بحيث لا يمكنني التعرف عليك، وأنا واثق تماماً أنني لن أفكر فيك عندما أموت، كنت أعرف من البداية أنني لن أكون سعيداً في مصر في هذا الخريف، ولكن من أجلك فقط رحلت إلى الإسكندرية.

إلى محمد العدل

حبي

مورجان ٢٧ ديسمبر ١٩٢٩ (١٥٢)

قابل "فورستر" رجل بوليس يدعى "بوب بكنجهام" بعدها بأربعة أشهر، وبعد أحداث عاصفة في البداية مع زوجته، تعاهد الثلاثة على حياة متبادلة مع بعضهم البعض وللأبد. توفي "فورستر" في منزلهم في عام ١٩٧٠.

في نفس الوقت لم تتذكر ذكريات محمد، كتب "فورستر" لصديق له في عام ١٩٥٨- على الرغم من أنه لم يكن يعرف حينئذ- أنه سيكون كاتب سير ذاتية في المستقبل كتب يقول: "أنا أقوم بالتخلص من بعض الخطابات، أو أقوم بإعادة تنظيمها، عثرت على تلك التي تخص "محمد العدل"، لعلي لم أذكر لك اسمه، لقد كان محصلاً في الترام قابلته في الإسكندرية في الفترة ١٩١٧-١٩١٩، ثم مرة أخرى في عام ١٩٢٢ قبل وفاته مباشرة، إنني أفترض أن الخطابات لا تعني الكثير، ولكن كنت أنتوى إلقاء نظرة عليها قبل تمزيقها، ولكنني ذهلت من أن كل الأشياء التي كنت أعشقها تومض من هذه الخطابات، لقد منحتني مشاعر مذهلة،

كان من حسن حظي أن عايشتها، بقرب عدد هذه الخطابات من مائة خطاب، لقد كنت شخصاً مزعجاً لدرجة بغیضة لواحد أو اثنين من أصدقائي في تلك الفترة، ولا عجب في ذلك، وإذا حدثتكَ عنه، فليس عليك على أي حال أن تجد له عملاً^(١٥٣).

وبعد ذلك بخمس سنوات كتب عن قصد إلى مؤرخ سير ذاتية "ويليام بولمر" يقول: "محمد العدل حدث عظيم مر بحياتي، أظن أن القصاصات الورقية الباقية والتي تخص علاقتنا موجودة في صندوق مع بعض الذكريات الأخرى التي تخصه وتقتصر عن وصفه، ومعها بعض أشعار الرثاء، ومع استثناء واحد وضخم، إنه كان أعظم شيء في حياتي".^(١٥٤)

ولكن قبل ذلك بفترة كبيرة وفي عام ١٩٣٦، وأثناء أوج عظمة المدينة العالمية "الإسكندرية"، عاوت أشباح المدينة نشاطها بواسطة شخص كريمة وهو قانوني من فيلادلفيا. كتب "فورستر" بحماس إلى "ليونارد وولف" في يوم ٢٤ مايو من ذلك العام يقول: "إن الدليل الإرشادي الذي وضعته يتم إعادة طباعته، شرعت جمعية الآثار المحلية في ذلك، يكتب لي قاض أمريكي يدعى جاسبار ج. ب. (هكذا جاء اسمه) دائماً وهو مدقق ولبق ويبدو أنه على كفاءة: أن "برنتون" - وهو لسوء الحظ رئيس الجمعية الإيطالية - يقف بعناد ضد "فورستر"؛ حيث إن هناك دليلاً آخر تم إعداده عن طريق شخص إيطالي موجود بالفعل، انتقل النزاع إلى المجلس المحلي، حيث انتصر الجانب الأنجلو-سكسوني وحلفاؤه بجدارة، وقضى المجلس المحلي بأغلبية الأصوات لصالحه بمبلغ ثلاثمائة جنيه مصاريف، ولكن القاضي "جاسبار ج. ب." لم يهدأ له بال، واتجه إلى المكتب السياحي الذي تم تأسيسه حديثاً وأخذ وعداً من البك المسئول بزيادة مبلغ ١٠٠ جنيه، وساعتها أحس "وايتهيد موريس" بالنشوة.

الفصل الرابع

مجتمع الرفاهية : تاريخ ودليل

لقد كانت مدينة أوروبية حقيقية، مليئة بالثقافة والفن والموسيقى. فأننا لا
أرغب في الدخول في مناقشة مع هذا السيد [لورانس دوريل]، ولكنني أعتقد أنه
على جانب كبير من الخطأ في وصفه لها بأنها مدينة متدهورة؛ فلقد كان شعبها
أرستقراطيًا مهذبًا تمامًا مثل مجتمع فيلادلفيا الرائع.

(مقابلة صحفية مع جاسبر يتس برينتون من أجل صحيفة فيلادلفيا بوليتين
عام^(١) ١٩٧٢)

لقد كانت حكاية فورستر الساخرة والتي رواها إلى ليونارد وولف حول
"السجال الشديد و"النضال" بين الأنجلو ساكسون والإيطاليين حول إعادة نشر كتاب
الإسكندرية وراء التشويه التام للحقائق، ولقد أدرك فورستر هذا بشكل كاف. ولقد
ترأس الأمريكي جاسبر برينتون جمعية الآثار الملكية للإسكندرية، وكان جده
بريطانيًا، في حين أنه لم يشغل أى إيطالي من قبل مركز الرئاسة. فلم يعتل
الإيطاليون مركزًا مرموقًا سوى أخيل أدريان الذى خلف إفاريسو بريكسيا فى
منصبه مديرا للمتحف الرومانى اليونانى منذ عام ١٩٣٢، وكان أيضا عضواً فى
الجمعية التى طالما تحدث عنها من أجل "الإسكندرية المحاذية لمصر" الخاص
ببريكسيا، ولكن إذا كان قد فعل، فقد سوى برينتون الأمر قبل الكتابة إلى فورستر،
فإن الصعوبات الفعلية تقع مع وايتهيد موريس.

قبل عام ١٩٣٥، عندما تسأل القاضي جاسبر برينتون بخفة إلى مكتب رئيس جمعية الآثار، كاد يصبح أمراً جليلاً فقد كان النشاط الرئيسى لواحدة من المنظمات المخدرة نومه هو نشر مجلة سنوية. لقد كانت هناك احتمالات كبيرة لتوسيع النشاطات، وقررت أنا نفخ حياة جديدة فى جسد قديم^(٢). وكانت أحد أعماله الأولى الكتابة إلى فورستر فى ٢٧ ديسمبر من هذا العام مقترحاً إعادة نشر تاريخه ودليله، ولكن الإجابة تأخرت. لقد كان فورستر فى دار رعاية يتعافى من عملية البروستاتة التى اعتقد أنها قد تقتله. وأجاب فى ٥ فبراير ١٩٣٦، عندما كان على وشك أن يصبح تحت وطأة السكين مرة أخرى، معترفاً عن التأخير ولكن كان مليئاً بالحماس.

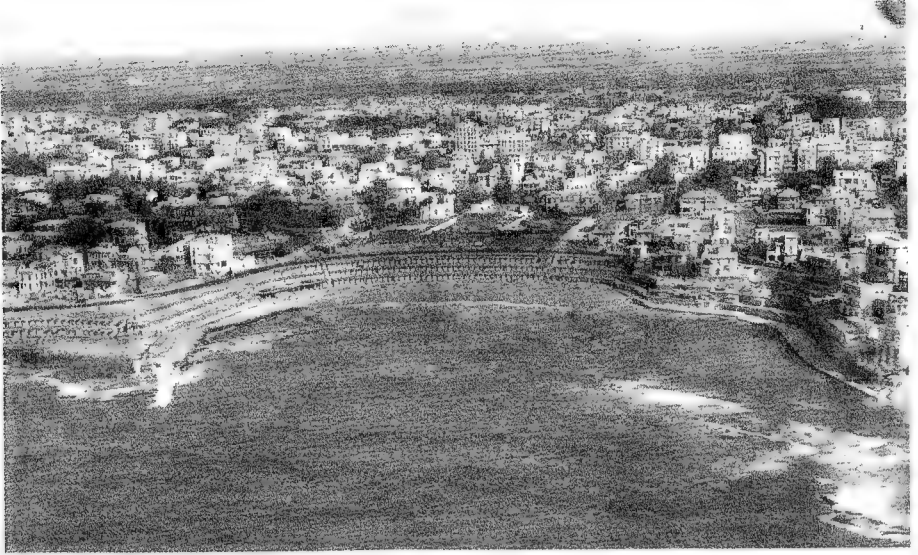
وفى الحال، أوضح برينتون الأمر أمام وايتهد موريس قائلاً إذا قاموا بإعادة طبع الدليل، سوف تأخذ جمعية الآثار خمسمائة نسخة، ولكنهم أجابوا تجربتنا السابقة فى بيع هذه النسخ لا تجعلنا نبرر لأنفسنا تخصيص أى أموال لها فى الوقت الحاضر^(٣). ولقد بين برينتون الجريء طرق تمويل الكتاب، وقبل بداية شهر مايو، كان قد أقنع مكتب السياحة بأن عليه دفع مبلغ قدره ١٠٠ جنيه مصرى مقابل خمسمائة نسخة، مما جعل الطبع يصل إلى إجمالى ١٠٠٠ نسخة. وفى غضون ذلك، بدأ برينتون فى تجنيد بعض الأصدقاء لتحديث الكتاب، وطلب من مؤلفه الموافقة على ذلك، ولكنه تلقى شكراً من بوب باكينجهام قائلاً إن فورستر "يتعافى من عملية خطيرة" ولكنه سوف يرد على ذلك قريباً^(٤) وفى نهاية الأمر فى ٢٤ مارس، أصبح فورستر بصحة جيدة بشكل كافٍ للرد على خطابيك اللطيفين "بالموافقة"^(٥)، سعيد لترك برينتون فى مواجهة الأمر برمته، مما يجعل ذلك شبيهاً بفخ إسكندرى.

لقد كانت هناك أمور أخرى تشغل بال فورستر. فخلال أشهر من اعتلاء هتلر السلطة في عام ١٩٣٣، انسحبت ألمانيا من عصبة الأمم وباشرت برنامجا ضخما لإعادة التسليح. ثم قام موسيليني بغزو أثيوبيا في أكتوبر عام ١٩٣٥. والآن في بداية مارس لعام ١٩٣٦، قام هتلر بتحريك قواته إلى منطقة الراينلاند المنزوعة السلاح. وبعد مرور ثلاثة أيام من منح الموافقة لبرينتون، كتب فورستر إلى ليونارد وولف، الذي سمع منه أن هناك البعض من الموجودين في دائرته يتحدثون عن فرار إنجلترا في حالة التهديد بوقوع حرب أخرى. قال فورستر لـ وولف إن "هناك أمورًا مختلفة لا يمكن إزالتها من إنجلترا تجذبني إليها، ولهذا لم أستطع فصل نفسي عنها قط، ولكن لو كنت متزوجًا أو كان لدى أطفال لأنقذهم، أعتقد أنني كنت سوف أفكر في هذا بلا شك" (٦).

من بين الأشياء التي منعتة كانت أمه وبوب باكينجهام، في تفانيه إلى ما اعتقده بشكل مميز أنه الحل لأزمة أكبر، وهي الكتابة في مجلة السبكتيتور في نوفمبر عام ١٩٣٥، "الرغبة في تكريس المرء نفسه لشخص أو أشخاص آخرين يعد أمرًا فطريًا كالرغبة في الحرية الشخصية. وإذا استطعنا الدمج بين الرغبتين، سوف نجد اختفاء خطر الحرية من الداخل، وهو الخطر الأساسي، وسوف يُنتزع السم من الشرور السياسية التي تملأ الآن الجزء الأمامي من حياتنا، فهذا السم هو الذي يغذى هذه الشرور... فهناك الجمهورية المحبوبة لنحلم بشأنها والعمل من أجلها، فنحلم بحكومة أفضل، تلك التي بدت ذات مرة أنها تتقدم على عجالات مشحمة، فهي مدينة الله" (٧).

بدأ العمل على مراجعة دليل فورستر فى ربيع عام ١٩٣٦، عندما قدم صديقان لبرينتون، وهما أنتونى دى كوسون وجى. إم (جون) مارشال، وكلاهما عضو فى جمعية الآثار، تسعة وعشرين صفحة مكتوبة على الآلة الكاتبة تعليقا على الطبعة الأولى. وكانت التعليقات على كتاب "الصحراء الغربية" تخص دى كوسون، الذى كان مديرا لسكك حديد الصحراء، مثل التعليقات المحتملة على المنتره وشرق الروسيئا. ولكن من الواضح أن الملاحظات على الإسكندرية نفسها من عمل مارشال كاملة. فلقد قام برينتون بوصف المارشال إلى فورستر " بأنه يبدو أكثر أو أقل من مصرفى متقاعد خجول، فله علم عظيم بتاريخ الإسكندرية وطبوغرافيتها^(٨)".

كتب فورستر، أفترض أن تعليق مارشال بدأ منذ عام ١٩١٩ إلى ١٩٢٠^(٩). ومنذ ذلك الحين، تزايد عدد سكان الإسكندرية كثيرا، وبشكل طبيعى أصبح هناك حاجة إلى قدر عظيم من المبانى لإيواء الوافدين". ولم يقتصر الأمر فقط على امتلاء أماكن خالية كثيرة، ولكن تم إنشاء بلوكات سكنية كثيرة فى كل من المدينة الرملية، والكثير من المنازل المستقلة، مما أدى إلى نقص عدد الحراس فى الرملة وكان هذا أمرا طبيعيا". ولقد تم الآن البناء فوق تل أبو النواطير بشكل كبير وتم تجفيف بحيرة الحدره بينما تم تخريب ما يحاذى قناة المحمودية، وقد كانت قديمة بالفعل فى زمن فورستر، وكانت عبارة عن منازل متهدمة أو بالية على أقل تقدير وحدائق مهملة، ويوجد الآن مكانها مصانع ومخازن، وبسبب الطريق أصبحت المنطقة هى الحى الصناعى الرئيسى فى الإسكندرية".



خليج ستانلى فى الثلاثينيات. فى بداية الثلاثينيات، تم استبدال بأكوخ الشاطئ الموسمية فى خليج ستانلى صفوف من الصناديق الإسمنتية، وتزامن هذا التحول مع مد الكورنيش من الميناء الشرقى على طول الطريق من خلال الرملة.

إذا كانت الإسكندرية تغيرت كثيراً خلال الخمسة عشر عاماً السابقة أو نحو ذلك، "فإن هذا التغيير لا يعد شيئاً بالمقارنة مع تحول الرملة، وحتماً فمن الصعب على الشخص الذى لم يرها طوال هذه المدة أن يشكل أى صورة عن شكلها اليوم". لقد أسهمت السيارات والأتوبيسات وعادات "الاستحمام لمدة طويلة" فى التغيرات. ولقد تم تعزيز دورها من خلال بناء طريق الكورنيش الجديد المواجه للبحر المتوسط وعلى امتداد اثنى عشر ميلاً من جهة الميناء الشرقى وحتى المنتزه. وذكر فورستر أن الطريق بعيد عن القنصلية الإيطالية "الشواطئ الساحلية المكشوفة والخالية من أى مبان حول منحى الشاطئ"، "إلا أنه توجد بعض المباني التى شيدت على الطراز المعماري لمدينة البندقية، وعلى الجانب الآخر يظهر فندق

سيسيل، وفي الحقيقة، وعلى طول الامتداد الكامل للميناء الشرقي أقيمت مبان غاية في الجمال. "من ناحية سلسلة Silsileh للأمام باتجاه بين البحر وطريق الكورنيش، فيما عدا بعض الأماكن البسيطة حيث الصخور تتراص في صفوف لكبانن الاغتسال. ولقد قامت البلدية بتحديث خليج ستانلي كاملاً. وتعد الآن مدرجاً من سلسلة من المدرجات الخرسانية، والتي يوضع عليها صفوف من صناديق الاغتسال القياسية المدهونة بألوان مناسبة من الأخضر والأبيض. لا أعرف كم من المئات (أو الآلاف) من الصناديق الموجودة في خليج ستانلي وحده، بينما يوجد هنا وفي أي مكان آخر على طول الكورنيش "المطاعم والمقاهي والنوادي الليلية". تقريباً في كل مكان عبر مارشال عن بعض الحقيقة مصححاً الوصف الطبيعي. ويوافق فورستر على التغيير ببساطة بكتابة "نعم" (١٠) في هامش ملاحظات مارشال. ولكن عندما تصبح النقطة إحدى النقاط التاريخية، كان فورستر دائم المقاومة تقريباً. وتساءل مارشال، "هل كان كاليماخوس أمين مكتبة في يوم من الأيام؟" مشيراً إلى ورقة بردي، وتلك التي "يبدو أنها أكدت بلا شك أنه لم يكن كاليماخوس أمين مكتبة في يوم من الأيام" وقد كتب فورستر مقابلها "لا"، مما يعني أنه لن يسمح بأي تغيير، بالرغم من أنه في ذلك الأمر كان مخطئاً بلا شك تقريباً.

ولم يغير فورستر موقفه عندما أتى الأمر إلى مسجد النبي دانيال الذي يقول إنه يقع في موقع "مقبرة الإسكندر" بالرغم من أنه لم يتم استكشاف الأقبية، وهناك قصة مشهورة بأن قبر الإسكندر في إحداها سليم. والآن مع وجود مارشال يخبره بأن بريكسيا استكشفت بعد ذلك الأقبية، ولكن "لسوء الحظ بلا نتيجة"، قام فورستر بالإبلاغ عن نتيجة بحث بريكسيا ولكن وبالرغم من ذلك كرر كلاً من القصة الشائعة وتأكيد البسيط بأن المسجد يميز مكان دفن الإسكندر. وفي حالة استثنائية

نادرة، سمح فورستر بتغيير تاريخ الحوايط العربية الذى حدده ٨١١ ميلادياً ليصبح عام ٨٨١، عندما أوضح مارشال أن فورستر حصل على تاريخه من بيدىكر الذى استخدم بدوره، كما اكتشف مارشال، خريطة ألمانية مرسومة للمدينة القديمة، والموجود منها نسخة فى المتحف اليونانى الرومانى، ولكنه أخطأ فى طباعة التاريخ. فكتب فورستر فى الهامش "تغير من ٨١١ إلى ٨٨١، أعتقد أن بيدىكر أوقع بي!".

وأوضح فورستر نفسه فى خطاب إلى بريثتون. فيما يتعلق بالتصحيات الطبيعية "أنى أقبلها جميعاً- مشروطاً فقط عدم استخدام أسلوب إيداء الرأى". وبالنسبة للتصحيات التاريخية، "بعد شيء من التفكير أرفضها جميعاً تقريباً، ويجب التماس العذر لموقفى. ويجب ألا يعتقد السيد مارشال والآخرين الذين يقومون بالمساعدة أن هذا ناشئ عن فظاظة أو غرور! فلم أدع أننى عالم وأعرف كيف أن عملى محدود بالنسبة للكتاب. إننى متأكد من أنه مليء بالأخطاء. وفى نفس الوقت، يجب إصداره مرة أخرى باسمى ولا أتوقع أننى أقبل أمراً لم أتتحقق منه شخصياً. ويجب أن أقوم بفحص المراجع التى اعتمدت عليها التصحيات التاريخية، والمراجع المنافسة فى حالات كثيرة أيضاً، ولكننى لا أتمتع بالصحة ولا الوقت الكافى للقيام بذلك^(١١)".

ومع ذلك فلا يبدو أن الأمر اقتصر على ذلك فحسب. "دخل عمرو فى العام التالى منتصراً... فقد تم تخريب القليل إلى هذا الحد^(١٢)، وكتب مارشال مقتبساً شرح فورستر لفتح العرب للمدينة، ومن ثم علق قائلاً، "يبدو أن هذا مستحيل تصديقه. فمذ احتلال الرومان، تم اعتصار مصر بكل الطرق الممكنة: وجميع الأموال التى تم استخراجها من الدولة وجميع الحبوب التى تم إرسالها إلى روما والقسطنطينية كانت تمثل خسارة بكل ما فى الكلمة من معنى، حيث إنها كانت

تذهب إلى الخارج بدون أى عائد: ونتيجة لذلك، كان فلاحو ذلك العصر فى حالة بائسة. وبعيدًا عن ذلك، كانت الإسكندرية مسرح الثورات الدائمة وعمليات الشغب: ولقد تدمر البروخيون [الحى الملكى] من قبل أوريليان أثناء إخماد إحدى الثورات والمدينة بأكملها من قبل ديوكلتيانوس، جزءًا ثلّو الآخر. وكان أيضًا ثمة نزاع مستمر بين المسيحيين واليهود أو بين المسيحيين والوثنيين أو بين المسيحيين وبعضهم. إننا نعرف أنه تم بناء الكنائس على أطلال معبد السيرابيوم ومعبد قيصر، ومن المحتمل أن هذين المعبدين تم تدميرهما بدورهما من قبل الفارسيين. وكما أتخيل فالوصف فى النص يعتمد بصفة أساسية على بلتر، ولكن بلتر... سمح لنفسه بأن تجرفه العاطفة بقصص المؤرخين العرب ويناقض ما كتبه فى أجزاء أخرى من كتابه. فالإسكندرية، حتى لو كانت أطلالًا، ينبغى أن تصبح منظرًا رائعًا غير مفاجئ لعرب الصحراء، ولكن من المحتمل أكثر أن يكون بريكسيا على صواب فى قوله، "بالرغم من التعاقب المتواصل للكوارث، فمازالت المدنية تحتفظ بآثار عظيمة غابرة. ومهما تكن الظروف، يتحدث المؤرخون العرب عنها بحماس". ووفقًا لوجهة النظر هذه، لا يمكن اتهام العرب بتدمير الإسكندرية، فقد كانوا "كالطفل وهو يشاهد". لقد اكتمل أكثر من نصف التدمير^(١٣). وقد دون فورستر فى الهامش بشأنها "لا".

لا، لأن فورستر كان أقل اهتمامًا فى تعقب مجرى الأحداث الخارجية من اهتمامه بوصف الدراما الداخلية للحضارة. فكما قال فى كتابه، تم تطوير الأدب الذى تطور فى المتحف "عندما انتهى العصر الملحمى لليونان، وعندما فقدت الحرية ومن المحتمل الشرف أيضًا"، ولكنه يتمتع بقوة من نوعها، حيث إنه رأى أن هناك ثلاثة أمور جيدة متبقية تَبْتَقُ من حطام الأمال التقليدية، أى السطح

المزخرف للكون وبهجة الدراسة وفرحة الحب، وكان الحب أفضل ما فى ثلاثة الأمور هذه^(١٤). وفى هذا الدليل، جعل فورستر فكرة الحب تستمر عن طريق أفلوطين^(١٥) وغنوصى^(١٦) والمسيحيين الأوائل - كان على وشك أن يكرر فى الطبعة الثانية "الإسلام، قوى عن طريق تخليه عن الحب"^(١٧).

ختم فورستر كتابه مشيراً إليه فى ذلك - "إنه يرجع إلى أقدمهم وهى اليونان، حيث إنها تمتلك هذه الثقافة الحديثة كما يجب أن توجد فيها"^(١٨) - وعلق على ذلك فى حدة قائلاً "لا أوافق على الإطلاق" وترك فورستر الهامش خالياً.

قام برينتون وأصدقائه بتحديث المدينة طبيعياً، ولكن أكثر من ذلك تغير منذ رحلة فورستر إلى الهند فى يناير عام ١٩٢٢، عندما رأى محمداً فى مصر آخر مرة^(١٩).

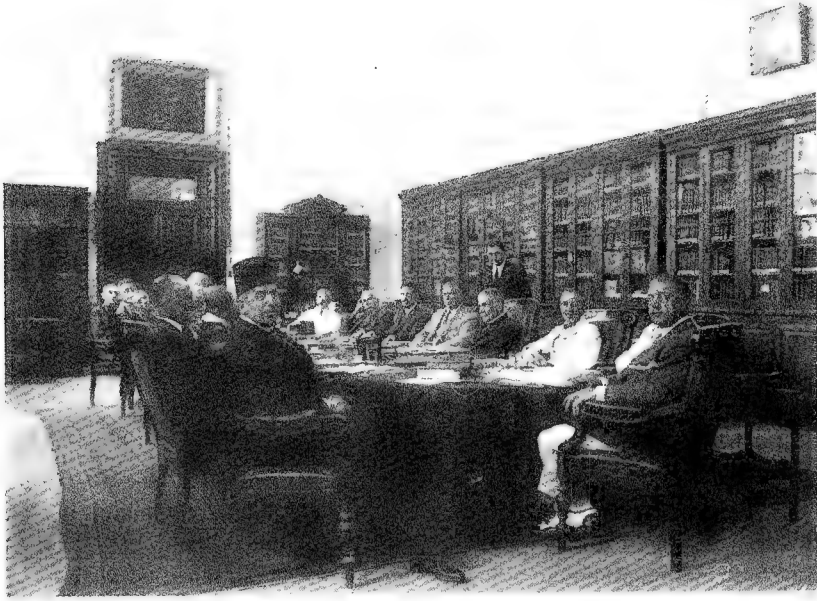
فى الصباح الباكر فى أحد أيام الشتاء قبل فترة قصيرة من عيد الميلاد لعام ١٩٢١، رأى جاسبر برينتون لأول مرة الخط الأبيض المنخفض للساحل المصرى يظهر فى الأفق. إنه على وشك رؤية نفس المشهد مرات كثيرة فى الأعوام التالية ودائماً يجتاحه شعور متزايد سار بالعودة إلى الوطن. ولكن الآن بينما تتجاوز سفينته المنارة وحاجز الأمواج وصولاً إلى الميناء الغربى وبعد الواجهة الطويلة للقصر الملكى فى رأس التين، رأى أمامه فى البانوراما الفاتنة للإسكندرية غرابية مستقبل مجهول فقط.

خلال لحظات من السحب بمحاذاة رصيف الميناء العاصف، كانت هناك مجموعة من الحمالين والمتطفلين، وقام مبعوثون يتحدثون الفرنسية ويرتدون زياً رسمياً أزرق اللون وطرابيش حمراء بتقديم أنفسهم عند قمرته بخطاب من سكرتير

المحاكم المختلطة قائلين إنهم فى خدمته، بينما تولى شخص ضخم يرتدى زياً رسمياً أصفر أمر متعلقاته. وفى جو مفعم بالسلطة، قادوه بنشاط خلال صالة الجمارك وواصلوا طريقهم على نحو مهيب إلى المدينة، وتوقفوا بينما كان يختار فندقاً يطل على المسطح المائى حيث يستطيع ابنه الصغير الاستمتاع بالصيد. حينئذ قادوا برينتون إلى مبنى مهيب يطل على ميدان محمد على. ولقد رأى فوق الأعمدة الجرائيية المؤطرة لمدخله النقش المكتوب باللغة الإيطالية والفرنسية والعربية "قصر العدالة" ويعلو ذلك شعار باللغة العربية "العدل أساس الدولة" (الحكم) (٢٠).

وصل برينتون إلى محكمة الاستئناف بالمحاكم المختلطة، حيث تم تقديمه وهو مرتد شارة المكتب، وهو وشاح من الحرير الأخضر المطرز باللون الذهبى والملحق به ميدالية ذهبية ومناسبة لزيه الرسمى، وهو سترة تصل إلى الركبة مرتفعة الياقة وطربوش أحمر. وفكر فى نفسه قائلاً سوف أخدم هنا لعامين أو ثلاثة أعوام قائمة: فالخدمة العامة والاستقامة الأخلاقية هما شعار عائلته، ولكنه اتجه إلى الإسكندرية لفترة وجيزة للهروب من مفهوم فيلادلفيا عن الخدمة العامة والاستقامة الأخلاقية.

ولد جاسبر يتس برينتون منذ ثلاثة وأربعين عاماً فى عائلة من فيلادلفيا ترجع جذورها إلى ماضى أمريكا الاستعماري. لقد أسس أحد الأسلاف جامعة بنسلفانيا بناءً على طلب بنجامين فرانكلين وأصبح أول موظف إدارى كبير له، وشغل آخرون أنفسهم بالقانون والطب والوزارة. ومن جيل لآخر، يكتب الأبناء فضائل الآباء فى إنجيل العائلة، ولقد كتب والد برينتون بدوره قائلاً: "لقد عاش حياة نقية كما رغب، ومات وترك وراءه سمعة لا تشوبها شائبة، لا يتخللها أى خزي- فهل يمكننى القيام بالمثل" (٢١).



قضاة محكمة الاستئناف في المحاكم المختلطة. يمكنك رؤية القاضي جاسبر برينتون في الجانب، تماماً خلف وإلى يسار القاضي المرتدى طربوشا، وبرينتون أيضاً رئيس جمعية الآثار الملكية في الإسكندرية، حيث أدى حماسه لكتاب فورستر "الإسكندرية: تاريخ ودليل" إلى نشر نسخة جديدة، وهي التي أصبحت كتاباً مقدساً بالنسبة إلى لورانس دوريل أثناء الحرب العالمية الثانية.

عند نهاية القرن، انتهى جاسبر من دراسته في الآثار الأدبية والقانون وأقدم على الدخول إلى مجتمع فيلاديلفيا، ومن ثم ظل مندمجاً ومتجانساً: "وفقاً لمن انتمى ومن لم ينتم"، واستطرد قائلاً "السؤال أجاب نفسه" (٢٢). وامتأل الموسم بحفلات راقصة للفتيات التي تظهر لأول مرة في حفلات اجتماعية وحفلات العشاء وزيارة الأوبرا مرتين في الأسبوع، ولكن المجتمع بالرغم من مرحة وبذخه، كان صارماً في مراعاة الأحداث الاجتماعية: "لقد نسيت وأنت في عجلة من أمرك، بعد تناول العشاء في الخارج أن تضع بطاقتك للمضيعة خلال يومين أو ثلاثة أيام." (٢٣)

بعد دخول أمريكا إلى الحرب العالمية، تم تعيين برينتون محامياً عسكرياً مسئولاً عن ميناء بورديكس. لقد تطلب اثنا مليون أمريكي فى فرنسا وجوداً قضائياً، وترأس برينتون القضايا وتتراوح بين السرقة والسكر والتدبير للهروب من العسكرية والعصيان والقتل، كما قضى فى محاكمات تتعلق بالملكية فى المدينة والقرية المحيطة بها، وتتضمن دفع مبالغ كبيرة كتعويض. وفى نهاية الحرب قامت الحكومة الفرنسية بنقله وسام الشرف وتلقبه لقب فارس تقديراً لخدماته ولباقتة.

وبعد عامين فى الخارج، عاد برينتون إلى زواج متعثر وطلاق متوقع يعنى أن عودته إلى فيلادلفيا لن تكون أمراً يسيراً. وعندما أشار عليه بقبول مكانة قاضى محكمة الاستئناف بالمحاكم المختلطة فى مصر، بدا هذا حلاً جيداً. وبقيت ابنته - وعمرها ثلاث سنوات - مع أمها، التى رفعت قضية طلاق فى باريس وعاد إلى مصر مع ابنه جون - سبع سنوات.

فى تلك الأثناء وجد برينتون مدينة الإسكندرية "مدينة رائعة جداً" (٢٤) وقرر البقاء فيها، خلال السنوات الأولى قضى ساعات أمسياته فى تأليف كتابه "المحاكم المختلطة فى مصر *The Mixed Courts of Egypt*" وتم نشر الكتاب فى عام ١٩٣٠ ومازال كتاباً حازماً. فباعثاره قاضياً فى محكمة الاستئناف للمحاكم المختلطة ورئيساً لها منذ ١٩٤٣، وهى واحدة من أكبر وظائفه على الأرض، غاص فى شئون الإسكندرية خلال معمة الحرب للمدينة الكوزموبوليتان ودراما الحرب العالمية الثانية، بالضبط الفترة المماثلة للورانس دوريل فى كتابه رباعيات الإسكندرية.

وبعد عودته إلى الإسكندرية، ذهب برينتون وابنه جون للحياة فى محطة الرمل، وكان فى حديقة المنزل قرد يلعب فى شجرة الفلفل فى الحديقة وقد اعتبر نفسه جزءاً من العائلة. أما جارتهم وصديقتهم عائدة بورشجريفينج، وهى المرأة

الرائعة" (٢٥) أو كما كان يسميها برينتون، فكانت تذهب فى نزعات حول الرمال أو يذهبوا معا إلى شاطئ البحر فى خليج ستانلى، القريب من حديقتها. كانت الحجارة تطوق الخليج وكان فورستر يتردد على تعلم السباحة هناك، فقد كان يتردد كثيرا هناك منذ بداية الحرب. حمامات السباحة السطحية كانت موضع لهو الأطفال الذين يبحثون فيها عن سرطان البحر (الكابوريا) وقنافذ البحر والأسماك الملونة، تغيرت إلى أكواخ صغيرة ملونة بطريقة متوهجة محفوظة فى المنزل وأقيمت فى بداية الفصل، وهناك جنرال روسى وزوجته يشتريان مثلجات من باغودة صينية قد تم غرسها بشكل غير مناسب على الشاطئ المصرى. كذلك تذكرها جون قبل اختفاء الصخور وحمامات السباحة، والأكواخ المنصوبة التى حلت محلها مصاطب الكبانن الإسمنتية، حتى تغير شكل الشاطئ عندما أقيم طريق الكورنيش فى الثلاثينيات من القرن العشرين، "البحر الأزرق المتألق والأمواج المتلاطمة على الصخور حتى تنكسر على رمال الشاطئ وتتحول لفقاعات فضية." (٢٦)

يعتبر الشتاء من أجمل فصول السنة إذ يحين فيه عملية صيد الببط والإوز على بحيرة مربوط القديمة، وتلك كانت فرصة لبرينتون أن ينطلق بسيارته، سالكا الطريق المحاذى للبحيرة أو ينزلق إليه بالقرب من طائرة مائية، وأحيانا يبقى فى عزبة أصدقائه الأقباط وزميله القاضى صبحى غالى بك. التى يعدها نموذجا بسيطا للريف البدائى، وثمة وجود نوع من مجموعة من أصحاب المنازل البسيطة، وهو منزل مبنى بسيط من طابق واحد، فرشته بسيط جدا ولكنه مريح، حيث نعيش فى بحبوحة من الحياة على ما تخرجه الأرض من خيرات" (٢٧) وتتبعث من الحقول "أصوات الساقية التى يجرها ثور تمت تعميته، ويتردد صدى الساقية فى الجو الهادئ" يعنى صيد الطيور الاستيقاظ مبكرا من أجل الخوض فى المياه والطين، إن كنا نصطاد الببط، "فيمكننا قضاء الليل فى كابينة صغيرة من الخشب وسط القصب

وبعد مطلع الفجر نوزع أنفسنا بين قوارب صغيرة مع أحد مساعدين من العزبة بملابسه الرثة، ننتظر إشارة مضيفنا، فى تلك الأثناء نسمع ضربات الأجنحة الخفية فوق رؤوسنا، ثم تأتى إشارة مضيفنا، الطلقة الأولى وبالتالي لبضع ساعات، وتستمر القوارب فى الانطلاق، سواء أصبنا هدفاً أو أخطأنا فإنها رياضة ممتعة ولا يختلف عليها اثنان بأنها من المناظر الرائعة الطبيعية التى نراها فى ساعات الغروب أو عند الفجر فى المستنقعات المصرية.^(٢٨)

فى كل صباح، يركب جون الترام متجهاً إلى كلية فيكتوريا، وهى مدرسة خاصة للبنين تدرس المنهج الإنجليزى، بينما يلحق أبوه بالترام المسافرين فى الاتجاه المعاكس نحو المدينة، جالسا فوق سطح الترام ليملاً عينيه من المنظر الجميل من بعيد والناس هناك فى الشارع. ثمة شيء يلفت الأنظار عندما ينطلق الترام بين الضواحي^(٢٩). إلى جانب المسطحات الملونة، هناك عملية حفر لتمهيد الطريق من هنا إلى المدينة. وهو أمر مثير للاهتمام، فهذه هى الصحاريح الرومانية التى تم اكتشافها فى أعماق أساس الإسكندرية^(٣٠).

وقد ظهرت حالة مبكرة قبل أن يهتم برينتون بمقبرة توت عنخ آمون، التى زارها بعد اكتشافها فى نوفمبر ١٩٢٢. وحتى ذلك الوقت، كان علم المصريات تنظيماً غير محكم، حيث يتم السماح للحفارين الأجانب بالحصول على حقوق وامتيازات تسمح لهم بالبحث ويكون لهم نصيب عادل فيما يكتشفونه إلى جانب الخبرة والتكاليف والمصلحة التاريخية، ولكن مع إلغاء الحماية البريطانية فى عام ١٩٢٢، ومنح استقلال محدود، فإن حساسية مصر نحو الأمور كانت تمس سيادتها وباتت أكثر حدة، كما أن اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون وثروته الدفينة معه قد أثارت عاطفة الوطنيين. وبسؤال المكتشفين عما يستحقه المصريون من حقوق وجد هاوارد كارتر نفسه فى دور المستعمر الخسيس الذى يصر على إنكار حقوق مصر

وميراثها الحضارى. وقد حذرهُ مستشاره بأن قضاة المحاكم المختلطة الموجودين فى القاهرة يستمعون إلى الموضوع، قاض إنجليزى وآخر فرنسى وثالث إيطالى وقاضيان من مصر. "ويمكن إبلاغ المصريين بحكم المحكمة والالتزم به، ولبتأكدوا من النتيجة بشكل واضح يجب عليهم شراء القاضى الإيطالى". (٣١)

فى الواقع، فإن المحكمة قضت لصالح كارتر، إلا أنه فى عام ١٩٢٤ حولت الحكومة القضية إلى محكمة الاستئناف فى الإسكندرية، حيث كان برينتون أحد القضاة الخمس فى قاعة المحكمة "إننا نقر بأن أمر الحكومة أمر إدارى مع الذين نفذوا حكم المحكمة المختلطة وليس لديهم أى اختصاص قضائى. وقد وضع هذا القرار حداً للتشريع وتم تسوية الخلاف على الفور. عندما أقامت الحكومة هذا كان لها اليد العليا، فالجانبان وصلا إلى التمييز، "الذى سمح بكل سرور للسيد كارتر من مواصلة عمله الذى بدأه بكل تآلق". (٣٢)

أصبحت القضية مشهورة، وبرينتون، كان طوال عمله متحيزاً لإقرار الحقوق المصرية، وراضياً بحصيلتها التى بدت وكأنها تضع نموذجاً للعلاقات المستقبلية بين مصر والأجانب. ولعل أسوأ ما نتحدث عنه هنا يخص المصريين المهتمين بمعالجة نهر النيل، القنوات ونظام الري، أكبر وأكثر علوم المياه تعقيداً فى الدولة: "من المحتمل أن تكون هذه هى أضعف نقطة فى الإدارة المصرية. فهى هنا وربما هنا فقط، فإن الإنجليز جعلوا خدماتهم تلقى ترحيباً واسعاً من الناس". (٣٣)

أما عن مكانة برينتون فى المحكمة فقد كان يتورط فى بعض المهام الرسمية طوال أشهر فصل الصيف؛ إذ إن الملك يمكنه أن ينقل المحكمة بسبب حرارة الجو فى القاهرة إلى الإسكندرية حيث حرارة الجو أخف كثيراً بالنسبة لنسيم هواء البحر المتوسط. وقد اتبعت الحكومة المصرية السلك الدبلوماسى بأكمله، بما فى ذلك

البريطاني، حيث إن المقر الجديد للقنصل في أعلى تل أبو النواطير أصبح بيت المفوض لهذه الفصل من العام. فإن قضاة المحكمة المختلطة كانوا وسط هؤلاء الذين كانوا في استقبال الملك لدى وصوله في محطة القطار في سيدى جابر وفي كل خريف يذهبون لتوديعه، كما يصف برينتون^(٣٤) في يومياته "أنزل إلى سيدى جابر لأرى الملك (فؤاد) متجها نحو القاهرة، نفس الاحتفالية القديمة، لكن، كالعادة، متألفة وأنيقة، بالإضافة إلى انتشار عدد كبير من الجنود. يكون دائما مجلس الوزراء هناك ومثل العادة صفان ممتدان من الفتيات الأكثر جمالا. يعود قطار الملك إلى القصر وينزل في نقطة نهاية واحدة من الرصيف ثم يسير فى ممشى الملك ويسلم على الشعب. وقفت فى الخلف، لكنه رآنى وقلت "كيف حالك" شعرت بشيء من الخجل، فلم أتصل به من نهاية عطلة السنة. ومع ذلك، إن كنت فكرت فيه، كنت ذهبت إليه فقط من أجل رؤية غرفته الجديدة فى قصر رأس التين. فهو مرتد ملابس جيدة وأنيقة، بطريقة مقبولة، ومعمولة بطريقة فنية، على الأقل تظهر أنه ملك. يمكن أن يظهر الأشياء بطريقة ويجب على الشعب تقبلها، على الرغم من أنه لم يكن بعيدا عن شعبه مثل بقية الملوك. سحت لى الفرصة كى أبيع البيانو الخاص بى لقنصلنا مقابل خمسة وثلاثين جنيها مصريا. كنت سعيدا عند القيام بهذا لأنى كنت بحاجة إلى الأموال ولست بحاجة إلى البيانو. عندما تناول برينتون العشاء مع أحد الزملاء المصريين فى القصر بعد بضعة أيام، تحدثا عن تدمير الملك. "الإنجليز فى حالة رضاء ظاهريا، عندما تتعلق المسألة بـ"أنا أرضيك وأنت ترضىنى"^(٣٥). فهم لا يعارضون الملك ولا يعارضون العديد من طلباته التى ليس لديها أى تبرير. "يعتقد برينتون أن خطأ البريطانيين الرئيسى هى "طبيعتهم المتحفظة"^(٣٦). فإن رأى الوزارة الأمريكية فى مصر كانت أشد قسوة، عندما دعا برينتون، خلال زيارة فى القاهرة، لتناول العشاء معه فى منزل فى محرم بيك

الخاص بالقنصل الأمريكى فى الإسكندرية، الذى أجر الاستوديو "الموجود فى حديقة السيد أمبرون، من أجل العمل الجيد والثقافة الإيطالية المزوجة بالحس الفنى. "وأصر الوزير أن إنجلترا لا تريد أن تستوطن هنا فى الوقت الحالى ولكنها تراقب باستمرار الوضع وتتوى البقاء"، ثم أخذ يصف الإنجليز "على أنهم أكثر وحشية فى العالم، وعلى أنهم قساة فى اتهاماتها".^(٣٧)

لقد أثارت سلسلة من الأحداث هذه الملاحظات حيث كان هناك اثنان من اللاعبين البارزين وهم أصدقاء فورستر فى فترة الحرب: روبين فورنيس وجورج أنطونيوس^(٣٨).

بعد العودة من الزيارة الصيفية إلى أمريكا عام ١٩٢٦، لاحظ برينتون "أن المرفأ بقى على حاله فهو قوى ومثير للاهتمام كما أنه عالمى. فهاتان السفينتان البريطانيتان للتذكير دائما بمن يمتلك مصر. فظهر السفينة مثل ضوضاء بشرية وتظل تذكرنا بأن الصوت العالى هو من هوايات المصرى القديم".^(٣٩)

وبعد فترة مؤخرا جاءت عابدة بورشكريفينك لاحتساء الشاي، "مستغرقة فى تجاربها ومتحمسة أكثر من أى وقت مضى"^(٤٠). إذ عادت من عطلة صيفية قضتها فى إنجلترا، حيث كان فورستر ضيفها فى الكوخ الذى استأجرته فى منطقة البحيرة. لكن كان برينتون أكثر اهتماما بالأبناء التى جلبتها من إنجلترا عن صديقه السيد موريس أموس، المستشار القضائى للورد اللنبى والذى أكد تعيين برينتون فى المحكمة المختلطة وهو قريب من فورنس، السكرتير الشرقى فى المفوضية العليا، وأصبح مسئولا عن إعلان تصريح ١٩٢٢ الذى منح مصر الاستقلال. ومنذ ذلك الحين اندلع فى مصر العنف الوطنى الذى كلف الكثير من الموظفين والكثير من الوظائف التى أحضرت إلى مصر، وقد أعادت إنجلترا إلى مصر السفن الحربية،

فى تلك اللحظة كلف الانفجار الوطنى العنيف الذى نشب وظيفة هذين الرجلين (برينتون وفورنس)، وأعاد لمصر السفن الحربية التى رآها برينتون عند عودته إلى الإسكندرية.

وفى خريف ١٩٢٤ تم توجيه دعوة لرئيس الوزراء سعد زغلول، المرشح الجديد لرئيس وزراء حزب الوفد، للذهاب إلى لندن لتشاور مع رمسى مكدونالد، رئيس أول حكومة عمال بريطانية، الذى كان متعاطفا مع القضية الوطنية المصرية. جاء هذا بعد تصريح سعد زغلول أنه على استعداد للتفاوض مع الإنجليز للوصول إلى اتفاق يضمن الاستقلالية التى يطالبون بها، إلى جانب احترام المنافع البريطانية هذه بطريقة معقولة ومقبولة.^(١) والمنفعة البريطانية المشار إليها هى دفاعهم عن قناة السويس، لكن عند وصوله إلى لندن، أعلن زغلول أنه لن يقبل أقل من انسحاب القوات البريطانية كشرط مسبق للتفاوض، بالفعل لن يترك أى شيء للتفاوض. المشكلة هى إلى جانب أنه كان يقدم عرضاً للبريطانيين، فإنه أصبح سجين العهود غير المشروطة الذى التزم بها أمام الشعب المصرى، التى تتلاءم مع شعاره "الاستقلال الكامل أو الموت". فإن لغته المنمقة، مثلما كان يتذكره مكدونالد، كانت تعرض الجنود البريطانيين، الذين يخدمون فى مصر بموجب شروط تصريح ١٩٢٢، إلى الخطر وخاصة السيد لى أستاك"، قائد الجيش العام، الذى وصفه كل من الحاكم العام فى السودان والقائد الأعلى فى الجيش المصرى "زغلول" على نحو قاس بأنه مضاد للكرامة الوطنية. وبعد عودته من لندن بخصى حنين ويملؤه الخوف من فقد دعم الشعب، نظم زغلول، فى منتصف نوفمبر، مظاهرة حاشدة ضد الملك خارج قصر عابدين فى القاهرة، مطالبين بالهتاف "زغلول أو الثورة" لأنه يدعم الاعتراض الفردى للنقاط المتحفظة الأربعة. وقد اغتيل أستاك بعد ثلاثة أيام فى القاهرة على يد متطرفين من حزب الوفد.

شعر المفوض الأعلى اللورد أللبنى بالتضليل، وقد كان ضد المعارضة الداخلية البريطانية والجاليات الأجنبية الأخرى ورغم من تقيّمات حكومته التي ساعدت على وضع مصر على طريق الاستقلال الكامل والذي كان يعتبر أسّاتك صديقاً له. وقد فوض كل من أموس وفرنس، وهو شديد الغضب، بكتابة إنذار يطالب باتخاذ الإجراءات القوية والتعويضات، التي ستؤدى إضافة إلى أمر أللبنى أن تحتل القوات البريطانية الجمارك فى الإسكندرية، التي تعد من أكبر مصادر دخل الحكومة المصرية، إلى انهيار مقاومة سعد زغلول واستسلامه.

فى السنة التالية غادر اللورد أللبنى وحل محله اللورد لويد، الذى كان يلوم الأحداث التي رآها مؤلفو الحكومة المتحفظة الجديدة الذين حرروا تصريح ١٩٢٢. عمل أموس بالرعى فى حين كان فرنس مرشحاً لأن يصبح مدرس لغة إنجليزية فى كلية فؤاد فى القاهرة بعدما تم اكتشاف أن ليود يفضل "الطرق غير المباشرة"^(٤٢) التي قدمها له مستشاره الخاص جورج أنطونيوس. وبناء على ذلك، دون مساعدة الكاتب المستقبل صاحب كتاب " النهضة العربية"، وصلت السفن المدفعية إلى ميناء الإسكندرية، بغرض إعاقة زغلول من استعادة رئاسة الوزراء بعدما فاز الوفد مرة أخرى بالانتخابات عام ١٩٢٦ بأغلبية ساحقة. برغم وفاة سعد زغلول عام ١٩٢٧، تمكن حزب الوفد، فى العقد التالي، فى وقف كل محاولات التسوية مع بريطانيا.

تتمتع الجالية البريطانية فى الإسكندرية بمكانة اجتماعية أكبر من نسبة عددها، كما أنها تدين فى حروبها السياسية لمصر كما كانت تدين بنجاحها التجارى للكثير من أعضائها. العائلات مثل باركر وبيلس وكارفر، دائماً ما يكفلون بكل حذر ميلاد أبنائهم البريطانيين وتعليمهم (أيتون، وينشستر، ساندهرست)، عاشوا وعملوا فى الإسكندرية لمدة جيلين أو ثلاثة وكانوا يمارسون أسماءهم فى تبادل القطن، مثلاً كان ويتال فى إسطنبول وجاردين وسوير فى شنجى.



أنتوني دى كاسون (يمسك المجرفة) وأصدقاؤه فى حملة فى الصحراء عام ١٩٣٤. اكتشفهم جادج برينتون وزوجته جينيڤا (المرأة طويلة القامة، الثانية من اليسار) التى ساعدتهم على إخراجهم من الرمال فى قصر الكتاجى، ٢٨ كم شمال برج العرب. دى كاسون الذى كان الابن الشرعى لبراملى، لعب دوراً مهماً فى مراجعة كتاب فورستر الإرشادى، وماروتيس، الذى نشر عام ١٩٣٥، كان من أهم مصادر دوريل عند كتابة رباعية الإسكندرية. كان يستخدم الأصدقاء مصنع براملى القديم للسجادة لقضاء فيه عطلة نهاية الأسبوع كنادى الصحراء، ثم عام ١٩٣٧، جاءوا إلى برج العرب بعدما حصلوا على تصاريح لبناء منازل.

برغم أن مجتمع الإسكندرية الكوزموبوليتان معزول بشكل كبير، وخصوصاً فى الجوانب الإدارية والعسكرية. ونادى سيورتنج، الذى كان يرتاده البريطانيون للعب التنس، على الطريق السريع المؤدى إلى أستراليا، وأى لاعبين من أى شأن) فإن البريطانيين عموماً يجدون طريقهم من أجل الوصول إلى دوراتنا الدولية"، فى

حين "أن في العالم العربى النظامى والوظائف العسكرية البريطانية كان البولو فى الحقيقة سببا للاجتماع الأسبوعى مرتين طوال فصل الصيف، للعب الجولف والبولنغ والكروكيه والكريكيت، وهى ألعاب كانت تلعب بحماس دينى شديد^(٤٣)". أسس البريطانيون النادى عام ١٨٩٠ وقد انعكست آفاقهم الاجتماعية على تكوين لجنته العامة من ثمانية عشر عضواً. بعد الحرب العالمية الأولى بعام، كان هناك عشرة بريطانيين، واثنان يونانيين وواحد من يهود الإسكندرية إلى جانب بريطانى، وواحد أمريكى وواحد مسيحى سورى- لبنانى، فى حين مثل المواطنى المصرىين مسلم واثنان من الأقباط. العضو المسلم كان الأمير عمر طوسون، المشهور بأنه "ملك الإسكندرية" الذى ترأس النادى وكان ابن عم الملك فؤاد. كما كان هناك أيضاً ثلاثة من أعضاء من الضباط السابقين، واحد كان من الضباط الدائمين فى الكنتات البريطانية فى مصطفى باشا، وآخر كان ضابطاً من البحرية الملكية وتم اختياره من سفينة زائرة والثالث كان مفوضاً من شركة التلغراف الغربى، وهؤلاء متفقون فى الهوى مع كل البريطانيين الموجودين فى مصر، وغاب عنهم تأمين الصلة بين بريطانيا والهند. وبعمامة فقد وجد برينتون، فى مدخل يومياته التى يكتبها بعد العشاء الخاصة فى حقبة العشرينيات من القرن العشرين، أن البريطانيين ضعفاء وكسالى فى أساليبهم. من المحتمل أن تكون زوجته أكثر السيدات البريطانية مرحاً وبساطة وجاذبية هنا.

لا داعى لذكر قلة الدوائر الإنجليزية التى لعبوا فيها تمثيليات مسابقات؛ كأن يقول المرء إنها من أفضل الأوقات التى قضاها البريطانيون فى الماضى. على أنها لم تكن سيئة فى ذلك الوقت. ومن المذهل رؤية بعض الأمهات القاسية اللاتى يمشين فى محطة الرمل وينظرن أمامهن قبل التصرف بتلقائية عندما يأتين إلى

مثل هذه المؤسسات الوطنية كهذه. فالسيدات يدخلن هذه المجالات بحماس شديد وبالتأكيد فإن كل واحدة تبدو مقتنعة بأن هذا اللهو جزء من التسلية.

بعد ذلك، وفي حفل كينيث بيرلى فى سان ستيفانو، اعتُبرَ حفل عيد ميلاد ابنته حدثاً جليلاً إلا أنه ترك انطباع الشيء المألوف، فقد أنفق ببذخ، ولكنها لم تجد فيها أى شكل من أشكال الإبداع أو الأناقة. ربما بسبب عدم إقرار الإنجليز هنا بهذا المؤهل الذى يشمل تجمعاً كبيراً وعادياً مع وجود استثناء أو أكثر. تشعر بالسعادة فى حالة قدرتك على الخروج بعد مرور نصف ساعة على منتصف الليل. لم يتسم الحدث بالتميز مقارنة بحفلات التسلية التى أقامها اليونانيون والشرقيون الآخرون فى البلدة.^(٤٤)

كان برينتون مستعداً دائماً للدفاع عن "إبداع الإسكندرية وموضتها" التى تعنى بالنسبة له المجتمع الشرقى ضد المستعمرة الإنجليزية "المقلدة لأساليب الأثرياء الرثة".^(٤٥) كان برينتون طويل القامة ونحيفاً ويتميز بوجه جانبى متعرج يشبه صخور جبال رشمور. لقد استمتع برينتون بمجتمع "السيدات اليونانيات والسوريات الأنيقات".^(٤٦) وتكررت دعوات حفلات الشاي ومآدب العشاء ولعب البطاقات فى منزل مايكل سالفاجوس الذى يعتبر مصدراً رئيسياً للقطن، فهو ناجح ورئيس للجلالية اليونانية وفيلته الكلاسيكية (التي أصبحت فيما بعد مركزاً للثقافة الروسية) وحدائقها التى تطل على ناصية شارع البطالمة وشارع الفراعنة هى مبنى كامل فى قلب الحى اليونانى.

كانت أرجين زوجة سالفاجو "سيدة المجتمع" وجعلتها عيناها البنفسجية الساحرة "إحدى أجمل سيدات أوروبا كما كانت معبودة الجماهير فى شبابها".^(٤٧) كانت ابنة إيمانويل بيناكي الذى ختم زواجه من فيرجينيا كورمى تحالف العمل

الذى صنع من كورمى بيناكي والشركة أكبر مصدري قطن في مصر وأحد ثلاثة أو أربع مصدري قطن في العالم.

شاركت أرجين سالفاجوس أختها بينلوب دلتا وأخيها أنتوني بيناكي في "السحر العائلي"^(٤٨): حيث كان بيناكي أنيقاً (تميز بطريقته في قلب أساوره على أكمام الباطو) وله شارب مدبب وأسلوب دمث مما جعله "أكثر الشخصيات أناقة في الإسكندرية."^(٤٩) امتلكت عائلة بيناكي الممتدة عدة منازل في الحى اليونانى إحداها على ناصية شارع العباسيين وشارع الفاطميين حيث زار برينتون أنتوني بيناكي: "أعمل حتى الساعة الخامسة ثم أزور أنتوني بيناكي لشرب الشاي. كانت كلمات "حدث أنيق وجميل" هي الكلمات الأخيرة في حفلات الشاي. يعتبر المنزل فريذا يشبه المتاحف؛ حيث احتوى على مجوهرات وأسلحة وميداليات وبورسلين وزخارف وأنسجة تجسد أرقى أشكال الفن. بالإضافة إلى الرقص الذى يستمر بلا شك حتى وقت متأخر. ولكن على العودة إلى العمل (في الكتاب)."^(٥٠)

لفترة من الوقت كان بيناكي الروح المثيرة للمشاعر في جمعية محبى الفن التى اشترك فيها برينتون من خلال اهتمامه بـ المجموعة الأدبية التى تعتبر مجتمع محاضرات ومناقشات: كتب برينتون عن بيناكي في يومياته في أواخر عام ١٩٢٦: "أقمنا نحن معرضين مع عدم وجود أى اقتراح لتسيق. فقد أنفق مالاً عندما أراد، بغض النظر عن ميزانيته إلا على أنه تسبب لنفسه فى عجز مادي. لا أعترض إلا على أن الوضع لم يتدهور. وهنا تكمن المشكلة؛ يستغل معظم الناس قدرًا من غرورهم الشخصى. كان مغرمًا بالفن ولكن لم تتجاوز فكرته عن النادى التظاهر بأغراضه وأغراض أصدقائه."^(٥١)

ثم انتشر خبر مغادرة بيناكي مصر: "كانت مغامرة مسلية ما دامت متعة تدخين السيجار الكبير في منازل جميلة متاحة، بينما تظاهرننا من اللجنة بإدارة النادى. لم نفعل شيئاً من هذا القبيل. يا لبيناكي من شخصية ساحرة! وسيم وأنيق ويتميز بأسلوب خاص يجعل منه شخصية بارزة في أى مجتمع. من المتوقع أن يغادر الإسكندرية ليسكن منزلاً جميلاً في اليونان إلا أننا سأفتقده." (٥٢) ومن المتفق عليه أن جمعية محبى الفن ليس لها خيار إلا معاكسة التيار؛ حيث كان بيناكي "مسئولاً مسئولية كاملة عن الميزان السخى الذى تطلب به مصروفاتنا، أى إنه كان يطلبها ويدفعها. ناقشنا استحسان العرض النهائى الخاص بفن القرن السابع عشر وقررنا المرور بالتجربة. اهتم البارون بتكوين شركة صغيرة مفعمة بالحياة. حيث يعبر الشرقيون الأغنياء بالطبع أفضل قطعهم ويدعون أصدقاءهم ليعجبوا بها. وفي نفس الوقت نتمنى استقلال مجموعتنا الأدبية." (٥٣)

ولكى ترى محتويات ١١ شارع الفاطميين اليوم عليك زيارة متحف بيناكي الشهير في أثينا (أصبحت "بيناكي" النسخة اليونانية الأكثر قبولاً من بين "بيناشيه"). المجوهرات اليونانية والقماش والتطاريز اليونانية والرومانية والقبطية والباب الخشبي المحفور من القرن التاسع عشر من بغداد والأواني الزجاجية الفاطمية والعباسية وغرفة الاستقبال التى تتميز بطراز القرن السابع عشر من منزل إسلامي في القاهرة وكل شيء متدل ارتدته ذات مرة كريستينا ملكة السويد؛ شحن بيناكي كل هذا وأكثر من الإسكندرية في ربيع ١٩٢٧ ومنحه للدولة اليونانية بعد مرور أربعة أعوام وقدمه إليها.

كانت سмирنا بمثابة تحذير من الحلم اليوناني في مصر. أحدثت هذه الكارثة قلقاً بشأن علو الوطنية المصرية، بالإضافة إلى أنه من المتوقع أن يتفاوض

البريطانيون على إنهاء الامتيازات الأجنبية أو مساومة نقطتهم المحجوزة التي تحمي الأجانب والأقليات الجالية اليونانية في الإسكندرية. وفي نفس الوقت عزز وصول مليون لاجئ ونصف من آسيا الصغرى وجود مجموعة واسعة من العمالة الرخيصة وسوقا جديدة للبضائع المحلية للتنمية الاقتصادية في اليونان، وبشكل تدريجي تم تهميش الإسكندرية اقتصاديا وسياسيا وثقافيا؛ حيث عززت أثينا موقعها كمركز حضارة اليونان القديمة الوحيد.

وفي نفس العام الذي غادر فيه بيناكي الإسكندرية كتب عالم تاريخ الجالية اليونانية: "تفقد حضارة اليونان القديمة في مصر أرض أجدادها يوما بعد يوم."^(٥٥) بينما ملأ كفافيس الذي احتفل بلحظة الانطلاق شوارع المدينة "بموسيقى رفيعة المستوى وأصوات" وربما كان غير سعيد عندما تذكر أنه آخر أمثلة المدينة وأعظمها، لم يعترض عندما لاحظ أحد أصدقائه توقف الحركة الأدبية في الإسكندرية. وقال: "إذا توقفت الحركة الأدبية هنا لم تفقد الإسكندرية أى شيء؛ لعل هذا أفضل للجميع فقد استطاع هؤلاء الشباب تكريس أنفسهم للتجارة."^(٥٥)

حاول بيناكي اصطحاب صديقه كفافيس إلى أثينا إلا أن الشاعر رفض مغادرة الإسكندرية رفضا قاطعا وتوفي فيها في عام ١٩٣٣. وكان يحب أن يردد "إن ميدان محمد على هو بمثابة عمى وشارع شريف باشا يمثل ابن عمى الأول وشارع الرملة يمثل لى ابن عمى الثانى، فكيف أترك أقاربي وأرحل؟"^(٥٦)

إن البنائين الإيطاليين الذين أقاموا مدينة الإسكندرية لم يهجروها، وكانوا أكثر من أى جالية أخرى، معظمهم من المهندسين المعماريين ومهندسى مدينة الإسكندرية الحديثة. ولكن كثيرًا من الجاليات الأخرى تشبه الجالية اليونانية، فإن الإيطاليين كانوا أقل تنظيمًا والنخبة بينهم أقل عددا، وكانوا عموما أكثر المستويات

الاجتماعية تواضعا. فال يونانيون كانوا مقاولين ذوى عقليات مستقلة شقوا طريقهم فى العمل مع المشروعات الكبيرة والصغيرة، سواء فى تجارة القطن أو استيراد التبغ وتصدير السجائر مثل كبار رجال الصناعة أو البقالة أو أصحاب المقاهى، والعدد الكبير منهم أيضا يشغلون أعمالا مكتبية. وانطبق القليل من هذا على الإيطاليين الحقيقيين، وقد كانت معظم أعمالهم أعمالا يدوية ومكتبية.

غير أنه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، لعب الإيطاليون دورا مهما فى تنمية إدارة مصر وخدماتها مما برر وجود لكتة الأجانب فى وقت مبكر ليس فقط فى الإسكندرية ولكن فى البلاد بأسرها. كما أداروا الخدمات الطبية والصحية وكثيرا من خدمات البريد إلا أنهم انسحبوا أمام الإداريين البريطانيين والمصريين. على نحو متزايد احتالت أعداد كبيرة من الإيطاليين فى وجود حياة كادحة بالعمل كشاحذى سكاكين ومضيفين وبنائين وقبلوا أجورا نقل عن أجور الأجانب الآخرين. عندما خصص محمد على ربايعات الإسكندرية للجاليات الأجنبية المختلفة فى ١٨٣٠ أعطى الأرض التى تقع شمال الميدان الذى حمل اسمه فيما بعد للبريطانيين الذين قاموا ببناء كنيسة القديس مارك، والأرض التى تقع جنوب الميدان للفرنسيين واليونانيين، وتنازل عن الأرض التى تقع شرق الميدان المتاخمة للمدينة التركية القديمة على لسان الأنفوشى وكرموز على جانب راکوتيس العتيق التى تحولت فى أواخر القرن التاسع عشر إلى حى فقراء لا يختلف عن أحياء الربع الرئيسى للإيطاليين ولم ينس العديد من قاطنيه أصولهم الإيطالية.

لم يحل طموح إيطاليا الخارجى مشاكلهم. سعد أهالى رودس وبقية الدوديكانية بتحريرهم من الأتراك فى عام ١٩١٢ ولكن أغضبهم قدوم محرريهم الإيطاليين وبقاؤهم مما سبب خصومة الدوديكانية وبقية اليونانية للجالية الإيطالية فى الإسكندرية. لم يكسب فتح ليبيا الإيطالى فى عام ١٩١١-١٩١٢ أى أصدقاء

فى مصر المسلمة وعانت سمعتهم كثيرا عندما طردهم بدو السنوسية الذين سلّحهم الأتراك والألمان فى ليبيا أثناء الحرب العالمية الأولى.

تلك كانت حالة الجالية الإيطالية فى الإسكندرية، عندما تسلّم موسوليني مقاليد الحكم فى عام ١٩٢٢ حافظ فى إيطاليا على الملكية إلا أنه أنشأ ديكتاتوريته الفاشية الخاصة وبدأ فى ليبيا نزاعا دام عشر سنوات. رأى العديد من الناس أن الفاشية كانت تعنى شيئا فى ذلك الوقت يختلف عما تعنيه فى وقت لاحق وكانت الجالية الإيطالية فى الإسكندرية أفقر من أن توفر قوت يومها وامتنت للمال الذى تدفق من إيطاليا موسوليني لبناء مستشفيات أفضل ومدارس أوسع ودعمها بموظفين يتقاضون مرتبات مجزية وفتح نواد والقيام بنزهات قصيرة وإرسال التلاميذ إلى إيطاليا لقضاء عطلات الصيف مجانا.

كانت فكرة أن البحر المتوسط كان مشهد عظمة الرومان فى وقت ما -وتشهد نصبه التذكارية القائمة حول البحر لنا- جزءا من مناشدة موسوليني. إذ منح اسم الإسكندرية اليونانيين ادعاء للإقامة، فقد نبهت ذكرى موسوليني المزدهرة من جديد الخاصة بأنطونى المنتصر الجالية الإيطالية فى المدينة بأن الإسكندرية كانت فى وقت من الأوقات ملكا لهم.

بالإضافة إلى تجديد المجتمعات والمكان فى العالم ازدهر شعور التباهى بالفخر الوطنى الذى شعرت به طبقات المدينة المتدنية. تعلمت الجالية الإيطالية فى الإسكندرية تعليق العلم وارتفعت صور الملك فى مدارسهم وكتبوا على سبورات مدارسهم: "أيّتها الشمس لا ترين أى شيء أعظم من إيطاليا وروما أو أجمل منها." (٥٧) وسرعان ما صاحبته صور الدوشة نفسه وارتدى أطفال الجالية قمصانا سوداء وأربطة عنق زرقاء والتحقوا بالشباب الفاشى.

اصطحب برينتون ديلا روفر وهو إيطالى سكندرى فى هيئة المحكمة لشرب الشاى عندما عاد إلى منزله من الرملة فى أحد الأيام بعد الظهر فى أواخر عام ١٩٢٦. "تحدثنا حديثاً مشوقاً عن إيطاليا الجديدة؛ فقد كان نشطاً فى الحركة الفاشية التى يوجهها والتى يبلغ عدد أعضائها ٥٠٠ عضو. يمنحك الحديث مع صديق مثله قوة الحركة الأساسية فى قدرتها على ضمان اعتقاد الزملاء كثيرى الاهتمام المنتمين للطبقة الوسطى والحماسيين مثله ووعنى بإرسال المواد المطبوعة." (٥٨)

"فى يوم الخميس ٢٠ يناير ١٩٢٧: تناولت شاياً عند سيدة عجوز مجهولة متعمقة فى الصوفية الدينية كما تحدثت معى لمدة ساعة عن العبادة الهندوسية حيث من الواضح أنها اعتقدت أننى قد أتحول. وتأثرت بسحر شخصيتها، ولكن بدا لى كل شيء قالتها أكثر الافتراضات المجانية نقاء، ولكن إذا استطاعت تطبيقها هى والآخرون فقد أحسنوا عملاً." (٥٩)

كخليفة لفيرنس عينت وزارة الخارجية والتر سمارت وزيرها الشرقى فى طهران الذى استطاع تحويلها إلى أولى نقاط عمله فى شارع لبسيس قبل الهبوط فى الإسكندرية فى أثناء صيف السفينة المدفعية فى عام ١٩٢٦ قبل اللحاق بالقطار المتجه للقاهرة. للتفاوض بشأن بيت الدعارة الكائن فى الطابق الأرضى صعد الدرج وتوجه إلى شقة كفافيس؛ حيث نسج حوار الشاعر العجوز سحره مفاده أنه نسى الهدف من قدومه لمصر وفكر فى التأنيب القاسى الذى تلقاه عندما تقلد منصبه بعد مرور أيام عديدة. وبرغم وصف جرافتى سميث الذى عمل سمارت فى القاهرة كأحد "عمالقة" الخدمة الأجنبية بأنه رجل يحمل "أدق صفات طبقة السفراء" (٦٠) فإنه لم يكن ليصبح سفيراً إلا فى خيال لورانس دوريل. خلال الحرب العالمية الثانية صادق سمارت دوريل الذى أقر فيما بعد أنه "تمونجى لماونت فيل" (٦١) السفير البريطانى فى مصر الذى كان اسمه عنوان الجزء الثالث من رباعيات الإسكندرية.

تم حرمان سمارت على نحو مؤثر من التقدم فى طبقة السفراء عندما سمح لزوجته بطلب طلاق لا نزاع فيه بعد وصوله القاهرة بفترة. وفى النهاية فى عام ١٩٣٢ تزوج أمى نمر التى عادت من حياة بلومزبيرى البوهيمية إلى وطنها فى مصر سيدة تحمل شكلا جديدا وتسريحة شعر إتون وتذوقا لرواية عوليس "Ulysses" لجيمس جويس وإبداع الطليعة الفرنسية وموهبتها كرسامة لامعة وقد طورتها فى كلية سليد للفنون الجميلة.

كانت جنور أمى من النوع المتقدم. سوريا الكبرى (والتي تضم حاليا سوريا ولبنان والأردن وإسرائيل) قد غزتها القوات التركية فى عام ١٥١٦ وانتصرت على مصر فى العام التالى وأصبحت مصر جزءا من الإمبراطورية العثمانية. وبدأت أولى حركات المقاومة العربية ضد الحكم التركى فى عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وبدأها العرب المسيحيون فى بيروت متأثرين بالثقافة والأفكار السياسية الغربية. ولم تتجح حركتهم فى جذب دعم العرب المسلمين، إذ كان المسلمون أقل معارضة للأتراك الذين أحسوا معهم بصلة وألفة دينية وليست عرقية. أصبحت مصر تحت حكم الخديويات ومنذ عام ١٨٨٢ أصبحت الدولة الوحيدة فى الشرق الأوسط التى استطاعت تحت الحكم البريطانى تحقيق شيء يشبه المعايير الأوروبية سواء كان ماديا أو سياسيا، وجذبت العديد من اللبنانيين والسوريين المسيحيين من ضمنهم فارس نمر الذى التحق بكلية البروتستانت السورية (التي أصبحت الآن الكنيسة الأمريكية فى بيروت) وتحول من أرثوذكسى يونانى إلى أنجليكانى. عندما أمر السلطان العثمانى باعتقال المواطنين العرب وإعدامهم سبح نمر حتى وصل إلى سفينة راسية فى ميناء بيروت وأبحر إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة حيث أسس صحيفة المقطم المؤثرة التى لاقت ترحيبا دافئا على الرغم من رؤيتها غير الناقدة للبريطانيين. أنجبت له

زوجته ثلاث بنات رائعات كانت أمى إحداهن وكانت الأخرى كاتى التى تعتبر
قومية عربية متحمسة وتزوجت جورج أنطونيوس.

بحلول الحرب العالمية الأولى سخط العرب على الأتراك الذين توسعوا
ليشملوا أعدادا هائلة من المسلمين والمسيحيين واعتقد سكان الجزيرة العربية
وسوريا الكبرى حصولهم على تحقيق المصير بالانضمام إلى البريطانيين ضد
الأتراك. انطبق هذا على فلسطين أيضا التى بلغ تعداد سكانها العرب المسلمين
والمسيحيين فى هذا الوقت حوالى ستمائة ألف مواطن. بالإضافة إلى استقرار
ثمانين ألف يهودى معظمهم من بولندا وروسيا ممن دخلوا فلسطين فى أثناء القرن
التاسع عشر هربا من مواجهة المذابح المنظمة والاضطهاد؛ من ضمن هؤلاء اتبع
اثنا عشر ألف يهودى الحركة الصهيونية التى بدأت فى فترة ١٨٨٠ فى الوقت
الذى أسس فيه فارس نمر وزملاؤه حركتهم للاستقلال العربى. كان ضعف
الإمبراطورية العثمانية الواضح ثم فرصة تشكيل عالم جديد عاملاً مشتركاً حيث
تطلع اليهود والعرب لإنجلترا لتحقيق أهدافهم المتصارعة.

عندما وصف جيدج برينتون الإسكندرية بأنها "ذكية وراقية وتتجاوز أى
مدينة فى البحر المتوسط"^(١٢) لم يفكر فقط فى مسرح الحمراء الجديد الكائن فى
شارع المسلة ومسرح محمد على فى شارع فؤاد؛ حيث رقصت بافلوفا وتولى
توسكانينى قيادة الفرقة وحيث أضاعت نجوم لاسكالا موسم الأوبرا وحيث شركات
زائرة تعاقب مسرحيات من باريس ولندن. على الرغم من تحفظاته على جمعية
محبى الفن فإنه وضع لمعان المدينة الحقيقى فى منازلها العظيمة حيث قدم هؤلاء
الذين "يمثلون شركات العمل القديمة التى بنت المدينة المزدهرة وجلبت أسرها ثقافة
الدول الأجنبية وتقاليدھا للمدينة المعارض والمحاضرات والحفلات الموسيقية
وحفلات التسلية المسرحية. من ضمن هذه الشركات مثل اليهود مكانة مرتفعة فى

العالم الاجتماعي وتمتعوا بها كما برزوا في حياة المدينة الفكرية. في الحقيقة يختار المرء الاجتماع بالشخصيات البارزة في العالم الأدبي الأوروبي في المنازل اليهودية.^(٦٣)

كان برينتون يفكر في منزل بارون فيلكس دي ميناشا الهائل المتعرج الكائن على ناصية شارع ميناشا وشارع الرصافة في محرم بك تحديدا. عاش بارون جورج دي ميناشا ابن فيلكس من زوجته الأولى هناك أيضا وكان أكثر من عازف بيانو كلاسيكي كفاء، وقد أصبحت حفلاته الموسيقية التي تقام أيام الثلاثاء بعد الظهر وبصاحبه فيها أصدقاؤه مؤسسة سكندرية. وكان جين أخوه غير الشقيق ابن فيلكس من روزيت زوجته الثانية أحد أصدقاء كفافيس وكان متعهد شعره؛ كما قابله فورستر في منزل ليدى أوتولين موريل. عندما يعود جين من أوروبا للإقامة مع أسرته في الإسكندرية يتحدث عن صداقاته مع مجموعة متنوعة من الشخصيات الأدبية ومن ضمنهم توماس تيرينز إليوت الذي وصفه قائلاً إنه "أفضل مترجم قابلته"^(٦٤) فقد ترجم "الأرض الضائعة" ثم "أربعاء الرماد" و"بائع الكوكابين الشرقي" وأعمال إليوت الأخرى إلى الفرنسية. عاشت ابنتا فيلكس وروزيت في المنزل أيضا حتى تزوجت دينيز ألفرد مواس الذي تدرب في المحاكم المختلطة وأقامت كثير عدة سنوات بعد زواجها من جاك فينسوندون الذي كان أمين عام البنك العقاري المصري الذي كان والدها مديره. وقعت كثير فينسوندون في غرام المسرح وهو شيء عرفه برينتون ومعظم الناس الآخرين، فقد مثلت في حفلات التسلية وصممت ملابسها في المنزل الكبير في شارع الرصافة حيث أنجبت ابنتها كلاود في عام ١٩٢٥.

عندما قام حايم فايتسمان - زعيم منظمة الصهيونية العالمية وأول رئيس لإسرائيل - بأول زيارة له للإسكندرية استقر في منزل بارون فيلكس دي ميناشا وزوجته روزيت والدي أم كلاود فينسوندون التي أصبحت فيما بعد زوجة لورانس دوريل الثالثة. ولكنه لم يقابلها عندما كان في الإسكندرية فقد اخترقت حياته في قبرص منذ عشر سنوات في عام ١٩٥٥ عندما كان يكتب جاستين وبعدما هجرته زوجته الثانية إيف كوهين. وهناك لم يلهمه لقاءه غير المتوقع بكلاود إنهاء كتابه فحسب بل ألهمه التوسع أيضا فيما لم يقصد كتابته إلا كرواية وحيدة إلى ربع امتدادها سنوات الحرب والحرب العالمية الثانية في الإسكندرية؛ حيث ذكرت فيها شيئا من ذكرياتها عن المدينة بالإضافة إلى شخصيات وقصص من تاريخ أسرتها.

انتمت أسرة ميناشا مثل معظم اليهود في مصر للسفارد الذين عاشوا في أراضى المسلمين لدى تقسيم عالم القرون الوسطى بين الإسلام والمسيحية. فقد التزموا بنفس النظام اللاهوتي والممارسات اليهودية الأساسية الخاصة باليهود الأشكناز الذين ينتمون لأوروبا للمسيحية وإن اختلفوا عنهم في خبرتهم الثقافية والتاريخية. على عكس الأشكناز استمتع السفارد (تعنى الكلمة إسباني) بمجتمع أيبيريا المسلم الأكثر تسامحا حيث قبلهم الأمراء العرب كمواطنين متساوين وحيث تقلد اليهود مناصب عليا في الحكومة وازدهروا في التجارة وبرزوا في التخصصات المعروفة حتى طردهم الاسترداد المسيحي من إسبانيا في عام ١٩٤٢ ومن البرتغال في عام ١٩٤٧. وانتقل العديد من اليهود المنفيين السفارد إلى إيطاليا ولجأ معظمهم إلى أقاليم الإمبراطورية العثمانية التي تطل على البحر المتوسط. (تطورت الثقافة اليهودية الأيبيرية وعزم اللاجئين السفارد على السيطرة على

الجاليات اليهودية الشرقية فى المناطق التى استقروا فيها لتفسير سبب تسمية الأهالى اليهود فى البلاد الإسلامية سفارد على الرغم من عدم نسب العديد منهم إلى أصل أسباني أو برتغالي فى الحقيقة.) فى مصر قبل القرن التاسع عشر على الرغم من توجييه قدر من الإجحاف وسوء المعاملة العام لكل الأقليات غير المسلمة فى ذلك الوقت ، فإنهم استمتعوا بحرية الدين وحكم أقل قمعا من أى مكان آخر فى الإمبراطورية العثمانية حيث كانت الظروف بدورها أفضل من الظروف التى تحملها الأشكناز فى أوروبا الشرقية. فى ظل هذه الظروف المريحة نسبيا أصبحوا تجارا ومرايين وملتزمى ضرائب ورسوم جمارك بارزين^(٦٥).

بقوم محمد على تشجعت الهجرة اليهودية من إيطاليا واليونان بشكل رئيسى خلال الفترة من عام ١٨٢٠ إلى عام ١٨٤٠ كجزء من برنامجه لتطوير مصر وتحديثها بمساعدة الاستثمار والخبرة الأجنبية، وفى الحقيقة ازداد عدد اليهود كمكون إضافى فى عموم الأقليات الأجنبية. جاءت موجة جديدة من السفارد إلى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من شمال أفريقيا وإيطاليا وتركيا وسوريا والعراق لينعموا باستقرار الحكم البريطانى وتحرره. كان السفارد - أس الصهاينة الزائرين ومنهم الصحفى الفيينى الذين قال إن "مصر تظل أكثر الدول حرية فى العالم" فى عام ١٩٠٤ إلا أنه اشكى من نتيجة أن يهودها لم يتفاهموا" فى "مواجهة كل قضايا الثقافة أو الأمة اليهودية." ^(٦٦)



بارون فيلكس دى ميناشا مع ابنتيه (من اليسار إلى اليمين) كلير ودينيس وابنه جين. كانت أسرة ميناشا ضمن أكثر الأسر في المجتمع السكندرية وأسهموا إسهامات مهمة في تألق حياتها الثقافية وتطورها.

كان هذا هو العالم الذى انتمى له ميناشا. طبقاً لفيلكس ميناشا قدمت الأسرة إلى مصر عن طريق حلب التى تعتبر مدينة ذات مركز تجارى عظيم تقع فى شمال سوريا؛ حيث يتم جلب التوابل والأقمشة والمعادن الثمينة والجواهر محملة على ظهور الجمال من الشرق للمصنعين الأوروبيين. لعب اليهود فى حلب والقاهرة حيث استقر ميناشا فى القرن الثامن عشر دوراً رئيسياً كتجار ومرايين حيث سيطروا على الأسواق واحتكروا تجارة القوافل فى أيديهم.^(٦٧)

ولد جد فيليكس دى ميناشا فى عام ١٨٠٧ فى حارة اليهود بالقاهرة غرب خان الخليلى السوق الشهير فى قلب المدينة ونشأ فيه ليصبح المصرفى الخاص بالخدويى إسماعيل. كان يعقوب (جاكوب) ليفى ميناشا (كان الاسم الأصلى ليفى ولكن فى وقت ما فى القرن التاسع عشر إن لم يكن قبله تم إضافة لقب ميناشا الشكل الفرنسى لميناش العبرى أو منشة العربى وتعنى أداة لطرد الذباب) أحد رجال الأعمال فى مصر الذين استغلوا الفرص التى عرضتها عليهم التجارة الأوروبية ومؤسس المصرف الدولى "جى إل ميناشا وأبناؤه". وتم إضافة دى فى عام ١٨٧٦ عندما حصل على الجنسية المجرية، بالإضافة إلى لقب بارون الإمبراطورية النمساوية لإطرائه على أشرة تجارة هابسبرج بين منطقة أدرياتكا والشرق. قسم انتقاله من القاهرة إلى الإسكندرية فى عام ١٨٧١ الجالية اليهودية فى الإسكندرية عندما عارض البارون المتمسكين بالتقاليد على الرغم من عدم وضوح التفاصيل. تم سد الشق لاحقاً ولكن فى نفس الوقت أقام مؤسسة مدارس ميناشا فى شارع السلطان حسين التى درس فيها كاثوليك رومان التعليم العلمانى لأعضاء الجالية اليهودية الأقل غنى. (هنا حيث تم حفر المؤسسة تم اكتشاف عمود السوارس الهائل الذى ارتفع فى الحدائق البلدية لإحياء ذكرى استعادة الخرطوم وهو نفس العمود الذى اجتمع عنده فورستر ومحمد لأول مرة.) كما بنى معبد ميناشا ربما لمعارضة الحاخامات ومعبدها الكبير، فى شارع النبى دانيال يقع معبد ميناشا بجوار الحدائق الفرنسية، كما أنشأ مقبره بالقرب من المقابر البروتستانتية والقبطية واليونانية والسورية والأرمنية والكاثوليكية فى الشاطبي؛ حيث دفن فى عام ١٨٨٢ وما زال مدفوناً هناك ضمن مجموعة من بارونات ميناشا (انتقل اللقب إلى أسلافه ذكوراً وإناثاً) وأعضاء آخرين من طبقة اليهود العليا فى الإسكندرية.

انتقلت شركة جى إل ميناشا المصرفية لأحفاد يعقوب جاك وإيلي وفيلكس وألفرد ميناشا الذين أرسلهم إلى أوروبا لاستكمال تعليمهم وإدارة فروع الشركة المختلفة هناك قبل عودتهم إلى الإسكندرية. درس فيلكس المولود فى ١٨٦٥ فى فيينا واتجه إلى إنجلترا عندما أتم عامه العشرين؛ حيث تحمل مسئولية فرع البنك فى لندن وفى نفس الوقت مد جاك الذى كان رئيس الأسرة والشركة مجال مصالح عمل ميناشا فى مصر حيث غامر فى إنشاء السكك الحديدية وأعمال الماء واكتسب ملكية أراضى ممتدة فى مصر العليا والسفلى بشكل أساسى لزراعة السكر والقطن.^(١٨) وفى عام ١٨٩٠ بنى جاك بالتعاون مع أخوته مستشفى ميناشا التى اشتهرت وسط المرضى اليهود وغير اليهود على حد سواء وأصبح رئيس الجالية اليهودية فى الإسكندرية فى نفس العام واستقر فى هذا المنصب لمدة أربعة وعشرين عامًا حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى التى حولت الجالية إلى "نموذج ترتيب وتنسيق" حتى مع الصهاينة الذين فضلوا السخريّة من الانسجام بين الجاليات معقلين على انخفاض مستوى التوتر الاجتماعى والدينى فى الإسكندرية.^(١٩)

ومقارنة بأخيه الأكبر سنا انغمس جاك فيلكس دى ميناشا فى الملذات؛ حيث تقاعد من عمله بحلول عام ١٩١٤ لمدة عشرين سنة على الرغم من عدم بلوغه سن الخمسين وعلى الرغم من استمراره فى إدارة شركاته ومؤسساته المصرفية العديدة واشتراكه فى أنشطة الخير المحلية، فإنها لم تتجاوز اشتراكاً نظرياً من رجل يعطى انطباع أنه كرس نفسه للاستمتاع بثروته الهائلة. يتذكر حفيده جاك مواس أنه ورث عن أسرته قدرته على المرح الدائم والعيش فى الحاضر وعدم الندم على الماضى وعدم الاندهاش من أى شيء قد يحدث فى المستقبل. "لم يكن رجلاً متديناً بالتأكيد: "لا أتذكر قضاء عيد يهودى فى منزله وتقول أمى إنها تتذكر عدم حدوث شيء من هذا القبيل." وظل على هذا الحال حتى وفاته ولكن أدت

عواقب الحرب غير المتوقعة وزواجه من سيدة جميلة وغامضة ورائعة إلى فكرة أن فيلكس دى ميناشا يناضل من أجل فكرة عظيمة مثل أقرانه أسرة بيناكي.

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤ وجدت أسرة ميناشا نفسها كمواطنين نمساويين مصنفين كأعداء للبريطانيين. وأجبر جاك دى ميناشا على تقديم استقالته من منصب رئيس الجالية اليهودية بالإسكندرية التي نعمت بحماية الإمبراطورية النمساوية مثل أسرته. كان خليفته إدجار سوارس الممول قريب نسب من بعيد ولكن حيث قدمت أسرته من إسبانيا عبر ليفرونو كان مواطناً إيطالياً وحليف بريطانيا في الحرب العالمية الأولى. واقترب سوارس من المندوب السامي في مارس ١٩١٦، حيث أكد أن بعض اليهود فضلوا الحماية الألمانية على فلسطين ولكن استطاعت بريطانيا إلزام الشعب اليهودي في العالم بقضيته بإنشاء حماية وفتح فلسطين لليهود الذين أداروا شئونها الداخلية.

قدم المصرفي والسياسي الليبرالي سير/ هيربرت صاموئيل أول يهودي غير معمد يعلّي منصب رئيس الوزراء اقتراحاً مشابهاً للحكومة البريطانية في العام السابق بعد اجتماعه بحاييم فايتسمان. قدم تشارلز بيرسي سكوت الذي كان ليبرالياً سابقاً ومحرر مانتشستر جارديان الذي اكتشف أن فايتسمان الذي يعتبر مواطناً بريطانياً مولوداً في روسيا لصاموئيل تركيبة نادرة من المثالية والعملية الصارمة التي تشكل ضروريّتي فن إدارة شئون الدولة اليهودية. صدمني شعور اليهود المتقد والمتوهج كيهود في وجهة نظره وطلبه دولة أي وطن يعتبر وطن عرقه العتيق له ولأى شخص آخر يشاركه الجنسية اليهودية.^(٧٠) كتب بنيامين دسرايلي^(٧١) الذي تحول من سفاردي إلى أنجليكاني وكان رئيس وزراء استعمارياً في توري في تانكرد، وهي ما تؤكد روايته الرومانسية الغنائية في عام ١٨٤٧ كان يلقيها يهودي في نبوة القدس أن " الإنجليز سيستولون على المدينة ويحتفظون بها." ولكن تجاهل

فايتسمان رومانسية سكوت فى قراءة الإنجيل لم يزعج معارضة سكوت الليبرالية لامتداد التزامات بريطانيا الاستعمارية، حيث أخبره فايتسمان فى نوفمبر ١٩١٤ أن فلسطين لن تتال الاستقلال ولكن تعد حليفاً، أى "بلجيكا أسيوية فى أيدى اليهود" الذين "يشكلون مصداً قوياً لحماية قناة السويس".^(٧٢) اجتمع فايتسمان وصامونيل لأول مرة فى ديسمبر من نفس العام وفى بداية مارس ١٩١٥ اقترح صامونيل على مجلس الوزراء فرض حماية بريطانية على فلسطين ومستوطناتها فى فترة يمنح فيها ثلاثة ملايين يهودى أو أربعة ممن يشكلون أغلبية سكان ساحقة حكومة ذاتية. وفى وقت لاحق من نفس الشهر بمقارنة الدور اليهودى فى فلسطين بالدور البريطانى فى مصر أخبر فايتسمان سكوت أن اليهود "يستولون على البلد كلها حيث يقع عبء التنظيم عليهم ويعملون تحت الحماية البريطانية المؤقتة".^(٧٣)

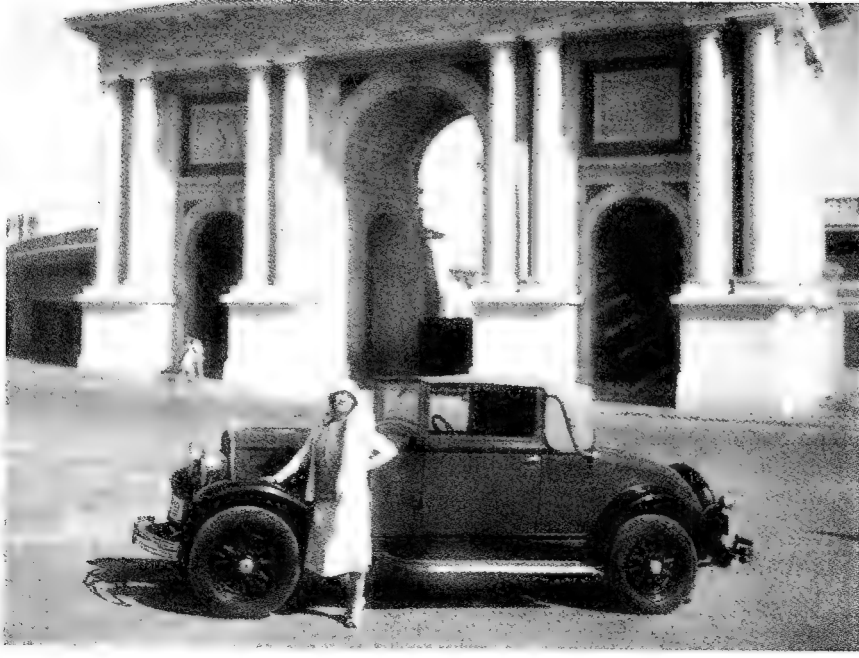
فى ١١ ديسمبر ١٩١٧ دخل جنرال أللنبى القدس مشياً بعد أن تذكر أن أحد الحمير يكفى لشخص أعظم منه وهو فاتح المدينة المسيحى منذ ثمانمائة عام. ولكن فى نفس الوقت حقق فايتسمان انتصاراً آخر عندما أعلنت الحكومة البريطانية بيان سياستها بشأن الطموح اليهودى تجاه فلسطين عندما كان الليبرالى لويد جورج رئيس وزراء وأرثر بلفور وزير خارجية. كان إعلان بلفور الشهير فى ٢ نوفمبر: "تستحسن حكومة جلالته تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين وتبذل قصارى جهدها لتسهيل تحقيق هذا الهدف ومن المفهوم على نحو واضح عدم القيام بأى شيء يخل بالحقوق المدنية والدينية بالمجتمعات غير اليهودية فى فلسطين أو الحقوق أو الوضع السياسى الخاص باليهود فى أى بلاد أخرى..".

تأجل إعلان الإعلان للتاسع من نوفمبر تاريخ نشر صحيفة أحداث اليهود فى لندن التالى على الرغم من اعتبار الصحافة البريطانية عامة والحكومة للإعلان كحدث ثانوى. فى ١١ نوفمبر فى الإسكندرية فى مشاهد تذكيرية إن لم تكن بميزان

استقبال اليونانيين لفينزيلوس منذ عامين ونصف تجمع ثمانى آلاف يهودى لحث فايتسمان على الترحيب بالأخبار. وبعد مرور أربع شهور فى مارس ١٩١٨ أبحر فايتسمان نفسه إلى ميناء الإسكندرية ورحبت به جموع اللاجئين اليهود الغفيرة والحماسية من فلسطين يلوحون باللافتات الصهيونية (التي أصبحت علم إسرائيل) ويغنون (النشيد الصهيونى والنشيد الوطنى الإسرائيلى حالياً) كما رحب به عدد من الوجهاء بترعهم إدجار سوارس وبارون فيلكس دى ميناشا.

تذكر سكندرى يدعى برنارد دى زغب أن "روزيت دى ميناشا امرأة مذهلة فقد كانت فرنسية حقاً سيدة متوهجة صهباء الشعر تتميز بشخصية رائعة وحياة غامضة قبل زواجها من البارون." ولدت فى باريس فى عام ...؟ وهنا تبدأ الصعاب. فقد سأل أحدهم ضابطاً إنجليزياً صغير السن خلال مأدبة عشاء فى أثناء الحرب العالمية الثانية: "كم يبلغ عمر السيدة التى تقف هناك؟" وأجاب بعد طول الطاوله ووجهها فى ضوء الشموع: "حوالى ثلاثة وعشرين عاماً." فى الحقيقة كانت تقترب من السبعين ولكن لم يكن أحد على يقين. مات فيلكس عن عمر يناهز ثمانى وسبعين عاماً فى عام ١٩٤٣ بعد أن قيده للشلل لمدة عقد فى منزله الكبير فى محرم بك، ولكن عندما توفيت روزيت فى عام ١٩٤٩ لم تستطع حتى أسرتها تقدير عمرها: فقد تغلبت على القنصل الفرنسى لتغيير جواز سفرها لإخفاء تاريخ ميلادها الحقيقى وبت عيناها الزرقاوان وملامحها الدقيقة أصغر بكثير من عمرها الحقيقى.

لم تكن روزيت تبلغ عامها العشرين عندما وصلت إلى الإسكندرية فى أوائل ١٨٩٠ كعشيقة (ربما زوجة) جورج فيليبارد مدير عام البحرية لخدمات البريد. ولكن كيف تزوجت فيلكس دى ميناشا وكيف كانت حياتها قبل الزواج؟



بارونة روزيت دى ميناشا فى الاستاد المحلى. تذكرت إحدى السكندريات:
"روزيت دى ميناشا امرأة مذهلة فقد كانت فرنسية حقاً سيدة متوهجة صهباء
الشعر تتميز بشخصية رائعة وحياة غامضة قبل زواجها من البارون."

فأجابت بناتها: " يجب على الفتيات صغيرات السن ألا تطرح المزيد من
الأسئلة، إلا أنها قالت إن أمها ولدت دانتون مما يزيد التكهّنات بأن روزيت حفيدة
الثورى. ولم تذكر والدها على الإطلاق إلا أنها ادعت حمل اسم لاريبا دى
باستروس، وتحدثت عن صلة، وهى صلة بالمطالب بالعرش الإسباني: دانتون
وبوربون تناسق غير قابل للتصديق. انتشرت الشائعات حول عمل روزيت
كراقصة فى باريس حيث تعيش أختها الممثلة شارلوت ليز التى كانت عشيقة
الممثل والمدير لوسيان جيتارى ثم تزوجت ابنه الممثل ساشا جيتارى. بالطبع
عندما قدم شارلوت وساشا إلى الإسكندرية أقاما مع فيلكس وروزيت فى محرم بك.

لم تطل روزيت البقاء فى الإسكندرية عندما سجن فيليبارد بسبب صفقات عمل احتيالية وظهرت زوجته الحقيقية بصحبة أولادهما. لسبب أو لآخر بقيت روزيت دون سبيل للعيش ويبدو أنها اللحظة التى قابلت فيها فيلكس دى ميناشا الذى لحق بها فى باريس، إلا أنها كانت علاقة سريعة وعاطفية وليست سهلة: فيلكس متزوج من ابنة عمه سيلين التى ولدت لتوها ابنهما جورج، وكان لروزيت ابن مولود غير شرعى حيث تركته فى فرنسا وقد كان يجب أن يظل على صلة سرية لأنه قدم إلى الإسكندرية عندما توفيت ليطالب بميراثه؛ قال حفيدها جاك مواس: "أتذكره جيدًا فهو يشبهها إلى حد كبير."

فى نهاية القرن الذى عاش فيه فيلكس وروزيت فى باريس حيث توفيت سيلين التى هربت مع مدرس الكمان فى عام ١٩٠٠ ودفنت فى مقبرة بيرى لاشيه. ولدت كلير (والدة كلاود) فى باريس فى عام ١٩٠١ وابنها جين فى الإسكندرية وليس من ثمة ابنة شرعية سوى دينيس المولودة فى ١٩٠٩ ، حيث لم يتزوج فيلكس وروزيت حتى عام ١٩٠٣. فى وقت ما عرف جين الحقيقة بعد وفاة والدته أو أنها صارحته فى حياتها، لأن شهادات ميلادها وزواجها كانا من ضمن ممتلكاته الشخصية. يظهر أن روزيت ولدت بشكل غير شرعى فى عام ١٨٧٥ على الرغم من أن والديها اللذين سمّياها روز كلاوديا تزوجا فور إنجابها. كان والد روزيت قبرصيًا سائقًا مولودًا فى إسبانيا وكانت والدتها كلاودين دى باستوس صانعة أحذية حريمى وكان والدها بدوره صانع أحذية تزوج من كلاودين دانتون على الرغم من سكنهم فى جنوب وسط فرنسا بعيدًا عن مكان مولد دانتون العظيم شرق باريس. تزوج فيلكس وروزيت فى جينيف فى مراسم مدنية أمام القنصل النمساوى ثم فى المعبد الكبير فى اليوم التالى وهذا يفسر تأخر فيلكس فى الزواج حتى على حساب طفليه غير الشرعيين: لأنه لم يكن يهوديًا متمرسًا ليتزوج

روزيت الكاثوليكية الرومانية حتى تمر بعملية التحول الطويلة إلى اليهودية بسبب اقتصار انتماء أطفالها لليهودية على هذه الطريقة.

فرضت روزيت كبارونة دى ميناشا شخصيتها على المجتمع الإسكندري. كان مجتمعاً تجرى فيه المحادثات بالدخول في عدة لغات والخروج منها في الجملة الواحدة، ولكن بينما تحدث فيلكس اللغات الفرنسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية والعربية بطلاقة تحولت مغامرات روزيت التي تتجاوز الفرنسية في غير محلها حيث أخبرت ضيفاً بريطانياً عالي المرتبة على العشاء أثناء الحرب العالمية الأولى "أنها أصيبت بالبرد في سريرها" وعندما أسقط فيلكس نظارته الأحادية في الشوربة. قصدت أن تقول إنها أصيبت بالبرد في منزله تسبب نطقها غير السليم لكلمة "سرير" بالعربية "بيت" وتعني منزلاً. تنهد فيلكس قائلاً: "هذا ليس صحيحاً بل قصة جميلة" وأصبحت فيما بعد شيئاً من شعار العائلة.

وبوفاة جاك في عام ١٩١٦ وثق الجميع في فيلكس كأكبر أخ ما زال باقياً في تحمل مسؤولية عمل الأسرة ودور الأسرة في شئون الجالية، وحين الوقت الذي شجعت فيه البارونة روزيت دى ميناشا فيلكس بمذاقها من التمثيل والمغامرة التي فرضت نفسها على هويتها الجديدة اليهودية والأرستقراطية على القضية الصهيونية.

بعد نزول فايتسمان في الإسكندرية في ٢٠ مارس ١٩١٨ بداية صداقته الحميمة مع فيلكس وروزيت دى ميناشا. أصبحت روزيت التي تجاوزت دور المضيفة الكيسة مراسلة فايتسمان طوال حياته وتخبره بأحداث المدينة ونوبات غضبها، حيث اشتكت على سبيل المثال من السوريين المسيحيين الذين يمارسون "معادة السامية المقنعة إلا أنها أكيدة." (٧٤) وصل فايتسمان كرئيس للجنة

الصهيونية التي تهدف إلى حماية مصالح اليهود في فلسطين وهي مهمة تقتضى تجاوز المخاوف العربية بشأن نوايا الصهيونية المطلقة. فى سبيل هذا الهدف سافرت اللجنة إلى القاهرة حيث اجتمع فايتسمان بفارس نمر مع أعضاء اللجنة الفلسطينية من المسلمين والمسيحيين وطمأنهم بشأن طموح اليهود المحدود فى فلسطين.

وصل فايتسمان الذى استقل قطار المساء من القاهرة فلسطين فى ٣ أبريل ووصلت اللجنة فى اليوم التالى، لم يضيع أحد أعضاء اللجنة وقتاً فى كتابة يومياته فى تاريخ ٧ أبريل: "العرب فى فلسطين كانوا بقعة على منظر طبيعى من الممكن إزالتها".^(٧٥) اعتبر فايتسمان أن التباين بين النظرية والحقيقة صدمة فكرية وعاطفية. فى لندن شارك فايتسمان الحكومة فى افتراضات مريحة حول تنفيذ الخطط الصهيونية ولكن واجهت السلطات العسكرية البريطانية مشكلة احتواء الحساسيات بين الفلسطينيين الذين لم تتم استشارتهم بشأن إعلان بلفور، وظلوا غير متفقين فى تخوفهم بينما يستجيبون لتطمينات فايتسمان. خلال شهرين من وصوله قرر أن للعرب الفلسطينيين "طبيعة الخيانة"^(٧٦) كما أنهم "عرق فاسد الأخلاق من المستحيل التعامل معه".^(٧٧) تعاطف رونالد ستورس الذى كان حاكم القدس من عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٢٦ مع الصهيونية، إلا أنه ندم على غطرسة بعض اليهود الروس على اللجنة وأشفق على عدم زيادة استفادة الصهاينة من السفارد الذين يعتبرون عملاء نموذجيين للمفاوضات لأن لهم نفس خلفية العرب الشرقية. كتب ستورس: "يعلم الصهاينة كل شيء عن أوجه المشكلة ما عدا فلسطين والفلسطينيين؛ فهم لا يعرفون اللغات ولا يوظفون اليهود المصريين الذين يعرفونهم مما يؤدى إلى إظهار نوايا سياستهم الواضحة للسكان الحاليين أقل من تطميناتهم".^(٧٨)

ولكن فى مصر اضطر فيلكس دى ميناشا لفعل هذه الأشياء، ففى صيف ١٩١٨ بعد العودة من القدس حيث حضر فايتسمان حجر الأساس للمسجدة العبرية ساعد فى تأسيس لجنة مناصرة فلسطين السكندرية وأصبح أول رئيس لها. الهدف من اللجنة تشجيع الاستيطان فى فلسطين وتمويله على الرغم من تأكيد الرفاهية والأمن اللذين ينعم بهما اليهود فى مصر حسب الإحصاءات الإسرائيلية والمصرية هاجر أقل من أربعة آلاف يهودى من مصر إلى فلسطين فى ثلاثة عقود منذ ١٩١٨ (العديد منهم ليس يهوديا مصريا ولكن من مكان آخر فى الشرق الأوسط أو أشكيناز من شرق أوروبا توقفوا فى مصر فى طريقهم إلى فلسطين) بينما زاد عدد اليهود فى مصر زيادة مطردة فور تأسيس دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ لم تحدث هجرة جماعية كبرى سوى عقب حرب السويس فى عام ١٩٥٦. كان إنجاز اللجنة تمويل هجرة اثنى عشر ألف يهودى أوروبى لفلسطين بين عامى ١٩٢٠ ١٩٢٧ حيث يهاجر واحد من كل سبع يهود هناك من جميع أنحاء العالم عندما كانت المغامرة الصهيونية كلها فى خطر بسبب مغادرة العديد من اليهود حتى فى أثناء قدوم اليهود إلى فلسطين؛ حيث لم يشهد عام ١٩٢٧ سوى هجرة اليهود من البلاد. كما أصبح فيلكس رئيس صندوق ترميم فلسطين بالإسكندرية وممثل مصر فى المؤتمر الصهيونى فى لندن فى عام ١٩٢٠ والمؤتمر الصهيونى الثانى عشر فى كالرزباد فى عام ١٩٢١.

وفى الوقت نفسه لعب فيلكس دى ميناشا دورا مهما فى المناقشات التى غيرت مجرى التاريخ. من وجهة النظر اليهودية كانت الصهيونية التى اقتضت العديد من التضحيات حركة مثالية، إلا أن الفلسطينيين اعتبروها استعمارا إجباريا على بلادهم قام به شعب غريب وفى عامى ١٩٢٠ ١٩٢١ انفجر الفلسطينيون مسلمين ومسيحيين فى مظاهرات دموية ضد البريطانيين والصهاينة. وكان رد

فايتسمان مضاعفا. في كالرزباد فوض شراء الأسلحة المهربة إلى فلسطين. ليستخدما الهجانة التي تعد ميليشيات الصهاينة السرية، بينما تفاوض فيلكس دي ميناشا بالإضافة إلى ديفيد إيجار أحد أعضاء اللجنة الصهيونية البريطانيين وأشير سفير صحفى يهودى فلسطينى له صلات ممتازة بالعرب مفاوضات سرية مع أعضاء المؤتمر العربى الشامل فى القاهرة فى عام ١٩٢١ بتشجيع من فايتسمان. قرر الأطراف أن المشاكل بين العرب واليهود فى فلسطين ما هى إلا عواقب الوعود البريطانية المتضاربة وأن الطرفين يُنحيان إعلان بلفور جانبًا ويعقدان اتفاقا ثنائيا يختهه عقد رسمى.

تجمع الاجتماعات المبكرة التى عقدت فى أبريل الأطراف فى نقطة يستعدون فيها لتنفيذ أفكارهم. ولكن الأحاديث التى أعقبها على الفور منح مصر الاستقلال المحدود كانت بعيدة عن مكتب المستعمر الذى أكدت سياسته أن تستعيد بريطانيا سيطرتها على فلسطين. فور تصديق عصبة الأمم على الانتداب على فلسطين فى هذا الصيف الذى صاحبه تفعيل بريطانيا شروط إعلان بلفور لم يتوفر سوى حوافز قليلة للصهاينة للاستمرار فى الحديث مع العرب بعواقب الاستقرار والسلام فى الشرق الأوسط ومن أجل تحرر الإسكندرية من الأحقاد القومية والمحلية.

ما فائدة الصهيونية بين يهود مصر بعد انحسار الحرب العالمية الأولى فى العشرينيات، وفى عام ١٩٢٩ عندما قتلت أعداد غفيرة من اليهود وأصيبوا فى شغب استمر أسبوعًا فى القدس وكان نتيجة نزاع على ممارسات دينية عند حائط المبكى، ومن تقارير نوايا اليهود المزعومة لتدنيس الأماكن المسلمة المقدسة وتوقف نشاط صهيونى مفتوح فى مصر بسبب استشارة زعماء الجالية اليهودية الذين كانوا قد تلهفوا على عدم استيراد متاعب فلسطين. مارس فيلكس دي ميناشا

الذى كان رئيس الجالية اليهودية فى الإسكندرية فى عام ١٩٢٧ أنشطته داخل فلسطين حيث تبرع بمبالغ كبيرة لمستشفى القدس واشترى أراضى (مثل ابنه جورج) أعلى جبل الكرمل وأصبح عضو مجلس الوكالة اليهودية للجنة الصهيونية التى تصرفت كحكومة يهودية مستقلة فى فلسطين. ولكن ما ضيع الفرصة شغب حائط المبكى، فى عام ١٩٢٩ انهار التقاهم تمامًا بين الجانبين وبدأ صراع مرير وتعذرت السيطرة عليه بدأ يتسرب للسياسة المصرية أيضًا فى الثلاثينيات. تذكر فارس صاحب صحيفة المقطم التى صادقت على بعض السياسات الصهيونية اجتماعاته مع فايتسمان وقال: "لقد كذب على. ليس رجلاً صادقاً." (٧٩)

رجت فضيحة شهيرة الجالية اليهودية أثناء فترة رئاسة فيلكس، فضيحة نشأت داخل أسرة ميناشا نفسها. سافر جين إلى السربون بعد مغادرة أوكسفورد لدراسة اللغات الشرقية واعتنق الكاثوليكية الرومانية تحت تأثير الفيلسوف جاك ماريان وأصبح دومينيكي واتخذ اسم بيير. بالإضافة إلى نشر عمل عن عبارات مقتبسة كتب فى عام ١٩٣١ كتاباً عن الحاسدية التى انتشرت تعاليمها من التقاليد اليهودية الصوفية المعروفة باسم كابالا. ولكن اهتمامه المستمر باليهودية أو بالأحرى صهيونيته الفعالة قبل تحوله أو بعده^(٨٠) لم تحسن شعور والده وكان أصعب موقف جمعهما سوياً والمحاولات المبذولة لمداداة العلاقة بينهما عندما زار جين الإسكندرية فى عام ١٩٣٢. وسط شيوع الفضيحة، بدلا من الخضوع ذهب جين للاحتقال فى كاتدرائية القديسة كاترين. أدار المصرفيون والسماسرة لليهود فى نادى محمد على ظهورهم ولكن لم يقف شيء فى طريق فخر روزيت بابنها ولحقت به فى كاتدرائية القديسة كاترين لسماع وعظه. وفى نفس العام استقال فيلكس دى ميناشا من رئاسة الجالية اليهودية وعانى لعام أو اثنين فى وقت لاحق بسبب اكتشافه أن روزيت على علاقة بايلى عدس الذى انتمى لإحدى أكثر العائلات اليهودية فى مصر ثراء وأراد الزواج بها إلا أنها أخبرت ابنتها كليز: "هل

استبدل لقب بارونة دي ميناشا بمجرد سيدة عس؟^(٨١) واستمرت العلاقة بينما بقيت روزيت مع فيلكس الذي ظل مشلولاً في المنزل في محرم بك بقية حياته.

عندما انتقل جاك وكليير فينسندون مع كلاود وأخويها الصغيرين من شارع رسافة إلى شقة في ٦٣ شارع فؤاد أمام البلدية. كان زواجهم سبباً آخر لمحنة فيلكس دي ميناشا، حيث كان جاك مسيحياً، وعلى الرغم من اكتشاف فايتسمان في الغرام^{٨٢} عندما قابلهم في الإسكندرية عقب زفافهم كان يردد فيلكس عندما طرد جاك مثل "رجل فرنسي لا لون له".^(٨٢) امتلك المبنى أخو كليير غير الشقيق بارون جورج دي ميناشا الذي سمح لهم بالسكن مقابل إيجار تافه. عاش جورج ووالده فيلكس على دخل استثماراتهم المرتفعة التي حققتها من مكاتب الميزانين استثمارات امتدت خارج مصر. في الطريق لفلسطين في عام ١٩٣٥ زار فايتسمان الإسكندرية مرة أخرى حيث أقام في شارع رسافة ولكنه افتقد جورج دي ميناشا هذه المرة وكتب له من لندن في وقت لاحق:

سمعت مؤخراً أنك كسبت أموالاً طائلة في فلسطين وأسمع أنك استثمرت هذا المال في فلسطين ولا يسعني إلا أن أتمنى لك أفضل حظ. ولكني أشعر أنني يحق لي عمولة صغيرة على هذه الصفقة، حيث قمت بتعريفك فلسطين وبالتالي في عمليات شراء الأراضي التي قمت بها هناك. أعتقد أن كلينا لا يأسف على ما قمنا به في هذا الاتجاه، تحدثت مع والدك بهذا الشأن وأعتقد أنه يتفق معي في قضيتي. أود الحصول على عمولتي في شكل مساهمة في معهد ريهوففورت. أترك لك تقدير المبلغ بين ٥٠٠ و ٥٠٠٠ جنيه إسترليني ولكن أتمنى ألا ترفضني؛ فأنا على يقين أن هذه الصفقة مثمرة مثل صفقتك الأولى على التربة الفلسطينية.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

الرئيس فايتسمان^(٨٣)

كانت شقة فينسدون واسعة ("اعتدنا ألف حول الدرايزين")^(٨٤) مع وجود غرف إضافية لكارمن وهى يوغوسلافية تتحدث الإيطالية وصيفة كليبر وجليسة الأطفال بوللى أوميرا. تعلمت كلاود وأخواها اللغة الفرنسية فى المدرسة وتحديثوا اللغة الإيطالية مع كارمن والتقطوا بعض الكلمات اليونانية من جورج السائق. ولكن كانت لغتهم الأولى الإنجليزية وتعلموا بلكنة أيرلندية خفيفة من بوللى مما أجبر والدهم الفرنسى على تعلم الإنجليزية أيضا. وظف فيلكس وروزيت بوللى أومارا بعد ولادة كليبر فى عام ١٩٠١ واستمرت فى العائلة حتى بعد الحرب العالمية الثانية مما وفر لكلاود مخزوناً من الذكريات تتجاوز خمسين عاماً فى منتصف الخمسينيات عندما بدأت كلاود السكن مع لورانس دوريل وبينما كان يكتب رباعيات الإسكندرية كانت تكتب سلسلة من الروايات وأهدت إحداها لبوللى أومارا ورواية أخرى لعمها جورج دى ميناشا الذى أضافت له شعار 'بالاشتراك مع كتاب القصص الآخرين استعملت مكونات حقيقية وخيالية. شخصية لا تصف أى شخص معين ولكن تعكس أوجه عديد من الشخصيات'.^(٨٥)

كانت آخر تلك الرباعيات التى يرسم فيها دوريل بناء على معلومات كلاود عن المدينة تلك التى كتب فيها عن أسرة حوسنانى القبطية: الأب المشلول والأم الجميلة والولدين أحدهما ممول والآخر صوفى متدين والقضية التى تورطوا فيها وهى فلسطين اليهودية التى تتحالف مع الأقباط ضد قوة المسلمين المتزايدة فى مصر. داخل نماذج دوريل لم تكن أسرة حوسنانى مسيحية؛ كانوا ازدهار الإسكندرية المتحررة من الأحقاد القومية والمحلية المتألق، فقد كانوا يهودا وكان اسمهم دى ميناشا.

كان بناء الشقة قد تم تقسيمه إلى نصفين وكل نصف له مدخل ومصعد خاص به، بينما سقف الشقة بمثابة ملعب مشترك لماريا لوريا التى سكنت فى

الطابق الأول فى ٦٥ شارع فؤاد بينما كانت كلود وأشقاؤها يعيشون فى الطابق العلوى رقم ٦٣. "كنت معتادا أن أرى كلود كثيرا هناك، كانت فتاة جميلة. إلا أنها كانت تنتسب إلى مجموعة مختلفة من الناس، أبى كان إيطاليا، وهذا ربما يكون سببا، كما كانت فتاة أصغر منى." لم تكن هناك أى صلة أو روابط بين العائلتين. فوالد مارتا "أليساندرو لوريا، كان مهندسا معماريا قد ترك بصمته على مدينة الإسكندرية من خلال فندق سيسل. وشرفات القصر تطل على الميناء الشرقى بالقرب من القنصلية الإيطالية. إذ تم تكليفه ببناء الفندق من قبل ألبرت ميتزجر، الألمانى خلال الحرب العالمية الأولى والذي اكتشف عدم ملائمة كونه عدوا غريبا وأصبح مواطنا بريطانيا، وعندما افتتح فندقه فى عام ١٩٢٩، فى بادئ الأمر أطلق عليه ميتزجر قصر ريجيان ولكن فى خلال سنة تم تغيير اسمه إلى سيسل بعد فنادق لندن الفخمة.^(٨٦) وعلى الفور تم تقديره بأنه أجمل فنادق الإسكندرية، وبالنسبة لدوريل، فقد كان أفضل من فندق شبرد كايرو وذلك لقربه من البحر.^(٨٧) وقد أصبح فندق سيسل هو العلامة المتكررة فى الرباعيات Quartet حيث كانت جوستين تنتظر وقد طوقت حقيبتها، بيديها بينما هى تحقق من الشرفة على البحر الممتد أمامها وأمواجه تتسابق وتتلاطم على حواجز النخيل فى مربع البلدية وتضربه وتراجع عنه مثل شراع مهلél.^(٨٨)

ولد جوسيبى أليساندرو لوريا فى مدينة المنصورة فى عام ١٨٨٠ وبعد قضاء زمن فى توسكانى والقاهرة استقر أخيرا فى مدينة الإسكندرية فى عام ١٩١٤. وهناك تزوج من عائلة كامبوس الثرية وكلهم من المحامين والتجار، وشيد بيته فى ٦ شارع نيرتوسوس، وامتداد شارع البطالمة فى جنوب شارع فؤاد، أما الشقة الخلفية فى الطابق الأول ومكانته فى الميزانين (الطابق الأوسط بين الأرضى والأول). تذكر ابنته مارتا "كانت حياة أبى هى العمل. كان عمله متواصلا سبعة أيام فى الأسبوع، لا يمارس أى هوايات. فى خلال السنوات العشرة الأخيرة من حياته فقط" - لقد توفى فى عام ١٩٣٧ - كان يأخذ يوما واحدا عطلة

أسبوعية، يخرج فيها مع ماريتوس وإلى الصحارى المجاورة." فى خلال الحرب العالمية الأولى اشترى فليكس دى ميناسى من البدو قطعة أرض على أن يخصصها لتسكين اليهود المهاجرين فيها إذا فشل بلفور فى إعلانه عن تخصيص فلسطين وطناً لليهود، وفى حالة ميناسى جعل جلوريا تطور جزءاً من ذلك المكان فى منتجع الصحراء الشتوى من كينج مريوط - كانت تلك الأرض هى المكان الوحيد الذى يلجأ إليه فورستر.



زفاف - فى عام ١٩٣١ - دينيس دى ميناسى (الثانية من الشمال) إلى ألفريد ماواس، والذى يقف بين روزيتا وكثير. وفى أقصى يسار الصورة تظهر بولى أميرا، وهى المؤتمنة على تاريخ وأسرار الأسرة. وقد كانت بولى مربية أطفال روزيتا، وحاليا مربية أطفال كثير، وستصبح مربية لابنة كثير وهى كلود التى نقلت قصص بولى عن ميناسى إلى لورانس دوريل حينما كتب رباعيات الإسكندرية.

فى مدينة كانت مبانيها انتقائية مرحة، فلم يقد إنسان بالمرح على تلك النماذج المختلفة كما فعل أليساندرو لوريا، والذى شيد المستشفى الإيطالى فى ٣ شارع القصر إلى الشرق من شارع روند بوا (واليا شارع دلال الدسوقي من ميدان وابور المياه) والمستشفى اليهودى الجديد فى ٤٠ شارع محرم بك، والبنك الأهلى المصرى ولوحته البيضاء المزخرفة بالفسيفساء وزخارفه العربية على شارع طلعت حرب فى وسط المدينة، والعديد من المباني الرائعة على امتداد الميناء الشرقى بما فى ذلك شرق فندق سيسل، وفندق ليدو هاوس المصمم على طراز البنديقية، وهو حاليا متداع مثل المهيب وقد تم تقسيمه إلى مكاتب وغرف للإيجار ولكن مداخله المقوسة الجميلة وبناءه المعقد الملون مازال يضيفان على شارع الكورنيش أجواء الاحتفال.

نظرت مارتا إلى صور طفولتها وهى ترتدى القميص الأسود ومنديلها الأزرق حول عنقها من إيطاليا الجديدة، ورددت فى نفسها "كان أبى فاشيستي قح". وليس كل هذا، فمع فندق سيسل هناك المستشفيات والبنك والباقي، ثمّة آثار أخرى بالنسبة إلى لوريا فى المدينة: فى حديقة المعبد الكبير فى شارع النبی دانيال مبنى يحيط به منازل الحاخامات وما بقى من جمعية الجالية اليهودية. فى داخلها نقوش على الجدران، قائمة المحسنين فى الجالية، من بينهم ميناسى، وآل ساويرس وآل كاتويس وآل ريشى وآل بانونو وأليساندرو والذى كان أيضا فاشيستا إيطاليا مخلصا كما كان يهوديا إسكندرانيا مخلصا.

ومع فندق سيسل، فإن المرسم (أتليه Atelier) وهو واحد من أكثر العلامات تكرارا فى رباعيات الإسكندرية، وقد ألقى دوريل محاضرة بنفسه عن تى. إس. إليوت وكفافيس وصديق كلى بادارو رسم هناك، وفى المرسم أتليه غير دوريل الآن، دارلى قابل أولا جوستين:



جان دى ميناسى، والذى اعتنق المذهب الكاثوليكي وأصبح دونيماكان فى فرنسا، وهى جمعية يهودية تقوم بأعمال مروعة فى الإسكندرية عندما عاد إلى المدينة فى عام ١٩٣٢، وألقى موعظة فى كاتدرائية القديسة كاترين الكاثوليكية. جان كان يعرف كفافيس وقد طور شعره فى أكسفورد، لقبه تى إس إليوت بأنه "أفضل مترجم ترجم قصيدة "الأرض الخراب" إلى اللغة الفرنسية.

"لقد اقتنعت بأن ألقى محاضرة عن الشاعر الأصلي للمدينة فى مرسوم الفنون الجميلة- وهو ناد للهواة الموهوبين يجتمعون فيه، يؤجرون استديوهات وهلم جرا.. يا لها من جسارة أن تلقى محاضرة حول فنان ساخر وهو طبيعى وبصفاء الغريزة الفطرية يتناول موضوعاته من الشارع ومن مواخير مدينة الإسكندرية!

وأضاف لذلك وهو يتحدث ليس إلى بائعى الخردوات وصغار الموظفين - الخالدين- ولكن إلى شبه جمعية محترمة من السيدات اللواتى يعتبرن الثقافة التى يمثلها نوعا من بنوك الدم: تأتى مع النقل. كثير منهم فعلا قد سبق، كثير من هؤلاء السيدات قد سبق لهن إقامة حفل ورغم أنهم يعلمون وبدلاً من ارتقائك فإنهن يذهلنك.

لاحظت أنهم يخلفون وراءهم طلبًا وحيدًا من المشاعر والفنون.. تطلعت إلى باستخفاف واضطراب، وإذا هي تنظر إلى بصراحة وجدت ارتباكًا- كما لو أنها كانت تحاول أن تقرر ما فائدة ما أقوله. قالت "إننى أحب تلك الطريقة التى اقتبست بها السطور التى تحكى عن المدينة. إن لغتك اليونانية جيدة. فأنت بلا شك أديب. فقلت "قطعاً" لا يمكن معرفة الجراح. (٨٩)

تم تأسيس الأتيليه "المرسوم فى عام ١٩٣٥ على يد الفنان محمد ناجى (شقيق عفت ناجى الذى قابل دوريل عندما عاد إلى فيلا أمبرون فى عام ١٩٧٧) وأيضاً على يد جاستون زنانيرى وهو صديق لكفافيس، رغم أنها لم يتم تأسيسها ولم يقيم برينتون بتقديم الزنانيرى إلى توماس وايتور من المعهد البيزنطى فى أمريكا. فى سنة ١٩٣٢ بدأ وايتور انقلابه الملحوظ. فعند الغزو التركى للقسطنطينية فى سنة ١٤٥٣، فإن الكنيسة البيزنطية الكبرى أيا صوفيا التى بنيت فى القرن السادس الميلادى قد تم تحويلها إلى مسجد وقد تم تغطية زخرفتها السابقة. فلم يكن هناك فرصة، حتى إن الأثر القوى لم يتم إعادته إلى الاستخدام المسيحى، ولكن وايتور أقنع كمال أتاتورك بأن يستعيد الفسيفساء ويعرضها على الجمهور من خلال تحويل المسجد إلى متحف عام.

وعندما زار وايتور مدينة الإسكندرية، أقام مع برينتون فى بوكلى ومن هناك كان يزور الزنانيرى فى بيته القريب من نادى سبورتينج. وهناك كما وضعها الزنانيرى "قدم لى تفاصيل اللبالي التى قضاها مع كمال أتاتورك لكى يحصل على تفويض بالكشف عن الفسيفساء والزخارف. فإن أقل عدد من الزخارف يمكن أن تثير نشوة وايتور، وبينما يشكف بعض من الصلبان صغيرة سوداء على كوات

الأروقة وأسطح القنطرة، يقول "فهني لا تشكل تكراراً مملأً للشكل الواحد، ولكن كل واحد منها يقابله طيف وكأنها منقولة على موجات من النور، كل واحد منها يحمل دعوة شخصية تبدو تجربة ممكنة." لم يكن الزنانيرى أقل نشوة من وايتمور. "فى يوم كنت راكبا السيارة مع وايتمور وقال لى هيا إلى الصحراء. فانطلقنا بسيارتى إلى خارج الإسكندرية باتجاه صحراء مريوط. وهناك تسلقنا جرفا حيث الصمت المطبق، فقال لى وايتمور: استمع لصمت الصحراء المضطرب. وبدأت أكتب قصيدة.

عميق هو الصمت

أصغى إلى المساء الزاحف

وحدنا هنا مع رغبتنا

وآمالنا (١٠)

إلا أن علاقتهما تفجرت لمشاهدة غير جنسية مثلية يتضمن شاباً أمريكياً خرعاً اسمه كيرك برنس (من عائلة جنوبية قديمة) والذي ساعده الزنانيرى على أن يسكن فى منزل على تل فى منطقة المنطرة، فقد وقف منعزلاً بين أشجار النخيل حيث كانت كتبان ساحلية باتجاه منطقة المنطرة. فحينما لا يلتقى الزنانيرى مع كيرك برنس، فإنهما يتبادلان الرسائل، الرسائل التى كانت رائعة واستثنائية "خطابات اختفت يوماً عندما اكتشف كيرك برنس شيئاً عن توماس وايتمور." قلت ماذا فعلت برسائلنا؟ قال رسائل غرامنا؟ ألقيتها فى الصرف الصحي! لقد دمرت كل شيء!" وبهذا أبحر كيرك برنس بعيداً عن الإسكندرية.



المهندس المعماري أليستادرو لوريا، الذي تأثر بالطراز المعماري لمدينة
البندقية والموريش في إسبانيا، وأشهر ما قدمه هذا المهندس فندق سيسل
بجوار الميناء الشرقي على الكورنيش.

تبعه الزنانيري إلى أثينا إذ قبل الدعوة المواتية من الحكومة اليونانية لتقديم
سلسلة محاضرات. توفي كفافيس منذ فترة وجيزة، والزنانيري الذي تحدث أمام
قبره، اعتزم أن يتحدث عنه كشاعر. غير أن الحكومة اليونانية لم تسمعه، "بسبب
شهرة كفافيس" لذا قام الزنانيري بالحديث عن الكنيسة البيزنطية. وفي أثينا وجد
الزنانيري أن كيرك برنس أصبح "راقص مخدرات في فندق بريطانيا العظمى Hotel

Grande Bretagne: لعب الشراب برأسه واضطر الملحق الدبلوماسى الأمريكى أن ينزله على سفينة ويعيده إلى الولايات المتحدة. وهكذا انتهت العلاقة كما تحدث عنها الزنائيرى فى دير رهبان الدومنيكان فى شارع دو فوبورج، القديس أونور فى باريس بعد أكثر من ستين سنة، وهو الأمر الذى اهتزت له مشاعره.

تم إلقاء محاضرات زنائيرى عن تاريخ بيزنطة الكنسى فى أثينا فى عام ١٩٤٣ فى أتوليه حيث دعت الحكومة اليونانية محمد ناجى ليعرض لوحاته. وضع الرجلان مصر بمزيجها المكون من التقاليد الدينية والثقافية فى سياق البحر المتوسط الواسع الذى عبر عنه أحد أعمال ناجى الرئيسية مدرسة الإسكندرية الذى يعد إيماءة من لوحة رفايلو الجصية مدرسة أثينا.^(٩١) فى لوحة ناجى ترى فى الخلفية منظرًا يشمل ميناء الإسكندرية الغربى القديم بينما يحتل مركزها ألكسندر العظيم ويقف كل من القديسة كاترين وأرخميدس والفيلسوف العربى ابن رشد يقف فى الطليعة يحيط بهم حشد من المصريين العصريين البارزين على أحد جانبي اللوحة، من ضمنهم الكاتب طه حسين والمقيمون المصريون من أصول أجنبية على الجانب الآخر ومن بينهم كفافيس.^(٩٢)

يشبه ناجى هؤلاء الفنانين والكتاب والمفكرين الذين برزوا فى مصر بين عام ١٩١٩ والانتقال الذى قام به ناصر فى عام ١٩٥٢. كان ناجى الذى كان مصريًا تركيًا يدرس القانون فى ليون والفنون الجميلة فى فلورنسا مناصرًا متقذا لحركة زغول الوطنية فى نفس وقت اشتراكه الكامل فى مجتمع الإسكندرية الشرقى. بالنسبة لزنائيرى "كانت فكرتى دائما عن العالم أنه السكون." كان جانب أسرة أبيه كاثوليكيًا يونانيًا سوريا استقر فى الإسكندرية عام ١٦١٠، بينما "كانت أمى سيدة مجرية يهودية جميلة فأنا خليط يشبه الإسكندرية التى كانت مدينة سورية

يونانية يهودية." فى عام ١٩٣١ سافر إلى فلسطين وقابل فى القدس سيدة بن إيهودا أرملة الرجل الذى أعاد ابتكار اللغة العبرية وحده عن طريق جمع قاموسه العظيم حين حول كلمة الأنبياء إلى لسان الحياة اليومية. أوحيت لزنانيرو فكرة كتابة حياة ابن إيهودا وعمله إلا أنه شعر بأنه يعزز قضية موروثه؛ فنظر إلى إمبراطورية البطالمة فى الماضى. "أعتبر الإسكندرية كوناً حيث لم تتغير. عندما أقود سيارتى بمحاذاة الكورنيش وأرى الناس يتزهون أحدث نفسى بأن هؤلاء الناس هم أنفسهم من عاشوا هنا منذ ألفى عام.."

فكرة المركز الثقافى مثل أتوليه أثينا راقت لزنانيرو وناجى، وقرر كلاهما زرع الفكرة فى الإسكندرية حيث تحمل زنانيرو مسئولية الأنشطة الأدبية وتحمل ناجى مسئولية الفنون الجميلة، بينما أغرى إنريكو ترنى صديق فورستر القديم الذى كان يهودياً إيطالياً مناهضاً للفاشية.^(٩٣) ولكن تجاوز قصدهم تأسيس مركز تجتمع فيه الفنون المتنوعة تحت سقف واحد وكان أملهم السياسى والثقافى فى مستقبل مصر اتباع نموذج البحر المتوسط المتنوع والشامل الخاص بالإسكندرية المتحررة من الأحقاد القومية والمحلية.

اتبع برينتون دون تعمد خطوات فورستر بمحاذاة شاطئ المريوطية حتى قبل نشر أولى طبعات الإسكندرية فى نهاية عام ١٩٢٢. فى هذا العام حسبما يتذكر ابنه جون أنهما قابلا ويلفرد جينينجز براملى: "بدأنا اكتشاف البلد المحيط بسبب أرواحنا المغامرة. اتجهنا شرقاً باتجاه رشيد وجنوباً باتجاه القاهرة. ثم أعدنا ماركتنا وهى فورد موديل تى واتجهنا يوم الأحد إلى صحراء المريوطية. وأصابنا الفضول عندما سمعنا عن براملى بك هذا الرجل العظيم الذى كان محافظ إقليم الصحراء الغربية المصرى وعاش فى بلدته برج العرب."

فى هذه الأيام مرت سيارات تستكشف الصحراء من بوابة مبنية من الطوب على ضواحي الإسكندرية حيث "يسجل سودانى وهو عضو فيلق الجمال التابع لإدارة الحدود أسماء المسافرين وأسباب رحلاتهم فى كتاب أحمر كبير. إذا لم نعد فى الوقت المحدد يتم إرسال فريق بحث عنا، كما أتذكر لافتة كبيرة على البوابة مفادها اقتصار استخدام الصحراء على سيارات الفورد ورولز رويس".

لبرهة من الوقت طرّقوا مسارًا جديدًا بالازدراء وتتبعوا ركام الحجارة الذى وجه الطريق. "بعد القيادة لمدة ساعة على القمم المنخفضة تطل أحيانًا على البحر يمينًا رأينا من أعلى ارتفاع القمة أبراجا وشرفات مفرجة تلوح بعيدًا. قدنا حتى برج مبنى من الطوب راق يتخلله مدخل مقوس. على جانبي المدخل تمثال روماني له رأس أسد. اقترب حارس البوابة البدوى منا وأخذ البطاقة التى أعطاهما إياه أبى كما اختفى فى أعماق الحديقة والمباني وسرعان ما سمعنا خطوات تقترب ورحب بنا صوت أخنف. "مرحبا مرحبا أين كنتم؟ حدثنى رجلكم على الهاتف. أنا براملى، سعيد لرؤيتكم سيتم إعداد وجبة الغذاء خلال دقائق. العائلة أعلى يسعدنا قدومك يا قاضى برينتون وإحضارك ابنك معك." عندما تجاوزوا الحوائط المحيطة المرتفعة التى يسميها براملى "قلعة وندسور" بدأنا حياة جديدة منذ هذا اليوم وأصبحت برج العرب وطننا الثانى.^(٩٤)

تمنى براملى فى البداية لبرج العرب أن تصبح الصحراء الغربية مكانا أمن ومنا أجل مصالح البدو السنوسى الذين يجولون جانبي الحدود المصرية الليبية؛ حيث أثارهم العملاء الأتراك والألمان فى أثناء الحرب واقتضى احتواءهم ٣٥ ألف جندى بريطانى. استمرت التجارة عبر الصحراء بين مصر وداخل أفريقيا لقرون وفكر براملى فى تسهيلها وجذب السنوسيين لدرجة معينة من التفاعل الاجتماعى والسياسى مع مصر عن طريق إنشاء "بلدته" وليس مكان إقامة. ولكن البدو فضلوا

السكنى حيث ينصبون خيامهم وكنهاية قوافلهم بالإضافة إلى متجر وسوق ومحكمة ومسجد ومكتبة يحفظون فيها سلاسل نسبهم وبقية سجلات قبائلهم. تحمس السنوسيون واعتبروه حاميمهم وصديقهم وتلاعبوا باسم "براملى" حين أطلقوا عليه اسم "أبو رملة" أى والد الرمال.

ولكن طغت الحاجة الملحة لعمل شيء من أجل أرامل رجال القبيلة السنوسية الذين قتلوا أثناء الحرب على العمل على البلدة. وفى عام ١٩١٩ أعطت السلطات العسكرية البريطانية براملى ٢٠٠ جنيه مصرى لتوزيعها على الأرامل كتعويض. ولكن عندما أشار أن هذا المبلغ يكاد يصل إلى جنيه لكل امرأة، أبلغوه بضرورة استخدام المال أفضل استخدام. ضارب براملى فى الصوف مما زاد رأس ماله إلى ٣٠٠ جنيه مصرى بعد شهور قليلة وبنى باستخدامه برجاً يتميز بوجود رواق معد فى شرق البلدة - "مصنع" السجاد حيث نسج ٤٥٠ سيدة وفتاة مشايات صغيرة من شعر الجمال والماعز بالنموذج "النيلى فى أبيض" وهو ما زودهم بـ ١٢ ألف جنيه مصرى سنوياً عند بيعها فى الإسكندرية.

كان الاستقلال المصرى فى عام ١٩٢٢ كارثة لبرج العرب حيث وصفه الوطنيون بأنه غير فدائى فى إيماءة غير محتملة للبدويين الذين تم اعتبارهم تقليدياً أعداء مصر. وأقيمت الصعوبات الرسمية فى طريقهم وقطع التمويل واستقال براملى فى عام ١٩٢٤ هاجراً "البلدة الجميلة المتقشفة"^(٩٥) حسب كلمات فورستر تقف صامتة وخاوية.

انتقل براملى ميلاً نحو الشمال حيث عمل على بناء وطن خاص به على قمة تل يرى فرع المريوطية ومناظر فى اتجاه طاوسيرس والبحر خلفها. قال القاضى برينتون إنه "بناءً بالفطرة وفنان فى استعمال الأحجار" وأظهر "ميلاً للإيطاليين"^(٩٦)

من تعاونه الطويل مع إيطاليا فقد كانت جدته لأمه ابنة ماركيز فيرارا. قدم منزله الذى زرع حوله بساتين الزيتون وبنى عليه صهريجًا عتيقًا ترويه مياه الأمطار التى تصفيتها الصخور، عالم يقترب من دور العصور الوسطى التى يشبهها بنوافذه نصف المقوسة المرتفعة فى الحوائط وغرفة طعام كبيرة تطل على حديقة خضراوات يغلقها من أحد الجوانب ممر مقنطر. كان الأثاث قليلًا إلا أنه مختار بعناية فهو مكون من بعض القطع الجميلة من الأثاث الإيطالى وأثاث جيمس وساجيد فارسية جميلة تسلمها من حجاج فى طريقهم إلى مكة ومشايات البدو الزرقاء والبيضاء.

وقف مصنع سجاد البدو بعيدًا مهجورًا تعصف به الرمال. لم يلم فورستر الوطنيين: "لا تتعلم البلاد القديمة من دروسها فما بالك بالبلاد الصغيرة؟ مصر للمصريين وبريطانيا للبريطانيين وفرنسا للفرنسيين؛ لا ترى أى بلد أن الوطنية تؤدى إلى عدم الراحة فى الداخل وكارثة فى الخارج." (٩٧) فقد كتب فى عام ١٩٢٤: كان الأمر كله "حزينًا" إلا أنه "حتمى وممكن إدراكه إلى حد كبير." قبل حصار قناة السويس الذى قام به ناصر والعنوان الثلاثى الذى قامت به بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بأربع وثلاثين عاما وبعده بعامين طرد حكام مصر الجدد براملى خارج البلاد وتسلم منزله أعلى الارتفاع المشير عبد الحكيم عامر الذى "انتحر" بعد هزيمة حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧ التى لم يعد نفسه لها. احتل ناصر نفسه منزل براملى الذى أصبح استراحة الرئاسة حيث خطط أنور السادات حرب أكتوبر ١٩٧٣ وظل كذلك.

ولكن قبل هذا العهد فى الثلاثينات قطن برج العرب سكان آخرون. فى صفحات رباعيات الإسكندرية كانت برج العرب القصر الصيفى الذى بناه نسيم حوسنانى لزوجته جاستين والذى أصبح فى الحقيقة المأوى الصحراوى الخاص

بالقاضي برينتون وزوجته الثانية جنيف وهى زميلة من فيلادلفيا تزوجها فى عام ١٩٢٧ ،بالإضافة إلى العديد من الأصدقاء الآخرين. فى البداية قنعوا بالخروج من الإسكندرية فى نزهات نهاية الأسبوع داخل الصحراء الغربية؛ حيث تنزهوا على شواطئ بحيرة المريوطية واستحموا فى البحر الأرجوانى داخل منظر معبد أوزوريس فى أبو صير "واستكشفوا. أحياناً بعمق خندقا خلف العلمين حيث حافظوا فى عملهم فى منخفض القطارة على عمق مئات الأقدام. كانت الصحراء بالنسبة لهم ملعباً فقد أسسوا مجتمعاً مخيماً مكتفياً بذاته، حيث يحملون الخيام والإطارات الإضافية ومؤن الطعام والماء ومجارف لتخليص سياراتهم من الرمال. غير أنهم فى الوقت المناسب سعوا وراء شيء أكثر دواماً واتجهوا لبراملى بحثاً عن حل. بمساعدة براملى سمحت لهم الحكومة باستئجار ربوع مصنع السجاد القديم الحية للاستفادة منها كنادى صحراء فى نهاية الأسبوع، وفى عام ١٩٣٧ سمحت لهم بإنشاء منازل تحمل تصميم براملى داخل جوانب برج العرب نفسها.

صادفت إعادة ميلاد برج العرب العمل على نسخة الإسكندرية الثانية التى كتبها فورستر وشملت العديد من الناس. ساعد فرانك كرامر روبرتس وهو مهندس مدنى وعضو نادى الصحراء فورستر فى التاريخ العسكرى الخاص بفترة نابليون وبعض الخرائط. لم يكن أنتونى دى كوسون أكثر أعضاء نادى الصحراء حباً للمغامرة لأنه عرف الكثير عن الصحراء من براملى الذى كان صهره، بالإضافة إلى أنه كان رئيس سكك حديد الصحراء. فى عام ١٩٣٥ نشر دى كوسون "المريوطية" التى تعتبر رواية كلاسيكية عن الطوبوغرافيا والتاريخ والمتاحف القديمة الخاصة بصحراء مصر الغربية الشمالية وبحيرة المريوطية التى قرأها دوريل وأكد عليها عندما كتب رباعيات الإسكندرية. تم الشعور بسطوته فى العديد من أجزاء مراجعة دليل فورستر، على الرغم من مساهمات ابنة أخته فيفيان ابنة براملى المتألقة والمرحة التى بدأت عقدها الثالث فى هذا الوقت. كتب فورستر فى

مقدمته الجديدة: "تحرير أنسة/ فيفيان جينيجز براملى ومشاركتها"، حيث راجعت النص وأعدت كتابة فصول كاملة "فصول المتحف اليونانى الرومانى والصحراء الغربية التى عرفتها جيدا. لم يكن شيئا لينجز دونها." (٩٨)

سرعان ما استمتع سكان برج العرب الجدد برؤية الجمال آتية تحمل أحمال طوب ومشاهدة ارتفاع منازلهم أمام أعينهم. كتب القاضى برينتون: "وكان مصدر الأحجار الجميلة أنقاض الأبنية القديمة فى الجوار المحيطة. كان وجود مقابض الحوائط القديمة المحفورة فى بعض الطوب دليلا كافيا على نفعها المبكر منذ آلاف السنين على سبيل المثال." (٩٩) أصرت فيفيان على مزايا الملكية الخاصة بأسرة برينتون: "مازلت تمتلكها فى حالة تحويل توجه بعض الاقتراضات العديدة فى المستقبل. إن بقاءك أو بقاءنا فى هذا البلد أصبح مستحيلا ولكن "أجمع براعم زهورك (مثل منازل فى الصحراء ومتع وجيران طبيين) بينما أجمع براعم زهورى." (١٠٠)

غير مسار الأحداث الدولية المشنوم العلاقات بين مصر وبريطانيا. هدد الإيطاليون من خلال انتزاع ليبيا فى العشرينيات واجتياح أثيوبيا فى عام ١٩٣٥ بالإطباق على مصر مثل الرذيلة وأقنع كل قادة الأحزاب المصريين بالتنازل عن قضية بريطانيا مقابل مصالحها الإستراتيجية الواردة فى نقاط إعلان ١٩٢٢ المتحفظ عليها. وفاز الوفد بالانتخابات التى جرت فى مايو ١٩٣٦ برئاسة مصطفى النحاس الذى ترعّم كرئيس للوزراء وفذا يشمل كل الأحزاب فى المفاوضات مع بريطانيا التى كسرت الطريق المسدود الذى استمر أربعة عشر عامًا.

حلت المعاهدة المصرية الإنجليزية التى تم التوقيع عليها فى أغسطس ١٩٣٦ محل الإعلان بتحالف يسمح بوجود ١٠ آلاف جندى من الجيش البريطانى بمحاذاة قناة السويس وحرية استعمال القوات الجوية البريطانية للسماء واستعمال البحرية الملكية لميناء الإسكندرية الغربى. استطاعت بريطانيا العثور على طريقها

بشأن نقطتين من نقاطها الأربعة المتحفظ عليها وهما الحق فى حماية اتصالاتها الإمبراطورية والدفاع عن مصر ضد أى عدوان أجنبى.

وعلى الجانب الآخر احتفل المصريون بالمعاهدة التى أتاحت فرصة إجراء مفاوضات التحالف بعد عشرين عاما مما يعنى اعتبار مصر إحدى قذائف بريطانيا خلال جيل. على الرغم من تنازل مصر عن سيطرة بريطانيا غير المحدودة على السودان ضمنت المعاهدة المساعدة البريطانية لإلغاء الامتيازات الأجنبية وتم التوصل إلى ميثاق مونترو لإلغاء الامتيازات الأجنبية على الفور فى العام التالى مع السماح باستمرار المحاكم المختلطة اثنى عشر عاما إضافية.

فى ماونت أوليف ثالث أجزاء رباعيات الإسكندرية وصف دوريل قلق البعض فى وقت زوال فترة السماح: "ما زال للأجانب الحق بحكم المعاهدة فى تقديم مشاكلهم القضائية أو الرد على التهم الموجهة إليهم فى المحاكم المختلطة التى تعتبر محاكم أوروبية يعمل فيها محامون أوروبيون. ولكن كان النظام القضائى المصرى (إذا تجرأت على تسميته) تحت سيطرة رجال الختم المملوكى وبقية الإقطاعية المنطوية على مفارقات تاريخية بغیضة ولا معنى لها." (١٠١) وبحلول عام ١٩٤٩ خضع الأوروبيون أيضا لنظام القضاء المصرى.

لكن معظم العائلات غير المسلمة ذات الأصول الأجنبية عاشت لأجيال، واعتقد القليل منهم بأن مستقبلهم ليس فى البلد الذى اعتبروه وطنهم. ووثقوا أن المساواة فى المعاملة أمام القانون تعنى عدم معاناتهم من التمييز فى التوظيف أو إدارة أعمالهم وتمنوا تأسيس طبقة وسطى تشمل المصريين والأجانب على حد سواء وتضمن الخبرة والتسامح المتلى الخاص بمضيفيهم مكان الأجانب فيها. من المريح تصديق عدم تغيير شيء منذ عام ١٩١٩ عندما أعلن سعد زغلول أن "الحركة الحالية فى مصر ليست دينية؛ لأن المسلمين والأقباط يتظاهرون معا

وليس حركة إرهاب أجنبي أو حركة تنادى بالوحدة العربية.^(١٠٢) كانت فكرة زغلول الوطنية التي استقامها من الفكر التحرري الأوروبي إقليمية وشاملة ولكن كان الأقباط خاصة واليهود أعضاء بارزين في الوفد. بالتوقيع على المعاهدة وتقليل النفوذ البريطاني، زادت القومية العربية والإسلامية وعلامات تدهور العلاقات بين الأغلبية المسلمة والأقليات القبطية واليهودية والأجنبية مما سبب للبعض إحساساً بالقلق الذي يطلق عليه البعض "الخوف الصغير".^(١٠٣)

في ٢٨ أبريل ١٩٣٦ بينما تجرى مفاوضات المعاهدة، استدعى والتر سمارت سير مايلز لامبسون المندوب السامي البريطاني من مأدبة غداء رسمية على نحو طارئ لإبلاغه بوفاة الملك فؤاد في هذا الصباح. بعد أسبوع حيا لامبسون ابن فؤاد البالغ من العمر ١٦ عامًا الذي هرع من دراسته في إنجلترا فور سماع النبأ ووصل من الإسكندرية باستخدام القطار في محطة قطار القاهرة. "بدا فاروق شاحبا ومنمشا! ولد مسكين! أدركت صعوبة الأشياء على الملك الصغير في الفترة القادمة وحاجته لشخص يعتمد عليه."^(١٠٤) اعتقد لامبسون الذي كان رجلاً جباراً وسامياً على الزعماء المصريين الذين كان يتفاوض معهم عن الجانب البريطاني أن مصر أصبحت جزءاً من الإمبراطورية البريطانية واتفق مع أنتوني إيدن وزير الخارجية على عدم استبعاد الخيار في المستقبل على الرغم من الاتفاقية. تعنى الاتفاقية المصرية الإنجليزية عدم بقاء لامبسون مندوباً سامياً ويحل منصب سفير دولة سائدة محل منصب المندوب السامي. ولكن الرجل ظل ولم نقل غطبرسته عما قبل خاصة تجاه فاروق الذي استمر في مناداته: "الولد". قال جرافتي سميث "أندم شخصياً على بقاء سير مايلز لامبسون في القاهرة كسفير بريطانيا الأولى. لم يكن قادراً بدنياً ومزاجياً على إعطاء أى انطباع مقنع بالتغيير مما أدى لعواقب وخيمة."^(١٠٥)

تذكر قاضى برينتون فاروق: "ما زلت أراه عندما دخل قاعة المحاكم المختلطة الكبرى بمناسبة التوقيع على ميثاق مونثرو شابا أشقر نحيفا هتفت له الصحافة وشعبه فى الحقيقة "فتى أحلام مصر". وكثيرا أتذكر الملاحظة الفضولية التى قالها لزوجتى ذات مرة: "تعرفين أننى نشأت فى ظروف صعبة". تبدو فضولية ظاهريا ولكن للأسر التى تعرف القصة كاملة والتى تعرف كثيرا عن سر الكارثة المروعة." (١٠٦)

انتحبت فيفيان جينينجز براملى فى بداية عام ١٩٣٧ فى برج العرب على انسحاب فصيلة القوات البريطانية المحلية عندما قالت: "كنا ننتظر دفعة من الجنود البريطانيين على حفل شاي ربما لآخر مرة. أخشى القول بأننى سمعت برحيلهم. سنفتقد موقعنا والبدو على ما أعتقد." (١٠٧) فقد انشغلت بقيادة سيارتها بين برج العرب والإسكندرية حيث تقيم مع أسرة برينتون عندما تعقبت خطوات فورستر فى المتحف الرومانى اليونانى. كتب فورستر فى طبعة كتابه الأولى: "يكشف الزائر" الذى "يمر بالمتحف" أن المتحف مر به. تعتبر معرفة شيء عن المدينة القديمة وتصورها وزيارة أشياء واضحة معينة قبل القيام بالزيارة قاعدة ذهبية فى كل المتاحف. قد يكتشف عودة قصاصة من الماضى إلى الحياة." (١٠٨) تقدم فيفيان مراجعتها للقاضى برينتون الذى يرسلها بدوره إلى فورستر مما يسبب فقدان ثقة فيفيان فى نفسها. كتبت فيفيان لجينيف زوجة برينتون فى الرمل: "يزعجنى رؤية القدر الذى اقتبسته من سيد فورستر وإذا أردت ذكر شيء، ستكون ذكر السعادة الطاغية التى شعرت بها عند زيارة المتحف بصحبته (الطيفية)." (١٠٩)

أثناء مجيئها وذهابها، وجدت أن المتحف والمدينة يتخللانهما أكثر مما تتخللهما وعادت لأسرة برينتون حتى تشفى، وتساءل القاضى برينتون ذات مرة: ما مستقبل الكازينو فى سان ستيفانو؟ هل مازالت محطات ترام الرمل تحمل نفس

الأسماء؟ وماذا عن المقبرة اليونانية التي عثروا عليها فى عام ١٩٣٣ تحت
الثكنات البريطانية فى مصطفى باشا؟ إلا أننى أخبرته أننى: "رأيت المقبرة ولكن لا
أستطيع وصفها وصفا دقيقا من الذاكرة. هل تستطيع إحضار شخص يستطيع
النزول وكتابة ملاحظات أصيلة. يتصف السيد مارشال بروية واضحة ممتازة فى
وضع الأشياء وتكاد تطابق طريقة فورستر نفسه." (١١٠) وقال لجينيف فى برج
العرب: هل تتذكرين المذكرات الأخيرة عن دورانا حول المتحف؟ ربما لففتها فى
"نسخة العمل" الخاصة بكتيب فورستر التى تركتها فى حجرتى (فى منزلك) أتمنى
ذلك. أو ربما طارت فى مكان ما تحت سرير أو حتى فى المكتبة، أخشى ضياعها.
فى هذه الحالة أضطر للتوصل إليك أو إلى شخص يعانى من مشكلة أصغر للتجول
فى المتحف والتحقق من شيء أو أكثر أو إصلاحها." (١١١)

فى يوليو من عام ١٩٣٧ اكتمل بحث الطبعة الثانية وإعادة كتابتها
وتحريرها تقريبا وأبحرت فيفيان من الإسكندرية للحصول على موافقة فورستر فى
لندن على النص المراجع. وكتبت لجون برينتون "أخبرتكم، حان الوقت، اعتنق
نفسك. مررنا أنا والسيد فورستر بكل ذلك، انتهت جلستنا الأخيرة بالقرب من
منتصف الليل وتركت النتيجة على الرغم من أنها مرضية جدا، قليل من الخيوط
الحرّة التى تشعر بالامتنان إذا استطعت ربطها وعندما تستطيع ربطها. مسكين
جون أخشى أنك ستضطر لعقد صفقة جيدة." (١١٢)

بدا هذا النداء إعادة مقبلة ترحيب بالإسكندرية التى تركها جون منذ عشر
سنوات. بدأت قائمة من فيفيان وفورستر بسؤال أدريانى عن تاريخ.... التى وقع
عليها مونوماكوس. هل أزيل الكلام المنقوش فى مدخل الكاتدرائية القبطية ("أزيل
سريعا")؟ هل ما زال المدفع قابعا فى الرمال أعلى هضبة أبو النواوير؟ هل ما
زال سلسلة الشعب مقربة من مدخل الميناء الغربى؟ هل مازال الفسيفساء أسفل

الملجأ الصفيح المكسور في السهيل؟ هل ما زال الكلدانيون يبحثون عن قطعة أرض لبناء كنيسة؟ ولكن غرق قلب جون حين عاد إلى ملعب الطفولة في شاطئ ستانلي ووجد أن الطريق المترب القصير المؤدى إلى البحر أصبح طريقاً عاماً واسعاً وتم بناء طرق كبائن متطابقة ومصاطب صلبة على دائرة الصخور؛ حيث تلعب الأوركسترا موسيقى الجاز بينما يشرب الناس الذين يجلسون حول طاولات البيرة، حيث اشتهر شاطئ ستانلي بأنه مصيدة لمحبي الأطفال. اختفى اللواء الروسى بلحيته البيضاء وزوجته التي كانت تصنع آيس كريم شهياً وحل مقهى يمتلئ بندلاء محله ولكن بقى المعبد الصينى على الأقل. "مرحى بطل معبد صيني في مصر على البحر المتوسط. عادت مشاهد طفولته والمرح والألوان وصراخ المتعة المتهورة ولكن "اختفى الحلم بطينا وشعرت برؤية ظلى على الرمال". (١١٣)

فى عام ١٩٢٦، قبل زواج والد جون من جينيف بعام استدعت والدة جون ولدها لأمريكا لاستكمال تعليمه على الرغم من عدم انضمامه فى شئون الأسرة إلا عندما بلغ عامه السادس عشر. كانت أسرة ماك فيدن فيلادلفيا إحدى أكبر سماسرة القطن فى الولايات المتحدة، وقد تدرب جون فى فرعهم فى وكو فى تكساس ثم ممفيس فى تينيسى، حيث قابل جوزفين إنجرام التى تعد فتاة شقراء جميلة ومفعمة بالحياة ووقع فى غرامها. ولكن حاول ماك فيدن إبعاد الزوج فور سماعه خبر ارتباطهما، حيث إن جون ما زال صغيراً على شق طريقه فى الحياة. لذا فراقها فى نهاية فبراير ١٩٣٧ أبحر جون الذى يبلغ ٢١ عاماً وجوزى التى تبلغ ٢٠ عاماً إلى ميناء الإسكندرية بعد مرور شهر من زواجهما.

كتبت جوزى لأُمها: "قابلنا والد جون وكان لطيفاً للغاية كان فانتا وأخبر جون أننى جميلة وساحرة؛ أعتقد أننى أعجبته" سألها برينتون عن الأساسيات: "سألنى عن لغتى الفرنسية ونصحنى ببداية ممارستها وسألنى عن لعبة التنس." وعندما وصلنا إلى المنزل فى محطة الرمل، خرجت جينيف وأخذتني بالأحضان ورحبت بى ومنحتنى أنا وجون غرفة كبيرة رائعة بها نافذة هائلة تصب فيها الشمس الآن" بينما "تنام ليلاً تحت ناموسية كبيرة تغطى السرير كاملاً ومحكمة

الانتشاء تحت الأغطية؛ أشعر أنني أعيش فى المدار الاستوائى". وفى اليوم التالى "تتزهنا على الشاطئ قرب الظهر مع أصدقاء تانت (أطلق جون على زوجة أبيه تانت وأطلقت جوزى على القاضى برينتون "سيد/ تانت") بالإضافة إلى السيدة باركر وابنتها التى تبلغ من العمر حوالى ٣٥ عاما. هناك شاطئ رائع يتميز بخط من منازل الاستحمام. تصورى أنك قادرة على الاستحمام فى فبراير. يعتبر الجو دافئا هنا الآن مثل أواخر مايو فى ممفيس."



عائلة برينتون فى كابينة على شاطئ سيدى بشر فى محطة الرمل. من اليسار: القاضى برينتون وجنيف برينتون وجوزى وجون برينتون وفى أقصى اليمين تشارميان إحدى أصدقاء العائلة.

كتبت جوزى لأمها "الإسكندرية ست أو سبع مئة آلاف، يبلغ حجمها ضعفى حجم ممفيس. وتنتشر أشجار النخيل المرتفعة العظيمة والعرب؛ يرتدى آلاف العرب عباءات طويلة عظيمة تشبه قمصان المساء وطرابيش حمراء. إنها أروع ضوضاء شارع وتغريد الطيور تشبه الزنوج الذين يبيعون فاكهة فى منازلهم إلا أنهم يتحدثون العربية ومن الصعب تذكر أن الخادمين عرب وليسوا زنوجًا. عندما وصلنا سلم على خادم والد جون الذى يعمل معه منذ سنوات، قبل يدى واندھشت بطبيعة الحال. كان الوضع أفضل مما وصفه لى جون وأنا سعيدة مثل القبرة. سنذهب لحضور حفل عشاء غدا والأوبرا مساء الغد، أعتقد أن الوضع مبھج مثل ممفيس فالكل هنا لطيف معك وتشبه ممفيس كثيرًا". (١١٤)

وبعد مرور أسبوع ذهبت جوزى مع جون وجينيف لشرب "الشاي مع بعض الإنجليز الذين يسكنون فى الصحراء. يشبه والد العائلة ملك البدو أى العرب الذين يسكنون فى خيام متداعية للسقوط فى الصحراء. بنى منزله الجميل وبنى الآن مسجدا للبدو الذين يسكنون قرب منزله." فى هذا المساء ذهبوا إلى النادى حيث تناولنا العشاء وجلسنا حول النار وقرأنا ثم تمشيت مع جون فى الصحراء وكان فى السماء بدر جميل. كان النادى الذى كان جزءا من قرية عربية قديمة يشبه مقر رابطة المحاربين القدماء الأجنبى الذى تشاهده فى الأفلام ويدعى برج للعرب". (١١٥)

بعد أيام قليلة أخبرت جوزى أمها "من الضرورى معرفة التحدث باللغة الفرنسية هنا. ذهبنا إلى مأدبة غداء صغيرة أقامها أحد المصريين وتحدث الجميع باللغة الفرنسية. بالطبع استطعت فهم القليل ولكنى خشيت قول أى شيء مثل صباح الخير أو مع السلامة". (١١٦) ولكن على الرغم من أن لغة المدينة اللغة الفرنسية فإن الفرنسيين أنفسهم انغمسوا فى حنين فدائى إلى الوطن حتى فى المجتمع الإسكندري. حيث تعد أسرة توريثيا سلالة مهندس وصل إلى مصر مع فرديناند ديليس استثناء.

كُتبت جوزى لأمها بعد وصولها بأسبوعين: "حقا يا أمى يشبه الأمر الأفلام". حيث بدأت يومها بزيارة على بعد ثلاثة أميال من برج العرب. "بنى رجل يدعى ثورتيليا - ويسكن فى الإسكندرية ويمتلك منزلاً فارسياً جميلاً فى المدينة - قلعة حقيقية فى الصحراء. إنها ضخمة وتحتوى على حمام سباحة وملعب تنس وعشر غرف نوم وقاعة مدخل جميلة وتطريز مزدان بالرسوم ودروع وغرفة ألعاب بالدور الأرضى بها طاولة تنس وخمسة حمامات أو ستة بأنايب حديثة ولا يستخدمها سوى لقضاء نهايات الأسبوع فى الصحراء. إنها مؤنثة تأنيثاً جميلاً. كان على الغداء ١٨ شخصاً عشر جنسياتهم مختلفة بين فرنسيين وإنجليز وألمان ومجريين ورومانيين وأمريكيين ومصريين وإيطاليين ونسيت الجنسيتين الآخرين. تناولنا جمبرى ودجاجاً ونبيداً وأفضل حلوى قد تتذوقونها، لا تتصورين مدى روعة الصحراء على بعد أميال من الحضارة."

عدنا للمنزل فى الساعة الخامسة وهرعت مع جون إلى حفل كوكتيل فى سفينة حرب بريطانية. ألا يبدو هذا مثيراً؟ كانت سفينة صاحبة الجلالة فيوريوس. رست السفينة على بعد ميل من الميناء لذا اضطررنا لأخذ زورق بخارى من الرصيف حتى السفينة. بالطبع كان يتدفق بالأنوار والأعلام والمنظر الجميل. كانت فيوريوس حاملة طائرات لذا حولوا المكان الذى تحمل فيه الطائرات إلى غرفة طويلة. تم إخراج كل الطائرات ورفع أعلام كل الأمم على الجانبين. كان العلم الأمريكى يقابل العلم الإنجليزى بالإضافة إلى الأوركسترا ومكان للرقص. كانت متعة حقيقية. "لخصت جوزى يومها بعد العشاء والرقص والعودة إلى البلدة: "كل شيء متوفر فى الإسكندرية حيث تعد مدينة حديثة. عندما أوشك أحمر شفاهى ماركة ماكس فاكثور على الانتهاء استطعت شراء أحمر شفاه آخر على الفور." (١١٧)

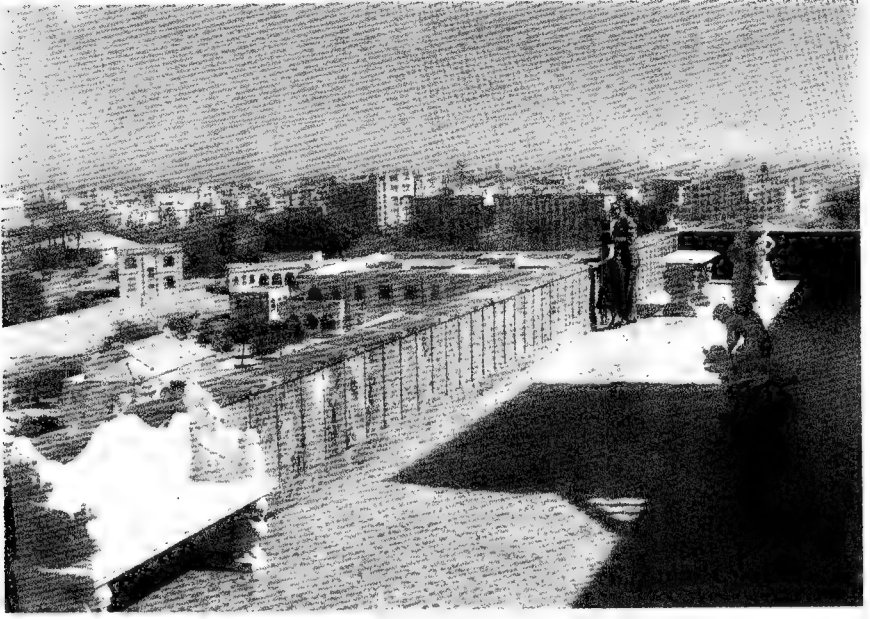
لقد بدا لها كل شيء فى الإسكندرية "مذهلاً" و"يشبه الأفلام" كما اكتشفت "منزل الأفلام المذهل" عندما ذهبت لرؤية روميو وجولييت: "الصورة بالطبع بالإنجليزية ولكن يظهر الحوار فى الأسفل بالفرنسية وتظهر لك شاشة صغيرة على جانب الشاشة الرئيسية يظهر عليها الحوار باليونانية والعربية. ألا يبدو هذا تحزراً من الأحقاد القومية والمحلية؟" (١١٨)

كان أوزوالد فينى وزوجته جوزا أعز أصدقاء جاسبر وجينيف برينتون فى الإسكندرية؛ وكانت أسرة فينى رئيسة الجالية البريطانية فى الإسكندرية لأنها أغنى أجنبية فى مصر. تبنت أسرة فينى التى لم تتجب أطفالاً جون وجوزى اللذين سكنا دون إيجار فى أحد ممتلكاتهم التى تطل على البحر فى جليم، لذا انتفعا من المجتمع الأثارى ويظهر اسم فينى أوزوالد العبرى على حوائطه، وكثرت تبرعاته للجالية اليهودية أشد اليهود أنفسهم ثراء. قد يكون الأمر برمته عملاً حيث قالت جوزى: "لأوزالد ضلع فى كل مسألة فى الإسكندرية." (١١٩) أصبح فينى بمساعدة شركائه اليونانيين واليهود لاعبا رئيسيا فى سوق تصدير القطن (شركة الإسكندرية التجارية) وتصنيع النسيج المحلى (مصنع الغزل المحلى فى مصر)؛ كما أنتج الأكسجين الإسثيلينى وتحكم فى سوق الخميرة وتوزيع اللبن ومارس استثمارات واسعة النطاق فى العقارات، ومنذ عام ١٩٢٥ امتلك الشركة الشرقية للنشر وهى التى تعد المجموعة التى نشرت صحفاً باللغة الإنجليزية والفرنسية فى البلاد مثل إيجيشيان جازيت وإيجيشيان ميل ولو بروجريه إيجيسيا ولا بورص إيجيسيان.

لخصت أسرة فينى عصر الإسكندرية المطلى بالذهب بين الحروب بقوة وحفلاتهم غير القابلة للتصديق وثروتهم الأسطورية. كتبت جوزى لأمها: "يلعب

هنا كل نجوم التنس الألمان والفرنسيين والإنجليز فى بطولة دولية. " كما كانت فى البلدة جماعة مسرح بوابة دبلن الخاصة بمايكل ماك ليامور: "تذهب إلى مباريات تنس كل يوم-والمسرح كل ليلة وبينهما حفلات كوكتيل وشاي. ذهبنا ليلة الاثنين إلى حفل رقص أقامته السيدة/ فينى للاعبى للتنس فهى تمتلك أربع سيارات رولز رويس وتسكن فى بناية كاملة وتسمينى سميتها. غمرت التسلية الرقص وتم تقديم الشامبانيا والكافيار مثل الماء والمربى. " (١٢٠)

فى أثناء صنع أوزوالد ثروته نسب حظه لجوزا التى كانت فتاة غير أرستقراطية تبلغ من العمر ستة عشر عاما عندما قابلها وهو فى الأربعينات من عمره فى تريستا فى العشرينيات. اعتقد برينتون أنها تنتمى غالبا للطبقة المتوسطة وكلاهما كاثوليك رومانيون. على أى حال ظل ماضى جوزا غامضا مما أثار شائعات متهورة فى الإسكندرية من بينها أنه فىنى فى دار دعارة أطفال. لم يتزوجها قبل مرور ثلاثة أعوام وفى هذا الوقت كان يعدها لتصبح سيدة صالونات، تسبب ما أطلق القاضى برينتون عليه "حكم عمل فىنى المعصوم على نحو واضح" فى غناه غنى فاحشا من امتلاكه شقة فردية فى شارع رولو (الذى أصبح الآن شارع د. أحمد عبد السلام شمال شارع سلطان حسين) ولتخوفه من الانتقال منه تمكن من الحصول على طابق ثلث الآخر حتى امتلك المبنى كاملاً، حيث نشر أجزاءه الداخلية وأعاد بناءه كقصر إيطالى.



جوزا وأوزوالد على شرفة سقف منزلهما فى الإسكندرية. كان فينى الذى يتاجر فى العقارات والصحف والقطن والبصل أغنى أجنبى فى مصر ورئيس الجالية البريطانية غير الرسمى.

وصفت جوزا السيدة/ فينى فى أولى مقابلتها: "لم أشاهد شخصا يتمتع بهذا القدر من الحيوية والمرح من قبل. فقد اندفعت تجرى فى أرجاء المنزل الضخم."^(١٢١) مصعدان وسلالم رخامية ترتفع خلال خمسة أدوار كاملة من حجرة الألعاب الرياضية وحمام السباحة فى الدور الأرضى حتى الدور الرابع الذى يحتوى على قاعة الرقص وشرفة السطح التى تشمل تماثيل رومانية يونانية مثيرة وتطل على بحيرة المريوطية والمدينة والبحر. "يجمع السيد/ فينى تطريزات مزدانة بالرسوم التى تغطى إحداها الحائط بأكمله. تتسق معها قاعة الرقص... لقد ذهلت تمامًا حين أقاموا حفلا راقصا يرتدى فيه الناس ملابس من العصور الماضية قبل وصولنا ودائمًا ما يقيمون الحفلات."^(١٢٢)

تتصادف الحفلات الراقصة التى تقيمها أسرة فينى مع موسم مهرجان الإسكندرية. تذكر كونت باتريك دى زغب: "لا يمر وقت المهرجان مرور الكرام فى بلدنا المتحررة من الأحقاد القومية والمحلية." اتسمت الأيام التى سبقت لينت بالبهجة والحفلات التكرية فى الشوارع والمنازل وأماكن التسلية العامة. فى الشوارع يعدو موكب سيارات المهرجان التى تمتلئ بالشباب الوسيم الذى يرتدى أقمعة وبرانس وفى المساء وكذلك فى الحفلات التكرية لصالح مؤسسة خيرية أو أخرى فى دار الأوبرا ويستمر حتى الفجر فى كل البلدة. (١٢٣)

يتطلع الجميع لحفلات الرقص التى تقيمها أسرة فينى مثل أسر بيناك وكورم وبيل وباركر وكارتر وتورتيليا وأمبرون وزولو ومينشاك وفينسيندون. سجلت كونتيسة مارى دى زغب ابنة عم كونت باتريك فى يومياتها حضور كل الحفلات الراقصة التى أقامها فينى من عام ١٩٢٧؛ حيث ارتدت ملابس تتنوع من مهرج فرنسى وميكانيكى سيارات وبحار ومهرج وغجرى وتيرولى وفلاح كوبى وارتدت فى حفل عام ١٩٣٩ ملابس سيدة فلسطينية. لأنها كونتيسة، استطاعت تحمل ارتداء ملابس غير رسمية أكثر من ارتداء ملابس رسمية، ملابسها تجاوزت معظمها عندما تكرر أرمينى ممثلة القوام فى ملابس هنرى الثامن الذى تزوج ثمانى مرات متتالية؛ على الرغم من عدم ارتداء أحد ملابس غير رسمية لدرجة أن يونانينا صغيرا زود نفسه بمقعد تواليت بنى اللون حول وسطه وحوض مزود بسلسلة شدها فوق رأسه. قال برنارد ابن مارى دى زغب: "لم تكثرث أُمى بالقيام بأشياء كثيرة. ذات مرة تشبهت بالمتسولات وجلست تتسول على درجة الباب ومر الجميع دون إعطائها شيئا ما عدا سيدة يهودية سمينة غنية قالت لسانق سيارتها: "أعط السيدة شلنا" وقالت لها. أُمى فى حفلة الرقص لضيفتها المجفلة: "أنت السيدة الكريمة الوحيدة."

كتبت جوزى لأهلها فى ممفيس: "رأينا دافنى دى مورييه حولنا فى كل مكان نذهب إليه وليلة ذهابنا لتناول المشروبات."^(١٢٤) إلا أن الإسكندرية أصابتها بالملل، وبعيداً عن ولعها بحفلات الكوكتيل لم تظهر أى إشارة خفية عنها فى ريبيكا، وهى الرواية التى بدأت كتابتها عندما كان زوجها فى المدينة مع رماة القنابل اليدوية فى الفترة بين ١٩٣٦ و ١٩٣٧. كنا نستأجر شقة قريبة من شاطئ الرمل وبينما كان مشغولاً بالأمور العسكرية شعرت بالحنين لكورنيل. وفكرت فى تمثيل الشجاعة فى المواقف وارتدت حفلات الكوكتيل التى أجبرت على حضورها. لو تزوج زوجى قبلى لغرت، أعلم أنه ارتبط ذات مرة إلا أنه انفصل عنها. ربما كانت أفضل منى فى حفلات الكوكتيل ومآدب العشاء. بدأ تساقط البذور مثل المنزل الرائع والزوجة الأولى والغيرة. زرعتُ غرفة المعيشة فى الإسكندرية جيئة وذهاباً بينما أحمل مذكرة فى يدي.^(١٢٥)



قاعة رقص أسرة فينى مثلت أسرة فينى بقوة حفلاتها غير القابلة للتصديق وثروتها الأسطورية عصر الإسكندرية الذهبى بين الحروب. كتب دوريل حفلات رقصها السنوية الشهيرة فى رباعيات الإسكندرية حيث تتوفر خلفية الخديعة والقتل.

قالت جوزى: "يُحاول والد جون العثور على وظيفة له فى مجال الطباعة وطالما أحب جون هذا النوع من العمل، ويعتقد والده أن هذا ما يجب عليه القيام به." (١٢٦) وفى شهر أبريل توظف عند وايتهد موريس الذى "سعد كثيراً لابتعاذه عن مجال القطن." (١٢٧) ولكن "لم يكن العمل لصالح مدير وايتهد موريس السيد/ ويليام والكر وظيفة عاطلة." حيث أخبر جون فورستر فيما بعد عندما فسر له ظهور الطبعة الثانية للوضع. "كان والكر عنيداً جداً بشأن استخدام الطباعة الصغيرة." وكاد جون يفصل من العمل أكثر من مرة بسبب محاولة وضع الكتيب فى تصميم أكثر سخاء وسهولة فى القراءة. "استطعت الانتقام قليلاً فقد استطعت تعويض بعض المذكرات والخرائط للسيد/ مان لطبعة عام ١٩٢٢. فقد رماها والكر فى أحد الأيام بسبب غضبه فى سلة مهملاته، ثم إنها مقيدة فى نسخة الكتيب التى تخصنى وأصبحت فى أيد أمينة ومقدرة وأتمنى ألا تمنع احتفاظى بها." (١٢٨)

خلف ثوران والكر حالة من حبه لذاته. عندما اقترب القاضى برنتون من وايتهد موريس لأول مرة لم يعرف أن السعر الذى أخذه كان سعر إعادة الطباعة وليس مراجعة الطبعة الأولى. وبعد مرور عام على المشروع عندما اكتشف وايتهد موريس مقياس التغيير طلب المزيد من المال. ذهب برينتون إلى البلدية وطلب منهم أخذ ألف نسخة مقابل ٢٠٠ جنيه بالإضافة إلى الخمسمائة نسخة المتفق عليها مع مكتب السياحة والخمسمائة نسخة المطلوبة للجمعية نفسها؛ مما زاد عملية الطبع النهائية إلى ألفى نسخة. كتب والكر لبرينتون فى أواخر عام ١٩٣٦ أنها لم تكن قضية العثور على المزيد من المال لأن "مالكى حق الطبع فى كتيب الإسكندرية الخاص بالسيد/ إدوارد مورغان فورستر يسيطرون على أى تنقيح أو تغييرات أو مراجعات أو إضافات مقترحة ولا يتحملون أى مال أو يقبلونه مما لا يعد موافقتهم النهائية." (١٢٩) كان والكر يدافع عن نفسه كمحكم نهائى لما يذكر فى الكتيب وما لا يذكر فى الكتيب بالإضافة إلى طريقة إنتاجه.



بعض ضيوف الحفل الراقص الذى أقامته أسرة فينى فى عام ١٩٣٨. يقف جاك فينسندون على اليسار وتنتظر إليه زوجته كليير وتقف روزيت دى ميناشا فى أقصى اليمين وتقف ابنتها دينيس إلى جانبها.

أرسل برينتون تحذيرا لفورستر الذى أجاب: "أهتم أكثر بما يتردد عن السيد/ والكر وسأرسل له خطابًا قريبًا إن أردت منحي إشارة خفية عن نوع الشيء الذى تريدنى أن أكتبه." (١٢٠) قدم برينتون الذى فضل إتاحة الفرصة لوالكر كى يلقى نظرة على العمل كتيبًا بتعديلاته المؤقتة فى ٨ أبريل ١٩٣٧ بعد مرور أيام من عمل جون مع وايتهد موريس وهو يطبق أقل الضغوط بتفسير "معظم الأشياء التى وافق عليها السيد/ فورستر إلا أنك تتمنى بالطبع تقديم النص الذى تعتمد عليه للحصول على موافقته الأخيرة." (١٢١) وبعد مرور أسبوعين من كتابة فورستر لبرينتون: "استمعت للسيد/ والكر أيضًا وألحقت نسخة من ردى الذى أتمنى أن يتسم باللباقة

الكافية بالنسبة له. كما تسرني تلميحائك الخفية وأشعر أنك على حق فى ترتيب اتصاله بى مباشرة. وسأطلعك على كل شيء فى النهاية وسيخبرك ابنك عن كل شيء".^(١٣٢) ثم تقدمت المؤامرة "يسعدنى حصول الطبعة الجديدة على موافقتك بالإضافة إلى موافقتى والتزم بالمبادرة ومساعدة القاضى برينتون الدائمة التزاماً تاماً فى هذا الشأن. كما أعتقد أنك تتصل به بالفعل وأتمنى أن تفكر ملياً فى استشارته من وقت لآخر لأننى خارج بقعة الضوء". ثم جاءت الكلمات التى يتصور المرء أنها أغضبت والكر عندما ألقى الخرائط القديمة من طبعة عام ١٩٢٢ فى سلة مهملاته: "بالنسبة للخطط أخشى عدم اتفاقى معك بسبب عدم كفاية الخطط الأصلية. فقد حدث العديد من التغييرات منذ كتابة الكتاب وسيتم ذكرها فى النص المراجع وإذا ظلت الخطط غير حديثة ضللت السائحين وسببت نقداً معاكساً للكتاب".^(١٣٣) وتكررت القصة مع السيد/ مان مرة أخرى.

التزم القاضى برينتون الذى اتبع فيفيان إلى لندن فى فصل صيف عام ١٩٣٧ وقابل فورستر هناك بإطلاعه على "الهزلية الإنسانية القليلة السارة التى يلعب بها الكتيب فى الإسكندرية" حيث قال عنها "أصبحت مؤسسة (وأشعر أنني الساكن الرئيسى) إنها تعطى غلة يومياً أعتمد عليها فى المحاكاة الخفيفة والضغوط وأوقات الذعر الخفيفة المحتملة".^(١٣٤)

بعد المزيد من التأخيرات والإضرابات عند وإتهيد موريس تم نشر الطبعة الثانية من التاريخ والكتيب فى ديسمبر ١٩٣٨ فى مدينة فورستر فى وقت كان جيل جديد ينشأ فى الإسكندرية زمن الحرب. كتبت إيفلين واو فى "ضباط ونبلاء" فى مشهد تم تصويره فى المدينة فى ربيع عام ١٩٤١: "حدثت السيدة/ فى الشرفة التى تطل على الحديقة".

قالت: "يقول فورستر إنه يجب "استكشافها استكشافاً كاملاً" شيئاً ليوم آخر.
حصلت على نسخة من الكتيب؟"

"طالما أردت نسخة منه فهي نادرة."

"أعيد طبعها، إليك نسختي أستطيع الحصول على نسخة أخرى."

وأخرجت من سلتها نسخة من الإسكندرية التي كتبها إدوارد مورغان فورستر.

"لم أعرف. في هذه الحالة أستطيع الحصول على نسخة من أجلى. شكراً جزيلاً."

وقالت: "خذها ولا تكن مغفلاً."

"حسناً شكراً جزيلاً. أعرف Pharos and Pharillon بالطبع."

"بالطبع يتجاوز هذا الكتاب." (١٣٥)

الفصل الخامس

ثنائيات مختلطة كالعادة

"اليوم - ثنائيات مختلطة كالعادة. هل هناك حرب - في أى مكان - إن المرء ليشعر وكأنه يتساءل - عند رؤية هذا المشهد أو ذاك؟"

يوميات جاسبر ييتس برينتون، يوم ٢٠ يونيو ١٩٤٠.

فى مقال نشرته جريدة ذى إيجيبشيان جازيت The Egyptian Gazette فى ديسمبر عام ١٩٣٨، رحبت بإعادة نشر كتاب الإسكندرية Alexandria، ولكن عندما أضافت خاتمة تاريخية: بأنه مع صعود هيمنة تيار الوطنية المصرية كانت المدينة الحديثة فى نزوة مجدها،... وآخر ما تبقى من الإسكندرية- ما لم نكن أخطأنا فى قراءة اللافتات - أنها تعاني من تدهور. ومع اعترافنا بجميل فورستر وكل من أسهم فى هذا الكتاب ثانياً؛ نستشهد ببيتين من كفافيس شاعر الإسكندرية الحديثة :

مثل رجل متأهب، مثل رجل شجاع

يلقى لها بتحية الوداع، إلى الإسكندرية الراحلة.^(١)

ولكن فى أقل من سنة تغير كل شيء؛ فانسحاب البريطانيين من مصر بدا وكأنه أكثر من زوبعة، وبالنسبة للإسكندرية القديمة فهي ليست إلا إعادة نظر فى أمور كثيرة.

فى الثالث من سبتمبر سنة ١٩٣٩، وبعد يومين من غزو هتلر لبولندا؛ أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا، واضطرت الحكومة المصرية؛ بمقتضى التزامها بمعاهدة ١٩٣٦ أن تضع كل موانئها ومطاراتها وكل وسائل الاتصالات بها تحت تصرف البريطانيين، كما فرضت الأحكام العرفية. وفرضت الرقابة على الصحف والبريد، وجاء روبين فيرنس ليساعدهم على إدارة ذلك. وقطعت مصر علاقاتها الدبلوماسية والتجارية مع ألمانيا، وتعرض كل الرعايا الألمان وعددهم نحو مائتى نسمة - للاعتقال ومصادرة ممتلكاتهم.

معظم هؤلاء الألمان كانوا من أعضاء الحزب النازى، الذى أسسه فى مصر ألفريد هيس الذى وُلد فى الإسكندرية مثل أخيه الأكبر رودلف Rudolf، حيث كان والدهما - فريتز هيس Fritz Hess - من أبرز الشخصيات فى شئون الجاليات الأجنبية. فى مطلع القرن. كان فريتز هيس يدير تجارة ناجحة لبضائع الجملة بطريق دى فرانس، وكان إلى جانب استيراد أنواع الخمور المختلفة مثل راين، وموزيل وبوردو، كان الوكيل الوحيد لكثير من شركات إنجلترا والنمسا وألمانيا ومنها مؤسسة كروب Krupp. ألحق فريتز ابنه الأكبر بمدرسة فى ألمانيا، وكان يعده لى يعود إلى الإسكندرية ويباشر تجارة العائلة. ولكن رودلف - الذى كان يرى والده مستبداً - أحب أن يبقى فى ألمانيا وشارك فى الحرب (الأولى)، لاسيما وأنه لم يعد يملك الكثير ليعود من أجله، حيث جرد البريطانيون عائلته من معظم ممتلكاتها فى مصر. بعدها التحق رودلف بجامعة فى ميونيخ، وكان من أوائل الذين التحقوا بالحزب النازى، وشارك فى محاولة الانقلاب الفاشلة التى قادها هتلر عام ١٩٢٣ والتى وقعت فى حانة فى ميونيخ، ولاحقاً قضى الاثنان فترة السجن سوياً، وكان هيس هو من أهدى إليه هتلر كتابه "كفاحي" Mein Kampf.

وفى الثلاثينيات من القرن العشرين، عندما كان هيس نائباً للقائد الأعلى، كان دائماً ما يفرغ الوقت كى يكتب (خطابات) لوالدته ووالده المقيمين فى منزل العائلة القابع فى ضاحية الإبراهيمية بالإسكندرية، وكانت المخابرات البريطانية تعترض خطابه تلك فى انتظام. وكتب عن الإسكندرية لوالدته ذات مرة قائلاً - وكان ذلك بعدما حكم عليه بالسجن مدى الحياة فى نورمبرج - "ما أروع تلك الجنة التى كانت فى حديقتنا على مشارف الصحراء، هل تتذكرين كيف كنا نجمع زهور البنفسج معاً، وإلى أى مدى كانت رائحتها ذكية؟"^(٢).

ولم تكن مصر دولة محاربة، وبعيداً عن الالتزام ببندو المعاهدة، فلم يكن تعاون حكومتها - على ما كان عليه من الضالّة - إلا كرهاً، وهو ما كان يعكس الاتجاه السائد عند معظم المصريين أن هذه الحرب ليس لهم فيها ناقة ولا جمل، وكما عبرت عن هذا إحدى قريبات صدقى باشا، أحد السياسيين الذين تحلوا بالنزعة القومية - وهى تخاطب جاستون زنانيرى Gaston Zananiri: "كما ترى أننا هنا فى مصر كنا دوماً خدماً للأجانب، فإن كان هؤلاء الأعداء قد جاءوا وأنقذونا مما نعانى منه منذ أجيال فالأفضل أن تقع فى قبضة عدو على أن تقبل بهيمنة أجنبية"، ومهما كان المنطق المتشابك الذى صاغت به أفكارها؛ فإنها كانت تشترك مع غيرها فى ما توصلت إليه. وأثناء عودة جيدج برنتون Judge Brinton مع زوجته من إجازته الصيفيّة التى قضاها فى أوروبا فى أكتوبر من عام ١٩٣٩، وجد أن السفينة التى كانت تقلهما مملوءة "بالسادة الزملاء الأعزاء" من المحاكم المختلطة: "بينما كان معظمهم، مثلنا نحن والبريطانيين، من أشد المعارضين لهتلر، كان البعض يتساءل على استحياء" وماذا يضير لو انتصر هتلر؟ "فالإسكندرية كانت دائماً مدينة المشاعر الممزقة".^(٣)

وفى المراحل الأولى من الحرب، لم يكن الخطر المحقق بمصر من ألمانيا بقدر ما كان من إيطاليا، حيث كان أسطولها يجوب البحر المتوسط، وتتركز قواتها وقوامها نصف مليون جندي في ليبيا وأثيوبيا، وفى مقابل هذا لم يكن هناك سوى عشرة آلاف جندي بريطاني، وهو العدد الذى سمحت المعاهدة أن يظل فى مصر وقت السلم، ولكن موسولينى آنذاك لم يكن قد تفرغ للأمر بعد، وكان بين بريطانيا وإيطاليا سلام هش، فأخذ من فى الإسكندرية فى الانتظار والترقب.

فى العاشر من مايو ١٩٤٠، بلغت جوسى برنتون Josie Brinton، الرابعة والعشرين من عمرها، وكتبت خطابًا إلى والدتها فى أمريكا، تقول فيه: "لا شك أن أحداث هذه الأيام أزعجتنا، حيث غزت ألمانيا هولندا وبلجيكا، كما أن إيطاليا على وشك أن تقوم بشيء ما جهتنا، فمصر ستختبر نظام التعقيم (إطفاء الأنوار) الشامل لـ أسبوع كامل، وبمجرد سماع صفارات الإنذار يجب علينا أن نهول للاختباء فى المخابئ كما يجب أن نثبت ألواحًا ورقية معتمدة على مصاريع النوافذ، وقد أطفئت كل المصابيح الموجودة فى الشوارع عدا القليل الذى تم طلاؤه باللون الأزرق وكذلك مصابيح السيارات الأمامية". وفى نهاية شهر مايو أعلنت الحكومة المصرية أن القاهرة مدينة مفتوحة، وهذا يعنى أنه لن يتم الدفاع عنها ضد أى غزو من قبل المحتل، وبهذا يوجب لها القانون الدولى حماية من التعرض للهجوم أو للقصف بالقنابل، (وبعد هذا) ما برحت القاهرة أن تظل متلاكنة بالأضواء حتى نهاية الحرب، كما كان هذا هو حال مطاعمها المفتوحة ونوادى الليل الجاثمة على أسطح الفنادق بها. ولكن الوضع بالإسكندرية كان مغايرًا تمامًا.

انتقل الجيش الألمانى سريعًا من بلجيكا إلى الجنوب حيث تقع فرنسا، وفى العاشر من يونيو، حين كانت الجحافل الألمانية تقف على مشارف باريس، أعلنت إيطاليا الحرب أخيرًا. وأثناء دوى صفارات الإنذار، التى كانت لا تتقطع طوال

اليوم، محذرة من الغارات؛ كتبت جوسى خطاباً إلى (معارفها) بموطنها فى ممفيس Memphis (بالولايات المتحدة) قائلة لهم: "هناك تعتيم شامل الآن، ولذا لا يستطيع أحد الخروج فى الليل - وأمست قيادة السيارات أمراً شاقاً - إلى جانب أن المرء يخشى من أن يصاب من جراء هذه الغارات. هذا الصباح توجهت للمدينة لأتسوق، وعندما أوقفت السيارة فى المكان المخصص لانتظار السيارات وتوجهت لأحد المتاجر لشراء قطعة من القماش كى أحبك بها ثوباً، وما أن وطئت قدمى المتجر حتى دوى صوت صفارات الإنذار - فما لبث أن قام أصحابه بقفل أبوابه، وهرع الجميع إلى الشارع إلى أقرب المخابئ، وفى الوقت ذاته كانت هناك إحدى دوريات الشرطة تجوب الشوارع وقد أمسك أحد من فيها بمكبر صوت وظل يردد قائلاً (احترسوا جميعاً - أسرعوا، أسرعوا)"، لقد كان موقفاً تتجمد له الدماء فى العروق، واستمر هذا الوضع ما يقرب من ٤٥ دقيقة ولم نعرف حقيقة ما كان يجرى إلا بعد أن طالعنا صحف اليوم التالى، ولحسن الحظ لم تسقط علينا أى قنابل، ولكن إحدى السيدات العجائز، ممن كن معى فى المتجر، أصيبت بحالة من الهستيريا، وطلبت أخرى من صاحبة المتجر أن تلعب معها الورق للتسلية باعتبار أنه يمكننا أن نلهو بشيء ما" (٤).

ونأت الولايات المتحدة بنفسها من خوض غمار هذه الحرب لما يقرب من سنة ونصف، بيد أن جوسى لم تفقد يوماً ثقها فى عزيمة البريطانيين، حيث كتبت فى مذكراتها الشخصية عن يوم الرابع عشر من يونيو ما يأتى: "أعلن الألمان أنهم سيدخلون باريس فى الخامس عشر من يونيو، وما هم يجوبون شوارعها اليوم، ولا أحد غير الله يدرى متى تنتهى هذه الحرب، لكن الإنجليز لن يستسلموا حتى ينالوا من هتلر أو يفنوا عن آخرهم" (٥).

وبدأت الغارات الجوية تتوالى، وكان الهدف هو الميناء الغربى، ولكن القنابل تساقطت خلال الأيام الأولى على منطقة كليوباترا، أما خلال الأسابيع والشهور اللاحقة فقد تناثرت القنابل المتساقطة بصورة عشوائية على كل أرجاء الإسكندرية، فسقطت فى شارع شريف باشا Cherif pasha، وعلى محطة ترام الرمل النهائية، وعلى منطقتى الجابرى والمكس غربى المدينة، وفى كرموز بالقرب من عمود بومبى Pompey، كما انفجر لغم طاف فى خليج ستانلى بالقرب من الكورنيش.

وفى هذه الأثناء أصدر وإيتهد موريس Whitehead Morris كتيب إرشادات من نوع جديد، وكان عبارة عن فرخ ورق مضاعف الحجم يحمل عنوان "تدابير الغارات الجوية، وسائل الحماية فى المنزل" شرح فيها الإجراءات الواجب اتباعها لتجنب أضرار القنابل الحارقة مثل ("تعامل مع القنبلة فى أقرب لحظة ممكنة بعد إلقائها")، ومعالجة النوافذ والأبواب ومواقع التدفئة ضد التفجيرات الجوية والهجمات بالغاز والشظايا المتطايرة ("لا تجلس بالقرب من المنافذ أو فى مواجهتها")، وما أفضل أشكال المخابئ ("يفضل أن تكون فى بدروم المنزل أو فى الطابق الأرضى")، وما التجهيزات اللازمة لها ("وضع دلو من الماء خلف ستارة معلقة")، وما الذى يجب اتباعه أثناء الوجود بالمخبأ ("لا تستهلك كمية الأكسجين دون داع"). وقد عمد جيدج برنتون إلى أن يغض الطرف عن الغارات تملأ، ولكنه كان يشعر أنها ليست سوى "فعل سيئ ومظهر يدل على الغرور"، ولذا فقد أنشأ مخبأ فى حديقته باستخدام صندوق خشبي كان إطاراً لآلة البيانو وثبته فى حفرة ثم طمره تحت كومة من الطين، ولأنه أثنى بأريكة وبعض الكراسي؛ بدا المكان مناسباً جداً لاستقبال آخرين، كان من بينهم أحياناً شخصيات مرموقة، كما كانت تقدم المرطبات الخفيفة إذا طالت مدة المكوث^(١). ودفعت مخافة السأم، التى

كانت تضاهى مخافة الأعداء، بعضا من سكان وسط المدينة إلى أن يحفروا مخابئ أكثر عمقا واتساعا ووضعوا فيها موائد لألعاب الورق، واستغل آخرون الصهاريج الرومانية التي كانت تخزن فيها المياه، وكان واحد منها فى منطقة مصطفى باشا يتسع لألف شخص.

بيد أن جيدج برنتون كتب فى مذكراته ليوم العشرين من يونيو ما يأتى :
"هناك ثنائيات مختلطة كالعادة، فهل هناك حرب ما - فى أى مكان؟ - سؤال قد يشعر المرء أنه بحاجة لأن يطرحه على نفسه، عندما يرى مشهدا كهذا." (٧).
وبالفعل فلم يمنع سقوط القنابل أهل الإسكندرية من انتهاز الفرص للتجمع على الشواطئ، ولم يفت فى عزيمة أعضاء نادى اليخت الملكى الموجود بالقرب من قصر رأس التين من الإبحار بزوارقهم عبر مياه الميناء الغربى. وكان من بينهم جون وجوسى، وكانا برفقة سيريل باركر Cyril Barker، وهو أحد أفراد الأسر التى لها تاريخ عريق فى بورصة القطن فى الإسكندرية، وجاءت معه زوجته جابريلا Gabriella. ذهب الرجلان للإبحار فى قارب، وتصف لنا جوسى قائلة "جلست أنا وجابريلا [سويا فى زورق] وتناقشنا طويلا فى الحب والجنس إلى آخره، فقالت لى (جابريلا) إن السيدات الإنجليزيات هن آخر من يتصفن بالأخلاق" (٨)، وكانت جوسى - خلال هذه الأيام - قد بدأت فى قراءة بعض مؤلفات دى. إتش. لورانس D. H. Lawrence ومنها رواية عشيق اللبدي تشارلى (Lady Chatterley's lover). وأردفت قائلة "فعلى الرغم من أن الشخصيات لا تمت للحقيقة ولا للواقع بصلة فإنها يمكن أن تمثل أناسا سوف يأتون فى عالم أكثر تحضرا" (٩)، بعدها دوى صوت صفارات الإنذار، وقالت جابريلا إن بإمكانهم العودة إذا كانوا خائفين، ولكنهم مكثوا فى الميناء، وتضيف جوسى "وعلقت جميع الأعلام على السفن، وأخذت محطة رأس التين فى إطلاق الإشارات بطريقة

جنوبية، وتفرقت قاذفات سندرلاند **Sunderland** التي كانت متجمعة حول مخزن الزوارق الطائرة (الطائرات التي تهبط على الماء فقط) في اتجاهات شتى، ورفع ما يقرب من ثمانية مدمرات المرساة وخرجت إلى عرض البحر منتظمة في خط واحد، وكان المشهد في غاية الإثارة^(١٠)!

وبحلول منتصف صيف عام ١٩٤٠، وبينما كانت جوسى تمر من أمام سكول ليتورى **Scuole Littorie** "سمعت (جوسى) صيحات استهجان وصراخا لم أسمع مثلها من قبل"^(١١)، فقد تحولت المدرسة الإيطالية إلى مركز اعتقال لمن هم في سن الخدمة العسكرية من الرجال الإيطاليين، ففي اللحظة التي أعلن فيها موسوليني الحرب تحول كل من يحملون الجنسية الإيطالية إلى أغراب معادين وفرض عليهم أن يقيدوا أسماءهم في سجل، وصودرت أعمالهم وممتلكاتهم، وتم اعتقال الآلاف منهم في معسكرات في طول البلاد وعرضها تاركين عائلاتهم يواجهون مصيرهم من دونهم.

وشهد تطبيق هذه الإجراءات فوضى عارمة وبلبلة كبيرة؛ فالكثير من الإيطاليين ولدوا على الأراضي المصرية، ولكنهم قد أثبتوا الجنسية الإيطالية لأنفسهم لمجرد أن يتمتعوا بحماية المحاكم المختلطة، كما أدى الاحتلال الإيطالى لجزر الدوديكانيس (**Dodecanese**) إلى أن يحمل عدد من اليونانيين أوراق هوية إيطالية، مع أن العديد من اليونانيين المقيمين في مصر كانوا يمقتون الفاشية مقتاً شديداً، كما كان هذا هو حال الإيطاليين اليهود، (وإن لم يكونوا كلهم حتى هذا الوقت)، وذلك بعد أن أصدر موسوليني التشريع المناهض للسامية سنة ١٩٣٨. وقال مصدر من بنك باركليز **Barclays** الموجود في مصر إن "معظم طاقم العمل في البنك مولود على الأراضي المصرية، ولكن عدداً منهم كانوا إيطاليين، وبعضهم لم يحصل على الجنسية الإيطالية إلا قبل الحرب، وفور اندلاع الحرب مع

إيطاليا، تم توقيف العاملين الإيطاليين كافة لدينا في مصر والبالغ عددهم ٧٥ فردًا، واعتقل خمسة منهم على الفور، وقد زاد هذا العدد قليلاً بعد ذلك، بيد أن عدداً ممن تم توقيفهم كانوا يهوداً أو من أصل يوناني، وفي نهاية المطاف، بعد مرور بضعة أشهر من التوقيف، تم إعادة ما يقرب من عشرين شخصاً منهم إلى وظائفهم^(١٢).

ولم يسمح لمارتا لوريا Marta Loria بالعمل - وذلك على الرغم من وفاة والدها، والذي عرف بانتمائه للفاشية، سنة ١٩٣٧- إلا بعد أن تزوجت من ضابط بالبحرية الملكية عام ١٩٤٢، وأصبحت مواطنة بريطانية. وكانت لمارتا صديقة تعرفت عليها في أوائل الثلاثينيات، في الوقت الذي شرع فيه أفراد عائلتهما في تشييد كابينتي استحمام (أو وحدتي شاليه) متجاورتين على خليج ستانلي (كل على حدة)، وكانت هذه الصديقة، التي تدعى هيرتا بابو Herta Pappo، وهي يهودية إيطالية، تقول عندما تذكرت الحرب يوماً ما "لقد كان وقتاً عصيباً علينا". وكان والد هيرتا، وهو ابن عم لإنريكو تيرني Enrico Terni، قد تقاعد من وظيفته مديراً لبنك روما Banco di Rome، ولاند بنك مصر Land Bank، وكليهما كان في شارع شريف باشا، وتستطرد هيرتا قائلةً "كنا جميعاً تحت المراقبة، لاسيما هو (والدها)، وأعطونا بطاقات هوية، كما كان يجب علينا أن نقدم تقريراً (بكل ما يتعلق بنا)، ويبقى أن كوننا يهوداً كان ميزة لنا، وبخلاف ذلك لم نواجه أى مشاكل".

ومن بين الذين تأثروا بالتدابير الأمنية الجديدة عدد من الفنانين (المغنيين أو الراقصين) الأجانب الذين كانوا يعملون في الملاهي (نوادي الليل) في الإسكندرية، فعند ذهاب جوسى إلى ملهى إكسلسيور Excelsior ذات ليلة في بداية شهر يونيو ١٩٤٠، اكتشفت "أنهم يطردون كثيراً من اللغتيات لا شيء إلا لأنهن مجريات، أو من جنسيات مثل ذلك، ومن المحتمل أن يكونوا طابوراً خامساً"^(١٣)، البعض منهم اضطر للرحيل من البلاد، والبعض الآخر اتجه إلى القاهرة التي لم تكن مثل تلك الإجراءات

قد اتخذت فيها بعد، وكان في الإسكندرية وفرة من الفتيات من جنسيات مختلفة؛ يونانيات وقبارصة ومالطيات وغيرهن، تم استبدالهن بهن.

تلا ذلك ببضعة أسابيع رحيل آخر سبب اضطراباً أكبر، فكما كتب جيدج برنتون في مذكراته ليوم الثامن عشر من يونيو: "تلقيت مكالمة هاتفية أثناء تناولى للإفطار، حيث اتصلت بي جوسا فيني Josa Finney لتوديعي، في البداية ظننت أنها مجرد رحلة للقاهرة، واستغرق الأمر فترة كي أستوعب هذا الخبر غير العادي وهو أنها وأسرتها سيغادرون مصر قاطبة، ولو كان هذا في أي سنة عادية لاعتبرته مجرد فرار - سابق لأوانه - من حر الصيف، ولكن في ظل الظروف التي تعيشها مصر هذه الأيام، أتى علينا هذا الأمر كصدمة مروعة، كما لو كان عموداً يترنح ويتداعى. وتحدث إلى أزوالد Oswald كذلك (قائلاً إنه ينوى الذهاب إلى "أمريكا (عن طريق) كيب تاون Cape Town" - فهو أول من سيبحثون عنه"^(١٤))، وكان بث إذاعي من روما - في اليوم السابق - قد ذكر فيني بالاسم، وقال إنها هي وإمبراطوريتها الصحفية السبب في أن تكون مصر موالية لبريطانيا وعدوة لإيطاليا، وإنهم سيصفون حساباتهم معها عندما يحتلون مصر. وجاءت أخبار عن استقالة الوزارة الفرنسية، وعن تشكيل حكومة جديدة برئاسة المارشال بيتان Petain، القائد البطل لمعركة فيردن Verdun سنة ١٩١٦، والذي قد كبرت سنه، بعد أن طلب معاهدة مع هتلر، ومع استسلام حليفة بريطانيا الوحيدة في أوروبا، أدرك فيني أن الأمر قد انتهى.

وبعد جدال استمر فترة حول أفضلية السفر بحراً أم جواً، استقلت أسرة فيني الطائرة إلى كيب تاون في أوائل شهر يوليو، بعد أن غمروا أصدقاءهم - بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة - بوابل من العملات الذهبية الإنجليزية والفرنسية، وكان جيدج برنتون في وداعهم ورافقه أحد الزملاء الذي أخبرهم أن رحيلهم كان "الشيء الذي

سبب أكبر قدر من الإحباط في مصر على الإطلاق، غير أن برنتون التزم في مذكراته بوصف وداعه الذي أتى في عبارة منمقة قال فيها "إن أي شيء ستفعلونه لن يكون إلا مناسباً لنا، وستبقى مشاعري نحوكم كما كانت بالأمس، بل وستزيد ثم قال مخاطباً نفسه: "أعتقد أنه من الإنصاف أن يخبرهم واحد من الأصدقاء على الأقل بوجهة نظره، إذ استمعوا للشيء القليل الذي اختلفوا فيه" (١٥). وكان بالسفارة أولئك الذين رغبوا في منع فيني من الرحيل، وكان بين أفراد الجالية البريطانية كثير ممن كثير مما نظروا إلى أمر رحيل فيني بازدراء.

وعلى الرغم من أن حفلات آل فيني توقفت مع اندلاع الحرب فإن شهرتهم استمرت طويلاً، وربما كانت هذه الأحداث هي ما كان يدور في ذهن ثريل Durrell عندما كان يكتب نروة أحداث روايته بلتازار Balthazar، في المشهد الذي تم في حفلة سيرفونيس Cervonis الصاخبة عندما دفع(ت) ناروز Narouz بإبرة في جمجمة توتو دي برنيل Tote de Brunel طناً منه (١) أنه يقتل جاستين Justine. وقام أزوالد بزيارات عابرة وقصيرة إلى الإسكندرية، كانت آخر مرة في شهر يونيو سنة ١٩٤٢ عندما أجبره زحف روميل Rommel نحو العلمين على أن يعود أدراجه إلى جنوب أفريقيا مرة أخرى، وظل بها إلى أن توفي في شهر سبتمبر. وعادت جوسا Josa إلى مصر واستمرت في إدارة مؤسسات فيني بمعاونة أخى أزوالد الأصغر هارولد حتى أمم عبد الناصر كل شيء، ولكن السادات أعاد إليها المنزل، وقبل وفاتها في عام ١٩٨٣ باعتته إلى بنك التجارة والتتمية بعد أن وافقوا على شرطها جيد بعدم المساس بأي شيء (من المنزل)، ومن ثم وضع في الطابق السفلي حجرة المدير مكان حجرة المعاطف ذات المساحة الضخمة والموجودة بجانب الباب الأمامي، ويجلس العاملون على مكاتب صفت على الأرضية الرخامية التي تعلو حمام السباحة وحمامات صالة الألعاب الرياضية

الساخنة وكليهما لا يزال على حالته الأصلية، وترك الدور العلوى وما يحويه من غرف معيشة وغرف نوم ومكتبة وقاعة لعب البلياردو وقاعة ألعاب الورق وقاعة الحفلات الراقصة دون أن يوضع فيه شيء، ماعدا لوحة شخصية مرسومة لفينى علقت على الحائط، وكان هذا من شروط جوسا كذلك، وظل المنزل لسنوات طويلة - حتى بعد بيعه للبنك - لا يسكنه إلا الحاج أحمد وهو الشخص المسئول عن تنظيف المنزل، وهو من رافق آل فينى من البداية، وشهد المنزل منذ نشأته وطيلة حياته، كما تولى تنظيفه على حالة سباته الراهنة تلك.

"ياله من يوم حالك السواد!" كتب جيدج برنتون هذا فى مذكراته، واصفاً اليوم السابق - يوم الثانى والعشرين من يونيو - وهو اليوم الذى قبل فيه بيتان شروط هتلر وخضع بموجبها شمال فرنسا وساحل الأطلسى للاحتلال الألمانى، بينما خضع الجزآن - الأوسط والجنوبى - من فرنسا لحكومة بيتان فى فيشى، وكان بينهما التعاون الممنتر تحت حيادية ظاهرية، أما اليوم - الثالث والعشرون من يونيو - فبيتان يتباحث مع إيطاليا أيضاً بشأن هدنة أخرى، "وماذا بعد؟ طفق الجميع يتحدثون عن الأسطول الفرنسى، وكانت بضع سفن موجودة هنا من بينها بارجتان حربيتان؛ فهل يمكن أن يتم استخدامهم من قبل الحلفاء؟" (١٦) وعند ذهاب برنتون لرؤية أحد أصدقائه الفرنسيين، وجده "محطماً" فحاول أن يواسيه، ويخبرنا هو عن ذلك قائلاً "سألته - هل بإمكان قوم أن يتغلبوا على قوم آخرين اليوم فعلاً؟ ثم أخذنا نتحدث عن ماهية فرنسا، وأنها أكبر من أى حكومة، وهل هُزمت حقاً، أوليست هى البلد الخالد؟" (وفى مشهد مماثل فى رباعية الإسكندرية Alexandria Quartet يقابل دارلى Darley صديقه القديم جورجيس جاستون بومبال Georges-Pombal، "أخذ كل منا يتأمل الآخر لفترة طويلة فى صمت تغلفه العاطفة، كلانا كان يعرف أن هذا الصمت الذى نشهده هو أحد الآلام التى حدثت نتيجة

لسقوط فرنسا، وهو الحدث الذى يرمز برمته وبوضوح للانتهيار النفسى لكل أوروبا... وهو السقوط المدوى للإرادة الإنسانية) ^(١٧). وإذا كانت هناك جنوة من لهب (الكرامة) لا تزال مشتعلة بين الفرنسيين، فماذا فى نيتهم فعله بالأسطول؟ ظل هذا السؤال يلح على عقل برنتون، وكان يقول لنفسه: "كل ما أرجوه ألا تتأجج العداوة الراكدة بين الدولتين [فرنسا وبريطانيا] سريعاً هذه الفترة، وطالما أن فرنسا لن تحارب، فهلا تنازلت عن أسطولها، ولم لم تستول عليه إنجلترا من أسبوع مضى؟" ^(١٨).

لم يكن البريطانيون متلهفين على جرح الكبرياء الفرنسى؛ فبدلاً من الانقضاض على سفن أسطولهم كانوا يأملون فى أن تحتشد (هذه السفن) تحت راية الفرنسيين الأحرار (فرنسا الحرة) بقيادة شارل دى جول *Chales de Gaulle* وأن تحارب جنباً إلى جنب مع البحرية الملكية. وعبر البث الإذاعى من لندن أعلن الجنرال دى جول أن فرنسا خسرت معركة، ولكنها لم تخسر الحرب، وأن هذه الحرب - حرب عالمية، وستشهد الساحة ظهور قوى كثيرة تلعب دورها، وأن كل فرنسى لا يزال يحمل سلاحاً له حق فى الاستمرار فى المقاومة، لتأكيد أن فرنسا لن تغيب عن المشهد النهائى للنصر، بيد أن النداء الذى وجهه دى جول لم يجد له أنصاراً فى الأيام التى أعقبت خطابه سوى القليل، ولكن لم يبق من الجيش الفرنسى فى الشام، الذى يبلغ قوامه ثمانية وثلاثين ألف جندي، إلا ألفاً واحدة ظلت موالية لفيشى، ولم يستغرق الأمر إلا القيام بحملة من الجنود البريطانيين والأترياليين وقوات فرنسا الحرة الموجودة فى مصر لإخضاع سوريا ولبنان لسيطرة الحلفاء فى يوليو من العام المقبل، ولم يتغير الوضع بالنسبة للقوات الفرنسية المتمركزة فى شمال إفريقيا، وحتى فى مصر، حيث التزم الفرنسيون - بصفة عامة - بالخضوع للولاء لفرنسا الحرة، فى حين أصر المندوب (الممثل الدبلوماسي) الفرنسى فى

القاهرة مع القنصلية فى الإسكندرية بعناد على أن يكون ولاؤها لفيشى، لدرجة أن دى جول، أثناء زيارته للمدينة، لم يجد الترحيب على المستوى الرسمى، بل فى منازل المتعاطفين من مواطنيه مثل السيدة روزيتا دى ميناس Rosette de Menasce وابنتها كلير Claire.

وكم كان قوياً ذلك الشعور السائد بالتفوق الألمانى المطلق، والاقتناع بأن هزيمة البريطانيين وشيكة، حتى إن من فى خارج فرنسا، ممن كان لديهم حرية الاختيار بين المقاومة أو الخنوع، من غالبية أصحاب المناصب سواء الإدارية أو العسكرية. أخذوا يتكاثرون وكأنهم مقدمون على تقديم استقالاتهم، وتذرعوا بحجة الشرعية ليبرروا ولاءهم لفرنسا التى كانت فى يد الحكومة الدمية؛ حكومة بيتان، وكان من بين هؤلاء قادة الأسطول الفرنسى فى البحر المتوسط.

أصدر بيتان أوامره بعودة الأساطيل للوطن، إلا أن البريطانيين أصروا على منعها من العودة، أما وقد كان من شروط الهدنة التى قبلتها فيشى فقد أصر الألمان على تسليم الأسطول الفرنسى، وفى الوقت ذاته خشى البريطانيون أن يستخدمه هتلر فى غزوه المحتمل للجزر البريطانية. وفى الإسكندرية، التى كانت قاعدة أسطول البحرية الملكية فى البحر المتوسط، استطاع القائد العام الفريق بحرى (الأميرال) السير أندرو كاننجهام Andrew Cunningham إنشاء الفريق بحرى رينيه جودفروى Rene Godfroy من محاولة الإبحار بسفنه خارج الميناء، وفى ذات الوقت، وبينما كان الأسطول الفرنسى الرئيسى رابضاً فى المرسى الكبير Mers el Kebir، الميناء البحرى لولاية وهران Oran فى الجزائر، أبحرت قوة بريطانية من جبل طارق Gibraltar بغرض تحقيق أحد هدفين؛ إما أن يبحر الأسطول الفرنسى معها إلى أحد الموانئ البريطانية ويخضع لإمرة البحرية الملكية أو أن يبحر إلى ميناء تابع لجزر الهند الغربية الفرنسية (جزر الكاريبي) ويخضع

لعملية نزع السلاح، وعندما قوبل المطالبان بالرفض؛ أعطى قائد أسطول جبل طارق - الفريق بحرى سومرفيل Somerville خياراً للفرنسيين أن يغرقوا أسطولهم بأيديهم فى المرسى الكبير، وعندما رُفض هذا الخيار كذلك فى الثالث من يوليو فتح للبريطانيون النار على الأسطول الفرنسى، وفى خلال ٥ دقائق كانت السفن الفرنسية الرئيسية إما غارقة أو معطوبة.

ولم يشعر البريطانيون مطلقاً بالزهو لتنفيذ مثل هذه العملية المؤسفة، فعلى الرغم من أن عملية المرسى الكبير أدت بحياة مائتين وألف من الفرنسيين الذين كانوا حتى يوم أمس من الحلفاء، ورغم وصف الجنرال دى جول نفسه لها بالبشاعة، فإنه أقر أنه لم يكن هناك بديل. وبعيداً عن ضرورتها العسكرية، كانت الروح الانهزامية سارية بدرجة تكاد توقف القتال، وكما لاحظ برينتون "فقد كانت كل جهات الحياد السابقة تأمل فى أن تنكسر شوكة بريطانيا وتقبل بتسوية سلمية- أثلاً يتعرضوا لمشاكل !!، وإنى لأرغب (سياق الحديث ما زال لبرينتون) فى أن تستمر بريطانيا فى الحرب بقوة، ولكنها لا تجد الكثير من الأصدقاء حولها هنا" (١٩). وفى مثل هذه الأجواء - كما أدرك ذلك تشرشل Churchill- لن يكون لبريطانيا حليف يعتمد عليه سوى عزميتها، وأطلق على المرسى الكبير "نقطة التحول فى مصيرنا، فقد جعلت العالم يدرك أننا جادون على المضى قديماً فى تحقيق ما نصبو إليه". (٢٠)

وعلى الجانب الآخر استشاط جودفروى غضباً عندما بلغته هذه الأنباء ولستجمع قواه وقرر أن يشق طريقه نحو البحر ولو بالقتال، وخوفاً من احتمال أن تتلع معركة بحرية شاملة فى ميناء الإسكندرية الغربى، ناشده كاننجهام أن يعدل عن قراره، ولكن عندما تشبث جودفروى بقراره، تخطاه كاننجهام، وتوجه بالنداء للضباط والبحارة (الفرنسيين) عن طريق رسائل كتبت على لوحات عريضة علقت

على مجموعة من القوارب الصغيرة أحاطت بسفن الأسطول الفرنسى فى شكل حلقة. وفى النهاية لان جودفروى ورضخ لشروط كاننجهام الكريمة التى سمحت له باستخدام سفرات فيشى لإرسال معلومات إلى فرنسا، والإعداد لتسريح معظم طاقمه وعودتهم إلى وطنهم، بينما ظلت البقية - بعد تفريغ وقود السفن وإزالة كتلة المغلاق من المدافع (ولكنهم أبقوا- كما كتب دوريل فى الرباعية - على كل من أسلحتهم الخفيفة وشعور بالخزي)^(٢١) - كجماعات للصيانة تتلقى مؤنهما ورواتبها من البريطانيين.

وكان المشهد اليومى الذى عاينته الإسكندرية فى ظل وجود القوة إكس X، وهو الاسم الذى عرف به الأسطول الفرنسى من هذا الحين، هو الصراع المتجدد فى الشوارع بين البحارة الموالين لفيشى عندما يأتون فى إجازة على البر وبين أنصار فرنسا الحرة، عندما كانت الطائفة الأخيرة تتحكم على الأولى بعبارة مثل "هل معكم محار وبلح البحر للبيع"؟^(٢٢)، كما كان يمكن لمثل هذه المواجهات أن تكدر صفو النزاهات البحرية فى الميناء وتجعلها على قدر كبير من الخطورة، فلقد كان أمراً ثابتاً أن هناك مرسى واسعاً يترك للأسطول الكتيب غير المشارك فى الحرب، والذى كان بحارته المدللون - والمنبوذون فى الوقت عينه - يقعون فى نوبات من جنون العظمة ويقومون بإطلاق للنار عشوائياً على أعضاء نادى اليخت الملكى المجاور لهم عندما يدفع بهم هبوب مفاجئ لتيار الهواء ويتسبب فى اقتراحهم منهم. (ومن بين هؤلاء الذين تعرضوا لمثل هذا الموقف) كانت كلود فينسيندون Claude Vincendon، التى كانت فى الخامسة عشرة سنة ١٩٤٠، والتى كانت كثيراً ما ترى وهى تبخر مع والدها فى قاربهم الصغير فى الميناء، وبعد مرور ثمانية عشر عاماً عندما كانت تعيش مع دوريل فى فرنسا، وصفت هذه الواقعة فى روايتها The Rum Go التى استعارها دوريل بعد ذلك وأضاف عليها مقداراً من

الانتميق للمجلد الأخير من الرباعية، وجعل بحارة الأسطول الأسير يطلقون النار على بومبال ويصيبون محظيته فوسكا Fosca فى مقتل، وحتى جودفروى نفسه عندما كان يأتى للشاطئ يجد نفسه منبوذا اجتماعيا لدرجة أنه لا يستطيع أن يلعب مباراة تنس مع أحد، وبعد سنتين، أى فى عام ١٩٤٢، وفى أثناء الأشهر العصبية التى تخللت معركتى العلمين الأولى والثانية، وعندما كان البريطانىون يفكرون فى طرد القوة إكس من المياه (إلى عرض البحر)، كان جودفروى يعزو نجاته هو وأسطوله للوساطة الحكيمة التى قام بها جاسبر برينتون.

وما هى إلا أشهر قليلة - أى فى فترة وجيزة - حتى سقط كل ساحل الأطلسى الأوروبى؛ من الرأس الشمالى بالنرويج North Cape - Norway، إلى الحدود الإسبانية فى قبضة الألمان، وظلت بريطانيا - عبر القنال الإنجليزى - تحمى نفسها من الغزو النازى من الموانئ الفرنسية. وفى ذات الوقت أحكم الألمان والإيطاليون سيطرتهم على ألفى ميل من الشريط الساحلى على جانبى البحر المتوسط، ولولا قواعد البحرية الملكية فى جبل طارق ومالطا والإسكندرية لتحول المتوسط إلى بحيرة لدول المحور. ووقفت قوات إيطالية على الحدود الليبية، وعلى الرغم من أن بريطانيا فى هذا الوقت رفعت مستوى أعداد قواتها فى مصر إلى خمسين ألفا، فإن أعداد قوات العدو كانت تفوقها بنسبة واحد إلى عشرة، فإذا تصورنا أن بريطانيا هزمت، وأن الإسكندرية سقطت، وأن قوات الملكية البحرية كانت ستجبر على الانسحاب من البحر المتوسط، وأن تركيا المحايدة كانت ستقع تحت الحصار وستضيع اليونان وقبرص وفلسطين مع مصر بقية منطقة الشرق الأوسط، فمن ثم سيقع معظم أجزاء أوروبا وأفريقيا وآسيا فى أسر دول المحور التى ستتضم إليهم اليابان قريباً.

ورغم اقتراب المعارك، فإن حفلات الكوكتيل وحفلات موائد الغداء لم تتوقف، وهذا دليل على روح التحدى واللامبالاة، وفي الصيف كانت المنازل لا تطاق من الحرارة بسبب احتياطات التعقيم الشامل، وفي الرمل كان الناس يجلسون فى حدائقهم على ضوء النجوم أو القمر، بينما كانت طائرات الأعداء تحلق فوق رؤوسهم، ويعلق جيدج برينتون على هذا قائلاً: "فى بداية الأمر كانت أصوات القصف شيئاً مزعجاً، فقد كان لها دوى كريحه، ولكننا سريعاً ما تأقلمنا عليها، وبعد فترة بنتنا نعد الإضاءات الهوائية التى تصاحبها كعرض عملاق للألعاب النارية"^(٢٣). أما جون، الذى كان يندفع إلى سطح المنزل حاملاً معه النظارة المعظمة ثم يعود ليرتقى سريره إلى جوار جوسى، فكان يقول: إن كل ما يشغله هذه الأيام هو (الاستمتاع بالوطء ومشاهدة الغارات الجوية)^(٢٤).

وفى بدايات شهر سبتمبر، حينما كانت طائرات الأعداء تنتهك خصوصية إحدى الأمسيات الاجتماعية فى الربع (الحى) اليونانى Quartier Grec، بعثت جوسى خطاباً إلى معارفها فى موطنها قالت لهم فيه "فى الليلة الماضية دعينا لتناول بعض المشروبات فى منزل الليدى باركر Lady Barker فى حدود الساعة الثامنة، وبينما كنا نتأهب للمغادرة إذ بدوى صافرات الإنذار أعقبها غارة كاملة استمرت حتى العاشرة إلا الربع، وكان الضجيج المنبعث يشبه صوت الرعد، كما كنا نسمع أصوات سقوط قطع من قنابل الشظايا فى الشوارع التى تتساقط من المدافع المضادة للطائرات، ورغم هذا لم تحدث أى خسائر على الإطلاق، فلم تسقط سوى قنبلة أو اثنتين، (مما يدل على) أن الإيطاليين ليسوا على هذا القدر من الكفاءة، وقد اكتسبنا كنا - بمرور الوقت - صلابة وأمست هذه الغارات لنا شيئاً معتاداً"^(٢٥).

وفى هذه الأثناء، التهمت السماء التى تغطى لندن والجنوب الشرقى من إنجلترا باندلاع معركة بريطانيا، وكانت الإسكندرية - آنذاك - هى المدينة الوحيدة الأخرى فى العالم التى تشترك مع لندن فى أنها اختصت بسقوطها ضحية لغارات دول المحور، وأخذت جوسى تملأ مذكراتها الشخصية بروايات وصفية لهذه الغارات الجوية على كلتا المدينتين، ومنها ما يلى: "وقعت غارة جوية وحشية على لندن البارحة خلفت وراءها ٥٠٠ قتيل و ١٤٠٠ مصاب بجروح خطيرة، كما حدثت أضرار بالغة بحسب ما أذاعته البى بى سى BBC^(٢٦)، واستمعت بمزيج من الشعور بالرضا والإحساس بوجدة الهدف المشترك إلى الخطاب الإذاعى الذى ألقاه تشرشل فى الحادى عشر من سبتمبر ووصفته بأنه "خطاب) رائع حقاً، وربما سيذكر فى كتب التاريخ التى ستكتب لاحقاً وقد نعت هتلر قائلاً "ذاك الإنسان الشرير".^(٢٧)

لا شك فى أن مثل هذا القصف العشوائى الوحشى الغاشم لمدينة لندن كان جزءاً من مخططات هتلر لغزوها... هذا الإنسان الشرير، الذى يعتبر مستودعاً وتجسيداً لكل صور الكراهية التى تقضى لتدمير البشر، لقد قرر هذا النتاج البشع لكل ما سبق من شرور وهوان أن يحطم سكان جزيرتنا الرائعين بسلسلة من هجمات تدميرية ومذابح عشوائية، بيد أن كل ما فعله هو أنه أضرم نار الحماس فى الأفئدة البريطانية، هنا وفى كل أرجاء العالم، وهذه النار ستظل جنونها مشتعلة ولن تخبو حتى بعد أن تزال كل آثار النيران التى خلفها فى لندن^(٢٨).

بعد يومين - أى فى الثالث عشر من سبتمبر - عبرت قوات إيطالية الحدود من ليبيا، وتوغلت نحو ستين ميلاً فى الأراضى المصرية.

وفى اليوم الذى عبرت فيه القوات الإيطالية إلى مصر، وتقدمت من التسليم
وبقبق إلى سيدى برانى، انطلق جيج برنتون إلى الخط الأمامى للقوات البريطانية
فى مرسى مطروح، والذى ظل لأشهر عديدة يعانى من القصف الجوى، وكان
تبريره لهذا هو (أنه) "قرر أن يقوم بأى مساهمة"^(٢٩)، فاشترى سيارة فورد
مستعملة وأعدّها لتكون مقصفاً متنقلاً وأطلق عليها اسم سيارة برنتون " Van
Brinton"، وتوجه بها إلى الخط الأمامى، وتبرع بها إلى جمعية الشبان المسيحيين
YMCA، وقبل مغادرته إسكندرية، اشترى خوذين من القصدير، واحدة له
والأخرى لجينييفا Geneva طوال مدة غيابه عنها، وأثناء عودته استقل مع براملى
Bramly الذى كان قد توجه كذلك للخطوط الأمامية لمساعدة السنوسيين الذين كانوا
يتدفقون على الحدود هرباً من الإيطاليين.

وعلى الرغم من أعداد قواته الهائلة، فإن المشير جراتسيانى Graziani أمر
القوة الغازية أن تتحصن فى سيدى برانى، حيث الإيطاليون وخطوط التموين إلى
ليبيا تتعرض لقصف وحشى من السفن المدفعية البريطانية ومن حاملة الطائرات،
مما تمنح الوقت اللازم لثلاث كتائب مدرعة بالمرور على طول البحر المتوسط
على خمس سفن سريعة، من إنجلترا المحاصرة. قلت حدة الخطر حين كان
الأسطول الإيطالى، رغم أنه كان أكبر من الأسطول الملكى فى البحر المتوسط،
فقد تردد الأسطول فى ترك التدابير الأمنية فى داخل موانئها، أكثر من الغواصات
الإيطالية؛ وذلك لتجنب الرجال والتموين المتجهة إلى مصر، جعلت مسافة الرحلة
نحو اثنى عشر ألف ميل حول رأس الرجاء الصالح، كما تأخر البريد، حتى إن
الخطابات بين مصر وإنجلترا أو أمريكا كانت تستغرق حوالى ثلاثة شهور
للوصول. وكلما زادت الكتابة للوطن فهى أشبه بوضع رسالة فى زجاجة تتقاذفها
الأمواج العاتية وكلما تأكد من رسائل جوزيه" إننى أعلم إلى أى مدى أنت قلق،

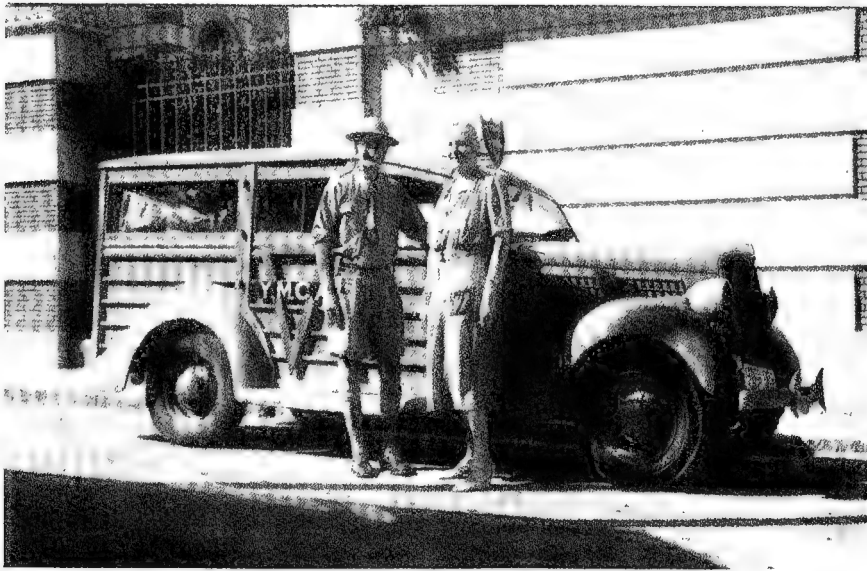
ومن غير المفيد أن أقول لك ألا تكون ولكن ماذا عساي أن أقول، فلو أنك رأيت الحياة السعيدة التي يعيشها كل إنسان هنا، فستدهشك تلك الإثارة" واستمرت في قصة المدينة، "في البحر المتوسط فإن ما فعله كل البحارة الإنجليز انحنأؤهم على جوانب زوارقهم صائحين" "النادل" لتجعل الغواصة الإيطالية تأتي إلى سطح المياه! غدا لدينا حفل ثم كثير منا سيخرج للمدينة للعشاء والرقص. يوم الأحد سوف نذهب لرؤية الممثلة جريتا جاربو في فيلم "تينوتوشكا Ninotchka" والذي يعرض هنا حاليا." (٣٠)

في ٢٣ أكتوبر كان جيدج برينتون قد اتجه إلى نادى الاتحاد وذلك لاستقبال الجنود البولنديين (وهى منطقة حارة ومبعث للدخان الكثيف) حيث قابلت السيد إيدين - وهو شخصية لطيفة ومرح. قلت "إننا فى الحرب حاليا." وقال "هذا من شأنك أن تقرره." (٣١)

وصل أنتونى إيدن للقاهرة فى ١٤ أكتوبر (٣٢) ورغم أن معركة بريطانيا مازالت غير محسومة، فقد استقل الطائرة إلى الخرطوم، حيث كان البريطانيون يستعدون لتحرير إثيوبيا، وقد زار الصحراء الغربية، حيث كان اللواء السير أرشيبالد ويفيل يستعد للقيام بهجوم مضاد على القوات الموجودة فى منطقة سيدى برانى. غير أن جهود بريطانيا لمواصلة الحرب فى أفريقيا بينما تستعين بشمال أفريقيا ضد الهجوم النازى على الجزيرة البريطانية قد كبنتها تكلفة باهظة فى البحر: إذ غرقت نحو خمسمائة سفينة بخارية بريطانية حتى وصول إيدين إلى الإسكندرية.

وعندما قال برينتون، "إننا فى الحرب الآن" وكان يشير إلى قبول الولايات المتحدة بأن توجر لبريطانيا خمسين سفينة مدمرة يعود تاريخها للحرب العالمية الأولى. لقد كانت تمهيدا إلى فاتورة قانون الإعارة والتأجير الذى وافق عليه مجلس الشيوخ الأمريكى فى مارس التالى ومن الناحية الظاهرية بدا ذلك إجراء سخيا: أن

تقدم الولايات المتحدة لبريطانيا سفنا حربية وطائرات ودبابات وذخيرة وتؤجر لهم - على أساس تأجير مع الدفع بالأجل حتى بعد انتهاء الحرب. ولكن وقبل أن يتم تنفيذ الاتفاق، كانت بريطانيا مجبرة على دفع كل ديونها من الاحتياطي النقدي من خلال بيع أصولها التجارية في الولايات المتحدة، وبالتالي كان ممنوعا بيع أى بضاعة للخارج والتي تتضمن مواد خاضعة لعقد الإعارة والتأجير أو أى مواد أخرى حتى لو كانت صناعة بريطانية، والتي تشبه المواد التي تم استلامها ضمن عقد الإعارة والتأجير.



فى اليوم الذى هاجم فيه الإيطاليون مصر، فإن جيج برينتون قد ودع زوجته إلى جنيف، وتوجه إلى الجبهة البريطانية فى سيارة فورد مستعملة وقد زودها بكافيتريا متنقلة "عربة برينتون".

ومع أنه فى أواخر القرن التاسع عشر تفوقت أمريكا وألمانيا على بريطانيا كقوة صناعية، فإن بريطانيا من خلال ثرواتها المتراكمة استطاعت أن تظل قوة فى العالم. ولكن مع أقول أصولها وتقليص صادراتها، فإن بريطانيا فى الحرب قد خففت من تبعيتها على الولايات المتحدة الأمريكية غير المشتركة فى الحرب. قال تشرشل بصورة شخصية "إننا لا يجب فقط أن نقشر جلودنا وحسب بل ويجب أن نسلخ الجلد حتى العظم." (٢٣)

وإلا كانت بريطانيا قد قررت أن تثن حربا دفاعية. ولكن فى بداية رئاسته للوزارة أعلن تشرشل أن الحرب العالمية الشاملة فى النهاية. "تسألنى عن سياستنا؟ فى بيان أذاعه فى مايو ١٩٤٠. "قائلى أقول: أن تثن حربا فى البحر والبر والجو، بكل ما أوتينا من قوة وبعون الله فى أن نشن حربا على طاغية بشع، لا يتجاوز الظلام أبدا، بيان باعث على الأسى للجريمة البشرية.. تسألنى عن هدفنا؟ أجيبك بكلمة واحدة: النصر، النصر مهما كان الثمن." (٢٤)

فى ذلك النداء "النصر أيا كان الثمن، يمكن أن نسمع صوت التاريخ الفخور، مع أن بريطانيا قد خرجت من الحرب منتصرة، فإن ديونها الكبيرة وتجارها المتهاكة جعلتها على شفا الانهيار الاقتصادى. "وحذر كفافيس "ولا تنس اليونانيين فكلنا عاجزون تمام" وهذا هو الفارق بيننا وبين اليونانيين القدماء، وبيننا نحن وأنتم يا عزيزى فورستر، عزيزى فورستر - أنتم أيها الإنجليز بقدركم على المغامرة - لا تفقوا أموالكم." (٢٥)

فى الثالثة من صباح يوم ٢٨ أكتوبر، قام موسولبنى دون الرجوع إلى هتلر، بتوجيه إنذار إلى اليونان، بأن الجزيرة ضرورية للقوات الإيطالية لاحتلال الموانئ الرئيسية مثل كريت وكورفو، للجنرال ميتاكساس، الذى عارض مغامرة آسيا

الصغرى فى عام ١٩٢٢، وبعد ذلك فى عام ١٩٣٦ كان يحكمها ديكتاتور، كان رده الشهير "بالرفض" الإبحار فجأة من مدينة الإسكندرية، قامت البحرية الملكية بإقامة قاعدة عسكرية فى مقاطعة خانيا Chania - فى جزيرة كريت، ثم فى ليلة الحادى عشر من نوفمبر انطلق سرب طائرات بما فى ذلك حاملة الطائرات Illustrious اقتربت من السواحل الإيطالية وشنت هجوما جويا على الأسطول الحربى للعدو الرابض فى ميناء تارانتو Taranto جنوبى إيطاليا، وقد أغرقت ثلاثة زوارق حربية وأصابت الرابع بأضرار جسيمة.

وفى نفس اليوم كتب جوسيه فى مذكراته أن "اليونانيين قد أبادوا واحدة من الفرق العسكرية الإيطالية الموجودة فى منطقة الألب"^(٢٦) وعلى مدار الأسابيع التالية بينما يطارد الجيش اليونانى فلول الإيطاليين إلى ألبانيا، كتب كيف أن اليونانيين فى مدينة الإسكندرية اندفعوا مثل المجانين^(٢٧) "يحتفلون فى مقهى باستروديس Pastroudis ويتقدمون نحو رقصة الأفعى فى فندق إكسليسور Excelsior، والفرقة الموسيقية تعزف كل الأناشيد الوطنية. جلسنا نغنى بأعلى أصواتنا."^(٢٨)

وفى موجة حماسية اجتاحت الجالية اليونانية، قام خمسة عشر متطوعاً للخدمة فى اليونان، وقد حدثت زيادة كلية فى الفرقة بالكامل. وفى أوائل شهر نوفمبر نشرت صحيفة المقطم Moqattam مقالا افتتاحيا يعبر عن المشاعر العامة نحو اليونان ويقول المقال "إن مشاعر العالم أجمع تتجه نحو ذلك الشعب الشجاع الذى يرفض أن يقدم فكرة خاطئة عن ماضيه، ثم فى وقت لاحق من ذات الشهر، نشرت جريدة La Bourse Egyptian طلب التماس من اليونان إلى كل اليونانيين الذين يعملون ويعيشون فى الخارج، فى غضون ليلة واحدة شارك اليونانيون الموجودون فى مصر ضعف المبلغ الذى تنفقه مصر على مدار العام من ميزانية

الدفاع الوطنى. أما مجلة المصور الصادرة باللغة العربية فقد لفتت الانتباه إلى كرم العائلات القديمة فى الإسكندرية مثل عائلة خروميس وعائلة بيناشيس وعائلة كاسيليوس وعائلة سالفاجوس وعائلات أخرى- وأضافت أن اليونانيين كانوا يملكون نحو خمسة وثلاثين بالمائة من كل أسهم البنوك والشركات المحدودة فى مصر^(٣٩). وقد ماتت الحركة الأدبية مع موت كفافيس، ولكن الإسكندرانيين من أصول يونانية مازالوا قوة اقتصادية يحسب حسابها.

ومنذ مطلع فصل الربيع فإن جنيف، وبمساعدة جوسيه، ظل باب بيتها مفتوحا على مصراعيه يستقبل جنودا فى مرحلة النقاهة، البحارة والقوات الجوية كل يوم إثنين، ويتسع ترحيبهم بالبرينتون الذى انتقل فى ديسمبر إلى منزل أكبر به حديقة غناء فى منطقة جليمونبولو. لقد كان المكان يحظى بسمعة أنه منتج للراحة والنقاهة، ما أن يستعيد المرضى عافيتهم حتى يعودوا إليها لقضاء إجازتهم هناك. أعلن أحدهم - وكما يذكر جيج برينتون- أن أحد الطيارين قد أخبر الطيارين عن زيارته، بواسطة طيرانه التمهيدى فوق بيته والأريز المألوف كان أشبه برنين جرس الباب. فإذا سمع إنسان هذا الطنين فإنه يتجه إلى المطار ليستقبله.^(٤٠) صحيح أن مدينة الإسكندرية من أقصاها إلى أدناها باتت تشكل طريقة سائدة لسيدات المجتمع اللواتى لا يستقبلن بشكل رسمى من الزوار أقل من أميرال أو جنرال أو سفير أو مدير بنك حتى يفتحن أبوابهن مرة أو مرتين فى الأسبوع ويقدمن الطعام والترفيه للجنود.

كما تطوعت النساء أيضا للمساعدة فى خدمات الأندية التى تنتشر فى أنحاء المدينة. من بين أول تلك النوادى كان النادى البريطانى Britannia Club فى شارع فواد، وكما يقول السيد برينتون "لبيلاً على القدرة البريطانية فى تحقيق أفضل النتائج الممكنة بأبسط الموارد."^(٤١) وذكرت صحيفة دى إيجبشيان جازيت

"أن الجو في النادي يوحي بأنه جو إنجليزي تماما؛ الكراسى الوثيرة والألوار الساطعة وغرفة صغيرة أنيقة تجلس فيها زوجات أعضاء القوات المسلحة يتناولن فيها الشاي".^(٤٢) أما الغرف الأخرى فقد قام بتزيينها وتأثيثها سكان الإسكندرية، من بينهم البارون تشالرزدي مينيس، نجل فليكس شقيق الفريد، وجاسبر برينتون خلال واحدة من زيارته الجميلة، أوزوالد فيني، وهذان الأخيران أسهما أيضا بآلاف الكتب، وأقاما مكتبة مراجع رائعة في الإسكندرية. وأيضا في نهاية عام ١٩٤٠، كان قصر كرم Karam وهو منزل خاص جليل يقوم في أرض تظللها أشجار في شارع الكورنيش وراء المتحف اليوناني الروماني، وقد أصبح نادي اتحاد القوات المسلحة، وجدرانه من شجر البلوط وأعمدته الرخامية، والسقف المزخرف بأناقاة شديدة يوحي بأنه أكثر النوادي رفاهية في مصر^(٤٣) فهو فعلا فخم بل ناد رائع وممتاز للغاية".^(٤٤) هكذا ظنت جوسيه التي عملت هناك مع صديق دوريل الرسام كلي بادارو Clea Badaro. يقدم الشاي والمشروبات الأخرى في الحديقة، كما أن هناك عروضاً ترفيهية يوميا، مع عروض الرقص كل يوم أحد وإثنين في تمام الساعة الخامسة، سواء حفلات رقص خاصة في الهواء الطلق أو في القاعة للدخلية الساحرة.

كما كانت هناك أيضا حفلات موسيقية للموسيقار جابريلا باركر، ودروس موسيقى يتم تقديمها في المعسكرات والمستشفيات كانت الفرقة التي تحيي تلك الحفلات تضم - في تقدير جيج برينتون - عددا من سيدات الإسكندرية الفاتنات شهرتن الاجتماعية مذهلة جدا".^(٤٥) في خلال فصل الصيف كان برج العرب يستخدم قاعدة للقوات الهندية، ثم في الخريف كانت قاعدة للقوات الملكية الجوية بينما آل برينتون، استمر في التردد على النادي. وفي دعوة القاضي لحفل الموسيقى لتقديم عرضها للقوات الجوية الملكية في برج العرب في نهاية الأسبوع يومى التاسع والعاشر من نوفمبر. بعد تناول الغداء في دار القيادة، هجرت أسرة

برينتون بيت القاضى، (فوضى الضباط والمشروبات) وكان العرض فى تمام الساعة السابعة. غارة جوية خلال الحفل. نهض قائد السرب وقال: "هدوء - اجلسوا - سوف يستمر العرض "بعد ذلك فى صوان الطعام. الإفطار لنحو ١٦ فى رواقنا." (٤٦) من بين الذين وقعوا فى دفتر الضيوف فى دار القيادة فى نهاية ذلك الأسبوع كان كلير فينسدون Claire Vincendon. ابنته كلود كانت ضمن الفرقة الموسيقية، وبعد ذلك تذكروا أثرهم على الجنود، كيف أن " طول الحفل الذى تهددته الغارة الجوية قد هبط عليهم بقوة ودفعتهم للقبول بدون مقاومة. "أما بالنسبة لبرينتون، مع أن الحفل كان ناجحا جدا فإن: "نفس الأغاني القديمة، التى تتكرر غالبا، باتت معروفة مع العازفين الشبان الرائعين المعروفين - والإيقاع واللحن لبعض المعزوفات المفضلة قد أثرت فى قلوب العسكريين." (٤٧)

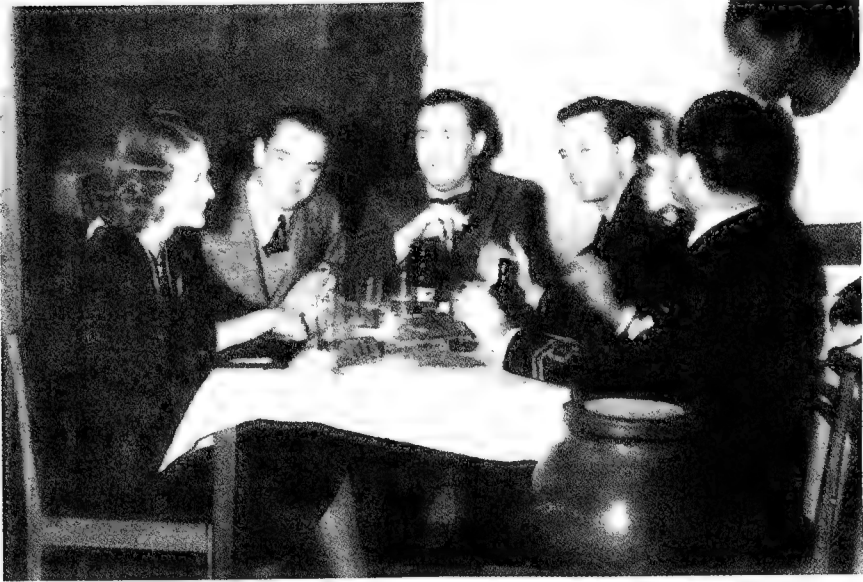
كانت الفكرة السائدة عن مدينة الإسكندرية فى الأيام الأولى من الحرب فكرة بريئة، فقد كان هناك من يرى أنها لا يمكن أن تفقد ذاتها، ويتذكر برنارد دى زغيب "كانت فكرة خروج الفتاة أو الشاب الأعزب من منزل أبويه والحياة بعيدا عنهم أمرا مستحيلا. صحيح أن لبعض الشباب شغفا خاصة بهم يسمونها شقق العزوبية garconniers يلجئون إليها أحيانا، ولكن من المستحيل أن تجد فتاة تعيش بمفردها بعيدا عن أسرته، بعيدا عن والديها. أما فى أوقات الترفيه، فإنهم يلجأون إليه بحذر وتحفظ شديدين. لا شك أن معظم بنات الجاليات فى مدينة الإسكندرية يتزوجن وهن أبكار. لقد نشأنا ونحن نعلم أن الجنس خطيئة مهلكة."

أما الأمر بالنسبة لكلود فينسيندون فيبدو مختلفا، فالراقصات فى كباريه "إكسيلسيور Excelsior يمثلن النساء البغيضات" (٤٨) يعشن فى عالم أبعد من تفكيرهن. وراحت تتذكر عندما كانت فى التاسعة عشرة من عمرها فى أواخر الحرب، كانت الأمهات يتخذن بناتهن صديقات لهن ساعة الخروج والعودة للبيت

قبل حلول الساعة الحادية عشرة مساء- رغم أنهم يتمتعن بحرية غير عادية، وأحيانا يسهرن لما بعد ذلك في خارج البيت. فالسهر حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة بالنسبة للفتاة غير المتزوجة، يعنى أنها تعيش حياة جميلة: مارنا لوريا كان من المفروض أن تكون في البيت عند الساعة السابعة مساء، وتعتبر ذلك تفضلا، عند الساعة السادسة كان أمرا عاديا بالنسبة للفتيات اللاتي تعرفهن. ماريا ليونكافيللو، والتي كان جدها قاضيا في المحاكم المختلطة، وقد ولدت وعاشت في مدينة الإسكندرية وفضلتها على بلدها ميلانو وفينسيا،- وتقول عنها: إن الإسكندرية بلد ذكرياتها، حيث عاشت صعوبة الحياة وعذابها، ولكن لا بهم، فإنني أحب هذه القسوة، فهذه القسوة ليست تلك التي تعانيها كصبية: فالأب لا يسمح لبناته بالذهاب إلى السينما، ولكن يمكنهن الترويح عن أنفسهن في بهو المنزل: "أنا أرقص وأمي تغني، وأختي تعزف البيانو- في البيت يكون اللهو مسموحا ولكن ضمن حدود وضوابط شديدة. أما بالنسبة للشامية جاكلين كلات، فقد كانت مختلفة عنهن : البنات المهنديات في الإسكندرية لا يسمح لهن بالخروج وحدهن بل يخرجن بصحبة مرافق كبير. وفي حال حدوث أن خرجن بمفردهن، فلم يعدن بنات "صالحات". كنا على شفا الحرب العالمية الثانية، ووفقا لمعايير السيدات الصالحات في المجتمع السكندري، فإن أخلاق كل بنت تتهاقت عليها الكلاب، ويسمح لهن بالذهاب إلى السينما بدون مربية،^(٤٩) ذات مساء قابلت جوسيه مراسلا حريبيا، كان يعاني كثيرا: "مسكين، وحيد لم يتعرف على بنات كثيرات- ومعظم من قابلهم هنا كانوا من اليونان فإذا أراد أن يصاحب إحداهن في الخروج يعتذرن له قائلات: إننا لا نذهب إلى أى مكان بدون "بابا" و "ماما".^(٥٠)

وإذا كان المجتمع الأثري مستمرا في تطوير ماضى المدينة. فإن المتحف اليوناني الروماني كان مغلقا، وإن كان رواقه بات ملتقى الرحلات الحرة التي

ينظمها أعضاء من قوات صاحب الجلالة للأماكن التاريخية "بصحبة رحلات خاصة للضباط والمرمضات." "ومعه بعض المقالات المنسوخة التي أرسلها وإتهيد موريس، متعلقة بالدليل الذي يصممه فورستر، يقوم باصطحابهم مع مرشادات جميلات إلى عمود السوارى ومقابر كوم الشقافة، وزيارة مقابر الأنفوشى وقلعة قايت باى وإلى مقابر مصطفى باشا، وأحيانا أبعد من منطقة رشيد." (٥١)



جوسيه (يسارا) وجون برينتون (فى الوسط) فى ملهى ليلى مع بعض الأصدقاء.

وتحت جناح ظلام ليلة السابع من ديسمبر تحركت القوات البريطانية والهندية باتجاه مرسى مطروح، وفى الليلة التالية تسللوا إلى ثغرة فى صفوف العدو ليهاجموا القوات الإيطالية من المؤخرة. فى ١١ ديسمبر تم الاستيلاء على سيدى برانى، وبينما اتجه الإيطاليون إلى الغرب، وجدوا مدرعة بريطانية تقف فى صفوفهم من المؤخرة، فى حين كانت كل السفن البحرية الملكية تبحر خارجة من

الإسكندرية واستمر تبادل القصف العنيف. أما ويفيل Wavell فقد كان يخطط لـ
ليبأغت العدو بشكل محدد: فى ذات الحادث؁ تم إضعاف الإيطاليين وبأنت ليبيا
مفتوحة بشكل غير متوقع أمام تقدم القوات البريطانية.

وصلت للإسكندرية الدفعة الأولى من الأسرى وتم إيداعهم فى معتقل بسيدى
جابر؁ قالت جوسيه لقد بدا عليهم أمارات البؤس والفرع^(٥٢) مثل حيوانات؁ مثل
حملان وديعة؁ وكل واحد كان يمضى للمشاهدة: تذكرت أناهيد ميرامتجيان
Anahide Meramtdjian وهى سيدة أرمانية؁ بلغ عدد الأسرى نحو سبعة
وثلاثين ألفا تم أسرهم فى هذا الاستباك المفتوح؁ وفى السادس من يناير سقطت
مدينة بارديا Bardia- وهى مدينة متاخمة للحدود- فاستسلم نحو خمسة وأربعين
ألف جندى إيطالى؁ وتبعه؁ نحو ثلاثين ألفا عندما وصلت فرقة أسترالية واستولت
على مدينة طبرق فى الثانى والعشرين. وتم الإعلان بسرعة عن انتصارات
الصحراء؁ أما الساحر الذى يلعب بالأفاعى فى فندق "أوتيل سيسيل" فقد أعاد تسمية
فأره المسحور "بق بق" وسيدى برانى. "غير أن كثيرا من رجال الخدمات؁ الذين لم
يستفيدوا من اتجاه مصر نحو الحرب يعبرون فى إحدى كتابات فى التنفيس عن
مكنون الصدر فى دفتر يوميات الزيارات لجينيف:

عار على المصرى المزيف

أن يظل متراخيا فى داره

بينما السير أرشبالد وافيل

يتقدم نحو روما^(٥٣)

ولولا روما، لكانت ليبيا كلها - على الأقل - قد سقطت في قبضة وافييل. فبعد استسلام أكثر ٢٥ ألف جندي إيطالي بعد معركة بيدافروم Beda Fromm في ٥ فبراير فإن مدينة برقة Cyrenaica وموانئ الإمدادات في طبرق وبنغازي كانت في أيدي البريطانيين الذين استمروا بتقدمهم باتجاه طرابلس. وكانت النتيجة خيالية. فمع أقل من فرقتين وبينهما فرقة مدرعة، فقد تقدم البريطانيون أكثر من ٥٠٠ ميل وتم القضاء على جيش جراتسياني Graziani المؤلف من عشر فرق، وتم أسر أكثر من ١٣٠ ألف إيطالي وتدمير نحو ٤٠٠ دبابة مقابل خسائر طفيفة بين صفوفهم. غير أن بعض قوات وافييل اتجهت لتحرير إثيوبيا، وها هو التنظيم الثاني عشر، يأتي بتوجيه من تشرشل لإيقاف الزحف نحو طرابلس، ويستعد لإرسال المزيد من الجنود والدبابات إلى اليونان.

وقد كان لدى البريطانيين معلومات استخباراتية تظهر أن الألمان يخططون لغزو روسيا، وبينما يتخبط موسوليني في منطقة البلقان، توجه هتلر إلى الجنوب وبدأ في غزو اليونان. واعتقد تشرشل أن اليونان قد تسقط، ولكن نصحه جنرالاته، بوجود فرصة للدفاع عنها، وبدأ يستعد في إضعاف دفاعات شمال أفريقيا لنجدة اليونان. إنها مسألة كرامة، إذ أعلن تشرشل في مجلس العموم البريطاني، "لكي نقدم المساعدة من قوتنا، فإذا قرروا مواجهة قوة وانتقام شعوب هنغريا فيجب أن نهب لمشاركتهم محنتهم."^(٥٤)

وفي نهاية يناير ١٩٤١ قام الملازم أول روبرت كريسيب، وهو من جنوب أفريقيا ويعمل قائد دبابة في الكتيبة الثالثة - فوج الدبابات الملكية بالجيش البريطاني، قام بمهمة استطلاعية ووصل إلى طبرق في ليبيا. وقد عاد إلى معسكره في العامرية، عند منتصف الطريق في كينج مريوط، كان ينتظر الأوامر للانضمام للتقدم نحو ليبيا. ولكن وهو يتصور مستقبله، أي المآذن والنخيل الممتد

من المدينة على طول الساحل الشمالى الأفريقى بعيدا عن الخطط التى وضعت فى لندن وأنه فى نهاية مارس سيتجمد من البرد فى الجليد على طول الجبهة الجبلية فى شمالى اليونان.

تغافل عن مصيره، فى تلك الأثناء ومشى كريسب نحو النوادى الليلية فى الإسكندرية. كان ناديه المفضل هو الفليرون Phaleron، إذ يقع فى غرب جراندي تريانون فى نفس المنطقة القريبة من فندق سيسل، والنادى الليلى إكسيليسور Excelsior على الكورنيش وهو لا يبعد كثيرا عن محطة مترو الرمل. وكان نادى الفليرون Phaleron يعد النادى المفتوح لضباط المفوضية خلال الحرب العالمية الأولى، وقد تم تجديده حاليا بالعديد من المرايا والأنوار وتم افتتاحه ليستقبل ضباط الصف والرقباء لتناول الطعام، (فالمطعم يقوم بدور بسيط "فى وقت الحرب")^(٥٥) أكثر من مجرد الرقص مع المضيفات اليونانيات، اللاتى ضاعفن عدد البغايا. فى بار إكسيليسور Excelsior الذى يفتح أبوابه للمدنيين وللضباط فقط، يمكنك أن تدخله فى نهاية الأسبوع لحفلات الرقص والشاى أو تدخله مثل جوسيه وأصدقائها للاستماع لفرقة موسيقى الجاز التى تعزف كل مساء وهم ينتظرون تناول العشاء. ولكن سواء ذهب كريسب إلى ناد ليلى أو إلى آخر فإن الفنانين يظهرون دائما بذات الطريقة فإنهم متشابهون تماما بمعنى أنهم أناس بلا جنسية. ثمة جالية لتلك الفتيات اللواتى يتناوبن حول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، يقدمن أدوراهن المبتذلة، يشربن الشاى الخفيف بسعر ويسكى دابل، يكسبون عيشهم من خلال الترفيه عن الرجال بوسائل شتى^(٥٦).

ميليسا Melissa من رباعيات الإسكندرية The Alexandria Quartet وهى صديقة يونانية لداريل وعشيقة تاجر الفراء العجوز كوهين، كانت راقصة فى ملهى النجمة Etoile الذى وصفه داريل بأنه ناد فى نهاية شارع الكورنيش من شارع

البورصة القديمة، وكما تقول بعض كتب الإرشادية في وقت الحرب، بأن النوادي الليلية "لم تكن للطبقة الراقية"^(٥٧). غير أن داريل كان يرى أن أدائها مبتذل، وسيئة ولا تمت للفن بصلة، ولكن مشاهدتها وهى تقوم بتلك الحركات الخفيفة بيديها النحيلتين وقدميها (خفة الظبي مشدودة إلى الساقية) تجعلك مشدوداً: كنت مشدوداً إلى ليونة قوامها. "^(٥٨)

هدد الملازم كريسيب بتحديد عملياته حتى ليلة واحدة عند نادى إكسيلسيور، فقام برقصة حرب الزولو فى فاصل بين أدوار النادى الليلي. صفق له الحاضرون، وقامت إدارة النادى بإعفائه من فاتورته للحساب، ومنذ ذلك الوقت بات يأتى بشكل منتظم. "وحينما يُحضّر للعشاء تقطع الفرقة عزفها وتبدأ بعزف لحن تقديمي للقيام بأداء الرقصة القبلية الدوران والضرب بالقدمين، والتي تثير اهتمام قبيلة الزولو ولكنه وجد الرقصة غير معروفة."

كان ذلك بداية معرفته بغيرا. إذ كانت فتاة كباريه فى ملهى إكسيلسيور، ترقص رقصة إسبانية، ليست الرقصة الإسبانية الإيقاعية، الفلامنجو ولكن الرقصة البطيئة الرقيقة الحسية ذات ملامح جمالية هائلة.

بعد أحد عروضه، جلست على مائدة كريسيب وقضت أمسية جميلة معه مجانا، ثم صاحبتة وهو عائد إلى إكسيلسيور. كان كريسيب رجلا وسيما، طويل القامة، قوى البنية، وجندياً شجاعاً"^(٥٩) كما كان رقيق المشاعر، ومتريداً من إقحام نفسه فى بذخ على فتيات الكباريه الجميلات والمضيفات اللواتى ازدهمت بهن الإسكندرية "رعب شديد من تلك العلاقة." كان يعرف أنه بصحبة تلك الفتيات ملتزم بنوعية من الإنفاق ولكن أحس أن هناك شيئاً ما بالنسبة لغيرا أكثر من مجرد الزواج المرتب وجواز سفر للخروج من الإسكندرية. فعندما لا ترقص فيرا رقصتها الإسبانية، وعندما لا يقوم برقصة الزولو، فإنهما يسعدان بقضاء الوقت

معا مثل أى اثنين آخرين فى إكسيلسيور: "لقد كنت شينا مختلفا، ربما مما كانت تعتاد عليه، خلال استمتاعه بأنوثتها الطاغية، ثقته فى، ومشاركتها للحظة حينما تبيع هذه الفتاة نفسها لرجال كثيرين، فقد وهبتى نفسها راضية سعيدة بلا مقابل.

ثم حانت الليلة، التى اصطحب كريسب صديقه فىرا إلى شقتها، ولكن فى هذه المرة بدلا من أن يتركها فى المدخل الكبير صعد معها فى المصعد. لم تقل شيئا، ولكنه أحس بنظراتها الغريبة وتعبيرات عينيها الغامضة. وضعت إصبعها بين شفتيها، ثم وضعت المفتاح فى القفل، وفتحت باب الشقة، وقفت جانبا ودعته للدخول، ووضعت يديها فى حنان على صدره وبينما يهم بالدخول. "أول شيء لمحته عيناى شماعه معاطف الرجال واقفة فى مدخل الشقة. كنت مرتبكا من رفاهية الشقة، السجاد العجمى مبسوط أمامى على الأرض، والأثاث الفاخر يملأ المكان، والصور معلقة على الجدران، كل شيء فى الشقة يوحى بالذوق الرفيع. ثم رأيت طربوشا أحمر متألقا. وانبعث صوت رجل من غرفة داخلية. ردت فىرا عليه باللغة الفرنسية بسرعة. ثم توسلت إلى بعينها عسى أن أفهم، أومأت وابتسمت. وخرجت. سارت معى بعينها حتى المصعد ثم غابت عن الأنظار. كان لمعان الطربوش الأحمر أمامى يحكى ماضيها.

ذات مساء وعلى الكورنيش، جلسا سويا على الرمل، وهى تحديق فى نجوم السماء: "اتحنيت نحوها ولثمت شفتيها دون أن تلمسها يدي. علت ابتسامة جميلة محياها وأنا أقبلها." (٦٠) حدث نفسه: "إن الحرب تخاللت أمامهما بكل ما فيها من لقاء ورحيل وأسرار وغموض. الآن قبل أن يبحر فى مارس القادم مع قوة الحملة البريطانية إلى اليونان عاد مرة أخرى إلى إكسيلسيور، وذهب بعربة حنطور إلى شقة فىرا، قبلها. كما لو كانت تشعر بأن هذه الزيارة هى الأخيرة، لم يخبرها بشيء، كما أنها هى التى طبعت القبله الأخيرة البريئة من شفتيها، لتبقى فى ذاكرته، ويحملها معه إلى المعارك ليعود بها من جديد.

فى مطلع شهر مارس، تم تجميع قوة الحملة بسرعة تتألف من القوات البريطانية والأسترالية والنيوزلندية التى سحبت من جيش ويفيل فى الصحراء وأبحرت القوة من الإسكندرية لدعم اليونان ضد هجوم ألماني متوقع من بلغاريا. كانت الخطة هى الدفاع عن الميناء الشمالى سالونيك Thessaloniki ثم عند الضرورة سحب القوات إلى خط يجرى فيه نهر الياكمون Aliakmon إلى جبل أولمب. باتجاه الغرب حيث يربط اليونانيون على الحدود الجبلية مع ألبانيا ويصدون الغزو الإيطالى الذى حدث فى الشتاء الماضى.

فى السادس من أبريل اجتاحت القوات الألمانية، ولكن تقدمت بسرعة إلى سالونيك حيث واصلت سيرها حتى بلجراد، أدت إلى الانهيار السريع للجيش اليوغوسلافى الضعيف. وفى غضون أيام فإن قوات الدفاع الألمانية سوف تتدفق عبر ثغرة منستير Monastir Gap إلى وسط اليونان، فى محاولة لعزل اليونانيين عن جبهة ألبانيا خلال الالتفاف حول الجناح الأيسر للحامية البريطانية المكشوفة والسيطرة على خط الياكمون. كانت اليونان بالنسبة للبريطانيين، دنكريك أخرى، رغم بقاء نحو عشرة آلاف جندي، من بينهم سبعة آلاف رجل تركوا شاطئا فى كالاماتا فى جنوبى بيلوبونيز، بعد معركة ضارية حول الميناء، وفى أول مايو حاول أكثر من خمسين ألف رجل الهروب إلى مصر. ولكن تحليق القوات الجوية الألمانية عرضت المطارات اليونانية، ومطار جزيرة كريت، للهجوم. ورغم التعزيزات الموجودة فى الإسكندرية فقد نجح الألمان فى مناوراته بالقوات الميكانيكية وبسبب تفوق القوات الجوية الألمانية انهارت الخطوط الدفاعية بسرعة، وقبل الرابع والعشرين صدرت الأوامر البريطانية بالإخلاء، فاختتقت للطرق الجنوبية للموتلى والشواطئ لأقليم أتيكا وبيلوبونيسى بالعربات والرجال. "آخر ليلة معك" أذاعها راديو أثينا فى السادس والعشرين، "أيام سعيدة بالانتصار والحرية... الله معكم ومن أجلكم، حظا سعيدا. "إلى الإسكندرية: "لن ننساك أبدا ونترقب يوم الحرية"^(١١) وعندما استأنفت إذاعة أثينا البث ثانية فى موعد الغداء من اليوم التالى جاء صوت المنيع بلكنة

مختلفة "انتباه ! انتباه! فى تمام الحادية عشرة صباحا ارتفع علم الوطنى الاشتراكى الألمانى فوق تلال أثينا Acropolis. التحية لهتلر".^(١٢)

الآن مع عمليات لاقتفافي^(١٥) التى استخدمت المطارات الجوية اليونانية، وقعت كيريت أيضا تحت وطأة الهجوم. وعلى الرغم من التعزيزات التى تم الإمداد بها من الإسكندرية فقد نجح الألمان فى غزو الجزيرة بالمظلات، وقد تم إخلاؤها فى أواخر شهر مايو. ومن بين ما يزيد عن ٢٦ ألفا من القوات، قتل أكثر من أربعة آلاف جندي وتم أسر خمسة آلاف جندي، بينما فقدت البحرية الملكية أكثر من ألفين من رجال البحرية وغرق تسع سفن قتالية وأصبحت ثلاث عشرة سفينة بأضرار بالغة، بما فى ذلك بارجتان حربيّتان وحاملة الطائرات الوحيدة فى البحر المتوسط.

وفى أثناء إنزال ممائل متوقع على قبرص وقناة السويس، واجهت مصر تهديدا متجدداً فى الصحراء، حيث وصل القائد الألمانى الشاب "إروين روميل، إلى ليبيا لمساندة الإيطاليين فى طرابلس، وقد ضعفت قواته من خلال محاولة تحطيم الدفاعات البريطانية، كما حاصر مدينة طبرق، وها هو يقف حاليا على الحدود المصرية عند مدينة السلوم. وحينما اقترحت عليه وزارة الحربية أن البريطانيّين يجب عليهم الجلاء من مصر، غضب تشرشل بشدة، برغم أنه من وراء قاذبه كان يتوقع أن قواته سوف تحارب حتى آخر رجل حتى لو كان يعتقد أنه من الممكن أن يفقد مصر. وقد أصر القائد الألمانى العظيم أن يجعلها يقينا: فى دعمه لروميل اقترح على هتلر القيام بهجوم حاسم على مدينة الإسكندرية والقناة، كخطوة قاتلة للإمبراطورية البريطانية أفضل من استيلائه على لندن".^(١٣)

(*) مصطلح ألماني يُطلق على العمليات الجوية الألمانية (المراجع)

"بطريقة غريبة ولكنها ظريفة وبنوق أدبي" قرأ تقرير السفارة البريطانية عن جيدج جاسبر برينتون: هل صحيح أن المؤيدين للبريطانيين ذوو أفق واسع رغم ما يظهرونه أحيانا من العناد الشديد غير المتوقع.^(٦٤) العنوان "قائمة بالشخصيات فى مصر، وقد أعد التقرير والتر سمارت، وهو مستشار المندوب السامى للمستعمرات الشرقية، وقد أرسله السفير السير مايلز لامبسون، إلى أنتونى إيدى فى عام ١٩٤١، وكان التقرير يتناول بالتفصيل نفوذ شخصيات مصرية وشخصيات غير بريطانية، كان يقصد منها مساعدة وزير الخارجية البريطانى. يمكنهم الاعتماد على جيدج برينتون ليكون غريبا، عندما لا يكون فى المحاكم المختلطة، أو مدير جمعية آثار، فقد اتخذ، وهو فى سن الثانية والستين، إلى السباحة إلى الميناء الغربى ليلا لحماية الأسطول البريطانى من هجوم الغارات الجوية.

تم تطوير الميناء بالبطاريات المضادة للدفعية- فى حين أن وابلأ من النيران يرتفع كل مساء ويقل فى الصباح- من خلال أسلاك مربوطة بمراسى الميناء، شكلت شاشة فعالة للتضليل على الطائرات المحلقة على ارتفاعات منخفضة. بالإضافة إلى منع وصد غواصات العدو عن طريق إقبال الميناء كل ليلة بواسطة عوامات. ولكن مازال الخطر محدقا بسبب القنابل العشوائية والألغام التى يتم إسقاطها بمظلات، وقد تم تحديد مكان سقوطها بناء على طلب من أميرال كانينجهام عن طريق بعض نوادى اليخت فى الإسكندرية المتحمسين حيث شكلوا فريقا من المتطوعين للقيام بعمل دوريات على الشاطئ.

يقول جيدج برينتون "إن المغامرة كلها قد تمت إدارتها بمستوى عال من الكفاءة. إن أصحاب المهن الخاصة مدعوون للمشاركة بإسهاماتهم والمشاركة ضمن جدول الدوريات، متطوع واحد مرة فى الأسبوع. وكل ليلة تخرج نحو أربعة زوارق لعمل دوريات على المقرات الرئيسية لنادى الزوارق البريطانى فى

منطقة الجمر ك قرب مينا البصل: اثنان يتوليان الموقف داخل المرفأ، بينما يقوم الزورقان الآخران بجولة حول العوامة، عمل متقطع فى أوقات مختلفة: كان نظامهم أن يكونوا فى المحطة على مدار الليل من ساعة الغسق وحتى مطلع الفجر... مراقبة دقيقة للبحر، ودقة فى حمل ما يسقط فى البحر من قنابل أو ألغام... إلخ. يتم تسجيلها فى دفتر التسجيلات" (١٥) ورغم أن بعض القوارب كانت مزودة بأدوات الطهى وأماكن النوم، فلم يكن يستخدمها أحد، حتى فى غير أوقات المراقبة، فلم يكن أحد يريد أن تفوته المناظر الجميلة والأصوات الرائعة فى ليل الميناء: فصرخات صفارات الإنذار تنذر باقتراب طائرة للعدو، عشرات الكشافات تجوس فى الفضاء، ثم عند أول بريق فضى تقصف المدفعية المضادة للطائرات بزئير مخيف، أعلى من أى شيء آخر يمكن أن يسمع فى غارة جوية فى لندن، شظايا النار، ألسنة اللهب مثل المخالب مرشوقة تختطف أهدافها، بينما يتساقط وابل من الشظايا حول القوارب يهتفون فى بهجة يصفها برينتون بأنها كانت واحدة من أكثر المهام المدنية الممتعة فى الحرب، والتي كان بها قدر كبير من الهزل. (١٦)

فى الظلام وقبل حلول فجر أول مايو ١٩٤١ قامت شاحنة أسترالية بعملية نقل وعبور خطيرة، تحت دوى المدافع من الميناء الغربى لجزيرة كريت، أونوستوس القديم (Eunostos). لقد كانت حمولة الزورق من اللاجئين، وتم تكليف جون كرومر براون بصحبة اثنين من رقباء الأمن، باستقبال الزوارق، وقفوا ينتظرون، قضاؤا وقتا فى تناول الآيس كريم واحتساء القهوة فى مقهى باستروديس بشارع فؤاد يتمتعون بتناول عصفور التين، العصافير الصغيرة، وخصوصا فى البلدان المطلّة على شرق البحر المتوسط، ينقعون تلك الطيور فى بعض من الخمر Mareotic. وفجأة فى حوالى الساعة الرابعة فى الصباح استيقظ الجميع فى نكتهم

العسكرية الكائنة فى شارع مصطفى باشا وطلبوا أن يتسللوا إلى الأحواض حيث تتعالى صرخات فى وسط ليلة مظلمة مع انهيار نيران البارجة البحرية.

وعند أذان الفجر يتبدد الظلام وتهرب آخر طائفة للعدو مع الليل، وينطلق دوى المدافع ويدخل الزورق الميناء متخفيا بين صفوف زوارق حربية، حتى يصل إلى المرسى. وبدأ تفريغ الزورق مع الضحى، براون يتفحص أوراق الهوية للمسافرين الذين يصطفون، فى صفوف مثيرة للشفقة من مدرسين محالين للتقاعد، وأساتذة جامعات، وأرامل وغيرهم من المغتربين الذين فروا من أثينا وبيلونيس. وفى خضم انهيار المقاومة وارتباكها فى اليونان، فإن اللاجئين فروا باتجاه الجنوب عبر البحر المتوسط إلى مصر، مع اتخاذ كافة التدابير الوقائية فى فحص أوراق جميع المسافرين خشية تسرب عملاء قوات التحالف. وقد كان براون واقفا فى مقدمة الممر الرئيسى، حينما تقدمت شخصية قصيرة متئلة الجسم ومستديرة الوجه، كانت زوجته وراءه، وابنته الرضيعة يحملها على كتفه. أخذ جواز سفره وقرأ الاسم "لورانس داريل".

"كاتب؟"

"نعم"

"ذات يوم كنت ضمن المقيمين فى فيلا سيورات - فى باريس"

"نعم"

"صديق هنرى ميللر؟"

"نعم، وما العيب فى ذلك؟" (٦٧)

لم تكن تلك أفضل لحظات تمر على شهرة داريل؛ وحتى وقت اندلاع الحرب، كان يعيش بجزيرة كورفو CorfuK، وفى عام ١٩٣٧، فى عيد ميلاده الخامس والعشرين أكمل كتابه "The Black Book" وهو التصوير اللفظ للقيود الروحية والثقافة الجنسية التى أطلق عليها "موت الإنجليزى The English Death" تى إس إليوت، استقبل مدير دار نشر "فيبر أند فيبر" الرواية بحفاوة كبيرة باعتبارها أول عمل أدبى لكاتب إنجليزى جديد مما يعطينى الأمل فى مستقبل الرواية النثرية^(١٨) ولكنه خوفا من إقامة دعاوى قضائية على اللغة البذيئة فى الرواية لم يطبعها بدون حنف. غير أن داريل رفض، وبدلا من طباعتها فى باريس طبعة غير منقحة بمساعدة هنرى ميلر، وقد كانت روايته Tropic of Cancer مدار السرطان قد تم منع تداولها فى بريطانيا وأمريكا، فقد كان سعيدا بنجاح روايته "Success de Scandle".

قال براون: "لا ليس على الإطلاق". كان براون ينشر شعره فى لندن قبل الحرب، كما كان من المعجبين بميللر: "أريد أن أتحدث إليك عنها." وبعد الخروج من إدارة قسم الهجرة المصرية، تم احتجاز داريل ونانسى وابنتهما البالغة تسعة شهور فى مخيم ترانزيت منعزل للرجال والنساء، كان داريل فى العجمى غرب مدينة الإسكندرية، وقد لحقه براون فى نفس المساء: "قضينا الليلة كلها فى خندق صغير نراقب النيران الجوية ونحن نتبادل أطراف الحديث عن باريس وهنرى ميللر والأدب، وفى صباح اليوم التالى عند جمع الشمل مع زوجتى وابنتى تم وضع أشيائى فى شاحنة، وانطلق الثلاثة إلى فندق لونابارك فى القاهرة.^(١٩)

لقد كان تدفق اللاجئين طوال الأسبوع، معظمهم خرج بدون تناول أى طعام منذ عدة أيام، وبدون أوراق وهويات أو نقود كما لا يعرفون إلى أين يذهبون، وقد استقر أكثر من ألف شخص على شاطئ الإسكندرية وامتألت مستشفيات المدينة بالجنود العائدين من البلقان وطبرق. لم يجد داريل فى مدينة الإسكندرية شيئا،

ولكن فى تلك المدة القصيرة وهى نحو أربع وعشرين ساعة تم استقباله بشكل أفضل مما كان يظن، فكان يتذكر طريقة وصوله والشروط المبالغ فيها. "أول شيء فعلته السلطات البريطانية مصادرة جوازات سفرنا لتضعنا قيد الإقامة الجبرية فى معسكرات الاعتقال. قال لصحفى مضرى حينما زار المدينة مرة أخرى فى عام ١٩٧٧: "إن حرارة الجو شديدة، ويقوم على حراستنا جنود تشيك مدججون بالسلاح. بقينا فى المعسكر هناك لمدة ثلاثة أيام أو أربعة حتى حان موعد زيارة القنصل للمعسكر وتم تعيينى ملحقا صحفيا للسفارة البريطانية". (٧٠)

كان وصف داريل، مختلفا عن وصف براون، من حيث زيادة جرعة السخرية: واختلاق حكايات للصحفيين، والأكاديميين ولأى إنسان آخر يحاول أن يقوم بعمل لقاءات معه وقد أصبح ذلك عادة ملازمة لداريل فى أواخر حياته. ولكن فى عام ١٩٤١، ذكر شيئا عن نفس الحكاية التى رواها لصديقه القديم من كورفو Corfu، تيودور ستيفانيدز، وصفها جيرالد وهو الأخ الأصغر لداريل فى كتابه "My Family and Other Animals" "عائلتى وحيوانات أخرى" (إن جيرى، وهو طبيب تيودور ستيفانيدز. خبير فى كل شيء عملى تهتم بالكلام عنه. وما لا تذكره، "قهو، مثلك، محب للطبيعة، وغريب") (٧١) لقد ولد ستيفانيدز فى الهند، لأم إنجليزية وأب يونانى، انضم للجيش البريطانى، فى اليونان باعتباره طبيبا برتبة ملازم فى الوحدة الطبية للجيش الملكى وظل فى القوات البريطانية طوال معركة كريت حتى سقطت الجزيرة فى نهاية مايو، عندما كان من بين آخر من تم إجلاؤهم إلى مصر. ثم التحق بالمستشفى العسكرى فى القاهرة، وبعد ذلك تعقب ستيفانيدز صديقه إلى "لوناتيك بارك" (٧٢) أو كما يسميه داريل "فندق لوناتيك بارك" فهو مكان المتهالك تسلمته السلطات ليكون مأوى للاجئين البريطانيين... مكان رهيب، فهو مكتظ بالنزلاء" ومع ذلك فقد استطاع داريل وأسرته أن يظفروا بغرفة لهم.



هذه الصورة توضح لورانس داريل مع ابنته بينيلوب على كتفيه، وقد التقطت هذه الصورة قبل فرار الأسرة من اليونان، نفس المشهد قد تكرر عندما هبط من السفينة عند ميناء الإسكندرية.

وقد شوهدت ستيفانيدز وداريل معا آخر مرة في أحد أيام نوفمبر في أثينا في عام ١٩٣٩. كان هناك الكثير ليتحدثوا عنه: الأصدقاء والرحلات الأخيرة، ليس أقلها التسلل والهروب من اليونان إلى كريت، وقد تسللت ستيفانيدز في سفينة تجارية قديمة وفي طريقها تم استهدافها ثلاث مرات، كان داريل وأسرتة يراوغون الطائرات الألمانية، في زوارق حمولتها زائدة وقوارب صيد تقليدية من اليونان. "وتتذكر ستيفانيدز : "ولكن الحظ حالفهم ووصلوا بأمان إلى الإسكندرية، واعتقدوا أن كل متاعبهم قد تبددت تماما. غير أن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن؛ ففي اللحظة التي نزلوا على الشاطئ، انقضت عليهم السلطات العسكرية واعتقلوهم في

معسكر الاعتقال، حيث تم تكديسهم فى مكان أضيق من فندق لونابارك" حيث تأخر بهم الوقت قبل أن يتمكن داريل وزوجته من إثبات حسن نواياهم وإخلاصهم. (٧٣)

قال براون، "لم يكن حقيقيا. فقد كانت مهمتنا نقلهم بأسرع ما يمكن": انظر لا يجب أن تضيع وقتك عليه. لقد وصف حاله، ولا شك فى ذلك." تم وضع القادمين فى معسكرات الاعتقال، "لا كمجنأء، ولكن لا يسمح لهم بالتجول خلال محاولة ترحيلهم معا. إنه بالتأكيد لا يعانى من أى قيود. فلم يكن فى الإسكندرية أكثر من أربع وعشرين ساعة. ولا أحد يريد أن يتزاحم على الميناء لأن زوارق أخرى تدخل، ولا أحد يعرف ما الأوامر العسكرية."

وعلى العكس مما قاله دوريل لصديقه المصرى فى عام ١٩٧٧، فإنه عند وصوله إلى الإسكندرية قادما من اليونان كان ملحقا صحفيا بريطانيا، ولم يكن فى وزارة الخارجية فى ذلك الوقت، ومن ثم كان مسموحا له بالعبور على السفينة الحربية^(٧٤) والتى كانت الخط الذى يسير فيه إلى الصحفى الفرنسى فى عام ١٩٧٢. ولكن وكما قالت ستيفانيدز عن دوريل، "لقد كان جامحا من سحب سيقان الناس، ينتهى به الأمر إلى وخز ساقيه." (٧٥)

هل صحيح أن دوريل مر بتلك الصعوبات عندما نزل فى الإسكندرية، لقد تم تنظيمهم هناك ومن تحت رئاسة براون والآن واس اللذين تحملا مسئولية العملية كلها. كان واس أستاذ الآثار القديمة فى جامعة كامبريدج ومن ثم فإنه كان يقوم بالحفر فى منطقة ميسينى Mycenae حتى اندلعت الحرب، حينما قبضت عليه المخابرات البريطانية فى أثينا. وعندما اتضح أن اليونان سيتم إخلاؤها تم إرساله إلى الإسكندرية، وصل إلى هناك فى ٢١ أبريل، حيث كانت مهمته أن يكون فى حوض السفن للكشف على اللاجئين بمجرد وصولهم. لقد كان واس متوقفا فى تلك

المهمة؛ لقد استطاع القيام بمهمة مماثلة عندما كان يرأس حركة المدنيين من اليونان إلى مصر خلال عمله في الاستخبارات في أثينا خلال الحرب العالمية الأولى، لو كان جواز سفر دوريل واعتراف براون غير كافيين، فقد تم طرح بعض الأسئلة من واس حول هوية دوريل.

لندع الخيال جانباً؛ الحقيقة هي أن التهديدات الإيطالية واستنزاف مواردهم الاقتصادية الخاصة الصغيرة أخرجتا دوريل ونانسي من رومانيتهما التي عاشوا فيها منذ مطلع ١٩٣٥ وجاء الاثنان إلى أثينا يبحثان عن عمل. في سبتمبر عام ١٩٣٩ وعندما أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا، فإن السفارة البريطانية في أثينا احتفظت بعدد قليل من موظفيها، أما أولئك الذين يتحدثون اللغة اليونانية واللغة الإنجليزية مثل ستيفانيدز ودوريل، فقد تمت الاستعانة بهم في ترجمة مقتطفات من الصحافة اليونانية. وقد استمر الوضع نحو شهر، حتى وصل الموظفون الدائمون من إنجلترا، أما الموظفون المكلفون بمهام أخرى فقد تم طردهم.^(٧٦) في ذلك الوقت كانت نانسي حاملاً، ودوريل كان يقوم بعمله المحدد في التدريس بالمركز الثقافي البريطاني أولاً في العاصمة ثم في مدينة كالاماتا في المنطقة الجنوبية بيلوبونيس.

في الشهور الأولى من شتاء عام ١٩٤١ بدا واضحاً نجاح اليونانيين في صد الغزو الإيطالي من ناحية ألبانيا، الأمر الذي قد يجعل بتورط الألمان في منطقة البلقان. يكتب دوريل إلى هنري ميللر من كالاماتا يصف الوضع هناك قائلاً: "الجلوس على حافة البركان"^(٧٧) لست مضطراً أن أكتب لأحدث عن الكثير من الصخب لسماع الصوت، على أنه في حاشية الرسالة يقول: "إنه لمن دواعي السخرية مساء أمس أنني رأيت سحابة كما رأيت كتاب الموتى *Book of the Dead* تحتي وكأنه مدينة فاضلة محجوبة. إنني مستعد الآن أن أبدأ فيه: إنه تصور رائع وكامل"^(٧٨) إن كتاب الموتى كان عنوان الكتاب الذي يقوم دوريل بتأليفه لما أصبح فيما بعد باسم "رباعية الإسكندرية".

الفصل السادس

صورة شخصية

تُرى هل نعود ثانية؟ لا أقصد العودة إلى ماضى اليونان، ولكن إلى ماضينا نحن في اليونان... فالماضى والحاضر يتعانقان هنا، ومهما حدث، فسنعود ثانية.

لورانس دوريل إلى جورج سيفريس، أكتوبر ١٩٤١ (١)

أيا كانت الحقيقة التي تكتنف وصول لورانس دوريل إلى المرفأ الغربى فى الإسكندرية، فقد أظهر رد فعله العنيف ما تكنه نفسه من إحساس أعمق بالانزعاج والضيق. فخلالاً لفورستر، الذى جاء إلى مصر عن طيب نفس وأصر على أن تكون له خبرات بها، وصل دوريل، وهو فى التاسعة والعشرين من عمره، إلى الإسكندرية وهو يعانى صدمة عنيفة من جراء طرده من اليونان. يقول عن ذلك: "كان فقد اليونان أشبه ببتز عضو منى" (٢)، وكان سيبدأ فى الكتابة بعد ذلك فى الإسكندرية، إلا أن الإحساس بالانفصال عن الكل قد جاءه قبل ذلك بوقت طويل. ومن ثم كانت اليونان تمثل محاولة للاستعادة والاسترداد؛ ومصر هى المكان الذى قيد إليه بفعل قوى عنيدة لا ترحم، كما كانت المكان الذى شعر فيه بأنه أبتر وشعر فيه بالضعف والعجز.

وخلال الساعات الأولى من صباح الأول من يوليو عام ١٩٤٢، أى بعد مرور ١٤ شهراً من نزوله إلى المرفأ الغربى، كان دوريل يعاود زيارة الإسكندرية. كان هو ونانسى لا يزالان يعيشان معاً فى مدينة القاهرة، وفيها عرض عليه السيد والتر سمارت، المستشار لشئون الشرق فى السفارة البريطانية، وظيفة

بقسم الدعاية بالسفارة خلال الصيف الماضى. وأعطى السيد دوريل مسدسا وتم إرساله إلى الشاطئ مستقلا قطار المساء، وكانت التعليمات صادرة إليه بإهلاك الملفات الخاصة بمكتب الاستخبارات البريطانى هناك. كان الجو يندر بشؤم بينما كان القطار ذو اللون الأسود يتحرك باتجاه الشمال عبر ظلام منطقة الدلتا، وكان القطار يتوقف من حين لآخر بلا داع وسط هدوء يثير الأعصاب. كان الفيلق الأفرىقى يتحرك عبر الحدود المصرية، فارضا سيطرته بسرعة على كل من السلوم وسيدى برانى ومرسى مطروح على التوالي؛ وبينما كان الجيش الثامن يتراجع فى العلمين، كان روميل يكتب فى ابتهاج إلى زوجته قائلا: "[نحن] على بُعد أقل من مائة ميل فقط من الإسكندرية".^(٣)

وفى صباح يوم الأربعاء الموافق الأول من شهر يوليو، عندما وصل دوريل إلى الإسكندرية، كانت محطة القطار تعج بعدد كبير من الأفراد المُرحّلين. فقد كانت قاذفات القنابل الألمانية تدك الميناء الغربى بقوة طول الليل، مما أثار الرعب بين الناس فى المدينة عندما رأى أهل الإسكندرية الأسطول الملكى يبحر لتأمين حيفا ويمر عبر قناة السويس باتجاه البحر الأحمر.

وعندما وصل دوريل إلى مكتب الاستخبارات، وجد أن المكتب تحطم تحت قصف القنابل، لذا خرج ومشى فى شوارع مدينة الموتى. وقد اندفعت سحابة كثيفة من الدخان الكثيب من مداخل القنصلية البريطانية فى طريق الإسكندر الأكبر الواقع على الحدود الشرقية مباشرة لمحطة ترام الرمل، حيث تعرضت فيها الملفات للحرق ولم يبق منها شيء. وحدث نفس الشيء فى المكاتب والتركيبات العسكرية المنتشرة عبر المدينة وفى كل من القاهرة والإسماعيلية وبورسعيد. وقد شاع فى أرجاء المدينة أن البريطانيين قد فقدوا سيطرتهم على مصر. وتم غلق المتاجر والبارات والمقاهى بالكامل، كما دوى فى شوارع المدينة الفارغة رنين الهواتف من الغرف الفارغة.

لكن أحياناً لم يتراجع خوفاً من تقدم قوات روميل، فقد تقدم بعض المقيمين الإيطاليين بالمدينة وهم يحملون الهدايا من الفواكه والسجائر، واستوقفهم الحرس البريطاني وهم يحاولون السير إلى الخط الأمامي لاستقبال جيش الحلفاء الزاحف، فقد سرت الحكايات حول المقاهي التي تقدم طلبات من السجق بالتنسيق مع الجزائريين المحليين؛ ولاحظ دوريل أن الكثير من المؤسسات المقدمة وضعت ملصقات مكتوباً عليها "مرحباً بك يا روميل". وأمام ذلك، لم يجد روميل ما يفعله إلا أن أعد قائمة بأسماء تلك المؤسسات، وأخبر بها السلطات العسكرية حال عودته في ذلك المساء إلى القاهرة.

ومنذ عام ١٩٤٠، كانت الحرب سجالاً عبر الصحراء، فالإيطاليون والألمان يتقدمون باتجاه الشرق من طرابلس، بينما يتقدم البريطانيون باتجاه الغرب من الإسكندرية، وكل جيش يبسط خطوط إمداده كما لو كان قطعة مطاطية، حتى التوقف وإنهاك قوى الأعداء بفعل المعركة، ثم ينسحب ليعود إلى قواعده. وفي أعقاب هجوم فاشل جرى في يونيو ١٩٤١، تم إحلال الجنرال السير كلاود أوتشينليك محل ووفيل في رئاسة الأركان، وقام الجنرال كلاود بدوره بشن "هجوم كاسح" في نوفمبر، وكان الهدف منه هو فك حصار طبرق، وكما عبر عنه تشرشل بكلماته: "هزيمة العمر لروميل وأعدائه".^(٤) غير أنه في أثناء دحر روميل وإرجاعه باتجاه طرابلس، كان لهذا الأمر تأثيره على العناد الخاص بكلاود أوتشينليك، في حين أنه مع نهاية شهر مايو ١٩٤٢، قام روميل بالتقدم باتجاه الشرق من جديد بعد أن حصل على إمدادات، وتمكن من شن هجوم كاسح على مدينة طبرق الليبية في ٢١ يونيو، كما تمكن أيضاً من أسر عدد ٣٥ ألف جندي من الجنود البريطانيين والهنود والجنوب أفريقيين.

إلا أن سقوط طبرق لم يكن متوقعا، وقد عصفت بمشاعر الرضا حول ما كان يطلق عليه السفير البريطاني اسم "صور الصعود والهبوط فى الحملة الغربية".^(٥)

وقد بدأ الاندفاع إلى البنوك فى ٢٤ يونيو، واكتظت قاعات البنوك حتى أصبحت كتلة مضطربة من الرجال والنساء". وفى بنك باركليز فى شارع شريف باشا، تم إخال نظام الاصطفاف فى طوابير، وهو أمر لم يعتده العامة، وكان من الضروري أن يتم تطبيقه من خلال إيجاد سياج من سلاسل ومقاعد خشبية ومن خلال موظفى البنك الذين "كانوا يقفون على المقاعد الخشبية ويتحركون فى بعض الأحيان بصعوبة بين جموع المحتشدين المتدافعين ليحصلوا على دورهم".^(٦)

وقد كانت العاصفة شديدة فى ٢٩ يونيو عندما تم غزو مرسى مطروح وبدأ جيش روميل وكأنه يعدو كالبرق باتجاه الإسكندرية. وكانت الأخبار الإذاعية وعناوين الأخبار يتزايد بها ما تحمل من أخبار غير سارة مثل: "الدفاع عن مصر حتى النهاية". "التعزيزات العسكرية فى الطريق". "لا نخفى الحقيقة بأن وجودنا مهدد تماما فى مصر". "إن ضاعت الإسكندرية، فالتجهيزات فى حيفا جاهزة لأسطولنا".^(٧)

وفى اليوم الذى شهد سقوط مرسى مطروح، كتبت الكونتيسة مارى دو زوجيب فى مذكراتها اليومية تقول: "ذعر فى المدينة؛ الأسطول وإمارة البحر والطيور، كل شيء يتم إجلاؤه وإغلاق النوادى والفنادق العسكرية" ^(٨) وخلافا لذلك، سارت الحياة فى محطة الرمل فى مسارها المألوف: تناول الشاي فى فندق بوريفاج، وهو مقر الإقامة فى الصيف السابق لعائلة زوجيب فى جليمينبولو، مع صديقتها اليهوديتين السيدة هرارى، زوجة فيكتور هرارى باشا، مدير العديد من

الشركات التي تنتمي لمجموعة كاتووى سوارز مينسا ورولو، وكذلك للسيدة ويفون رولو، زوجة المتاجر فى الأقطان ماكس رولو. إلا أنه فى ٣٠ يونيو، زادت حالة "الذعر" وكان هناك "عدد كبير من المغادرين للبلاد" من بينهم بعض اليونانيين على رأسهم القنصل وأفراد أسرة سلفاجوس، كما كان هناك أيضا الكثير من الأسر اليهودية مثل: "لى فينسيندون ولى ماكس رولو ولى ميناسكا ولى روجير أغينون و ماريا روزا جوار- أو كاب".^(٩) ورغم أنه كان من الواضح أن الكثير من هذه الأسر لم يرغبوا فى السفر إلى ما هو أبعد من مدينة كيب تاون، فقد لاحظت السيدة مارى دو زوجيب أن الغالبية ليس لديها خطط حالية أكثر من التوجه إلى القاهرة والأقصر. ومن هناك، يمكن أن يهربوا مع أفراد آخرين من الأقلية المصرية والمجتمعات الأجنبية - خاصة المعروف عنهم دعمهم للبريطانيين ومعارضتهم للنازية- إن لزم الأمر، إلى السودان أو إثيوبيا أو تشاد أو الكونغو البلجيكية أو سوريا أو فلسطين أو أى بلد أبعد من ذلك. وكان أهم شيء هو مغادرة الإسكندرية، ومنها لم تقدم دول حوض البحر المتوسط أى مجال للهرب، الأمر الذى أسهم بدوره فى زيادة مناخ الاحتقان والتوتر فى المدينة.

وبحلول الأول من يوليو، وبينما كانت مارى دو زوجيب تساعد فى إغلاق نادى القوات المتحدة، ذكر ابنها برنارد، العائد من عمله الجديد فى القوات الملكية الجوية بأبى قير: "الشوارع مملوءة بالورق المحروق الذى يتحرك مع الريح فى كل مكان، ذلك أن الجميع كانوا يحرقون المستندات التى تتسبب فى مشاكل، بل وحتى رسائل الغرام التى كتبها الجنود والبحارة". وكان القذف ضاريا تلك الليلة على وجه الخصوص، واختبأت أسرة زوجيب فى المأوى وفيه التحقوا بأسرتين وحسب؛ فقد هربت الغالبية العظمى من جيرانهم ومن أصدقائهم، من بينها جميع من يدينون بالديانة اليهودية.

غير أنهم كانوا الأفراد الأفضل حالا ومن كان لديهم أساليب مستقلة، كما أنه لم يغادر المدينة جميع هؤلاء الأفراد. وقالت ليليا رالي، ابنة أخت السير جون أنطونياديس الذى تنازل عن ملكيته للقيلا والحدائق للبلدية الواقعة بالقرب من منطقة النزهة عام ١٩١٨: "كان والدائ أيضا يطاردهما روميل"،^(١٠) وقد كانت ليليا موجودة فى أثينا بينما كان اليونانيون يحاربون بشجاعة ضد الإيطاليين، وكذلك وهم يحاربون الألمان وسط حالة من اليأس والقنوط؛ وقد كانت الروح السائدة فى أوساط اليونان روحًا غامضة يصعب وصفها، وهى الروح التى لم تشعر بأنها السائدة بين المصريين اليوم، الأمر الذى جعلها فى حالة شديدة من الحزن واليأس. وقد هربت من اليونان فى الوقت الذى ذاقته فيه البلاد ويلات الهزيمة، وكانت تتوق إلى العودة ثانية، لجمع الطعام وطهى الوجبات لعامة الشعب، كما تافت نفسها إلى مساعدة الأفراد الذين يموتون جوعا؛ إذ كانت هناك تقارير ترد عن نقل عربات للعديد من الموتى عبر شوارع أثينا كل يوم. وكانت مشاعر اليأس والإحباط طاغية وتغلب جميع المشاعر الأخرى: وفى اليوم الذى رفع فيه الصليب المعقوف (شعار النازية) أعلى قلعة أثينا، قتلت فيه السيدة بينيلوب دلتا، أخت أنطونى بيناتشى جراء تناولها السم. وعلقت السيدة ليليا على ذلك بقولها: "لم يكن لدى أهل أثينا أمل"، غير أنها أردفت بقولها: "بصرف النظر عما حدث هنا، فلا يمكن أن يكون أسوء مما حدث هناك".^(١١)



وينستون تشرشيل يتناول وجبة الغداء مع أفراد القوات الملكية الجوية فى برج العرب فى الفترة ما بين معركتى العلمين الأولى والثانية.

وكان من بين الذين لم يفروا من الإسكندرية فى ذلك الوقت العديد من التجار المنتمين إلى الطبقة المتوسطة الذين استثمروا أموالا طائلة فى البضائع والسلع منذ بداية العام على أساس إمكانية زيادة القيود المفروضة على الواردات، أدى هذا إلى تقلص سيولة الأموال فى الوقت الحالى لمغادرة البلاد، فى حين أن صور الدخل المحدودة للتجار والحرفيين الصغار من الطبقة المتوسطة قد جعلت فكرة الهروب مستحيلة.

وكان السيد موز كوهين من بين الأفراد الأقل ثراءً، وهو أحد المرابين القاطنين بميدان محمد على الذى كان يعيش مع زوجته وابنتيه فى الأزاريطا. وتتذكر ابنته الكبرى إيف دوريل، أو كما كانت تسمى قبل زواجها باسم يفيت كوهين: "وحيث حل يوم "أربعاء الرماد"، استخف الجنود البريطانيون به، عندما سقط الثلج الأبيض للوثائق المحروقة من السماء وسرت شائعة فى كل أرجاء البلاد بأن "البريطانيين يتخلون عنا". كما سمعت قصصا أيضا، رغم أنه لم يتم تقديم أدلة تثبت صحتها، عن الأفراد الذين يتم إجلاؤهم وتصيبهم حالة من الذعر والهلع وهم يموتون فى الجمهور المحتشد البائس على متن القطار المسافر. غير أنها لم تعتقد أن البريطانيين كانوا يهربون، كما أنه لم يخطر ببالها. فقد كان لدى إيف ثقة فى الجيش البريطانى، ولم تشك للحظة فى أنه من الممكن هزيمة روميل، لكن لم يكن والدها متأكدا جدا من ذلك. كانت إيف تبلغ من العمر ٢٣ عاما وكانت فتاة جميلة لكن كانت تتسم بالاندفاع فى الوقت ذاته، وكان والدها قلقا بشأن ما يمكن أن يحدث لها لو أتى الألمان. وقد أعطاهما بعض النقود وطلب منها بعد ذلك بيوم أو يومين أن تغادر البلاد متجهة إلى القاهرة لقضاء بضعة أسابيع بها والبقاء مع أخته هناك. وعن ذلك الموقف، تقول إيف: "لم يذهب [إلى القاهرة] أى فرد آخر من أفراد الأسرة، إذ لم يرسل زوجته أو أخته، وهذا لأننى كنت أنا قرة عين أبي".

وفى ليلة الثلاثاء الموافق ٣٠ يونيو، قام جيدج برينتون بتحديث مذكرة أعماله من خلال مراجعة أحداث الأسبوع المنصرم. وقد قام هو وجينيفا بعمل "واحدة من أكثر زيارتنا متعة وإبهاجا" إلى برج العرب، وهو المكان الذى بدت فيه الصحراء هادئة. "وقد سقطت طُبرق قبل يومين، ورغم أن طبرق على بعد مئات الأميال؛ فإن الموقف بدا خطيرا، ولم يتوقع أحد حدوث أى تقدم سريع. وقد قدم إلينا باركر فى مساء يوم الأربعاء وأعلمنا بالشائعة التى تقول بحدوث تقدم كبير

باتجاه الشرق. كان براملى غاضبا من الجنرالات الذين تركوا روميل يفر، لكنه فى الوقت ذاته لم يبد عليه الانزعاج الشديد. وتحدث إليه عن مشكلة قانون البدو".

ومع نهاية الأسبوع، عاد جيدج برينتون إلى الإسكندرية، وفى يوم الجمعة الموافق ٢٦ يونيو "اتصل جودين [القنصل الأمريكى] ليسأل عن موعد خروجنا من البلاد. وسنخبره بأننا لن نترك البلاد. ثم طلب القنصل بعد ذلك "سببا واحدا وجيها وراء إصرارنا على عدم الرحيل أنت وزوجة برينتون للإسكندرية"، ولم يفلح جيدج فى أن يضىف جوا من الدعابة عندما ذكر لجودين أنه يبنى حظيرة للدجاج. وبحلول ظهيرة يوم الإثنين، أغلقت القنصلية أبوابها وغادر جودين المدينة؛ كما حدث أيضا أن قُرت الدجاجات وصغارها، وهو ما أثار حالة من الغموض، وكان هناك مجموعتان منفصلتان من الريش فى مروجنا الخضراء الغنية بمختلف الأنواع، والسؤال هنا هو هل هاتان المجموعتان تمثلان قطا؟ أم لصا؟ أم ثعلبا؟ وكان رد برينتون ينم عن طابع فلسفى حينما قال: "هذه أقدار تسوقها الحرب".

وبصرف النظر عن بناء حظيرة للدواجن، "والتي واجه فيها برينتون عناء كبيرا فى جمع المادة"^(١٢) فقد كان لدى برينتون أسبابه التي تمنعه من مغادرة الإسكندرية حيث قال: "ربما كان لدينا ثقة كبيرة فى الجيش الثامن أكثر من الآخرين أو ربما شعرنا أن حياة قاض كبير وزوجته لا تلقى أى صعوبة من الاحتلال الألمانى. وربما نكون أيضا أكثر اهتماما بالضباط الذين يمرون بفترة نقاهة ممن استقروا بمنزلنا. ثم استقر بنا الحال فى منزل لنا فى برج العرب، التي تقع فى منتصف الطريق المؤدى إلى العلمين، والتي استمرت مفيدة على ما يبدو بالنسبة لجمعية الشبان المسيحية العالمية التي لا يزال لدينا الإمكانيات التواصل معها."^(١٣)

عنى ذلك أيضا إلهة مصرية قديمة بالوقوف كتعويذة ضد روميل فى برج العرب. وفى الخريف السابق لعام ١٩٤١، تلقى برينتون كلمة بينما كان يقيم فى دار القاضى الخاص به مفادها أن قوات جنوب أفريقيا قد كشفت فى العلمين، وهو مكان غير معروف فى ذلك الوقت، عن بعض الكتل الحجرية تحمل نقوشا هيروغليفية. وأثناء قيادته فى ذلك الطريق مع جون وجوزيه ومع ألان روى الذى حل محل أدريانى، المعتقل، كمدير للمتحف اليونانى الرومانى، علم أن الكتل الحجرية من المحطة القديمة التى تم بناؤها فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد أيام حكم الملك رمسيس الثانى فى بداية حملته على ليبيا. وقد تم العثور على كتل حجرية مشابهة فى غربانيات، بالقرب من الصحراء التى تعتبر مقر التورتيلياس الواقعة على بعد نحو عشرين ميلا إلى الشرق، وكذلك فى كرم أبو جيرج، جنوب غرب العامرية، مما يشير بدوره إلى خط من المحطات والمراكز، ربما لكل من الدفاع وللإمداد بالمياه، بطول الطريق الرئيسى الواقع إلى الشمال والنافذ إلى داخل ليبيا.

وبدا طريق المحطة أهم هذه الطرق جميعا؛ والسبب فى ذلك أنه كان يقف عند النقطة الأضيق والأكثر تحصينا بين ليبيا ومصر، يحدها البحر من أحد الجوانب ومنخفض القطارة المسدود من الناحية الأخرى، وقد أفردتها الملك رمسيس لتكون أيضا أثرا يسجل انتصاراته المبكرة. وبالإضافة إلى نقش تقليدى يظهر فيه فرعون وهو يقاتل أعداءه من الليبيين ويضرب رؤوسهم، يصور نقش آخر إلهة مجهولة فى السجلات اسمها إيميت-ميت، ومعناها "السيدة التى على الطريق"، أى أنها "بشير خير للمدافعين الجدد عن مصر" ^(١٤)، وهو ما كتبه برينتون عندما نشر نتائجه فى مجلة **Bulletin** لجمعية الآثار فى مطلع عام ١٩٤٢. وبعد الحصول على ترخيص من هيئة الآثار، قام بإزالة الكتل الحجرية من أجل حماية حديقته فى برج العرب، وهو المكان الذى بقيت فيه إلى يومنا هذا.

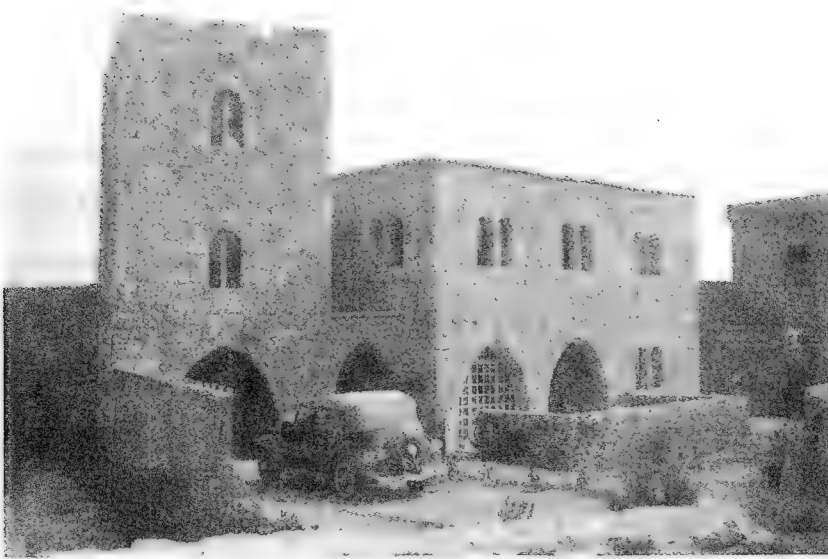
وعلى هذا النحو، استقرت عائلة برينتون فى الإسكندرية وانتظرت. "وقد ازدهمت الضفة فى تلك الليلة" (ليلة الاثنين الموافق ٢٩ يونيو) على شلالات مرسا. وكان فى نيتنا أن نذهب لمشاهدة أحد الأفلام الرئيسية التى كان يلعب فيها الممثل الأمريكى جارى جرانى دور البطولة، لكننا عدلنا عن الفكرة. "وفى يوم الثلاثاء وبينما كان روميل يقف بقواته عند العلمين، ذهبوا إلى الشاطئ الذى كان شبه مهجور"^(١٥).

وفى عودته إلى القاهرة مساء يوم الأربعاء الأول من شهر يوليو، وجد دوريل أن المدينة تعرضت للقصف. "كانت القطارات تنقل الأفراد بعيدا، من بينهم النساء والأطفال وهو أمر جيد أن أشعر به فعلا. وقد كانت هناك دوامة من الذعر والهلع تسرى فى الشوارع." وقد انتقل دوريل إلى مسرح العمليات برفقة صديقه دافلى أونر، قائد المجموعة الذى كان مسئولا عن الدفاعات الجوية فى القاهرة؛ وفى قاعة كبيرة تعلوها الكآبة، تم تحديد المواقع فى الصحراء الغربية على لوحة عملاقة على يد جنود الإشارة المتصلين بالجبهة. وعلى النقيض من الذعر السائر فى الأوساط المنسية بالخارج، كانت هناك حالة من الهدوء اللئق فى مقر العمليات فى تلك الساعة؛ وقد كان هذا هو اليوم الأكثر خطورة من أيام حرب الصحراء، غير أن القوات الملكية الجوية قامت بما فيها من وحدات من قوات الإعصار التى تقودها القوات اليونانية والقوات الفرنسية الحرة بإسراع حركة المغيرين من الجو، وثبت الجيش الثامن أقدامه فى العلمين. وبعد أن استنشق نفسا عميقا وكبيراً"^(١٦) انتقل دوريل ومعه أونر للخارج أثناء الليل من أجل تناول شراب.

ورغم أن معركة شهر يوليو، التى عرفت فيما بعد باسم معركة العلمين الأولى، كانت لتستمر إلى يوم ١٧، كتب روميل بالفعل خطابا إلى زوجته يقول لها فيه: "للأسف، لا تسير الأمور على النحو الذى كنت أوده، فالمقاومة شديدة وقد

أنهكت قوانا" وأضاف فى اليوم التالى "ليس من اليسير التوقف على هذا النحو،
على بعد ستين ميلا فقط من الإسكندرية". (١٧)

وفى ٥ يوليو، ومع صوت الدبابات ونيران المدفعية فى رياح الصحراء،
عادت مارى دو زوغيب للعمل فى نادى القوات المتحدة فى شارع الكورنيش فى
الحى اليونانى "الكثير من الجهد والقوات" (١٨) مع وجود ١٠ سيدات أخريات تحت
قيادة وتوجيه نورا بيل، وكنت تلاحظ فى اليومين السادس والسابع فى مذكراتها أن
جميع أصدقائها الذين فروا إلى القاهرة فى بداية الشهر قد عادوا جميعا إلى
الإسكندرية.



دار جيدج فى برج العرب: كان لدى عائلة برينتون مسارات عسكرية وقد
استمروا فى زيارة دار جيدج فى برج العرب على مدار فترة حرب الصحراء.

غير أنه مع حلول ذلك الوقت، أرسلت السفارات والوفود البريطانية والأمريكية وغيرها الكثير من رعاياها إلى خارج البلاد جوا إلى إثيوبيا، أو بحرا إلى الأجزاء الشرقية والجنوبية من أفريقيا، كما أرسلت جزءا منهم بالسكك الحديدية إلى فلسطين. وكانت زوجة دوريل وابنته من بين من غادروا مصر فى وقت الضربة على متن قطار إخلاء السكان المتجه إلى القدس.

وقد كتب لورانس دوريل فى مجموعته الروائية رباعية الإسكندرية " The Alexandria "Quartet التى يتحدث فيها عن رحيل آخر إلى القدس يقول: "إنها [ميلييسا] تغادر أسبوعا فى ذعر، ما بين اليقظة والنام، وأجزم أنها لن تعود. فقد ملائنتى القبله الناعمة الأكيدة والعيون البراقة إحساسا بالفراغ... ولم أشعر برحيل ميلييسا فعليا إلا عندما تحرك القطار ومع تعاقب الصور البشرية الجالسة بالقرب من نافذة القطار، والجو المظلم لمحيط أسود بين يدي". (١٩)

ربما كانت الحالة المزاجية التى كان عليها دوريل وهو يودع زوجته نانسى فى محطة القاهرة، هى التى دفعته إلى فعل شيء لتجنبه مدة تزيد على عام كامل، ألا وهو أن يكتب خطابا إلى هنرى ميلر. وهو ما قام به بالفعل، إذ كتب له خطابا يحوى تفاصيل مثيرة عن الصورة البشعة لمصر التى خلفها فى نفسه رحيل السيدتين، مضيفا أن زوجته وابنته قد رحلتا إلى فلسطين.

وأعقب ذلك فى وقت ما فى أواخر الصيف أن كتبت له نانسى خطابا من القدس، وكانت مارى بنتلى تعمل فى قسم الدعاية والإعلان بالسفارة مع دوريل، وعندما فتح الخطاب "قالت له إنها لا تريد أن تعود إليه أبدا، لقد تحطم فؤاده ولم يستطع أن يصدق أنها تعنى ذلك حقا، ورأيت الدموع تسيل من عينيه". (٢٠) وقال لمارى إنه تمنى لو رآها؛ فأدارت مارى وجهها إلى خطيبها دافلى هونر، الذى

رأى أن هناك عذرا للهرب من القاذفات للقنابل باتجاه فلسطين وأخذ دوريل معه. إلا أن نانسي لم تتحرك مشاعرها حينما حاول زوجها إقناعها. ومرة أخرى ذهب ليراها، وقد استقل في هذه المرة القطار من القاهرة، إلا أن زواجهم قد شهد حالات من التوتر لعدة سنوات من قبل، وأخبرت دوريل الآن أنها قررت أن تشق طريقها بعيدا عنه.

والأمر الذى آلمه بنفس درجة انفصاله عن نانسي هو فقدته ابنته بينيلوب. وفى شهر يناير هذا، بدأ دوريل، مع صديقين تعرف عليهما فى أثينا هما روبين فيدن وبيرنارد سبينسر، فى إصدار مجلة *Personal Landscape* فى القاهرة، وهى مجلة متخصصة فى الشعر. ومن أول عدد يصدر منها فى بداية عام ١٩٤٢ وحتى العدد الثامن والأخير عام ١٩٤٥، كان المحررون الثلاثة لهذه المجلة وهم أيضا المساهمون الرئيسيون فيها- كما قال جيفرى: "مكرهين لأن يتلفظوا بالمبادئ الأساسية فى عالم من التنقى والتهديد والخطر، وقد قاموا بذلك بفصاحة ووضوح بيان. وقد أعادت نوعية صورهم الخيالية الإحساس بحجم الآخرين الذين افتقروا إلى رؤيتهم الخاصة."^(٢١) وفى واقع الأمر، فإنه على مدار السنوات الثلاثة من نشر مجلة *Personal Landscape* كان من النادر أن ترتبط إسهامات دوريل بأى أمر من أمور مصر، وقد اشتكى فى القاهرة من أنه لا يمكنه أن يكتب إلا قطعاً شعرية مقتضبة وهشة كما لو كانت فقاعات بجانب هذا النيل الفاسد البطيء.^(٢٢) غير أنه أبقى على بعض القصائد من اليونان، وفى العدد الأول من أعداد المجلة، نشر إحدى هذه القصائد موجهها حديثه فيها إلى ابنته بينيلوب، وجاء فى هذه القصيدة الجامعة والحاوية للكثير:

نامى، عزيزتى، فلن نزعجك
ارقدى فى ساحات النوم والسبات
فالجدران الأربعة رموز للحب شيدت
لتضم الصمت الذى يفيض تواً
ويستغرق الأسى:
نامى فلم يزل الظلام مخيماً^(٢٣)

فى خلال الاثنى عشر شهرا التى سبقت تلك المعارك الضارية فى الصحراء
وتحديدا التى وقعت فى شهرى يونيو ويوليو عام ١٩٤٢، اتسع نطاق الحرب وامتد
إلى ما يتجاوز أوروبا ومنطقة البحر المتوسط. وفى ٢٢ يونيو ١٩٤١، أقدمت
ألمانيا على غزو روسيا، حليفها السابق، وكانت تتجه إلى منطقة القوقاز مهددة
مواقع إمدادات بريطانيا من البترول القادم من إيران والعراق. وفى هذه الأثناء،
قامت اليابان يوم ٧ ديسمبر بمهاجمة الأسطول الأمريكى فى المحيط الهادى فى
بيرل هاربور، ثم تلا ذلك أن أقدمت على غزو الفلبين، وهى أحد البلاد التى كانت
الولايات المتحدة تفرض سيطرتها عليها، كما هاجمت كلا من بورما وهونج كونج
ومالاي وسنغافورة وجميعها دول خاضعة للنفوذ البريطانى. وكانت اليابان تشغل
تفكير الولايات المتحدة فى ذلك الوقت، ولم تكن الولايات المتحدة تفكر فى
الاشتراك فى الحرب الأوروبية، ولكنها شعرت بأنها قد تورطت فيها بعد أربعة
أيام من مهاجمة بيرل هاربور وعندما أعلنت كل من إيطاليا وألمانيا من تلقاء
نفسهما الحرب على الولايات المتحدة. ومر أحد عشر شهرا آخر قبل عبور أول
جندى أمريكى للمحيط الأطلنطى ودخوله إلى ساحة القتال، حيث نزل الجنود

الأمريكيون في الدار البيضاء في نوفمبر ١٩٤٢، وتبع هذا الحدث حالات إنزال من جانب القوات الأمريكية والبريطانية في مدينة وهران والجزائر تحت غطاء من قوات مهام تابعة للأسطول الملكي تحت قيادة الأميرال كنيجهام، الذي تم نقله من الإسكندرية في شهر أبريل.

في غضون ذلك، لم يكن الصراع الدائر في الصحراء الغربية قد حسم بعد. وقد استمرت الأمور في مصر منذ الضربة ومع انقضاء فصل الصيف، قام الجيش الثامن والقوات الملكية الجوية بحصار روميل في الخليج وبدأ الأسطول الملكي بقذف قواته بالقنابل من البحر. وقام أوشينليك قائد الجيش البريطاني، على حد تعبير تشرشل: "بالنقمة للأمام في الاتجاه المعاكس"^(٢٤)، وقد بدا واضحا بالفعل من خلال بحث الأمر والتفكير في أبعاده أنه هو من جعل الأمور تصل إلى هذا الحد، وأنه هو من جعل الهزيمة النهائية لروميل تصبح مسألة وقت وحسب. إلا أن الاتهامات المضادة حول الكارثة التي وقعت في يونيو واليأس من تمكن بريطانيا من تحقيق نصر مدو أمور أدت إلى زعزعة الثقة في القيادة العليا.

وفي مطلع شهر أغسطس، وصل تشرشل المضطرب إلى القاهرة قاطعا مسافة ١٠ آلاف قدم في طائرة عسكرية قاذفة قنابل "أمريكان ليبيريٲور"، وكان عليه قناع الأكسجين الذي تم إعداده ليضعه على وجهه، والذي يمكنه أن يدخل السيجار. ثم أسرد قصيدة "IF" للشاعر الإنجليزي روبرت كيبليج ليقرأها ويرسلها إلى الهند. وقد تم تعيين الجنرال السير هارولد ألكسندر، آخر الرجال الذين تركوا مدينة دنكرك الفرنسية عام ١٩٤٠، كقائد عام للجيش في الشرق الأوسط، في حين تم تعيين بيرنارد مونتجمري، الذي كان معروفا بغلظته وفظاظته، قائدا للجيش الثامن في الميدان. وقد لاحظ تشرشل أنه "في حال كونه مكروها ممن هم تحت إمرته، فإنه مكروه أيضا من أعدائه."^(٢٥) وبعد أن طار إلى موسكو لعقد اجتماع مع

ستالين، عاد نسرشل إلى مصر فى الأسبوع الثالث من شهر أغسطس ليقوم بزيارة للجنود فى الصحراء الغربية لرفع معنوياتهم. وبالاتصال على المقار الرئيسية لمونتجرى فى ساحل برج العرب، فقد ذهب للسباحة فى البحر المتوسط طافيا على ظهره ورافعا ساقيه بتحيتة الشهيرة علامة الانتصار على شكل V.

وبحلول شهر أغسطس، عاد أسطول البحر المتوسط إلى الإسكندرية تحت قيادة خلف كنينجهام الأدميرال السير هنرى هاروود، الذى استمر فى الاستجمام فى فيلته الأنيقة الواقعة فى لاورينس خلف سان ستيفانو فى محطة الرمل. وفى ٢٨ أغسطس، أفادت تقارير لصحيفة "ذا إبيشيان جازيت" بأن وزير الدولة ريتشارد كاسى،^(٢٦) قد أصيب بوعكة صحية، وأنه يتعافى الآن ويستعيد صحته فى الإسكندرية". وقد قام هاروود فى المساء السابق بدعوة كاسى وزوجته على العشاء، وقد دارت المحادثة حول بعض الرسومات وهو الموضوع الذى رغب الضيوف الآخرون فى التحدث فيه. وفى اليوم الثامن عشر، استمرت حالة التوتر سائدة بينما حل هاروود، وهو يرتدى زيا أبيض، وكاسى مرتديا ملابس أنيقة غير رسمية وسترة فضفاضة مزدوجة الصدر، ضيوفا على جيدج وجنيفا برينتون فى منزلهم الكائن بجليمبولو القريبة.

غير أنه كان هناك هدف ملح من وراء الدعوة إلى هذه المأدبة وهو أن الاستخبارات البريطانية قد تمكنت من فك شفرات روميل، وتبين لها أنه سيعمد فى أى يوم من الأيام الحالية إلى القيام بمحاولة أخرى للمضى قدما إلى الأمام، مع إمهال كاسى وهاروود ساعات قليلة لتقرير ما إذا كان عليهم الاستيلاء على الأسطول الفرنسى فى المرفأ الغربى أم لا. ونظرا لكونه أحد المقيمين المهمين فى المدينة ونظرا لكونه فارسا فى جوقة الشرف، فقد طلب البريطانيون من جيدج برينتون أن يقوم بالمهمة المعقدة والسرية المتمثلة فى استيضاح موقف الأدميرال

جودفرى. ولذلك قام برينتون بدعوة جودفرى إلى منزله، وكان تقريره عن هذا الاجتماع هو ما علم به كل من هاروود وكاسى.

وقد أخبرهم جيج برينتون أنه وجد الأدميرال جودفرى سيذا هادئ الطبع ودمت الخلق ورفيع القدر ومعه زوجة بريطانية ويحظى بتعاطف البريطانيين، وقد ألمه شعوره بكونه منبوذا من جانب أهل الإسكندرية، لكنه لم يكن أبدا واضحا فى مهمته كقائد للأسطول. وقد كانت السفن تابعة لفرنسا، وكان خادما لحكومة فيتشى التى كان مستعدا تجاهها وحدها أن يقدم كشف حساب. وقد أخبر برينتون أنه لن يقبل عزل الأسطول إلا بعد الحصول على إذن من جانب حكومة فيتشى، وأنه لن يستسلم حتى ولو طلب منه ذلك، وأنه فى حال تعرض الأسطول لأى هجوم من أى مصدر ولم يستطع أن يقاومه، فإنه سيقوم بإغراق سفنه. كما قام جودفرى أيضا بتسليم وثيقة مطولة وقائمة على أسباب منطقية جاء فيها: "قائد الاتصال بأدميرال القوات العاشرة. وورد فيها: "الفرنسيون لا يمكن أن يتمتعوا بكيان إلا إذا كانوا تحت إمرة إحدى الحكومات، حتى ولو كانوا لا يقبلونها".

وبأسلوب ينم عن دهاء ومكر، صوّر مأزق المواطن الفرنسى لضيوفه بتعبيرات القانون البريطانى قائلا: "أعادت لغة جودفرى إلى الأذهان تلك اللغة الخاصة بالمتحدث باسم مجلس العموم البريطانى فى معرض إجابته عن سؤال وجه إليه عام ١٦٤٢، إبان اندلاع الحرب الأهلية الإنجليزية، حول أماكن وجود العديد من أعضاء البرلمان ممن طلب الملك إلقاء القبض عليهم، حيث قال: "أنا لا أرى ولا أتكلم هنا بلسان إلا على النحو الذى يرغب المجلس فى توجيهى إليه".

وقد تم إبلاغهم بجميع هذه الأمور أثناء تناول الغداء، وقد قرر كل من ريتشارد كاسى والأدميرال هاروود أن يتركا القوة العاشرة وشأنها. (١٧)

كان ذلك الصيف بمثابة فرصة لالتقاط الأنفاس. ومع تحول موارد ريتش على نحو متزايد باتجاه تقدمها في مدينة ستالينجراد (المعروفة اليوم باسم فولجوجراد)، بقي روميل مقيدا بخط إمداده الضئيل الذي كان يمتد لمسافة ألف ميل باتجاه الغرب عبر الصحراء. وفي غضون ذلك، كانت القوافل البريطانية تجوب أرجاء قارة إفريقيا وتقوم بتفريغ المخزونات والمدفعية والذخيرة وكذا الأفراد في السويس من أجل نقلهم إلى الجبهة. كان روميل على علم بالخطر الوشيك الذي يهدده، وفي ٣٠ أغسطس، كتب لزوجته يقول: "وأخيرا، اتضح الأمر اليوم... لدينا صور عجز خطيرة في الإمدادات، إلا أنني قبلت المخاطر، حيث سيمر وقت طويل حتى نحصل على ظروف ملائمة من ضوء القمر والقوات ذات الصلة مرة أخرى... وإذا ما أفلحت ضربتنا، فربما تبلغ مبلغا كبيرا إلى الحد الذي يجعلها تقرر مسار الحرب بالكامل".^(٢٨)

وبالفعل بادر روميل بالهجوم تلك الليلة، لكن مونتمجري كان على أهبة الاستعداد. وفي اليوم الرابع من معركة "علم حلفا"، التي سميت على اسم سلسلة تلال واقعة شرق العلمين، تم وقف زحف الألمان مرة أخرى، مما سمح بدوره لاستمرار مونتمجري في تشكيل الجيش الثامن. وقد تلقى في هذا الشأن مساعدة الساحر الشهير جاسبر ماسكليني، الذي شغل دار السحر الشهيرة، التي يمتلكها جده، القاعة المصرية في بيكاديلي خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر. وقد سمي دوريل باسمه إحدى شخصيات عمله رباعية الإسكندرية أو "Alexandria Quartet".

وكان الساحر جاسبر ماسكليني مشهورا بفعل السباحة في الهواء قبل الحرب العالمية الثانية، وفيه بدا وكأنه يجعل جسم إحدى السيدات المنومات تتويما مغناطيسيا يطفو في الهواء فوق رؤوس المشاهدين، ثم يجعلها تختفي في الهواء.

وكان من أولى المهام التي اضطلع بها، عندما أرسل إلى مصر مع الفيلق الملكى للتمويه من المهندسين فى عام ١٩٤١، هو حماية شحن حيوى للدبابات التى كان من المقرر وصولها إلى المرفأ الغربى للإسكندرية، وقد نجح على مدى ثلاث ليال فى توجيه قاذفات القنابل الألمانية إلى وجهة خاطئة متمثلة فى مرفأ زائف فى بحيرة مريوط، وفيه أشارت الانفجارات الزائفة إلى أن الأهداف كانت تتعرض للضرب. والآن وفى أثناء الإعداد لمعركة العلمين الثانية، أعطى البريطانيون إحاء بتجمع جيش كبير فى هدوء فى الطرف الجنوبى من خط العلمين من أجل خداع الألمان وحملهم على أن يظنوا أن ثمة هجوماً من شأنه أن يأتى من ذلك الجزء فى وقت ما من شهر نوفمبر. وفى تلك الأثناء، جاء التعزيز الفعلى والأكثر سرعة فى الطرف الشمالى من الخط، مدعوماً بأساليب ماسكيلينى الخاصة بإخفاء الدبابات على أنها شاحنات، وفيه ركز مونتجمرى غالبية الجيش الثامن وقوامه ألف دبابة وألفا بندقية و ٢٢٠ ألف مقاتل لشن هجوم، وهو الهجوم الذى فاجأ رومل بالكلية عندما قام مونتجمرى بشنه فى شهر أكتوبر.

ولم يكن الأمر يتمثل فى أن شخصية ماسكيلينى التى أبدعها دوريل تحمل أى صور شبه مع المشعوذ جاسبر ماسكيلينى، بل إن "فعل ما يفعله هذا المشعوذ" هو ما أصبح يضرب به المثل بين أهل الإسكندرية. وقد حملت الحلقة الغريبة للاسم روابط يمكن لدوريل أن يطورها فى رؤيته عن المدينة. وكما كان جاسبر نفسه يحب أن يتحدث عن هذه القصة، فإنه قد ورث اسمه وما يتمتع به من مهارات الخداع من فارس نورمندى حضر إلى إنجلترا فى معركة هاستينجز كجاسوس لوليام الفاتح، ثم تمت مكافأته بعد ذلك بالحصول على مقاطعة ويلتشاير وأصبح يحمل اسم ماسكيلينى Maskelyne، الذى يعنى التكرار أو القناع باللغة الفرنسية القديمة. وقد وجد جاسبر مصدر إلهام جديداً فى اسم عائلته بعد الحرب

عندما طور من أدائه بتكوينه فريقا مع فنانة تتجرد من ملابسها على المسرح، وكونا فريقا يحمل اسم ماسكلىنى وفيمينين. ومن شأن الخداع ونقل الهويات أن يكونا ملمحا من ملامح رباعية الإسكندرية لدوريل، إلى جانب التحول فى أنواع الجنس أيضا.

كان هذا هو طبيعة الموقف فى شهر أكتوبر ١٩٤٢ عندما انتقل دوريل إلى الإسكندرية وتحمل مسئولية مكتب الاستخبارات البريطانية بالمدينة، رغم أنه عبر عن ظنونه فى ذلك الوقت بقوله "عندما قدمت إلى هنا، لم يكن هناك سبب لافتراض أنه من الممكن أن تنتهى الحرب أبدا، وأنه يجب على أن أترك مصر أبدا".^(٢٩)

وقد نزل دوريل فى غرفة فى فندق سيسل تطل على المرفأ الغربى. وقد شعر عند وصوله إلى المدينة بعد عودته من القاهرة بالفضاء الرحب أزرق اللون للبحر المتوسط وما يحمل من إمكانية الاتصال بأوروبا فى اتجاه البحر (وهو الشعور الذى ينتاب الزوار اليوم للإسكندرية حتى يومنا هذا). وكما كتب دوريل بعد ذلك فى "الرباعية" "بدا كل شيء يفوح برائحة جيدة من جديد"^(٣٠)، وجعل امتداد الكورنيش، المتألف بالأضواء فى المساء، الإسكندرية تبدو وكأنها "ناقلة بلورية الشكل... ترسو على القرن الأفريقى".^(٣١) إلا أن المدينة التى بدت بالنسبة له "ذات طابع يونانى مدو"^(٣٢) كانت أيضا بمثابة تذكرة بكل ما فقد وخسر، وعند نظره إلى المشهد الخارجى عبر المرفأ من شرفة غرفته بالفندق، يقول: "فكرت مليا فى المنفى بوجه عام وفى منفاى بوجه خاص".^(٣٣)

وكان شعور الفقدان الذى يطلق عليه اليونانيون اسم الحنين إلى الوطن *nostalgia* (من كلمتين يونانيتين إحداهما تعنى العودة إلى المنزل والأخرى تعنى الألم)، شعورا يألفه دوريل ويعتاد عليه، بل ويمتد إلى أصل تكوينه. وقد التقى

بنانسي في بلومسبيرى عام ١٩٣٢ حيث كانت تعمل رسامة فى مدرسة سليد للفنون الجميلة، وكانت فتاة نحيلة القوام شقراء اللون يعلوها جمال نائم، وهى أطول من دوريل حيث يبلغ طولها خمسة أقدام فاصل ثمانية فى حين يبلغ طول دوريل خمسة أقدام فاصل اثنين. وكان أول ما تذكره عنه هو أنه "شخص حزين ودمث الخلق، وقصير جدا وفاتن. كما أنه أيضا لطيف جدا وتعس جدا"، وتذكرته وهو يقول عن نشأته، "حتى أفضل المدارس يمكن أن نقول عنها إنها دار للأيتام لو لم يتوافر بها حياة وطن يمكن المقارنة على أساسها".^(٢٤)

وقد أصدر فى العام السابق، وهو فى عمر ١٩ عاما، مجموعته الأولى من القصائد التى تم طبعها طباعة خاصة تحت عنوان Quaint Fragment، وعنوانه ذاته يشير إلى وصف غريب لنفسه مثلما هو الحال بالنسبة لشعره. وفى إحدى قصائد هذه المجموعة والتى تحمل عنوان ("To My Mother") A Dedication "إهداء ("إلى أمي")، أوضح كيف أنه صاغ قصائده "من ذكريات ساعات خوالٍ / عندما عشت لحظات الوداع وسحقت أصل / الحزن الواعى الذى يستنزف الحيوية / للشباب المنهك"، واختتم القصيدة بقوله: "كل ما أريده وأرغبه / هو أن أعيش هذه السنوات القليلة جميعا فى وحدة / ... / كل واحدة منها يبدو وكأنه سحر صغير يخصك".^(٢٥)

وتلا ذلك أن رفع الأمر إلى مستوى ميتافيزيقى فى مذكرة بتاريخ ١٩٣٨، حيث كتب يقول فى لحظة الميلاد، يفقد الفرد جزءا من الوعى، وأن "حياة الفرد بالكامل عبارة عن بحث عن هذا الجزء المفقود" عبر "عالم من المرايا". وفى نفس

الدليل، رسم أيضا خريطة ذات رسم تخطيطي لبلومسبيرى مكتوبًا عليها: "خطة لكتاب الموتى".^(٣٦)

عادت به "الساعات الخوالي" إلى بداية فترة طفولته في الهند، التي ولد فيها دوريل في مدينة جولدنور في ولاية بنجاب في ٢٧ فبراير عام ١٩١٢. كان والده السيد لورانس صموئيل دوريل، الذي عمل مهندسًا مدنيًا في السكك الحديدية، ابنًا غير شرعي لأحد المزارعين في مدينة صافولك. وبعد أن تم إدراجه في قائمة قوات الجيش، تم إرساله إلى الهند في عقد السبعينيات من القرن التاسع عشر. وكان بإمكان والدته دوريل - السيدة لويزا ديكسي، التي كان أهلها جنودًا ومهندسين أيضًا - أن تتبع مدى حضور عائلتها في الهند إلى مقدار جيل بالكامل، وقد كان أهلها من البروتستانت الذين رحلوا عن مقاطعة كورك في وقت سابق لعام ١٨٤٥.

وخلال السنوات الثمانية التي تلت ميلاد دوريل، تنقلت الأسرة من مشروع للسكك الحديدية إلى آخر باتساع نطاق النفوذ البريطاني، من مدينة جولدنور إلى عزلة مدينة أركان بدولة بورما (ميانمار حاليًا) في الجانب الأقصى من خليج البنغال، ومن مدينة مينسينغ في سهول نهر الجانجز لأعلى وصولًا إلى كيرسيونج في منطقة الغابات الواقعة إلى أسفل مدينة دارجيلنج. وقد أدى كل من حالة العزلة وسوء أحوال الطقس إلى ارتفاع معدلات الوفيات ونسب المصابين بالأمراض وحالات القلق في مدينة مينسينغ، فوجد أنه عندما بلغ دوريل عامه الرابع، توفيت أخته من جراء الإصابة بمرض الديفتيريا. ثم تلا ذلك في عام ١٩٢٠ أن استقال السيد لورانس صموئيل من منصبه كمهندس تنفيذي في مشروع السكك الحديدية ما بين مدينة دارجيلنج وجبال الهيمالايا، وأخذ عائلته (التي زاد عددها في تلك الأثناء لتشمل ابنا آخر اسمه ليسلي وبناتًا أخرى اسمها مارجو، ولم يولد جيري إلا عام

١٩٢٥) وسار بهم إلى قرية ساكتشي التي تشهد إعداد موقع صناعى فى غابات منطقة بيهار.

ونظرا لكونه رجلا طموحا. وغير عادى يتمتع بقدرات عالية، فقد أسس شركة للهندسة والإنشاء، تحت اسم دوريل آند كومبانى، بدعم ومساندة السيخيين الأثرياء، وحصل على عقد بناء مصنع للصفيح المعدنى المقصود ومصنع لعمل الطوب إلى جانب مبنى إدارى ومستشفى وكذلك ما يزيد على ٤٠٠ منزل للعاملين لكل منه حديقة الخاصة، وقام بنقل أعمال شركة تاتا للحديد والصلب إلى مدينة جامشيدبور النموذجية. ولم يكن معروفا على الإطلاق أمر الإجحاف الدينى والمحابة الطبقيّة فى مدينة جامشيدبور، وقد تمتع العاملون، الذين قاموا بإدارة صحفهم بقدر أكبر من الحرية فى التعبير عن الرأى عن مقار العمل فى أى مكان آخر فى الهند. وقد ظل هذا الأمر، إلى جانب ما تحظى به من "سكن ملائم ومستشفى وغيرها"، فى جعل مدينة جامشيدبور ذات طبيعة خاصة حتى حصولها على الاستقلال بعدها بمقدار ٢٥ سنة، عندما وصفت مارجريت بورك-وايت، الصحفية والمصورة البارزة فى صحيفة لايف، المدينة بأنها "تتقدم كثيرا على أى مركز صناعى قمت بزيارته فى الهند". (٣٧)

ورغم أن لورانس صموئيل كان يشتهر بين الأصدقاء والأقارب بدفء مشاعره وطبيعته المحبة للمرح والمزاح، فإنه بدا بالنسبة لدوريل شخصا خجولا غير ودى، وقد شعر بالوحدة والعجز والوهن فى ظل الطبيعة غير الملائمة وغير المناسبة التى عليها علاقتهما. وقد رفض فى بعض الأوقات بمزيد من الاحتقار والازدراء ما ظنه إيمانا من والده بالتقوى المادى والاجتماعى، "الجهل المريع لبانى الإمبراطورية، والطبيعة الغيرية والحمق المطبق الذى عليه "روح الفريق". (٣٨) إلا أنه أقر على الرغم من ذلك أنه ورث عن والده "حب النظام والإحساس

بالمسئولية"، غير أنه أخذ عن والدته، التى كان يجلبها عظيم الإجلال، ما لديه من "كسل وعدم التزام بالقواعد والنظم الموضوعة"،^(٣٩) وما يحمل من ملامح "صغر وقصر"؛ فقد أفسدت طباعه كثيرا، أو هكذا يقول هو عنها، مضيفا: أنه كان بإمكانه دوما أن يحصل على ما يريد منها، رغم أنه كان يستاء كثيرا من الاهتمام الأكبر الذى توليه أمه لابنها ليزلى الأصغر سنا والأقل قدرة والأكثر تعرضا للإصابة بالمرض.

وفى عام ١٩٢١، عندما بلغ دوريل ٩ سنوات، قرر والده أن يتلقى تعليمه النظامي - فالتعليم الذى تلقاه فى المنزل كان على يد مربية أيرلندية كاثوليكية - لذا فقد كان يمضى فى رحلة يومية على طول خط السكك الحديدية من أمام منطقة كيرسيونج إلى كلية سان جوزيف فى مدينة دارجيلينج، حيث يتذكرها غالبا، "مساكن فقيرة تبدو وتمر عبر الوديان باتجاه إقليم التبت. وكان رفاقنا فيها جرفا صخريا كبيرا من الجبال الشهيرة"^(٤٠). "غير أن فضوله قد توقف عند هذا الحد، يقول فى هذا الشأن: "لا أعرف شيئا عن التبت، رغم أننى ألتقى من حين لآخر برهبان بوذيين كرام كبار السن يزرعون الطريق العام إلى التلال وهم يلففون عجلات الصلاة الخاصة بهم. فلم يكن إقليم التبت "رومانسيا" - كما لم يكن ممتعا. فقد كانت أفريقيا (السمرات) - أو قل مصر - هى النولة الرومانسية (ستأنلى ورايدر هاجارد وغيرهم)".^(٤١)

أما بالنسبة للهند، فقد كان دوريل منعزلا عن حياته الأصلية التى تحتشد فيها إلى ما يتجاوز القيم والمبادئ المحلية للسيادة البريطانية، كما أنه بالتأكيد لم يكن أحد شخصيات رواية Kim لجوزيف روديارد كيبلينج؛ بل كان بمثابة الإطار السحري لما أطلق عليه اسم "التعطل التام"^(٤٢) لطفولته، بل والأكثر من ذلك فى العالم المحيط به الذى شكل منزله: "كانت حياتنا فى الهند حياة استعمارية؛ إى أنها

كانت ذات توجه عائلي في الغالب".^(٤٣) إلا أنه بعد مرور عامين على الدراسة في سانت جوزيف كوليدج، قرر والده ضرورة إعادته هو وأخوه ليزلي "إلى إنجلترا"، إذ إنه أيقن أن التقدم المهني يحققه الأفراد الذين يحصلون على "الصفة الرسمية"^(٤٤) - على حد تعبيره - في إحدى المدارس العامة التي تعقبها الدراسة في الجامعة. ولم تطأ قدم والده أو والدته إنجلترا من قبل؛ إلا أنه كما أوضح دوريل، فقد كانت إنجلترا بالنسبة للإنجليزيين من أصل هندي بمثابة "وطن" حافل على نحو يفوق الوصف؛ "ولم يكن بإمكان الإسرائيليين أن يعلقوا قيثارة أكبر على صوتها على نحو يفوق البريطانيين"^(٤٥) وعلى الرغم من ذلك، فطبقا لدوريل، "كانت أمي تعارض الفكرة بقولها إنني صغير جدا وإنه لمن القسوة أن ترسلني بعيدا. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أشاهد فيها مناقشة محتكمة بالفعل داخل المنزل؛ لكنها سرت في إطار من الهدوء والتعقل. وكانت رؤية أمي وهي تصرخ ضربة موجعة فعلا."^(٤٦) إلا أن هذا الأمر هو ما لام عليه أمه كثيرا لأنها لم تسمح له بالسفر ولم ينسها ذلك، وتمثل هذا اللوم في صور كثيرة منها قصيدته التي تحمل عنوان "ساعات خوال".^(٤٧)

كان دوريل قد بلغ السادسة عشر وهو يدرس في مدرسة سان إدموند في كانتربري. في أبريل ١٩٢٨، سلم ناظر المدرسة برقية من الهند إلى دوريل، بعد ستة أيام من رقدة والده بالمستشفى وهو يعاني من ورم في المخ وقد توفي إثر نزيف بالمخ، والده ما زال صغير السن فهو يبلغ نحو ٤٣ سنة عندها أحس دوريل بدوار شديد، ولكن كل ما شعر به كان إحساسه بالذنب لأنه لم يكن قادرا على الصراخ. وفي غضون شهرين كانت لويزا دوريل قد رحلت عن الهند وجاءت إلى إنجلترا لتعيش مع ابنها هناك الذي هجر الدراسة في تلك الأثناء ولم شمله مع أسرته.

وكان دخل دوريل ونانسي بسيطا وبعد أن تزوجا في عام ١٩٣٥، تركا إنجلترا ورحلا إلى مدينة كورفو اليونانية، رغم أن هذا لم يحدث إلا بعد أن ضمن دوريل توفير الاحتياجات الأساسية، وأقنع والدته أن تتبعهما إلى هناك مع باقي

أفراد الأسرة. وقد أعجبهم الطقس الجيد للجزيرة وتكلفة المعيشة المنخفضة بها، فكانت الفكرة تتمثل في أن تزاوّل نانسى فن الرسم وأن يقوم دوريل بمزاولة الكتابة، في حين تحاول الأسرة الحفاظ على ما تبقى من أموال خلفها والد دوريل. يقول عن ذلك: "ترانا في كورفو قد أعدنا تشكيل الفترة التي عشناها في الهند والتي افقدناها جميعا. وقد تفجرت الجزيرة وأصبحت مفعمة بالنشاط والحركة لحياتنا، ذلك لأن الفرد منا يعيش بالفعل عاريا تحت الشمس".^(٤٨)

وقد استعاد دوريل بعد ذلك بسنوات الاعتقاد السائد في الشرق بأن كل فرد لديه محلا ميلاد: الأول مكان ولد فيه بالفعل والآخر يستهويه ويميل إليه قلبه، وهو المكان الذى تستيقظ فيه بالفعل على الواقع المحيط... والذى ينعشك ويثرى حياتك".^(٤٩) كان هذا المكان بالنسبة لدوريل هو ضريح القديس أرسينيوس الواقع بالساحل الشمالى الشرقى البعيد لجزيرة كورفو، الذى وجد فيه أحد الصيادين أيقونة القديس وقد غسّلت بعد تعرضها لعاصفة وقام ببناء ضريح صغير يضيئه مصباح يشغل بزيت زيتون مقدم كنذر فى صخرة تعلو البحر. وبالنسبة لدوريل، كانت الحياة مع نانسى فى قرية كالمائى الصغيرة هى "المكان الذى ولدت فيه من جديد"^(٥٠). وهى المكان الذى يسبحون فيه كل صباح فى حمام سباحة للمياه المالحة الأيونية وهم متجردون من ملابسهم، كما أنها المكان الذى انتهى فيه من كتابة "The Black Book" (الكتاب الأسود) وشعر بحق أنه أصبح كاتباً. "لن أنسى أبدا ما حييت فترة الشباب التى قضيتها هناك والتى اكتشفتها بالصدفة... فالشباب يعنى السعادة ويعنى الحب، وهو الأمر الذى يسرك ولا يمكنك أن تقاومه".^(٥١)

غير أنه فى سبتمبر من عام ١٩٣٩ ومع اندلاع الحرب، وقف كل من دوريل ونانسى فى شرفة منزلهما المطلى باللون الأبيض فى قرية كالمائى وهما ينظران للخارج عبر المضائق إلى ألبانيا التى يحتلها الإيطاليون؛ وبعد أن قررا أن

ينتقلا إلى أثينا لكي ينعم بالأمان هناك، قاما بجمع ما بالمنزل من كتب وأوراق وتفرغ محتويات الدوايب وقاما أيضا بتعبئة الملابس. ووقعت الحرب "كأنها حالة انفصال عظيم"، وشعر دوريل "أنه منفطر القلب، واجم... وبدأ الأمر بالنسبة لنا وكأن نهاية العالم قد اقتربت في أثناء وقوفنا في شرفتنا التي تطل على البحر". (٥٢)

وبالنسبة للأديب إ. م فورستر، كانت الهند بمثابة ذلك العالم المكتشف حديثا، العالم الذي أثرى خياله وحبه؛ بينما كانت بالنسبة لدوريل إحساسا بالحنين لأيام الصبا، لكن لم يشعر بأى حنين نحو الهند، ولم تمثل مصدر إلهام لأى من قصائده أو رواياته، (٥٣) أو كتب السفر الخاصة به، وإنما وجد هذا الإلهام فى اليونان. وعن ذلك يقول: "لقد أثرت اليونان، القديمة والحديثة، فى نفسى كثيرا. وقد عبرت عنها فى قصائدى... لذا عليك أن تقدر اليونان أولا قبل أن تتمكن من فهمي". (٥٤)

وبعد أيام قليلة من الإقامة فى فندق سيسيل، انتقل دوريل مع صديق له يدعى جوين ويليامز إلى محطة الرمل، وكانت فيلا جوين ويليامز تقع فى منطقة يطلق عليها فى ذلك الوقت اسم رشدى فى شارع سردار فى "تل السفارة" وهو التل المعروف بالنسبة لفورستر باسم أبو النواطير الذى قدم للإقامة به مع فيرنيس عام ١٩١٦. ومنذ ذلك الحين أطلق عليه اسم دار المنسوب السامى؛ لكونه مقر إقامة المنسوبين السامين. وكان منذ عام ١٩٣٦ مقر إقامة السفير السير مايلز لامبسون، عندما كان الملك ينتقل وحكومته، وبعدهم السلك الدبلوماسى بالكامل، إلى الإسكندرية خلال شهور الصيف. وبدلا من البنديقية التى وجدها فورستر ملقاة على الرمال، وكانت من بقايا حرب عام ١٨٨٢، كانت هناك دبابة مضادة للطائرات فى مكان قريب من هنا. وربما كانت هذه الفيلا هى نفس الفيلا التى أقام بها فورستر من قبل لمدة ٢٦ عاما تقريبا، ذلك أن جوين ويليامز كان يدين بانتقاله إلى

الإسكندرية إلى روبين فيرنس، الذى كان حتى عهد قريب يعمل أستاذاً فى جامعة فؤاد بالقاهرة، وكان يعمل بها ويليامز محاضراً منذ عام ١٩٣٠.

وقد وصل جوين ويليامز إلى الإسكندرية قبل وصول دوريل إليها بشهر واحد، وكان عمره وقتها ٣٨ عاماً، وبعد إلحاح من روبين فيرنس، قبل تولي منصب أول رئيس لقسم اللغة الإنجليزية فى جامعة فاروق (المعروفة الآن باسم جامعة الإسكندرية) حديثة التأسيس. وقد ساءت العلاقة الزوجية بين دوريل وزوجته فى القاهرة، ويقول "عندما قالت زوجتى: إنها لا تتوى القdom معى، فبعد الصدمة الأولى وجدت أن هذا الأمر ناسبنى كثيراً".^(٥٥) وكان هناك مكان جيد للسباحة فى موقع قريب فى خليج ستانلى، فى حين كان بإمكان ويليامز أن يمارس لعبة التنس مع فليكس كارفر وبوبى بيل فى نادى سبورتنج الواقع على بعد خطوات قليلة، إلى جانب ذلك، لم يكن يفصله عن مقر قسم اللغة الإنجليزية إلا القليل من محطات الترام باتجاه المدينة فى الشاطبى، وهكذا كان الموقع مناسباً وملئاً له تماماً مثلما كان غياب زوجته.

كان ذلك مناسباً لدوريل لفترة من الزمان أيضاً، كان ينتقل كل يوم مستقلاً الترام المتحرك فى عنف والمحدث لارتجاجات فى رحلة طولها أربعة أميال بالترام^(٥٦) من محطة مصطفى باشا - مرورا بكل من سيدى جابر وكليوباترا ونادى سبورتنج والإبراهيمية ومعسكر سيزار والشاطبى وشاطئ الشاطبى ومزاريتا - وصولاً إلى محطة الرمل، ومنه يمشى مسافة قصيرة وصولاً إلى مكتب الاستعلامات البريطانية فى واحد (رقم ٢ فى الوقت الحالى)، شارع طوسون باشا على جانب شارع شريف باشا فى قلب الإسكندرية. وكان المكتب يشغل ثلاث غرف متصل بعضها ببعض بالطابق الأول، فوق الطابق المتوسط (المسروق) مباشرة. وكانت جدران المكتب مغطاة بملصقات معادية للألمان مكتوبة بالعديد من

اللغات، وكانت نوافذه تطل على بنك روما السابق الواقع بالركن المقابل. وكان منزل بودروت **Maison Baudrot** يقع على بعد خطوات قليلة في موضع يلتقى فيه شارع شريف باشا بشارع فؤاد أمام نادى محمد على، وما يحويه من غرفة للشاي ومطعم وبار أمريكي "يتلأل بالأضواء ويصدح بالموسيقى"،^(٥٧) على حد وصف دوريل له، وكانت تديره السيدة أريانه بودروت التى تدخن السيجار، والتى كان حديثها يدور حول الأيام السابقة للحرب عندما كانت تغطى أكتافها بتسعة فراءات ثعالب من ماركة سيستوفاريس، وهى أكثر أنواع الفراءات أناقة، كما كانت تتمتع بحضور طاغ فى حفلات فاينى.



الشاطئ فى نادى سبورتنج، فى الفترة الواقعة بين إلقاء القنبلتين، كان أهل الإسكندرية لا يزالون يتدفقون على الشواطئ بطول ساحل البحر المتوسط الذى تطل عليه المدينة.

وقد أدى انتشار المقاهى والبارات فى المدينة إلى جعل مكتب الاستعلامات بمثابة "استراحة منعشة" لجوين وليمز، الذى أشار إلى "سهولة القدرة على الاختيار والاحتفاظ بطاقم عمل كفء وسار"، يتألف من السيدة مارجورى فيلبوت، كسكرتيرة له والأنسة باتيس للبحوث الصحفية وكذلك السيد ميلتو أكسيلوس، موزعه ومستشاره للغة العربية. وقد انهك دوريل فى عمله، وكان عمله يقوم على ضمان تطعيم الصحف المحلية، الصادرة باللغات الإنجليزية والفرنسية واليونانية والأرمينية وكذلك العربية، بأخبار إيجابية ومبشرة، وكثيرا ما كان يكتب النسخ بنفسه. وقد أشار ثيودور ستيفانيدز، الذى سرعان ما تم نقله إلى مستشفى عسكري فى العامرية، وهى مدينة تأثر الجو العام فيها كثيرا بالسكان اليونانيين العديدين الذين أقاموا بها، إلى أن "لورانس دوريل الآن يقوم بعمل ما هو متمكن منه وما يروقه". مضيفا "إنه الآن رئيس نفسه كما أن لديه القدرة على استغلال معرفته باليونانية خير استغلال".^(٥٨) إلا أن زوجة ميلتو أكسيلوس، السيدة سيلين، التى كانت شاعرة ووهبها الله شعرا طويلا كثيفا ذا لون ذهبي وفما صغيرا وجميلا وعينين ساحرتين ووصفها دوريل بأنها "امرأة فاتنة"^(٥٩)، أشارت إليه بأنه "قلما يفوق من سكره وهو فتى جميل المنظر لا مال له".^(٦٠)

وفى تمام الساعة العاشرة فى ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢، ضرب سماء الإسكندرية إعصار صاخب قوامه ألف مدفع فى الصحراء الغربية أثناء إطلاق مونتجمرى لوابل نيران مدفعيته، واستمر الجيش الثامن فى الهجوم فى معركة العلمين الثانية. ومع إشراق شمس يوم السبت، تحرك السير مايلز لامبسون أسفل الطريق الصحراوى من القاهرة، مارا بتجمعات الدبابات المتجهة ناحية الغرب، فى حين "امتلا الجو حولنا بالفعل بالطائرات. إننى لم أر فى حياتى من قبل مثل هذا العدد من الطائرات... كما رافقت قاذفات القنابل أعداد لا حصر لها من المقاتلين... يتحركون

فى جميع الاتجاهات فى أغلب الأوقات"، فى حين كان البحر قبالة منطقة المكس يعج بقذائف ذاتية الإطلاق ومركبات سقوط الدبابات العائدة من مهامها الليلية. وقد اتجه السير مايلز لامبسون بعد الغداء فى مقر المندوب السامى إلى الشاطئ فى خليج ستانلى، وهو المكان الذى "أمكنه فيه أن يسمع دوى المدافع بصورة بالغة الوضوح فى أغلب الأوقات. وبعد العشاء أصبح هذا الوبل يشكل صخبا لا ينقطع، وصعدت إلى السقف قبل أن أوى إلى فراشى وكان بإمكاننا أن نرى الوميض باديا بوضوح على السحب المنخفضة، الأمر الذى يعد بالغ الإثارة".^(١١)

ومع تحول القمر فى المدينة من حالة البدر فى التمام إلى حالة الهلال على مدار المعركة التى دامت لمدة اثنى عشر يوما، كان أهل الإسكندرية يقفون كل ليلة فى شرفهم وهم يدخنون ويتجاذبون أطراف الحديث، ويلوح بعضهم إلى بعض عبر الشوارع الضيقة ويتبادلون حركات للوجوه تتم عن أمل واستكانة، مع توجيه بصرهم فى معظم الأوقات إلى الأفق الغربى، حيث تقرر أقدارهم أسفل هالة فظيعة من الضياء. وكان أهل الإسكندرية فى كل ليلة يديرون مؤشرات أجهزة الراديو الخاصة بهم فى حضور جمع غريب من عشرات الآلاف من كل من الجنود البريطانيين والألمان فى الخارج فى الصحراء، حتى يتحدث المذيع ويتحدث بعض العبارات باللغة الألمانية ويتحدث عن بلجرا، وبمجرد أن يتقوه المذيع بتلك الكلمة السحرية، يلوذ الجميع إلى الصمت وينتظرون. ومنذ عام ١٩٤١، عندما استولى الألمان على أجهزة الإرسال هناك، كان راديو بلجراذ يذيع النوع المألوف من رسائل الأسره الموجهة إلى القوات الألمانية المجمعة من القناة الإنجليزية إلى الجبهة الروسية وإلى صحارى شمال أفريقيا، وكان البرنامج ينتهى دوما بتلك اللحظة الجميلة المهيبة عندما تشدو المطربة لالى أندرسون بالنسخة الأصلية وليست المصطنعة من الأغنية العاطفية الشهيرة "للى مارليني Lili Marlene".

وقال أحد قدامى المحاربين البريطانيين: "كنا نجلس أو نستلقي هناك فى حالة نشوة وابتهاج نستمتع إلى كل كلمة. وكنا نفعل الشيء ذاته كل ليلة، طالما كنا هناك، إذ كانت ليلي تتحدث إلى كل واحد منا، ولم تصر هذه الأغنية مبتذلة أو بالية فى يوم من الأيام".^(٦٢)

وقد شعرت السيدة أناهيدى ميراميتجيان، التى كانت تدير حتى عهد قريب إحدى المكتبات بالمدينة- برعدة البحر عندما كانت تستحم فى شاطئ سيدى بشر خلال حرب العلمين الثانية، تقول: "إنها الحرب، سيعود الأولاد المساكين، كما مات الكثير منهم؛ وعندما أذهب إلى مدفن العلمين، فإننى أراه الآن: فقد كانوا فى سن العشرين من العمر، وكانوا صغاراً جداً. وقد قضت بعض النساء أوقاتاً ممتعة، فقد كن يأوين إلى الفراش كل ليلة مع ضابط أو رجل مختلف. إذ وهبت النساء اليونانيات والإيطاليات واللبنانيات أنفسهن للقوات، وقد كن عطوفات للغاية، أعنى أولئكم النساء، وهو ما أدركته الآن."

ومنذ صيف عام ١٩٤٠، عبر مصر ما يربو على مليونى جندي وبحار وطيار، وقد طرأ تغيير على الإسكندرية مع حلول حرب العلمين الثانية. وتساءلت السيدة كليا Clea قائلةً: "هل يعد من الأمور الحساسة أنك تريد أن تحفظ رأسك، لكى تجتنب هذا الاندفاع الجنسى اللافت للنظر من الدماء إلى الرأس الذى يأتى مع الحرب، والذى يثير النساء إلى حد لا يمكن احتمالها؟ لم أكن أتصور أن رائحة الموت مثيرة لهم إلى هذه الدرجة الكبيرة! ولا أريد يا دارلى أن أشارك فى هذا اللهو والصخب الذهني، وبيوت الدعارة هذه المنتشرة فى كل مكان. وجميع هؤلاء الرجال المساكين يحتشدون فى هذا المكان. فقد أصبحت الإسكندرية بمثابة دار كبير للأيتام، وكل واحد منهم يتعلق بالفرصة الأخيرة للحياة".^(٦٣)

وقد تذكرت أناهيدى ذلك الشاب الذى قدم إلى نوادى الخدمات، تقول: "كان البعض مصدوما للغاية، فى حين أراد البعض أن يغيروا الملابس التى كانوا يرتدونها وحسب. وقد قدمت ذات مرة مائتى كوب من الشاي فى ساعتين، وقد اعتدنا أن نعد لهم وجبة من البيض؛ فقد طلب أحد الأولاد ٢٥ بيضة مقليّة. وقد عملت السيدات بجد فى المخازن العسكرية. وبالطبع كانت لدى الذكور الرغبة فى أن يأتوا ويتحدثوا بالإنجليزية؛ إذ كان الجميع يريد أن يتحدث، وأحيانا ما كانوا يطلبون منى الذهاب والرقص معهم، وكان من الممكن أن أذهب وأرقص فى الحفلات، لكننى لم أكن أذهب أبدا إلى ما تذهب إليه الأخريات. وكنا نقيم حفلات كل أسبوع مثل: الصندوق الخيرى البريطانى والصندوق اللبنانى والصندوق اليونانى والصندوق الأرمينى والموسيقى والمحاضرات والحفلات الموسيقية. وكنا كنساء لا نضع ثمن التذاكر الخاصة بهذه الحفلات؛ وكنا نذهب إلى المكتب ونقوم ببيع التذاكر للرجال".

وبالنسبة للضابط غير المهتم بالإجراءات التمهيدية لإحدى الحفلات الخيرية، كان المكان الذى يبتغى الذهاب إليه هو دار مارى الواقعة شرق الميدان العام خلف الحى اليونانى ومحرم بيه؛ وقد علمت مارتا لوريا الموضع بالضبط بينما كانت واقفة بالقرب من خط السكك الحديدية، أمام المستشفى الإيطالى الذى بناه أبوها. كانت مارى يونانية الأصل لا ترى إلا بعين واحدة - من جراء النظر عبر الثقوب - وقد أنشأت بيت البغاء هذا بمساعدة أفترض أنها تلقّتها من الجيش أو الأسطول البريطانيين، وهو ما كان يثير اشمئزاز الأفراد القاطنين بالقرب منه كثيرا، رغم أنه كان مكانا أنيقا وبالغ التنظيم. ثم حدث أن تعرضت مارى لضربة مباشرة، فقد قتلوا فى المعركة. ولم يكن هناك من طريقة أخرى يمكن وصف ذلك الحدث من

خلالها: الضباط لهم عائلاتهم والبعض منهم كان معه زوجاته، وبذلك فقد تم الإعلان عنهم بأنهم قتلوا في المعركة."

وخلافاً لذلك بالنسبة للقوات، كان هناك الطريق الواقع إلى الغرب من المدينة باتجاه القاعدة العسكرية في العجمي، وهو المكان الذي كانت الغوانى تعرضن فيه أنفسهن في الشرفات، ويمكن للفرد أن يختار السيدة التى يريد وطأها وهو في الطريق قبل أن يصعد إلى أعلى، أو كان هناك بيوت البغاء البالية بطول شارع الراهبات (رو دو سير) وشارع الأخوات، الذى سمي على اسم عزرائث المسيح المرتبطات بكنيسة لازاريس خلف المحاكم المختلطة فى ميدان محمد على. وقبل حدوث الضربة، تزوجت مارتا لوريا من ضابط فى الأسطول اسمه رول فولر، الذى أضاف بنفسه أن الأسطول كان يدير لفترة من الزمن بيتاً للدعارة قبالة شارع الراهبات مع ضابط طبي يعمل فى المعارك دوماً. تسبب الأمر فى فضيحة كبيرة حول مشاركة الجيش البريطانى فى إدارة هذا المكان، الأمر الذى أدى إلى إغلاقه، غير أن الإسكندرية أصبحت أقل أهمية بذلك الوقت، عندما بدت كافة الأنشطة تتم باتجاه الغرب. إلا أنه عندما كان أسطول البحر المتوسط هناك - كان لدينا أسطول كبير هناك وكان لا بد وأن يكون هناك أسطول هائل ولا بد أن تحمل كل بارجة ما يقرب من ألف فرد على متنها، وكان لدينا فى بعض الأوقات خمس بارجات فى الميناء، بخلاف الطرادات والمدمرات وجميع ما بقى منها."

وكان جوين ويليامز يراقب، "إلى أكبر مدى ممكن أن ينظر إليه الفرد"، الخدم من الرجال البريطانيين والنساء البريطانيات فى حالة "إمساك بلا حراك" قوامها "صلابة أهل بومباي" هو منتصب القامة أمام الجدران. وقد كان "واضحاً أن المصريين مرتبكون ومتحررون" أو كان يعتقد ذلك، "بفعل هذا السلوك الغريب من جانب الشباب المرتدى زياً عسكرياً واحداً، واعتاد التوقف والمراقبة، وربما يكون

السبب وراء ذلك هو استكشاف بعض الحركة التي يمكن أن تبرز ما يحدث." (٦٤)
وبالنسبة لماريو كولونشي، فعلى الرغم من أنه كان لا يزال في بداية عهد الشباب
في ذلك الوقت، فإنه كان ثمة القليل من الغموض حوله: فقد تذكر رؤيته "السيدة
تعمل بالخدمة النسائية بالأسطول الملكي البريطاني وهي تقف على الرصيف خارج
نادى القوات المتحدة، وقد رفعت جونلتها لأعلى بجوار الجدار وهي تمارس الجنس
مع أحد الجنود".

"كانت المدينة دوماً في حالة انحراف وفساد" (فهذه هي كلياً تتحدث إلى
دارلى بصفتها كلياً بادرو الحقيقية التي عملت بنادى القوات الأمريكية، ويمكن أن
تكون قد تحدثت إلى دوريل في هذا الشأن) حيث تقول: "إلا أن هذا الأمر قد أخذ
معه ما يحمل في بعض جوانبه بهجة وسروراً بالأسلوب، في وتيرة محافظة، حتى
في الأسرة المستأجرة: فلم تقف أبداً بجوار حائط أو شجرة أو إحدى الشاحنات! مع
أن المدينة تبدو في الوقت الحالي في بعض الأوقات كما لو كانت مبولّة عامة
كبيرة. وتجد نفسك تدوس بقدمك على أجساد السكارى بينما تكون في طريق
عودتك إلى المنزل... وكنت أميل إلى أن أدير وجهي خجلاً وتعاطفاً معهم... وقد
أفحمت نفسي وكنت أقدم لهم الشاي في ملاهيهم العديدة وأقوم بتقديم العصابات
والضمادات لهم وتنظيم الحفلات الموسيقية لهم. إلا أنني كنت أنكمش كل يوم
بصورة أكبر." (٦٥)

وفي يوم ٣ نوفمبر عام ١٩٤٢، كتب روميل إلى زوجته خطاباً يقول فيه:
"عزيزتى لو، المعركة تشتد رحاها ضدنا، ويسحقنا العدو بعتاده الثقيل... وفي
المساء، رقدت فاتحاً عيناى، أقلب الأمر في رأسى أبحث عن مخرج من هذه
الورطة لقواتى المتواضعة. ونحن نواجه أياماً عصيبة، ربما تكون أصعب أيام
يمكن أن يمر بها إنسان. إن الموتى محظوظون بالفعل، فقد استراحوا من هذا
العناء." (٦٦) وبعدها بيومين، حملت صحيفة "ذا إيجيشيان جازيت" بياناً رسمياً من

الجنرال مونتجمري يقول فيه: "إننا نحكم قبضتنا على العدو، وهو على وشك الانهيار. والفرصة سانحة أمامنا لكي نضع الجيش الألماني المدرع بالكامل في جعبتنا، وهو ما سنفعله. كما أنه يلوح في الأفق بوادر تحقيق نصر ساحق".^(٦٧) وعلى بعد خمسمائة ألف ميل باتجاه الشمال، كانت تجري معركة شرسة عند حطام سنالينجراد، ولم تمر إلا أسابيع قليلة حتى انتهت هذه المعركة أيضا بحدوث كارثة كاملة بالنسبة للألمان.

كما كتب روميل بعدها عن حرب العلمين الثانية واصفا إياها بأنها "حولت مسار الحرب ضدنا في أفريقيا، بل وربما مثلت نقطة التحول في الصراع الكبير بالكامل".^(٦٨) وقد دارت المعركة الحاسمة في ٢ نوفمبر، وفي اليوم التالي، بدأ روميل وفيلق أفريقيا تراجعهم الطويل، جعلهم يخرجون من أفريقيا في غضون أقل من ستة أشهر. وقد أعلن تشرشل في مأدبة أقامها للورد مايور ١٠ نوفمبر أن "هذه ليست البداية، كما أنها ليست حتى بداية النهاية، وإنما هي نهاية البداية".^(٦٩) وكانت بالتأكيد بالنسبة للإسكندرية نهاية الخطر مع دوران رحى الحرب باتجاه الغرب.

وفي اليوم الخامس عشر، دقت أجراس الكنائس في كل أرجاء المملكة المتحدة حمدا للرب على النصر الذي تحقق في الصحراء الغربية. وقد شاركت محافظة الإسكندرية في الاحتفالات البريطانية وأعلنت عن عرضها (الذي لم يلق قبولا أبدا) بإطلاق اسم مونتجمري على شارع الراهبات.

وقد أدى هذا الانتصار إلى إعادة فتح البحر المتوسط لاستقبال الرسائل البريدية، وبذلك لم تعد الرسائل تستغرق شهورا طوالاً حتى تمر حول رأس الرجاء الصالح. إلا أن دوريل استمر في الصمت والامتناع بشكل كامل تقريبا عن الكتابة، وكان نادرا ما يكتب رسالة لأحد خلال مدة السنة والنصف الماضية، عازيا ذلك

إلى أن تأخر وصول الرسائل أمر لا يشجع على كتابتها. ولم يكن هناك ما يضاهي سلسلة الخطابات العديدة التي بعث بها إ. م فورستر التي كانت تقدم مذكرة يومية تقريبا بكل خبراته وتجاربه. وقد أدت عوامل الحرب ونفى دوريل عن اليونان وما يعانيه الآن من نهاية علاقته الزوجية، إلى جعله فاقدا للإحساس ومشتتا، يقول: "كنت في تلك الحالة المذهلة طوال الوقت الذي عشته هناك".^(٧٠)

وكان الصديق هنري ميلر على وجه التحديد هو الشخص الذي تجنبه دوريل في كتاباته. وتعود بداية صداقتهما إلى عام ١٩٣٥، فبعد عودته من كورفو بأشهر قليلة، قرأ دوريل رواية مدار السرطان أو "Tropic of Cancer" التي ألفها ميلر، وكتب فيها رسالة إلى مؤلفها في باريس، ورد عليه ميلر بقوله: "خطابك يشي بنشاط وحيوية كبيرين حتى إنني أريد أن أعرف ما إذا كنت أنت أيضا كاتباً أم لا".^(٧١) وكان استفسار ميلر المفعم بالإطراء والمدح وكذا المراسلات التي أعقبته مشجعا للغاية بالنسبة لدوريل، الذي نظر إليه على أنه يتجاوز كونه كاتباً. وكان ميلر وقتها يبلغ من العمر ٤٣ عاماً، أى يكبر دوريل بمقدار عشرين عاماً، الأمر الذي جعل دوريل يتخذه أباً له، أو "كأحد أعمامه" كما تحدث دوريل نفسه عن ذلك بقوله: "كان مفعماً بالقوة والحماس، الأمر الذي يجعله خير موجه لأحد الشباب".^(٧٢) وسرعان ما بدأ دوريل في العمل في روايته الكتاب الأسود أو "The Black Book" التي يقول عنها "هي كتابي الحقيقي الأول".^(٧٣) وفي عام ١٩٣٧، قام بإرسال نسخته الوحيدة من المخطوط إلى ميلر. ومن جانبه وصف ميلر عمله بأنه "عمل أدبي ضخّم"^(٧٤) وبأنه "حدث هام في حياتي".^(٧٥) ومنذ لقائهما الأول في باريس في وقت لاحق من ذلك العام، حاول دوريل أن يقنع ميلر بزيارة اليونان، وهو ما فعله ميلر في صيف عام ١٩٣٩. وقد قدم ميلر سجلاً لمغامراته في اليونان في كتابه

الذى يحمل عنوان ميروسى "Colossus"، الذى يعد أحد أفضل الكتب التى تمت كتابتها فى اليونان.

والآن، وبعد أن علم من صديقه جورج سيفريس بفرار دوريل من مدينة كالاماتا اليونانية إلى مصر، كتب ميلر مرات عديدة إلى عناية السفارة البريطانية فى القاهرة. وأخيرا، تلقى خطابا من دوريل بتاريخ ٤ يوليو، ووصل رده إلى مصر فى وقت ما من حرب العلمين الثانية. وكتب له يقول: "إن، فأنت لا تزال على قيد الحياة! عظيم"، وفيما يتعلق بالأنباء التى تقول بأن نانسى وبينيلوب قد فرا إلى فلسطين فى أثناء الضربة، فهذا شيء لا يصدق عقل. كم أحسبكما! وكم أتمنى لو تم إرسالى إلى فلسطين أو سوريا أو مدينة تيمبوكتو أو القاهرة. وأقسم أننى لم أمانع التعرض للأذى والقاذورات أو الإصابة بالمرض أو التعرض لأى شيء آخر. وقد بدا الأمر بالغ الثراء بالنسبة لى، ذلك العالم الذى تعيش به، بل وحتى الحروف المجنونة، بل حتى طوابع البريد تبدو مثيرة للاهتمام.

وقد وصل ميلر الذى عاد إلى الولايات المتحدة مع اندلاع الحرب، إلى هوليوود، "أرض اللوتس"، وهو المكان الذى بحث فيه عن عمل فى السينما، واتصل بالمؤلف ألدوس هاكسلى، وكان على وشك لقاء المخرج الفرنسى جين رينوار، ويقول: "وأنا صديق حميم لابنة مارلين ديتريتش (الممثلة الأمريكية الألمانية الأصل)" - التى كانت لتوها قد بلغت عامها الثامن عشر. ويستحق هذا الأمر خطابا آخر. "وفى أستوديوهات وورنر برازرز" أصبت بضربة شمس فى يوم ما وأنا أمر عبر شوارع الأفلام الصناعية فى الدار البيضاء" وقد أوصى بأن يشاهد دوريل فيلم "الصقر المالطى" قائلا: "فيه ممثل إنجليزى رائع اسمه جرينستري، إنه ممثل عملاق!"^(٧٦)

وقد جاء الخطاب مجدداً آلام دوريل، ليس فيما يتعلق بفقدته لزوجته وابنته وحسب، بل عن عالمه اليونانى الذى أثاره إشارة ميلر إليه بأنه "عملاق". وقد تلقى كتاباً لكنه لم يستطع أن يقر بكتاب "Colossus of Maroussi" الذى كان قد تم نشره حديثاً فى فصل الربيع، وصورته وثيقة الصلة صديقه جورج كاتسيمباليس فى أثينا، الذى بعد راويا رائعا. وقد تقابل ميلر مع كاتسيمبالى عبر ثيودور ستيفاند، الذى كانت أعظم هداياه إلى دوريل تتمثل فى تقديمه للحياة الأدبية والفكرية فى اليونان. وكانت مدينة كورفو بالكاد تشكل موقعا مختاراً لبدءاً منه هذه الرحلة، حيث إنه بعد سقوط القسطنطينية، لم تنتقل الجزيرة إلى اليونانيين؛ بل انتقلت إلى الفينيقيين، ومن ثم حافظت على خليط من العالم القديم بالبحر المتوسط، واتسم أهلها بطابع عالمى وتتبع أصولهم التى ترجع إلى أصول استعمارية بيزنطية ونورمانية ويونانية ورومانية. وفى ظل الحكم الحميد، حكم البريطانيون من عام ١٨١٥ إلى عام ١٨٦٤، أصبحت مدينة كورفو هى مقر الميلاد للنهضة اليونانية، خاصة بعد عام ١٨٢٤، عندما أسس الفلهيليني ("المحب للإغريق المطالبين باستقلال اليونان عن الدولة العثمانية) لورد جيلفورد الأكاديمية الأيونية التى جذبت مؤسسى الشعر اليونانى الحديث، من رجال أمثال كالفوس وسولموس، الذى قام بدوره بإلهام كوستيس بالماس (١٨٥٩-١٩٤٣)، الذى كان من بين أتباع كفافيس وكان ستيفانيدس وأصدقاؤه مخلصين لهم.

وقد كان من بين هؤلاء الأصدقاء كاتسيمباليس وجورج سيفريس.^(٧٧) وأعلن ستيفانيدس وكاتسيمباليس عن حكومة فينزيلوس المؤقتة فى نيسالونيكى فى نفس اليوم من عام ١٩١٦، وقد حاربوا معا فى جبهة البلقان بعد دخول اليونان الحرب العالمية الأولى. وفى وقت لاحق، حارب ستيفانيدس أيضاً الأتراك خلال حملة آسيا الصغرى الكارثية، فى حين كان سيفريس نفسه أحد المواطنين اليونانيين من

آسيا الصغرى الذين ولدوا وتربوا فى سميرنا. وبوصفه أحد أتباع حركة الثائرن
إلفثاريوس فينيزيليز وأحد المفكرين، فقد كانوا جميعا ملتزمين بإعادة ميلاد اليونان
على الصعيد الثقافى.

ومع تدهور الآداب الإغريقية فى الإسكندرية، تركز النشاط الأدبى فى أثينا،
حيث قام "كاتسيمبالس" إبان السنوات ١٩٣٠ وما بعدها بتحرير دورية تسمى
(آداب جديدة، استعادة إبداعات ستيفين بارجاس)، والتى تقوم بنشر أعمال الشعراء
الجدد الواعدين من أمثال "تيكوس جيتوس"، "أنجيلوس سيكلانوس"، "أوديسوس
إليثاس"، و"سيفرس" نفسه، ولكن "كافافى" بدا أنه بعيد عن تجربتهم: قال "سيفرس"
لم أكن متحمسا بالنسبة لـ"كافافى" فى ذلك الوقت، أو ليس هو بالذات، على الرغم
من أنه كان يراه يمثل إضافة لصرح "مختارات من الأدب الإغريقى" كان رد فعلى
بفتور أدبياً.^(٧٨) كان "كاتسيمبالس" يعمل فى مهمة إنجاز ثبت بالمراجع التى
تحدث عن مؤلفات "كافافى" عندما قابل الشاعر فى عام ١٩٣٢، وبتوقيت ملائم
فى "فندق أثينا كوزموبوليت" حيث كان "كافافى" يتعافى من عملية جراحية عقب
إصابته بسرطان فى الحنجرة والتى تسببت فى موته فى العام التالى، قال له
"كافافى": "كن على حذر بحق الله ولا تذكر أن هذا هو كل ما كُتب عن "كافافى"
فستقوم بتعريض نفسك للامامة لأنك لا تعرف باقى ما كُتب عنى وهنالك الكثير
جداً يا "كاتسيمبالس".^(٧٩)

وكان "كافافى" على حق فى القلق على سمعته الأدبية فى اليونان، حيث لم
يكن معروفاً إلا بالكاد كما لم يكن الكثيرون يعيرونه الاهتمام. قام كل من
"كاتسيمبالس"، و"ستيغانديس" بتحرير وترجمة "أشعار كوستيس بالاميس" فى عام
١٩٢٥، و"أشعار يونانية حديثة" فى عام ١٩٢٦، والتى كانت تحوى مقطوعة
شعرية واحدة فقط للشاعر "كافافى" (ترجمة متكلفة للمقطوعة الشعرية أثيكاس)،

وأربع مقطوعات شعرية للشاعر "ستيفانديس" وخمس مقطوعات للشاعر "كوستيس بالاميس"، وكانت تحمل إهداءً يقول "إلى كوستيس بالاميس أعظم شعراء اليونان في العصر الحديث". كما ذكر "دوريل" أنه سبق أن تعرف على "كافافي" من خلال ترجمة "كاتسيمبالس"، و"ستيفانديس"،^(٨٠) ولكنه في ذلك الوقت كان أكثر إعجاباً بأشعار "كوستيس بالاميس" وليس "كافافي".

هناك سبب هام يمكن فهمه عن سبب قيام أصدقاء "دوريل" من أدباء اليونان بإسقاط "كافافيس" من الاعتبار، وذلك بمقارنة وصفه للمدينة التي لا مهرب من أطلالها السوداء، ووصف "بالاميس" للمدينة في قصيدته الرائعة "الاثنتا عشرة كلمة للعجبر"^(٨١).

وروحك أيتها المدينة الملعونة

لن تذوق للراحة طعاماً

وستهبط سلم الشر

درجة بعد أخرى

وأينما تذهب... أينما تتوقف

ستجد جسداً أسوأ تحل به^(٨٢).

المدينة التي يعنيها "بالاميس" هي القسطنطينية والتي سقطت في أيدي الأتراك في عام ١٤٥٣ وكانت بالنسبة له أيضاً المدينة التي ترمز لسقوط الإنسان، ولكن شعره ليس بالشعر الذي يقوم بإنقاذ الذاكرة والأحاسيس من التخريب والسقوط، ولكنه يقوم بتجميع ذاكرة التاريخ عن طريق تجميع تفسيرات للعالم الداخلي والخارجي من منظور الدراما الخارقة للطبيعة، والدراما الخارجية لإعادة بعث الثقافة يمكن تحقيقها عن طريق الدراما الداخلية للتطهر الروحي، بعد المرور

بسلسلة من الإنكار فإن المدينة وروح الإنسان يتلمسهما الحب، فينبذان الشر ويُبعثان من جديد كباقي الكائنات كالحشائش، والطيور، وشدى المرأة، ووحدة الوجود، والاحتضان والأنثى.



لورانس "داريل" جالساً في مكتبه في "مكتب الاستخبارات البريطاني" بالإسكندرية، يوم ٢٣ أغسطس ١٩٤٣، على ظهر الصورة الأصلية والتي أرسلها إلي صديقه "ماري هونور" بالقاهرة كتب دوريل يقول "لورنس دوريل العظيم محاطاً بموظفي مكتبه: مس فيلبوت، مس باتس، ومستر أكسيلوس.

تم إثارة عواطف كامنة في قلب "داريل" الذي شعر أنه أصبح حطاماً ضائعاً عندما تأثر بشوق "بالاميس" الشديد لإعادة البعث والتوحد حيث تكمن الإجابة كما يقول "بالاميس" عن القوى الخالقة الكامنة في الشعر، افتداء العالم عن طريق تأكيد الحياة، وهي العملية التي تتطلب منه أن ("يشعر" وأن "يعاني" وأن "يقبل").^(٨٣) فقط من خلال "حرب ضروس"^(٨٤) عن طريق كتابة "الكتاب الأسود" استطاع "دوريل" أن يقوم بإنقاذ روحه من "الموت الإنجليزي"، وأن يقتفى أثر وصفة "بالاميس" بأن "يشعر".

ولم يلبث دوريل أن انتهى من كتابه "الكتاب الأسود" حتى كتب إلى "ميللر" في يوليو ١٩٣٧، كيف قرأ أفضل أعماله: "قمت بالتخطيط لهيكل الصراع بين شخصيات المسرحية، والعنصر المثير للشفقة، ثم الوصول إلى الحل في عقدة الرواية" ^(٨٥) (الصراع، والمعاناة، ثم القبول)، موضحاً بأن الحكمة في كتابه كانت "الكتاب الأسود"، بينما الحل لعقدة الرواية يقع بعيداً عن "كتاب المعجزات" ^(٨٦)، ولكن ما بعد ذلك سوف يكون العنصر المثير للشفقة والذي يشير إليه فيما بعد باسم "كتاب الموت"، وسيتم تطويره في النهاية ليصبح "رباعية الإسكندرية"، وأصبحت الإسكندرية بالنسبة لـ "دوريل" مثلما كانت "القسطنطينية" بالنسبة لـ "بالاميس" ^(٨٧).

كتب "ميللر" مرة أخرى في ٢١ نوفمبر ١٩٤٢ لدوريل، يهنئه بأعياد الكريسماس، وأضاف قائلاً: "أخبرني عن أي شيء بخصوص علاقتك مع نانسي، كيف يمضي بكم الأيام معاً، أما زلتما تتبادلان عبارات التوبيخ القارصة. لم يقم "دوريل" بالرد على خطاب "ميللر" المؤرخ ١٥ سبتمبر، كما لم يرد على هذا الخطاب أيضاً، كما أنه لم يكتب له مرة أخرى لفترة تزيد عن العام.

يتذكر "دوريل" قائلاً: "بالنسبة لمعظم الناس فإن الإسكندرية هي مجرد مدينة مملة يمكنك فيها فقط أن تجد مكاناً طيباً للاستحمام والكثير من المطاعم الفرنسية التي يمكن أن تتصح الآخرين بارتياحها، ليس هناك أي شيء لتشاهده! إن المشاهد كلها تتكرر إلى ما لانهاية" ^(٨٨) ولكن "جويان ويليامز" كان ينظر إلى الأعوام الاثنتي عشرة التي قضاها في القاهرة كأعوام من الملل تخللتها بضع لحظات من المرح، وهي بقعة مملة خرجت منها إنساناً مختلفاً ^(٨٩). لم تكن فقط تجربة لزواج غير سعيد هي التي وصمت تلك الفترة بالملل، فقد كان يعرف القليل من اللغة العربية، كما أحب المناطق الريفية للفلاحين، ولكن لم يعر الكثير من الاهتمام للمدن المصرية، أو للقاهرة، والتي لم يحاول اكتشافها إلا بأقل مما حاول في أي مدينة

أخرى عاش فيها" (٩٠)، على حين صدمته مصر الفرعونية ببرودها ولا إنسانيتها فهي: "مقزرة للنفس وتتسم بالسخافة". (٩١) ولم تكن الإسكندرية تمثل له المهرب من كل ذلك فحسب ولكنها أعادته إلى ينبع ثقافته الخاصة.

كان "جويان ويليامز" محاضراً في جامعة فؤاد بالقاهرة، بينما كان "روبن فيرنس" أستاذاً للغة الإنجليزية فيها، كان "جويان ويليامز" يذكر دائماً أنه مدين بالكثير لـ "روبن فيرنس" والذي هداه إلى طريق مقتطفات الأدب اليوناني بما في ذلك ترجمته الخاصة لـ "كاليماخوس"، ثم قام بتمهيد السبيل لانتقاله إلى الإسكندرية وتأمين إمامه بشعر "كفافيس"، وكتابي "فورستر" عن المدينة والتي اكتشف "ويليامز" أنها قامت باختصار الزمن بين عصرنا وعصر البطالمة في الماضي". (٩٢)

كان من المستحيل تقريباً الحصول على نسخ من الطبعة الأولى لكتاب "فورستر" عن الإسكندرية، كما أن الطبعة التي صدرت عام ١٩٣٨ كانت أيضاً من النادرة بمكان، غير أن "دوريل" استطاع عن طريق سلسلة من المحاولات والحيل الخادعة (٩٣) أن يحصل على نسخة من الطبعة الثانية وهي الطبعة التي صدر منها ٢٥٠ نسخة فقط لأعضاء جمعية الآثار.

تم إعداد "دوريل" للانطلاق إلى الإسكندرية عن طريق رئيسه "والتر سمارت" مستشار المندوب السامي، وفي صيف عام ١٩٤١، وبعد أسبوع واحد فقط في مقر عمله مراقباً للمطبوعات الأجنبية بالسفارة البريطانية بالقاهرة، حضر إلى مكتبه "سمارت" قائلاً: إنه وزوجته يريدان التحدث إليه عن شعره. وقاما بدعوته إلى منزليهما في ذلك المساء، كان آل "سمارت" يعيشون في الزمالك، وهو حي سكني راقٍ يقع في جزيرة يتم العبور إليها من وسط القاهرة، كان منزلهم يزخر

بالسجاجيد الإيرانية الفاخرة والخزف والكتب والمخطوطات بمختلف اللغات الأوروبية والشرقية بما يقرب من ست لغات، كما أن الحوائط تزينها لوحات فنانين من أمثال "بيكاسو"، و"سيلفادور دالي"، و"دوميه" موزعة على جوانب الجدران مع قليل من اللوحات الزيتية الملونة الكبيرة الحجم "لأمي". لتحفظ "سمارت" وما كان "جرافتي سميث" يطلق عليه جوهر عقليته الذكية التي تنتمي إلى الأفلاطونية الحديثة، جلبت أمي كمًا وافرًا من التحف الغربية في كل مجالات الفن والأدب والنشاط الاجتماعي لتجمع الكثير من المشاهير والمبدعين في منزلها بالقاهرة. ومن المحتمل جدًا أنها قامت بقراءة أشعار "دوريل" وقامت بإرسال "سمارت" إليه حاملًا دعوتهما، كما أنها قامت باحتضان "تاتسي" عندما اكتشفت أنها رسامة وأنها مثلها من خريجي "مدرسة سلال للفنون الجميلة" (٩٤).

أصبح الرجلان صديقين لمدى الحياة من ذلك المساء الأول الذي قضياه معًا عندما جعل "سمارت" "دوريل" قريبًا منه وأخذ يحكى له كيف أنه ذهب لزيارة "كفافيس" في "شارع كلايسوس" منذ ١٥ صيفًا مضت، وقد كان مما أصابه بالدهشة آنذاك طبقًا للشائعات التي تناثرت في الإسكندرية أنه رآه اتجه لباب المدخل الخطأ (٩٥). كما كانت "أمي" مهتمة بـ "كفافيس" كما سوف تسهم بعدها في ترجمة أشعاره وتضعه في كتابها "مشاهد شخصية". ساهموا جميعًا شأنهم شأن أصدقاء "دوريل" الآخرين في تقديم أسطوره الخاصة وسيظهرون في أشكال متغيرة في صفحات كتابه "رباعيات الإسكندرية". سيجعل دوريل "والتر سمارت" سفيره الخيالي في الكتاب تحت اسم "دافيد مونتلایف"، وسيقترب جزئيًا من "أمي" نمير من أجل "ليلي حسيني" الحب الكبير لأيام الشباب لشخصية "دافيد مونتلایف" في مصر، وهي الشخصية التي استوحاها "روزيت دي مينيسي" باسم "ماتريارك" لعائلة "حسيني".

تم تدعيم معرفة "دوريل" بـ "كفافيس" عن طريق صديق آخر لـ "سمارت" وهو "روبرت ليدل" والذي كان بالفعل يسترجع آثار الشاعر من خلال المدينة وسيقوم مستقبلاً بكتابة سيرة حياته. وعلى الرغم من أن جامعة فاروق تم افتتاحها رسميًا في سبتمبر ١٩٤٢، فإن طليعة المحاضرين كانوا هناك من العام الذي قبله، وكان من ضمنهم "ليديل" والذي كان يقوم بالتدريس في المركز البريطاني في "أثينا". كان الهروب من "أثينا" إلى القاهرة بالنسبة لـ "ليديل" الذي كان قد ترعرع في القاهرة ويعرف فيها كل من "سيفيرس"، و"دوريل" على الأقل تعويضًا عن العودة إلى وطنه، ولكنه لم يقم بزيارة الإسكندرية حتى مايو ١٩٤١ عندما ذهب لوداع "سيفيرس" والذي كان يشغل موقع مدير مكتب الصحافة الأجنبية في وزارة الإعلام في "أثينا"، وكان في سبيله إلى الانتقال إلى "جنوب إفريقيا" حسب أوامر "حكومة اليونان" في المنفى والموجودة في القاهرة.

ساروا جميعًا تحت ضوء القمر الذي يجعل المكان عُرضة للقصف بالقنابل في ربوع الحى الذى يقطنه "كفافيس"، ومعهم "تيموس مالينوس" كدليل مرشد لهم. قال "مالينوس": "هنا وقع في الحب"، وهو يشير من خارج منزل فى "رو ليبسوس"، و"هنا مات" ثم أشار إلى مبنى المستشفى اليونانى السابق، الذى أصبح آنذاك "نادى أسطول القوات البحرية"، وهنا قرأوا الصلوات على روحه" وكانوا بالقرب من أبواب كنيسة القديس سابا"، تركت هذه الرحلة انطباعًا هائلًا على "سيفيرس"، كان قد هرب من اليونان منذ زمن ليس بالبعيد إلى "كريت" ومنها حينما سقطت أيضًا، وبينما هو يسير قُدماً فإن الحى الذى يكتفئه الظلام (خشية الغارات الجوية) هو الحى الذى يقطنه "كفافيس"، وقفز إلى ذهنه أولئك الذين قاتلوا من أجل "اتحاد الأخائيين"، ربما لأن الهزيمة أتت به إلى مدينة البطالمة مثل "الأخائيين" فى الشعر، وأخذ يهمس بالمقطوعة الشعرية بأكملها لنفسه، ولكن عندما وصل إلى لب القصيدة وخاتمها:

كتبها أحد الأخيائيين^(٥) فى الإسكندرية

خلال السنة السابعة من حكم "بطليموس لاثيروس"^(٦).

أدرك "سيفيرس" ولأول مرة أن القصيدة كتبت فى عام ١٩٢٢ عشية الكارثة التى وقعت فى "آسيا الصغرى"، ووجد نفسه يعيد كتابة الخاتمة ليجعلها:

كتبها أحد الأخيائيين فى الإسكندرية

فى العام الذى ثمرت فيه سلالتنا^(٧).

"سيفيرس" لم يعد ينظر إلى "كفافيس" كشاعر مغمور بينما كانت بعض أشعاره المتباعدة تضيف بفتور بعض اللبانات إلى صرحه "مقتطفات مختارة من الأدب اليوناني"، ولكنه كإنسان حى ومعاصر يقوم بإضافة تعبيرات موجزة عن مشاعره بخصوص المأساة غير المحتملة لشعبه.

اجتثت مأساة "آسيا الصغرى" جذور معاناة "سيفيرس" سواء كرجل أو كيونانى. وهناك وأمام خلفية من ملاحم "هوميروس"، ورحلات الأرجنوتس، وزحف الإسكندر، ومع مناظر طبيعية مليئة بالمعابد التقليدية، والكروم، والزيتون، والكنائس البيزنطية، كان يتم دفع اللاجئين للسير فى طرق لا نهاية لها، ويتم ذبحهم، أو دفعهم قسراً إلى معسكرات الاعتقال، أو يقومون بإلقاء أنفسهم فى سفن مكتظة عن آخرها وبأكثر من حمولتها من البشر، ببوتهم تلتهمها النيران، وحياتهم حطام، عالمهم تم تحطيمه. كانت بالنسبة لـ "سيفيرس" أكبر كارثة يمكن تخيلها حتى سقطت اليونان نفسها، كما كانت نذيراً للياس والمأساة المعتادة التى تكتنف أوروبا بأسرها.

(٥) الأخيائيون: سكان أخيا Achaea فى اليونان، مع أن كلمة أخيا أو أخياى قد تغيرت مع مرور الزمن (المراجع).

يمكنه من خلال "كفافيس" فى الإسكندرية أن يظل يستمع إلى صوت الإغريقية، صوت السلالة التى كانت رغم كل الهزائم والنفى عصية على الإبادة، قال "كفافيس" : "إننى لست يونانياً، بل إغريقي" واحتضنه "سيفيرس" عندئذ^(٩٨).

عندما عاد "ليدل" إلى الإسكندرية بعد أشهر قليلة ليتولى مهام عمله كمحاضر فى الجامعة الوليدة، بدا "كفافيس" بالنسبة له يمثل عبقرية وروح المكان.

ما زالوا يحتفظون بذكرىات معه فى مكتبة، وفى مطعم يونانى صغير أخذوا يتذكرون ماذا كان يحب أن يأكل، والمقهى المفضل بالنسبة له والواقعة فى شارع المسلة (وأعيد تسميته باسم شارع صفية زغلول وهى زوجة الزعيم الوطنى)، كما قابل أصدقاء "كفافيس" القدامى الذين أخذوا يقصون عليه الأفاصيل عنه مع القليل من الفضائح، ويقومون برسم الأشكال الكاريكاتيرية عنه على ظهور الأظرف، وعلب السجائر ويحاولون القيام بتقليد ملامحه، كما يحاولون القيام بمحاكاة صوته العجيب والسحر الذى يكمن فى استطراداته فى كل الأوقات والأماكن التى يبدو من خلالها وكأنه استحضر وطنه إلى الإسكندرية، بدأوا يتذكرون ما كان يقوله "كفافيس" عندما نقول "الموعد" فإننا نعنى أنفسنا. معظم المختصرات التى كانت تتردد بيننا كانت عبارة عن أسماء مستعارة.. "الموعد" نعنى بها نحن^(٩٩) من خلال شخصية "كفافيس" البارزة استلبت الإسكندرية لب "ليدل"، وصارت واحدة من المدن التى استولت على قلبه^(١٠٠).

كان "جاستون زنانيري" من بين أصدقاء "كفافيس" الذين قابلهم "ليدل" والذى كان يحاضر فى الشعر و"ريكا سينجوبولس" وزوجها المحامى "ألكسندر سينجوبولس" وكان مُتفً وصاياه بالنسبة لأدبه كما قام بإطلاعه على بعض الأثاث الذى كان يخص الشاعر، وما تبقى من مكتبته. قال "جاستون زنانيري": "إننى لم

أثائر بالسيد "ألكسندر سينجوبولس" على الإطلاق، ولكننى انبهرت بزواجه السيدة "ريكا سينجوبولس"، والتي كانت تشبه "بينلوبى دلتا" وهى سيدة رفيقة وذات ذكاء غير عادى، كانت "ريكا" هى المؤتمنة على أسرار "كفافيس" والمقربة إليه بدءًا من عام ١٩٢٦، حينما تزوجت "ألكسندر سينجوبولس"، واستأجرا شقة تقع تحت شقة الشاعر مباشرة فى ١٠ شارع لייوسوس وهناك حيث تقابل أصدقاء "كفافيس"، ومن بينهم "فورستر" حينما عاد إلى المدينة فى عام ١٩٢٩، كما أنها ستقوم بكتابة مذكرات عن حياة "كفافيس" لم يتم نشرها، كما تقوم بتسجيل أقواله، وإدماجه فى المجموعة حتى يمكن تجنب خوفه من الوحدة والذى أصابه فى سنواته الأخيرة، وحينما تم تشخيص مرضه بسرطان الحنجرة كانت "ريكا" وزوجها هما اللذان اصطحاباه إلى "أثينا".

كانت كلماته الأخيرة هى التى لفظ بها إلى "كاتسيمبالس" بخصوص مؤلفاته، حيث إنه بعد إجرائه لعملية للقصابة الهوائية عن طريق شق الرقبة أصبح عاجزًا عن الكلام نهائيًا، ولذلك فإنه بعد أن عاد بعدها للإسكندرية أصبح يتواصل مع الناس عن طريق كتابة ما يرغب فيه على قصاصات من الورق، وفى ذلك اليوم من عام ١٩٣٣ والذى عبر فيه "كفافيس" الشارع قاصدًا المستشفى اليونانى وجدت "ريكا" حقيبة سفر فى شقته، واستطاعت أن تضع فيها ملابسه ولفافات تضم أشعاره، وعندما وقعت أنظار "كفافيس" على الحقيبة غلبته دموعه التى غطت وجهه، حاولنا أن نعيد إليه الهدوء فى هذه اللحظات التى يتمزق فيها فؤاده بينما هو يترك منزله للأبد.

تناول "كفافيس" قصاصة ورقية كتب عليها: "لقد قمت بشراء هذه الحقيبة منذ ثلاثين عامًا، وأنا فى عجلة من أمرى ذات مساء لأهرع إلى القاهرة من أجل المتعة" (١٠١)، وقالت "ريكا" وهى تعيد قصة تلك اللحظة كيف غادر "كفافيس" شارع

لييسوس "والآن يغادر وكأنه رجل كان يستعد لهذه اللحظة منذ فترة طويلة، رجل ممثلي بالشجاعة..."^(١٠٢).

قام كل من "ريكا"، و"ألكسندر سينجوبولس" بعد وفاة "كفافيس" بنشر الطبعة الأولى من أعماله، ولكن كان هنالك الكثير من مسودات الأوراق من كل حجم ونوع، بعضها صفحات تم انتزاعها من كراريس التكريبات، وأخرى من قصاصات ورقية غير منتظمة، كان "كفافيس" يكتب عليها بعجالة وبغير وضوح ملاحظات مبتسرة بشدة وكأنها مشفرة باللغة الإنجليزية، بعضها كما يتذكر "جاستون زنتيري" بعد أن كانوا يستلون خلسة خارجين من بعض المطاعم اليونانية، كان "ريكا سينجوبولس"، وزوجها "ألكسندر سينجوبولس" يرغبان في فك شفرتها، ولذا فإنهما منحا حزمة من هذه الأوراق لصديق آخر من أصدقاء "كفافيس" وهو "مايكل بيرايديس" ليقوم بتوصيلها إلى "جويان ويليامز" ليقوم بفحصها. كانت بعض هذه الأوراق تشير إلى حياته وميوله المثلية، على حين حملت بقيتها الدهشة "ويليامز" - المسودات الأولى لأشعاره مكتوبة بالنثر الإنجليزي، والتي كان "كفافيس" سيعيد كتابتها شعراً باللغة اليونانية.

أقسم "جويان ويليامز" في الحفاظ على سرية الأمر، ولكن التجربة قامت بإثراء محادثاته ومشاركته للأحاسيس مع كل من "ليدل"، و"دوريل" بأن وجود "كفافيس" لا يزال ملموساً في المدينة، كتب "ليديل" في إصدار من إصدارات "لمحات شخصية": "قبل كل الأشياء الثمينة التي تمتلكها الإسكندرية، الأشياء الجميلة في الميسون (المتحف)، القديسون والشهداء، و"بومبي"، وأنطونيو أو "كليوباترا"، فإن الأعظم حقيقة هو الأقرب إلينا، والذي يشغل جل فكرنا"، وترددت صدى كلماته في الحى عندما كتب عن الأشخاص الذين يمكن عدهم من القدوة في المدينة "كفافيس"، و"الإسكندر"، و"كليوباترا" وجعل الشاعر فخراً للمدينة.

شعر "دوريل" أنه قادر على إعادة تجربة معاشة المدينة بالاهتمام الذي يجده حوله، والاسترشاد بنسخة مجلة الإسكندرية في التعرف على المدينة شأنه شأن كل من "فورستر"، و"كفافيس"، وبطريقة سحرية فإنه لم يحدث أى جديد يمكن إدراكه (مع التغاضى عن حقيقة أن طبعة دليل الإسكندرية تم تحديثها)، التغيير الحقيقى الوحيد كأقصى ما أستطيع الحكم عليه كان هو المقعد الخالى فى المقهى المفضل للشاعر الراحل، ولكن حلقة الأصدقاء المقربين ظلت كما هى لم تنفصم عراها، رجال مثل "مالانوس"، و"بيتر ايدس" سيكتبون فيما بعد كتباً عن صديقهم المنقرض، كما أنهم سيثيرون بطرف خفى إلى المدينة الغامضة التى تختفى تحت ستار الحياة اليومية العادية المبتذلة. (١٠٢)

غادر "دوريل" فيلا "جويان ويليامز" التى يقع على تل "أبو النواظير" فى منطقة "رشدي" فى وقت ما من الخريف أو الشتاء عقب معركة العلمين، وطبقاً لما قاله "روبرت ليدل" فإنه انتقل إلى الأنفوشى على الكورنيش وأمام البحر مباشرة تجاه قلعة "قايتباي" فى نهاية الميناء الشرقى. (١٠٤) يقع خلفها مباشرة شارع التتويج، بها العديد من المباني التى تتميز بأسلوب فنى أوربى للديكور كان شائعاً فى أوروبا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مما كان يعطيها مظهرًا أوروبياً، ولكن الشارع كان يقف حدًا فاصلاً بين عالمين مختلفين، خلف شارع التتويج كان يقع الحى العربى الذى كان "دوريل" يطلق عليه اسم "قاع المدينة"، حيث إن الحى يُعد مدخلاً لعالم بدائى: "عُثْنَا أدرأجنا ودخلنا إلى حى الفقراء المكتظ بالسكان الذى يقع خلف شارع التتويج، كانت مصابيح السيارة الأمامية تقع على مقاه تشبه مستعمرات النمل، المربعات السكنية المكتظة عن آخرها بالسكان تشع متألفة بشكل غير معتاد، ومن مكان ما فى الأفق القريب ومن بين البيوت المتداعية تأتينا صرخات عالية وعويل صادر من موكب جنازة"، من هنا ومن خلف

مواخيرها كانت "جوستين" تبحث عن ابنتها المختطفة كما لو كانت "ديميتر" آلهة الزراعة عند الإغريق تبحث عن "بيرسفون" زوجة حارس وملكة عالم الإجرام،^(١٠٥) وهنا بدأ "ماونتو أوليف" ثملاً باحثاً عن الإلهام غارقاً بنفسه فى بقايا ذكريات عريضة.

ولكنه لم يكن كابوساً، فهو عالم شاذ، وجمعيات كوميدية قام بخلقها "سكوبي"^(١٠٦) وهو تاجر وبحار سابق فى السبعينيات من عمره، أحياناً يجد لذته فى ارتداء ملابس الجنس الآخر، وهو المدير المحلى للمخابرات البريطانية يوصف بأنه يقطن فى شارع التتويج فى ضاحية من ضواحي الرذيلة فى المدينة، فى حبرتين متداعيتين.^(١٠٧) يسير فى الحى ويقابل بهالة من الاحترام والعواطف الجياشة، يقوم بقتل جيرانه عن طريق كميات هائلة من الشراب، وتم الاحتفال به كقدیس من الأقباط يتم توقيره من الأقباط والمسلمين على حد سواء.

تصوير "دوريل" بقلمه لشخصية "سكوبي" الحقيقى كان لمن يدعى "جوزيف ماكيفرسون"، أو "اليوزباشى ماكيفرسون" كما كان يُعرف عموماً بالنسبة لرتبة الرائد التى كان يحملها فى عمله بوزارة الداخلية المصرية التى كانت تحت الحماية البريطانية، بينما بدأ فى الفترة التى تلت الحرب العالمية الأولى مباشرة يمثل القائم بأعمال رئيس البوليس السرى، وبعد تقاعده ظل مقيماً بالقاهرة، حين قام كل من "دوريل"، و"تانسى" بدعوته ليكتشفا أنه رجل سهل الانقياد وعجوز، يقارب السادسة والسبعين من العمر، له عيون متألقة بشكل غير عادى، وابتسامة أسرة.^(١٠٨) وبصرف النظر عن ميول "سكوبي" (بالنظر من الشرق إلى الغرب عبر هذا الدلتا الخصيب ما الذى يمكن أن أراه؟ أميال وأميال من الأراضى السوداء النقية)^(١٠٩) الشخصية التى رسمها "دوريل" لقاطن شارع التتويج فقد تم استلهاه بوضوح من زيارته لليوزباشى الذى استقبل كلا من "تانسى"، و"دوريل" (كما استقبل "سكوبي"

كلا من "كليي"، و"دارلي") فى حجرة بسيطة، يزينها - ضمن ديكوراتها البسيطة - صليب أعلى سريره، وصورة للعدراء مريم، وصورة فوتوغرافية لأمه التى كان يحبها بشدة. ("الصليب المتهرئ على الحائط خلف سريره...وبالقرب منه كانت معلقة صورة صغيرة للموناليزا، والتى كان سحر ابتسامتها الغامضة تذكر "سكوبي" بأمه دائماً").^(١١٠) كان "ماكيفرسون" - وهو شخصية غريبة الأطوار - مستغرقاً فى التفكير وضل طريقه ونسى الهدف الذى كان يسير من أجله وهو يركب بغلته البيضاء التى تحمله عبر شوارع القاهرة، وهو المنظر الذى حبه لجيرانه المصريين الذين وصفوه بأنه أحد المريدين الذين يمكنهم التنبؤ بالمستقبل.

كان "ماكيفرسون" من المولعين بمشاهدة الموالد، وهى الاحتفالات التى تتم فى ذكرى ميلاد بعض رجال الدين المقدسين سواء كانوا مسلمين أو أقباطا، والذين يتم الاحتفال بهم على مستوى الفلكلور الدينى، إله فرعونى يتحول إلى قديس مسيحى ثم يعود فيبرز كشيخ مسلم. قبل أن يقوم بنشر كتابه الكلاسيكى "موالد مصر" الذى يقوم فيه بالوصف والتعليق بطريقة بهيجة على الاحتفالات، المقدس، والتقليد الساخر، ظل طوال حياته يؤم هذه الشئون المقدسة، وأكشاك الختان، وأجنحة الوشم على الأجساد، والرقص، والألعاب النارية، والمصلين، وعروض العرائس المتحركة، ومواكب العاهرات، وأهدى نسختين من الكتاب لكل من "دوريل"، و"تاتسي". كان الإلهام الذى استقاه "دوريل" من الرجل أكثر من ذلك الذى استقاه من كتاب "اليوزباشي" فى وصفه للأحداث العاصفة فى الموالد والتى كانت طوبوها والأهازيج المصاحبة والموسيقى الصاخبة فى خلفية وصفه للمدينة الأوربية فى كتابه "رباعية الإسكندرية".

كان هناك شخص واحد واطب "دوريل" على الكتابة إليه طوال وجوده فى مصر وهو الشاعر "ت. إس. إليوت" فى دار نشر "فاير أند فاير"، وقد كان ذلك

قبل كل شيء من قبيل العمل، تقبل "إليوت" في صيف العام الماضي المجموعة الشعرية "دوريل"، وكانت المجموعة كلها تقريبًا مكتوبة باللغة اليونانية، والتي سيتم نشرها تحت عنوان "بلد خاص" في نهاية عام ١٩٤٣.

يكتب "دوريل" الآن الشعر في مصر كما أن لديه خطته الأخرى التي تجرى مجراها، صرح "دوريل" في رسالة كتبها في فبراير ١٩٤٣ إلى "إليوت" يقول فيها: "إنني سعيد جدًا، وأتبع ذلك باعترافه الذي صرح به وهو خالي البال تمامًا لقد أصبحت زوجتي حقيقة أكثر إزعاجًا في هذه الفترة، ولكن بعيدًا عن مرض العصر الشائع هذا، فإنني هنا ما زلت أكبر فيما تبقى من عقلي فكرة كتاب جديد". (١١١)

كان "دوريل" في الحقيقة يعترف بالكاد بأكثر من ذلك إلى "إليوت" بأكثر مما يفعل بصمته حيال "ميللر"، لا يعترف بعمق مشاعره، ولا بأن كل شيء قد انتهى بالنسبة إلى "تاسي".

ولكنه في قصيدة شعرية تأملية أسماها الإسكندرية وتحمل طابع كتابتها في الشهور التي قضاها في الأنفوشي، حيث يقف "على صخرة نائمة في البحر وتداعب جسده حبات الرذاذ المتناثرة للمياه المالحة مع الأمواج التي تصطدم بالصخرة، صوت الترام يأتيه وكأنه الأنين في الظلام وكل ما أحببته"، كانت أفكاره مع "أولئك المحظوظين الآن الذين لديهم من يحبونهم أو أصدقائهم، والذين وصلوا إلى غاياتهم السعيدة ويتذوقون بهجة لم يعرفوها من قبل، في حين أسير أنا من إحباط لإحباط حتى وصلت إلى ما أنا فيه الآن". (١١٢)

عندما قام "دوريل" بفتح صفحات جريدة "إيجيبشيان جازيت" يوم ٨ إبريل ١٩٤٣ سيقراً أغرب تفاصيل لأغرب واقعة تحدث في الإسكندرية، حيث سيتم

عمل حفلة شاي فى "سراديپ كوم الشقافة" بالقرب من عمود الصوارى كاحتفال للذكرى الخمسين بتأسيس "جمعية الآثار":

وذلك كنوع من إحياء العادات الرومانية لتكريم الموتى عن طريق زيارة سراديپ الموتى فى مناسبتين هامتين هما "عيد الزهور"، و"عيد البنفسج"، كانت كل الحجات والممرات فى السراديپ مزينة بكمية غزيرة من الزهور، واللى تم تأمين إحضار المزيد منها من القاهرة، كانت أكاليل النباتات اللى تم ترتيبها فى تناغم جيد مع أكاليل الزهور فى المقابر المهمة تتألق على الجدران، أو تلتف على الأعمدة بحيث قامت بتشكيل مناظر جميلة ومؤثرة.

تم تقديم الشاي فى قاعة الطعام الرومانية وهى حجرة لها ثلاثة أسطح "Triclinium"، حيث كان القدماء وأصدقائهم وأقاربهم يجتمعون لتناول الطعام احتفالاً بموتاهم، وتم فرش البسط فوق المقاعد الحجرية الضخمة، بحيث يتكى الضيوف على الوسائد، وعلى الرغم من أن تأثير هذه المأدبة اللى أقيمت يوم الأربعاء كانت بعيدة جدًا عن جو الحزن الذى كان من المحتمل أن يقام فيه فى العصر الرومانى، فإنها استطاعت أن تجعل الحاضرين يشعرون بأحاسيس تلك الطقوس غير العادية فى تلك البقعة التاريخية الشائقة. (١١٣)

ألقى "جارج برينتون" رئيس الجمعية خطابًا باللغة الفرنسية قال فيه: "إن السنوات الماضية تميزت بأنها شهدت اكتشافات مثمرة بلغت نهضة حضارية مصغرة، وكان يشير إلى تعيين "آلان روى" مديرًا للمتحف الإغريقى الرومانى، بعد أن تم إقصاء "أدرياني" فى عام ١٩٤٠، عندما قامت إيطاليا بالهجوم على مصر. كان "روى" رجلًا يعشق العمل الميدانى، ولم يستغرق معه الأمر الكثير من الوقت ليغادر مكتبه فى المتحف وبدأ عمله الميدانى بحفرياته فى "كوم الشقافة"، حيث فتح

توابيت جديدة، كما وجد قطعاً من الجواهر الذهبية، وفي عمود الصواري حيث أمكنه أن يقوم بتحديد ما يمكن استئناف العمل فيه في ذلك الوقت، وكان موقع معبد "سرايوم"... كان يتم عبادة الإلهة اليونانية "دايونيسس"، كإلهة للعالم السفلى وكإلهة للحصاد كذلك.

طوال تلك السنوات التي كان "روو" يمارس فيها أنشطته والتي أبهرت أعضاء الجمعية، كانوا يقومون بزيارته في الغالب عند عمود الصواري، زيارات خاطفة في تعريشة مظلة يستخدمها كمقر رئيسي له. يصف "دوريل" في كتابه الأول من الرباعية والمسمى "جوستين" المرور من خلال خنادق مقفرة، ومتاريس متناثرة بواسطة علماء الآثار وذلك لحضور اجتماع للجماعة. هؤلاء الذين يتوقون إلى العلم القديم بحثاً عن إمطة اللثام عن أسرار القدماء: "اجتمعت المجموعة في هذا الوقت فيما يشبه الكوخ الخشبي الذي يبدو أنه كان مخصصاً لأمين المتحف أو المشرف، تم بناؤه أمام جسر أحمر اللون من الطوب اللبن، قريباً جداً من عمود الصواري". (١١٤)

إبان الإقامة المؤقتة لـ "سيفيرس" في جنوب إفريقيا، لم يكن في استطاعة "دوريل" أن يستمر في مراسلته أكثر مما يفعل بالنسبة لـ "ميللر"، وبدلاً من ذلك فإنه قام بنشر خطاب مفتوح في جريدة "لا سيمان إجيبيتم"، وهي دورية كانت تنشر في القاهرة وذلك في ٢٨ أكتوبر ١٩٤١: "هل تعتقد أننا سنعود ونلتقي معاً؟ لا أقصد في ماضي اليونان، ولكن أعني ماضيها نحن في اليونان؟ أنا أفكر فيك يا صديقي، وأنت في قارة إفريقيا غير الملانمة لنا، رجلاً من المنطقة شبه الاستوائية بعيداً عن بينتك، مغلوباً على أمرك من عالم تسود فيه المبادلات المريبة.. ولكن ما عسانا أنا وأنت أن نفعل مع التاريخ؟ نحن نعيش في حدقات "عيون اليونان"،

مكرسين أنفسنا لخدمة هذه الحرب البغيضة، إن الماضي والمستقبل يقفان متشابكي الأيدي هنا، وأيا ما يحدث فإننا سنعود". (١١٥)

تحدث "دوريل" عن "العين" أو اليونان مرة أخرى، في الربيع التالي عندما عاد "سيفيرس" من بريتوريا إلى القاهرة حيث أصبح يشغل منصب السكرتير الأول لدار المفوضية اليونانية. "نحن نفتقد اليونان مثل كائن حي، ولكن قبل كل شيء فإننا نفتقد اليونان الوطن والحياة! مناظر طبيعية تتمتع بروبيتها متألفة مع الوجود الإنساني، وهى العين التى ينعكس فيها "دوريل" نفسه كرجل وفنان، "هو وعالمه الخاص" كما يعتقد "سيفيرس". (١١٦)

قال "سيفيرس": "أنا أحب "لاري"، لقد عاش لحظات مذهشة" (١١٧) وبالنسبة لدوريل فقد شعر بأنه مؤمن بالسعادة، ربما نوع غامض من السعادة (١١٨) - ما يشبه السعادة الطفولية، التى عبر عنها "دوريل" فى قصيدة شعرية كتبها فى (كالاتاتا) فى عام ١٩٤١ "خطاب إلى "سيفيرس" اليونانى:

سعادتنا هنا فى نوء جبلى يمتد داخل البحر

يشير إليه نجم فى السماء، صغير ولكنه جميل

.....

لا شيء يبقى غير المرح، مرح الطفولة.

كانت العناصر الضرورية لذلك الحيز الصغير والجميل هي: امرأة،
وجزيرة، وشجرة". (١١٩)

كان "سيفيرس" يرى أنه و"دوريل" يتقاسمان أحاسيس أهل البحر الأبيض
المتوسط، ولكن أن تحب بلذا ما كما تحب امرأة، "حيث إنه كان هناك دائماً عنصر
حسى فى علاقتنا". لم تكن دائماً خالية من الأخطار".

لم يستطع "سيفيرس" أن يهجر اليونان، حيث إنه كان يونانياً حتى النخاع،
وهو ولاء أساسى، ولكن "دوريل" لم يكن كذلك، مما نتج عنه فى النهاية تصدع
مؤلم فى علاقتهما معاً.

استأجر "دوريل" حجرة فى شقة منبسطة ولكنها كئيبة فى شهر إبريل تقريباً،
إن لم يكن قبلها، فى رقم ٤٠ شارع فؤاد فى الجانب الشمالى منها وعلى بعد
خطوات إلى الشرق من شارع "صفية زغلول سابقاً كان يطلق عليها شارع
المسلة". (١٢١) كان المبنى عتيقاً وزريراً فى مظهره حتى بمقاييس ذلك الزمان، ولكنه
كان على بعد ١٠ دقائق إلى مكتبه سيراً على الأقدام، ماراً بمحلات "باسترويد"،
و"مرسم ومصور"، ثم "نادى محمد على.."، وأخيراً "بودرو".

كان "دوريل" بعد ظهر يوم من أيام شهر إبريل يوم "بودرو" فى حفلة كان قد
دعا إليها ناشر صغير للصحف حينما التقت إليها سيدة صغيرة وهى تقول: وأنت
يا سيد "دوريل" ما عملك؟ أنا شاعر.. أجابها "دوريل"، وكانت هذه السيدة هى
"يافيت كوهين"، أو "حواء" كما سیدعوها "دوريل" بعدئذ، وبالرغم من ذلك مر عام
كامل قبل أن يكتب عنها إلى "ميللر".

الفصل السابع

مرايا

"كان، رغم كل ما قد قيل وما حدث، صورة مصغرة من أنطونيو، وهى كليوباترا. بإمكانك أن تقرأ كل شيء عن هذا فى شكسبير. ثم بقدر ما للإسكندرية من علاقة بالأمر، بإمكانك أن تفهم، حقيقةً، لماذا تعتبر مدينة غشيان المحارم .. إن العاشق يرى نفسه تماماً مثل "ناركسيوس Narcissus بين عائلته : فلا مفر من المأساة."

جوستين (١)

فى الأشهر الأولى من عام ١٩٤٣، كانت "إيف" تعمل فى جريدة "بورصة الإسكندرية" (La Bourse d'Alexandrie)، وهى إحدى الصحف الصغيرة التى كان يديرها رجل يدعى "رؤول كحيل" وكانت تنشر قوائم بالأسهم والبضائع، وكان الراتب الذى تحصل عليه من هذه الوظيفة ضئيلاً جداً فى مقابل الأعمال التى لم تكن تزيد عن مراجعة الأرقام وبيع المساحات الإعلانية والرد على الهاتف. لم تكن "إيف" تجيد الكتابة على الآلة الكاتبة، ولم يكن هناك غير القليل من الأعمال التى يمكن القيام بها على أى حال من الأحوال، لذلك كانت تقضى معظم الوقت فى عمل التريكو، كان "رؤول كحيل" قد قام بإرسال دعوات لحضور حفل شاي فى باودروت Baudrot، وفى ذلك الوقت جاءت مكالمة تليفونية من مكتب الاستعلامات البريطانى من شخص ذكر أنه "لورانس دوريل" Lawrence Durell، حيث اعتادت "إيف" على إرسال نسخة من الدعوات التى ترسلها إلى هذا الاسم

الذى تحبه، فقد كانت من عشاق أفلامه، وتكرر اسمه باستمرار وهى تربط بينه وبين صورة الممثل "ليسلى هوارد" Leslie Howard.

كان "لورانس دوريل" يريد التحدث إلى "رؤول كحيل" ليعرف ما إذا كان من الممكن أن يصطحب معه صديقة من أصدقائه إلى حفل الشاي فى باودروت، لذلك قامت "إيف" بتحويله إلى منزل "رؤول كحيل"، حيث قام خادمه الذى لا يتحدث الإنجليزية بالرد عليه، لذا قام لورانس دوريل بتقليد الحديث باللغة العربية كنوع من السخرية، وكانت "إيف" تستمع فى هذا الوقت إلى هذه المحادثة التى لا يفهمها أى من الأطراف ويتخللها الصوت المرتفع والصياح بين الحين والآخر، إلى أن انفجرت أخيراً فى الضحك، ثم تدخلت فى الحوار وقالت للورانس دوريل: إن الخادم يريد أن يقول له: إن "رؤول كحيل" غير موجود بالمنزل، ولكنها أكدت له أنه لن يمانع أبداً إذا اصطحب معه أى شخص، فقد كانت تريد أن يحضر إلى حفل الشاي، بصرف النظر عما إن كان سيصحب صديقته أم لا، المهم بالنسبة لها أن تقابله وتراه.

وبعد أيام عندما وصلت "إيف" إلى حفل الشاي، شاهدت حشداً كبيراً من الناس الواقفين على أحد الجوانب: "لارى كان يجذب الناس نحوه تماماً مثل وردة يتجمع حولها النحل، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يلتقيان فيها"، ولكنها شعرت بالدهشة الشديدة عندما وجدت أن "لورانس هوارد" الذى تنتظر إليه على أنه نموذج للرجل الإنجليزي المهذب أقل منها فى الطول، كان صغير الحجم، من النوع الذى لا أفضله من الرجال، ولكنه وجد من يسليه ويستضيفه، "لذلك فسوف أجعل منه استثناء".^(٢)

"مرحباً بك، أنا الفتاة التي تحدثت إليك في التليفون"، هذا هو كل ما قالت، ولكن شوقها لرؤيته جعلها تدفعه نحو الحائط: "أحس بالخوف والرعب، أنا لم أخف أى إنسان فى حياتى، ولكنه كان مذعوراً، واعترف بذلك عندما تحدثنا معاً، لم أتصور، ربما لم يتعرض لموقف كهذا أن تقترب منه فتاة مثلى بهذه الطريقة المباشرة."

بعد ذلك سألته إيف عن عمله، فأجاب بالرد المألوف قائلاً: "أنا شاعر"، إلا أن إجابته جعلتها تشعر بالقلق حينما ترى نفسها تحل نفس هذا المكان فى عالم من نسج خيالها.

لم تستطع "إيف" أن تغض نظرها عن ملاحقة الفتاة التى اصطحبها "لورانس دوريل" معه، يبدو أنها مجرد فتاة يقضى معها بعض الوقت، أى أنها لم تكن صديقته تماماً، وفى تلك الأثناء وجدت "إيف" عذراً لمغادرة الحفلة: "غادرت الحفلة الساعة السادسة، كان لابد من مقابلة أى شخص آخر لأتمكن من التخلّص منه، فهذه العلاقة من العلاقات لم أرغب فى إنشائها مع شاب فى مؤسسته يريدنى رمزا لمكانته وحسب".

بعد ذلك تحدث "لورانس دوريل" إلى "إيف" عدة مرات فى التليفون، ولكن حياتها كانت مضطربة تماماً، مما جعلها تفكر فى تأجيل الابتعاد عنه؛ "حاولت أن يكون بجوارى"، وفى يوم أحست "إيف" أنها فى حاجة إلى أن تتكلم مع أى شخص آخر خارج الدائرة المألوفة للأشخاص المحيطين بها، لذلك قامت بالاتصال به وحددت معه موعداً فى مقهى ومتجر الحلويات "بستروفس"، وصلت "إيف" مبكراً، فتوجهت إلى أتيليه⁽³⁾ الإسكندرية بعد أن عبرت شارع فؤاد، وهناك أنفقت بعض الوقت فى الحديث مع أحد أصدقائها المثالين الذى نحت لها من قبل تمثالاً بالحجم الطبيعى يصورها عارية، وهذا التمثال موجود حالياً فى إحدى الحدائق فى

الإسكندرية، وفي ذلك الوقت كانت "إيف" تنتظر من داخل الأتيليه إلى النافذة الكبيرة في "بستردوس" لتري إن كان "لورانس دوريل" جالسا على إحدى الطاولات في صالة الشاي.

قام اليونانيون بتشييد مقهى "بستردوس" على أنقاض "سميرنا"، وكان متجر الحلويات بستردوس يستقبل صفوة مجتمع الإسكندرية، فكان مكانا مثاليا للمواعيد الغرامية⁽⁴⁾، داخل المتجر جو يفيض حركة وحيوية وحية بالإضافة إلى مظهره الأنيق الذي تزيينه زخارف معمارية وخشبية على طراز فن الديكو، كان متجر الحلويات بستردوس الموجود في شارع فؤاد متصلا بالمطعم المجاور الذي يتم فيه تقديم الشاي بعد الظهر، ويفتح كل من متجر الحلويات بستردوس وغرفة الشاي على بار منظم في المؤخرة حيث يوجد طاولات مرتبة على الأرضية المرصوفة، ولا يزال متجر الحلويات بستردوس على نفس هذا الشكل إلى الآن، ولكنه مغلق ولا يوجد فيه أى شخص، إلا أنه لا يزال محتفظا بطابعه الخاص كمكان للمقابلات الحميمة مثل الجزيرة المعزولة التي لم تدر عليها بعد عجلة الزمن والصخب الموجود في المدينة.

في حوالى الساعة الرابعة نزلت "إيف" إلى متجر الحلويات "بستردوس" حيث كان ينتظر "لورانس دوريل" جالسا على طاولة مطلة على شارع فؤاد، بدأت "إيف" تتحدث إلى "لورانس دوريل" باللغة الإنجليزية لأنه لم يعرف الفرنسية جيدا، وتكررت "إيف" آنذاك كيف كان "دوريل" خجولا وغير واثق من نفسه، وبعد فترة قليلة من الوقت، بدأ "دوريل" في الحديث عن "نانسي" وعن "مشاكله مع زوجته التي قررت أن تتركه ولا يعلم سبب ذلك"، ورغم إحساسه بالحزن والتعاسة فإنه "كان غاضبا، وظل يردد: لقد صعدت للشجرة ولا تريد النزول"، تعلمت "إيف" لغتها الإنجليزية من مشاهدة الأفلام السينمائية، ولكنها لم تكن قد سمعت مثل هذا

التعبير من قبل، لذلك ظلت تفكر فى البداية فى المعنى الحرفى لهذا التعبير وتتعجب كيف تمكنت هذه المرأة وابنتها من الحياة فوق شجرة فى فلسطين، ثم كرر "لورانس دوريل" العبارة مرة أخرى قائلا: "لقد صعدت إلى أعلى الشجرة، ولا تريد النزول مرة أخرى".

عندما بدأت إيف تتحدث عن نفسها كانت الشمس قد بدأت فى المغيب، قالت "لقد وجدنا فى نفسنا الرغبة فى أن نتجاذب أطراف الحديث" فتحدثت إليه عن مشكلتى التى أواجهها مع صديقى تشوك، كان يطلق على نفسه "تشوك". تشوك.. إننى كنت على وشك أن أصبح مدام تشوك. من المؤكد أن الناس سيرون أن هذا اللقب يناسبنى كثيرا، ولم أكن أعرف حتى اليوم ما هو اسمه الأول رغم أنى بدأت أسأله، إلى أن وصلنا بعد ذلك إلى هذا الموضوع، كانت الأحداث معتادة وتمر ببطء شديد كما تعرف. لقد تمكنت من قبوله على حالته، الصدمة، وهذه هى الحالة التى فضل أن يُعرف بها، ولم أعترض على ذلك، وهذا هو السبب الذى جعل علاقتنا مستمرة، فقد تسامح كل واحد مع الآخر بدرجة كبيرة، كان طويل القامة أشقر، وبشبه بالفعل "دانى كاي" Danny Kaye، ولكن لم يشبهه أحد فى خفة الظل، ومن بين الأشياء التى أعجبتنى فيه اهتمامه الشديد بأناقته التى كانت من الأشياء التى تعنى الكثير بالنسبة لى فى ذلك الوقت، ولهذا كنت أنا وهو ثنائيا غير عادى فى أعين الناس، فاقترحت عليه قبل شهر أن نتزوج ولكنه رد على طلبى قائلا: إنه لا يريد الزواج، لكن تشوك يرى الآن أنه يريد الزواج منى ويتعجب قائلا: "ما الذى يجعلنى أثق بك؟" أنا يخطر ببالى هذا السؤال من قبل ولا أجد له إجابة، لكنه جعلنى أشعر بالقلق، نعم جعلنى أحس بالقلق الشديد.

عندما لاحت لإيف فرصة التحدث إلى لورانس دوريل قالت له: "يتردد فى ذهنى سؤال ولا أعرف إجابته، ماذا أقول لرجل يعترف أنه لا يثق بي؟ كنت مهتمة

وشغوفة للغاية بأن أعرف أى شيء جديد عن نفسى، وأعتقد أن هذا الاهتمام والتشغف هو الذى جعل "لورانس دوريل" يحبنى، إذ بدأ فى توجيه عبارات المجاملة التى كانت تعنى الكثير بالنسبة لى، والله يعلم أنى كنت متعطشة ومشتاقة لسماع تلك العبارات، ثم فكر قليلا وقال: "من المؤكد أنك ستكونين أفضل زوجة لأى رجل يتعامل معك بطريقة جيدة، لكن كان الله فى عون الرجل الذى لا يقدم لك مثل هذه المعاملة"، أحسست حينما سمعت كلماته بأنها تنطبق على تماما.

استمر الحديث موصولاً بين لورانس وإيف، وخرجا فى الليل بدأ الاثنان يمشيان فى الشوارع المتعرجة المظلمة باتجاه الميناء الشرقى، مرت الساعات الطويلة وهم يسرون على طول طريق الكورنيش ذهابا وإيابا قبل منطقة الأزاريطة. لم أفكر إن كنت قد استفدت بأى قيمة من هذه الزهرة ولكنه استمر يردد: "عندما أخرج وأزور أولئك الناس الإسكندرانيين فإنهم لا يحافظون على احترام الناس أو يهتمون بالطريقة التى تعرفين منها ما هو الصواب وما هو الخطأ، وكيف تتصرف بنفسك فى الحياة" فهو لم يقصد طبعاً أنى شخصية عاقلة أو أى شيء من هذا القبيل ولكن فى أمور مهمة فإننى أبدو متمتعة بتلك الصفات. وأخيرا اتجه الاثنان إلى شارع شمبليون وهما لا يعرفان أنهما يسيران فى نفس الطريق الذى سار فيه "فورستر" عندما اتجه من محطة الترام فى الأزاريطة إلى عمود الخرطوم فى أول مقابلة غرامية له مع محمد العدل، وعندما وصلا إلى باب العمارة التى تسكن فيها إيف مع والديها فى الدور الأول، تصافحا وودعا بعضهما. كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية صباحا، لقد بقيا معا مدة عشر ساعات يحاول كل منهما أن يطمئن قلبه من المخاوف ويستطلع التأكيدات من الطرف الآخر، وبينما ظلت إيف يقظة على فراشها لا تستطيع النوم ظلت تقاوم إحساسا بأن "لارى قد أحبنى، ولكنى أحب شخصا آخر".

فى ذلك الوقت كانت إيف قد بلغت الرابعة والعشرين من عمرها إذ ولدت فى القاهرة فى الثامن من أغسطس ١٩١٨، إلا أن ذكرياتها الأولى كانت مرتبطة بالإسكندرية التى انتقل إليها أبواها بعد بلوغها العامين، وكانت تعتبر نفسها منتمية لهذه المدينة، وتذكر السعادة التى أحست بها وهى تستكشف كل أماكنها الجميلة فى أيام صباها، ولكن عندما قابلت لورانس دوريل البالغ من العمر واحدًا وثلاثين عاما وقعت فى حياتها أزمة".



إيف كوهين على أحد شواطئ الإسكندرية عام ١٩٤١، قبل عامين من لقائها مع لورانس دوريل.

كانت علاقة الحب بين إيف وتشوك قد مر عليها عامان فى ذلك الوقت، كان يهوديًا نمساويًا أتى إلى الإسكندرية فى أواخر العشرينيات من القرن العشرين وهو يبلغ من العمر ما يقرب من أربعين عامًا، وكان يسكن فى إحدى الشقق فى أحد الشوارع الجانبية بين شارع شمبليون ومقابر اليهود حيث كانت إيف تعيش مع والديها فى الأزريبة، وفى إحدى الليالى كانت إيف ولورانس ينزلان من شقة لورانس عندما شاهدهما والد إيف الذى شعر بالصدمة آنذاك. "لم أعد طفلة صغيرة بعد الآن، كان يجب أن يعرف أبى هذا فى ذلك الوقت، لكن ذلك لم يحدث، ولهذا السبب انفجرت بالبكاء." همس لورانس فى أذن إيف قائلاً: "حسنًا قولى له: إنى خطيبك"، لكن والدها شعر بالصدمة الشديدة عندما سمع ذلك وهو يسلم على لورانس دوريل، وكانت كلمة "مرحبًا" هى كل ما نطق به فى ذلك الموقف، لكنه قال لإيف بعد ذلك: "لا يمكن أن تتزوجيه"، ثم ذكر بعض الأشياء عن سمعته وأضاف قائلاً: "إنه لا يشبهنى على أى حال".

"كان والدى مهووسًا وله أسنابه الخاصة. كما كان، حسبما أعتقد مفتونًا بى. لقد كنت أقرب آدمى اقترب منه فى حياته. ولم يعرف كيف يقترب منى أكثر من ذلك، ولم يجد وسيلة تساعد فى ذلك، فبال تأكيد لم تكن أمى قادرة على ذلك. أدرك لارى ما أعنيه، إذ أخبرته أن أبى تداخل معى جنسيًا. ولكنه لم يفعل شيئًا. فنحن ندين باليهودية، فهو كان أمينًا مع الله، ولكنه لا يعرف ماذا يحدث له وهذا هو كل الموضوع. أظن أنه كان متيماً بى لأننى كنت الوحيدة التى فهمها فى حياته."

ولكن منذ اللحظة التى ارتجل فيها (مصدوم) لورانس دوريل وأعلن عن الخطوبة، ظلت والدة إيف تسألها "أين صديقك؟ أين خطيبك؟ لماذا لا يأتى؟ ولماذا لا أراه؟"، وكانت إيف تتعامل مع مثل هذه المواقف وهى تدعى الإغماء أو تهدد بأن تلقى نفسها من الشرفة إذا لم يتركوها وشأنها. أما السيد (مصدوم) لورانس دوريل

فقد سمع ما فيه الكفاية عن عائلة إيف ليعرف أنه لن يستطيع عمل أى شيء معهم، وعندما أخبرته أنه ينتظرون زيارته رد عليها قائلاً: "لا أعتقد أنى قادر على مواجهة والدك، ثم كيف أعرف أنك جديرة بتقتي؟"، ففى العام السابق والتالى لرفضه الزواج بها، أحست بحريتها فى أن تقابل رجالا آخرين. قال المصدوم "ولكنك لا يجب عليك أيضا أن تتقى بى" وهنا بدأت إيف أيضا تتساءل إن كانت تستطيع أن تثق فى نفسها أم لا فهمى تعرف تماما بأن المصدوم ليس هو الرجل الذى تحبه فعلا.

"شالوم كوهين أرازي" (Chalom Cohen-Arazi) هو جد إيف من ناحية أبيها، وكانت عيناه زرقاء اللون، وتذكر إيف أن هذا البطيريك السفاردى (يهودى من أصل إسباني) كان قد غادر الجزائر فى السبعينات من القرن التاسع عشر بصحبة زوجته "راحيل" (Rahel) التى تنتمى إلى نفس عائلة كوهين، واستقرا بعد ذلك فى مصر التى أنجبا فيها كل أبنائهم التسعة^(٥). وقد كان شالوم يتحدث العربية بطلاقة ويرتدى الجلاباب والطربوش، كما أقام محل صائغ فى سوق خان الخليلي.

أما جد إيف من ناحية والدتها فكان يُدعى "موردهاى بلاكسى ميرام" (Mordahai Palacci-Miram)، وعلى الرغم من أنه كان سفاردياً مثل جد إيف لأبيها، فإن جنوره تمتد إلى القسطنطينية وتزوج فيها من "روزا ألترمان" التى كانت تنتمى إلى يهود الأشيكناز التى ترجع أصولهم إلى ألمانيا، وأنجب فى القسطنطينية كثيراً من البنات من بينهم ستىلا والدة إيف، ولكنهم هربوا بعد انتشار وباء الطاعون واستقروا فى الإسكندرية فى بداية القرن العشرين حيث قام موردهاى بفتح متجر لبيع براويز الصور بشارع محطة الرمل (Rue de la Gare de Ramleh)، وسرعان ما اشتهر هذا المتجر بحيث تمكن موردهاى خلال سنوات

قليلة من الانتقال مع أسرته الكبيرة التي تضم ثمانى بنات إلى منزل من ثلاثة طوابق (وقد أضيف له طابق رابع بعد ذلك)، وكانت شرفات المنزل الأمامية والخلفية ذات أسوار من الحديد المشغول، بينما تبرز تماثيل الأسود والآلهة الإغريقية التي تزين النوافذ على واجهة المبنى رقم ٩٤ من شارع حسن بناشا الإسكندراني، الذي يتفرع من الجنوب من شارع محرم بك ليصل إلى ترعة المحمودية.

وفي عام ١٩١٧ تزوج موسى كوهين أرأزي من "ستيلا باي لأكسي ميرام" في مدينة الإسكندرية، ثم توجه والدا إيف بعد ذلك للعيش في القاهرة حيث تقابل أول مرة عندما كانت ستيلا التي كانت تتدرب على التمريض. ثم زاد الارتباط بعد ذلك بين العائلتين عندما تزوج "نسيم" (Nessim) الأخ الأكبر لموسى من الأخت التوأم لستيلا التي تدعى "فينتورا" (Ventura)، وحسبما تقول ابنة نسيم "كان العم موسى هو الوحيد بين إخوانه الذي له بشرة سمراء ويختلف عنهم أيضا بحساسيته الشديدة"^(١). ومن بين الأشياء التي يختلف فيها موسى كذلك أنه لم يكن موفقا في عمله، وهذا هو السبب الذي جعل ستيلا تعود هي وزوجها وابنتها مرة أخرى إلى الإسكندرية في عام ١٩٢٠، تقول إيف: "لم يستطع أبي تأمين الدخل المناسب لنا، وهو أمر صعب عليه كرجل، كما لم يستطع أيضا تدبير سكن خاص بنا، لذلك اتجه إلى العيش مع والدي ستيلا، ومع ذلك كانت ستيلا عصبية لكي تحافظ على مظهرهم، لذلك كانت تقول للجيران: "زوجي صاحب بنك"، رغم أنها بعد أول مرة ذهب فيها في عمله كمراب مع شقيقه نسيم بالقرب من مسجد ترينانا في شارع فرنسا، كان يكافح لتوفير متطلبات احتياجاته بدأ عمله صرافا بمكتب إقراض نافنته مطلة على ٩ ميدان محمد علي بين المحاكم المختلطة والبورصة.

على جانب خط الترام من شارع حسن باشا الإسكندراني، باتجاه الشمال من شارع محرم بك، كانت الفيلات الفاخرة والحدائق الفسيحة المترفة لأصحاب البنوك والسماصرة وأصحاب العقارات الأثرياء وعائلات مثل عائلة ميناسي وعائلة أمبرونز Measces and Ambrons ولكن عندما كانت إيف طفلة كانت تردد: "لم أعرف أن العالم موجود." كانت المنطقة المجاورة لمسكن جديها شبكة من الشوارع المزحمة والمنازل مكتظة حيث تختلط اللغة العربية بأصوات لاتينية (خليط من اللغة الإسبانية القديمة مع بعض الكلمات العبرية). في "رباعيات الإسكندرية" ينقل دوريل عن يوميات جوستين: "كانت هذه أحياء فقيرة من المدينة البيضاء، فلا يوجد أى تشابه مع تلك الشوارع الجميلة التى شيدها وزينها أجانب وجلس فيها السماصرة يرشفون الشاي ويطالعون جرائدهم الصباحية. حتى لو لم يكن الميناء موجودًا هنا لأجلنا. فى فصل الشتاء، أحيانًا، وربما نادرًا، تسمع هدير صفارات الإنذار ... ولكن فى بلد آخر. آه! مأساة الموانئ، ونستحضر الأسماء حينما لا نجد مكانًا نذهب إليه. أمر مثل الموت يتردد بذاته فى كل تكرار لكلمة "الإسكندرية، الإسكندرية"^(٧).

أما ذكريات إيف عن جيران طفولتها فقد كانت أكثر إشراقًا، وكذلك عن سكان الضواحي الجنوبية من حى محرم بك، لقد كانوا خليطًا من العرب الميسورين والطبقة المتوسطة الغنية من اليهود "راحت تتذكر بحنين الإحساس بالانتماء والأمان الذى تشعر بها عندما كانت تخرج وتلعب فى الشوارع الجانبية من مسكنها. أطفال صغار حفاة فى شوارع محرم بك، ونفخة بوق بائع الأيس كريم فى نهار رمضان..^(٨) " تلك بعض ذكرياتها التى دونها دوريل فى يومياته لكتاب الموتى. ولكنه سجل أيضا الجانب المعتم الذى أغفلته إيف من ذكريات ماضيها، لم

يكن الشارع ولكن أستطيع أن أقول: لم أكن سعيدة وهناك قايتت جزءا من جمودى مقابل آيس كريم شيكولاتة^(٩).

أما صور إيف فى محرم بك فكانت تظهر أنها فتاة نشيطة مشرقة وكل ما تتذكره هو زيادة إحساسها بالوحدة، وقد قيل لها - رغم أنها لا تذكر شيئا قيل لها- "أغمى عليها عندما تركت أمها الغرفة." جدتى روزا وعدتني بالكثير، لقد حلت محل أمى تماما فى تلك السن المبكرة، وعندما كنت فى الثالثة، سرعان ما أدركت أن أمى لم تعد موجودة لتقوم بمهمتها فى تلك السنة كانت فنتيرا زوجة نسيم" قد توفيت. كانت توعم أمى... كارثة... حين فقدت أمى توعمها." فلم تكن مكتملة البناء لقد عرف أبى ذلك وفهمت أنا أيضا، لم تكن أمى طبيعية ولكننا تحملنا ذلك بشق الأنفس." وتعاقب الموت : فقدت ستيليا ابنها الرضيع ثم فقدت ابنا آخر فى الثالثة أصيب بالدفترىا وتوفى، كما أجهضت. كان الجنين جثة وقد رآته إيف، بعد احتفاء كبير بانتظار مولود، وهى وتبحث تحت الكرنب حيث قيل لها إنهم وجدوا الطفل، ومع ذلك تتذكر كيف أن الأوراق الخارجية للكرنب قد تعفت.

ومع أم لا تستطيع أن تتقبل وتتكيف الوضع، "حتى تحافظ على أطفالها أحياء" قضت إيف حياتها مع جدتها التى بحثت عنها ورأتها تطعمها. "ولكنها كانت سيدة رسمية وألمانية ولم تكن شرقية. لم تقبلنى قط، لم تعانقنى أبدا، لم تقل : تعالى واجلسى فى حجرى. كانت تلعب معى الباستراتا وتسعد بفوزها فى لعبة الورق، علمتني الإصرار. غير أنى أردت الدفاء منها، أن تحضننى، ولكنها لم تفعل لأى إنسان."

وعندما بلغت إيف السادسة توفيت جدتها روزا وانتقلت لتعيش مع والديها فى كامب شيزار. كان المعبد اليهودي الذى كان يتردد عليه أبى فى جنوب محطة

الترام، أما شقتهما التى عاشا فيها فكانت بين طريق الترام والبحر. عادة كنا نتبادل الحديث بالعبرية الإسبانية والفرنسية الضعيفة، ولكن كان والداها يتحدثان باللغة اليونانية عندما يريدان أن يخفيا شيئا على إيف "لذا تعلمت اللغة اليونانية بسرعة من جار يونانى بسرعة. أما اللغة العربية فقد تعلمتها من والداها، لغة جذورى، وتعلمت اللغة الإيطالية من الدراسة فى المدرسة الإيطالية الكاثوليكية فى محرم بك، برغم أنها كانت مسجلة فى مدرسة ليسيه الفرنسية، وهى على بعد خطوات من مسكنها نحو الشاطيى من كامب شيزار.

حينما كانوا فقراء، وسواء كان من منطلق الحاجة أو الهوس، فإن أمى غيرت أماكن سكننا باستمرار "أربعة عناوين مختلفة فى شارع واحد فى كامب شيزار ثم فى خارج سىدى بشر؛ حيث استأجروا منزلا بسيطا خصصت غرفة جانبية لأمها لتدير فيه مشغلا لتفصيل الفساتين. أحببت إيف ما كانت تفعله أمها رغم غموضها وعصبيتها" ومع أن ستيلا كانت تسهم بقدر كبير فى زيادة دخل الأسرة إلا أنها أصبحت عنيدة ومستبدة أكثر من ذى قبل، وقامت بدور لما اعتبرته خلفيتها الأوربية المتفوقة إلى تشويه كفاءة زوجها الشرقى. تستعيد إيف ذكرياتها بمرارة وتذكر كيف أن أمها كانت تلعب بشكل لا نهائى على الجرافون وهو المسجل الوحيد الذى كانوا يمتلكونه "سيدتى كونى طيبة" من ألبومها الموسيقى لسنة ١٩٢٤ تثير فى إيف مشاعر الخوف المرضى من الأماكن المقفولة والتى لا مفر منها، لا بسبب المشاجرات والتوتر بين أبويها ولا من العنف الذى لحق بها، وليس من عدم استقرار أمها أو من إحباط أبيها فى بحثه الدائم عن الحب. فى الربيع ذهبت مع والديها للنزهة فى الصحراء حول مريوط، "حيث تقول "ألتقط بعض أزهار الخشخاش التى تنفتح وتموت فى النهار".

وفى أحسن الأوقات كان والداها يصحبان معهم خادما يقوم بأعمال الطهى والتنظيف. كما كان هناك تناوب للخدم، كلهم من أصل مصرى، كانت تتودد إيف إليهم وتطلب منهم أن يرووا لها حكايات. "كانت حكايات تتحدث عن عالم الجن والعالم السفلي" وكما تصفها إيف، "عالم يعيش فى علاقات تكافلية مع عالمنا. تذكرت أنها سمعت قصة امرأة رائعة الحسن والجمال ولكن ساقها مثل جسم السمكة مليء بالقشريات وقدميها قدم بجاجة: "كان مغزى القصة يتطلب منك أن تتقبل أى شيء وأى شخص مهما كان، لا يهم مدى الضيق الذى يبدو من القصة، فهذه هى الطريقة للاسترضاء وتجنب الشر، فأنت لا تعرف من هو فعلا أو من هو المعتدى أو من كان يسعى لإغضابك أو ينقلب عليك. وهذا هو رمز المصرى الذى يرحب بالغريب، ليستضيفه، فكل القصص تعيد التأكيد على هذه الموضوع."

عندما بلغت إيف العاشرة كانت عاجزة عن القراءة. "تقول عن نفسها كانوا يضربوننى، وعندما أقول يضربوننى فأنتى لا أقصد أنهم ضربونى ولكنى كنت أقصد سحق الروح. أما حاليا فأنتى أبدو فى وضع دونى بئس. لم أفهم شيئا فى المدرسة كل ما كنت أفعله هو الانتظار. "راحة من البيت... كانت تمشى على شاطئ البحر، وأحيانا كانت تمشى مسافة عشرة أميال طويلة من حافة صحراء سيدى بشر باستروديس حيث كانت أجرة الترام بالنسبة لها تعنى شراء فطيرة تحبها من المدرسة."

ولفترة من الزمن درست إيف فى مدرسة البعثة الأمريكية فى العطارين، "وعندما بلغت الثانية عشرة، فى نفس السنة التى ولدت فيها أختها دolly، أرسلت إلى المدرسة الأسكتلندية للبنات."

كانت المدرسة فى شارع أمين فكرى باشا المتفرع من شارع السلطان حسين باتجاه محطة ترام الرمل، ورغم أن المدرسة ممتدة ويطلق عليها مدرسة المنارة الإنجليزية للبنات، فمزال ميناها الرئيسى يحتفظ بخطة بصليب القديس أندرو. كان الصليب يزين سويتر المدرسة وقد لبسته إيف فى الصورة فى أول سنة لها: فوق فمها الكبير والشففتين الممثلتين والأنف الدقيق ونظرة عينيها الحادة المختلطة بالعزم ولمسات الألم. لقد عاشت إيف منطوية على نفسها وتتذكر كيف كانت تسمع أحيانا أصوات "نهر يفيت يناجى القمر" تذكرتها من أيام المدرسة لأنها كانت تحلم دائما.

عند الآنسة ميلانى أثاناسيان، وجدت إيف فى مدرستها المتعاطفة تشجيعا وقد درست معها الأحياء والرسم ودراسات إنجيلية. كانت عائلة ميلانى، من أصول أرمينية من القسطنطينية، وقد هربت من أواخر القرن التاسع عشر من المذابح التركية وعاشت فى الإسكندرية، كانت فقيرة معدمة فسمح للطفلة اللاجئة بالالتحاق بمدرسة الرومان الكاثوليك فى مقابل تنظيف الفصل بعد الانتهاء من الدراسة. وتم منعها من حضور الصلاة لأنها كانت تعاني من "ربو شعبي"، ثم فهمت بعد ذلك أن مرضها يكمن فى كونها منتمة إلى الكنيسة المسيحية الأرمنية: كما أن أخواتها منعنها من الصلاة لأنها كانت "منشقة عن الكنيسة"^(١٠) ولعل رؤية بعض ملامح طفولتها تكمن فى انسحاب إيف، خرجت ميلانى من طريقها لتسغلها، كانت فى مدرسة إسكوتش للبنات Scottish Girl's School وهناك تعلمت إيف القراءة. فبدأت تقرأ قصص الإنجيل والتي كانت تفضلها، وخصوصا حياة السيد المسيح، ثم تحول حب إيف للكتب إلى شراهة فى القراءة كانت تلتهم كل شيء يقع أمام عينيها. فى البيت كان هناك كتب للمؤلف ستاندل "الأحمر والأسود" Le Rouge et le noir وكتاب بارما الأخضر .

La Chartreuse de Parme رغم أن والديها لم يقرأ هذه الكتب من قبل، فإن إيف قرأتها أكثر من أربع مرات في مرحلة فترة بلوغها لأنها أحببت بطل الرواية، الأنيق الأرستقراطي والفائن "فابريزيو، وبالمثل في اللغة الفرنسية فقد التهمت روايات ديكنز وموليير وراسين، بينما كانت المعلمة "ميس ميلانيو كانت تعلمها أيضا الإنجليزية، وهكذا بدت إيف تتحدث اللغة الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية واللغة العربية واليونانية، رغم أنها لم تتعلم أن تقرأ أو تكتب باللغتين الأخيرتين.

ورغم أنها كانت تحب أن تقول إنها تركت المدرسة في سن السادسة عشر، وتابعت دراستها بالكامل، ولكن هجرتها بعد سنة، ومرة أخرى كانت صورها تروى حكايتها : فلم تعد تلك الفتاة المنطوية على نفسها ولكنها أصبحت تلك الفتاة اليقظة الملتفتة لحضورها الواقعي، وعندما بلغت السابعة عشرة صارت فتاة جميلة حسناء، في عينيها بريق وعلى شفتيها ابتسامة مشرقة وعلى جسمها لباس البحر للسياحة. "ذلك عندما ابتعدت عن أبوي وبدأت في مصاحبة مجموعات منفصلة من طبائع وحيوات مختلفة." في الصيف حينما يعبق جو الإسكندرية برحيق الياسمين، وتضع النساء عقودا من الياسمين حول أعناقهن "كانت تذهب إلى منزل الشاطئ في سيدى بشر الذى استأجره مجموعة المسنين من بينهم راؤول كحيل، "الشباب لا يدفعون، كان أمرا متفقاً عليه بأن يذهبوا في يوم محدد من الأسبوع لتنضم إليهم في اللهو. وفي الأوقات الهادئة كان المكان يستخدم لعلاقات حميمة." أحيانا كانت تذهب لترقص في نادى بيلافيسستا على الكورنيش فى كامب شيزار، مع السيد Monseigneur الذى كان يصحبها إلى فرقة برازيلية فى كباريه إكسليسيور Excelsior والمطل على الميناء الشرقى، أو كانت تذهب لتناول الشاي مع الراقصين thes dansants فى فندق جراند تريانون.

كانت تصاحب الأصدقاء من نفس عمرها يحضرون في قوارب شراعية إلى الميناء الغربى حيث السفن المتعثرة واقفة، وسطحها فوق خط المياه، يرقصون على ضوء القمر وعلى موسيقى صادرة من الجرامافون. وفي ذات الوقت كانت إيف مهتمة بالتأمل والحديث إلى نفسها، حتى أطلق عليها أصدقائها "أنسة التحليل النفسى".

عاشت إيف مع والديها، وانتقلت معها إلى الأزاريطا، حيث كانت أمها تتاديهما "بالطاهرة" لأنها لم تكن تتحمل أن يلمسها أحد، "فلا يقربنى أحد، لأننى شعرت بسوء المعاملة فى طفولتى". أحيانا كان ينتابها نوبة من الكآبة والفقر ثم أحست بالمهانة حينما اصطحبتهما أمها إلى الماخور لأن الكشف على مرض الزهري رخيص هناك، (وربما لأنه أكثر سرية) وقررت إيف أن تترك البيت وتلتحق بتدريب التمريض فى مستشفى كوزيكا Cozzika Hospital بعد افتتاحها فى عام ١٩٣٧. وقد تم بناؤها جنوب طريق "أبو قير" وهى على بعد ميل من شرق حدائق البلدية وبوابة الشمس المخفية وسعتها ٢٥٠ سريرًا، وقد أنشأها رجل الصناعة الإسكندراني ثيوكريس كوزيكا بدلا من المستشفى اليونانى القديم فى المدينة وبغرض أن تكون مستشفى متكاملًا ومبنى معماريا فريدا. (١١)

هنا تم تخصيص غرفة لإيف، وهنا أيضا بدأت أول علاقة غرامية حقيقية مع طبيب يونانى مسئول عن تدريبها. وقد استمرت تلك العلاقة سنة (اكتشفت إيف بعد ذلك أن الطبيب كان يستقبل متدربة جديدة كل سنة) وسرعان ما انتشر الخبر بين الجميع، بما فى ذلك أمها التى استفادت من الموقف فى زيارتها للطبيب وطلبها منه أن يعالجها مجانا.

بعد هذه العلاقة الخاصة مع الطبيب أحست إيف بالنقطة بالنفس وبدأت تستعد لمقابلة الرجل الذى أحبته من كل قلبها.

لقد افترض دوريل أنه مصدوم Shock هو الرجل الذى حل فى وجدان إيف. إذ قال لها فيما بعد حينما شوهد مصدوماً يجلس وحيداً فى باستروديس "Pastroudis" "إنك امرأة قاسية القلب، فكما تخليت عنه يوماً فأنت سنوف تتخلين عنى أيضاً من أجل رجل آخر". إلا أن إيف تحدثت طويلاً عن الرجال الذين عرفتهم فى حياتها، وعن طفولتها وعن أسرتها، ولكنها لم تتحدث أبداً عن شدة حبها لروجيرو Ruggero.

تذكرت إيف تلك الليلة التى قابلت فيها روجيرو، عندما دعته صديقة لحضور حفل وهذا يعنى أن تستقل الترام إلى سان ستيفانو ثم تمشى مسافة بين الشوارع الجانبية وكيف خطر فى بالي بأن ذلك المساء سيكون حافلاً لى كما توقعت أن أقابل رجلاً أستجيب له بمشاعري. "مرت على الكنيسة، ودخلت لتصلى فى صمت وشعرت بأن الرب يهمس لها "امضى فى طريقك". بدأ الحفل، تلفتت حولها فرأت شاباً: "كان شاباً طويلاً، رأسه أطول مني" يقف فى زاوية من الغرفة. فى البداية ساد جو من التحفظ ولكنها وثقت فيه، ومن ثم فقد قررت أن "هذا هو من أريد أن أعرفه أكثر". لم تضيع وقتها، اقتربت منه وعلى الفور بدأت فى الرقص معه واستمر الرقص طول الليل، فانتصابه رهيب، ومن المزعج ومن المخجل أيضاً أن تتوقف عن الرقص."

وفى ما بعد اتصلت إيف بروجيرو وقالت له إنهما لا يمكن أن يستمرا. ولكن الشيء الذى لم تقله هو أنها كانت على علاقة عابثة مع يهودي (وكان من الصعب على إيف أن تستقيض فى هذا الموضوع) والسيئ فى ذلك أنه قد يرانى ويعنفنى

بأننى مخطئة فى أن أتمتع بالجنس، ومع ذلك فقد اكتسبت خبرة فى ممارسته من علاقتها بالطبيب، ورغم ذلك لم تكن فاترة معه، بل خافت من أن روجيرو يرفضها. ولكن روجيرو أصر على أن يتقابلا مرة أخرى، وفى الموعد المحدد خرجا معا، اصطحبها إلى الشاطئ يسبحان ويتزهان ولكنهما لم يتناولوا الغداء معا: فتناول الطعام فى ذلك الوقت يعنى أنك مخلص لذلك الشخص" أما روجى - كما كانت تراه - فهو كاثوليكي إيطالى، وهو العائل الوحيد لأخته وأمه ووالده المتقاعد، ولن يستطيع تحمل كل هذا".

مضت علاقتها سنة قبل أن يلتقيا معا على فراش واحد، فليس أمامهما مكان خاص يذهبان إليه. ولطالما تردد عليه إيف "متى؟" تقصد متى تكون خلوتهما معا فى علاقة حميمة. فيرد عليها: "قريبا". وتمر الشهور. يعمل روجى "حمالاً" لا يحمل على عربة كارو، بل حمال فى مؤسسة سويسرية كبيرة، والعمل الذى قدمه لإيف أن تفهم وتتفتح على فرص كثيرة مع النساء اللواتى يردن أشياء أكثر من نقل أثاثهن. تردد عليه إيف سؤالها: "متى؟" فيجيبها قائلاً: "قريبا جداً".

فى صيف ١٩٣٩، أرادت أن تترك الإسكندرية، مع أنها لم تتحدث بهذا الخصوص مع روجى، والسبيل الوحيد، كما ترى، هروب والديها وهروب كل "اليهود المقيمين" حتى أنها أحست أنها مخنوقة. ربما تريد الذهاب إلى إيطاليا فعندما كانت فى الثامنة عشرة من عمرها ذهبت باعتبارها عضواً فى منظمة الشباب الفاشستى ("وهذا شيء آخر لم أتحدث عنه مع لارى، فلن يضحك كما فعلت") صديق لها يهودى حاصل على الجنسية الإيطالية اقترح عليها أن يستفيدا من العرض الإيطالى المجانى الذى قدمته الحكومة الإيطالية، قائلاً: إن أحدا لن يلاحظ أنها ليست إيطالية، وخصوصاً أنها تتحدث اللغة الإيطالية بطلاقة. فقط

تقدمين أوراقك للسلطات الإيطالية في الإسكندرية، وتلبسين الزى الرسمى للمنظمة وتقدمين التحية ". ومع ذلك فى آخر لحظة انسحب الصديق ووجدت إيف نفسها تبجر وحدها إلى إيطاليا. وأمضت هناك أسبوعين، بين روما و نابولى وعلى طول الساحل بينهما وقبل عودتها للإسكندرية أضمرت فى نفسها فكرة أنها يوما سترحل عن المدينة.

كانت هذه الرحلة قبل سنتين من إعلان موسوليني إجراءات معادية للسامية فى سبتمبر عام ١٩٣٨، والتي من شأنها منع الزواج المختلط واستبعاد اليهود من التعليم الحكومى على كل المستويات وحرمانهم من شرف تأدية الخدمة العسكرية الإلزامية ومنع نشر إعلانات وفياتهم فى الصحف ومنع تكوين أسمائهم فى دليل التليفونات، وتوظيف الآريين أو منسوبى نوادى للترفيه أو أعضاء الحزب الفاشستى.

ولكن فى عام ١٩٣٩ فى آخر صيف بالإسكندرية وقبل اندلاع الحرب، الشيء الوحيد الذى وقف بين إيف وروجى هو مكان لممارسة الحب. وأخيرا استطاع أن يحقق رغبتها بـ "متى؟" من خلال إعلانه عن طلب شقة عزوبية للتأجير Garconniere على خليج ستانلى وقد اشترك مع مجموعة من أصدقائه لتأجير شقة، وبالتالي يستطيع أن يقابلها وحده كل يوم سبت. لقد كانت الشقة واحدة من عدة شقق صغيرة فى مبنى مطل على البحر، وصفته إيف "إنه مكان رائع، يبدو وكأننا نهبط إلى الشاطئ" وتذكر كيف تكون الانتقادات اللاذعة فى الإسكندرية ولكن من الممتع جدا أن تكون شابا وتعيش قصة حب. "لقد كنا أبرياء، فالدنيا تمضى على هذا النحو دون انقطاع. لقد كان عالما بسيطا، ونثق به. حتى الفقراء ومن هم أفقر منا لن يموتوا من الجوع. فأنت مثلا تأكل الفول والفلفل، وهذه وجبة رخيصة ومغذية يتناولها الغنى والفقير على السواء. والحلويات

الفرنسية فهي أكوام. ودور السينما في كل مكان. لا بد أن نكون من أصحاب الملايين الآن وأن نعيش كما نريد. لقد كنا سعداء والجو رائع ويضفي علينا السعادة... ربيع دائم."

عاش روجي قريبا من الشقة، ولكنهما يعيشان حياة عاشقين حريصين على ألا يراهما أحد معا، ولهذا فهو ينادى عليها بصفارة قصيرة من بين شفتيه وأصابعه. لم يذكر شيئا إن كان سوف يتصل بي. كانت تصرفاته متوافقة معي. فهو شخص كان هناك مع ما كان يقول عنه. ويقول بضع كلمات. فهو رجل لا يجيد الكلام الكثير. ولكنه أيضا هادئ جدا ومختلف تماما عن لاري. لقد كان بوضوح عاطفيا جدا، ولكنه كبح مشاعره. لم يكن رجلا عابثا أو ممثلا."

وعندما اقترب شهر يونيو في عام ١٩٤٠ ثار بينهما خلاف شديد. فروجيرو كان مقتنعا بأن الإيطاليين سوف ينتصرون إذا خاضوا الحرب، أما هي فقد كانت تؤيد البريطانيين، لذا تراها معا حول هذا الاختلاف وعلى من يخسر الرهان أن يشتري للفائز عشر فطائر. حذرهما قائلا: "يمكن أن يحدث أي شيء ولكن يجب أن تعيش حياتك. فإن قلت "انتظري" فلا بد أن تنتظري، ولكن لن أطلب منك" وقال لها: سيأتي الوقت الذي نتلاقى فيه وينكر كل منا الآخر. "إن مصر بدت وطيدة راسخة. فإن الحياة تستمر كما كانت، ولن تتغير الأمور قط. فمن المستحيل أن ندرك أنه في غضون عشر سنوات إلى عشرين سنة سيصبح عالمنا مختلفا، سيصبح عالما آخر. ظننا أنه سيمضي قدما وللاكد." وعلى مدى بضعة أسابيع تالية مارسا الغرام على الشاطئ في خليج ستانلي.

وفي أحد أيام السبت هاتفها روجيرو، في منزلها، ولم تكن عادته أن يفعل ذلك من قبل، عندما رفعت السماعة سمعته يقول: إنهم يبعدونني الآن، وظل على

الخط معها حتى هدأت أعصابها. تم اعتقاله في مكان أبعد من الإسكندرية، حيث كانت تكتب له الرسائل وترسل له السجائر وأحست باستياء نحو الإنجليز.

"وتلك كانت مأساة، على الأقل كما رأيتها في ذلك الوقت، مأساة حياتي. فإن كان لي طريق في الحياة. فالشخص الذي أحببته خرج من حياتي وثار جنوني. فإن كان لي خيار في حياتي، لاخترت رجلا واحدا فقط. حبيبي. ولقد وجدته قبل لاري. إلا أنني أخطأت التفكير بأن المرأة يمكن أن تحب شخصين في حياتها؛ لا لم أخطئ في التفكير؛ أقصد أن اختياري دائما سيكون مع روجي، ولكن المهم أن لاري، أو ما حدث مع لاري، كان دائما خطيرا جدا. فلم يعد لديه ما يفعل سواء مع نفسه أو معي، فلا بد أن نقوم بالجمع بين الاثنين. فلدينا ما نسميه "الحب من أول نظرة. والحب من أول نظرة تجربة يعرفها كل الفرنسيين حب الممارسة، ويعتبرون أنفسهم سعداء إن مارسوها، ولكن لا أظن ذلك على الإطلاق. حسنا فإن ما أقصده هو أنني كنت سعيدة بمعنى أنني قابلت لاري وهذا أمر مختلف في باسترويس وأحاديثنا الطويلة على الكورنيش جعلتني أشعر كأنني مفتونة. بهذا الشكل أقول إنني لم أعد أتمالك نفسي. ولم يعد عندي ما أقوله في الموضوع وسواء أحببته أو لم أحبه، فقد كنت مفتونة بذلك الشخص، لاري. الخد بالفك هكذا، فلا بد أن نكون معا أو لا نكون. لقد كان تلاصقا جسمانيا، وكان لاري أيضا يعانقني. كان حبا متبادلا. وهذا هو الحب من أول نظرة. فإن تكن قد جربته، فلا أستطيع أن أقول لك أكثر من هذا. وحينما ابتعدنا كنا بؤساء فعلا. إذ أحسنا أننا مثل توعمين، لا ليس توعمين بل أكثر من ذلك. هل تعرف التوائم الملتصقة؟ لقد كنا توعمين سياميين.

فى تلك الأثناء كان والدها ينتظران أخبارا عن "مصدوم"، الشاب الذى وعدها بالزواج وقبلت به زوجا: "فالموقف رهيب مع عائلتى يتصاعد بسرعة شديدة وفى غضون يومين أو ثلاثة، وصلت المسألة إلى ذروة الجنون والغضب".

"التقت إيف بـ"مصدوم" مرة ثانية وسارا معا فى نزهة فى حدائق البلدية، حيث عاد إلى مسألة الزواج، فقال: "ربما غيرت رأى؟ غضبت إيف فأنفجرت وهى تقول "قلت لا وغيرت رأىك، لا. لقد كفانى من هذا الموضوع. فلم تعرف ما كنت أمر به فى. تلك الأيام كانت مشحونة بالحب والخوف، "واسترجعت إيف ذكرياتها مع روجى، وتردد اسم "مصدوم"، وضعف تقهتها فى نفسها. صرخت وقالت "أين خطيبك؟ لماذا لم يأت؟ أجابت إيف "لقد انتهت العلاقة"، فصاح والدها "أنت مجنونة، "لن تتزوجى أبدا"قلت: "من يهتم فليذهب إلى الجحيم فأنا تحت رعاية أبى ويجب أن أفعل ما يطلبه منى ولكنى أقول إن عندى الكثير، وأنا خارجة. فقالوا: لن تخرجى، وحبسونى. سيذهبون بى إلى مستشفى الأمراض العقلية، فقد ظنوا أنى أصبت بلوثة عقلية".

فى الصباح التالى تسال إلى غرفتها والدها، كانت عارية من كل ملابسها، التفتت إليه وصاحت: "كيف تجرات على الدخول؟" كانت فى فترة حيضها، قذفت بالفوطة على وجهه، ثم خرجت إلى الشرفة وهى تصرخ على مصدوم طلبا للمساعدة. "خرج الجيران كما خرج مصدوم أيضا إلى شرفته وهو يرتدى روب الحمام وشبشبا ووجهه شاحب من هول ما رأى. "صاحت عليه قائلة "أخرجنى من هنا، لقد حبسونى، أسرع إليها وفى قدميه شبشب حمام، فتح أبوها الباب "ظننت أنكم جميعا حمقى، إلى الجحيم، وجريت مثل أرنب".

فى ذات الصباح اتصلت إيف بدوريل فى مكتب الاستعلامات البريطانى. "لم يكن أحد غيره فى الإسكندرية الذى يمكن أن أتحدث معه. فقد كان الشخص الوحيد العاقل." "إنى قادمة إليك"، وقد تواعدا على اللقاء على شاطئ البحر فيما بعد فى ذلك اليوم. "ماذا حدث؟ سألتها "قالت "سأترك عائلتى". "وماذا أحضرت معك؟ المايوه والإسبيدريل."

وقد وصلت إيف إلى مكتبه فى حالة سيئة. تذكرت كيف عرض عليها صورته وهو فى مكتبه يحمل ابنته بينلوب على كتفيه. لقد أخذت إلى كالاماتا قبل أن يهرب بها إلى اليونان، وبالطريقة نفسها يتذكر جون كرومر براون كيف نزل دوريل من السفينة على أرض ميناء الإسكندرية منفصلا عن أسرته كما تنفصل هى عن أسرته حاليا. عانقها وقال لها "أحب.."



هذه الصورة التى ألتقطت لإيف قبل أيام من لقائها دوريل وحبها له من أول نظرة فى "باسترويد"، بمجرد أن لمحت الكاميرا أرادت أن تأخذ وضعا أنثويا مثيرا، ولكن أحدهم وضع طفلا صغيرا فى حضنها مما جعل أساريرها تتفرج، الفستان الذى كانت ترتديه والذى يشبه لون ورق العنب، ذكره دوريل فيما بعد فى كتابه "رباعية الإسكندرية".

ترك "دوريل" مكتبه قبل نهاية دوامه، واصطحب "إيف" معه إلى فيلا فى سيارة فورد، كان "جوان ويليامز" لا يزال فى الجامعة، وقاموا بإعداد بعض الطعام لأنفسهم وبدأوا فى الحديث، أخبرته "إيف" عن كل شيء، وأحست بالراحة، وأخذت فى البكاء، ثم تقيأت وأفرغت كل ما فى معدتها بطريقة هستيرية، "لظمنى "لاري" على وجهى، ثم أبدى ندمه على الفور، فقلت لا أنا أريده، وكان ينصت إلى باهتمام، وكان رقيقاً ومتفهماً وحائثاً، وشعرت بالراحة والأمان التام وأنا معه، وهناك وفى نفس اللحظة طلب منى أن أتزوجه، وتم كل شيء فى منتصف النهار، ومنذ تلك اللحظة صرنا حبيبين".

مكثت "إيف" فى الفيلا لمدة ثلاثة أيام، ثم قررت أنها فى حاجة للابتعاد عن الإسكندرية لفترة من الوقت، قام "دوريل" بإرسالها إلى طنطا فى غرب الدلتا للإقامة مع "بول جوتش" وزوجته "بيلى"، وكان قد التقى بهما فى "أثينا" فى صيف عام ١٩٣٩، قال "جوتش" فقتت أنا وزوجتى "بيلى" وظليفتنا فى لندن، وقررنا تأجير الشقة التى كنا نقيم فيها بجنيهين فى الأسبوع، وقررنا أن نرى العالم قبل أن تنشب الحرب". قاما بالاتجاه إلى روما أولاً بواسطة الدراجات مارين بيوغوسلافيا وألبانيا، وكانا على وشك الاتجاه شمالاً مرة أخرى إلى بلغاريا، وحدث الأمر عندما كنا فى أثينا وفى إحدى المقاهى الرخيصة الأسعار قابلنا هؤلاء الناس الممتعّين من "كورفو"، كان "لاري" قصيراً وربّعة ويمتلى بالحيوية، أما "نانسى" فقد كانت طويلة وشقراء بالغة الرقة، انهمك الأربعة فى رواية قصص مغامراتهم، وبالنسبة لـ "دوريل" شعر "جوتش" بالتعاطف الشديد معه، بينما كان يرى نانسى أكثر بروذاً".

حصل "جوتش" على عمل فى المركز الثقافى البريطانى، وكان فى طريقه لحضور دورة تدريبية فى "قبرص" وعندما دخلت إيطاليا الحرب تم تحويل اتجاه

سفينته إلى مصر، وتم إرساله إلى طنطا مديرا إقليميا، ثم قابل "دوريل" مرة أخرى في زيارته للقاهرة، وفي وقت اندلاع للحرب حيث تم ترحيلهم إلى "القدس"، سافر "آل جوتش" في نفس القطار، بينما مكثت "تاتسي" والجميع في نفس البنسيون هنالك.

تم عرض حياة "دوريل" الشخصية بالفعل على "جوتش" عن طريق مجموعة من الصور الفوتوغرافية التي تم عرضها عليه، وظهرت الطبيعة السلسة لـ "جوتش" جليلة أمام "دوريل" الذي اعتبره البلمس الشافي في وسط هذه التعقيدات الأخيرة التي ألمت بهم. قضت "إيف" عشرة أيام في طنطا مع "آل جوتش" حيث وجدت السكنية التي كانت في حاجة ماسة إليها. "توافقنا أنا وبيلي مع "إيف" بطريقة جيدة، كما أنها أقامت معنا هادئة، لم نفعل الكثير من أجلها، فقط كانت تجلس بعيدا بهدوء"، تتذكر "إيف" صمت "آل جوتش" والذي يُظهر لمن يسكن معهم كيف أن: "بول" يحمل معه إنجلترا أينما حل، إذا لم تكن تستطيع أن تسمع صوت كرات التنس من حولك، فالفضل في إدراك ذلك يعود عليك".

وبالرغم من الراحة التي كنت أجدها في طنطا فإنني كنت أشعر بالرعب من التفكير في الألم الذي يمكن أن أكون قد تسببت فيه لوالدي، اللذين لا يعرفان أين أنا، والمشكلة أنه عندما تعود هي إلى الإسكندرية، كيف تستطيع أن تهْدئي شكوك والدها، الذي "كان يتصرف معي وكأنه زوجي، فقد كان غيورا جدا"، كذا أمها التي تتصف بالفضول الشديد والتي إذا ما وجدت شيئا ما يسعدني فإنها ستقوم بتعطيمه، ولا أعتمد على أن أقول إنني أعيش مع "دوريل"، "هذا هو الشيء الوحيد الذي لن أقع فيه كخطأ، فلن أخبر والدي أي شيء عنه، لأنه رجل مطلق، أو حسنا إنه يستعد للطلاق، إنه متزوج حاليا، كيف يمكنك أن تتزوجي رجلاً كهذا؟ ثم إنه ليس يهودياً"، وفي نفس الوقت كان "دوريل" يحثها على الالتحاق بعمل، رغم أن "إيف" كانت تعتقد أن راتبه مذهل بالمعايير التي تسود هنا، ولكنه كان يشكو أنه بالكاد

يستطيع أن يعيش بالاعتماد عليها، كان الحل بأكمله يكمن فى "مستشفى كوتسيكا"، وقد عادت إليه "إيف" للعمل كمرضة تحت الاختبار حيث كانت تجد المبيت والمأكل، "طالما كان أبواى يتدخلان فى حياتى فإن المستشفى هو منزلى، و"لاري" لم يوجد فى حياتى".

ولكن "إيف" لم تبت بالمستشفى على الإطلاق: "كنت أبيت مع "لاري" وكل ليلة تذهب إلى رقم ٤٠ شارع فؤاد فى الشقة المعتمة فى الطابق الثانى أو الثالث حيث يقيم "دوريل" فى حجرة، كان الأمر خاصاً بيننا نحن الاثنين فقط، وعلى الرغم من أن هنالك آخرين يعيشون فى الشقة أيضاً، ومن بينهم زوجان غريباً الأطوار فى منتصف عمريهما، فإنهما كانا لا يفارقان حجرتهما، ولأنه لم يكن بالكاد موجوداً فى ساعات النهار بالشقة فإنه لا يعرف عنهما شيئاً على الإطلاق. وبدلاً من ذلك فإنها ستستيقظ من نومها فى الصباح الباكر وتطل من النافذة لترى ما إذا كانت عربة الحنطور قد حضرت أم لا، فلقد رتبت مع سائقها للحضور يومياً والانتظار فى الشارع تحت النافذة مباشرة. كان فى نهاية شهر مايو أو أوائل يونيو وشمس الصباح حارة، ولذا فإن العربة والحصان كانا سينتظران فى ظل الشجيرات التى تقع أمام الحديقة الأمامية للفيلا الكلاسيكية والتى تقع فى الجهة المقابلة ومتعامدة قطرياً تجاه الحجرة فى الركن الذى يتقاطع فيه كل من شارع فؤاد وشارع سيدى الكياتشى، ومن هنالك يستغرق الوصول إلى مستشفى كوتسيكا عشر دقائق فقط بالعربة الحنطور.

يعتبر "مستشفى كوتسيكا" واحداً من الأماكن البارزة التى يتم ذكرها بانتظام فى كتاب "الرباعية"، عند الرد على مكالمة تليفونية من "كلي" مثلاً (أتكلم من المستشفى اليونانى، وميلسا هنا فهى مريضة جداً، ربما تحضر^(١٢))، تسلق لاردى المنحدر المنخفض الذى يطل عليه المستشفى بعد أن سار بتؤدة طوال الطريق

الثعباني الطويل لطريق أبوقير.. الإحساس بالآلفة الروحية والتي كانت تزداد فى داخلى كانت ترجع إلى حقيقة أننا نقترّب من الحجرة الصغيرة التى رأيت فيها "كوهين" وهو يحتضر^(١٣)، والتي كانت عشيقته هى "ميلسا"، قبل أن تصبح صديقة لـ"دارلي".

والآن "إيف" هى صديقة "دارلي"، وقد بدأت نزهاتهما الأولى من شارع فؤاد حيث أخذها معه إلى أستوديو للتصوير الفوتوغرافى، فعل "مصدوم" الأمر نفسه قبل أسابيع قليلة وكانت النتيجة عجيبة: "عادة عندما أتأهب لأكون فى وضع مناسب لالتقاط صورة فوتوغرافية فإن النتيجة تكون أن أبدو فى صورة مصاص الدماء وكان الأمر نفسه على وشك الحدوث عندما اقترح علينا المصور أو "مصدوم" لا أتذكر أن يجلس ومعه طفلة فى ركن من أركان الأستوديو: "فقط انظرى لرأس الطفلة"، مما جعلنى أشعر بالاسترخاء والابتهاج ولذلك يعزو أننى كنت أبدو متألقة فى الصورة: "إن "إيف" ترتدى ثوبا من الأضواء، رداء صيفيا من موديل له لون يشبه لون ورق العنب، كان ذلك فى الوقت الذى كنا مستغرقين أنا و"لاري" فى علاقتنا بشدة، كان يبدو أنهما يلتقيان فى "باسترويدس": قال "دارلي" يصف ميلسا عندما تبادلنا أول قبلة على شاطئ البحر: "كانت تبدو مندهشة، متألقة بشكل غير عادى، بزيها الصيفى الجديد المتموج الذى يشبه لون ورق العنب، هنالك وفى نفس الوقت قررت أن تكون هى حبيبتي"، مشينا نتأبط ذراعينا على شاطئ البحر، تبادلنا أحاديث كثيرة مليئة بقصص الناس الذين يعيشون بدون تخطيط مسبق، وبدون تنظيم لحياتهم، كانت أمزجتنا غير متقاربة، شخصياتنا وميولنا كانت على طرفى نقيض، ولكن وبطريقة سحرية كنا نشعر أن هذه الصداقة واعدة بالنسبة لـ"كينا" بشكل أو بآخر".^(١٤)

عندما اصطحب "دوريل" "إيف" للمصور الفوتوغرافى، أخذ الكاميرا من المصور: ثم طلب منها أن تجلس أمام المرأة والتقط الصورة بنفسه، كانت "إيف" تبتسم، ابتسمت مرتين، فى الصورة الأمامية تبتسم ملء وجهها، وكانت تبتسم أيضا فى الصورة الجانبية التى تبدو فى المرأة، أعطاهما "دوريل" مشطاً لتمسك به لأنها لم تكن تدرى ماذا تفعل بيديها، كانت تبدو متزنة وأنيقة وأرستقراطية، فلم تعد تلك الفتاة التى ترتدى زياً فى لون ورق العنب، ولكنها الآن سيدة مجتمعة، سيدة يمكنها أن تصبح "جوستين"، يمكن ألا تلاحظ ذلك عندما تبتسم ملء وجهها، ولكن ابتسامتها التى بدت من خلال المرأة كانت تشى بلمسة من التوجس.

استيقظ جيدج برينتون" فى وقت مبكر من ليلة من ليالى الصيف على أصوات تتبعث من منزله فى "جليمينوبولو" ارتدى الروب ونزل الدرج ليستطلع هذه الأصوات: "بمجرد أن دخل إلى حجرة الرسم رأيته واقفاً أمامى منتصباً أمام المدفأة... رجلاً أنيقاً، وكان أيضاً يرتدى الروب المنزلى، وما أن رآنى حتى مد يده مصافحاً وهو يقول "والد جون.. هل تخمينى صحيح؟"، كان الضيف غير المنتظر هو الملك فاروق الذى قابل "جون" و"جوسي" فى حفلة بالمدينة هذا المساء، كان "جون" يشغل الآن منصب الملحق العسكرى الأمريكى بالقاهرة، وفى أثناء زيارتهم للإسكندرية كان هو و"جوسي" يجلسان مع جيدج "برينتون"، وعوضاً عن العودة لقصر المنتزه، سأل فاروق إن كان يستطيع قضاء الليلة هنا، مبدئياً ملاحظته: أنت تعرف أنه لا منزل لى، فكالمتعاد امتلأ المنزل بالضباط فى طور النقاها، ولم يعد هنالك فى المنزل سرير واحد إضافى، كما أن الملك تقبل مسروراً عرضهم بأن يضعوا لهم مرتبة على أرضية حجرة الرسم.

وعلق جيج برينتون" قائلاً: "وفي الحقيقة لم يكن الملك لديه لا منزل ولا صداقة حميمة، وكيف يمكن أن يكون لديه؟ ورغم منصبه فإن مساعديه المقربين، ووزراءه يتركونه وحيداً ويترجعون، وأى نوع من المنازل يمكن أن يكون لرجل لا زوجة أو عائلة لديه، لقد تحطمت حياته العائلية، هل يمكن مقارنة حياتنا العائلية الحبيبة المليئة بالشباب والحيوية واللقاءات الدافئة بتلك المؤسسة الضخمة في المنتره".

كان الملك فاروق سعيداً بجو الترحيب البسيط الذى أبداه "آل برنتون"، لقد كان فى الواقع شخصية مرحة تملك حس الفكاهة على الرغم من وظيفته غير العادية. جلس القرفصاء على الأرض وهو متصلب الساقين ذات مرة ليبحث عن بعض الأجزاء فى الرف السفلى للمكتبة، ثم مد ذراعيه على صدره وأبدى ملاحظة وهو يتنسم قائلاً: "العامل الشرقى..ماذا!!"، يتذكر "برنتون" قائلاً: "كان رجلاً نبيلاً وذا روح رياضية دائماً، ويمكننى أن أضيف لأنه أثير عنه الكثير من الأمور القاسية، أنه فى كل تعاملاته مع أفراد عائلتنا- ولقد تعامل مع الكثير منهم دائماً- لم ينقصه الجلال والاحترام فى أى وقت من الأوقات".^(١٥)

أصبح فاروق زائراً منتظماً لـ "جليمينوبولو" وكذلك لبرج العرب وهو يشارك جون ذلك السرير ذا الإطار الحديدى فى غرفته، قال جون فى تلك المناسبة وهو يقدم للملك الجانب الأفضل تجاه الحائط والأكثر راحة فى السرير: "بعدك يا جلالة الملك"، ولكنه متذكراً بأنه الملك وأنه يجب أن يكون المواجه أولاً فى أوقات الخطر أصر على النوم فى الناحية الخارجية. وعندما سأله جون بخبث عما إذا كان يمكنه أن يتلقى التحية من موكب احتفالى للقوات والدبابات البريطانية، أجاب ولماذا أنا؟ إنهم دائماً ما يأتون بالدبابات من أجلى، ولكن تصرف "لامبسون" السيئ فى العام السابق كان لا يمكن تجاهله بإجابة ساخرة.

كان الملك فاروق يشير إلى ليلة ٤ فبراير ١٩٤٢ عندما قامت قوة مقاتلة بريطانية مكونة من رتل من السيارات المصفحة والدبابات بمحاصرة قصر عابدين بالقاهرة، وقامت القوة بتحطيم بوابات القصر ودخلت سيارة السفير البريطاني من طراز "رولز رويس"^(١٦) إلى داخل القصر، وقام السير "مايلز لامبسون"^(١٧) الذى يبلغ طوله ستة أقدام ونصف بالسير خلال أروقة القصر لمواجهة الملك، واتهم الملك طبقاً لبنود المعاهدة المصرية- الإنجليزية بالتهور وعدم المسؤولية التى أدت إلى تعريض أمن مصر والدول الحليفة للخطر، وقال موضحاً إن جلالكم قد فقدتم الصلاحية فى تولى العرش"^(١٨) كانت هنالك قطعة بحرية تنتظر فى الإسكندرية لتحمله إلى المنفى، ناول "لامبسون" للملك خطاب الخلع من العرش وطلب منه التوقيع عليه.

ولكنه لم يكن الملك فاروق، بل الأرجح أنه مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد هو الذى عرض وضع بريطانيا فى مصر للخطر، بينما كان يشغل منصب رئيس الوزراء فى عام ١٩٣٦ فإنه قام بالتوقيع على المعاهدة المصرية- الإنجليزية، منهياً بذلك سنوات الرفض والعناد للتسوية مع بريطانيا، وفى نفس الوقت ظل حزب الوفد هو الحزب المهيمن على الحياة السياسية فى مصر والمُعبر عن الطموحات الوطنية للشعب المصرى، وكانت بريطانيا ترى ضرورة التعاون المستمر معها لتسهيل أعمال التحالف العسكرى.

فقد النحاس منصبه قبل الحرب، والآن يقوم بالضغط على بريطانيا لإعادته إلى السلطة مهدداً بأن الانفجارات الشعبية يمكن أن تشتعل مرة أخرى على غرار

ما حدث فى عام ١٩١٩، إذا ما تسببت الحرب العالمية الثانية فى مشاكل اقتصادية لمصر كما حدث فى الحرب العالمية الأولى، عندما كان المحصول السيئ فى إبريل ومايو ١٩٤١ قد أحدث نقصاً كبيراً فى الدقيق والبقول والزيت والسكر وتضاعفت أسعار السلع الرئيسية عن مثيلتها قبل الحرب، وارتفعت صيحات الفقراء بأن الجيش البريطانى يستهلك كل المواد الغذائية، كما أن حزب الوفد عندما كان فى السلطة أبدى حماساً شديداً لتحسين أحوال العمال الـيدويين أو الفلاحين، رغم أن مصالحهم كانت مع ملاك الأراضى وأغنياء الطبقة الوسطى، ولكنه اكتسب شعبيته من الدعوة إلى الوطنية.

انتهاز النحاس فرصة ذكرى وفاة سعد زغلول لإلقاء خطاب نارىة فى الإسكندرية والقاهرة واتهم البريطانيين بتدمير الاقتصاد فضلاً عن انتهاك المعاهدة الموقعة بين مصر وبريطانيا، وبينما استمرت الاضطرابات فى الخريف، أرسل "إيدن" برقية إلى "لامبسون" يشكو فيها من "قدرة حزب الوفد على التأثير على رأى العام طبقاً لأهواء النحاس باشا ودون أن يتحمل أدنى قدر من المسؤولية"، ولكن "إيدن" كان أقل اهتماماً بأمن مصر المباشر عن استمرار النفوذ البريطانى الكبير فى فترة ما بعد الحرب، والتى ستكون طبقاً للمعاهدة المصرية البريطانىة مضطرة إلى سحب قواتها، ثم تأتى فى عام ١٩٥٦ للتفاوض حول المعاهدة نفسها.



التقط دوريل هذه الصورة الفوتوغرافية لإيف بعد ارتباطهما مباشرة. قبلها بخمس سنوات كتب في مذكراته قائلاً: هنالك جزء من الإنسان يتم فقده عند الولادة، ويمضي باقي عمره في البحث عن هذا الجزء المفقود في "عالم من المرايا".

واستنتج "إيدن" أنه لابد من عقد صفقة مع النحاس باشا، وتمضى برقيته قائلة: إننى أميل إلى الاعتقاد بأننا لا يجب أن نواجه مشاكل خطيرة في مصر أثناء الحرب إلا إذا تأزمت الأمور ضدنا، ولكن ليس بالضرورة يمكن أن يكون حقيقياً في الفترة التي تلى توقف الأعمال الحربية مباشرة، في تلك الظروف سيكون من المستحسن وقبل نهاية الحرب البدء حالاً في الإعداد لحكومة تضم أغلبية وفدية،

وذلك حتى لا يكون حزب الوفد فى موقع يمكنه من التصل من مسئوليته عما يحدث فى مصر".^(١٩)

ولكن إذا كان الحل يكمن فى أن يكون النحاس فى خدمة أهداف السياسة البريطانية على المدى الطويل، فإن المشكلة ستكون فى الملك "فاروق" الذى يرغب فى أن يكون ملكاً مستقلاً لمصر المستقلة،^(٢٠) وحتى فى أثناء مفاوضات معاهدة ١٩٣٦ كان إيدن يفضل أن تكون مصر مستعمرة، وهى وجهة النظر التى كررها "لامبسون" عندما كتب فى مذكراته فى عام ١٩٤٠ "أنه كان يعتقد ولسنوات طويلة أن أفضل أشكال العلاقة الدائمة بين مصر وبريطانيا ينصب فى أن تندمج مصر بأى شكل من الأشكال تحت لواء الإمبراطورية البريطانية".^(٢١)

وفى شهر فبراير ١٩٤٢ وفى عشية انقلاب قصر عابدين، طلب "لامبسون" من الملك "فاروق" أن يدعو النحاس لتشكيل حكومة وفدية، ولكن الملك لم يكن راغباً فى هذا، والأهم من ذلك فإنه وكما كان الأمر فى أيام الملك "فؤاد" فإن الوفد والقصر الملكى كانا غريمين فى السيطرة وفى تحديد مصير البلاد، ومن حق الملك فاروق أن يعتقد أنه شخصية محبوبة من الشعب شأنه فى ذلك شأن النحاس الذى كان يُعد من وجهة نظره سياسياً انتهازياً، ولكن "لامبسون" كان يرى أن سلوك الملك لا يتماشى مع المتطلبات الأساسية للتحالف العسكرى، ولذا أرسل الدبابات إلى قصر عابدين.

كان لتصرف "لامبسون" رد فعل عكسى. فقد أثار غضب الوطنيين من التدخل الأجنبى، وأثار القلاقل للحكومة الشرعية، وأشعل الممرارة بين مصر وبريطانيا والتى سوف تصل ذروتها فى كارثة السويس.

وصف قادة الأحزاب المصرية الأخرى النحاس بالخيانة، بينما ألقوا باللائمة على بريطانيا كما كانوا يفعلون من جراء استمرار النقص فى توفر السلع

الأساسية، وارتفاع تكاليف المعيشة، وقاموا بتوجيه الإهانات إلى حزب الوفد واتهموه بالخضوع للسفارة البريطانية، ولكن النحاس لجأ إلى فرض القوانين العرفية وبمعاونة البريطانيين استطاع مواجهة المعارضين السياسيين.

كان الشعور بالمهانة مما حدث فى قصر عابدين عميقاً ومريراً، وفى القوات المسلحة التى يعتبر الملك القائد الأعلى لها، كتب ضابط مصرى صغير إلى صديق له يقول: "بالنسبة للقوات المسلحة كان هذا الحادث صدمة هائلة، كان الضباط فى السابق يتحدثون فقط عن المتعة واللهو، أما الآن فيتحدثون فقط بشأن التضحية والدفاع عن الكرامة حتى لو اقتضى الأمر أن تكون حياتهم هى الثمن.. وتراهم يشعرون بالندم لعدم تدخلهم رغم ضعفهم الواضح لاستعادة الكرامة الوطنية وتطهير شرفهم بالدماء، ولكن عندما يأتى الرجل الذى ينتمى إلى "باكوس" واسمه "جمال عبد الناصر" فإن المستقبل سيكون لنا". (٢٢)

هجر المستأجرون الغرباء الذين كانوا يقطنون الشقة رقم ٤٠ شارع فؤاد حجراتهم فى فترة ما من شهر يونيو ١٩٤٣ تاركين "دوريل" بمفرده فى تلك الشقة الكبيرة والمعتمة، ولما علم أن "بول جوتش" انتقل إلى الإسكندرية، التقط "دوريل" سماعة التليفون وسأله عما إذا كان يحب أن يقاسمه السكن.

احتار "جوتش" لماذا سأله "دوريل"، وكان بعيداً عن ذهنه أن يكون ذلك ترتيباً مناسباً، عندما هاتفنى "دوريل" متسائلاً عما إذا كان فى إمكانى مشاطرته المسكن، لم أفهم الأمر جيداً، ولم أكن أعلم كيف سيكون أليفاً معى، اعتقد "جوتش" أن الأمر برمته من دافع الاحترام من وجهة نظر "وزارة الخارجية"، فإذا كان "دوريل" و"إيف" يخططان للعيش معا فهذا أفضل من أن يفقدا خصوصيتهما فى الزحام، والزحام هو ما حدث فى ٢٨ يونيو (٢٣) عندما انتقل "جوتش" من طنطا مع "بيلي" وزوجته، "لينيت" وابنته، ومربية وكلب يدعى "سافو" وأيضاً صديقة

لـ"بيلي" تُدعى "جين هيل"، والتي تذكرها "إيف" بأن لديها حولا في إحدى عينيها، الاحتمال الأرجح هو أن "دوريل" كان يرغب مشاركته في عبء إيجار الشقة، بينما يكون الانفراد بها محببًا من جهة الخصوصية وكرجل يفضل السرية غالبًا، كما أنه كان يتوق إلى التنوع في العدد، ويمكن أن يكون الأمر بالنسبة لـ"دوريل" أصدقاء لحياته السابقة في الهند و"كورفو" وإحاطة نفسه بأسرة.

كان التقارب بين "دوريل" و"جوتش" قد امتد إلى ٢٤ ساعة على مدار اليوم، فالمعهد البريطاني في الطابق العلوى مباشرة فوق "وزارة الخارجية" مباشرة والواقع في ١ شارع طوسون، وفي الوقت الذي كان "جوتش" يجد "دوريل" دقيقًا في شعائره الاجتماعية، لدرجة أنه من مكتبه في الطابق السفلى يطلبه تليفونيًا بلغته المهذبة لرجل يتسم بالنبل الحقيقي ليسأله عما إذا كان في مقدوره أن يأتي ومعه أى شخص على الغداء، فإنه عندما يعود إلى منزله كان متسامحًا جدًا تجاه الحيوانات التى يحتفظ بها "جوتش". لم يكن هناك ألطف من "إيف" و"لاري" لتقاسمهم السكنى فى شقة واحدة، كانت تعشق "لاري"، كانت تجد راحتها مع شخص يحبها وتحبه وتتمنى أن تعيش معه، وهذا هو فى الواقع ما كانت تفعله، بالمقارنة بإجبارها على رؤية أناس لم تحبهم ولا تريد الزواج منهم.

كان "دوريل" يعشق كل ما هو مضحك وغريب وشاذ وغير عادى، وهو الذوق الذى كان يشاطره فيها "جوتش" وكانت المادة الأساسية لهذه الهواية الغربية هى الكم الوافر من الأخطاء المضحكة الموجودة فى جريدتى "الإيجيشيان جازيت"، و"الإيجيشيان ميل"، غنيمة "بول" كانت تتمثل فى إعلان يمثل امرأة تتألق من الفرح لأنها حصلت على ثلاجة جديدة، أما الكلمات المكتوبة تحتها فكانت تقول "كل امرأة تحتاج إلى ثلاجة". قام "دوريل" بتجميع حصيلته فى سجل أسماء "ملف الأخطاء

المضحكة فى مصر" (٢٤) ومنها: كان هنالك اللورد لويس موينتبانتن، بابتسامته الممتلئة بالقمل (بدلاً من ملء شذقيه)، تعزيزات ثقيلة من الحمقى (بدلاً من الجنود) تم إنزالهم فى برلين، بريطانيا تمضى قُدماً بخططها بالفئران المصنوعة مقدماً للمتزوجين (تم استبدال كلمة المنازل بالفئران)، كما جاء فى إعلان آخر:

قاعة التجميل

مدام مارجوت بوب

الشمس

إزالة الشعر المتطرف إلكترونياً

(بدلاً من إزالته من الجذور)

علاج النحافة عن طريق التقشير الموضعي

منتجات تجميل

أسعار خاصة للسيدات المشابهات

١٢ شارع سيزوستريس - الطابق الثالث - الإسكندرية

ولكن بصرف النظر عن الحمقى وإزالة الشعر والتقشير فإن ما جذب "دوريل" لهذا الإعلان هو العنوان وارتباطه بـ "مدام سيزوستريس" فى شعر "إليوت" وهى عرافة شهيرة لقراءة الطالع، وأن "إليوت" قد ذكر الإسكندرية بأنها مدينة الموتى

أى مدينة أعلى الجبال

تتصدع وتعود فتُشيد ثانيةً فى الهواء البنفسجي

أبراج النهار

القدس أينما الإسكندرية

فيينا لندن

سراب^(٢٥)

أما دوريل فسوف يستعين بالكثير من الصور والموضوعات التي وردت في قصيدة "الأرض الخراب" في رباعيته عن الإسكندرية.

تتذكر إيف Eve كيف كان دوريل يتبادل الأحاديث المسلية مع جوتش Gotch وتتناول نوادر "أولئك المصريين الغرباء"؛ مثل الواقعة التي تحكى عن رجل كان يسير في الطريق وبجانبه حماره المحمل بجوال لفت انتباه عسكري، فقام بفتح الجوال فتساقطت منه رؤوس بشرية. أو تلك التي تناولت واقعة العثور على إحدى سيارات الأجرة خارج (المبنى الواقع) في ٤٠ شارع فؤاد، ووجدت بداخلها رأس السائق وقد ألقيت على الكرسي الذي بجانبه قطعها ثلاثة أفراد مخمورين يخدمون في القوات الملكية البريطانية RAF في أبى قير، وذلك لأنهم غضبوا من مطالبة السائق بأجرة عالية. ووجد لكل من الواقعتين صدى لهما في رواية جوستين Justine حين روى الدبلوماسى الفرنسى جورج بومبال George Pombal على دارلى Darley كيف عثر على زوجة القنصل السويدى مفصولاً رأسها عن جسدها: "بعض النساء البدويات من قاطنات الخيام بمنطقة القرية كن ممن استجوبوا، وفي ظل إنكارهم المستميت لأى دراية لهم بالحادثة إذا بالرأس المقطوعة تتخرج من منزr إحداهن، إذ حاولن استخراج السن الذهبية التى كانت سمة غير سارة لابتناسبتها المألوفة^(٢٦)."

لم تدرك إيف مطلقاً ما إذا كانت تلك النوادر المتبادلة مجرد حكايات التقطها دوريل وجوتش من القيل والقال أو وردت في بعض الكتب أو الجرائد، على الرغم

من أنهما كانا يسردانها بطريقة تقنع من يستمع بأن ما من أحد قد سبقهما إليها ولا ريب. وذات مرة "عاد لارى Larry لمنزله بعد العمل وهو ممتنع اللون، فقد رأى (فى طريق عودته) أفندى مهندس الزى يسير فى الطريق ومتجهاً نحوه مرتدياً بزة سوداء وحذاءه لامع والطربوش فوق رأسه، ولكن بمجرد أن اقترب من لارى لاحظ الأخير أن سداة من الفلين مثبتة مكان الأنف فى وسط وجهه. ضحكت وضحك معى الجميع؛ بول Paul وباقى من حضر من هذا، ورفضنا أن نصدقها، إلا أن الجد الذى تحلى به لارى مع حالة امتناع لونه كانا خير شاهد على صدقه"، كما حدثنا كذلك عن أنه قد قابل قرينه والرعب الذى ملأ قلبه من هذه التجربة. وكانت إيف مغرمة بسماع قصص دوريل المسلية والمشوقة للغاية لأنه فى كل مرة يضيف إليها حبكة جديدة"، كما ذكرت عنه "أنه شخص بارع فى التسلية" كما أن "له طريقته الخاصة فى اجتذاب الناس لعالمه" ومع أنه "نو قدرة على تأليف (حكايات) ارتجالاً تتفق مع المناسبة التى تقال فيها، فإنه يصدق ما يقوله".

كان نطاق عالم دوريل فى هذا الوقت متاخماً لشارع فؤاد، فى المنطقة الواقعة بين شقته ومكتبه، بالإضافة إلى ما بينهما من أماكن اعتاد التردد عليها. وكانت مكاتب بطيريركية اليونانيين الأرثوذكس تشغل المبنى رقم ٣٠، وهناك ارتبط دوريل بصداقة مع أمين المكتبة بها ثيودور موسخوناس Theodore Moschonas وهو أحد مناصرى الحركة الفينيزولية Venizelist (وهى واحدة من كبرى الحركات السياسية فى اليونان، التى بزغت فى أوائل القرن العشرين واستمرت حتى منتصف السبعينيات وكانت تناصب الحكم الملكى العداء، وتحالفت مع دول الحلفاء ضد ألمانيا فى الحربين العالميتين) ومن مواليد الأراضى المصرية، وكان فى هذا الوقت يؤلف كتاباً عن دور البطيريركية فى حرب التحرير اليونانية، كما كان يوجد فى نفس المبنى النادى اليونانى حيث قام فينيزيلوس

Venizelos بالمرور عليه فى أثناء زيارة الانتصار التى قام بها عام ١٩١٥، ووصف دوريل هذا الجزء من المدينة كالأتى: "المشى فى أخايد الشوارع التى لا تتسى، وتمتد فى كل جانب، متشعبة من محور مقبرة مؤسسها مثل أنزع نجمة البحر^(٢٧) وهو الجزء الذى ضم معظم شخصيات الرباعية Quartet، فكان دارلى وبومبال يقتسمان شقة فى شارع النبى دانيال، وكانت شقة كلى Clea فى شارع فؤاد ومرسمها فى شارع القديس سابا عند الأتيليه، وكانت جاستين ونسيم يقطنان منزلاً يبعد عن شارع فؤاد الرئيسى، وسكن بالتازار Balthazar فى شارع ليبسويه فى "الغرفة المتهالكة ذات الكرسي الخيزران الذى يصدر صريراً طوال الليل، وهى المكان الذى ألقى فيه ذات يوم شاعر المدينة القديم قصيدة "البرابرة" The Barbarians^(٢٨) واصطحب دوريل إيف يوماً إلى تقاطع شارع فؤاد مع شارع النبى دانيال وأخبرها أن الإسكندر الأكبر دفن هنا فى هذا المكان، حيث كانت تسمعه لأول مرة، ثم اتجها إلى شارع ليبسويه حيث وقف دوريل فى شموخ وأنشد قصيدة "فى انتظار البرابرة" Waiting for the Barbarians باللغة اليونانية. ونقول إيف إنه طوال فترة وجود دوريل فى الإسكندرية، لم تحب قصيدة لكفافيس غير هذه القصيدة.

وربما اتجه دوريل وإيف إلى مقهى بودرت و باسترودس Baudrotmand Pastroudis لتناول بعض المشروبات ولاسيما المقهى الأخير الذى كان المكان المفضل لدوريل لمقابلة أصدقائه، ولكن إذا أرادا تناول وجبة هادئة سوياً فإنهما اعتادا على التوجه من شقتهمما والانعطاف إلى شارع صفية زغلول حيث قاعة المشويات الفخمة أو المطعم الكائن فى سانتا لوتشيا Santa Lucia الذى كان مملوكاً فى هذا الوقت لشخصين أحدهما يهودى والآخر يونانى، وكان لدوريل حساب مفتوح به، وبمجرد أن يستلم لارى راتبه الشهرى يذهب لسداد الإيجار والفواتير

الأخرى ثم يصرف ما تبقى منه. ولم يكن لديه سوى بزة واحدة، يرتديها دائماً ولا يغير سوى القميص، معللاً ذلك بأنه ليس لديه مقدرة على شراء ثياب، ولم يكن ذلك إلا لأنه ينفق الكثير على المسكرات، فإذا ما توافر لديه مبلغ كبير من المال، اصطحب إيف إلى أحد الأماكن المكلفة في أحد الشوارع الصغيرة المتفرعة من شارع شريف باشا كيونيون بار Union Bar وبيت كوين دي فرانس Petit Coin de France.

ولكن دوريل لم يصحب إيف إلى (فندق) سيسل Cecil لتناول مشروب أو طعام أو لمجرد الترفيه، وطوال المدة التي عاشتها بالإسكندرية لم تمر قط من بابه كي ترى صورتها في المرأة مثملاً فعلت جاستين، وكان أصدقاؤها القدامى يعتقدون أن المكان يسوده الوقار كما أنه يفوق مستواهم الاجتماعي، وبالإضافة إلى ما سبق فإن قدمها لم تطأ الحى التركى - كجاستين - إلا في بعض المرات القليلة التي ذهبت فيها لزيارة والدها عندما كان يشارك أخاه "تسيم" في مكتب في شارع دي فرانس. "وقد كتب لارى في مكان ما أنى على علم بكل تفاصيل الحياة الجنسية عند العرب، ولدى عناوين المواخير في الإسكندرية، ومنذ هذا الوقت أقبل الناس على يسألوننى عن هذه المواضيع وكأنى خبير بها، كما أنى لم أخبره مطلقاً أنى نصف يونانى، وأجزم بهذا، ولكن هذا من نسج خياله المعهود".

وقد اقترب دوريل من الحقيقة فيما يتعلق بإيف وعلاقتها ببعضها البعض، عندما ذكر أنهما يشتركان في نوع من حياة اللاجئين " (٢٩).

لقد رفضت إيف الصفات القمعية اليهودية لوالديها، وامتد رفضها ليطول مدينة الإسكندرية وكل ما هو مصري - رفضت كل شيء تقريباً كانت تعرفه وتحبه. وتذكر إيف، أن "لارى ينتقد المصريين بصورة منتظمة، كان نقده أشبه

بلازمة تنثير الانتباه. فلم يعد له شيء سوى ازدياء مصر، عاد للبيت ثائرا مشحونا بالغضب على المصريين. "أحد الأسباب، كما تعتقد، أنه كره ألا يكون في اليونان. راح يسب كل المصريين والإنجليز والفرنسيين واليهود، أما اليونانيون فهم فقط الذين أحبهم، "طريقتهم في الحياة، ولنظرتهم للعالم مع أنه يعرف عنهم أنهم محتالون وكذابون وخائنون ومجرمون، لقد كان يونانيا عمليا " وفي ضوء فهم رفضه لها، أصبحت الإنسان الوحيد التي يمكن أن "أحدث معها فعلا". (٢٠)

ولكن الموضوع أكبر من ذلك. فقد رأى دوريل في إيف كائنا محطما ورأى أنه يستطيع أن يسهم بشيء في شفائها. "إنني مؤمنة بأمور كثيرة سخيصة في ذلك الوقت غير أن لاري قد أعاد تشكيلى، كان يسأل عن كل شيء. فالأمر بالنسبة له مسألة مبدأ، فمن وجهة نظره حينما يفوز بجولة على فإنه بذلك قد غير مسلكى وشغل الموقع الذى تخلّيت عنه توا- كان يقوم دائما بدور محامى الشيطان. والنتيجة يقوم بعملية هدم لإعادة البناء، وهى العملية التى كانت تحتاجها إيف واعترفت بها. "فى أول الأمر كنت مندهشة، إذ اعترتني صدمة، ولكن حينما وقع ما بدا أنه كل شيء، أوصيك بأن تبعد كل شيء من أمامى، فلم أعد أعرف نفسى، ولم يسبق لى استخدامهما من قبل. ولهذا نعم، فقد أصبح عزيزا جدا على، لأنه وبرغم أنه جعلنى أعانى الكثير فإننى أرتعد فى التفكير لما حدث، فلم أحظ بهذه النوعية من التعامل معى من قبل.

لقد كانت البداية، شكلية وبدأت استعيد ثقتى بنفسى، والفضل يرجع إلى لاري رغم أنه بنى جزءا من كيانى على جانب وهدم جزءا آخر منه. أعطانى قبلة على يدي ثم صفعه على يدي الأخرى. "

ولكنك لا تعرف متى يكون متعاطفا ومتى يكون قاسيا. فعندما كان متعاطفا ومتفاهما معى كان رائعا. غير أن لارى كان ملاكا وشيطانا فى آن. ولا طريق يجمعهما! "تذكرت إيف ذات مساء عندما مشيا سويا إلى ناصية شارع فؤاد لمشاهدة فيلم "كازابلانكا" فى سينما "ريالتو الواقعة فى شارع صفية زغلول. ولكنها لم تتذكر شيئا من الفيلم ذاته (ولا تريد أن تشاهده ثانية) لأنها كانت تبكى طول الطريق ويحاول دوريل أن يعتذر قائلا: "أسف، أنا أسف" كان يردد دائما: "أسف" بعد أن ضربنى ثم ضربنى ثانية. "وفقا فى الصف لدخول السينما، شيء ما يفعله مع إيف" لا يعرف من هو لارى، لم أعرف إلى أى مدى كان مهتما بى: لقد بدا وكأنه سعيد فى نفسه. فلم أفهمه من قبل وحتى الآن لم أستطع فهمه، لقد كان غامضا، ومتقلبا."

كان دوريل فى ذلك الوقت يستكمل كتابه "بلد خاص A Private Country وهو مجموعة أشعار طبعتها شركة فيبر أند فيبر فى نهاية السنة، خلال زيارة عارضة إلى القاهرة بناء على تعليمات السفارة وساعد فى إعداد مجلة Personal Landscape وهو العدد الوحيد الصادر فى عام ١٩٤٣ والذي كان من المتوقع صدوره فى أكتوبر. ويتضمن أحدث قصائد دوريل وهى الأساطير Mythology.

وتحدثنا قصيدة الأساطير عن العالم الخاص الذى يضم كل الشخصيات التى أفضلها/ والبعيدة عن كل قالب وحجم، ورغم أنها كانت أيضا نموذجا لطريقة دوريل الحذرة والمبهمة يعبر بها عن مشاعره. والقصيدة مفعمة بالأسماء الخيالية مثل "تيل جوندريل، وبورفيس وأمير من بوكي/ وشاتربلوسم وديود بودلر/ الذى ارتفع وكبر فى جافا وأصبح شجرة". وتجد فى القصيدة أيضا "أن رامون دى سامثينج يلقي المحاضرات/ ومن فيل أنشأ مجتمعا/ لحماية الموتى من القسوة". وحتى من كاتيسمباليس، رغم تطابقه بالاسم فإنه غامض لكونه يسمع ولكنه نادرا ما يرى." (٣١)

ولكن إن كانت الأسطورة لا تعنى الإلهام فإن هدفها بالنسبة لدوريل هى
تصفية مشاعره من التشويش وتسجيلها. وبالمثل فإن مفكرة جيبه مليئة بالقصاصات
والصورة وتذاكر السينما أو صورة التقطها فى صف من الصفوف، تلك الكلمات
البسيطة حول كاتيسيمباليس تجسدت أمام دوريل لما بدا أنه بعيد جدا عن نمطية
شارع فؤاد: روح متحدية فى زمن حرب اليونان.

وقد سمع دوريل من سيفيريس، والتي كانت شقيقته هناك، من بين الآلاف
الذين تجمعوا فى جنازة بالاماس Palamas فى أثينا فى فبراير عام ١٩٤٣. أن
كاتيسيمباليس كان من بينهم ، وأنه انفجر فى خطبة مسهبة يسب فيها ممثل السفارة
الألمانية، الذى وضع إكليلا من الزهور على قبر بالاماس، رغم أن ذلك محظور
حتى عند تشيع الجثمان، يحظر تماما مقاطعة النشيد الوطنى اليونانى. وقف العدد
الهائل من المعزين فى صمت مهيب بينما ينهى كاتيسيمبالا أول مقطع من قصيدته.
سحبته أخته من ذراعه والألمان يحدقون فيه بنظرة حادة، وساد صمت رهيب على
 جماهير المعزين بينما ظل كاتيسيمباليس ظل يغنى. ومن ناحية أخرى فإن المقطع
الثانى من المشهد من القصيدة انضم إليه خلاله صديق وأنهيا القصيدة معا. ثم
انطلق هدير جبار من الجمهور يردد النشيد الوطنى والدموع تسيل على خدود
الآلاف وهم يوارون جثمان بالاماس الثرى ويغنون لليونان. هنا أراد دوريل أن
يكون بينهم بأفكاره وأفكار صديقه كاتيسيمباليس، والذى خاف من أن تغتاله
رصاصه، اختبأ الاثنان، "يسمعون ولكن لا يرون شيئا".

وفى صفحة أخرى من مفكرته ولكى يتكلم، "يتذكر رومان دى سامثينج
إحدى الأمسيات حين ذهب هو ونانسى لتناول العشاء مع سيفيريس، ثم أصيب فجأة
بحمى شديدة. وخلال هذيان الحمى راح يردد اسم رامون جوميز دى لا سيرينا،
وهو كاتب (سيرىالى) غير واقعى. كان ذلك أحيانا بعد عودة سيفاريس من

بريتوريا إلى القاهرة فى ربيع عام ١٩٤٢، وربما كانت آخر مرة، أن يكون
سيفريس ودوريس ونانسى معا. سافرت نانسى إلى فلسطين وبعد فترة قصيرة
زرعت شجرة لتكبر، لأنها تعمل فى مكتب الرقابة فى مدينة يافا Jaffa، ورغم أنها
لم تعرف نانسى نفسها فى ديود بودلر، ولم تظهر شاتربلوسوم فإن دوريل أحس
بذات الأكم عندما فقد ابنته. فى تلك الأثناء وخلال تلك الشهور فى الإسكندرية عندما
كان دوريل يعيش وحيداً، كان ينفس عن مكنون مشاعره من خلال الأساطير وعلى
شاكلة رامون دى سامثينج الذى منح حق اللجوء السياسى إلى رؤساء كبار فى بيته.

ومع تغيير اسمه، جاستون زنانيرى ضم أساطير دوريل كهوامش فى نهاية
كتاب "جوستين" ومن بينها قائمة من شخصية أشبه بتارو أو شخصية ابتزازية كما
يسميه دوريل، ومع شخصيات مثل ميليسا أرتيميس: راعى الأحزان، وكلى
مونتيس: أمواه الحزن الصامت، وجوستين هوسنانى : سهم فى الظلام، هو أحمد
الزنانيرى : نجم الإجرامى." (٣٢).

يتحدث الزنانيرى عن موظفى المركز الثقافى البريطانى الذين قابلهم عن
طريق المسئول الإعلامى البريطانى لورانس دوريل و روبرت ليديل وهو المعارف
من المجلس إلى جامعة فاروق: "إنهم أناس أذكىاء يكتبون ويتحدثون ويشربون
ويدخنون، دوريل يعيش ثلاث حيوات. فليده مجموعة من الشباب الإنجليزى
يعلمهم فى المركز الثقافى البريطانى، كما أنه مهتم بأهل الإسكندرية، وربما يقوم
بعمل استخباراتى وهو ما لم نتحدث عنه أبداً، وقد وجد الزنانيرى فى دوريل رجلاً
مثيراً للاهتمام وذكياً يحب شرايه ويحب نكاته وأعتقد أنه يحب النساء. لقد كنا
أصدقاء نشرب معا. كان رجلاً بسيطاً جداً."

تحدث الزنانيرى إلى دوريل عن تلك المرات التى تعرف فيها على كفافيس أول مرة. "كنت أذكرى إسكندراني، من صفوة مجتمع الإسكندرية، كل غاييتنا فقط الرقص والحفلات الراقصة والحفلات المسائية. لقد كانت لنا معارض طبقة لامعة، بعض أولئك كانوا أناسا سطحيين. المجتمع! الإسكندرية! كفافيس يعرفهم جميعا. كان عالما بشهرته، على يقين تام وفخور بذلك، كان يتحدث دائما مثل شاعر" وهنا قبض الزنانيرى يديه على حلقه، يتذكر الشهور الأخيرة من حياة كفافيس مع مرض السرطان- "كان معذبا من الألم" شوق الزنانيرى، إذ اهتزت مشاعره مع الذكرى. وقال "كان من عادته أن يأتى إلى منزلى، ونجلس فى حديقتي، وكان يحل معي قصائده. لقد تعلمت علم النفس من كفافيس."

ثم قال الزنانيرى فى نفسه "إن الإسكندرانيين مهذبون جدا فى حين أن كثيرا من غير الإسكندرانيين غلاظ وخشنون، إلا أن كفافيس أدرك أنهم جميعا يحملون فى ذكرياتهم ماضى الناس الذى تذوقوه وتقبلوه، لقد عاشوا جميعا بهذه الطريقة بشكل غير واع. اقرأ ما كتبه مهافى Mahaffy مع أن كتاباته مملّة فإنه يتفكك كثيرا. فكتبه تعطيك فكرة عن صورة الإسكندرية فى الماضى. ومع ذلك فإن الإسكندرية عمرها نحو ألفى سنة وما زالت هى الإسكندرية. ثمة شيء فى ماضيها يعود ويتكرر مع كل آن ولحظة (٣٣).

إن تعريف بالتأزار مع الزنانيرى كان ممكنا، فالبرغم من أن بالتأزار كان يعرف الكثير عن كفافيس وعن حياته فى الشقة القديمة فى شارع ليبسوس، فإن دوريل كان يعرف أوصاف الشقة كما كان يعرف أشياء عن كفافيس من خلال الزنانيرى. ذكر دوريل أن بالتأزار كان صديقا حميما للشاعر القديم، وتحدث عنه بهذه العاطفة والفهم العميق الذى كان يقوله ويحرك مشاعري دائما (٣٤) إن الوصف

يتناسب جدا مع الزنانيرى مع ملاحظة أن بالتازار تحدث وكأنه نوع مختلف للزمن السائد هنا." (٢٥) وعندما كتب دوريل فى كتابه "جوستين" عن الشباب الذين ثاروا وتحولوا لمشاهدة كل ما هو غريب فى تلك المقاهى الصغيرة حيث كان يتردد عليها بالتازار مع الشاعر القديم" (٢٦) كان دوريل يجمع قصص الزنانيرى عن مغامرات الليلة مع كفافيس.

كان الزنانيرى يقول لدوريل: "تسألنى من أنا؟ أقول لك إننى إسكندرانى والإسكندرية ليست مصر، كما أن الإسكندرية ليست أفريقيا. فحينما تكون فى الإسكندرية فأنت فى مدينة من مدن البحر المتوسط." ولكن كما عرف دوريل، فى الصالونات الأدبية والمقاهى المنتشرة فى الإسكندرية، فغالبا كل من اليونانيين واليهود والشوام (سوريا ولبنان) عند كل واحد منهم قصة تحكى الرحلات والحياة لسقوط البيزنطيين من مدينة سميرنا البائدة. "وقد اقترح دوريل أن يكتب كتابا حول الموقف فى الجاليات الأجنبية والذين جلبوا معهم حياة جديدة لمدينة الإسكندرية. وأشار بأنه تاريخ "المشاكل فى مصر" *The Problems of Egypt*.

كان دوريل يقرأ كتاب الزنانيرى "مصر وازدياد التوازن فى العصور الوسطى" *L'Egypte et equilibre du levant Moyen age* والذى نشر فى عام ١٩٣٦ وكتاب "روح البحر المتوسط فى الشرق الأدنى" *L'Esprit mediterraneen dans le Proche Orient* والذى ظهر فى عام ١٩٣٩. وكلا الكتابين كان إسهاما فى مناقشة فى الدوائر الثقافية والسياسية حول أين يكمن مستقبل مصر، فى زمن كان ومازال يتكرر السؤال: من هم المصريون وكيف يتم تعريف تراثهم. وقد تكون الإجابة مخرجة لاستبعاد أولئك من التعريف وبالتالي يفقدون حقوقهم السياسية وربما يفقدون حقوق ملكية بيوتهم وبلدهم أيضا.

كانت رؤية سعد زغلول لمصر رؤية علمانية، فرغم أنه أقر بتفرد الشخصية المصرية والضرارية بجورها في العصور الفرعونية والتي تروق تحديدًا للقباط إذ يتفخرون بأنهم ينحدرون من القدماء المصريين. والكاتب المسلم طه حسين والذي صورته الفنان محمد ناجي في لوحاته "مدرسة الإسكندرية The School of Alexandria" يشارك سعد زغلول آراءه. ولكنه أكد على أنه رغم أن مصر قد استقبلت العرب بأعدادهم القليلة، فإن كل المصريين سواء كانوا مسلمين أو أقباطًا، أصحاب تراث واحد متساوٍ من الماضي الفرعوني. كما تحدث طه حسين أيضًا عن إعجابه بالحضارة الأوروبية، في تقدمها وفي تعليمها وقال إن مصر أساسًا كانت مثل أوروبا. وكثير من المتقنين الليبراليين المصريين من كل الانتماءات جذبتهم آراء طه حسين، وكانهم يعترفون بدور يهود مصر وبدور سكانها اليونانيين والإيطاليين والشاميين (السوريين واللبنانيين) والجاليات الأخرى والتي عملت طويلاً كوسيط بين العالمين الإسلامي والأوروبي.

إلا أن الزنانيري ذكر لدوريل كيف أن إسماعيل صدقي باشا، وهو عضو مؤسس لحزب الوفد، الذي انفصل عن الحزب فيما بعد وأصبح رئيساً للوزراء في مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين. "لقد اهتم بي مثل ابنه أو ابن أخته، وحتى قبل الحرب قال للزنانيري: "لا مستقبل لك في مصر، ونصحه بمغادرة مصر. بدأ نوع جديد من القومية يكتسب أنصاراً جددًا وأدار ظهره للتاريخ: بدأت العروبة تؤكد على أن اللغة العربية هي اللغة المشتركة والثقافة ودين الشعب المصري الذي يرفض الفرعونية كما يرفض اليونانية والرومانية والقرون المسيحية التي سبقت الفتح العربي كما تجاهلت الحقبة العثمانية التي اتسمت بتعدد الأعراق.

في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين ظهرت جماعات وطنية مسلحة مرتبطة بالعروبة والدين وكرهية الأجانب، ومن بينها جماعة الإخوان المسلمين

والتي تحولت مع نهاية الثلاثينيات إلى قوة سياسية تعتبر القوة الثانية بعد حزب الوفد. في دولة يحكمها حزب علماني ليبرالي وهو حزب الوفد تشجعت الأقليات غير المسلمة في المشاركة والاندماج، وفي تصور مصر دولة إسلامية كما تراها جماعة الإخوان المصريين، تم التسامح مع الأقليات غير المسلمة، فإنهم سوف يعانون من التمييز وعدم المساواة. صعود الجهاد الإسلامي تأسس على عقيدة خيالية تماما في المدينة الفاضلة المسلمة القديمة وقد امتدت جذورها بين النمو السريع للسكان والفجوة المتزايدة بين الأغنياء والفقراء. إلا أن القضية التي استحوذت على تركيزهم الشديد في إحساسهم بالإحباط والخطر، والتي قسمت العالم إلى نصفين "نحن وهم" كانت قضية فلسطين.

وصل هتلر إلى سدة الحكم في ألمانيا في عام ١٩٣٣ وعزز تزايد أعداد المهاجرين إلى فلسطين والتي كانت لأول مرة بإقناع العرب الفلسطينيين بأن إمكانية إقامة دولة يهودية في فلسطين أمر ممكن. ثم في عام ١٩٣٦ اكتشف الزعماء الفلسطينيون أن الحركة الصهيونية تهرب السلاح إلى الدولة فدعوا إلى إضراب عام، ثم تطور الإضراب بسرعة إلى انتفاضة ضد البريطانيين أساسا، وضد اليهود كذلك.

وفجأة أصبحت فلسطين قضية لا يمكن أن يتجاهلها سياسى مصرى وبها تبلورت العروبة لتحديد مصر لهويتها. فإن اليهود المصريين كانوا غير مهتمين بالصهيونية، والأقباط كانوا مثالا للولاء لمصر وقد قام اليهود والأقباط بدور بارز في الحركة الوطنية التي تزعمها سعد زغلول والتي لم تكن شينا بالنسبة لمظاهرات الطلبة في القاهرة وطنطا والإسكندرية الذين هتفوا في عام ١٩٣٨ وطالبوا بخروج اليهود من مصر وفلسطين^(٣٧) وليس الذين اختلط الأمر عليهم وطالب بطرد الأقباط من مصر وإرسالهم إلى فلسطين ليلحقوا باليهود.^(٣٨) على أن مصر لما

كانت دولة مستقرة ومزدهرة ولم تتأثر البلاد بالحرب، فإن أصوات المتشددین ظلت صامتة، وفي يناير ١٩٣٩ حينما قام ممثل من الوكالة اليهودية من زيارة مصر ليعرف سبب عدم انجذاب اليهود المصريين إلى الحركة الصهيونية العالمية. فكتب في تقريره: "إن الحركة الصهيونية في دول غير مصر تتوسع بسبب عوامل خارجية؛ وهي انتشار معاداة السامية وتدهور الملامح الاقتصادية" ولكن في مصر "لم تظهر تلك العوامل إطلاقاً" (٣٩).

اندلعت الثورة العربية التي أشعلها الاقتراح البريطاني بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، وحثت الحكومة البريطانية لعقد مؤتمر المائدة المستديرة في ربيع ١٩٣٩ وقدمت الدعوة لحضور ممثلين عن مصر والعراق والمملكة العربية السعودية وإمارة شرق الأردن واليمن. في ذلك الوقت أيقنت بريطانيا أن القضية الفلسطينية بأبعادها العربية كانت ترجع إلى جورج أنطونيوس في كتابه "اليقظة العربية Arab Awakening الذي نشر في العام السابق، وقد سبب حساسية من خلال كشف سر وعود تخص الأرض وبسط لسيادة تعهد بها البريطانيون إلى العرب خلال الحرب العالمية الأولى ليكونوا حلفاءهم في حربهم ضد الأتراك العثمانيين.

ولكن الكتاب انتقد أيضا أنطونيوس، لما كتبه من أنه جاء ليرى برعب واضح أنه كان يصفها بأنها تدمير لعالمه الكزمبوليتاني. وبرغم أن مسيحيا قد اعترض على يقظة كانت مفهومة، قال إنها، بمعنى تعريب وأسلمة العصور الوسطى تماما، فإنه كان يستكمل بذلك مراجعته النهائية وكان يشكو من التعصب والعدوانية وجنون العظمة التي أحسها من تنامي المتزايد والخروج عن السيطرة وتعكير الصفو "الإفلاس العام لمستويات الأخلاق والقيم وبين صعود التيار الوطني المتعصب. (٤٠).

وبدون أدنى مساومة ممكنة بين المطالب المتعارضة للصهاينة والعرب على فلسطين، فإن مؤتمر المائدة المستديرة قد انتهى بالفشل. وبخصوص مواجهة خطر الحرب الألمانية فإن البريطانيين قد فرضوا تسويتهم. وصدر التقرير الحكومي A White Paper في مايو ١٩٣٩ بإيجاد دولة فلسطينية مستقلة ثنائية القومية مستقلة في غضون عشر سنوات، كما حدث من هجرة اليهود إلى ٧٥ ألف يهودي في خلال الخمس السنوات القادمة مع عدم السماح للهجرة بدون موافقة العرب الفلسطينيين. لقد طالبوهم بقبول ما رفضته الدول الغربية والعالم الجديد، وذلك استجابة للمؤتمر الذي دعا إليه الرئيس الأمريكي روزفلت في عام ١٩٣٨، وقد استجابت له جمهورية الدومينيكان والتي وافقت على استقبال بضعة آلاف من اليهود الذين يعانون من اضطهاد حكم هتلر. ومع ذلك فإن التقرير الحكومي البريطاني white paper حاول استرضاء العرب في منطقة الشرق الأوسط وفي فلسطين حيث كان ثلث السكان من اليهود وتوقف العصيان المسلح.

كل هذا كان على بعد أميال من أشواق دوريل إلى اليونان. ولكن في بلتازار، ومونتوليف وكلبي، وهي ثلاثة المجلدات الأخيرة من رباعيات الإسكندرية، تابع دوريل الموضوع، وتغيب عن "جوستين" من التوقعات غير المؤكدة للأقليات والأجانب في مصر ومؤامرة فلسطين والتي أثارت مشاعر المصرفي القبطي "تسيم هوسناني وزوجته اليهودية جوستين". "نعم جوستين، فلسطين. إذا استطاع اليهود فقط أن يظفروا بحريتهم سوف نستريح جميعا، فإنه الأمل الوحيد لنا، الأجانب المحرومون". "تطرق الكلمة بشيء من المرارة." (٤١) ولكن كل ذلك بعد أن تقابل دوريل مع كلود فينسيندون عند سيبروس -كلود حفيدة فليكس و روزيت دي ميناس وابنة أخت جورج.

فى تلك الأثناء كان البيان الحكومى البريطانى قد أثار غضب الحركة الصهيونية، التى انقلبت ضد بريطانيا بشكل قاطع، ورغم ظهور بوادر هزيمة ألمانيا فقد كان الصهاينة يتحينون الفرصة المناسبة لهم.

فى مطلع صيف عام ١٩٤٣، تلقى الأميرال جودفيرى أمرا بالرحيل إلى الإسكندرية. وفى يناير وخلال زيارته إلى مصر تحدث تشرشل إلى مايلز لامبسون، الذى كان فى ذلك الوقت لورد كيلرين،^(٤٢) حول الوضع غير المحتمل كان الأميرال جودفيرى والأسطول الفرنسى فى ميناء الإسكندرية رافضا أن يربط مصيره بنا بينما يتلقون كل روايتهم وطعامهم من المصادر البريطانية. "عندئذ كان الأميرال جودفيرى يساوم متحيرا حول شرك مبادئ فيتشى، وبالتالى بدأ البريطانيون يحدون من الإمدادات المالية حتى يوم ١٥ مايو واستكان لضرورة الامتثال فأبحرت القوة X من مدينة الإسكندرية لتتضم إلى قوات فرنسا الحرة فى الجزائر.

قبل يومين وفى ١٣ مايو ١٩٤٣، كان قادة المحور وقواتهم قد استسلموا إلى تجمع الجيش البريطانى لقوات الجيش الأول والثامن والفيلق الثانى الأمريكى فى تونس، وتم أسر ربع مليون من القوات. بعد نحو ستة أيام، فأعلن تشرشل "بأن الحرب الأفريقية قد انتهت. وقد انفجرت إمبراطورية موسولينى فى أفريقيا وانهارت إستراتيجية هتلر.^(٤٤)

وبدأت حركة تحرير أوروبا. فى يونيو أصبح ميناء الإسكندرية ضيقاً بالسفن"^(٤٥) فاجتمع جزء من الأسطول الحربى لجيوش التحالف فى الموانئ البريطانية وموانئ أوروبا الشرقية تحت قيادة الأميرال كاننجهام للعمليات الضخمة، وبدأ بغزو صقلية فى ١٠ يوليو، وتقضى خطتها بتوسيع إنزال نورماندى بعد أحد عشر شهرا. وبالفعل تم إنزال نحو نصف مليون من قوات التحالف على جزيرة صقلية، أما الأغلبية البسيطة فسكون من القوات البريطانية والباقية من القوات

الأمريكية، وتحت قيادة القائد الأعلى دوايت أيزنهاور، من خلال القبول البريطاني بأن تكون الولايات المتحدة هي شريكا قائدا أعلى في التحالف.

ومع بداية غزو الأسطول من الميناء الغربى، فإن إحساسا بالهبوط المفاجئ قد حل بالإسكندرية، وقد اعتقد جوين وليامز بعد انتصار فى معركة العلمين، أن الأسطول قد ابتعد عن العالم فى الحرب. "ورغم قرار السلطات العسكرية بأن يظل التعقيم مستمرا مادام أن جزيرة كريت واليونان فى أيدي الأعداء، فقد بدا للحظة بسيطة أن الأنشودة القديمة بدأت تعود من جديد. "السيدات اليهوديات الثريات وصالوناتهن وأمسيات الأربعاء للبارون جورج (دي) ميناس قد أصبحت جزءا من الإسكندرية من ثيوكراتيس. بالنسبة لنا فإن ثيوكراتيس كان مدينة سلوى المنافى. "كل شيء كان متاحا لنا... الحب والطعام الشهى والموسيقى والسباحة." (٤٦) ففى زمن فورستر، "ازدهرت الطوائف والفلسفات وكان هناك حلم جيستون زنانيرى لتقافة البحر المتوسط تنتظر أن ينتشلها من الحرب.

وأضاف وليامز "لم يكن ثمة خطأ فى أن تكون الإسكندرية فى سنوات ١٩٤٢-١٩٤٥ مدينة القضايا التى خسرتها، ومع أنها دافعت بنجاح من الناحية العسكرية "لقد كان عالما يرمز إلى أسماء أناس تعرف إليهم هو ودوريل هناك من هؤلاء "الزنانيرى وساشس وبارو وميناسى وزوجيب وسويريز وساليناس وكيركريتى وباربر وبيريدس وفومارولى وباباسونيسىو كان يتحرج حول البحر." "كان بعيدا عن هذا التنوع وموت القلق الذى اخترعه لارى فى رباعياته "رباعيات الإسكندرية" (٤٧).

الفصل الثامن

قلعة بروسبيرو

"جلست في قلعتي مصغيا للأفكار التي تمر داخلي صافية وغامضة مثل السمك".

من لورانس دوريل إلى ديانا جولد في أبريل ١٩٤٤. (١)

في ٢٢ أغسطس، ذهب دوريل إلى دار الإقامة البريطانية في أعلى تل أبو النواطير في رشدي من أجل أن يجري مقابلة مع نويل كاورد الذي كان يحل ضيفا على صديقه لورد كيليرن. وكتب كاورد في يومياته: "كان اليوم رائعًا ودافئًا إلى حد بعيد، لم ألاحظ ذلك فقد استيقظت في الظهيرة، أجريت مقابلة مع لاري داريل الذي يعيش في جزيرة كورفو ويكتب قصائد، وذلك بينما وضعت صينية الإفطار على حجري". (٢) وأخبر دوريل أنه سئم عادة زمن الحرب التي تقضى بختم كل شيء على أنه "سري" أو "سري للغاية" لدرجة أنه كتب على مخطوطات يومياته "سخيفة جدًا". (٣)

وقبل المقابلة بأربعة ليالٍ، تناول كاورد وجبة العشاء مع لورد كيليرن وريتشارد كاسي بالقاهرة حيث تحدث كاسي "كثيرًا عن الترحيب باليهود والاستهزاء بسلطاتنا" في فلسطين. (٤) وكان من السهل انضمام كاورد في هذه المناقشات، حيث انضم لجهاز الاستخبارات البريطانية السرية (MI6) فور اندلاع الحرب، إذ عمل في البداية في قسم "د" الذي يعد قسم الحيل القذرة، ثم عمل لدى

مدير الحرب السياسى حيث تورط فى دعاية سوداء لفترة من الوقت حتى تم تعيين شخص آخر فى خدمة قضية بلاده، شخص يراه الناس بصورة أفضل من خلال الترفيه عن القوات فى توظيف مفتوح لوزارة الإعلام.^(٥)

كان كاورد فى رحلة استغرقت ثلاثة أشهر فى دول البحر المتوسط والشرق الأوسط، وفى هذه الليلة أقام حفلا موسيقيا فى معسكر نقاهة واستجمام قبل أن يسافر فى اليوم التالى إلى لبنان وسوريا والعراق. إلا أنه عاد إلى الإسكندرية فى منتصف شهر سبتمبر حيث دعاه هارولد فينى، أصغر إخوة أوزوالد ووريث أعماله، على مأدبة غداء فى نادى اليخوت الذى يطل على الميناء الغربى بالقرب من قصر رأس التين. وكتب كاورد فى يومياته: "يعتبر نادى اليخت فى الإسكندرية منطقة مختارة بعناية وموقعا متفردا لدرجة مزعجة، على الرغم من أننى أشك فى أن معظم أعضائه لا يهتمون باليخوت أو يهتمون بها بدرجة بسيطة. عند وصولنا كان يجلس فى الشرفة بعض السيدات يرتدين ملابس بنفسجية زاهية، ويضعن طبقة كثيفة من بودرة الأرز ويصفرن فى همس". طلب كاورد وفينى شراب الكوكتيل وفرحا لارتدائهما ملابس تتناسب الجو والخلفية ولكن حين لاحظت الإدارة أنهما يرتديان سراويل قصيرة وقمصانا طلبت منهما مغادرة الحفل. ونظرا لما يتمتع به من نفوذ كبير فى المدينة، فقد احتج فينى بلا جدوى، ثم انسحب كل منهما حفظا لماء وجهيهما. وبعد ذلك تناولوا طعام العشاء فى وسط البلد وروحا عن أنفسهما بفكرة مؤداها أنه: "مادم أن نادى اليخت فى الإسكندرية كان محافظا على معايير الأخلاقية العالية، فإن الحرب من أجل الحرية والحضارة تستحق بالفعل تحقيق الانتصار فيها."^(٦)

وخلال زيارة العودة هذه التى قام بها كاورد إلى الإسكندرية، أقام حفلا موسيقيا فى نادى الأسطول. فقد استسلمت إيطاليا فى يوم ٨ سبتمبر قبل الحفلة

بأسبوع، وتم نقل الأسطول الإيطالي إلى الميناء الغربى فى احتفال بالنصر. وحسب وصف كاورد "كانت لحظة مثيرة" - لحظة دخوله حديقة البيرة المفتوحة حيث كان يجلس مئات البحارة البريطانيين الذين كانوا فى مهام عسكرية منذ عدة أسابيع، تحلقوا حول طاولات منتشرة تحت الأشجار فى جو الكحوليات الصاخبة. كان نادى الأسطول هو موقع المستشفى اليونانى القديم الذى توفى به كفافيس، وتمثل حديقته المنظر الذى كان يُطل الشاعر عليه عندما كان يقف فى شرفته ويستمتع لصوت موسيقى المدينة. وفى هذه الليلة، عزفت الموسيقى قصيدة "لا ندعنا نكره الألمان" وتنوعات كول بورتر الفجة "دعنا نفعلها" حتى قفز كاورد "المرهق بسبب الراحة" من المسرح وسرعان ما غاص فى بحر من البحارة".^(٧)

كانت "نقوش الإسكندرية" إحدى ممتلكات فورستر الشخصية، إلا أنك إذا قلبت فى نسخ الصحف المصرية القديمة بحثاً عن مقابلة لدوريل أو تسجيل لعروض كاورد فى نادى الأسطول، فلن تجد أياً من ذلك. غير أنه فى ٢٩ أغسطس، عثرت صحيفة "ذى إيجيبشيان جازيت" على فراغ تبلغ مساحته بوصتان فى وسط الصفحة الأولى تناولت فيه بالحديث قصة مأخوذة من واقع وكالة يونائيتيد برس الإخبارية. وتحت عنوان: "ترحيل هتلر لعدد ٥ ملايين يهودي"، تم الإفاد بالأرقام وحسب دون تقديم أى تعليق عليها. كما أعلن معهد الشؤون اليهودية "ترحيل هتلر نحو ٥ ملايين يهودى من يهود أوروبا البالغ عددهم ٦,٣ مليون. كما أهلكت المجاعة وأعمال القتل أو الأعمال الانتقامية أكثر من ٣ ملايين يهودى. ورغم ذلك، عجزت صحف مثل "ذى تايمز" اللندنية و"نيويورك تايمز" الأمريكية عن إفاد أى تقارير عن القصة، حيث قمعت الحكومات البريطانية والأمريكية تفاصيل الكارثة الوشيكة".^(٨)

وكانت الشقة الواقعة فى شارع فؤاد وفى قلب المدينة حارة وخائفة طوال الصيف وتذكرت إيف تلك الشقة بقولها: "كانت مظلمة وكئيبة ولم يحبها أحد منا". إلا أنه على الرغم من ذلك، فقد جاء إعلان دوريل عن عثوره على مكان سكن لهم جميعا بمثابة مفاجئة كبيرة.

وفى يوم الجمعة الموافق للأول من أكتوبر ١٩٤٣، انتقل دوريل وإيف، مع بول وبيلى (التي كانت حاملاً فى شهرها الخامس) وابنتهما لينيت التى تبلغ من العمر عامين، وكذلك مربيتها وكلبهم سافو، للطابق العلوى من فيلا باروكو الجديدة فى ١٧ (١٩ حالياً) شارع مأمون بحى محرم بك.^(١) فى ذلك الوقت، رحلت جين هيل صديقة بيلى، ولكن تم إضافة مستأجرين للمجموعة المتنوعة من الأفراد وهما السيد هارولد إدوارد المحاضر فى المجلس الثقافى البريطانى وزوجته اليونانية إبي التى هرب معها من أثينا وقت الغزو الألمانى. كانت الغرف بأسقفها المنمقة واسعة وتشع نورا كما توفر غرفا للأزواج وغرفة للمربية مع الطفل وغرفا إضافية للضيوف بالإضافة لغرفة طعام وغرفة للضيوف يشترك فيها الجميع إلى جانب شرفة كبيرة تطل على شارع تظله الأشجار، وهو المكان الذى تكررت فيه اجتماعاتهم وتسليتهم.

وارتفع برج مكون من طابقين وثمانى أضلاع فى ركن الفيلا. وارتفع من السطح سلم ضعيف بحاجزيه السلكتيين المشغولين إلى غرفة البرج العلوية التى اتخذها دوريل على الفور صومعة كتابته. ولم يسمح بدخول البرج لأحد سوى لإيف: "كثيرا ما طلب منى الصعود حيث كنت فى هذه الأيام صامئة ولم يزعج وجودى كتابته وقليل ما أتكلم لأننى مازلت قادمة من الماضى." ساعدته فى التأنيث وتعليق الستائر على النوافذ ووضع الوسائد على الأرائك الموجودة مقابل الحوائط، بينما صمم له أحد النجارين مكتباً يفضاوى الشكل وضعه وسط الغرفة. وقال عن

ذلك بينما كان يلقي نظرة على المكان: "كان الأمر فى مجمله بالغ الغرابة والتفرد." (١٠)

ألقى دوريل من قلعته نظرة شاملة على أنحاء المدينة الجنوبية وما بعدها، وقال: "تستطيع رؤية عمود بومبى وسجن الحضر ونفايات قصب بحيرة مريوط المبتلة الممتدة على الأرض والكاسية لصفحة السماء." (١١) وعلى بعد نصف ميل أو نحوه باتجاه الجنوب الشرقى، بين خط الترام وترعة المحمودية، كانت الشوارع الضيقة التى قصت فيها إيف طفولتها المبكرة بعيدًا عن الجزء المورق من حى محرم بك الذى تم تطويره فى بداية القرن كحى للطبقة العليا مقارنة بالحي اليونانى. كما كان باستطاعته أيضا أن ينظر فى حديقة الفيلا الضخمة التى يحيط بها حائط بارتفاع ثمانى أقدام حيث تقف التماثيل الرخامية وأعمدة الجرانيت وسط غابة مزدهرة من زهور البنفسج والزنبق وأشجار الفرانجيبانى وتين البنغال بالإضافة إلى ملعب تنس تكسوه الأعشاب وأستوديو رسم على الجانب البعيد.

وعندما انتقلوا إلى الفيلا عرف جوتش وإيف أن دوريل كان يعرف أصحابها وهى أسرة أمبرون. وقد وصفه زنانيرى ألدو أمبرون بقوله "لقطة كبرى" وبأنه "مسئول كبير" كما وصف زوجته أميليا "بسيده مجتمع" وقال إن باب منزلها "كان دائما مفتوحا لتسلية المجتمع." اعتقدت إيف أن هذه طريقة تعارف دوريل على جيلا ابنة أمبرون قائلة: "لقد أعجبت به وعندما اكتشفت أنه يبحث عن شقة قالت لدينا مكان فى الطابق العلوى." وبينما كانت تتظاهر إيف بأنها تسكن فى المستشفى دون أى دليل، رحبت عائلة أمبرون بدوريل كفرد من العائلة ودعوه للطابق السفلى ليتناول وجبة أعدتها جيلا. وافترضت إيف "أن الآباء يشعرون أنه من اللطيف أن يتزوج لارى الذى كان متحررا، أعتقد أنه تحدث كثيرا عن مشاكله مع أى شخص يستمع، وكان فى صراع مع رفض نانسى، ومن ثم كان هناك تنويه وإشارة إلى

حريته؛ ولذلك، ألم يكن من اللطيف أن تتزوج ابنتهم من الشخص الذى كانت مغرمة به. وسلبها لارى عقلها بطريقة ملائمة: فقد كانت فتاة من عائلة محترمة وتصرفت بأسلوب رائع. "وتذكر جوتش: "أحبت جيلدا لارى حبا شديدا، وأغرمت به."

كانت جيلدا أمبرون الفتاة السكندرية الوحيدة التى ظهر اسمها الحقيقى فى الرباعية. حيث ذكر دوريل اسمها مرتين فى الجزء الثانى المعنون بالتأزار^(١٢) فقد كان دوريل يقلب: "الشعر الملكى للأسماء التى تعنى الكثير بالنسبة لى، أسماء أهل الإسكندرية"^(١٣) وفى كل مناسبة كان ينتهى بذكر جيلدا أمبرون على الرغم من تغيير ترتيب الأسماء.

كانت الإسكندرية المدينة الأم الشعرية دون وعى متمثلة فى الأسماء والوجوه التى صنعت تاريخها. استمع للأسماء التالية:

تونى أومبادا، وبالداسارو تريفيزانى، وكلاود أماريل، وبول كابوديستريا، وديمترى رانديدى، وأونوفريوس باباس، وكاونت بانوبولا، وجاك دى جورى، وأثينا تراشا، وجمبولاط بك، ودلفين دى فرانسويل، وجنرال سرفونى، وكذلك أحمد حسن باشا، وبوزو دى بورجو، وبيير باليز، وجاستون فييسن وحداد فهمى أمين، ومهمت آدم، وويلموت ببيرفو، إلى جانب توتو دى برونيل، وكولونيل نجيب، ودانت بوروميو، وبندكت دانجو، وبيا دى تولومى، وجيلدا أمبرون.... الشعر وتاريخ التجارة والقوافى فى شعر الشام التى استوعبتها البندقية وجنوا. (هذه الأسماء قد يقرأها عابرو السبيل فى أحد الأيام على الأضرحة فى المقابر.)^(١٤)

غير أن انتقال دوريل لشارع مأمون عليه أن يقوم بأكثر من مجرد مقنعة من أسرة سمارت التى كانت على علاقة صداقة بأسرة أمبرون منذ فترة طويلة.

وكان ألدو والد جيلدا ناقدًا فنياً وعضواً مؤسساً لجمعية أصدقاء الفن التي وصفها جيج برينتون في يومياته في العشرينيات بأنها جمعية "إيطالية مثقفة وغنية وتتمتع بحس فني رائع". وبعيدا عن المصالح الثقافية المشتركة مع أسرة أمبرون، فإن عمل السير والتر سمارت كمستشار لشئون الشرق (جرت مراسم تقليده درجة فارس في يونيو ١٩٤٢) يقتضى معرفة تاريخ مصر السياسى الحديث بأسره ومعظم شخصياتها المؤثرة. ومنذ توليه منصبه في عام ١٩٢٦، انغمس في شئون البلاد وسعى لمصادقة كل الناس الملائمة معتبرا إياهم صلات ومصادر للمعلومات. وضم سمارت ألدو أمبرون في قائمة شخصيات مصر "الخاصة بالسفارة التي جمعها من أجل أنتوني إيدن في عام ١٩٤١ واصفا إياه بأنه يهودى إيطالى، ومقيم في الإسكندرية، ومهندس مدنى، ومهندس معمارى، ومقاول، ومؤسس بنك إيطالى مصرى، وصاحب أملاك ثرى، كما كان رئيسا للنادى الإيطالى وحامل لقب رئيس المحكمة الملكية الإيطالية.

وقد تزوج ألدو أمبرون أبرامو إيزاك من أميليا المولودة في ألماجيا، وأصبح شريكا في شركة والدها للهندسة والتعمير التي بنت امتداد كورنيش الميناء الغربى الفخم في عام ١٩٠٦، وهو ما احتفى به فورستر كأفضل أرواح البطالمة. كما كان أمبرون مديرا للمجموعة المصرية للشركات المدنية والريفية التي اشتركت في تشييد مبان إدارية وتجارية تقع الغالبية العظمى منها في وسط الإسكندرية. وكان زملاؤه من المدراء قادة مجتمع رجال الأعمال السكندري المزدهر وكانوا أعضاء أكثر السلالات اليهودية شهرة في المدينة، أمثال جاكى أغيون الذى كان يستثمر أمواله في السكك الحديدية وفي السكر، ووالف توريل تاجر القطن والنسيج ومدراء البنوك ألفرد وكذاك جاكى سواريس وبارون فيلكس دى ميناس. وعلى أية حال،

جاء دوريل ليقطن فيلا عائلة أمبرون وجذبته انتقاله لقلب طبقة يهود الشتات العليا في الإسكندرية.

وأعجب دوريل بجيلدا وكانت حياتهما قائمة على الود والتفاهم، حيث كانت فتاة مفعمة بالحياة وضاحكة وودية بالإضافة إلى أنها كانت رسامة جيدة على مستوى الرسامين التقليديين. كذلك كان كل أفراد أسرة أمبرون فنانين؛ فقد كانت نورا أخت جيلدا موسيقية وكان أخوها، إيميليو يحفر أكلشبهات عن مواضيع بالية بينما ترسم أمها التي تعمل بالفحم والطباشير وأحياناً بالزيت صورا وتلونها موهبتها في النقاط صورة زيتية بالاتساق مع نزعة سعيدة للتأكيد على ما لدى الجالسين أمامها من الجمال والأناقة. وربما يكون ذلك، كما نقول مارتا لوريا، بسبب "قبح الأسرة بأكملها"، التي لم تكن فيها جيلدا وحدها "قبيحة وقصيرة وممتلئة القوام". قال برنارد دي زوغيب: "لم تكن البنية الجسمانية لجيلدا رائعة؛ كانت قصيرة وممتلئة القوام ووجهها مسطح وعيناها دائرتان قليلا، كما لو كانتا تشبهان عينا كلب البول دوج".

على أن فيلا أمبرون جذبت درويل لمسبب آخر؛ حين عملت جيلدا وأمها في الاستديو الخاص بهما، الواقع عند الطرف الأقصى من الحديقة الذي بناه أليساندرو لوريا من أجل أميليا في بداية العشرينات وسماه المستشار برينتون "بيت الدمية" (١٥) في زيارته عام ١٩٢٦ عندما تم تأجيريه للقنصل الأمريكي لفترة من الوقت. وعلى الرغم من ارتفاعه ثلاثة طوابق، فإنه كان بعمق غرفة واحدة ولم يكن سوى حائط بلا نوافذ يطل على الشارع الخلفي؛ فإن العديد من النوافذ الكبيرة التي تلمع في الشمال باتجاه فيلا أمبرون قد ملأت الاستديو بالضوء الغزير. ونظرا لاحتواء الاستديو على غرفة فارغة، اشتركت صديقة جيلدا وجارتها كلي بادرارو في الاستديو عندما لم تكن جيلدا موجودة في الأتيليه، ووصفها دوريل، الذي توفرت

لديه نظرة واضحة للأستوديو من برج، بقوله: "فتاة شقراء جميلة حرصت عليها".^(١٦)

وتحدثت كلى عن اليوم الذى زار فيه دوريل الأستديو لأول مرة، وأشارت إلى أنه على الرغم من كراهيتها لزيارة الناس غير المتوقعة، فإنها نحت انزعاجها جانبا عندما أظهر إعجابه بعملها من رسومات الجنود فى البارات والملاهى الليلية المنتشرة فى أرجاء المدينة والمضحكين والمهرجين ونساء السيرك على ظهور الخيل، وتذكرت أيضا كيف كان مفتونا باسمها. وتحدث دوريل عنها فى رباعيات الإسكندرية بقوله: "كلى الرقيقة والمحبوبة والتى ما من سبيل لمعرفة التى تمتاز بالبساطة البالغة والأناقة وبلاستقلال وضبط النفس... تفيض فى جسد نعمة إلهية صغيرة: جسد مولود دون غرائز أو رغبات، وتمتاز فى الوقت نفسه بالدفع والحنان".^(١٧)

قالت إيف: "وصفها لارى وصفا جيدا، لقد اعتاد على اسمها، كما وصف جسمها بأنه رائع جدا " قال برنارد دى زوغيب، الذى أصبح صديقها : "كانت جميلة وطويلة وعيناها الزرقاوان وشعرها الأشقر، كانت شديدة الجاذبية وتتمتع بقدر كبير من السحر والدفع، لقد أشاعت نوعا من الوهج الداخلى رغم خجلها من الغرباء الذين لا تعرفهم." وعندما كانت إيف تقوم بعمل موديلات الملابس فى الأتيليه، كانت تقابلها أثناء مرورها وتتطلع إليها بنظرات يملؤها الدهشة والرغبة من جمالها البراق. وبريق ذكاء يفتق من عينيها، نظرة تتم عن ذكاء وفطنة من عينيها وتعبير عن معرفة ووعى وجدية هدف، وهو ما جعل إيف تشعر " بأنها تافهة بجوارها" " قالت إيف: كانت "بارعة الحس مع أنها كانت متواضعة وبسيطة على عكس كثير من السيدات فى الإسكندرية من اللاتى يستطعن نشر هذه الأوصاف على الجميع. أيا كانت حياة كلى الخاصة، فإنها لم تكن مثار أحاديث الناس فى هذه

بالمدينة التى يتحدث فيها الناس عن شئون الآخرين. فكل واحد يحب أن يجعلها حوله، لا ملاحظة عليها، فكل النساء يحبينها.

رسمت كلى دوريل وتحذثا سويا، وكانت فى الثلاثين من عمرها، أما هو فكان فى الحادية والثلاثين. تبادلوا الحديث عن طفولتها، قالت إنها بدأت ترسم فى الطفولة، كانت تسجل انطباعاتها على كل قطعة ورق تصادفها ترسم فى دفاتر المدرسة وترسم على ورق حسابات المنزل وفى هوامش الخطابات التى تكتبها لأصدقائها؛ فلم يكن ما تراه وحسب هو ما يثير انتباهها ولكن أيضا كانت أحلامها تثير انتباهها. وتطرق للحديث عن اسمها بادارو، وقالت إنه اسم شامى، والدها مسيحي مارونى، يعمل محاميا ومشاركاً فى شئون مالية مهمة فى القاهرة مسقط رأسها. أما أمها فكانت يونانية من مدينة سميرنا، أما صديقاتها فقد اعتقدن أنها يونانية باسم كليكاي، وهو اسم "تدليل" يونانى لاسمها "كلى"؛ وهو الاسم الذى أطلقه والداها عليها فى طفولتها السعيدة فى مصر.

توفيت أمها وهى طفلة، وبعد أن خسر والدها ثروته، اصطحبها واصطحب شقيقتها الكبرى إلى سويسرا وعاشوا جميعا مع جدتها لأمها فى مونترو. وهناك انتهت أيام السعادة وتبعته سنوات الحزن والألم الشديد، والدهما الذى منحهما الحب والعاطفة والحنان تدهورت صحته بسبب الاكتئاب فأصيب بالشلل وقضى بقية حياته قعيدا. وتبدل صخب طفولة وضحك كلى وشقيقتها إلى حياة صارمة متقشفة فرضتها الجدة، واتجهت كلى إلى الرسم، كانت ترسم المهرجين والراقصين المعلقين فى الهواء كما كانت ترسم شخصيات من الجن وهى تمتطى الجواد المجنح وبعض شخصيات السيرك الذى ملك عليها مشاعرها. وفى سن السابعة عشر التحقت بأكاديمية الفنون الجميلة فى لوزان ثم عادت إلى مصر بعد مرور أربع سنوات حيث وجدت فى الإسكندرية مرسما الروحى.^(١٨)

يشير دوريل إشارات ضمنية عن حياة كلى بادارو فى رباعيات الإسكندرية حيث شخصية ضاغطة لـ "كلى موننس: مازلت تعتصر من الألم" ^(١٩) إشارة إلى وفاة أمها ^(٢٠) "والدها العجوز الذى تحبه بجنون" ^(٢١) ولكن رغم وصف دوريل لنسيم باعتباره قبطيا وجوستين وبالتازار باعتبارهما يهوديين ووصف ميليسا وكابوديستريا باعتبارهما يونانيتين وهكذا تطرق إلى سكوبى وبورسواردن وبومبال إلى آخره، برغم ذلك كله فإنه وصف كلى بشكل فريد دون أن يذكر فيها ما ورثته أو يذكر جنسيتها، بل وصفها بأنها تلك الفنانة.

فى الحقيقة، من الأشياء التى أحبها دوريل كثيرا فى كلى أنها لم تكن يهودية. فكتب فى مذكراته: "إن اليهود يحيطون بنا فى كل مكان، وقدموا نكهة غريبة للحياة فى الإسكندرية وبعبارة كلى: "لقد كان اليهود فى هستريا متشائمة غريبة وتعذيب ضمير مستمر". أما اليونانيون فقد قدموا لمدينتنا للوضاء والتميز، ولما اليهود فقد خلطوا كل شيء بطعم المال والأخلاق مع إلحاحهم الشديد وشغفهم الشديد وانتقاء الأمن من جانبيهم. فالهوء لهم هو سم زعاف، والنقص فى هذا المجال يدفعهم إلى قوة البناء العقلى بالمعدل نفسه المتصاعد مثل نمو ورم سرطانى" ^(٢٢)

فكر دوريل كثيرا بهذا الشأن؛ فى أثناء تأليف "الكتاب الأسود" إلى ميلر من كورفو: "أدركنا فى الوقت المناسب أن لكل إنسان الحق فى اختيار حقيقته وتفسير ما يريده... فلا توجد سوى شريعة واحدة وهى الإيمان". ولكن هناك فقط حشود من الكتاب بسبب الخوف قدموا لنا أكذوبة "معظمهم يهود" لن يعترفوا بضرورة وجود خبرة الفنان على أى حقيقة منطقية. فليسوا مؤمنين بأن حقيقة المرض اليهودى القومى هو غياب الإيمان" ^(٢٣).

كانت كلى بادارو مثله تماما، إذ ابتدعت من تجاربها فنا خاصا بها. بالإضافة إلى جمالها الذى أفتتن بكونه احتواء ذاتيا ووصفه بأنه إيمان بجورها

ونقته في فنّها. " فهي تركّز بفكرة واحدة على فنّها الذي تأخذه بمحمل الجد إلى حد معقول، فشجاعتها كانت تشع بجلاء ومرح في اللوحات الزيتية، فهي لوحات مفعمة الإحساس بالمرح والخفة".^(٢٤)

في نهاية كتاب "جوستين"، وأيضاً في نهاية كلى التي تعتبر الجزء الأخير من رباعيات الإسكندرية، تبادل دارلى الخطابات مع كلى من جزيرته عبر البحار؛ هو في برجه وهى في الأستديو في نهاية الحقيقة، بينما يعلمان أنهما سيجتمعان في وقت ما ومكان ما.

في أواخر صيف ١٩٤٣، بعد عملية هاسكى أبحر قارب شراعي - من ميناء الإسكندرية إلى صقلية، اسم القارب ساموثريس - صاحبه ماك فيدن وهو واحد من أقارب جيدج برينتون من زواجه الأول، وقد أحضره في إبريل من العام الماضى من قبرص حيث كان يحفر في حرم أبوللو فى الكوريوم - لحساب جامعة بنسلفانيا. تابع ماك فيدن سعيه وراء التحف مع حبه للبحر؛ وفي وقت فراغه ترجم الإلياذة. كانت غرفته الخاصة فى اليخت مكسوة بخشب الجوز كما كانت تضم مدفاة وأثاثاً من قصر جيمس الثانى فى لاهاي وأرفف مكتبته ودولابه تحتوى على كتب علمية. وقبل عودته إلى أمريكا للالتحاق بالبحرية، أبعده قاربه "ساموثريس" عن مواطن الأذى فى كينيا، ثم أعادها إلى الإسكندرية من مومبازا على أمل أن يجد جيدج برينتون مشترياً للقارب.

كان الربان الذى أبحر بالقارب "ساموثريس" من مومبازا يدعى تشارلز جيبسون كوان وهو مؤلف تقرير الصوت العالى الذى نشر فى عام ١٩٣٨ ويعتبر رواية عن تاريخ اليهود الفقراء فى نهاية شرق لندن وحياته فى سنوات كمتشرد وخطيب فى الحدائق ومحال. ومنذ ذلك الحين وهو يتمتع بنجاح بسيط كمنتج ومؤلف مسرحيات وممثل غير أنه شعر أن نجاح مستقبله يكمن فى الكتابة.

ومع فكرة أن الكتابة هي نوع من الكتاب المتشرد، ففي هذه المرة انطلق عبر البحر المتوسط، كوان - ويبلغ من العمر ٣٦ سنة، فقد أبحر من إنجلترا في يوليو ١٩٣٩ في مركب صيد شرعى تم تجديده "أمل إيفلين" مع ممثلة تدعى إليزابيث جوين - ٢٥ سنة - وقد اشتهرت بعد الحرب بإليزابيث دافيد مؤلفة الكتاب التقليدى الطهى "أطعمة البحر المتوسط".

ولدت إليزابيث فى عائلة من الطبقة الراقية لها علاقات بالارستقراطية وعند بلوغها سن النضج فى عام ١٩٣٢؛ بدأت تظهر كفتاة الحفلات الاجتماعية. كانت خجولة ولكن قوتها الخفية تحت جمالها الهادئ، فشعرت بالملل من مجتمع الشباب الغر الذى تعجب به أمها. وفى رد فعلها قالت إنها ستصبح ممثلة، ثم قابلت كوان بهينته أشعث أسمر الوجه قرصانى الملامح. أخبرت إليزابيث كوان فى رحلتهم عبر البحر المتوسط: "لا ترتد سوى جاكيت لُزرق وبنطلونا قطنيا قديما ولا تغسل شعرك من الملح. لعلى أستمّر فى حبك."^(٢٥) قالت لأعز صديقاتها إنه كان يقيدُها فى الصارى ويجلدُها، والتي كانت تعتبر مزحة توحى بأى شكل كيف كانت رؤيتها لعلاقتها.

بينما سافروا شرقا، بدأ الألمان فى غزو فرنسا وعلى مقربة من أنتيب؛ اعتقلهم الإيطاليون لفترة عند مرورهما بمضيق ميسينيا؛ وعندما شن الألمان هجومهم على اليونان، تم قصف جزيرة سيروس بالقنابل وقد كانت وطنهم. فى منتصف مايو ١٩٤١، هرب كوان وإليزابيث إلى مصر حيث تمزقت الحميمة بينهما بسبب الخطر ومصاعب الحياة فانفصلا. فى ذلك الصيف كتبت له : "سنذكر دائما فى أمور فعلناها سويا بدءا من الترع والخمر وصخور الحمراء لفرنسا التى أحبها والبحر الأبيض الممتلى بالنوتى البحرية التى تسبح على شاطئ كورسيكا ومطلع الفجر على خليج نابولى ومايونيز الكركند التى تناولناها معا بين الحين

والآخر وجبال البرتقال الذهبى فى حديقة يوسف جبال وتلك الجزر الأرجوانية الممتدة حولنا من أعلى التل خلف خيمتنا." ولكنه كان وداعا مترددا: "أشكر على المواقف الجميلة التى منحتنى إياها وتذكر دائما أنك جعلت جزر اليونان أكثر من مجرد اسم جميل بالنسبة لكلينا، ونتمنى أن تتكرر تلك الأمور ثانية".^(٢٦)

فيما بعد ذكر لوريل أنه قابل إليزابيث أول مرة عندما استقلت نفس المركب الذى هرب فيه مع نانسى من كالاماتا.^(٢٧) لم يكن هذا صحيحا كما كان لهدف ما، لقد قابلها عن طريق روبين فيدن بعد وصولها القاهرة. ولكن كان دوريل يتمتع بتنافس ودى مع فيدن الأكبر وكان يتخيل نفسه أحيانا فى مكانه.

كان فيدن وهو أحد المؤسسين مع درويل رؤية شخصية قد نشأ فى نورماندى وزار كامبريدج قبل سفره إلى الشرق الأوسط. وفى عام ١٩٣٧، كتب دراسة علمية تصف ملاحظاته القيمة عن دير القديس أنتونى القبطى بالقرب من البحر الأحمر الذى زاره العام السابق؛^(٢٨) وفى عام ١٩٣٨، نشر دراسة بعنوان "الانتحار: دراسة اجتماعية وتاريخية" وقد أثرت هذه الدراسة على دوريل تأثيرا خاصا.^(٢٩) كان فيدن يعمل ملحقا ثقافيا فى السفارة البريطانية فى أثينا عندما قابل دوريل حيث كان يعمل عملا مؤقتا بعد اندلاع الحرب وكتب ملاحظة بعد أول صدام مع "قبول دوريل الأنثوى وعينه القويتين.. انطباع بشدة الحساسية التى وازنتها رباطة الجأش".^(٣٠) كما كتب بعض ملاحظات دوريل مثل "إن فساد الحياة الدنيا هو التصالح بين الزمان والمكان".^(٣١)

لم يستطع فيدن أن يوفق بين عمله فى السفارة ومعارضته للحرب، فاستقال من منصبه وعاد إلى مصر فى عام ١٩٤٠، حيث بدأ فى إلقاء محاضرات فى جامعة فؤاد بالقاهرة. هنا فى القاهرة اتسعت دائرة أصدقائه وتنوعت وراح يتنقل

بين الملامى الليلية والحفلات المختلطة وبين الدوائر الأدبية والدبلوماسية؛ كان أعز أصدقاء أمى نمر وربما قام دوريل بتزكيتها عند أمى وزوجها والتر سمارت. لقد كان فيدين يتردد على برج العرب وكان يعتبر جون برينتون من أقرب أصدقائه الذى لم يمنعه من محاولة إغواء جوزى بعد نزهة ناحية الصحراء إذ تقول: "حاول التودد إلى. لقد كان جذابا جدا. سمح لى أن أقرأ آخر قصيدة كتبها (٣٢) قد تكون "رؤية شخصية": "ليلة أمس مشينا معا على رمال ناعمة، وعلى خطوط التلال الرقيقة." (٣٣)

ألقت إليزابيث مصر بالفعل قبل مغامرة البحر المتوسط التى قامت بها مع كاون؛ فى عام ١٩٣٦، استضافها أصدقاء أمها الانجليز فى القاهرة الذين قدموها إلى والتر وأمى سمارت والتى قابلت فيدين.

اختلط عقله النشط مع سحره الهادئ وخفة ظله التى تركت انطبعا عميقا عند إليزابيث؛ ومرت سنوات أسفرت عن ارتباطهما لفترة قصيرة ربما خلال إجازة قضياها معا فى فرنسا فى عام ١٩٣٨.

بالتأكيد اقتربا من بعضهما بعضا فى هذه المرة. على الرغم من وجود فيدين فى القاهرة فى حين أن إليزابيث عملت بوظيفة فك شفرات فى المخابرات البحرية فى الإسكندرية. اشتركت فى شقة واسعة فى شارع الفراغة فى الحى اليونانى مع مايك كامبرليدج صديقها الذى قابلته لأول مرة فى مالطا وعمل مع مدير العمليات الخاصة. كان كامبرليدج شابا رومانسيا وفاتنا وبقاؤه فى شقته بالإسكندرية يعنى علاقة ما. بعد سنتين من التشرذم مع كوان أرادت إليزابيث "أن تشعر بالهدوء العاطفى" أن تشعر بأنها مرتبطة من جديد "لذا فضلت البقاء فى البيت من أجل كامبرليدج" وتعلل النفس بالأمانى.. (٣٤) أما دوريل الذى قابلها فى القاهرة فربما

يكون زائرها هذه المرة^(٢٥) ربما يأتي في النصف الأخير من عام ١٩٤١ الذي يصل في سبتمبر وكما وصفته إليزابيث بأنه إشارة لحفلات متتالية ونزهات.^(٢٦)

فیدن، في ذلك الوقت، أحب رينيه كاتسفليس؛ وهي من أصل إسكندراني وأبوها محام يوناني بارز إذ كان وفيًا لزوجته الراحلة فهو دائما يترك مقعدها بجواره على مائدة الغداء خاليا. نشأت رينيه في بيئة دينية كاثوليكية رغم أنها لم تتردد على الكنيسة بعد يوم اعترافها عندما أخبرها القس ألا تكرر خطيئتها التي اعترفت بها. في مدينة تشيع فيها بذات الشائعات أي مدينة الإسكندرية، قالت في همس إنها منذ وفاة أمها أحببت شقيقها التوعم بجنون. فیدن قدم رينيه إلى إليزابيث ثم وبخ إليزابيث لأنها لم تهتم بها خلال زيارته في سبتمبر عندما اكتشف أن رينيه وكامبرليدج على علاقة غرامية. ولكن استمرت القصة، حيث وصفها أحد أصدقاء فیدن وهو جورج لا سال بأن "رينيه كانت على علاقة عاطفية جدا بإليزابيث"^(٢٧) إذ كان جورج يعمل في المخابرات البريطانية بالقاهرة في ذلك الوقت وقابل إليزابيث عندما انتقلت هناك في خريف ١٩٤٢ وقد سعدت معه بصدقة قوية لسنوات قادمة "علاقة عاطفية للغاية".^(٢٧)

تبادلت إليزابيث وكوان الخطابات المفعمة بالحياة منذ رأى بعضهما بعضا آخر مرة في صيف ١٩٤١ وارتدت الحلى الإفريقية التي أرسلها لها كهدايا إلا أنها رفضت قراءة رحلة أمل إيفلين التي أرسلها كوان فصلا بعد فصل فور كتابتها. عندما أعلن كوان وصوله ميناء الإسكندرية على متن سفينة ساموثريس، أرسلت له برقية على الفور تطلب منه أن يتركها وشأنها ثم أرسلت خطابا تقول فيه: "لا أريد أن أشعر بأى عاطفة بقية حياتي، كما أنى أخشى من أى حب أو ذكرى بقايا مأس من إيطاليا وأثينا والأسابيع الأولى في القاهرة.. لا.. لن أعود لهذه الحياة التي

عشت فيها قبل الحرب. إننى أسعد حالا ألف مرة وأنا أقوم بعملى الذى أحبه وأعيش بين أصدقائى، مما لو كنت أتسكع هنا وهناك دون أن أعرف أين سأكون فى الأسبوع التالى. وتعلمت أن أقرر بنفسى وبعقلى دون أن أتأثر بعواطفى.^(٢٨)

تقطعت أواصر المغامرة بين كوان وإليزابيث، فقد أدت علاقتهما المهمة وانقضى كل شيء بسرعة، وعلى مدار سنتين كانت تتمرس وتعيد تشكيل نفسها ولكنها حاليا وجدت نفسها مضطربة ومشوشة بسبب العواطف المرفوضة والتي أخذتها نحو أخبار عودة كوان.

بدأ دوريل سماع القصة فور وصول "ساموثريس" إلى شاطئ الإسكندرية واتجه إلى مكتب الاستعلامات البريطانى واعتاد زيارة شقة شارع فؤاد فى فيلا أمبرون فى ذلك الوقت حيث تذكرت إيف وهى تسأله عن رأى دوريل فى فصول رحلة أمل إيفلين التى كتبها. كان دوريل كريما ومشجعا للكتاب والفنانين الآخرين ولكن فى هذه الحالة كان أقل حماسة ربما بسبب تطابق ما تمناه لنفسه مع البطل والمغامر. قالت إيف: "كان تشارلز قرصانا متوهجا مليئا بالقصص الطويلة". كما قالت إنه دائما يأخذ موقع وسط المسرح بينما أراد الجانب الحسود فى دوريل اللعب مع كوان ليعذبه.

لقد أعجبت إيف بوسامة ومزاح كوان رغم منظره البذيع لكن سرعان ما رأت وراء مظهره رجلا لطيفا رقيق المشاعر. لم يكن تشارلز بالنسبة لى مشكلة محيرة. ببساطة اقترب منى باحترام. كان فى كل مرة يأتى لزيارتى يقوم بأشياء بسيطة وكأنها إشارة خاصة منه لى؛ كأن يحضر لى بعض الهدايا البسيطة لقد أثرت فى تماما. وربما هذا ما أثار غيرة دوريل.

ومع بقاء ساموثريس فى رعايته، بدأ كوان يلهو كثيرا، يدعو دوريل وإيف وجوتشى إلى حفلات فى الميناء الغربى كما كان يدعو فتيات للخدمة وأصدقاء بريطانيين ومصريين كما كان يدعو جون وجوزى برينتون. ولكن تذكرت إيف مآذب العشاء الصغيرة على متن اليخت عندما لعب حوالى ستة ضيوف لعبة خنازير غينيا لما أطلقت عليه مطبخ كوان "بسيط أشبه باستمتاع رجل بالطهى حيث يضيف كل شيء للتذوق" على الرغم من طلب دوريل من كوان تعليم إيزابيث الطهى مثل "سيدة تقليدية تعلمت كل شيء من الرجل".^(٣٩)

أخذ دوريل قصة أمل إيفلين من إيزابيث أيضا التى حضرت من القاهرة وقضت بضع ساعات تخبره بما يخفيه قلبها فى فيلا أمبرون. تذكرت إيف: "تعرفت عليها أول مرة فى الشرفة حيث كنا نتجمع هناك بسبب جمال المكان. وهناك وقفت بلا حراك لم أفكر فى شيء فقد كانت مثيرة جدا وتحدثت عن تشارلز جيبسون كوان وماذا تفعل تجاهه وأرادت مشورة لارى". كانت رومانسية كوان لا يمكن إخفاؤها، وجدت الطريق فى قلبها، عندما قام فى أواخر صيف ١٩٤٣ بمهمة سرية فى جزر إيجة نظمها القسم البحرى فى المكتب الأمريكى للخدمات الإستراتيجية وعاد إلى جزيرة سايروس تحت جناح الظلام وانتزع فرعاً من الزعرور الجاف وأرسله لها عندما عاد إلى الإسكندرية فى الخريف. أحست إيزابيث بالغضب لما أثاره كوان فى نفسها من مشاعر وأجبرها على أن تقاومها، رغم انطباع إيف بأن كوان هجرها "فإن إيزابيث لم تعرف كيف. قامت إيزابيث بزياراتها لتؤكد أنها لم تقابل كوان قط، ولكن بدا أثناء هذه الزيارات المبكرة لفيلا أمبرون أنها لم تنسه قط. وقالت إيف: "كان رجلاً فى حياة إيزابيث"^(٤٠) بينما تذكرت هى وجوتش أن كوان وصف إيزابيث فى عدة مناسبات: "امرأة حياتى ولهذا هجرتها".^(٤١)



إليزابيث جوين (١٩٤٣) التى عرفت فيما بعد باسم إليزابيث ديفيد تحدثت مع دوريل بقوة. قوتها على إخفاء قوتها والكشف عن شخصية قوية وغامضة.

لاحظت إيف قوة فى شخصية إليزابيث "التى تجاوزت الحياة" إلا أنها ليست متكلفة على الإطلاق "اتجه تفكيرها نحو اتجاه واحد يستبعد أى شيء أو أى شخص فى أثناء حديثها مع لارى". ورغم الاحتفاظ بإيف على أنها مثل "قطعة أثاث" وعندما تكون مع دوريل كانت تحدثه عن إليزابيث صديقة رينيه كاتسفيليس التى عرفتها بأنها ليست اجتماعية إذ كنا نعيش فى عالمين مختلفين" ولكن بسبب عملهما فى مستشفى كوتسيكا، عملت رينيه فى الصليب الأحمر، وعاشت فترة فى المستشفى حيث أصبحت رينيه "السيدة الوحيدة التى لها أثر فى نفسى" عندما كانت

وحدها معه. سرعان ما عرف دوريل الذى تمتع بهبة الاستماع الفضولى من إليزابيث نفسها بقدر هائل من القصة يتجاوز كوان وأمل إيفلين. منحت قوتها على اختيار الإخفاء والكشف - وهى لعبة استمتع بها- شخصيتها قوة وغموضا. ولكن لم يعرف تحديدا من أبلغ دوريل بأن أحد أفراد أسرتها اغتصبها فى سن الرابعة عشر؛ هى أم كوان أم صديق مشترك. ادعى جورج لا سال صحة الأمر وعلق على شدة أذاه: إذ يعنى إعادة تمثيله الاغتصاب فى كل مرة يتودد إليها أحدهم.^(٤٢)

كتب دوريل عن جوستين فى رباعيات الإسكندرية: لقد اغتصبها أحد أقاربها (وليس فى ذلك شك من قوة اعترافها التى صاحبته غزارة دموع سالت منها كما لم أرها تبكى بهذا الشكل قبل ذلك أو بعده)، منذ هذا الوقت لم تجد الإشباع فى الحب حتى تستعيد تلك الأحداث.^(٤٣)

بالنسبة لإيف "كان الأمر يشبه أليس فى بلاد العجائب. شعرت أنى اقتحمت كتابًا تتحول شخصياته إلى حقيقة، إلا أننى لم أعرف دورى."^(٤٤)

ورغم قضاء كوان الليل فى فيلا أمبرون أحيانا، فقد بقيت إليزابيث مع أصحابها فى مكان آخر وغالبا مع جورج دى ميناشا فى منزل الأسرة على ناصية شارع ميناشا وشارع رصافة على بعد خمس دقائق. ميناشا تزوج من وريثة أمريكية تدعى إليانور كاسكل وأنجبا ولدا، بيير ليفى دى ميناشا فى عام ١٩٢٤ ولكن سرعان ما انهار زواجهما وعادت إليانور إلى أمريكا ومعها طفلها. وبقي جورج دى ميناشا طول حياته يجمع التحف الجميلة^(٤٥) التى تنطبق على عادة جمع الناس. كما أسعده وجود إليزابيث فى البيت حيث عرفها على مجموعته المميزة من الخزف الرومانى القديم والزجاج الرومانى والسورى والمغولى المرصع ومينا جايبور والمجوهرات الفارسية والألماس الملون والساعات المرصعة والساعات

ذاتية الحركة وصناديق النشوق الذهبية من القرن الثامن عشر والزخارف التركبية واليونانية والرسوم الجميلة والسجاجيد النادرة وفابريجييه. بالإضافة إلى شغفه بالموسيقى، كان شغوفاً بأعمال الفن الصينية خاصة البورسلين؛ حيث جمع منها مجموعة قد تعتبر أرقى المجموعات وأشملها في أي مكان في العالم.

ربما التقت إليزابيث بميناشا من خلال أسرة سمارت أثناء زيارتها لمصر في عام ١٩٣٦، وازدادت قرباً منه في عام ١٩٤١ حينما عملت في المخابرات البحرية بالإسكندرية. وفي يوليو ١٩٤٢، انتقل القسم الذي تعمل به إلى بور توفيق في جنوب قناة السويس، ولكنها أصيبت بالتهاب في قدمها فعدت في إجازة إلى الإسكندرية حيث كان ميناشا إذ اعتبرته أفضل أصدقائها في مصر فقد أصر على استضافتها. وعندما ازداد التهاب قدمها، اصطحبها إلى المستشفى لإجراء عملية ودفع الحساب بنفسه ثم أعادها لشارع رصافة حيث ظلت في رعاية طبيبه الخاص لمدة عشرة أسابيع واعتبرها أحد أفراد عائلته.

وبعد شفاء إليزابيث، عادت للقاهرة ووصلت في موعد زفاف فيدن ورينيه كاتسفلين في أكتوبر ١٩٤٢. ترتب الزفاف في وقت أبعد من اعتراهما بالحب المتبادل منح رينيه الحرية من أي قيود في جو عائلتها وسمح لها، كما كانت تريد دائماً، أن تعيش حياتها بشروطها. لقد كانت رينيه تعمل في السفارة البريطانية قسم الإعلام والتي كلفت إليزابيث بوظيفة في وزارة الإعلام البريطانية التي تعتبر مركز تبادل معلومات من العملاء والخبراء والدبلوماسيين في أي مكان من تونس إلى فارس حيث جرى تمحيصها وفرزها وإرسالها حسب المطلوب إلى السفارة أو جهاز المخابرات أو الجيش أو الحكومة البريطانية، ثم تعصب وتهذب على نحو مناسب لتداول الصحف. كانت مهمة إليزابيث إنشاء مكتبة مراجع مكونة من كتب وسجلات يومية ومجلات وصحف ليستخدمها مراسلو الحرب والملحقون

الصحفيون؛ على الرغم من عدم سرية العمل، فإنها أصبحت من أكثر الناس اطلاعا واتصالا في الدوائر السياسية والعسكرية في القاهرة من خلال المنشورات التي قرأتها ونوع الناس الذين قابلتهم. استفاد فيدن ودوريل من مكتبها كصحفيين مثل آلان مورهد من ديلي إكسبريس الذي كتب فيما بعد كتابا شهيرة عن أنهار النيل الزرقاء والبيضاء والرحالة والكاتبة فريا ستارك التي أصبحت صديقة دوريل بعد أن قابلها عند أسرة سمارت. عملت فريا ستارك في وزارة الإعلام وأنشأت إخوة الحرية لتوحيد العرب في أنحاء الشرق الأوسط خلف قضية موحدة وفي خريف عام ١٩٤٣، بينما زارت إليزابيث الإسكندرية، بدأت فريا رحلة محاضرات إلى أمريكا وكندا استمرت ثمانية أشهر في محاولة لمقاومة الدعاية الصهيونية المتزايدة هناك ضد السياسة البريطانية في فلسطين وأثبتت إليزابيث أنها صديقة مثيرة الاهتمام لجورج دى ميناشا.

في الحقيقة، حتى هذا الوقت كان جورج دى ميناشا يتكسب الأموال سرا من قائمة مختارة من مليونيرات يهود سكندريين نيابة عن موساد "العلية" التي تعتبر المنظمة السرية المسؤولة عن الهجرة غير القانونية إلى فلسطين.^(٤٦) يعتبر هذا تناقضا لطلب الجالية اليهودية في الإسكندرية في ديسمبر ١٩٤٢ بالتبرع لرعاية صندوق روبرت رولو رئيس الجالية غير الصهيوني لتأييد جهود الحرب البريطانية لإنقاذ العالم من طغيان هتلر. صاحب الهجرة غير الشرعية تجمع المخابرات حول الإنجليز والمصريين بالإضافة إلى السرقة من مخازن الأسلحة والذخائر البريطانية المصادرة من قوات الألمان المنسحبة والمهربة عبر سيناء لاستخدامها ضد الإنجليز والعرب في فلسطين. ولكن يبدو أن تقارير المخابرات البريطانية لم تشكك والتر سمارت في أنشطة ميناشا. ولم يكن ميناشا ضمن قائمة شخصيات مصر "التي اقتصررت على المصريين والمقيمين غير البريطانيين: كان

جورج دى ميناشا بريطانيا مولودا فى ليفربول وحائزا على وسام الإمبراطورية البريطانية بسبب خدماته الكريمة للقوات.

قبل انتقال دوريل لمحرم بك بشهر، توفى فلكس دى ميناشا فى الثامنة والسبعين من عمره بعد معاناة استمرت سنوات من الشلل الذى قيده فى فيلته فى شارع رصافة. كان نعيه فى صحيفة أخبار اليهود فى لندن فى ٣ سبتمبر ١٩٤٣ "حرصنا على الاهتمام بالصهيونية" و"أحد أصدقاء فايتسمان المقربين". "حضر الجنازة محافظ الإسكندرية الذى أرسله الملك لتقديم أحر التعازى الملكية للعائلة وممثل رئيس الوزراء ومدير عام البلدية ورئيس الشرطة والقنصلية وكبير حاخامات الإسكندرية. توفى بارون دى ميناشا عن أرملة وبنيتين وولدين يدعى أحدهما بارون جورج دى ميناشا محسن شهير واختصاصى متحمس لرفاهية مؤسسات القوات البريطانية والمتحدة، والآخر الأب جين دى ميناشا بالترتيب الدومينكى ومؤلف كتاب عن الحاسدية باسم "عندما تحب إسرائيل الله".

تعرف دوريل على منزل ميناشا الذى أقامت فيه إليزابيث حيث ارتاده أحيانا مع جوين ويليامز فى حفلات بعد الظهر الموسيقية المعروفة. قال جاك مواس حفيد فيلكس وابن أخ جورج دى ميناشا: "أذكر أنه فى أثناء الحرب وفى مساء كل يوم أحد تقام حفلات موسيقية للترفيه عن القوات يحضرها نحو مائة أو مائتى شخص لتناول الطعام والترفيه علاوة على حفلات أيام الثلاثاء كان جورج دى ميناشا يعزف على البيانو بنفسه^(٤٧) بمشاركة جينا باوشر التى اشتهرت دوليا فيما بعد بتقديم شاي ومخبوزات من بادروت وأحيانا من باستروديس.

كتب دوريل عن نسيم فى رباعياته: "بدأ نسيم فى هذه الفترة التسلية مع تبذير غير معروف فى المدينة حتى الآن حتى وسط أغنى العائلات. لم يفرغ المنزل الكبير أبدا. لم يشعر بتعاقب الدوافع الخفية فى هذا التبذير الجديد سوى السلك الدبلوماسى".^(٤٨)

ترى المؤامرة الفلسطينية التى أضافت بعد الإثارة السياسية فى رباعيات الإسكندرية نسيم حوسنانى المصر فى القبطى، متأمر يُهَرَّب أسلحة لفلسطين لإثارة الثورة اليهودية ضد البريطانيين. اعتقد نسيم أن معاناة الأقباط فى مصر مستقلة إلا إذا ساعدوا على إنشاء حليف صامد على هيئة دولة يهودية فى فلسطين توازن الهيمنة المسلمة. ولكن دائما ما كان الأقباط مصريين متوطدى العزم ومناهضين للصهيونية ولم يعيروا أنفسهم لمثل هذه مؤامرة مطلقا. كتب دوريل نفسه مذكرة لتقديم ماونت أوليف، الجزء الثالث من رباعيات الإسكندرية وهو الجزء الذى اكتشف فيه سفير ديفيد ماونتليف أن صديقه نسيم حوسنانى متورط فى مؤامرة صهيونية مناهضة للإنجليز: "تعتبر كل الشخصيات والمواقف فى هذا الكتاب من نسج الخيال فقد استخدمت حق كاتب الرواية فى الحصول على القليل من الحريات الضرورية فى تاريخ الشرق الأوسط الحديث".^(٤٩) ولكن على الرغم من حصول دوريل على بعض الحريات، فإنها ضرورية إذا أراد إخفاء حقيقة عدم خيالية الشخصيات والمواقف التى يصفها.

قدمت رباعيات الإسكندرية فورستر جوين ويليامز لشعراء مدينة البطالمة، ومن ثم قرأ أنشودة ثيوقریطس، وهى قصائد كالليماخوس التى ترجمها روبين فورنيس وقصائد مقتطفات أدبية يونانية التى منحته فكرة مسابقة هجاء أو معركة شعر بين شعراء الإسكندرية والقاهرة. كانوا جميعا أصدقاءه وأعجبته الفكرة: روبين فېدن وبرنارد سبنسر وترينس تيللر وبريان دافيس فى جامعة فؤاد بالقاهرة وفى الإسكندرية ويليامز نفسه وروبرت ليدل فى جامعة فاروق وهارولد إدواردز ودوريل الذى أعلن: "لم تحدث مثل هذه الضربة العنيفة منذ حرب طروادة".^(٥٠)

طلب جوين ويليامز من روبين فورنيس بالقاهرة تمثيل دور محكم: ("عزيزى روبين قاوم إلحاحك الداخلى فى تزعم قبيلتك فى مكر الشعراء واستخدم

حكمتك وذكاءك لتحقيق التوازن^(٥١) وفى نوفمبر، أطلقت شعلة الافتتاح مصادر
وحى شعراء القاهرة ورد برنارد سبنسر الذى حول الدقة على دوريل بعد إهانة
ويليامز وإدواردز وليدل:

لن يفشل من يروع عروس الشعر

حينما يتباهى الشعر عند دوريل (لاري)^(٥٢)

عاد دوريل للقاهرة حيث تتدفق أعلامك الفاسقة موحلة مثل نيل غير لائق
"شعراؤها" الذين يعتبرون مجرد مصادر إلهام. "دافع عن نفسه أمام سبنسر: "كاتب
مأجور مغرور أو "سالخ جلد الحوت" الذى "يترك الغضاريف وحدها عندما يصل
إلى الجلد والعظم"؛ بينما "أنت يا فيدن الذكى منزوع اللجام يا من تقلب رياح
الخماسين الكئيبة بشعرك وفى تدفق كامل منزلق باندفاع يشبه شعر ساسون من
الشعر إلى النثر أو شيئا أسوأ.^(٥٣)

لم يتدخل فورنيس سوى مرة واحدة وكانت ملاحظة غيبية بعيدة النظر على
انفراد تيلر بعد أن كتب جوين ويليامز سطوراً تتأمل "حياة السيد ترنس روجرز
تيلر الجنسية" - "إذا ابتهل ترنس لتيلر، هل نفترض أن تيلر مجرد ملحق؟^(٥٤) -
أصر فورنيس على عكس الازدواجية الضمنية "إذا ابتهل ترنس لتيلر، ابتهل تيلر
لترنس أيضاً.^(٥٥)

على الرغم من نشأة ليدل فى القاهرة وتسميته "تورته"^(٥٦) (حسب وصف
دوريل)، فإنه وضع مصدر وحى الإسكندرية فى لمعان المدينة:

من كليوباترا، على مقربة من كامب شيزار

هذه إجابتي على مدرسة الجيزة.

مع ذلك لم يفكر أحد
في أن يكتب الشعر في القاهرة
سوى بعض المبتدئين الضعفاء.
ما دافعك إن لم يكن محاكاتنا،
يا رفاق كاليفورنيا العظم في المواطنة؟
حسنًا تفعل لو لم تسخر، ولكن ثقلنا،
ورثة أبولونيوس يدعى رودريوس.

....

ولن يجيبك الشعراء بتجههم أبدا
إذا توسلت في جليم بولوس أو بولكلي.
(محطات ترامنا - هل هناك أسماء أجمل من
ثان سوتير وسيدى بشر والأزاريطه؟) (٥٧)

وجد فورستر هذا الشعر في المدينة وقد أدخله دوريل في رباعيات
الإسكندرية: "نفس أسماء محطات الترام ترجع صدى شعر تلك الرحلات: الشاطبي
وكامب شيزار ولوران وأزاريطه وجليم بولوس وسيدى بشر." (٥٨)

لهذا السبب كانت إيف مكرسة لدوريل وأخذت حديثه عن الزواج على
محمل الجد؛ شعرت بعدم انتهاء العلاقة بينه وبين نانسي. في سنوات شبابه التي
قضّاها مع إيف، وصف نانسي "بأنها مزعجة" وهي نفس الكلمة التي استخدمها لإخفاء

شعوره عندما أراد الكتابة لإليوت فى أوائل هذه السنة ولكنه تحدث عنها غاضبا وكان انطباع إيف أن نانسى ستعود لمصر وتستعيده وأنه سيعود إليها كالطاقة.

سافر دوريل إلى بيروت فى منتصف نوفمبر ١٩٤٣ بعد أن أخبر إيف أنه سيرى نانسى التى تقيم هناك لفترة. ولكن يبدو أنها رفضت مقابلته وجها لوجه وتذكرت إيف كم كان غاضبا عندما عاد إلى الإسكندرية بعد عشرة أيام: لم تجبه نانسى إجابة واضحة عن نيتها وكان قلقا من عدم رؤيته ابنته مرة ثانية.

يعنى إنهاء الأمور مع نانسى أن الوقت قد حان للتقييم؛ أنهى دوريل فى أثناء إقامته فى بيروت قصيدة سيرة ذاتية طويلة بدأ كتابتها فى الإسكندرية بعنوان "مدن وأراض منبسطة وناس" يفتتحها على طفولته قائلا:

بدايتى فى التسكع

الليل كان لصي فأن

بريء ظاهره مثل قلب نظيف

على حوافه مشى ذات مرة

فى سكون، سكون تام

لم يعرف سوى القليل سواء أفضل أو أسوأ:

كان الجنس صغيرا

والموت صغيرا

سمات تحفظ الجوهر الخالد
ولكنها تدور بسرعة واضحة
وللأبد في العام السابع
الكل يلتفت ويبدأ في الهبوط
إلى نهر الأحزان الطويل من غمهم:
خوف موصول بلا سبب
رعب يملأ الروح
قدمتكم هنا بلا نهاية
في بداية سكون بريء
حتى يصبح عذابكم شعرا

كانت كورفو عودة للعالم السحري:
الوقت الجميل والغامض بالوعود
وحركات المباركة في درجاتها الرشيقة
التي يتحملها بسعادة تجاه زوجته المثالية الحزينة
الجزيرة الصخرية وأشجار السرو.
ولكنه تذكر الشبه بينه وبينه نانسى:

فالعشاق مثل سباحين يتيهون في البحار

منهكين بين ذراعيهم

يتمنون اليابسة ولكن يمشون على الماء.^(٥٩)

فى ديسمبر، سمع دوريل من ميللر ولأول مرة فى سنة واحدة: "كيف حالك؟ أفكر فيكم جميعا. هل تعتقد أن الحرب ستنتهى قريبا؟ هل سترى كورفو ثانية؟"^(٦٠) وفى هذه المرة أجاب دوريل وأخيرا: "أنا حاليا فى الإسكندرية بينما نانسى تعيش فى القدس ومعها ابنتنا. لقد انفصلنا فى وقت الحرب. بعد إخلاء اليونان وكريت والعلمين، فهمنا معنى كلمة "لاجئ". هل ستراسلنى ثانية وتتجاهل دعاياتى السخيفة؟"^(٦١)

فى النهاية أقر أنه خسر نانسى ولم يعد يذكر إيف.

فى هذا الوقت، توقفت عن العمل فى مستشفى كوتسيكا (على الرغم من ظن والديها أنها ما زالت تعمل هناك) وسكنت فى فيلا أمبرون حيث شعرت بالكلل وبدأت فى اكتساب وزن إضافى. حدث هذا فى معظم السنوات حيث يقترب الشتاء وينقلب مزاجها من سعادة إلى اكتئاب. فى فصل الصيف، كان وزنها ١١٠ أرطال وبلغ الآن ١٣٢ رطلاً لذا كان الحديث عن الحمل فى الفيلا يعنى إيف وليس بيلى.

فى أوائل يوليو ١٩٤٣، اقترح دوريل كتاباً قصيراً عن حرب استقلال اليونان لوزارة الإعلام فى حكومة اليونان فى المنفى بالقاهرة. وصف دوريل الكتاب الذى تمنى أن تنشره دار نشر Faber and Faber فى إنجلترا أيضاً للكاتب تى إس إليوت بأنه "تاريخ دقيق وموجز" عن الثورة ضد الأتراك فى عشرينيات القرن الثامن عشر ولكنه كتاب يشمله "مثل صوان" فى "صورة خيالية لشخصية

خيالية ومنظر طبيعي".^(١٢) ولكن في فبراير ١٩٤٤، اشتكى دوريل لإليوت أن كتابه 'ما زال ينتظر تعاوناً من حلفائنا الأتقيين والمسيبين للخبل وكل الأجناس السياسية الجاحدة الثرثرة غير المتعانة'.^(١٣)

اعترف دوريل أن يناقش هذا الكتاب القضية بمشابهة قضية مقاومة الميليشيات في اليونان التي احتلها الألمان. شكلت عدة مجموعات المقاومة اليونانية وإن كان أكبرها وأكثرها تأثيراً جيش التحرير الشعبى الوطنى. شحنت الرمزية الفدائية اختصار ELAS إلا أنها أعادت إنتاج الكلمة اليونانية التي ساعدت في كسب الدعم المنتشر في اليونان نفسها ومن مناهضى الفاشية والمعجبين بالإغريق بالخارج. كان ELAS الجيش العسكرى لجبهة التحرير الوطنية التي كان العديد من أعضائها من أتباع فينزلوس ومن ضمنهم كاتسمبلاس الذى ظل في اليونان كما ضمت العديد من المتعاطفين اليونانيين المصريين واليونانيين الذين هربوا إلى مصر ومن ضمنهم ستيفانيدس.

تجنبت حكومة اليونان الملكية فى المنفى اقتراح دوريل بسبب السياسة البريطانية تجاه جبهة التحرير الوطنية/ جيش التحرير الشعبى الوطنى التي تتصف بالواقعية الخسيسة والغبية حتى ارتعدت فرائصه من الخوف. فى الحقيقة تعثر على أرض خطيرة سياسياً؛ لأن البريطانيين فهموا حقيقة ادعاء جبهة التحرير الوطنية/ جيش التحرير الشعبى الوطنى يعنى تمثيل مستقبل الديمقراطية الليبرالية فى الوقت الذى قدم فيه دوريل اقتراحه، وعلى الرغم من انحياز أغلبية أعضائه لليسار الديمقراطى، فإن الحركة كانت تحت سيطرة الحزب الشيوعى اليونانى سرا الحزب الذى تعتبر مقاومته ضد الألمان ثانوية بالنسبة لهدف تقديم مصالح الاتحاد السوفيتى الرئيسى وتأسيس "ديمقراطية الشعب" فى اليونان بالقوة. لم يعرف دوريل ما هى

ولم يهتم بها إلا أنه أدرك أن الصمت أفضل في حالة "عدم جمع ملف الحماقات" (٦٤) على الرغم من شعوره بتكرار خيانة قضية اليونان التي أحبها.

فور انتهاء فورستر من الأمر، رأى دوريل الحرب، فاجأته حياته بمعنى الصراع الداخلي، فكتب لميللر من كالاماتا في نوفمبر ١٩٤٠ بعد الغزو الإيطالي لليونان: "لا أرى نهاية الأمور التي ستستمر سنوات لأننا لا نفترب من الحل الفردي ولا ينعكس الصراع الخارجي سوى عليه." (٦٥)

كان دوريل مستعدا للكفاح مثلما تخيل ميللر نفسه في كورفو في أواخر صيف ١٩٣٩. بالنسبة لدوريل، كان المحيط مشحونا بذكريات بايرون ولم يُرد أن ينضم للقوات البريطانية بل للجيش اليوناني للخدمة ضد الإيطاليين على الجبهة الألبانية "لأن تكثيره تجاوز مواطنيه نحو اليونانيين." (٦٦) وفي النهاية، اقتنع بعدم الذهاب ولكن بعد شجار عنيف مع نانسي وحديث عاقل من القنصل البريطاني. في فبراير ١٩٤١، عندما حلقت الطائرات الإيطالية في السماء أعلى كالاماتا، سافر دوريل إلى أثينا وطلب من القنصلية البريطانية إعفاءه من واجبات التدريس للالتحاق بالقوات الجوية للمملكة المتحدة هذه المرة، إلا أنهم أخبروه أن التعليمات تقتضي احتفاظ الناس بمناصبهم لدعم الروح المعنوية المحلية ضد التهديد المتزايد من الغزو الألماني.

وبعد مرور شهر، بينما يجلس دوريل فوق حفرة ويفكر في كتابه عن الموتى، كتب لميللر في أمريكا: أنا سعيد لاتضمام إنجلترا واليونان في هذه الحرب؛ ورغم عيوبهما التي ارتكبوها، فإنهما يدافعان عن شيء عظيم. لا تعلم شيئاً عن الجهود المثيرة والموقظة للمشاعر والحب الذي استهلكه البسطاء الذين علقوا في مصيدة الحرب الكبيرة؛ في إنجلترا يضع الأطفال باقات الزهور البرية

على مقابر الطيارين الألمان الذين حطموا بلداتهم. فى اليونان انتحبت البائعات اللاتى التحقن ممرضات على الإيطاليين المساكين الذين تعرضوا لبتى سيقانهم بسبب قسمة الصقيع، ويجرى الشحاذون بمحاذاة طوابير المساجين يعطونهم لقيمات من الخبز أو برتقالة. وترى على الجانب الآخر حقارة الإيطاليين الزاحفة الذين قذفوا لاريسا أثناء الزلزال وقذفوا القرى من ارتفاع ٣٠ ألف قدم خوفا من قصف مدافع ماكينة الدفاع الوحيد فى بايولس وفروا هاربين أمام المشاة اليونانيين الذين تغذوا تغذية سيئة. من المؤكد أن هذه الفئران لم تكن أسياى أوروبا ولن تكون: عندما تنبأنا فى بداية الحرب أن فرنسا أكبر الفئران، نراها تعلن أن ألمانيا: لم تتم سوى عزى. لا يتعلق هذا بنا فى المطلق: حيث قال تى إى لورانس ذات مرة: "مررنا بأوقات حين استخف الناس بالحق الحى واقتصر التبشير على السيف".^(١٧)

عوضا عما سبق، عمل دوريل فى الإسكندرية فى خدمة الدعاية البريطانية بينما تصيبه حالة إحباط حتى فى حالة الكتابة عن قضية اليونان. كتب لإليوت: "أكتب كتابا صغيرا عن كورفو لتعزيتى".^(١٨)

بعد "زنزانة بروسبرو" أول كتب رحلات دوريل وأكثرها سحرا ينضح بشروق الشمس والنبىذ، وقد استمرت قراءته ككتاب رحلات رعى بسبب طبعه وطرق تفكيره واستطراذه فى التاريخ. فى فبراير ١٩٤٤، كتب عشرين ألف كلمة أو ذلك ما أخبر اليوت به مما يعنى أنه كتب نصف الكتاب.

فى خريف ١٩٤٣، كتب دوريل لسيفريس الذى عاد من جنوب أفريقيا وكان مسئولا صحفيا فى دار المفوضية اليونانية بالقاهرة: "بدأت أعمل ليلا وبدأت قراءة رواية عن الإسكندرية، لدى شعور غريب. فقد نسيت معظم القواعد وهو عيب لافى للنظر فى كتابة النثر. أتقدم ببطء مثل رجل أعمى يتحسس طريقه على أرض

خاوية منذرة بالسوء".^(٦٩) سرعان ما طرح الرواية السكندرية جانبا واتجه لقراءة زنزانة بروسبيرو؛ يجب العودة للماضى، للسحر الذى تقاسمه مع نانسى فى كورفو قبل المضى قدما.

بينما عاش دوريل فى كورفو، تخيل أن شكسبير كتب مسرحية العاصفة هناك وأطلق على منزله الأبيض فى كالاماي "زنزانة بروسبيرو". رأى فى وداع بروسبيرو لقواه السحرية انعكاس تقاعد الشاعر فى ستراتفورد عندما بلغ عامه السادس والأربعين لأن ذى تيمبست كانت آخر مسرحياته لذا قيد شكسبير "قواه الورعة لمد حياته الإنسانية والمتقلبة وجزرها".^(٧٠) وصف دوريل هذا الموضوع كحرب تلوح على كورفو. ولكن على عكس بروسبيرو وشكسبير، لم يغادر دوريل زنزانتة قط بينما يحدق من نومه السكندرى فى برجه فى فيلا أمبرون: بدأ دوريل كتابته باقتباس من مسرحية ذى تيمبست. بدأ دوريل الكتابة: "لا ألسن بل عيون؛ اصمت" كانت تلك الكلمات التى قالها بروسبيرو حين توسل للأرواح.^(٧١)

تم تقديم زنزانة بروسبيرو فى شكل يوميات من أبريل ١٩٣٧ حتى سبتمبر ١٩٣٨ ولكن غلفها صمت سحرى. اتسمت سعادة شباب دوريل فى كورفو بالخلود "خلود تعتبر فيه الفادحة الطابق القاسم الذى ينهار كل صباح عندما أعود للصخور الدافئة حيث لا يبتعد وجهى عن اللهجة الأيونية اليونانية سوى قدم".^(٧٢) كما يقضى الخلود على الشعور بالسبب والنتيجة، يقضى أيضا على "أى خط فاصل بين عالم اليقظة وعالم الأحلام. يسبب الشعور بعدة حيوات مؤقتة الشعور بالحيرة داخلنا".^(٧٣)

يشعر دوريل بأنه مسكون حين يستمع لصياد سمك جالس فى حانة ممثلة بالدخان منتظرا تغير الرياح حيث قد يسمع أصوات أوديسى وطاقمه بتبجحهم

وخبثهم وثرثرتهم على الرغم من انفصالهم الميقاتى عن أوديسى بآلاف السنين. ظل اليونانيون مقتربين من الأرض والبحر اللذين عاشوا بهما، وشكلت منظر الأساطير الخالدة الطبيعى شخصيتهم. لم يخضعوا للانقسام الحديث بين الرأس والقلب؛ كانوا بعيدين عن تدفق الحياة وشعر دوريل أنه مكتمل أيضا بصحبة ما أسماه "اليونانيون الخالدون".^(٧٤)

فى زلزلة بروسبيرو، كانت وجهة نظر دوريل التاريخية أوليمبية: "تتغير الأرض قليلا ولا يتغير تركيب نفس الإنسان الأساسى إطلاقا فى أبهة الأحداث الرسمية التى كرمناها بمصالحنا".^(٧٥) فى وجود شعور الأحداث التى تهدد زلزالته فى الجزيرة: بينما يقترب وقت الخمر، يفسر دوريل حلم اليقظة فى مذكراته اليومية بمدخل "ستدلع الحرب قريبا".^(٧٦)

تنتهى زلزلة بروسبيرو "بخاتمة فى الإسكندرية" حيث يصف دوريل "خسارة اليونان بئرا بينما لا يستطيع إيكنتيوس عزاءنا".^(٧٧) تكلم الفيلسوف إيكنتيوس عن تقديم الضرورة وتحملها عكس كل القوانين والقواعد التى تحكم الكون والتى لا يحكم هدفها النفوذ البشرى. هل يستطيع المرء التخلّى عن حرية التصرف والإرادة والقدرة على إعادة ترتيب ما تم تحطيمه؟ يجيب دوريل قائلا: "لا يتعرض التاريخ بتغييراته المؤلمة وغير المتوقعة للشقة والذكرى؛ حيث إن هذه وظيفتنا".^(٧٨)

أطلق دوريل على تجربته فى اليونان "كون التبشير" أى رؤيته الغامضة. كتب دوريل لميللر فى صيف ١٩٣٧ من كورفو: يعتبر بُعدا مكانيا تماما حيث يقع الوقت فى أحواض ومكان سحرى حيث يبدع الفنانون فى محيط الحرية المازحة: "يعتبر كون التبشير شيئا دوريا داخليا: مثل فترة شرب".^(٧٩)

فسر مرة ثانية فى أولى طبعاته رؤية شخصية : "لم يكن "حالة مزاجية" وإنما خطة تفرض نفسها مستمرة تحاول نفس المرء الروحانية الوصول لها من خلال الوسائل المتنوعة. لا يعد "الفن" سوى مرآة ضبابية نرى من خلالها الشمس الخطيرة." لأن المنطق يصف "قانونه بالفادحة" ولكن الشعر أو المنطق المتفوق "يغزو مملكة حيث يحكم اللاعقل سواء كان طارنا أو هادفاً أو دستورياً. هذا ما أطلق عليه كون التبشير بسبب استخدام الهدف بمعناه العاطفى والمؤثر فى عالم شعارات النبالة".^(٨٠)

اعتقد دوريل أن المذهب العقلى النقى مرض الجنس البشرى الحديث وأن المنطق بكل ازدواجياته القاسية أو صراعات النقيض أو كليهما هى عمل الأنا بكل معتقداتها التى دمرت قوة الإرادة. أشار دوريل إلى نفس النقطة عندما قدم جوستين فى وقت لاحق باقتباس من جوستين ماركيز دى ساد: "يتوفر لنا موقعان سواء الجريمة التى تسعدنا أو الأحبولة التى تحرمنا من التعاسة. أتساءل ما إذا ترددت الأم تريزا الجميلة وأين يستطيع عقلك الصغير العثور على خلاف قادر على مصارعة هذا الخلاف؟"^(٨١) اعتبر دوريل ساد أحد أطفال التنوير وآخر زهور عصر العقل الذى دمر أوروبا الحالية.

كتب دوريل فى زناينة بروسبيرو: "هل كان سعيدا أم تعيسا، حسن الخلق أم سيئ الخلق؟ فقد كان خارج مصيدة المتناقضات. يجب تحرير الفكر، دعنا نروج للشكلية التى لا تحتوى إلا على فكرة واحدة وهى القضاء على التنافر والتعارض. دعنا نزوج أفكارنا ولا ندع ناسا أقل أهمية تروجها من أجلنا".^(٨٢)

اعتبر دوريل المعركة روحانية؛ بينما يتجه المجتمع نحو العقلانية، يخسر رؤية الكمال والشمولية والقبول والحب. ولكن دوريل رأى فى مملكة الفنانين كمالا

لا نهائياً واعتقد أن واجب الفن علاج ما قطعه العقل إرباً أو "التوسل للإله" كما كتب في الكتاب الأسود. (٨٣)

حكّت مولى توبى قصة جدّها (اليهودي) للكونت باتريس دي زغب صديق دوريل بينما تمشى في شارع فؤاد:

قال زغب: "من المؤسف أنك لست مسيحية، فلدينا العديد من المعجزات."
وردت عليه قائلة: "ليس لدينا سوى القليل من المعجزات إلا أنها جميعاً حقيقية." (٨٤)

في بداية عام ١٩٤٤، تخيل دوريل أن نانسي أرسلت له خطاباً تقول فيه: "عزيزي غير المسئول وأعز الكسالى. اشتريت لنا مركباً شراعياً صغيراً طوله عشرون قدماً ويتميز بوجود برمودا وغلّاف مركب شراعى صغير سريع؛ نستطيع الآن أن نجربه في خليج فون: كما يمكننا إثبات أنك الشخصية العميقة الصارمة التى تظاهرت بها." (٨٥) كما تضمن الخطاب فى زنزانة بروسبيرو فى مدخل ٢٥ يونيو ١٩٣٧ فى يومياته ولكنه كتب "يبدو العالم بأسره مفتوحاً أمامنا" بدل خط إثبات نفسه.

كتب خطاب تهنئة بالعام الجديد لإيف على نفس الورق الأزرق وبفسس الحبر الأحمر؛ ورغم أنه كتبه بصيغة أدبية وعلى هيئة كتيب وكتابة "خطاب صغير لإيف - الإسكندرية ١٩٤٤" فى المقدمة، فإن الخطاب كان فى حقيقة الأمر اعترافاً خاصاً عالج فيه نقته كمحب وكاتب. (٨٦) بدأ الخطاب: "عزيزتى إيف الكسولة والمتوحشة وصاحبة العيون السوداء، من اللطيف قضاء بعض الدقائق فى كتابة بعض التفاهات لك." وبقية الخطاب كالتالى:

لماذا أنت مشاكسة ؟ أتعلمين. لماذا أنا نفسى غير قانع كعاشق ؟ لا أعرف.

أولاً: لأنك خبيرة في الأتانية وثانياً لأننى أكثر أنانية منك.

ثانياً: لأننى فى الحب يجب أن أتحلى بالثقة بالنفس^(٨٧) ولا أثق بها وحتى لا تتظاهرين بها.

ثالثاً: لأنك كتومة للغاية وأنا أتوق للتعبير عن نفسى.

أعنى أن الصعوبات التى أواجهها ككاتب تنعكس على الصعوبات التى أواجهها كمحب، مثل التعبير والإخلاص والأسلوب وغيرها.

بالطبع يعتبر الشعور بالخيانة أشد الأشياء التى تعوقني؛ نخون جميعاً. الابتسامات أو نيتنا التى لا نستطيع إيقافها. لذا يحرسنى تشاؤمى من ابتساماتك للآخرين وتوددك الغجرى اللعين مع الجميع. ثم اللغة! لا تعتبر لغتك الإنجليزية ممتازة ويجب أن تشعرى كما أشعر إذا أردت التودد باللغة اليونانية فى كل الأوقات: فمن الصعب فهم الفوارق الدقيقة.

بالإضافة إلى كل ما سبق، ما زلت وفيأ لوجهك الغجرى المتميز بلون الجوز الكستائى الداكن وعينيك الخاطفة للأبصار وجانبيتك المثيرة.

على الأقل نستطيع أن نتقابل ويفهم كل منا الآخر وأحياناً أتساءل فى السرير: ألا تعتبر الأشياء الأخرى مفتعلة أولاً يهم أى شيء آخر فعلاً إلا أن الرقة تعتبر شيئاً هاماً.

ماذا تظنين؟

وحمل الخطاب توقيع: "المخلص" وتبع ذلك رسم رأسه بشكل جانبي وأنف كبير على هيئة قضييب منتصب.^(٨٨)

لقد فترت مشاعر إيف نحو روجيرو، وبالنسبة لدوريل "أعترف أنني كنت صعبة المراس معه جنسيا ولكن كان يجب أن يعرف أنني كنت أكثر صعوبة مع من كان قبله." أخبرته شيئا عن روجيرو ومحبيها السابقين إلا أنه "اعتبرني عاهرة" "أضاجع هذا وذاك." اعتبر نفسه حلقة في سلسلة وأننى سأمجره".

لم يقتصر الأمر على هذا. لعل انسحابها الصامت الذى أزعجه أكثر من أى شيء آخر وراء ما أسماه توددهما الغجرى مع كل شخص تقابله. طبع دوريل ملاحظة إيف فى مفكرة لكتاب الموتى الخاص به "فضولية بشأن نفسى ولم أجد أى استجابة فى الآخرين أو العالم من حولي" روح تائهة متجهة للداخل. وطبع عقبها على الفور شيئا قالتة: "تعتبر قدرتى على الهجر بسهولة إحدى ميزاتى حيث إن الروابط التى أكونها تكمن داخلى واصطحبها معى. إنها براءة روحى وصفائى." (٨٩)

استمع دوريل لقصة إيف من ليلة حديثهما الطويل فى باسترواديس وسيرهما طوال الكورنيش ثم قيامه باحتضانها عندما هربت من منزل والديها وأصبحت بانهيبار. أعجبه ضعفها مثل جمالها الحسى. كتب فى جوستين : "وجدت ميليسا مثل طائر مبتل يترنح على ساحل بحر الإسكندرية الموحش بينما ذبلت جاذبيتها." (٩٠) عرف أن قصة إيف تعود إلى طفولتها فى محرم بك ورأى أن فى أنوثتها بقايا يأس طفولة معذبة تتحدث دوما عن شخص تحبه، تبحث عن فكرة تغذى روحها أو إيمانها بنفسها، وتسأل إن كان يستطيع أن يقاسمها مع أى امرأة أخرى أو يستطيع أى شخص أن يشبع حنينها.

ولكنه تسأل أكثر عن نفسه، انسحب إلى عقليته الكاتب، إنه يستطيع مقاسمتها مع أى امرأة. بينما يستعيد حياته فى كورفو ويتجه نحو فن، وبدأ يسطر على صفحة زرقاء قصيدة خيالية لنفسه من نانسى:

عزيزتى الكسولة
لقد اقرب الشتاء
اكتب لك خطاب العام الجديد
من محكمة النقض العظيمة.
ينتقد القلب الخالى الذي
يتعس صمته الأعوام السابقة.
لم تخبرينى بحبك
وتتصرفين مثل ويليام بليك.
بدأت اعتقد أن زواجنا
لم يكن سوى خطأ دقيق.^(٩١)

كتب دوريل لميللر فى بداية فبراير: "قضيت إجازة قصيرة مؤخرًا فى بيروت حيث شعرت بالسعادة والخواء إلى حد كبير." فى العام الخامس من "الحرب المقرزة للنفس أصبحت مشاعرنا مشاعر المنتهى العصبي؛ يتدهور كل شيء ويسوء داخلنا وأنا أيضا." قذف بقوة داخل هلال بسبب مروره على مذكرة بايرون الباهتة: "ولكن النساء باهرة الجمال مثل الحقائق المهملة، بشرة غنية وناعمة وزيتونية وأعين سوداء مائلة وشفاه محددة وناعمة وبنية مبهجة مثل رسومات خطية بيد ماتيس. فأنا مشغول بهم إذا قصدت أن أكون حرفيًا قليلًا" (قصد دوريل

كتابة "حرفيا" باللون الأحمر). "لا يسع المرء حب أكثر من فتاة سكندرية، ففراغها ملاطفة. تصور التودد للفراغ." وأضاف في حاشية الرسالة: "أفكر في صحة التشابه بين أهل الإسكندرية. عندما يحبون يتصرفون كاثنتين يلوحان لبعضهما البعض بالأمواس في غرفة مظلمة ليشعر أحدهما بالآخر؟" (٩٢).

لم يتورط دوريل سوى مع فتاة سكندرية واحدة ولن يذكرها.

بالقرب من نهاية فبراير ١٩٤٤، هبت رياح شمالية قوية على الإسكندرية. كانت "الرياح الشمالية" لقبًا توج به دوريل وأصدقائه قادمًا جديدًا وهي ديانا جاوولد التي تزوجت فيما بعد إيهودي منهون. كانت راقصة دربها نيجنسكى وأنا بافلوفا واشتركت كراقصة منفردة مع شركة جورج بالانشاين في باريس وشركة ماركوفا دولين في لندن واتجهت للتمثيل على مسرح ويست إند عندما اندلعت الحرب. نشأت في تشيلسا حيث اعتاد الكتاب والشعراء والرسامون والموسيقيون زيارة منزل أمها؛ انتصر زوج أمها أدميرال سيسيل هاركورت عدة مرات على الإيطاليين في البحر المتوسط وكانت ديانا ذكية ومتلازمة ورائعة الجمال وطويلة. كان دوريل مخبولاً بثرثر: "عزيتى ديانا، كنت بائسا ولا أعلم ماذا أكتب. أنت مبهجة.... عزيتى الأرملة! أحبك." (٩٣)

كانت ديانا جاوولد في رحلة مع جمعية خدمات الوطنية للتسلية، أوبريت الأرملة السعيدة، تأليف فرانز ليهار، وبطولة سيرل ريتشارد ومادج إليوت، عزفت موسيقى "فراو فراو" وهي راقصة فرنسية في فيينا. عرضت لأول مرة في دار الأوبرا المصرية بالقاهرة قبل القدوم إلى الإسكندرية حيث افتتحت في ٢٥ فبراير لمدة أسبوع على مسرح الحمراء في شارع صفيّة زغلول (الذي عرف فيما بعد باسم شارع المسلة) مقابل محطة الرمل. بلغ الجزء الذي يخصها مشهد حوار طويل

وأغنية أعادت من أجله كتابة سطور فى الهامش له بناء على ترحيب الجمهور
الصاحب الذى فهم كل تعبير قنر بالإضافة إلى مونولوج فردى حيوى فى الفصل
الأخير. أخبر فينن دوريل أن ديانا قادمة إلى الإسكندرية وأنبهر عندما رأى رقصها.

واستمتعت ديانا بدورها بصحبة دوريل وقدرته الساحرة على التلاعب
بالكلمات وبريق أفكاره وفكاهته وسلوكه الغريب أحيانا. كان أحيانا يزور سيسيل
حيث تقيم ويصطحبها إلى المسرح أمام الميدان ثم ينتظرها على باب المسرح
ويأخذها لمطعم مفضل أو حفل متائق يقيمه أحد أفراد الجالية اليونانية. دعاها ذات
مرة لفيلا أمبرون على الرغم من وجود إيف أو عدم تذكرها الحدث بأى حال من
الأحوال. قال جوتش الذى تذكر: "يا إلهى، أرى لارى يطاردها حول الأثاث مما
يعتبر شعيرة خصوبة. تجاوزت فترة حمل ببلى الفترة المحددة حوالى شهر. أمرته
ديانا: "عزيزى لارى أحضرها للعرض وأساعدها على ولادة الطفل." (٩٤) فى
الحقيقة، وصلت ببلى إلى المستشفى بعد إسدال الستارة بشق الأنفس. وعت ديانا
التي مشت مع دوريل فى شوارع المدينة (٩٥) اختلافاتهما البدنية؛ فهو قصير وأشقر،
فى حين هى طويلة وشعرها طويل أسود، إلا أنها شعرت بالراحة التامة تجاهه.
اعتقدت أنه يفخر بحياته فى الإسكندرية وبينما قضت ساعات متأخرة معه فى
المقهى، غرقت فى "عمق قلبه الرائع وعرضه." (٩٦) كل هذا بينما يغرقها
بقصاصات العاشق الولهان تحمل توقيع "أنا" تتوسع "أنا المستمرة خلف أنا غير
المستمرة." (٩٧)

اعتبرت ديانا القادمة من إنذارات بليتز فى لندن وحرمانه ورحيل روميل
من بوابات الإسكندرية اكتمال الحياة فى مصر ومرحها جنة. ضمن دائرة دوريل
المكونة من كتاب وشعراء، استمتعت "سعادة المطلقة الخاصة" بتعب الشمس
وإرساله عبر السماء. "اقتباس من قصيدة كالليماخوس القصيرة لصديقه هرقلطس.

ولحسن حظهما عرضت وثبة تصالبية ارتجالية ذات مرة على سطح فندق سيسيل. عندما أبحرت ديانا بعيدا عن الإسكندرية، تآذت على المحبين الذين تركتهم.^(٩٨) ولكن على الرغم من ظهور وجه دوريل مغطى بالخدوش في أحد الأيام بسبب إيف، فإنه لم يكن أبدا من محبيها.

حدث كل هذا سريعا؛ لم تبق ديانا في الإسكندرية سوى أسبوع أو اثنين إلا أن أحداث مرورها سطعت لمعظمهم في اليوم الذي أقل فيه جوين ويليامز ديانا ودوريل من بحيرة مريوط. قال دوريل: "نقطة مطر واحدة هذا الشتاء تسبب تغطية المكان كله بنبات الرواق في الربيع." عندما رأت ديانا نظافة الرياح وبخور مريم والبحيرة الشاجبة تحت السماء الخاوية، قالت: "لم أر مكانا كبيرا مثل هذا في السماء من قبل" ورد دوريل قائلا: "سأكتب لك قصيدة عن ذلك."^(٩٩) تعتبر قصيدة "ماروتيس" مهداة لديانا جاولد:

حل الربيع في كل مكان

مثل جفن عين ما يزال غير واع

أو محدد في التعبير أو العمق

ولكن يتسم ويحدق من النوم.

ولكن تلمس الرياح غير الرقيقة

وغير حسنة الظن بالناس

خذ كروع الانقباضية وورقها.^(١٠٠)

وصلت جوستين إلى نقطة ذروتها في اصطيداد بط في بحيرة مريوط، انضم دوريل لحفلة صيد بط على البحيرة في الخريف السابق. وفي حفلة اصطيداد البط في مخطط الرواية التمهيدى المبكر اجتمع كل "محبى جوستين".^(١٠١) يتلوه اكتشاف دارلى أن جوستين اختفت من المدينة؛ هجرت المرأة التى أحبها حياته. وفي النسخة النهائية من جوستين كتب دوريل عن "شارع فرنسا وجامع طبرانة وتمثال محمد على على فرس فى الميدان وتمثال جنرال إيرل النصفى الكوميدى وكينج مريوط (جمع الزهور البرية واقتنع أنها لا تحبه) وإحساسى أن المدينة كلها تتحطم فى أذننى".^(١٠٢) على بحيرة المريوطية، طلب دوريل من ديانا الزواج وأخبرته أنها تحب روبين فيدن.

كتب دوريل لديانا بعد رحيلها: "شاهدت اسمك على لوحة إعلانات ضخمة فى شارع المسلة بإحساس تهكمى مَرَضَى مفاده "خير البر عاجله" والآن حل محلك جارى كوبر بينما أجلس فى برجى وأستمع لأفكار تتحرك من حولى مائية ومعتمة مثل السمك".^(١٠٣)

عندما أصبح الجو أكثر دفئا فى الربيع، أقامت أسرة أمبرون حفل غداء فى الحديقة. كان مدخل يوميات مذكرات الكونتيسة مارى دى زغب فى يوم ١٧ أبريل: "تناول وجبة الغداء فى حديقة فيلا أمبرون ثلاثون شخصا على طاولات صغيرة الحجم: أنا وأليس توريل وأسرة الماجيا ولارى دوريل ولوران ماكجراث (فنانة شابة إنجليزية) والملازم ناسو وأسرة جين لومبروسو وشباب أسرة أنجل ومارسيل جالو وأسرة شفيق وأسرة كانتونى وسيدة كارلو ناجيار وديسبنا سالفاجو وفيرى ديلمار وأسرة ترنى وأسرة جوثش".^(١٠٤)

يسأله المرء ما إذا أتحت الفرصة لدوريل وإنريكو ترني للحديث وهل أخبر ترني دوريل عن فورستر وغناء واجنر تحت الماء. صاحبت لوران ماكجراث فرقة مسرح أخرى تابعة لجمعية الخدمات الوطنية للتسلية ورآها في الإسكندرية دوريل وجوين ويليامز اللذان اصطحباها في سرداب في كوم الشقافة وأخبراها عن أورفيوس وأوريدائس مما سبب إصابتها بالإغماء في هذا الجو المخيف المحيط. علق ويليامز قائلا: "تعتبر الإسكندرية مكانا حيث تختار العودة الأبدية للحاق بك دون إنذار." (١٠٥)

تتساءل عن أفكار دوريل حين تناول طعام العشاء في الحديقة مع هؤلاء الناس الذين تمثل أسماؤهم بناء المدينة "وشعرها وتاريخ تجارتها." (١٠٦) كما كان هؤلاء أمثلة المدينة أيضا مثل تجار الجملة والتجار والصرافين والمصدرين وأصحاب المصارف وأصحاب المصانع وخاصة هؤلاء الذين ذكروه بعالم ولده في الهند وأسرة ألامجيا التي بنت كورنيش الميناء الغربى وألنو أمبرون للمهندس المدني.

عندما بنى دوريل مدينة الإسكندرية الخاصة به في رباعيات الإسكندرية: "سكنت ذكرياتي المدينة" وأصبحت مكانا فخيما في نطاقها حيث مازالت الجاليات تعيش وتتواصل؛ الترك مع اليهود والعرب والأقباط والسوريون مع الأرمن والإيطاليين واليونانيين حيث تنموح بينهم رجفة الصفقات المالية وتفرقهم. هل تستطيع العثور على مثل هذا الخليط في مكان آخر في العالم؟" (١٠٧) وسط نقر الطبول وموسيقى المهرجان الدينى الصاخبة (مهرجان قبلى يستمتع به المسلمون على الأقل لاعتبار "كل الأديان دين واحد في البلد المتدينة") أشرقت مذكرات "احتياجات المركز التجارى العظيم وقواه وهى صغير المحركات البخارية من ساحات البضائع أو استنشاق الصوت من صفارات الإنذار الخاصة بشاحنة بضائع تتفاوض بشأن ممرات الميناء الملتوية التى توجه إلى الهند." (١٠٨)

كان دوريل الذى يعمل ضابط استعلامات بريطانيًا فى حقيقة الأمر دعائيًا وكانت وظيفته التلاعب بما يظهر فى الصحف وهى مهمة اعتبرها كريهة فى أبريل ١٩٤٤. لم يقلق البريطانيون وحدهم من خسارة الحكومة اليونانية فى المنفى بالقاهرة سلطتها لصالح الشيوعيين فى حركة المقاومة فى اليونان نفسها، ولكن واجهها الآن تمرد فى القوات اليونانية الملكية فى مصر المكونة من متطوعين من الجالية اليونانية المحلية بالإضافة إلى الجنود واللاجئين اليونانيين الذين هربوا من اليونان.

انفجرت المتاعب فى نهاية مارس، عندما أسست جبهة التحرير الوطنية التى يسيطر عليها الشيوعيون حكومة مؤقتة فى مناطق الجبال المحررة فى اليونان ورفضت حكومة اليونان الملكية فى المنفى طلب المساعدة من حكومة الوحدة الوطنية التى تمثل جميع الأطراف ومجموعات المقاومة. بدأ التمرد فى ٦ أبريل فى اللواء اليونانى الأول الواقع فى بهيج على خط سكك الحديد الصحراوى بالقرب من برج العرب. انتشرت التعليمات خلال يومين على أطقم ثلاث سفن من البحرية اليونانية الملكية فى ميناء الإسكندرية.

أحاط البريطانيون بالمعسكر بالقرب من برج العرب بأوامر من تشرشل بعدم إجراء أى تفاوض مع اللواء اليونانى الأول: "أحيطوا بهم بمدفعية وقوة مثالية ودع الجوع يؤدى دوره." (١٠٩) بعد مرور ثلاثة أسابيع رست سفينة حربية بريطانية اسمها أجاكس بين السفن المتمردة الثلاثة أبوستوليس وأيراكس وساشتوريس فى الميناء الغربى بعد ظهر يوم السبت الموافق ٢٢ أبريل، وتبادل البحارة البريطانيون واليونانيون التحيات والنكات بالطريقة المعتادة. ولكن فتحت المدافع الرشاشة النيران وقفز مائتا رجل يرتدون ملابس العمال وجوههم مسودة على السفن اليونانية واشتبكوا فى عزاك بالأيدى فى الساعة الثانية صباحا من خلال حاجز من الدخان. فى الساعة الثامنة صباحا انتهى الأمر بمقتل عشرة رجال

وجرح أربعين واستسلم البحارة الثوريين واستسلم اللواء الأول فيما بعد فى نفس اليوم كما تم نزع سلاح عشرين ألف يونانى وإرسالهم لمعسكرات الاعتقال فى ليبيا وإريتريا بعد وضعهم فى أقفاص سجن بالقرب من الإسكندرية:

علم دوريل بالنتيجة أثناء الإفطار فى فيلا أمبرون صباح يوم الأحد عندما رأى أحد أصدقائه اليونانيين يدعى أليكسيس لاداس، الذى ظل لفترة مغطى بالسخام والشحم، مترنحا بسبب الإرهاق. كان الرجال المسودة وجوههم ضباطاً يونانيين أوفياء للحكومة الملكية فى المنفى أحدهم لاداس وكانت معركة بين اليونانيين واليونانيين. قال دوريل: "سمعت اختلاط الأمر عليكم أيها اليونانيون" وهو يخفى أى إحساس بالأمر. وصرخ لاداس فى وجهه قائلاً: "انذهب للجحيم".^(١١٠) وذهب دوريل لمكتب الاستعلامات البريطانى يوم الإثنين مشمئزاً مما حدث بين اليونانيين والدور الذى أدته السياسة البريطانية وجلس فى ١ شارع طوسون باشا على آتته الكاتبة وملاً نفسه بالعزم والتصميم على الكتابة عن الانتصار بأسلوب شديد الابتهاج.

كتب ميلر لدوريل فى ٥ مايو: "عندما تكتب لى عن الفراغ السكندرى باندفاع شفرة المدينة وأنا فى أشد مراحل المرض. دعنا نذهب! أتجول معك فى هذه الشوارع وأرى العيون التى تمور بشراب مسكر وأغرق نفسى فى مجزرة الحب الذى تصفها وصفاً بليغاً".^(١١١)

وأجاب دوريل: "لا أعتقد أنك تحب حطام بلدة نابولى الرثة بركام منازلها المشرقة فى الشمس. بحر بنى متسخ مسطح دون أمواج تحتك بالميناء. فنار عربى وقبطى ويونانى وفرنسى مع عدم وجود موسيقى أو فن أو ابتهاج حقيقى. ملل أوروبى أوسطى مشبع مضاف إليه مشروب وباكارد وكبائن الشواطئ. تقتصر

مواضيع المحادثة على المال. حتى الحب يفكرون فيه بلغة المال. لا يعتبر أحد عبقرى إذا استطاع كتابة سطر واحد يتعلق بالإنسانية." (١١٢)

بعد مرور حوالى أسبوع، أخبر دوريل ميللر "تأتى الإسكندرية فى المرتبة الثانية بعد هوليود فى احتوائها على السيدات الجميلات اللاتى يتجاوز جمالهن جمال سيدات أثينا أو باريس؛ يمنحك الخليط القبطى اليهودى السورى المصرى المغربى الأسبانى عيوناً داكنة وبشرة منمشة زيتونية وشفافاً وأنوفاً ومزاجاً كالقنبلة. تعد الطريقة التى تحصل بها على عدة سيدات مضحكة ولا أرى ما تضيفه لك: فكل سيدة أكثر سطحية من التى تسبقها مثل جابى وسيمون وأرليت وداون وبينلوب." (١١٣)

ولكن دوريل لم ينل رضا امرأة بعد امرأة. ربما مر ببعض العلاقات القصيرة بعدما هجرته نانسى وفى خلال سنة لم يعرف امرأة أخرى سوى إيف، قال جوتش: "لا أعتقد أنه كان يلهو مع سيدات الإسكندرية. لا أظن... " كان جوتش يعلم أنه (دوريل) وزوجته يعيشان معا فى شارع فؤاد وفيلا أمبرون فقط وإنما لأن جوتش كان موظفاً فى المعهد البريطانى فى الطابق الأعلى مكتب الاستعلامات البريطانى. قالت إيف لم يتخلف دوريل فى الذهاب إلى بيته فى أى ليلة. كما قالت لقد عشق جاذبية النساء ومغازلتهم كما كان يغازل نساء فى وجودى (زوجته) ولكنها لم تهتم ولا تعرف إلى أى مدى يمكن أن ينساق. يتذكر بول وإيف جوتش أن الشجار الوحيد كان بشأن ديانا جاولد. فقد كانت الاستثناء من القاعدة.

كان دوريل يمهد فى خطابهات إلى ميرل ليتحدث عن إيف ولكنه تظاهر بالانشغال وهو فى ذات الوقت يلهو "بطعام الإسكندرية المثير". بينما يقرأ الخطاب قراءة سريعة، مر أمامه سطر فى الخطاب وضع عليه ملاحظة "فى تلك اللحظة

أقاوم تياراً من الحب الجارف مع جيبسى كوهين وهى يونانية يهودية معذبة. "لم تكن إيف يونانية إلا أنها فاتحة للشهية، ثم عاد للخطاب" " جيبسى كوهين ترسم تحت حاجبيها لونا أسود مثيراً، نكهتها تعود إلى كليوباترا كما يصفها شكسبير، رموشها طويلة من مالطا وأظافرهما وقدماهما من سميرنا وفخذاها من بيروت وعيناها من أثينا وأنفها من أندروس والفم الزاعق أو الهامس مثل الساحرات من سمرقند والصندر من الفيوم يا لها من إثارة؟" (١١٤)

وفى يوليو قدم دوريل المزيد من الصفات إلى ميللر : كانت تجلس لساعات على حافة السرير وتعلمنى كيف تكون الحياة المثيرة - ما هى حياة العرب، وحياة الضلال والختان والحشيش والحلويات، وختان الإناث والقسوة والقتل.. جميل أن يبسط المرء الحياة ويهذبها ويبعد عنها سفاسف الأمور. أصبح الجنس اليوم نوعاً من الصداقة غير المبهوسة... أشياء بسيطة نحتاج هذه المرة. فالفتاة التى تضاجعها بالقلب والروح والأرداف وشجرة الزيتون وآلة كاتبة وقليل من الأصدقاء العظماء مثلك. فماذا ترى؟ (١١٥)

الفصل التاسع

المدينة التي لا تتلاشى

مع زوال أول مشاهد الاغتراب يجد العقل بغيته في استكشاف الإسكندرية —
مدينة الأحلام — التي تُبطن، وتدعم الميناء المتوسطى الصغير المألوف الصغير — إلى
حد ما — كما يبدو للغرباء.

لورانس دوريل، مقدمة طبعة ١٩٨٢ من كتاب إ. م.

فورستر: الإسكندرية: تاريخ ودليل E.M.Forster

Alexandria: A History and a Guide

وجد دوريل الإسكندرية المحل الوحيد على أرض مصر الذى يستطيع
سكنه، إذ إنها تضم ميناءً يطل على البحر، "بما يمثل مهرباً" ^(١). ولكنه استطاع
السفر غرباً خارج حدود المدينة إلى المنطقة العسكرية السابقة برفقة بول Paul
وبيلى جوتش Billy Gotch وإيف Eve فى مايو من عام ١٩٤٤؛ وكتب دوريل
رسالة إلى ميلر، خط فيها أنهم "قد مروا ببرج العرب فى الأيام القليلة السابقة"، وقد
يكون رآها عن بعد، إذ إنه أخطأ فى وصفها بأنها "حصن مهجور للصليبيين، حيث
تبدو أبراجه المتهدمة غير واضحة المعالم وكأنها سراب" كما مروا وسط "آلاف
من فوارغ الذخيرة وخرق ضمادات وحطام دبابات للعدو" إلى أن وصلوا لشاطئ
طويل يحف بالبحر المتوسط بأمواجه الضخمة المكتسية باللون الأخضر ^(٢)،
والواقع أنهم مروا بمكان منعزل، حيث رأى فورستر أرضاً مندثرة تحت صفائح
وأسلاك شائكة ووصل إلى أبو صير التى اتخذها مونتجومرى Montgomery
مركزاً لقيادته أثناء معركة العلمين، وخلفهم يقع معبد أوزيريس البطلمى، الذى

أسماء الإغريق باسم (معبد) ديونيسوس، والمنارة الأثرية وهى فناء مصنع، تطل جهة منه على الفرع الغربى من بحيرة مريوط بينما يطل الجانب الآخر على البحر.

وتتذكر إيف Eve قائلة: "كانت الرمال بيضاء، وكانت ناعمة وتتساقط من بين أصابع اليدين كما ينساب المسحوق، وتندرج ألوان البحر، عندما يضرب الساحل ما بين الزمردى، والتركواز كلما ابتعدت المياه عن الشاطئ، يستحيل لونها إلى الأزرق الطاووسى، ثم البنفسجى السماوى، ويغوص المرء وسط هذه الدوامة من الألوان". وبعد أن بدأ دوريل يشكو من أنها لم تعد الفتاة الرشيدة التى عهدا، بدأت إيف تنقص وزنها إلى أن أصبحت راضية عنه مرة أخرى. وتجرد الجميع من ملابسهم، وانتشى دوريل عندما أخذوا فى التفاضل بين الأمواج. ولاحظت إيف كم هو بارع فى السباحة، كما لاحظت - فيما بعد - عندما تمددوا على الشاطئ كما لو كانت بشرته تفوح منها رائحة العسل". وكتب دوريل فى رسالته إلى ميلر واصفاً عودتهم إلى المدينة ذاك المساء قائلاً "ياله من انتقال غريب إلى إسكندرية كفافيس، فقد شعرت لأول مرة خلال أربعة أعوام بأننى فى اليونان".^(٣)

وبعد سنوات، أحيا دوريل ذكرى هذه الأوقات الممتعة التى قضاهما فى برج العرب، عندما جعل "تسيم" يبنى القصر الصيفى "جوستين" فى هذا المكان الذى يطل من بعيد على الحصن العربى القديم كما يطل على الصخرة البيضاء المغمورة منذ أمد بعيد على الشاطئ الخالى الذى تتوالى الأمواج عليه ليلاً ونهاراً.^(٤) وفى هذه الرواية أيضاً، حصل "تسيم" كنعبير عن الامتنان لبانايتوتى Panayotis العجوز، الذى كان يتولى حراسة منزلهم القابع فى الصحراء، على تصريح من بطريركية الإسكندرية لبناء ووقف كنسية صغيرة على القديس أرسينوس Arsenius فى منزله"، كما وجدت "كليا Clea" تمثالاً قديماً للقديس أرسينوس فى أحد أكشاك الموسيقى بالقاهرة، فابتاعته وقدمته إلى "جوستين" كهدية فى عيد ميلادها، قال

دوريل فى الرباعية: إن "اختيار القديس كان — كما هو المفترض أن يكون دائما — مصادفة سعيدة".^(٥)

ولكن لم تكن هناك مصادفات سعيدة بالنسبة لدوريل، فقد أنهى الكتاب الأسود *The Black Book* بالقرب من مدينة كالاماتا *Kalamai* تحت صورة القديس أرسينوس التى دمرت إثر عاصفة، ووقتها شعر بأنه قد ولد من جديد. كما كان ميلادًا جديدًا أيضًا لأرسينوس الذى فقد عالمه كما هو الحال بالنسبة لدوريل؛ فى أوائل القرن الخامس، أصبح أرسينوس ناسكا فى وادى النطرون، وظل هناك حتى دمر رجال قبائل البربر الأديرة الأولى فى عام ٤١٠، وهو العام الذى نهبت الجحافل البربرية فيه روما، وقال أرسينوس "فقد العالم روما، وفقد النساك وادى النطرون".^(٦)

وقام دوريل طوال الربيع والصيف بعدة رحلات إلى القاهرة لتسلم تعليمات من السفارة وزيارة روبين فيدين *Robin Feddan* الذى كان يجمع آنذاك كتاب مناظر طبيعية شخصية *Personal Landscape* لينشره خلال العام التالى فى إنجلترا. ولاحظ فيدين أن دوريل مفعم بالحيوية والنشاط^(٧)، وقال إن زيارته القصيرة من الإسكندرية أحاطته بجو من السكون، وكانت بمثابة مرجع واسع، وشبه اندفاعه فى دخول الغرفة بأنه "كمن ينزع سداة زجاجة شمبانيا معتقة".^(٨)

وكان دوريل بدوره يدرك أنه خلف الانحناء الخفيفة والتلعثم اللذين يشكلان جزءًا من جاذبية فيدين الطاغية، تكمن عقلية بارعة فى النقد ومنتقدة الذكاء تفحص الثقافات الأوروبية والشرقية وتمحصها، كما كان يعده قوة له دون سائر معاصريه فى مصر،^(٩) وقد أصبح إضافة لخبرات دوريل عن هذا البلد، وذلك عندما كتب فيدين فى مقدمة مجموعة المقتطفات الأدبية عن شعور الأجانب المقيمين فى مصر

بالانعزال الثقافي والنفسي بها، حيث يتجه الاتجاه الفكرى صوب مكة بينما يسبح الأوروبيون دائما عكس التيار".^(١٠) وقد عبر دارلى Darley عن هذا الشعور فيما بعد فى رباعية الإسكندرية فى قوله "انعزلنا عن التيار الخليجى الدافئ من المشاعر والأفكار الأوروبية، لأن كافة التيارات تتجه صوب مكة"^(١١). وكتب دوريل خطابا إلى ديانا جولد Diana Gould فى نابلس، بعد أن أبحرت من مصر ببضعة أيام، وقال فيه: "إننا منشغلون حاليا بتجميع المقتطفات الأدبية، وقد كتب روبين مقدمة رائعة، قد تكون أروع أعماله على الإطلاق".^(١٢)

ومن المحتمل أن إعجاب دوريل بفيددين يعود أيضا إلى نجاحه فى التعامل مع النساء، وفى هذا الصدد، يعد فيدين أيضا إضافة لدوريل إلى حد الماسوشية. وكتب دوريل خطابا إلى ديانا فى أبريل، وقال فيه: "إن روبين يفتقدك بشدة تقارب شدة افتقادی لك"، واصفا نفسه بأنه "لا يجد فى الحياة مبتغى أكبر من البحث عن الاعتدال والثروة والتوازن"^(١٣). وفى أغسطس كتب خطابا قال فيه: "أجد أننى أمانل سانشو بانزا Sancho Panza بالنسبة له ولك فى هذا الأمر، وأتصرف بلباقة أمام طواحين الهواء الخاصة بسيدى وسيدتى". وقال لديانا: "أنت تشعرين بالتعاسة وكذلك أنا، غير أننى بلغت منها الدرك الأسفل. وكأن حالتى تشبه الجوهرة، سطحها هادئ، بيد أنها تغلى تحت هذا السطح الهادئ، وذلك عندما أنظر إلى العالم من منظور تشاؤمى مشبع بالخوف، آه من تلك الأحلام السيئة. ولكننى أصر على أن أكون سعيدا، وهى (السعادة) علم مثلها مثل كل شيء آخر، بما فى ذلك أمور الغزل، وأنا أصر على أن أكون سعيدا. ومن ثم، تتنابنى المشاعر وأكرر مثل السيد كو Coue قائلا: "سوف تصبح سعيدا الآن - سعيدا بحق". ولست مريضا كما لا يعانى جسمى من كدمات، ولست أنتحب أو أرثى لحالى ولست مفعما بالأمل. ولكننى سعيد بأمور الحب الشديد".^(١٤)

House Party - July 29-30

H.M.



30 July. H.H. Archibald. S.G. Bengal. Rifle Brigade. Army & Navy Club
55 James St.
London

30 July. H.H. John R. Colgrain. Lychfield. Cookham
Berkshire. England.

30 July. Ste. Joseph's Hood. Tregoth. Essex. England.

" John Boulton. Lt. Lt. M.I. A.M.A.
" James E. Sidi Bishr No. 2.
" Josephine Simatore Cairo

كان الملك فاروق ضيفاً دائماً في منزل برينتون في الإسكندرية. فضلاً عن أنه كان يوقع باسمه، فقد كان أيضاً يترك بصمته على دفتر الزيارات. وفي هذه المناسبة في يوليو ١٩٤٤ ضيوف آخرون من بينهم جون و جوزي برينتون وجيمس إيسبي والذي كان يعمل لحساب إدارة الخدمات الاستراتيجية OSS وهو الاسم الأول لوكالة الاستخبارات الأمريكية CIA. كان الملك فاروق يبحث عن الدعم الأمريكي أمام البريطانيين في ذلك الوقت.

وفي يناير ١٩٤٤ كتب السفير البريطاني لورد كيليرن Lord Killearn ملحوظة في مذكراته: إن الملك فاروق يتسم بسلوك "فظ ومنفر" ^(١٥). ولكن بعد مرور شهر، وخلال رحلات اصطيد البط، حيث كان أغلب الضيوف أمريكيين، كان فاروق في أفضل حالاته وأظهر شخصية مضيعة يستحق الإعجاب. وكان من الواضح أنه يولي عناية خاصة بالاجتماع بالأمريكان، ولكن الجو بأكمله كان ألطف ما يكون ومفعماً بالدفع. ^(١٦) وبعد بيرل هاربور أصبح جون برينتون الملحق العسكري الأمريكي، وأصبح أحد ضيوف الصيد عند الملك هو المقدم جون دريج Lieutenant- Colonel John Dregge، رئيس جون في الوفد الأمريكي، وكان ضيف آخر هو جيمز إسباي James Espy، الرئيس الإقليمي لمكتب الخدمات الإستراتيجية (OSS) والذي حلت محله وكالة الاستخبارات المركزية لاحقاً، وكان يسكن في شقة بالقاهرة مع جون وجوسي برينتون. وكانت جوسي تشغل آنذاك منصب سكرتيرة مكتب الخدمات الإستراتيجية، وقد أكدت هذه السمة أيضاً، إذ كتبت لوالدتها خطاباً في ١ مايو ذكرت فيه: "ذهبنا إلى إحدى العزب الخاصة بالملك فاروق بصحبته منذ بضعة أيام، وأمضينا هناك ليلة ويوماً ... وقد تعرفنا على كثير من خصاله فوجدناه ودوداً وذكياً، كما أنه شديد الإعجاب بالأمريكيين". ^(١٧)

وكان الملك فاروق يعامل الأمريكيان بتودد، وكان الأمريكيان يعاملونه بالمثل. وفي ذلك الوقت، نُسبت، في الدوائر البريطانية، تصرفات الملك فاروق الفظة تجاههم إلى حادث وقع في شهر نوفمبر السابق، إذ اصطدمت سيارته المسرعة بسيارة حربية بريطانية، وتم علاجه في مستشفى بريطاني عسكري من كسر في عظم العانة في الحوض. وقد سبب خروجه من الحادث حياً إحباطاً عند العديد من الناس، ونقل عن الملك فاروق أنه قال كلاماً، سيعاقب عليه فيما بعد،

ونقل سرًا كوشاية على لسان عم الملك، الأمير محمد على، الذى كان مواليا للبريطانيين الذين كانوا سينصبونه العرش لو كان انقلاب قصر عابدين قد نجح، إلى كيليرن أن فاروق كانت "تسيطر عليه روح الانتقام وكان محطما".^(١٨) وبعد الحادث على الفور، ساعد الأمير على الترويج لشائعة أن قدرا كبيرا من عظم الحوض للملك قد تحطمت، وسرت أقاويل بأن الملك أصبح عنيفا وأن سلوكه وزيادة وزنه الأخيرة كانا نتيجة اضطراب الهرمونات، رغم أن الأطباء المصريين أو البريطانيين الذين تولوا علاجه، والذين أعلنوا عن عودته إلى صحته الطبيعية فى غضون أسبوع، لم يعلنوا عن مثل ذلك.

وإلى جانب كل هذا، كان هناك هذا العداء المزعج القائم بين كيليرن وفاروق، والذى ظهر مرة أخرى فى إبريل ١٩٤٤ عندما أراد فاروق أن يفصل رئيس الوزراء مصطفى النحاس، فى الوقت الذى تقوضت خلاله شعبية الوفد المتولى للحكومة بصورة شديدة وشاع فساد، وبينما كان العديد من المصريين يرون أن النحاس نفسه، بخلاف مكاسب عائلته غير الشرعية، أداة أجنبية تحاول الهيمنة على الملك الذى كان لا يزال يحظى بشعبية منتشرة. - كان البريطانيون، رغم مضايقة النحاس لهم، قد قرروا أن الوفد والنحاس قد يسببان لهم مشكلة إذا عارضوهم ومن ثم واصلوا دعمه لهم. وفى حالة مقاومة الملك فاروق، فبالأكيد سوف ينشأ انقلاب. وفى ١٢ إبريل، تحدث اللورد كيليرن مع أنتونى إيدن Anthony Eden عن مشروعهم القديم المعد سلفا، اقترحوا فيه فى تلغراف سرى أنه قد حان الوقت لفرض سيطرة مباشرة على مصر.^(١٩) وفى ٢٤ أبريل تراجع الملك فاروق، وحدث هذا فى اليوم التالى لإخماد التمرد اليونانى واستعراض قوة البريطانيين، مما دفع بالملك إلى الانتظار.

أما عائلة برينتون، وبخاصة جون، فرأت الملك فاروق من منظور آخر يختلف عن رؤية السفارة البريطانية ووزارة الخارجية، حيث اعتقد (جون) أن فاروق كان يميل إلى البريطانيين غير أنه شعر بالمرارة لأنهم يملون عليه أعماله، ولاسيما نتيجة الإذلال الذي عاناه على يد إيدن وكيليرن. واعتقد جون أنه كان يحب أن يلعب بعض الألعاب لمضايقة البريطانيين، ولكن لم تكن لديه أى رغبة فى خداعهم. وقال جون إن فاروق لم يناصر الألمان مطلقاً، وإنه كان يحب الإيطاليين لأنه تربى وسطهم فى بلاط أبيه، ولكنه لم يكن مناصراً للفاشية كذلك. ولم يكن هذا رأى جون برينتون وحده: بل كان رأى أكثر رؤساء القوات المسلحة البريطانية فى الشرق الأوسط المنتقدين معاملة كيليرن للملك فاروق، ومن بينهم كان الجنرالات وافييل Wavell وأوتشنليك Auchinleck وجامبو ويلسون 'Jumbo' Wilson وسير آلان بروك Sir Alan Brooke، الذى كان رئيس هيئة قادة الإمبراطورية، والمشير الجوى سير ويليام شولتو دوجلاس Sir William Sholto Douglas، الذى قال إن السفير ارتكب خطأً استراتيجياً كبيراً فى "معاملة الملك فاروق كما لو كان مجرد صبي مشاغب أبله... (ولا أنكر) أن فاروق مشاغب ولا يزال صغير السن... ولكنى أعتقد، ومن وجهة نظر واقعية، أنه ملك مصر" (٢٠). وكان السير توماس راسل باشا Sir Thomas Russell Pasha الذى تولى رئاسة شرطة القاهرة لفترة طويلة، شديد الغضب من السفارة عندما علم بشأن حصار قصر عابدين (لم يخبره لامبسون Lampson، الذى اشتهر باسم كيليرن آنذاك، بذلك) حيث واجه هؤلاء الناس الذين وجدهم يدمرون جهوده وجهود زملائه وأسلافه (٢١) فى تطوير علاقة الثقة وحسن النية بينه وبين المصريين.

وفى إحدى الأمسيات، بعد ذلك بفترة قصيرة، زار الملك فاروق شارع خليل إبراهيم فى جليمبولو Glymenopoulo وكان القاضى برينتون يجلس فى مكتبته

بعد احتساء الشاي، وجلس فاروق إلى جواره وأخذ سيجاراً واستفسر عن المركبة ساموثراس *Samothrace*. وسأل عما إذا كانت معروضة للبيع، وأكد برينتون ذلك وبذلك انتهت المفاوضات: وقال الملك "سوف أطلبها في الصباح". ولم يتم تحديد ثمن، وعلى أي حال شعر القاضي برينتون أنه لا يليق أن يناقش السعر مع صاحب السمو الملكي، ولكنه كان يعرف أن جورج ماكفادين *George McFadden* كان على استعداد لأن يبيع نظير المبلغ المؤمن عليه، فتحدث قليلاً عن أوراق السفينة وسجلها وغير ذلك عندما اتجها إلى بوابة الحديقة، وقال إنها مؤمنة من ليودز *Lloyds* وذكر مبلغ التأمين ولم يعلق فاروق على هذا. ولكن بعد ذلك ببضعة أسابيع دعا الأدميرال المصري المسئول عن السفن الملكية برينتون للحضور إلى القصر وأعطاه شيكا بالمبلغ الذي لمح به. وقام فاروق بذهان سفينة ساموراس باللون الأزرق وركب لها أسرع من نفس اللون^(٢٢)، ويمكن مشاهدتها في المرفأ الغربي بالإسكندرية حيث تركت لتبلى.

وفي ٢٢ أغسطس، عندما كتب دوريل خطاباً إلى ميلر مرة أخرى، كان قد أرسل لتوه كتابه "زناثة بروسبيرو" *Prospero's Cell* إلى دار فابير وفابير *Faber and Faber* للنشر في لندن التي وافقت عليها على الفور. "والآن، لدى فكرة رائعة عن قصة في الإسكندرية، سلسلة لكل أخبار اليونان، جنباً إلى جنب مع محل جزارة شبحي به فتيات على شرائح اللحم". وكان ساعتها قد سافر إلى اليونان وشغل وظيفة هناك، وفي إحدى الأمسيات كان ينتظر بفارغ الصبر زيارة من سيفيرس *Seferris* "أفضل أصدقائي في مصر"^(٢٣)، الذي قد عاد لتوه من لندن حيث كان البريطانيون يخططون لإرسال قوة عسكرية لأثينا لإحباط ثورة شيوعية بعد أن اعترضوا رسائل غاية في السرية تدور حول انسحاب ألمانيا الوشييك من اليونان. ولكن دوريل كان يفكر كثيراً في زوجته وابنته: ولم يستطع أن يعرف أي

شيء من نانسي "التي كانت تتصرف كمبشر مجنون يعترّيها شعور خفيف بالذنب مصدره أصلها الأنجلو ساكسوني. ولم تصلني أى أخبار عن الطفلة أيضا التي كنت قد تعلّقت بها كثيرا"^(٢٤). وفي ذلك الوقت، ظهرت إيف "التي تقول إنها روح منطفئة من كوكب آخر، سُمّت كل شيء عدا الله، وقد سُمّ منها". "وكانت جيبسي كوهين Gipsy Cohen كل يوم ترسل عاصفة حلزونية مشحونة بجمال حقيقي مفعم بالبذخ والجنون، أسره واستثاره."^(٢٥)

وتوطدت العلاقة أكثر بين دوريل وميلر عندما ائتمنه على حقيقة أنه شرع في بداية كتاب الموتى عندما كتب له مرة أخرى بعد ذلك في أغسطس أو أوائل سبتمبر قائلا "مفكرتي تمتلئ بالملاحظات كالغشاء الذي يحيط الجنين حول قصة تحكي عن الإسكندرية"^(٢٦). وتوحي الإشارة إلى الغشاء المحيط بالجنين إلى ميلاد عمل إبداعى وقد عرف لنوّه أنه قد تم وضع حد لحبسه في الإسكندرية: إذ كان سيتم إرساله إلى رودس ليشغل منصب مسئول المعلومات العام بمجرد تحرير الجزيرة من الألمان.

وكتب لاحقاً في سبتمبر قائلا، "أعود إلى الحياة ببطء". "وقد كانت الأعوام الثلاثة المنصرمة كابوسا كئيبا. وأريد أن أكتب شيئا، ثم تحدث مرة أخرى عن كتاب الموتى: "لدى حوارات رائعة له وحبكة حديدية. ونقل الأحداث إلى الإسكندرية وجعل الشخصيتين المحوريتين توّعا"^(٢٧). وزيادة على ذلك ذكر مرة إلى ميلر كتابا طموحا يدور حول التوعم، وقال إنه كتب بعضه، وأضاف أن أعظم الأعمال الأدبية التي تدور حول القلق مثل هاملت ركزت على عقد أوديب وأن المرء لى يشب فيصبح رجلا يجب أن ينشأ من رحم عقدة أوديب"^(٢٨). وقد كان كتابا عن غشيان المحارم والإسكندرية" وكتب بعد بضعة أشهر: "كانتا متلازمتين هنا"^(٢٩).

وعلى مدى عامين تقريبا، كان دوريل يطوف الإسكندرية مزودا بدليل فورستر "مستعيرا العديد من ومضات حكمته لزيادة الملاحظات عن الكتاب الذى أملت أن أكتبه يوما" (٣٠). وقد كان على وجه الخصوص يصف المدينة الروحية التى تعد أساسا لهذه المدينة الدنيوية" (٣١). والواقع أن جوستين، المجلد الأول من رباعية الإسكندرية يعد رحلة إلى القسم الذى يتحدث عن المدينة الروحية فى دليل فورستر. "والمثير للدهشة"، هو أن إحدى شخصيات دوريل تقول: "فهو يقدم سلسلة من المشاكل الروحية كما لو كانت شائعة ويوضحها ضاربا أمثلة بشخصياته" (٣٢).

ونتضح أولى محاولات دوريل لكتابة رواية حول الإسكندرية (التي نبئت منها جوستين، المجلد الأول من الرباعية) فى شكل مفكرة صادرة بطبعة حكومية، وكتب على غلافها بالقلم الرصاص، كتاب الموتى المخطوطة الأولى، العالم السفلى للورنس دوريل، وأضاف بالحبر: "ملاحظات للإسكندرية" "Notes for Alex". (٣٣) وقد كتبت صفحاته الأولى بالرصاص وترتبط بالكتاب عن النوع وسفاح القربى الذى ذكره إلى ميلر.

من هم السكندريون الأصليون الذين تحدث عنهم دوريل؟ تبدو أسماؤهم فى الواقع مثل شخصيات مسرحيات نويل كاوارد Noel Coward: تشارلز ودامين وكلوديا وجون وهوجارث والبارونة إرما ونيسا ومليسا وكوريج. وجميع الشخصيات تقريبا بريطانية الأصل، وهم على غرار دوريل وأصدقائه، وليسوا مواطنين أصليين من المدينة التى تتألف من خليط من الجنسيات، ولكنهم شخصيات حبستهم الحرب فى الإسكندرية.

وامتنع كوريج Corege الحلاقة، فى حين كان دامين Damien طيارا وكان تشارلز Charles يعيش فترة من حياته مع كلوديا Claudia، وهذا هو تقريبا كل ما

تدور حوله قصة دوريل قبل أن يحولوا من شكلهم أو يخنقوا. وتعمل مليسا Melissa التي يعرفها دوريل باسم "كوهين" ممرضة في المستشفى اليوناني، فتاة خادمة ذات عينيْن سوداوين تراعى كل شيء حتى المشاعر دون أن يطلب منها.^(٣٤)، ولكنه آنذاك لم يتحدث عنها بأكثر من ذلك. وعوضا عن ذلك، كان دوريل منشغلا بجون John وكلوديا.

وكان جون فابر "منقسما في الببضة"، ذلك أنه كان توّعا لكلوديا، وكانا يعيشان في حقيقة لا جدال فيها؛ حيث إن كليهما نصف أخ وزوج (للآخر) في نفس الوقت^(٣٥)، ولذلك فهما سويا فابر وفابر^(٣٦) ("غرض مزدوج"^(٣٧))، كتب دوريل إلى أحدهم أنه سوف يتبع هذه الفكرة). تزوجت كلوديا من هوجارث Hogarth وهو محلل نفسي قابلته لأول مرة في مرآة في مقهى كافيه رويال Café Royal في لندن، ولكن يبدو أنها تعاني عندما تخرج من هوية الأخت التوّم لأخ: "واكتفت كلوديا بملاحظة الموقف لحين وصول أحد أقربائها محل الثقة". وهذا "جنون" غير أنه ليس اضطرابا نخاميا.^(٣٨)، ويجتمعان سويا عند وصول فابر إلى الإسكندرية ويصبحان عاشقين، ربما ليس للمرة الأولى.

وتعود هذه الصفحات الأولى من "ملاحظات للإسكندرية" إلى مفهوم دوريل عن نفسه بأنه جزء غريب من كل، كما تعود أيضا إلى فكرة عام ١٩٣٨ التي رسم بها خريطة لبومزبرى Bloomsbury كتب عليها "خطة كتاب الموتى"، وكتب أن المرء يفقد جزءا منه عند مولده، ثم يبحث ببساطة عنه طوال حياته. من خلال "عالم المرايا"^(٣٩) وكان دوريل يقرأ لأفلوطين Plotinus، وهو خليفة أفلاطون وأرسطو وزينون الرواقى ومؤسس التصوف التأملى فى الغرب. كما كتب فورستر عن أفلوطين قائلا: إن "الإسكندرية لم تتجب أفضل منه".^(٤٠)

اتخذ دوريل من المرايا والأجزاء والمنشور صوراً رئيسية، وفي كتاب "ملاحظات لألكسندرية" يصف دوريل كلوديا بأنها "تفتش عن شيء في كتابات ديستوفيسكى تهديها إلى فهم لرؤيتها المنشورية".^(٤١)، وهو ما قامت به جوستين نفسها لاحقاً، ففي الرواية التي تحمل اسمها، وهي تجلس أمام عدد من المرايا عند حائكة ملابس كانت تقول: "خمس صور مختلفة للشخص ذاته". والآن إذا كتبت، أحاول رسم شخصية ثلاثية الأبعاد، نوع من الرؤية المنشورية"^(٤٢)، وبصورة مماثلة، استخدم أفلوطين نفس الصور للأجزاء والمنشوريات والمرايا لشرح خبرات البشر في العالم.

وذهب أفلوطين إلى أن كل شيء ينبع من الواحد. ويفيض الواحد مثل النافورة أو يشع نوراً كالشمس، بحيث تخرج هذه الإشعاعات ترتيبات تنازلية للواقع. ويوجد في الأول المبدأ العقلي وهو عالم من أنماط الحقيقة السامية النقية، وبعده يأتي عالم الروح الكلية والذي يشع بدوره، وباستخدام هذه الصور النقية من أنماط الحقيقة السامية كنماذج تعطى شكلاً للمادة، التي هي أدنى المراتب. وعالم المادة هو العالم الذي نعيش فيه، ولكن المادة تنصرف وكأنها شكل منشوري على شعاع النور الأبيض النقي الذي ينبع من الروح الكلية ويتسبب في انكسارها إلى أشعة متعددة متنوعة الألوان. وتمثل الأشعة أرواحنا الفردية، وكل منها جزء من النور المنبعث من الروح الكلية، أو كما يشبه أفلوطين في صورة أخرى: تخرج الروح صوراً شبيهة لها مثل وجه يرى انعكاسه في عدة مرايا^(٤٣).

إن العالم الذي خلقه دوريل في "ملاحظات لألكسندرية" هي الحقيقة التي وصفها أفلوطين بأنها في أدنى المراتب، حيث يمكن لفابريو وكلوديا، أو أي شخص لهذه المادة، الحصول فقط على مفهوم التكامل الأكثر تجزئة. لكن لأنهم غير مدركين بوضوح ما الذي يبحثون عنه وما الذي يربكهم ضمن عالم المرايا، فإنهم لابد أن يشتاقوا إلى الكمال، فالانفصال عن الواحد يولد الحنين كي يعود؛ الحنين

الذى وضحه أفلوطين فى الصورة الحسية، قائلاً إن المحبين فى رغبتهم فى الاتحاد يريدون فقد انفصالهم كتقليد حركة الانسياب العائدة إلى هذا الواحد، لكن بالنسبة لفابري وكلوديا، كما كتب دوريل فى "ملاحظات للإسكندرية" "الجنس هو محاكاة هزلية لمتعة الروح فى اتحادها، مثل مقابلة صورتين فى منشور"^(٤٤)، محاكاة ساخرة حلت محل العودة إلى الواحد، فظلاً حببسى نفسيهما، وذكر دوريل أنهما "تويمان ليس لديهما تاريخ مثل الأشخاص الأخرى، ويفتقر عالمهما إلى بُعد، ولدا فى تبعية أصبحت منكشمة- بما لها من حب، وانتصارات ومخاوف - داخل نطاق هذه التبعية، فأصبح الحب داخلياً، لأن الرغبة التى تتبع من هذا الحب رغبة مجحفة"^(٤٥).

يمكن للمرء أن يدرك فى هذا العالم المتفوق على نفسه جواً روحياً وجنسياً عقيماً، وهو الذى أسماه دوريل الموت الإنجليزى *English Death*، كما أنه يعبر عن وجه نظر دوريل الخاصة بالثقافة الغربية، التى أصبحت فى سعيها الحثيث خلف المذهب العقلى الخالص منفصلة عن الرؤية الصوفية للكل المطلق التى كانت تمثل لدوريل عالم الشعارات النبيلة *Heraldic Universe*، وباستخدام هذين التوأمين كمثال، وصف دوريل نسقاً مماثلاً؛ عالماً أصبح مغلقاً، بحيث لا توجد أى رؤية للكمال أو للشمول أو للقبول أو لتجربة حب صادقة، وسيقوم بوصف الإسكندرية بهذه الطريقة فى النسخة النهائية من جوستين. "حيث حل محل المحبين الرمزيين من العالم الإغريقى الحر أشياء مختلفة، أشياء خنثوية لا تكاد تبين، كما أنها أسيرة نفسها"^(٤٦).

واكتشف دوريل من خلال فروستر أن "الإسكندرية المدينة الحلم، التى هى أساس وأصل لهذا الميناء المتوسطى غير ذى الشأن كما يبدو فى الظاهر لقليل الخبرة"^(٤٧)، فهنا يمكنه تخيل جذور الثقافة الغربية القاطنة فى العقل الهاجع

للإسكندرية: "قالمدينة لا تفعل شيئاً. حيث لا تسمع شيئاً سوى ضوضاء البحر وأصداء تاريخ غير عادي" (٤٨).

لم يكن أفلوطين آخر أعظم فلاسفة العصور القديمة فحسب، بل كان نفاذ بصيرته الداخلية على أعمال العقل سابقاً لملاحظات الفلسفة الحديثة؛ فهو أول من كتب، على سبيل المثال، عن تشويه المرايا لتحقيق الرغبات، كيف "عندما تستثار رغباتنا، يتقدم الخيال وكأنه، يقدم لنا أهداف رغباتنا تلك". ملاحظة كان لها تأثيرها القوي على فرويد Freud^(٤٩)، كما كتب أيضاً عن التأثير القوي للذكريات الدفينة على حياتنا في البقطة (٥٠).

وربما كانت هناك تيمة فرويدية في عقل دوريل بالفعل عندما خط عام ١٩٣٣ رسمه التخطيطي الخاص لخريطة بلومزبيري Bloomsbury مدوناً عليها "خطط لكتاب الموت". فـ "هوجارث" شخصيته في "ملاحظات للإسكندرية Notes for Alex" يحمل اسماً أصلياً من بلومزبيري، فقد أسس ليونارد Leonard وفيرجينيا وولف Virginia Woolf مطبعة هوجارث Hogarth Press، علاوة على ذلك، تم وصف (شخصية هوجارث) بأنه محلل، مما أدى إلى الربط بينه وبين مطبعة هوجارث، التي نشرت أول أعمال فرويد بالإنجليزية. كما أن هناك ارتباطاً آخر بفرويد في ذكر البارونة إرما Baroness Irma، التي وصفها دوريل في "ملاحظات للإسكندرية" على أنها أويدا Ouida^(٥١)، الاسم المستعار للروائية الرومانسية من العصر الفيكتوري ماري لويس دي لا رامى Maria Louise de la Ramee، وهي إنجليزية؛ كما يحتمل أن يعنى اسم إيرما أيضاً. لكن الاسم إيرما يلمح إلى تفسير الأحلام "The Interpretation of Dreams"، فمن أجل إثبات أن هذه الأحلام لها معانى وتكشف عن أعمال العقل الباطن، حلل فرويد حلما راوده بخصوص إحدى مرضاه كان قد أعطى لها الاسم المستعار إيرما. واعتبر فرويد أن هذا الكتاب،

الذى نشر عام ١٩٠٠، إلى جانب تفسير حلمه إيرما أفضل ما توصل إليه في حياته حيث أصبح حجر أساس لطرق التحليل النفسى، والآلة العلمية الأولى للكشف عن العقل البشرى ومعالجته.

كانت الأحلام بالنسبة لفرويد بمثابة رسل من عالم اللاوعى الغريب، حيث يبحث كل دافع عن الإشباع بطريقة مستقلة عن بقية الدوافع. وحيث الأفكار متصلة ليست بالمنطق لكن بالتلازم، حيث يتم تجاهل المتناقضات وتتنعش المتقابلات، وحيث يتم معاملة السلبيات على أنها إيجابيات والمتشابهات على أنها متماثلات، وحيث يخضع كل شيء لسمة التغير. وتقدم الأحلام دلالات عن الصراعات الذهنية، التى تعد ذات مغزى بالنسبة لفرويد، الذى كتب فى مقدمة كتابه "تفسير الأحلام" *"The Interpretation of Dreams"* أن "أى شخص يفشل فى شرح أصل صور الحلم، ليس لديه أمل فى فهم (أمر) كالفوبيا (الخوف المرضي) أو الاستحواذ أو المخادعة أو أن يقدم تأثيراً علاجياً لكى يحتملهم." (٥٢)

وكانت شخصيات دوريل هى نفسها مثل الأحلام التى تحلم بها المدينة الحلم، وكان مغزى حياتهم غامضاً، وكتب فى "مذكرات للإسكندرية"، "فى ظل سنة المنفى هذه كانت الإسكندرية وحدها حرة لكى تحلم: فى حين أننا لسنا أحراراً من أجل تسجيل أحلامها أو من أجل إمعان النظر إلى معانيها" (٥٣). وسوف يصف دوريل هذا فى جوستين، على سبيل المثال، عندما تجتاح المدينة عقل نسيم بأحلام تتعلق بتاريخها، فيستيقظ كى يرى "آثار الأقدام الضخمة للذكريات التاريخية التى تمتد وراء ذكريات الشخصية الفردية" (٥٤)، ولذلك "عندما يحتل معرض الأحلام التاريخية طليعة ذهنه، فإن شخصيات أصدقائه ومعارفه الشخصية، الملموسة والحقيقة، تتحرك للخلف وإلى الأمام بينهم، بين أطلال الإسكندرية القديمة، شاغلين مساحة مكانية وزمنية مذهشة مثلهم مثل الشخصيات الحية البارزة (٥٥). وجسبما

قال دارلى "فإن هذا يعد ضرباً من الجنون، وبالمعنى الحرفى، فقد شارك جميعنا فيه" ^(٥٦)، حيث "يتحول الإنسان لمجرد امتداد لروح المكان" ^(٥٧).

وأضاف دوريل عنصراً آخر لما سبق؛ نوعاً من قوة الجسدية النفسية الشاملة المطروحة فى "كتاب عظيم غير مكتشف، ألا وهو- كتاب جرودك Groddeck: كتاب الفرد The Book of the It" ^(٥٨) (تشير كلمة It فى عنوان الكتاب إلى الإنسان بصفه عامة ويتناول الكتاب جوانب نفسية فى شكل أقاصيص. المترجم): وتذكر إيف أن "الذى ملأ كلامه فى هذا الوقت هو جرودك"، وكان جوتش Gotch يتذكر هذا أيضاً قائلاً: "عرفنى بجرودك، المبهر... خرجت واشتريت نسخة على الفور"، وعلى العكس من فرويد، الذى اعتمد مجاله على العلوم المادية، فإن المحلل النفسى الذى خلفه، جورج جرودك Georg Groddeck، كان صوفياً مسيحياً، يرى أن العلوم خادمة لوجهة نظره المضادة للتفكير العقلى، فمع تقبل نظرية فرويد القائلة بأن تحديد السلوك يتم على أساس الصراعات بين الوعى واللاوعى، يعتقد جرودك أيضاً أن الإنسان عانى من رفض ذاته للعالم. وعندما يقول الإنسان "أنا أكون" يتخيل أن له حرية التصرف، وهو كذلك بالفعل بما يتيح له معالجة محن العالم عن طريق ممارسة إرادته. لكن طالما أن الإنسان، فى الحقيقة، لا ينفك عن الارتباط مع الكون، فلكى يبرئ نفسه عليه إقامة "علاقة بين الفرد والكون.... فإننا نفهم الفرد أكثر عندما نرى كل جزء من أجزائه كاملاً، ونقترب من إدراك مفهوم العالم عندما ننظر إليه (الإنسان) على أنه جزء من كل." ^(٥٩)

وعلى الرغم من أن شخصيات دوريل لا تدرك الحقيقة التالية؛ فإن حياتهم متلازمة مع المدينة التى يسكنونها، "المدينة التى تعاملنا على أننا نباتاتها، ترسب فى داخلنا صراعات (هى فى الأصل) صراعاتها، ونحن نظنها خطأ صراعاتنا: تلك هى الإسكندرية المحبوبة!" ^(٦٠).

كانت هذه هي مقدمة الكتاب الذى كان سيصبح كتاب جوستين للورانس دوريل، وعلى الرغم من أنه لم يكتب منه غير ما يقارب أربعًا وعشرين صفحة، فإنه كان يتوقع أن يستنزف كل طاقاته، وكتب لميللر Miller فى سبتمبر يخبره بأنه "لم تكن لديه القوة الكافية من أجل العمل فى هذا الكتاب، حتى وإن كان لدى ما يكفى من الوقت"، وأضاف: "كم هو مؤلم أن نكتب بكل جهازك العصبى، فأنا أنكمش فى نفسى وأشعر بالإجهاد الشديد فى إعداد الكتاب الأسود " The Black Book وسيستغرق الأمر المزيد من الوقت كي أسترده قوتى مرة أخرى" (١١).

وقبل أن يعود إلى كتاب الموتى The Book of the Dead، كان فى حاجة إلى تهدئة اضطرابه النفسى واستقرار أموره العملية، فقد حان الوقت لأن يتخطى الشعور بالغربة الذى كان ينتابه فى مصر، فضلا عن انقطاع علاقته مع نانسى وطفلته، وسرعان ما عاد إلى اليونان مرة أخرى، وحزم أمره فى أن يظفر بإيف؛ فأضاف العبارة التالية فى خاتمة إقراره بالامتنان فى زنزانة بروسبيرو Prospero's Cell: "إلى الأنسة وإى كوهين Y Cohen لمساعدتها القيمة فى نسخ كتاباتى الخطية" (١٢)، والواقع أن إيف لم تتول نسخ أى كتابات خطية على الإطلاق، بل إنها لم تدر، رغم زيارتها للبرج فى فيلا أمبرون Ambron villa، أن دوريل فى الساعات التى يختلئ فيها بنفسه كان يخط كتابا عن كورفو Corfu، وكذلك كان جوتش أيضا يجهل الأمر برمته. وكان سبب إقرار دوريل بالامتنان هو أن يجعلها تبدو ذات فائدة فى مساعدته، إذ كانت تلك هى الطريقة الوحيدة التى يستطيع أن يركن إليها لاصطحاب إيف معه إلى رودس بصفتها السكرتيرة الخاصة به، وهذا إلى أن يتم أمر حصوله على الطلاق من نانسى ليتحرر ويصبح قادرا على الاقتزان بإيف.

وقد كان دوريل يشعر كيف سيكون مذاق الحياة إذا ابتعد عن إيف، التي عملت منذ أواخر صيف عام ١٩٤٤ ممرضة في معسكر إدارة الأمم المتحدة للإغاثة والتأهيل (UNRRA) خارج أبو قير باتجاه شرق الإسكندرية في رعاية اللاجئين اليوغوسلاف، وكانت لا تعود إلى فيلا أمبرون إلا في العطلات الأسبوعية فقط، وكانت هذه هي المرة الأخيرة - على زعم أن هناك غيرها - التي تسنح فيها فرصة لدوريل أن يخوض مغامرات بين نساء المدينة، وعلقت إيف على هذا الأمر قائلة: "تعاملت مع هذا الأمر بطرق متقنة بعيدا عن التجريح، فنحن نساء الإسكندرية نتميز بأجيال من أساليب التعامل مع الرجال".

ووقع أخيراً ما كانت إيف تخشاه؛ ففي يوم كانت تسير مع دوريل وفي صحبة بعض الأصدقاء وإذا بهم يقابلون والدها، في أثناء سيرهم إلى معهد المجلس الثقافي البريطاني لحضور جلسة مناقشة للأفكار على الملأ. ودعا دوريل والد إيف لمصاحبتهم بين الجمهور الذي كان يطرح الأسئلة على نخبة من المثقفين أمثال آلان ويس Alan Wace، الذي شغل منصب أستاذ في علم الآثار القديمة في جامعة فاروق، ورأس جوين ويليامز Gwyn Williams الجلسات. وقد فُتن موز كوهين Moise Cohen بما تميزت به الأمسية من تجديد وتنشيط للذهن، بيد أنه كان متحيراً كيف وجدت ابنته طريقها إلى هناك، كما لم يكن يعرف كيف كانت تسير أمورهما مع هذه الرفقة.

ولم يمر وقت طويلاً حتى قرر دوريل أن يعلن عن نيته، فدعا والدي إيف إلى العشاء كما اصطحب جوتس وبيلي معهما قائلاً: "وددت لو تمتحاني، لأنني أرغب في الزواج من إيف" وقمنا بذلك أنا وبيلي، واصطحبناهم إلى مطعم على الكورنيش بالقرب من فندق سيسيل، وتحدثنا معهما، ولم يبد عليهما ما هو غير عادي بأى صورة، ولم يغضبا من أن رجلاً إنجليزياً ورفيقاً له من مواطنيه

يتحدثان عن ابنتهما، وقد كان والدها صريحاً معنا لأقصى درجة، وأنصتا إلى كل ما قلناه، بيد أن إيف لا تتذكر شيئاً عن هذا تماماً، ولا أعرف حتى ما إذا كان لارى قد أخبرها عنه".

وأدارت مصر ظهرها - فى شهر سبتمبر من هذا العام - للبحر المتوسط، وتعلقت أنظارها بالإسكندرية حيث استضافت الحكومة المصرية المؤتمر الداعم لقضية الوحدة العربية، وعزم مصطفى النحاس، رئيس وزراء أكبر دولة ناطقة بالعربية من حيث تعداد السكان، وأكثرها تقدماً، على أن تتبوأ بلاده موقع الريادة على باقى الدول (كالمملكة العربية السعودية واليمن والعراق وإمارة شرق الأردن وسوريا ولبنان)، ومن أجل هذه الغاية اتفق هو والملك فى الحال، فالأمر بالنسبة لفاروق كان يعد بمثابة فرصة لأن يلعب الدور القيادى فى الشرق الأوسط الجديد الذى انبثق من الوصاية الغربية بعد الحرب، أما البريطانيون فقد كانوا يأملون فى التأثير على توجه حركة القومية العربية حتى تقف حائط صد أمام المد الشيوعى - ذى الجنور المستنقاة من روسيا - فى المنطقة، فقام اللورد موين Moyne، الذى خلف ريتشارد كاسى Richard Casey كوزير للدولة (وزيراً مقيماً)، بتشجيع هذا الاجتماع، بل وفوق ذلك سهل إجراءات حضور الوفد العربى من فلسطين، واختتم الاجتماع بنجاح حيث تم التوقيع على بروتوكول الإسكندرية فى السابع من أكتوبر ١٩٤٤، ووضع الإطار العام لتأسيس جامعة الدول العربية، التى سيكون مقرها فى القاهرة.

وفى اليوم التالى قام الملك فاروق بطرد النحاس، وكان اللورد كيليرن Lord Killearn، فى إجازة مؤقتة فى جنوب أفريقيا، ذلك أن فاروقاً كان مصيباً فى أن أسهم (شعبية) النحاس قد تدنت بدرجة كبيرة حتى إن البريطانيين لم يكلفوا أنفسهم عناء الإحراج فى التوسط بينهما. وبعد عودة كيليرن إلى القاهرة فى نوفمبر عقد

جلسة حوار مع فاروق الذى بدا "فى هيئة جيدة وكان سعيدًا بنفسه"، وتحلت المناقشة كلها بروح الود، ولكنى أنتهز الفرصة كي أؤكد أنه الآن قد حقق لنفسه المكانة الجديرة بتولى مسئوليات التدابير الجديدة". (١٣)

لكن الذى حدا بكيليرن أن يعود سريعًا للقاهرة لم يكن عزل النحاس، بل كانت واقعة اغتيال اللورد موين التى تمت فى السادس من نوفمبر، ووالتر إدوارد جينيس **Walter Edward Guinness**، المعروف بالبارون موينى الأول **Baron Moyné** 1st هو سليل العائلة الأيرلندية المشهورة فى إنتاج البيرة، وأحد أصدقاء تشرشل المقربين، وتذكر المصريون بموته فى الحال رد الفعل البريطانى القاسى الذى تلا اغتيال السير لى ستاك **Sir Lee Stack** فى عام ١٩٢٤ مما أجل قضية الاستقلال الوطنى لما يزيد عن عقد، ولذا كان هناك ارتياح واسع عندما أكدت الأخبار أن اغتيال موين تم على يد اثنين من الإرهابيين اليهود، أرسلًا من فلسطين، وهما عضوان من منظمة شتيرن **Stern Gang** الإجرامية، تلك المنظمة التى كانت ترى أن الوجود البريطانى فى الشرق الأوسط أكبر عقبة فى سبيل تحقيق الدولة اليهودية. (١٤)

وجاء اغتيال موين بمثابة صدمة لتشرشل كما أثار غضبه، واعتبر هذا وصمة عار للحركة الصهيونية وخيانة لبريطانيا. وكان تشرشل قد أخبر فايتسمان **Weizmann** على مأدبة غداء فى تشيكيرز (المقر الريفى لرئيس الوزراء البريطانى) **Chequers** - قبيل أيام من اغتيال موين - أن أقل تسوية يجب أن يقبل بها اليهود هى التقسيم بين دولتين عربية ويهودية، ولكنهم إذا استطاعوا "أن يحصلوا على كل فلسطين"؛ فسيكون هذا "أمرًا جيدًا" (١٥)، ولكنه الآن أخبر مجلس العموم أنه "إذا انتهت أحلامنا بالنسبة للصهيونية على دخان مسدسات القنلة، وإذا لم تتمخض جهودنا لمستقبلها إلا من خلال ظهور عصاة جديدة من المجرمين جديرة

بالانتماء لألمانيا النازية، فإن كثيرين مثلى سيتعين عليهم أن يعيدوا النظر في موقفهم الذى يتبنونه بشكل ثابت ومنذ أمد بعيد". (٦١)

وتم إعدام قتلة موين فى نهاية مارس عام ١٩٤٥، بعد شهر من اغتيال أحمد ماهر، رئيس الوزراء الجديد الذى عينه فاروق، برصاص أحد الوطنيين المصريين المتعصبين. وكان ماهر قد أعلن فى البرلمان - بناء على نصيحة من تشرشل، وبدعم من الملك فاروق - عن نيته فى اشتراك مصر فى الحرب، لأن الانضمام للحلفاء حتى فى هذه المرحلة المتأخرة من الحرب يمنح مصر الفرصة فى أن تكون عضوا مؤسسا للأمم المتحدة، إضافة إلى أنها لن تستبعد من أى تسويات تتم بعد الحرب مثلما حدث عام ١٩١٨؛ عندما حرمت من مقعد فى محادثات باريس للسلام. ولكن ما كان يريده الوفديون آنذاك، رفضه بعض الانتهازيين منهم الآن، فبمجرد خروج النحاس من (رئاسة) الوزارة، انقلب الوفديون - وحدث ما كان يخشاه كيليرن - إلى ألد أعداء البريطانيين، وأعلنوا - بمساندة الإخوان المسلمين وبعض الحركات الوطنية المسلحة الأخرى - أن ماهرًا خاضع لإرادة بريطانيا، وفى خضم هذه الدوامة من الهستيريا الوطنية، نفع بأحد أنصارها المخلصين، وكان محاميًا شابًا بمسدسه، وفى أثناء خروج ماهر من البرلمان، بعد لحظات من إعلان انضمامه للحلفاء، أطلق القاتل ثلاث رصاصات من مسافة قريبة، وأعلن بكل فخر أن هناك العديد من أمثاله على استعداد لمهاجمة أعداء الأمة المصرية.

ولم يكن اغتيال أحمد ماهر سوى البداية، ولمدة سبع سنوات تالية، ظلت حكومات تتهاوى أو تصاب بالشلل من جراء قتابل أو طلقات أو تهديدات، وتحول القتل إلى لعنة تصيب كل سياسى يتخذ موقفًا عامًا مع ما يمكن أن يعتبره المتشددون مواليا للبريطانيين أو ضد مصلحة الوطنية المصرية. وأصبحت القضية الوحيدة التى

يجتمع عليها كافة الفصائل هي فلسطين، وأضحى فاروق - كما لاحظ اللورد كيليرن - "وقد حقق لنفسه المكانة الجديرة بتولى مسئوليات التدابير الجديدة".

وفى بدايات مارس من عام ١٩٤٥، توجه روبين Robin ورينيه فيدين Renee Fedden إلى برج العرب لقضاء بضعة أيام مع جاسبر Jasper وجينيفا برينتون Geneva Brinton، وتحدث فيدين عن رغبته في الرجوع إلى إنجلترا فور انتهاء الحرب، ولكن بالنسبة لدوريل كان طريق عودته لليونان مازال مغلقاً، حيث يتحتم إخراج الألمان الذين حولوا دوديكانيسيا Dodecanese إلى حامية عسكرية بعد استسلام محتليها الإيطاليين هناك، من رودس بالقوة، وفى ذات الوقت كانت انتفاضة جبهة التحرير الوطنية (EAM) فى أثينا فى صدام مع البريطانيين "ومدافعين عن الأكروبوليس عموداً عموداً"، وكتب دوريل إلى ميللر، كنتيجة لما كان يعتبره - فى مرحلة مبكرة - سياسة بريطانية خاطئة وعنيدة تجاه المقاومة اليونانية؛ فقد كان دوريل يعتبر اليونان كائناً حياً من الأفضل أن يترك كي يستعيد عافيته بنفسه من حالة تخطيط المذاهب الفكرية (التخطيط الأيديولوجي) العابرة، ويستطرد دوريل فى خطابه لميللر قائلاً: "وبالها من حقبة عجيبة من التاريخ، وباله من نهاية لأصغر دولة فى أوربا، حيث تحارب الفاشية فى ميدان المعركة، وتصارع النازية داخل حدود الوطن، والآن تواجه رد فعل أناس لطالما أحبهم وأعجبوا بهم إعجاباً شديداً" (٦٧).

وظل دوريل محبباً طوال فترة الشتاء ولكن "جيبسى Gipsy ظلت طوق النجاة" (٦٨)، ونجح هو فى استكمال المتاهة المظلمة The Dark Labyrinth، وهى رواية مثيرة تدور أحداثها فى جزيرة كريت، هذا على الرغم من أنه شعر "أنه سجين يكتب على حائط بمسمار صدئ حتى يحتفظ بقواه العقلية" (٦٩). وأخبر دوريل ميللر - بعدما أرسل النسخة الخطية إلى إليوت Eliot، وفيما يعد واقعة

وحيدة للمبالغة الرقيقة، قائلاً: "لقد انتهيت منها فى شهر" (٧٠) وأضاف "وبينما أنتظر أنا هنا حتى يمكن أن أسافر إلى رودس،...يقومون هم بتحرير الجميع فى كل مكان، ولكن سريعاً ما سيأتى دوري" (٧١)، كان الأمل يملؤه تفاؤلاً، وبعد مرور أسابيع قليلة أخبر ميللر بفرح أن مجموعته الشعرية مدن وسهول وبشر *Cities, Plains, and People* على وشك أن تنشر من (دار نشر) فابير وفابير *Faber and Faber*، وستتبعها زناة بروسبيرو بوقت قليل، ثم المتاهة المظلمة، أما كتاب الموتى والذى لم "أخط (والكلام لدوريل) فيه سوى بضعة صفحات.....فقد يستغرق ما يقرب من سنة كي أنتهى منه" (٧٢).

وفى هذه الأثناء "كشف النقاب عن عدة حقائق تتعلق بمجموعة سرية (أو صوفية) من أفراد ينتمون مباشرة لسلالة من الأورفيك *Orphics*، الذين انهمكوا طوال التاريخ الأوربي فى العمل فى شكل من أشكال الخبرة عبارة عن آراء خالصة لبيثاجوراس *Pythagoras*، وعددهم لم يتجاوز ستة أفراد أو سبعة فى كل حوض البحر المتوسط، وكانوا لا يعلمون شيئاً ولا يؤكدون على شيء، بل لم يكن هناك تواصل بينهم، فهم حكماء من عصر ما قبل المسيحية، وسوف أذهب لألتقى بالسيد بالتازيان *Mr Baltazian* أحد صغار المصرفيين هنا، لأعرف كل ما يتعلق بالدائرة والمربع فى يوم من الأيام" (٧٣).

وبهذه الطريقة كان دوريل يعتمد أن يسيل لعاب ميللر، فعندما كان يكتب له عن نساء الإسكندرية، كان هذا مثلاً آخر على جنوحه للخيال الجامح (الفانتازيا)، فلم يكن للأعضاء الأكبر سناً من الطائفة الأرمنية بالإسكندرية أدنى معرفة بالسيد بالتازيان، ولكن هذا الاسم ظهر فى كتابات دوريل فى "ملاحظات للإسكندرية"، وتحول فى الحال إلى "بالتازار" *Balthazar*، وتمت إمطة اللثام عن الشخصية

السرية (الصوفية) فيما بعد، حين ادعى كارلو سوارز Carlo Suares أنه هو النموذج الذى بنيت عليه شخصية بالتازار فى الرباعية (٧٤).

وهذا لا يناقض اعتقاد روبرت ليدل Robert Liddell أن الأساس الذى بنيت عليه شخصية بالتازار كان جاستون زنانيرى Gaston Zananiri؛ فكما تقول إيف إن "لارى كان يقوم بجميع أنواع الأشياء؛ فكان يأخذ مقتطفات من شخصيات لأناس عدة ليصوغ منها شخصية واحدة، وكان يطلق على مجموعة من الناس اسمًا واحدًا فى حين أن لهم شخصيات مغايرة"، ولكن عندما يقوم بهذا، فقد يتحول إبداعه لحيانًا إلى حقيقة خاصة به؛ فقد ذكر دوريل لميللر أن السيد بالتازيان ربما كان واحدًا من هذه الإبداعات، وربما كان شخصية حقيقة بالنسبة لدوريل تمامًا كشخصية زنانيرى أو سوارز.

ولد كارلو جيوسيبي سوارز فى الإسكندرية عام ١٨٩٢ وكان يعرفه أصدقائه باسم جو وهو ابن إيجار سوارز Edgar Suares الذى ترأس الطائفة اليهودية فى الإسكندرية فى أثناء الحرب العالمية الأولى ومارس ضغوطا على بريطانيا لإقامة الوطن اليهودى فى فلسطين. كان كارلو مدير بنك سوارز الذى تملكه العائلة على الرغم من أنه لم يقد بعمل جاد فى البنك. (٧٥) فبعد التدريب لمدة ستة أعوام كمهندس معمارى فى باريس، مارس هذا العمل فى الإسكندرية والقاهرة ويافا لمدة أربعة أعوام فقط حتى عام ١٩٢٤. حتى ذلك الحين، تزوج من نادين تيلشة Nadine Tilche، التى تنتمى عائلتها إلى صفوة يهود الإسكندرية؛ كعائلة ميناسيز أو رولوز ويمكن تعقب وجودهم فى مصر منذ القرن السادس عشر. ومنذ ذلك الحين، كرس سوارز نفسه إلى التصوير الزيتى والكتابة والأيزوتيريك (علم الذات الباطنية) وأصبح صديقًا حميمًا لكريشنامورتى Krishnamurti الذى لقبته

أنى بيزنت Annie Besant، زعيمة الجماعة الثيوصوفية العالمية، وهو فى عمر السادسة عشر، بالمسيح المنتظر.

ولعل اهتمام دوريل بالشخصيات النادرة وولعه بمفهوم الأيزوتيريك esoteric (كل ما هو خفى أو سري) هو الذى قاده بوسائل عدة إلى أن يتردد على بيت سوارز فى شارع بورشجريفنك فى حى سابا باشا، وعلى نحو غريب، كانت هناك ثمة صلة تربط بالفعل بين سوارز ودوريل؛ ففي عام ١٩٣٧، بعد تسلم نسخة دوريل الخطية لمؤلفه الكتاب الأسود من كورفو، كتب ميلر قائلاً: "هناك نسخة فرنسية غريبة تشبه كتابك صادرة فى مجلد يطلق عليه La Procession enchainée بقلم كارلو سوارز أقوم بقراءتها الآن"^(٧٦) - واستخدم كلمة "فرنسية" لأن الكتاب تم نشره فى عام ١٩٣٤ فى باريس، وإلى جانب منزله فى حى الرملة (وحتى اندلاع الحرب كان له منزل آخر فى شارع النبى دانيال)، احتفظ سوارز بشقة أخرى بالقرب من برج إيفل. وظهر السيد كوكو Monsieur Coucou، إحدى الشخصيات فى أعمال سوارز الأولى، مرة أخرى فى La Procession enchainée حيث مثل صيحة الثورة وندم الضمير الكامن فى أعماق البشر، وعبر قائلاً: إنه إذا تعين عليه إعطاء معنى لكلمة "الروح" لن يجد سوى كلمة "الرغبة". ويسعى السيد كوكو لبلوغ الكمال ويعنى بها تحرير الرغبة: "إن التهذيب الوحيد الذى تحتاج الروح إليه هو إفساح مجال لكافة الرغبات ومن ثم فإن الرغبات الحقيقية إلى حد بعيد تكبت غيرها حتى تحرر الروح الرغبة الأساسية المنفردة والتي هى من جوهرها"^(٧٧).

وتظهر الفكرة التى يتبناها السيد كوكو فى "ملاحظات للإسكندرية" التى كتبها دوريل، وفى رسائله بالتزامن مع رحلاته بالتزام إلى حى سابا باشا ومحادثاته مع سوارز. فى نفس الوقت الذى كان يكتب فيه دوريل إلى ميلر عن السيد بالتازيان،

أرسل أيضا بريداً جويًا في ٢ أبريل إلى ديانا جولد قال فيها: "لقد قمت بإعداد ملاحظات عن الكتاب الخاص بالموتى والذي سوف يعد عن (أ) سفاح القربى، (ب) الإسكندرية، (ج) السحر المتعلق بالكيمياء القديمة. لقد قمت بدراسة مذهب القبلانيين المعاصرين واستنبطت منه فلسفة الانغماس الذاتى السكندرى فى شكلها المحسن، وعبرت شخصية المفتش الكبير فى روايتى قائلة: "ما يتعين على أن أقدمه للعالم ليس الأخلاق ولكن الجمال، حيث إن كافة الأديان تعنى بمنع السلوك الإنسانى أو استبعاده أو تطهيره، وتتضمن مبادئ الجمال لدى ما يلى: أن لدينا الهدف ذاته: التبرؤ من الحسد والطمع والرذائل الأخرى فى الطبيعة البشرية. أنا أعبر قائلاً: أشبعها ولكن طهر نفسك، وارتنق بها من خلالها، وبالتالي ستطهرهم أيضا. مارس التجربة فى المختبر. لا يمكن أن تظل الخطيئة على حالها إذا شريت بهذا المبدأ الذى أطلق عليه اسم المبدأ المبشر. حيثما تراودك الرغبة فى التغلب عليها، أطلق العنان لها بعض الشيء ونقها وطهرها ولكن لا تمنعها مطلقاً حيث إن الممنوع مرغوب بطبيعته" (٧٨).

وفى "ملاحظات للإسكندرية" التى عاد لها دوريل بعد إرسال نسخته الخطية من كتابه المتأهة المظلمة إلى إليوت، كرر السطور الأخيرة من خطابه بالضبط، إذا كان لأحد أن يضع وصفاً، فهو "السيد بالتازيان" الذى سيعاود الظهور فى الصفحتين التاليتين بصفته "بلتازار". (٧٩) فى نهاية الأمر يتضح ذلك فى رواية جوستين حيث يعبر بلتازار قائلاً: "وضعت الأديان العظيمة كما هائلاً من المحظورات ولكن هذه المحظورات تشعل الرغبة التى من المفترض أن تعالجها. وفيما يخص هذه القبلانية يمكن أن نعبر قائلين: أشبع رغباتك ولكن ارتنق بها وطهرها" (٨٠).

ولكن ما من شيء فى هذا يمت بصلة لاتباع أورفيوس أو فيثاغورس أو حكماء ما قبل المسيحية أيا كانوا، ولكنه وثيق الصلة بأحد أصدقاء سوارز ويدعى

كريشنامورتى، وقد كان ضيفاً له خلال زيارات متكررة وطويلة لكارلو ونادين فى
حى سابا باشا، وفى الدائرة السابعة بباريس. وعلى الرغم من أن كريشنامورتى
انفصل عن المجتمع الثيوصوفى فى عام ١٩٣٠، ويرجع ذلك بشكل أساسى لأنه
وجده مجتمعاً مستبدًا ممزقاً بالتكبر والغيبة بين الأحزاب التى تدعى أنها فئات
مختارة، فإنه ظل ثيوصوفياً بالمعنى العام للكلمة وملتصكاً بفكرة أن الإنسان يمكنه
استقاء خبرة مباشرة وفورية من الإله، بيد أنه (الإنسان)، سعى بشكل معاكس
للحرية أو الخلاص من خلال وسيط؛ فرفض أن يجتهد لتحرره الشخصى مدعياً أن
العالم يجب أن يتحرر أولاً. ورد كريشنامورتى بأن مشاكل العالم مرتبطة ارتباطاً
وثيقاً بمشاكل الفرد؛ (ف) هدى من مخاوفك، وأشعر بجمال كل تجربة تمر بها،
واستمر فى أمنياتك وتخل عن مفهومك الضيق للهوية ومن ثم تستوعب كافة
التجارب التى مررت بها وتضعها فى بوتقة واحدة، وعندها سوف تجد أن الحقيقة
دائماً موجودة وأن الخلود يتمثل فى هذه اللحظة بالذات. وأهدى سوارز نسخة
من كتابه كريشنامورتى، والذى نشر فى باريس عام ١٩٣٢، إلى دوريل الذى
وصفه بأنه ممتاز.

وكذلك جاءت فكرة دوريل عن حكماء مجموعة قبلانى البحر المتوسط من
سوارز، التى تجاوزت اهتماماته خلال الثلاثينيات ما بعد كريشنامورتى، وولجت
إلى عالم الصوفية اليهودية التى كانت فى مهد نهضتها. نقب سوارز على وجه
التحديد عن سفر التكوين وهو وصف القرن الثالث للطريقة التى خلق الرب بها
الكون، وكتب ناظمو الترانيم المقدسة: "بكلمة من الرب صنعت السموات، وبنفخة
من فيه ملأ جميعها"^(٨١) ومن ثم يدعى سفر التكوين أن التعبير الإلهى تضمن كافة
الحروف الأبجدية للغة العبرانية والتى بتركيباتها المختلفة تكون اللغة المقدسة؛ لغة
الخلق، ويخصص لكل حرف رقماً ما، وعندما يدونون جميعاً يشكلون الأدوات التى

خلق الله بها الكون بهذا التنوع الذى لا ينضب. بالنسبة للقبلايين، فإن هذا النسق لنظم اللغة والأرقام سوف يكشف لهم المعنى الحقيقى، والوحى الحقيقى المتضمن فى هيئة شفرة داخل سفر التكوين والنصوص المقدسة الأخرى، ولكنها تعد أيضا وسيلة لكشف هيكل الطاقة الكونية. ويرى سوارز أن انطلاق هذه الطاقة تضمن التجاوز والترفع عن الخطايا السبع المهلكة والتى يمكن تعقب أهميتها الحقيقية حسبما يعتقد بالرجوع إلى أصل مذهب العرفان ولتحقيق فهم الذات الكامل. وقد عبر سوارز قائلا: إنه من الضروري معرفة الطاقات الكامنة فى هذه "الخطايا" وقيمتها الحقيقية، ومن ثم يمكن التحلى بالمقدرة على دمجها فى الذات.

لقد كانت لعبة ألغاز تبدو وكأنها إلهية، ولكن دوريل اعتقد فعليا أن سوارز قد تجاوز كافة الحواجز أثناء كتابته لكتاب كريشنامورتى، واعتقاده الآن أنه إله. وفيما يتعلق بذلك الأمر، وليوضح أنها مسألة أذواق، رأى دوريل لوحات سوارز الزيتية المرسومة على قماش الرسم - والتى رسمها يوما ما استنادا على النظرية الثيوصوفية للألوان - مروعة، ولكنه كان يستمتع بحماس سوارز الطفولى وبراعته ولطفه والدفء الذى يترعرع داخله، وقد كان من الممكن أن تصبح نادين امرأة جبارة ومتعجرفة ولكنها كانت تبجل زوجها وتتغاضى عن خياناته الكثيرة مع رفقاء من كلا الجنسين، فكانا يرحبان سويا بزوار منزلهما فى حى سابا باشا ويضيفانهم بأحسن ما تكون الضيافة.

ألهم سوارز وحروفه الأبجدية العبرية الملغزة دوريل بفكرة جوستين فى مجموعة. بلتازار القبلائية وقيامها بالاستبدال مع الفلسفة المتعلقة بالكيمياء القديمة المكتوبة باللغة اليونانية بالأسلوب المحراثى. وبالرغم من الإشاعات حول عمل سوارز لحساب المخابرات الفرنسية، وحيث إن المعتقد المتمثل فى أن علاج التشوش الروحانى لليهود سيداوى عند عودتهم إلى بيت المقدس، هو أساس مذهب

القبلانية القرون الوسطى ... وعلى الرغم من ذلك لم يكن هناك أى مؤشر على أن اجتماعاته فى حى سابا باشا كانت حجاباً لأنشطة صهيونية، فكان ذلك من نتاج خيال دوريل الذى قرر بعد إكمال جوستين أن يطيل روايته كتاب الموتى لتصبح رواية سياسية مشوقة.

طراً تغيير على "مذكرات للإسكندرية" عندما استمر دوريل فى العمل فيها خلال الربيع، حيث تبدأ الإسكندرية فى الظهور بنكهة تميزها عندما يعطى أسماء إلى شوارعها ويستبدل شخصيات روايته الأصليين من المغتربين البريطانيين بسكان من مختلف أنحاء العالم، وكان يلتازر من بينهم؛ فأصبح جون فابر جون ماسون ولاحقاً جون ماكون الإنجليزى الفرنسى بلا تردد، ومن ثم نرى "كلوديا ماكون بين نزاعى أخيه"^(٨٢). وعلاوة على ذلك، يقدم دوريل شخصية جديدة يعرفها فقط بالضمير "أنا" ولكن من الآن فصاعداً "أنا"، سابق دارلى،^(٨٣) سوف أتلو القصة، ومن خلال ذاكرته "سوف يدخل ثمانية المدينة التى لن تغيب عن الذاكرة ويعيد السكن فيها"^(٨٤) كما عبر فى رواية جوستين وهو يسجل خبراته "ليس بنفس الترتيب الذى وقعت به- فى التاريخ- ولكن بالترتيب الذى شكل أهمية بالنسبة لي"^(٨٥). وبتبنى هذا المنهج الجديد فى كتابة قصته، ألق دوريل عن الكتابة بالقلم الرصاص وكتب بالحبر وثقة أكبر تغمره، كما سيستمر فى ذلك مع بعض الاستثناءات القليلة طوال كتابة "مذكرات للإسكندرية" وفى كافة الكتب التى تلتها.

طراً آخر تغيير مهم بعد صفحتين عندما اختفى جون ماكون وشقيقته التوعم من "مذكرات للإسكندرية"، أو لنقل إنهم على الأرجح تعرضوا لتحول آخر: وبقلب أسماء ماسون أو ماكون، اخترع دوريل شخصية نسيم الذى سيقدم فى الصفحات القليلة القادمة مع زوجته جوستين. ومع ذلك فنسيم وجوستين توعمان إذا جاز التعبير "زواج رهيب لحيوان برأسين"^(٨٦) كما سيتضح فى الرباعية.

جورج ميناشا، فى الأربعينيات. كرس جورج نفسه لتجميع الأشياء الجميلة. ويمكن أن يطبق شعاره "circumspice" على العادة التى يمارسها ألا وهى تجميع الناس وكذلك على موهبته فى العلاقات الغرامية السرية.

التقى كل من تشرشل وروزفلت وستالين فى يالطا فى فبراير عام ١٩٤٥. على الرغم من أن جيوش الحلفاء الغربية لا تزال رابضة فى الراين، فى حين يحتل الجيش الأحمر أوروبا الشرقية برمتها ويبعد ثلاثين ميلا عن برلين، فإن السؤال الذى يلوح فى الأفق هو ما الذى سيفعله ستالين بعد انتهاء الحرب. كتب تشرشل إلى زوجته "إن التعاسة التى ستجابه العالم بأكمله تروعني"، وأخشى على نجو متزايد من الصراعات الجديدة التى ستبدأ من حيث ننتهى الآن والنجاح حليفنا" (٨٧).

بعد المؤتمر أتى رئيس الوزراء والرئيس إلى مصر، حيث لاحظ جوسى برينتون أن "تشرشل بدا أسمن من أى مرة وبدا فاروق بدينا كما كان دائما" بينما "بدا روزفلت متعبا للغاية" (٨٨)، وبعد أقل من شهرين، فى ١٢ أبريل، كان جون وجوسى برفقة الملك فاروق عندما استلم برقبة: "قرأها ثم قال بالفرنسية، "سيدائى ساندنى يوسفنى بشدة أن أعلن وفاة رئيس الولايات المتحدة". لم نصدق أذننا، لقد كان حزينا للغاية حيث إنه كان من أشد المعجبين بروزفلت"، وألقى القاضى برينتون خطبة فى الصلاة التى أقيمت على هذه الذكرى فى كنيسة سانت مارك المزدحمة فى الإسكندرية، ورغم أنه قد طلب منه قبل ذلك كثيرا أن يوجه خطابا بمناسبة وفاة الزملاء "ولكن هذه هى المرة الأولى التى تمكنت فيها من التحدث بالإنجليزية فى مثل هذه المناسبة. وأنا أشعر بالراحة لأننى عبرت عن مشاعرى هكذا. فهذه الأفكار يجب التعبير عنها باللغة التى يتكلم بها الفرد" (٨٩).

فى يوم وفاة روزفلت، أصيبت خطط كتابة دوريل باضطراب وتشوش. كتب إلى ديانا الأسبوع السابق "سوف أذهب إلى صومعة بيضاء صغيرة على جزيرة زرقاء صغيرة بصحبة فتاة صغيرة ذلت شعر داكن" ^(٩٠)، معتزما أن ينهى كتاب الموتى فى جزيرة رودس، ولكن فى اليوم الثانى عشر، وصل بريد جوى من إليوت يرفض فيه المتاهة السوداء معبرا فيه قائلا بأحرف كبيرة "إن هذه الرواية تشبه القدر المغلى المليء بقدر لا يحتمل من اللحم ولكن اللحم لم يُطه جيدا" ثم أضاف قائلة "هل أنت شاعر فى المقام الأول أو أنك كاتب نثر؟ هل تعلم ماذا تود أن تصبح؟" ^(٩١).

ولم يجب دوريل على سؤال إليوت، وهو ما يعد علامة أكيدة على أن دوريل قد انزعج كثيرا منه، لكنه فى الوقت ذاته تقبل نقد إليوت لرواية "المتاهة المظلمة" أو "The Dark" Labrinyth، موضحا أنه قد كتبها فى عَجالة لكى يحصل على مال يساعده فى دفع نفقات الطلاق، ومضيفا أنه لم يجل بخاطره أن مراجعته عملية تستحق كل ما استغرقت من وقت وجهد. غير أنه لم يكن باستطاعة دوريل فى حقيقة الأمر أن يترك الرواية على تلك الحالة، حيث قرر أن يُعيد كتابتها عند عودته إلى مدينة رودس باليونان، ويعيد كتابة حبكة القصة مع إضافة العديد من الشخصيات الجديدة، من بينها المحلل هوجارث، والذى كان عرضة للتجاهل من "ملاحظات إلى الإسكندرية".

وعندما حصلت مدينة رودس على استقلالها فى الأول من مايو، بدا فى الأفق قرب هروب دوريل من "ثورة وإزعاج الإسلام" ^(٩٢) ومن "بؤسنا وشقائنا الطويل فى مستنقعات بحيرة مريوط" ^(٩٣). واستسلمت ألمانيا بعدها بأسبوع لتنتهى الحرب فى أوروبا. وبدأت إطلالات الوداع تتوالى على الإسكندرية عندما تم إرسال بول جاوتش من قبل المجلس البريطانى إلى مدينة نيسالونيكى فى شمال

اليونان، وفجأة فرغت الغرف التي كان يملؤها هو وزوجته وأولاده في فيلا أمبرون، وأصبحت ساكنة بلا حراك.

وفي النهاية، تلقى دوريل تعليمات بزيارة مدينة رودس "من أجل معاينة المباني"، كما قال ذلك للسيدة إيف، وكان يعمل مسئولاً للاستعلامات العامة بوزارة الإعلام تحت إدارة الجيش البريطاني، والذي كان ليحول السيطرة على جزر دوديكانيز من الحكم الإيطالي إلى الحكم اليوناني. وفي مساء يوم ٣٠ مايو وفي جو من الترقب والانتظار المشبوب بالريبة والشك، أبحر دوريل من المرفأ الغربي في بارجة كبيرة لإطلاق الصواريخ، وشعر وكأنه النبي يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت.

وعندما عاد إلى الإسكندرية بعدها بعشرة أيام، وعندما شعر أنه من الممكن أن يعود لماضيه في اليونان، كتب دوريل إلى ميلر أنه وجد الجزيرة "جميلة على نحو شبيه بمدينة كورفو".^(٩٤) غير أنه بعد مرور أكثر من أسبوعين على عودته إلى الإسكندرية، وقبل تأكيد إرساله إلى رودس، لم يكن حرا إلا في تلك اللحظة لأن يقدم خياراته للمساعدتين الاثنتين بالمكتب واللذين كانا بحاجة إلى مساعدتهما. وكان على إيف أن تذهب لمقابلات شخصية في وزارة الإعلام بالقاهرة، مسلحة في ذلك بسيرة ذاتية تعج بالخبرات من إعداد دوريل، وكان قد قدمها على أنها صحفية ومتخصصة في علم اللغة وتتمتع بمهارات ممتازة في مجال الطباعة، حيث قالت إيف "بل إنني أحضرت أيضا نظارة لتبدو بفاعلية، وتم تدريبها تدريباً جيداً وقالت كل ما هو صحيح ومناسب، كما كانت تحمل التوجه الملائم، وتم تلقئها بالفعل بقدر كبير من الحماس من قبل الأفراد الذين قاموا بإجراء المقابلات معها"، وتم تعيين إيف سكرتيرة إدارية لدوريل في رودس.

وأعقب ذلك أن احتاجت إيف الحصول على أوراق سفرها، غير أن الحكومة المصرية أعلمتها حينئذ أنها ليست مواطنة مصرية، ومن ثم لا يمكن منحها جواز سفر؛ فقد كانت سيدة لا وطن لها مع أنها كانت تعيش في وطنها. ولم تحاول الحكومة المصرية أن تحدد طبيعة المصريين عن غير المصريين إلا في عام ١٩٢٩ مع التأكيد بأنه من الرعايا السابقين للإمبراطورية العثمانية في مصر منذ عام ١٩١٤، وكذلك أبناء الأجانب المولودين في مصر، شريطة أن يتقدموا للحصول على حق الجنسية المصرية في خلال سنة واحدة من تاريخ بلوغهم سن الرشد وتركهم لمواطنتهم الأجنبية. ولم تتقدم إيف أو أى من والديها بطلب للحصول على الجنسية المصرية، كما لم يتقدم كثيرون من الأفراد الآخرين الذين كانوا يعدون مصر وطنًا لهم. وحتى إذا حدث أن تقدموا للحصول على الجنسية، فقد كان الحصول على أوراق الجنسية بالغ التكلفة، وهو ما لم يكن بمقدور الأفراد غير ميسوري الحال أن يقوموا به، في حين أنه في الأربعينيات، بدأت الحكومة تفرض قيودا على إجراءات الجنسية بالنسبة لغير المسلمين مهما كانت درجة ألفتهم من الناحية القانونية لذلك.

ولم تكن الإمبراطورية العثمانية تميز رعاياها من خلال جنسيتهم، بل كانت تميزهم من خلال دينهم، فأجابت الحكومة المصرية على طلب إيف بنفس الطريقة، إذ أخبرتها أن عليها أن تحصل على إذن من الحاخام الأكبر في القاهرة قبل إصدار جواز سفر. ومن جانبها، طالبت الحاخامية بالحصول على إذن من موز كوهين، ونقول من ثم تمكنت من أن أقنع والدى بكتابة خطاب، يتحدث فيه عن سعادته البالغة إذ سمح لى بالرحيل، وهو ما لم يكن صحيحا على الإطلاق، بل جاءت هذه الموافقة لأننى التى كتبت له خطابا شريرا أخبرته فيه أنه لا يهم ما سكتبه لأننى ذاهبة على أية حال! ولذلك، فلم يكن أمام هذا المسكين إلا أن يكتب لى بالموافقة،

ولابد وأنه كان ينفذ الدم بعد أن نفدت منه الدموع من بأسه وهو يكتب هذا الخطاب، ومن ثم اعتقدت أن الأمور تسير على ما يرام، ولم أعتقد شيئاً بعد ذلك" - وكانت الحاخامية تريد تصديق توقيعه.

وفى نهاية المطاف، أرسل دوريل السيدة إيف إلى صديقه برنارد باروز، السكرتير الأول بالسفارة. لذلك عدت إلى برنارد وقال لى: "حسناً، ليس من المفروض أن أقوم بفعل ذلك"، لكنه وقع على الخطاب شاهداً بأن السفارة قد أقرت التوقيع على أنه توقيع والدى. وعدت إلى الحاخامية معه ومع هذه الأختام المؤثرة، وبعد وقت طويل وافقت الحاخامية، تقول: "وهكذا، أمكننى أن أغادر البلاد".

وقد حول دوريل الحادث ببراعة وانتقل إلى الحديث عن جوين ويليامز، قائلاً: "لقد انفصلنا فى ظل ظروف حظ عاثر"، رغم أن هذا الأمر استغرق كل صورة من صور التلاعب التى يعرفها البشر"، وتتضمن "السفارة والجيش وأفراد جماعة الكويكرز والبشوات".^(٩٥) غير أنه كان غاضباً بدرجة أدنى من عمل الحماقة، وقد كلفه الحرمان من إيف كثيراً، وهو ما لام المصريين عليه، إذ يقول: "أشعر وكأننى أحد رجال الحملة الصليبية عندما أفكر فى مصر"، وكتب بعد ذلك إلى ميلر من مدينة رودس قائلاً: "أود لو أضع أحد فيالق الجيش فى البلاد وأن أذب جمعاً غفيراً من هؤلاء الأوغاد المتعجرفين المصابين بالجذام!"^(٩٦).

وبعد ظهر أحد الأيام وقبل رحيلهم إلى الإسكندرية، نادى إيف على دوريل فى مكتب الاستعلامات البريطانى؛ فقد كانت تريد شراء حذاء، ولذلك فقد مضى معاً فى التسوق بطول شارع طوسوم. وأمرته فجأة بأن ينتظر، واندفعت عبر الطريق. وكان ما حدث هو أن رأت روجيرو وعرفته من ظهره، وقالت: "وهكذا، أكنت تظن أنك ستمر على بدون أن تقر بأنك رأيتى؟" رد عليها روجيرو، الذى كان لتوه قد تم إطلاق سراحه من السجن، بقوله إنه كان يزور والدته للتو، وإنه لم

يذهب قبل تلك، وكان الذهاب إلى هناك هو المنهاج المتبع فى طلب يد إحدى الفتيات للزواج، وهو ما فهمه كلاهما غير أنهما لم يفصحا عنه. وسألها "أهو أمر جدي؟" وهو ينظر إلى دوريل. فأجابته قائلة "بالغ الجدية، فنحن ننوى الزواج". وكانت هذه هى آخر مرة رأت فيها روجيرو قبل أن ترحل. وقالت "إنك لم تفهم أبدا أنني ملزمة بالرحيل عن مصر." فسألها قائلاً: "لماذا؟"، وهو مندهش من طلب أى فرد الرحيل عن البلاد. فأجابته إيف: "ألا ترى أن الجميع يعتزمون الرحيل؟".

وفى الوقت الذى أبحر فيه دوريل وإيف من المرفأ الغربى، شعر وكأن "سحابة تتفشع":^(٩٧) السبب فى ذلك أنه كان سيعود إلى اليونان. ومع كل ذلك، بقى شعر كفافيس يجول برأسه، لكنه لم يعد "ينتظر البربر". وبدلاً من ذلك، ففى "مذكرات للإسكندرية" Notes for Alexandria^(٩٨)، ترجم دوريل المدينة The City، والتي أطلق عليها كفافيس اسم "الأثر الحقيقى للإسكندرية الحديثة": حيث قال:^(٩٩)

لا توجد أرض جديدة، يا صاحبي، لا

لا يوجد بحر جديد، لأن المدينة ستقتفى أثرك،

ستجول فى نفس الشوارع بلا نهاية،

وتنسل ضواحي الروح ذاتها من الشباب إلى المشيب،

وتصل فى نفس البيت إلى حالة الشحوب فى النهاية

والمدينة سجنٌ

ولا توجد أماكن أخرى،

فدائماً ما تكون هى برك الأرضى،

وليس ثم من سفينة تنجيك من نفسك التى بين جنبيك^(١٠٠)

وكتب دوريل إلى جوين وليمز من رودس، "أنا فى غاية السعادة".^(١٠١) ولم يتحرك بنفس طريقة السيد كوى هذه المرة: وبدأت السعادة واضحة فى خطاباته الآن، حيث أصبح لديه من جديد "امرأة وجزيرة وشجرة".^(١٠٢) وقد شاركته إيف ما يشعر به من سعادة، حيث تقول: "كانت مدينة رودس فى تلك الأيام مكانا ساحرا وفاتنا. وكانت لدينا، وكانت جزيرتنا. وكان ذلك شهر العسل بالنسبة لنا، وأسعد الأوقات التى شعرنا بها أنا ولارى معا". كما لم ينته ما يشعر به دوريل من سعادة مع إيف فى رودس من خلال كل ما تلاه من أحداث؛ فعندما عاد لزيارة الجزيرة بعد مرور ٣٠ عاما، قال: "كان هذان العاملان أسعد سنوات حياتى على الإطلاق".^(١٠٣)

أما بالنسبة لجوين وليمز فقد أصبحت الإسكندرية "فارغة وقبيحة تعج بالأسباح".^(١٠٤) وذلك عند عودته لمنصبه فى جامعة الملك فاروق فى خريف ذلك العام بعد قضاء إجازة فى بريطانيا. فقد تفرق أغلب أصدقائه وقت الحرب، فمنهم من عاد إلى بلاده أو من عبر البحر المتوسط، وخلال السنوات التالية، كان يشاهد مع اتخاذ البلاد الطابع المصرى، "ليس من خلال الحى المصرى للطبقة العاملة، بل من خلال القاهرة الرسمية"،^(١٠٥) حتى أصبحت مكانا مختلفا تمام الاختلاف، إذ إنه أقل فكرا وأقل انحطاطا، وأقل تحضرا".^(١٠٦)

وكان المنزل المليء بالصخب فى شارع الرصافة قد أصبح فارغا. فمع وفاة زوجها ورحيل ابنها، جان الراهب الدومينيكي، الآن إلى فرنسا، ترددت روزيت دو ميناس بشكل متكرر على جناحها المفضل فى فندق سكاريب بباريس. وكان ابن زوجها، ويدعى جورج دو ميناس، يحول ماله إلى الخارج، كما كان ينقل بالتدريج أحجاره الكريمة وخزفه الصينى وكل ما لديه من مجموعته إلى خارج مصر، بمساعدة البروفيسور ألان واس، الذى رتب جزءا منها لأن يتم نقله إلى

متحف فيتزيلىام فى كمبريدج. لكن كان على واس، الذى كان لا يزال يعمل فى المخابرات البريطانية، أن ينأى بنفسه عن ميناس بعد أن علم من السير والتر سمارت فى السفارة أن صديقهم كان ينفق الكثير من ماله على تهريب اليهود إلى فلسطين (١٠٧) .

ومع ذلك، كان يمكن أن نعذر أى فرد حضر إلى حفل العشاء الذى أقامته الجمعية الأثرية الملكية فى بودروت، فى يوم الأحد الموافق ٢٦ يناير ١٩٤٦، على مرادة فكرة تقول بعدم تغير شيء من الأمر البتة. وبعد فيليت دو بويزون فيردى وتورنيديوس هينرى الخامس، جاء عرض للحياة القديمة فى الإسكندرية على النحو الذى صورته ثيوكريتوس فى الأنشودة الخامسة عشر. وقد خصص كلاير فينسيندون الملابس للطاقم، وتضمنت ابنته البالغة من العمر ٢٠ عاما فى دور براكسينوى. وقد قدم الملك بطليموس فلاذيلفوس وزوجة أخته الملكة أرسينوى خدمة جليلة لحفل أدونيس فى القصر الملكى.

على حين عمل جورج وصديقه براكسينوى على تمهيد طريقهما عبر الشوارع المزدهمة فى الإسكندرية القديمة، مشتكين من الحشد المحتشد من اليونانيين والمصريين والسوريين واليهود، ويمكن للمشاهدين أن يتخيلوا المنظر بسهولة فى المدينة الحديثة. وبمجرد الدخول، كانت البهجة تعم كافة الأرجاء، وينتشر بالقصر أنسجة مزدانة فائقة الجمال تزدان بالمشاهد الحية، ويتعجب براكسينوى قائلا:

يا له من فن يظهر حتى فى النسيج!

فالأشكال تنبض بالحياة، ولا تبدو وكأنها نُسجت أو حيك.

تقف وتتحرك مفعمة بالحياة، فبالرعاة الإنسان (١٠٨)



الأمير نيكولاس روماتوف، وريث العرش الإمبراطوري في روسيا، والسيدة
جيلدا أمبرون (في المنتصف) والكونتيسة ماري دو زوغيب (على اليمين) في
صورة لهم في أثناء وجودهم بالإسكندرية. وتلا ذلك أن تلقى، في أثناء وجوده
في رودوس، أنباءً عن وفاة جيلدا في حادث طائرة، وكان ذلك بمثابة إسدال
الستار عن الإسكندرية التي كان يعرفها.

وكان الكثير ممن نزلوا في فندق بودروت في ذلك المساء قد تذكروا كيف
تحدث فورستر في عمله "الإسكندرية" عن الأنشودة الرعوية الخامسة عشر قائلاً:
"لا يمكن لنا إلا من خلال الأدب أن نستعيد أحداث الماضي، وأن نستعيد ثيوكريتس
في حالتنا هذه، الذي يستخدم ببراعة السحر المضاعف للواقع والشعر، في خلق
مدينة بالكامل من الموتى وملء شوارعها بالرجال." (١٠٩)

وبعد شهر قصير من تأليف الأنشودة الرعوية الخامسة عشر، تركت كلود المدينة فجأة. كانت تعمل سكرتيرة للسيد تيم فوردى، وهو رجل أيرلندى متزوج يعمل مزوداً للأسطول الملكى بالطعام فى المرفأ الغربى، وحمّنت منه. يقول جاكى ماواس، ابن عم كلاودى: "كان يكبرها سناً، ولم يكن حسن المظهر، وكان فظاً غير جذاب، كان طيباً، لكنه لم يكن الرجل المناسب لهذه السيدة الرقيقة الجميلة". ولدفع كل اتهام يوجه إلى مجتمع الإسكندرية، اتخذت كلاير فينسنون الأمور فى يديها، وكانت ترسل كلاود إلى لندن، وهناك عملت ملحقاً صحفياً للسفارة الفرنسية قبل أن تضع مولودة سمّتها ديانا فى نوفمبر ١٩٤٦. وقد استغرق الأمر وقتاً أطول لترتيب إجراءات طلاق فوردى من زوجته الأولى، ومن ثم لم يتزوجا إلا بعد أن ولدت ديانا؛ ثم ترك الأسطول بعد ذلك، وأخذ كلود معه وعاد معها إلى وطنه واستقر فى مدينة كورك، حيث أدار حانةً يقع مقرها فى ٤ جراند باراد.

وعاد كل من ألدو وإميليا أمبرون إلى إيطاليا للمرة الأولى منذ إعلان موسوليني عام ١٩٣٨ قوانين معاداة السامية، فى حين تنقلت جيلدا جيئةً وذهاباً فى رحلات طيران ما بين روما والإسكندرية لمساعدة الملك فيكتور إيمانويل الثالث، الذى تم نفيه من إيطاليا بعد الحرب، واستقر به الحال فى فيلته فى حى محرم بيه. ثم جاءت الأنباء التى تقيد بمصرع جيلدا أمبرون فى حادث ارتطام طائرة فى الصحراء بالقرب من مدينة مرسى مطروح عندما كانت تركب الطائرة المتجهة من القاهرة إلى مصر.^(١١٠) وعندما سمع دوريل هذا الخبر فى أثناء وجوده فى رودس، شعر بصدمة كبيرة، وبدا الأمر كما لو كان ذلك الحدث قد أشار إلى نهاية عائلة أمبرون، تقول إيف: "ذلك العالم الذى عرفناه فى فيلا أمبرون أصبح بالفعل غير موجود على أرض الواقع".

خاتمة

الطريق إلى الإسكندرية

وحيث سوف تهجر الروح الحارس (أجاسوس دايمون) المدينة التي أقاموها وتمضي إلى ممفيس. وستكون مدينتهم مهجورة. وبذلك تكون نهاية شرورنا حينما يرى المصريون تساقط الأجانب عنهم كما تساقط أوراق الشجر من الغصن. المدينة ستكون على شاطئ البحر تجفف للصيادين شباكهم ويقول العابرون "هذه المدينة التي رعت وعاشت فيها كل أجناس العالم"

"حكمة الخزف" القرن الثالث قبل الميلاد (١)

نزل لورنس دوريل من السفينة، في ٢٦ يناير ١٩٥٣، مع سافو وابنته من إيف في ميناء كيرينيا وهي مدينة صغيرة على الساحل الشمالى من قبرص. ثم اشترى بيتا قديما في قرية قريبة من بيلابى حيث أفرغ أدواته الخاصة برواية الإسكندرية التي خزنها لفترة طويلة وكانت تحتوى تلك المواد على كتاب إ. م فورستر الإسكندرية: تاريخ ودليل "ومذكراته عن مدينة الإسكندرية. وعلى غلاف كراس حكومى فارغ كتب : مذكرات : يوميات الإسكندرية". ثم قلب أول صفحة كتب فيها :

الإسكندرية

(رثاء)

إلى إيف، هذه الوثائق عن مدينتنا الحبيبة

"لقد هربت إلى هذه الجزيرة ومعى بعض الكتب ومعى الطفلة، إبنة مليساً" وراح يكتب ما أصبح فيما بعد المقدمة لروايته الصادرة بعنوان جوستين. "لا أدري لماذا لجأت إلى كلمة (هروب)". يقول القرويون على سبيل الدعابة: إن الرجل المريض فقط هو الذى يختار مكاناً بعيداً كي يستعيد صحته. وقد جئت إلى هنا كي أتعافى، فإن شئت أن تبعده جانباً فلا بأس. فى الليل حينما تزار الرياح ويرقد الصبى فى سريريه الخشبى بجانب المدفأة أضىء المصباح وأتردد فى المكان أتذكر أصدقائى جوستين ونسيم، وميليسيا وبلتازار. فأعود وأربط بينهم بسلسلة طويلة من الذكريات الخاصة بالمدينة التى عشنا فيها معاً لفترة وجيزة"^(٢).

بعد أن ترك جزيرة رودس فى عام ١٩٤٧، والتدريس لمدة عام فى المركز الثقافى البريطانى فى الأرجنتين، عمل دوريل لمدة أربعة أعوام فى وزارة الخارجية البريطانية مسئولاً إعلامياً فى السفارة البريطانية فى بلغراد. وأخيراً، فى الشهور الختامية من عام ١٩٥٢، ومع مدخرات تكفى العائلة لمدة عام أو نحوه فى قبرص، قرر أنه فى الأربعين من العمر وقد حان أن يبدأ فى تأليف كتابه "كتاب الموتى".

لكن عندما بدأت إيف تعاني نوعاً من الاكتئاب كان مألوفاً من قبل لقائهما مع دوريل، انسحبت وانطوت على نفسها وباتت مقتنعة تماماً بأنه لم يعد يهتم بها. فى آخر نوفمبر عانت من الهلوسة واثارت عليه بقسوة وقالت إنها راحلة. جاء فى تقرير طبيب نفسانى من المستشفى العسكرى البريطانى فى ألمانيا "أنها تعاني من

انفصام حاد في الشخصية واضطراب في التفكير وأعراض اكتئاب نفسي" (٣)، بينما كتب الطبيب النفسي الذي يعالج إيف إلى دوريل: "وكما اكتشفت، أن أوهاهما وتصوراتها مرتبطة بمشاعر عقدة ذنب مبكرة بسبب استثارة ذاتية للشهوة وازدواجيتها الملحوظة نحو والديها، ورغبتها الشديدة في حب الأشياء." (٤) وقد بدأت هذه الحكاية مع طفولة إيف المضطربة التي عايشتها في محرم بك وسحقت حياتهما حالياً.

وبعد وصوله إلى قبرص كتب دوريل إلى صديقه القديم آلان توماس في إنجلترا يقول له: "يترك مرض الانفصام الشخص أثراً نفسياً على المريض لمدة سنة حتى بعد شفائه تماماً، ولم أقل إن هذه هي قرارات إيف التي سوف تتغير بالضرورة، ولكن على المرء أن ينتظر قليلاً ليرى إن كانت هذه أفكاراً راسخة بالفعل أم عمليات تكوين أفكار." في تلك الأثناء بينما هو ينتظر، كان يتساءل هل ستعود إيف يوماً إليه... "تجدها أحياناً في بعض الأيام مفعمة بالتفاؤل وفي أيام أخرى مكتئبة وقانطة" (٥).

رغم أن قبرص كانت يونانية منذ حرب طروادة فإنها وقعت تحت سلطة الكثير من الحكام؛ فقد هوجمت من سكان البندقية بواسطة العثمانيين في عام ١٥١٧م وزُرعت بالمستعمرين الأتراك، عام ١٨٧٧م تم تسليم الجزيرة بأكملها إلى بريطانيا عام ١٨٧٧ في مقابل تحالف دفاعي ضد الروس. كانت الجزيرة بالنسبة للبريطانيين برج مراقبة الشرق الأوسط، وكانت تمثل بالنسبة إلى دوريل عودة للمناظر الطبيعية في أركاديا في جزيرة كورفو أو رودس. وكتب إلى ميلير: "أشجار النخيل والإبل ورائحة سوريا غريبة وأكثر من ذلك فهي نوع ضار من الجزر... إن قبرص شرقية. وأحاول الآن تأليف كتاب قيم حقيقي عن الإسكندرية، في الليل بعد قضاء أعمال اليوم" (٦).

بعد استقرار أمه في بيلابى للمساعدة في الاعتناء بسافو، بدأ دوريل في سبتمبر تدريس اللغة الإنجليزية لطلاب الصف السادس في مدرسة بانكيريان جيمانيزم في نيقوسيا بدلا من جامعة تقدم خدمة علمية متميزة في الجزيرة. كما كانت أيضا مرتعا للقومية الهيلينية. أما ماكاريوس وهو رئيس الأساقفة ومدير الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية في قبرص والقائد الفعلى للجالية اليونانية الغالبة فكان من بين تلاميذه، بالإضافة إلى جورج جريفاث وهو جندي مخضرم ممن شاركوا في انهيار اليونان في الأناضول في بداية العشرينيات من القرن العشرين وقائد كتيبة من الجيش اليوناني في الحملة الألبانية في عام ١٩٤٠-١٩٤١ ضد القوات الإيطالية. وبعد عام ونصف، عندما صدرت إشارة من ماكاريوس، استطاع جريفاث أن يعلن العصيان المسلح على البريطانيين بسبب الاتحاد مع اليونان.

مع بداية يومه الدراسي الذي يبدأ في السابعة صباحا كان دوريل يستيقظ في الساعة الرابعة والنصف صباحا، يتناول فنجان قهوة "سادة" ثم يكتب بعض سطور في روايته ويكتب بالتفصيل في كراسة "كبالى" حتى لا يقلق أسرته قبل الانطلاق بسيارته لمسافة ثلاثين ميلا فوق الجبال الساحلية وعلى سهل نيقوسيا. في هذه الساعات المبكرة من الفجر يقوم بترتيب أفكاره وعلى طول طريق عودته إلى بيلابى كان يؤلف روايته في رأسه، تلك كانت فقرات كتبها على ضوء شمعة في الصباح التالي في "كبالى"، وفي نهاية الأسبوع كان يطبع نحو ألف وخمسمائة كلمة كتبها هناك، إنها عملية تقطير وتنقيح بطيئة.

وفي أكتوبر كتب دوريل إلى ميريل: "لم أعمل قط في مثل هذه الظروف الصعبة" ولكنى لم أشعر قط بأنى في حالة كتابة جيدة". عند الإفصاح عن اسم قصته "جوستين" قال سوف تتكون من أربعة أبعاد. وأحاول ترتيبها واختصارها، مثل بعض الحيوانات الغريبة المعلقة في محلول^(٧). وقد رأى دوريل أن ميليشيا

وجوستين جوانب لنفس المرأة، ميليشيا وهي إيف الضعيفة التي أحبها، وجوستين هي المرأة التي خشي أن تكون إيف مثلها، أسيرة لهواجسها وذاكرة مؤلمة. يشعر أنه ينظر إلى نفس الوجه لكن من مرايا متعددة. ولكنه يرى نفسه أيضا مثل دارلى ونسيم، وهو الشاب الذي أصبح مسلوب الإرادة في الإسكندرية والرجل المتمرس الذي يتألم. فهي رواية رأى أنها يجب أن تشمل أربعة أبعاد فقط. فمن خلال محارم التوائم من "مذكراته عن الإسكندرية والذي قلص عالمه ليشمل المحيط استغلالهم، استطاع دوريل أن يصنف شخصياته الرئيسية إلى أربع شخصيات قائلا: "نحن الأربعة مكملين لبعضنا وبيننا صلة كبيرة"^(٨) فهم يقيمون معا في الإسكندرية، كما يمكن أن يصف في جوستين، حيث أصبح الوجود الصعب للعالم المعروف بالنسبة لنا نحن الأربعة مجرد فراغات بين الأحلام، فراغات بين طبقات الوقت المتغيرة"^(٩).

دائما ما يرجع دوريل إلى "ملاحظات عن الإسكندرية" ويمأ العديد من الصفحات نحو الخلف بالخطط والروافع ومسقط الثلاثة الأجزاء في منزله في بيلابي، كما أنه يقوم في الوقت ذاته بالحسابات الخاصة بالتكاليف المختلفة بما في ذلك نجارة شباك الزجاج الملون، قام برسم قطة وأرنب لأخته. ففي "كابالي" أيضا عمل على رسم مصاعد منزله وقام بتصميم أربعة إعلانات عن سرير أطفال من الطراز التركي لسافو. وقد أثبت في خلف "كابالي"، وبعيدا كل البعد عن القصة نفسها، نوعا من محادثة في يوم حلم عن ابنته، وابنة ميليشيا التي تدعى أيضا ميليشيا:

"إن هذا كوخ. قدر سيئ السمعة. ولكننا نحن الاثنين ننعم بصحة جيدة. لقد بنيت غرفة لطيفة بعيدة. أشعر بالسعادة. لم أشعر بهذه السعادة من قبل. الحمد لله على كل شيء"

"وميليشيا الصغيرة؟"

كانت المحادثة مع كليا.

فى أبريل سنة ١٩٥٤ سافرت إيف إلى نيقوسيا. كان دوريل سعيدًا بعودتها
كتب إلى ستيفانيد "كانت مرحلة جميلة جدا" أما شابى فقد كان سعيدًا بشكل
هائل" (١١).

أراد دوريل أن يطمئن على أن إيف قد عادت فعلا إلى بيتها، وبمجرد أن
وصلت نقل دوريل ملكية البيت إليها. إلا أن مزاج إيف كان يتقلب على دوريل، وقد
قارنها بما كتبه الشاعر سكوت فينترجيرالد فى سيرته الذاتية بعنوان *Tender is the*
Night يتحدث فيها عن حبيبته وزوجته "زيلدا" فهي جميلة ولكنها غير متوازنة.

تتذكر إيف كيف كانت تبدو لها الأمور: "فى أقل من بضعة أيام، فى أقل من
أسبوع بعد وصولي، رجعت للميدان الأول، عندما قلت يجب أن أعود كل الطريق
المؤدى إلى المستشفى. وكان يعتبر موقفا انتحاريا وليس حياة. أعنى أن شيئا لم
يتغير مع لارى. وقد عزمت على ألا أموت. كان لارى يتصرف فى ذلك الوقت
بطريقة بغیضة. أنا من الناس الذين لا يقبلون الإساءة. فأنا لست ضحية. حاليا
بدأت أدرك أنى قد اضطررت إلى اتخاذ أحد الأدوار، ثم، تعلم، أنى بدأت أقول
"من هو الضحية هنا، أنت أم أنا؟ ربما أنت الضحية." اسمعنى، كنت سأقتله إذا
تصاعد الأمر. يمكننى أن أقتله أدبيا. أقتله بضربة قاضية. وقد أوشكت أن أقتل
شخصا كهذا من قبل، لأنه حاول أن يؤذنى: "رجل عرف والدها أنه حاول أن
يغويها على شاطئ الإسكندرية. كانت تراودنى أحلام حول تلك الأشياء. قللت من
أمرها وكنت أعزى السبب لصفات برج الأسد التى أتحدى بها. أقصد إن حاولت
وخوفت أسدا، فسوف ينقض عليك. وسوف أهاجمك. وهذا ما فعلته. فقد أرهبت
أفكار لارى" (١٢).

وفى ذلك الوقت تقريبا استمر دوريل فى استكمال قصته من "كابالي" لكن فى الكراسى الزرقاء التى كتب عليها، "مسودة قصة جوستين" ورسم مشهدا للإسكندرية من البحر ومسجدا جامعًا وكنيسة والمنارة الشامخة ويتوجها تمثال بوسيدون إله البحر، والذى يجمع ثلاث حقبة لتاريخ المدينة. ثم ملأ صفحة من كراسته من ترجمة أخرى لقصيدة "المدينة"، وقبل أن يستأنف كتابة روايته بأفكار نسيم، الذى أثار غضبه بسبب سوء سلوك جوستين: "يقول فى نفسه فى هدوء: "إن مشكلتى " يتحسس جبهته ليرى إن كان يعانى من حمى ويقول : "إن المرأة التى أحببتها غمرتني بالرضا الكامل ولم تهتم بسعادتها ...". يسمع من بعيد أصدااء صوت بلوتينوس وهو يروى نكرياته عن المدينة، ولا يمضى بعيدا عن أوضاع مؤقتة ومفرطة ولكن نحو ضوء جديد، مدينة جديدة من النور "هيا بنا نهرب إلى وطننا الحبيب. ... انطو على نفسك وانظر "ولكن ها هو الفعل الذى يعجز عن تحقيقه حاليا"^(١٣).

فى صيف ١٩٤٥ تم استدعاء دوريل، لشغل منصب مدير مكتب العلاقات العامة فى الحكومة القبرصية، فوجدها فرصة للارتقاء بالإحساس القائم منذ زمن بعيد بين بريطانيا واليونان. فالحكم البريطانى فى قبرص كان الأول فى تاريخ الجزيرة لتكون بأى شكل جزيرة خيرية ويتمتع سكانها بحرية مدنية كاملة، أى ما يعادل أغلبية المؤيدين لفكرة الاتحاد. فسوف يدير الإذاعة الحكومية لقبرص ويعيد إحياء مجلة "سايبيرس ريفيو" شبه الرسمية، وتكليف الأصدقاء والزملاء المعجبين بالحضارة الهيلينية بأن يكتبوا المقالات لتعزيز التوافق الأنجلو هيلينى. فإن بريطانيا تسعى لوجود استراتيجى فى شرقى البحر المتوسط وقريبا من منطقة الشرق الأوسط المضطرب، كما يوجد أيضا وضع معقد للأقلية التركية الموجودة فى الجزيرة، فلا هم ولا الحكومة التركية فى أنقرا يريدون تسليم الجزيرة إلى اليونان.

من المؤكد أن سكان قبرص يستطيعون كسب من فهم احتياجات بريطانيا ويجدون في استمرار الحكم البريطاني ضماناً لأمنهم ولمصلحتهم الشخصية أيضاً.

ولكن سرعان ما يتهاوى غرام دوريل باليونان: ففي ديسمبر أطلقت القوات البريطانية الرصاص على المتظاهرين في ليماسول، فجرحت ثلاثة منهم، بينما أشار سيفيري، الذي زار دوريل في أول شتاء له في بيلابى، بضرورة تجنب الاجتماعات عند المجيء إلى قبرص. وبملاحظة نشاطات دعاية دوريل، اتهمه سيفيري باستغلال المؤسسات التعليمية في الجزيرة وصدائقاته القديمة باليونانيين "من أجل تسليح الجنود واستعباد الضمائر"^(١٤). وفي المجلدات الأخيرة من الرباعيات يصور دوريل الروائي القديم بورسيوردن، وهو باعتباره رجلاً رأى أن صداقاته يمكن مساومتها بعمله في الخدمات الخارجية كما أحس به دوريل أيضاً.

وبعد مرور ليلة الأول من أبريل ١٩٥٥، دوت القنابل وتساقطت فوق شوارع نيقوسيا، مثل الهزات الارتدادية للزلازل وجاءت التقارير بأخبار عن كثير من الانفجارات في مدينة ليماسول ومدينة لارناكا ومدينة فماجوستا. وقد أصدر ماكاريوس رئيس الأساقفة قراراً إلى الجنرال جريفاس بالبدء بالعصيان المسلح. وقبل نهاية العام قُتل نحو ٢٤ شخصاً وفي عام ١٩٥٦ قُتل ٢١٤ آخرون، أكثر من نصفهم من القبارصة اليونانيين، وكان معظم أعمال القتل قد قامت به جماعة جريفاس الإرهابية EOKA والمنظمة الوطنية للمحاربين القبارصة. كتب دوريل إلى الآن توماس لقد وجدنا مقاومة شرسة من الموقف الاتحادي الذي تم تجاهله لفترة طويلة. لقد سجلت بضعة أهداف ولكن معظمها كانت تنقذ الرصاص. القطران ملوث بالشحم، وكتلة طينية ولقد سئمت منها فعلاً "وأنا حقاً متعب من كل هذه الأشياء"^(١٥) كانت كل هذه الأفكار في ذهن دوريل عندما بدأ يتعقب جريان قلمه في "مسودة جوستين حيث كتب عن الإسكندرية قائلاً: "في كل مكان على هذه الجدران البنية

المتحركة أرى تعويذة رئيسية للمدينة- مدموغاً عليها نخلة وأصابع ممدودة، محاولين منع حالات الرعب الذى زاحم طرقات المدينة المظلمة.^(١٦) وفي مفكرة شعرية تعقب ملخصاً يد سافى، إبريل ١٩٥٥، عزيزى ابنى كن سعيداً. لاري^(١٧).

سافر إلى لندن مرتين خلال شهر يوليو ليشارك فى مشاورات مع مكتب الشؤون الاستعمارية. وعندما عاد للمرة الثانية قالت إيف إنها راحلة ومعها سافو. ولعل تدهور الموقف فى قبرص ساعده على الموافقة، وقد صاحبهم إلى أثينا، ولكن مشهد رحيل نانسى مع بينلوب إلى القدس مازال يتردد فى خياله وقت الطيران.

وقد شعر دوريل بعد رحيل إيف وسافو "بأسى وفتور شديد"^(١٨). بارهاق متكرر من جراء القصف الليلي الذى يدك فى ذاكرته بضياعه، سهر طول الليل وشراب فى بار كوزموبوليتان نيقوسيا حيث فى نهاية سبتمبر كاد أن يقتل لولا تحذير نباح كلب نبهه من مسلحين مختبئين فى الحديقة الخلفية. ومنذ هذا الحين بدأ يحمل مسدساً، قائلاً لميريل فى نوفمبر: "نحن هنا وسط ثورة صغيرة بشعة بالقنابل وأعمال قتل كما يحدث فى فلسطين" ومن هنا أصبح السفر إلى الجزيرة خطيراً ويجب عليه أن يوصد باب بيته فى بيلابى، لكن وسط كل هذه الفوضى والمجازر فقد كنت أوشكت من الانتهاء من نصف كتاب جوستين الذى يحكى عن إيف ومدينة الإسكندرية قبل الحرب.^(١٩)

وبعد بداية العام الجديد ١٩٥٦ كتب دوريل إلى ميريل مرة أخرى ليقول له بأنه قد "انتهى من كتاب عن الإسكندرية اسمه جوستين... وهو نوع من الشعر النثرى لواحدة من أعظم مدن القلب، عاصمة الذكريات". فبعد رحيل إيف "تقلببت بين أحضان فتاة جميلة من الإسكندرية والهبتي بشعلة من الحماس للبقاء والانتهاء من الكتاب". اسمها "كلود، وهى كاتبة تتسم بالغرابة"^(٢٠).

فيما عدا تغييراتها المتكررة، فقد كانت حياة كلود فينسيندون مخيبة للآمال ومبتذلة منذ رحيلها عن الإسكندرية قبل تسعة أعوام. وبعد فترة قضتها في إدارة بار ومطعم خاص بهم في كورك، قرر تيم فورد ضرورة القيام ببداية جديدة مع كلود في أستراليا. قاموا بفتح محل خضار في سيدنى صاحبة فوكليز، حيث انضموا إلى بوللى أوميرا التى كانت تعمل مربية لروزيت دى ميناس ثم لابنة روزيت كليز فينسيندون. وahan دور بوللى للعمل مع كلود، التى تهتم بديانا وبطفليها الجديد بيرى، وكانت تتحدث عن الحياة كيف كانت في أيام المنزل العريق في شارع الرصافا، منزل فليكس وروزيت، العم جان و جورج، وكذلك عندما كانت كلود مائزال فتاة، وكانت بالنسبة لبوللى أوميرا حياة مفعمة بالرفاهية على مدار ثلاثة أجيال من تاريخ الإسكندرية. ثم ذهبت بعد ذلك عائلة فورد إلى إسرائيل ومن خلال علاقاتهم مع ميناس استطاع تيم وكلود الحصول على وظائف في شركة "فيدرمان إخوان مجموعة فنادق دان. ومرة أخرى انتقل إلى قبرص وهناك عرضت عليه وظيفة في فندق في بمباى، لكن كلود هذه المرة قالت إنها لن تذهب، وفي مطلع صيف ١٩٥٥ قدمت لوظيفة في القسم الفرنسى بمكتب الخدمات الإذاعية القبرصية وعينها مدير العلاقات العامة في الإذاعة.

كانت كلود تتحدث الفرنسية والإنجليزية والإيطالية بطلاقة، وتعرف القليل من اللغة الألمانية وتعرف بشكل سطحي اللغة العبرية واللغة اليونانية واللغة العربية، وهى شخصية نشيطة وعملية، حسنة المظهر وتجيد الطباعة على الآلة الكاتبة. فهى أنيقة وشقراء ونحيفة ورغم أنها تعتقد أنها أطول قليلا من دوريل فهى شخصية مرحة وتستطيع أن تجاريه في الفصاحة واللهجة الإيرلندية، ومن بويل تعلمت اللغة الإيرلندية ومنذ أيام عملها في البار في كورك استطاعت أن تلتقط

بعض الكلمات فى اللغة الايرلندية. ومرة أخرى بدت فرنسية تماما، كما تكيفت كذلك مع الشرقيين. قالت لدوريل إنها إسكندرانىة و"كانت تتمنى دائما الكتابة" (٢١).

بعد أن رحلت إيف عن قبرص، بدأت علاقتهما معا.. بعد ذلك وصف دوريل المشهد: "اعتدت أن أجعلها تأتى الفيلا فى وقت القصف ونضع الآلة الكاتبة على طاولة الطعام. نشرب نبيذا أحمر ونعمل مثل المجانين - كلود كانت روايتها الأولى السيدة أو Mrs.O، وهى رواية تعتمد على تجربتها كصاحبة حانة فى كورك. "فى كل عشرين دقيقة نسمع انفجارا ويحدث شيء جديد فى المدينة، ويرن جرس التليفون. نتجاهل كل شيء، أرد على غرفة الخدمات، غرفة الموظفين، الجهات الحكومية، وصحافة الشرطة - ثم نعود إلى جوستين." (٢٢) وليلة بعد ليلة بدأ الاثنان يجلسان معا ويعملان فى كتابيهما، وضع كل منهما آلة الكاتبة فى مواجهة الأخرى فى نهاية طاولة عليها خريطة الإسكندرية "نتعقب ونصدق بأصابعنا امتداد الشوارع على الخريطة، ونسترد ما فاتنا، الحقائق والمواخير، ومطلع الفجر على بحيرة مربوط"، وفى مقابل طلاقات الرصاص وقصف القنابل بمعدل ثلاث قنابل أو أربع فى الليلة الواحدة، واستدعاء غرف العمليات لكمين آخر فى الجبال، كانت فترة غريبة ومثيرة، وحزينة، ومتقلة بالعبث والغثيان، ولكن الغريب فى الأمر أن تكون قادرا على الحياة فى كتاب شخصي" (٢٣).

وبعد ذلك، عند التفكير فى الأيام والليالى التى قضاها مع كلود، بدأ دوريل الكتابة فى الجزء الأخير من رباعيته، كيف استطاع دارلى أن يعود للمدينة "لقد ولدت طبيعة جديدة لمدينة الإسكندرية من خلال كلّى، لقد أحييت المعانى القديمة وجددت الأماكن المنسية، كما تؤسس لونا ثريا جديدا لتاريخ جديد، لونا لسيرة ذاتية جديدة بديلة عن السيرة القديمة" (٢٤).

فى يونيو ١٩٥٦ تحدث دوريل مع ألان توماس بأن فابر سعيد جدا^(٢٥) بروايته. وأن عقده مع الحكومة القبرصية أوشك على الانتهاء وقد قرر عدم تجديده. لقد ترك معظم أصدقائه فى الجزيرة فى شهر إيريل بعدما بدأت المنظمة الوطنية اليونانية للمحاربين القبارصة EOKA فى قتل المدنيين البريطانيين، وفى مايو حذر سكرتير ماكارىوس دوريل أن حياته فى خطر، وفى بداية شهر يونيو انفجرت قنبلة حارقة فى مكان انتظار السيارات الخاص بدوريل. "حان وقت الرحيل من قبرص، علمت أن معظم طيور السنونو قد هاجرت"^(٢٦).

فلا أمل من أن قبرص يمكن أن تحتفظ بهدونها دون قوة شديدة لا هوادة فيها، كانت بريطانيا تحارب روح اليونان"^(٢٧) وليست تلك معركة.

وخلال زيارته لمدينة فاماغوستا، "وهى من أكثر المدن التى نتردد عليها فى قبرص، مشبعة بذكرىات ماضيتها" زار أطلال الحروب الصليبية، كاتدرائية القديس نيكولاس، "تنشع مناراتها بقرون غريبة" - لقد تحولت الكنيسة إلى مسجد عندما استولى الأتراك على الجزيرة من أيدى سكان مدينة البندقية. هنا اقترب من الآثار القوطية التى بدأت الحشائش تملأ عليها، تقول إن إنجلترا مثل البندقية من قبل، "قوة ولدت فى البحر، كثير من رؤوس الجسور تم استثمار البحر بها لقد ألفنا واستجبنا.. وأدركنا أن يوما ما فى تاريخنا (بلدنا البندقية) فيجب علينا أن نلحق بالتيارات المحتشدة التى تتقابل للأبد عند نقطة التقاء الحاضر مع الماضى فى عناق الموت."^(٢٨) وفى المقبرة، سجلت نقوش على المشاهد من بينهم يلموت مونوليف، إذ استعار اسمه لىسمى به فى قصة خيالية.

ورغم أن دوريل يعرف منطقة البحر المتوسط فضلا عن إنجلترا، فإنه يتحسر على زوال الإمبراطورية البحرية، أساسيات الكوزموبوليتان. ثم عاد إلى نيقوسيا وانهماكه في مكتبه: "صخب السجلات والخلافات بين الخطباء السياسيين وبين الأميين التي بدأت تملأ فراغ مسرح الشؤون العالمية مع صيحات الغضب القوية للعصر - القومية"^(٢٩).

رحلت كلود مع أولادها في نهاية شهر يوليو، في بادئ الأمر استقرت مع أخيها إيريك الذي يعيش حاليا في باريس، ثم زارت خالها جورج دي ميناس في لندن وتركت أولادها في مدرسة داخلية في إنجلترا. ثم في نهاية أغسطس لحق بها دوريل في لندن، كانت كلود مستعدة لبدء حياة مشتركة معا، وفي مطلع عام ١٩٥٧ استقر الاثنان في فرنسا.

ولكن قبل ذلك، في منتصف شهر يوليو أرسل دوريل خطابا إلى مؤسسة طباعة ونشر "قابر وقابر" يحدثهم عن أنه: "في مخيلتي إصدار سلسلة من الروايات لا أعرف عددها، ولكنها روايات بطريقة "جوستين" التي تتحدث عن الإسكندرية، باستخدام نفس الشخصيات ولكن بتأليف مختلف"^(٣٠) وهذا أول إعلان لدوريل بأنه سوف يبدأ بعمل أكثر من جزء، ورغم أنه ذكر من البداية: "قد خططت لتأليف أربع كتب"^(٣١) ولم يكن هذا حقيقة كلود الذي أعادته إلى عبارات "عاصمة الذكريات" وأضاف ببديه في اللحظة الأخيرة في هذه المخطوطة من "جوستين" وفتح عينيه على الإسكندرية التي لم يرها من قبل.

في بداية الجزء الثاني "بلتازار" كتب دوريل: "فرصة واحدة فقط هي التي غيرت مسار كل شيء وأعادتنى إلى طريقي حيث جوستين، وميليسيا وكليا. فهذه شخصيات تشبهنا حقيقة - فهل ترى أنها شخصيات يمكن ترتيبها في كتاب واحد، ليس كذلك؟ إنني أعتقد أنني فعلت، رأيت عشاق وأصدقائي لم يعودوا من الأحياء ولكن عندما أضفيت عليهم صفات فهم يسكنون حاليا أوراقي، فلم تعد المدينة كما كانت بل غدت صورة لشخصيات"^(٣٢).

فى الحقيقة فإن تلك الفرصة الوحيدة هى لقائه مع كلود، التى بينت له أن ما عرفه عن الإسكندرية، وشخصياتها ومكاندها كانت فكرة خاطئة أو فكرة ناقصة. إن مرجع دوريل لتلك الشخصيات فى أشكالها هى إشارته إلى كلود التى حدثته عن دورها مثل دور "براكسينو فى أنشودة ثيوكريتوس الخامسة عشر، حيث تعيش الشخصيات غير محبوبة أو حاسمة. فهى شخصيات حقيقية تقف وتتحرك".

قام فابر وفابر بتاريخ خطاب دوريل غير المؤرخ والذى يذكر نتائج جوستين الممكنة بوصول ٢٤ يوليو ١٩٥٦. وفى مقابل خلفية الأحداث المتتالية، بدأ دوريل فى كتابة بلزازار، ماونتوليف و كليا، الأجزاء التى سوف تعزز رباعية الإسكندرية.

إن خطاب دوريل غير المؤرخ والذى يذكر فيه إمكانية استكمال كتاب "جوستين" قد وضع عليه خاتم تاريخ تسلّم مؤسسة "فابر وفابر للطباعة والنشر فى ٢٤ يوليو ١٩٥٦. عكس الأحداث التالية، فقد شرع دوريل فى تأليف " Balthazar Mountolive, and Clea والكاتب الأخرى والتى تؤلف كتابه " Alexandria Quartet رباعيات الإسكندرية".

فى ٢٦ يوليو، وفى الذكرى السنوية الرابعة لخلع الملك فاروق، ألقى الزعيم عبد الناصر خطابا من شرفة البورصة على ميدان احتشد فيه مليون إنسان فى ميدان محمد على. فى عام ١٩١٧ كان فورستر فى تلك الشرفة يراقب العصافير ويتذكر عندما كان مع محمد يتلفف لحظات من السعادة من آلاف غيره لن أسمع أسماءهم وأعرف أن الكثير من التاريخ لم يتم تسجيله.

تتدافع العصافير بزقزقتها على أوكارها فوق الأشجار فى كنيسة القديس مارك، بينما بدأ عبد الناصر خطابه فى الساعة الخامسة عصرا. كرر عبد الناصر اسم "ديليسبس" أكثر من عشر مرات فى الساعتين والنصف الأولى من خطابه؛ إذ كان الاسم شفرة خاصة بالجيش المصرى للتحرك باتجاه قناة السويس. وأعلن أن مصر تتمتع باستقلال سياسى، ولكن الاستقلال الاقتصادى مهم أيضا، وبالنسبة للمشاعر الملتهبة للمحتشدين فقد أدان الاستعمار واتهم القوى الغربية بالسعى للسيطرة على مصر والعالم العربى من خلال إسرائيل، ومن خلال المعاهدات العسكرية والتلاعب ببيع الأسلحة ومن خلال الضغط الاقتصادى. كما اتهم بشكل خاص بريطانيا والولايات المتحدة والبنك الدولى بالتآمر فى رفضهم لتمويل بناء السد العالى فى أسوان بعد شراء صفقة أسلحة من الاتحاد السوفيتى. وقد تساعل فى بلاغة شديدة من أين حصلت مصر على الأموال اللازمة لبناء السد، وكرر اسم فرديناند ديليسبس، ورد على هتاف مفعم بالنشوة والطرب صادر من الميدان فأعلن عن جلاء القوات المستعمرة من منطقة قناة السويس وتأميم شركة للقناة شركة مصرية.



كلود فتساندون فى قبرص عام ١٩٥٥ أو ١٩٥٦ ، ليس بزمن بعيد عن لقائها
مع دوريل . كتب إلى هنرى ميللر "فتاة جميلة من الإسكندرية كانت ترتجف بين
ذراعى وأعطتلى الحماس من أجل الانتهاء من كتابة الكتاب .

وقد سحبت بريطانيا قواتها من القناة وفقا للمعاهدة فى شهر يونيو ، تاركة
المنطقة فى أيدي أصحاب الامتياز شركة قناة السويس من البريطانيين والفرنسيين
والذين سوف يسلمونها للمصريين فى خلال اثنى عشر عاما هى المدة المتبقية فى
العقد . إلا أن عبد الناصر كان ضيق الصدر . واجه عبد الناصر معارضة شديدة من
بعض الأوساط المصرية وأحس أن مركزه فى خطر ، إذ أعلن تأميم القناة قبل
رفض الغرب تمويل السد : وأصبح المطلب الشعبى القديم للهجوم على القوات
الأجنبية عموما وعلى القوات البريطانية تحديدا بات يسير المنال .

ولكن بريطانيا كانت بحساباتها القديمة موضع التفكير؛ فنحو ربع تجارة بريطانيا تمر عبر القناة، كما أن ترتيب السفن البريطانية في استخدام القناة يأتي في المرتبة الثالثة، علاوة على ذلك فإن معظم إمدادات النفط البريطانية تأتي عبر السويس.. ويرى أنتوني أيدن وهو رئيس الوزراء في ذلك الوقت، أنه إذا بقي تأمين القناة بدون رد حاسم قد يقوض نفوذ ومكانة بريطانيا بين حلفائها العرب في المنطقة، يتذكر تهندة بريطانيا قبل الحرب مع ألمانيا بعد احتلال منطقة الراين، وبدأ أيدن يقارن عبد الناصر بهتلر ودعا إلى تحطيمه. أما فرنسا فكانت لها أسبابها التي تدعوها للتخلص من عبد الناصر، فهي تراه يهدد وجودها في الجزائر؛ إذ يقوم بإمداد الجزائريين بالسلاح لمواصلة النضال لنيل الاستقلال وهو أمر صعب لربع مليون جندي فرنسي. أما إسرائيل فقد كانت تخطط للهجوم على مصر إذا انسحب البريطانيون من إدارة القناة. في تلك اللحظة كان الجو قابلاً للانفجار فقد رأت إسرائيل فرصتها في أن تشعل الموقف من خلال تقديم مبرر للغزو البريطاني الفرنسي على مصر وهدفها هو تدويل القناة للإطاحة بحكم عبد الناصر وإمكان استبداله، لذا بدأ التفكير في بعض الدوائر، من خلال ائتلاف يتزعمه مصطفى النحاس.

في يوم ٢٩ أكتوبر وبالاتفاق المسبق مع حلفائها تقدمت القوات الإسرائيلية إلى سيناء. وتحت ذريعة منع التصادم بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية، قامت القوات البريطانية والفرنسية بعملية إنزال برى في قناة السويس في فجره نوفمبر، وانطلقت القاذفات البريطانية من قبرص ومالطا لقصف المطارات المصرية لحماية إسرائيل من الهجوم المضاد، بينما انطلقت المقاتلات الفرنسية بقيادة طيارين فرنسيين يرتدون الزي الإسرائيلي وطائرات عليها العلم الإسرائيلي بعملية إبعاد الطيران المصري من الأجواء.

كانت خطة الغزو الحقيقية هي الهجوم على الإسكندرية. فتقوم القوات البريطانية والفرنسية بعملية إنزال على السلسلة الجبلية في الغرب من خارج المدينة باتجاه برج العرب، ومن هناك يسيطرون على الميناء الغربى. وفى تلك الأثناء يقوم أسطول مؤلف من مئة سفينة بريطانية وثلاثين سفينة فرنسية بقصف الإسكندرية من البحر لإخلاء المئات من السفن الراسية بسبب تعرض البحرية للهجوم على شواطئ المدينة. وفى الأيام التالية تهبط المزيد من للقوات البحرية فى الميناء الغربى حتى مئة ألف جندي ويبدأون فى التوجه إلى القاهرة باتجاه قناة السويس.

ولكن قبل شهر من الغزو تغيرت الخطة تماما، القيام بالمعركة الرئيسية فى المدينة الكبيرة لن يكون مقبولا بالنسبة للرأى العام العالمى والهجوم سيتحول إلى مدينة بورسعيد على الساحل الشمالى النهائى للقناة، ورغم أن المطارات القريبة من الإسكندرية تم قصفها، وبينما انطلقت صفارات الإنذار للغارات الجوية وسمع دويها مع غروب الشمس، فإن جيج برينتون وأسرته كانا على ظهر سفينة بحرية أمريكية فى الميناء الغربى. فى خلال الثورة العربية عام ١٨٨٢ حينما قامت القوات البريطانية بقصف الإسكندرية، كانت هناك بارجة أمريكية تضطلع بدور تشجيع "البطل الغازي" وللحكم البريطانى "كانت البارجة تبحر حول الأسطول البريطانى وفيما بعد رست على الميناء لتساعد فى استعادة النظام فى المدينة. لكن حاليا ثمة تنافس أنجلو أمريكى فى الشرق الأوسط؛ حيث إن الأمريكين اعتقدوا أن استقلالهم عن المستعمرات السابقة يمكن أن يأتى ضمن اتفاق مع القوميين العرب، مما يعنى أن الأسطول السادس الأمريكى مشغول بإخلاء الرعايا الأمريكان والأجانب إلى جزيرة كريت.

قال جيج برينتون وهو على متن سفينة مغادرة ميناء الإسكندرية: "إنه منظر رائع، قصر الملك فاروق ونادى اليخت، ومنارة الإسكندرية والميناء الممتد

إلى الشمال من هنا، وإلى الجنوب والشرق منظر عام للمدينة بأحواض السفن ومستودعاتها ومساجدها والمنارات. وراح يتذكر السنوات التي أبحر فيها إلى الإسكندرية كغريب يواجه مستقبلا مجهولا: "والآن تمزقت الجذور ولم تعد الحياة كما كانت تتدفق في نفس القنوات".^(٢٣) .

تتقدم القوات البريطانية والفرنسية نحو الجنوب على طول القناة وفي غضون أربع وعشرين ساعة بعد احتلال السويس أمر أنتوني إيدن بوقف إطلاق النيران في منتصف ليل ٦ نوفمبر.

وقال رئيس الوزراء السابق وينستون تشرشل "لست متأكدا بأننى يجب أن أتوقف" ولكنى متأكد بأننى لا يجب أن أبدأ بالتوقف^(٢٤) وعوضا عن ذلك انقسمت البلد في الداخل وارتفع صوت الاتحاد السوفيتى، ولكن أقوى الضغوط جاء من الولايات المتحدة الأمريكية هي التي أضعفت إرادة بريطانيا.

سوء التقديرات للغزو البريطانى الفرنسى وما أعقبه من انسحاب مخز، وازدراء قوى أصبح انتصارا لعبد الناصر، الذى زادت شعبيته ومركزه في الداخل وفي العالم العربى. فى عام ١٩٥٧ طرد ما تبقى من المواطنين الفرنسيين والبريطانيين من مصر، وثلاث يهود مصر، ومعظمهم من جنسيات أجنبية، تم إبعادهم من مضايقات الشرطة والضغوط الاقتصادية، وباقى الجالية الأجنبية تضاعلت أعدادهم مثل أصحاب المصانع والمستورين الذين تم تمصيرهم. وفى جو من الخوف والغضب انهارت تماما كوزموبوليتان الإسكندرية^(٢٥).

لقد وضع الإسكندر الأكبر بنفسه خطة لتأسيس مدينة عظيمة تخلد اسمه على مدار الزمن. ولعدم وجود طباشير فى ذلك لتخطيط المدينة فقد لجأ إلى نثر حبوب الشعير لتوضيح مسار شوارعها وأماكن أسواقها ومعابدها وما يحيط بها من أسوار عالية وفجأة تظهر أسراب الطيور من مريوطية والنيل تنذر الإسكندر بأنها تلتهم

كل ما نثره من شعير. غير أن العراقيين شجعوه وفسروا له ما حدث بأنه علامة على أن المدينة ستكون موردا سخيا لسكانها وحاضنة لرجال من أم لا تحصي.

المدينة الكوزموبوليتان الجديدة رأت نفسها كانبعاث من ذلك الحلم. ولكن قوى أكبر كانت تعمل بينها وبين الأطراف التي مضت إليها، فقد كانت الإسكندرية أرضا لقشرة خارجية. قليل من الأجانب ومعظمهم من اليونانيين، يديرون مشاريع صغيرة، فنادق صغيرة البارات والمكتبات وغيرها من تلك التي أفلتت من إجراءات التأميم في عام ١٩٦١ والتي تم تطبيقها على المصريين أيضا. وكل الحديث عن الديمقراطية وحرية الرأي قمعته عبد الناصر، الذي أصبح حاكما مطلقا، استخدم مخابراته السرية لتصفية المعارضين. أعقبها حرب ١٩٦٧ الكارثية وبعد وفاة عبد الناصر في سنة ١٩٧٠ بدأت مصر تعود إلى الحرية السياسية والاقتصادية، رغم أنه يماثله صعود الإسلام المحافظ^(٣٦).

لم تعد المدينة اليوم مجاورة بل في قلب مصر ومتماثلة معها في الثقافة رغم أنها تتعرض أحيانا لما يزعجها من بقايا الماضي؛ ففي الآونة الأخيرة ظهر اعتراض شديد على وضع تمثال برونزي للإسكندر الأكبر، وهو هدية قدمتها بلدية حكومة اليونان؛ اعتراض البعض على أن يكون التمثال في هذا المكان البارز والقريب من بوابة الشمس القديمة، بينما اعترض آخرون على نصبه من الأساس معتبرا أن مؤسس الإسكندرية هو أجنبي ولا ينتمي إليها.

قام عالم آثار بفحص الطبقات المطمورة من أطلال المدينة. ولكن الإسكندرية، رغم تدهورها حاليا وفقرها الشديد ليست مدينة مدفونة، فأنت حينما تمشي بين شوارعها ترى شيئا لم يكن مألوفًا لسكانها على مدى الحياة. ولكن رغم تزايد السكان بشكل هائل - حوالى خمسة ملايين نسمة مقابل ثمانمائة ألف نسمة أو نحوها عند بداية الحرب العالمية الثانية وخمسمائة ألف نسمة في زمن فورستر-

فإن المدينة يملكها إحساس بالفراغ، أما بالنسبة لكل مواطنى مدينة الإسكندرية الكوزموبوليتان فإنهم رحلوا بعيدا عنها وتركوا سكانا جددًا بدون ذكريات يعيشون على أطلال حياة الآخرين. بالنسبة لأولئك الذين يرون المدينة، وكلمات الفيلسوف أفلوطين : "بالنسبة لأى رؤية يجب أن تألفها العين لما تراه".

ولكن ليس كل سكان مدينة الإسكندرية الكوزموبوليتان قد تركوها؛ كثير منهم احتفظ بجنسيته اليونانية أو ديانتته اليهودية أو البروتستانتية والكنيسة السريانية الكاثوليكية والمقابر اللاتينية القريبة من بوابة الشمس. هنا مقابر عائلة سالفاجوس وعائلة بيناشيس وعائلة ساويريس وعائلة ميناسى وهنا باكوس ولوريا وبادارو وزغيب، وهنا يرقد أيضا قسطنطين كفافيس، وعلى مقبرته شاهد بسيط منقوش عليها عبارة "شاعر".

وبين تلك المقابر توجد مقبرة لبطالمة قديمة جدا؛ إذ يعتقد بعض علماء الآثار أن القبر قد يكون القبر الذى يضم رفات الإسكندر الأكبر. فإن لم يكن هو ذلك القبر، فربما يكون فى مكان ما غير بعيد عن هنا. هنا رفات مؤسس المدينة التى تحمل اسم أول اسكندرانى.. وهنا أيضا يدفن آخر إسكندرانى.

المراجع

PROLOGUE

The Capital of Memory

- 1 Lawrence Durrell, *Justine* (1957), the first volume of *The Alexandria Quartet* (hereafter AQ), London 1962; all page numbers refer to the AQ paperback edition, London 1968, here 201.
- 2 *Justine*, AQ, 17.
- 3 Lawrence Durrell to Henry Miller, some time from late May to mid-July 1944, in *The Durrell-Miller Letters, 1935-80*, ed. Ian S. MacNiven, London 1988 (hereafter DML), 167.
- 4 *Justine*, AQ, 17.
- 5 LD to HM, c. January 1956, DML, 279.
- 6 Introduction to E. M. Forster, *Alexandria: A History and a Guide*, London 1982, xviii (hereafter AHG/1982). The first edition of Forster's *Alexandria* was published in Alexandria in 1922 and is extremely rare; the reader is more likely to obtain it in republished form. The 1922 edition was republished in New York in 1961 with a new introduction by Forster, and again in London in 1982 with Forster's 1961 introduction, a new introduction by Lawrence Durrell and an afterword and notes by Michael Haag. The afterword and notes of AHG/1982 were revised in a 1986 reprint published in London and New York. The second edition (hereafter AHG/1938) was published in Alexandria in 1938; it has never been republished.
- 7 Peter Adam, 'Alexandria Revisited', *Twentieth Century Literature* 33:3, fall 1987, 397. Cité du Livre at 2 Rue Fuad, next door to Baudrot, was owned by Nessim Mustacchi, a Greek Jew from Thessaloniki, whose son Georges Moustaki later wrote 'Milord' for Edith Piaf.
- 8 *Clea* (1960), fourth volume of AQ, 700.
- 9 Adam, 'Alexandria Revisited', 400.
- 10 *Ibid.*, 409.
- 11 *Ibid.*, 407.
- 12 *Ibid.*, 400.
- 13 *Justine*, AQ, 41f.
- 14 Jane Lagoudis Pinchin, *Alexandria Still*, Princeton 1977, 106. Pinchin quotes from Forster's papers at King's College, Cambridge, probably a draft for what became his essay 'The Complete Poems of C. P. Cavafy', in *Two Cheers for Democracy*, London 1951.
- 15 Pinchin, *Alexandria Still*, 109.
- 16 AHG/1982, xix.
- 17 Robert Liddell, *Cavafy: A Critical Biography*, London 1974, 181.
- 18 *Clea*, AQ, 702.
- 19 *Ibid.*, 846.
- 20 Plutarch, 'Mark Antony', in *Makers of Rome*, trans. Ian Scott-Kilvert, London 1965, 340.
- 21 Edmund Keeley, *Cavafy's Alexandria*, London 1976, 6.
- 22 Letter from Claude's brother Eric Vincendon to the author, 10 July 1995: 'Claude and Larry never met in Alexandria, only in Cyprus.'
- 23 LD to HM, c. January 1956, DML, 279.
- 24 Diana Menuhin (née Gould) to Alan Thomas, 10 February 1968. British Library.
- 25 *Clea*, AQ, 722.
- 26 *Mountolive* (1938), third volume of AQ, 393, where incidentally 'ᾠδόμενος' is misspelt 'ᾠδόμενος'.
- 27 LD to HM, 17 January 1967, DML, 416.
- 28 Adam, 'Alexandria Revisited', 401.
- 29 AHG/1982, xix.
- 30 Adam, 'Alexandria Revisited', 397.
- 31 BBC transcript *Spirit of Place*.
- 32 Lawrence Durrell, 'Notes for Alex', 9. British Library. This is a notebook begun in 1944.

possibly incorporating notes from 1943. The page numbers are those assigned by the British Library.

- 33 Adam, 'Alexandria Revisited', 397.
- 34 Ibid., 398.
- 35 Ibid., 399.
- 36 Ibid., 398f.
- 37 Ibid., 400.
- 38 LD to HM, 8 February 1944, *DML*, 159.
- 39 *AHG*/1982, xix.
- 40 LD to HM, 25 November 1977, *DML*, 490.
- 41 LD to Alan Thomas, [October 1977], postmark Alexandria. British Library. Durrell lived in the Villa Cleobolus on Rhodes after the war, a time he describes in his book *Reflections on a Marine Venus*, London 1953; see chapter 5, 'In the Garden of Villa Cleobolus'.
- 42 Balthazar (1958), second volume of *AQ*, 209.
- 43 *AHG*/1982, 33, translation by Robin Furness.
- 44 In Arabic the pronunciation of his name is closer to 'Urabi' or 'Orabi', which are alternative transliterations.
- 45 *AHG*/1982, 103.
- 46 *Justine*, *AQ*, 152. See T. S. Eliot, *Four Quartets*, 'Little Gidding', II.
- 47 *Justine*, *AQ*, 27.

CHAPTER 1

A Tram with a View

- 1 E. M. Forster, 'Letter to Mohammed el Adl' (1922-9). E. M. Forster archive, library of Kings College, Cambridge (hereafter KCC).
- 2 *AHG*/1982, xxi.
- 3 E. M. Forster, 'The Complete Poems of C. P. Cavafy', in *Two Cheers for Democracy*, London 1972, 237.
- 4 *AHG*/1982, xxi.
- 5 EMF to Florence Barger, 28 April 1916. KCC.
- 6 E. M. Forster, 'Syed Ross Masood', in *Two Cheers*, 285.
- 7 E. M. Forster, *The Hill of Devi*, London 1983, 3.
- 8 E. M. Forster, locked journal, 1 November 1911, in Nicola Beauman, *Morgan: A Biography of E. M. Forster*, London 1993, 247.
- 9 EMF to Forrest Reid, 13 March 1915, in P. N. Furbank, *E. M. Forster: A Life*, London 1979, vol. 2, 14.
- 10 Furbank, *E. M. Forster*, vol. 1, 259.

- 11 I. F. C. Fuller, *The Decisive Battles of the Western World*, ed. John Terraine, London 1970, vol. 2, 290.
- 12 EMF to Malcolm Darling, 6 November 1914, in *Selected Letters of E. M. Forster*, ed. Mary Lago and P. N. Furbank, London 1985, vol. 1, 213.
- 13 E. M. Forster, *Howards End*, London 1973, 60.
- 14 E. M. Forster, unpublished diary, 4 August 1914, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 1, 259.
- 15 EMF to FB, 10 August 1915, *Letters*, vol. 1, 229.
- 16 EMF to Syed Ross Masood, 29 July 1915, *Letters*, vol. 1, 224.
- 17 *Guide to Egypt and the Sudan*, seventh edition, London 1916, xv.
- 18 EMF to his mother, 21 November 1915, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 22.
- 19 *AHG*/1982, 110.
- 20 E. M. Forster, *A Room with a View*, Harmondsworth 1978, 36.
- 21 *Twentieth Century Impressions of Egypt*, ed. Arnold Wright, London 1909, 429.
- 22 Ibid., 423.
- 23 Ibid., 429.
- 24 Evaristo Breccia, *Alexandrea ad Aegyptum*, English-language edition, Bergamo 1922, 2.
- 25 Douglas Sladen, *Queer Things about Egypt*, London 1910, 153.
- 26 Ibid., 155.
- 27 Ibid., 154.
- 28 Breccia, *Alexandrea ad Aegyptum*, viiif.
- 29 Ibid., 59.
- 30 *AHG*/1982, 7.
- 31 Breccia, *Alexandrea ad Aegyptum*, viif.
- 32 Mabel Caillard, *A Lifetime in Egypt*, London 1935, 176.
- 33 Robert Furness to John Maynard Keynes, 25 April 1907, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 24.
- 34 Laurence Graffey-Smith, *Bright Levant*, London 1970, 70.
- 35 Ibid.
- 36 EMF to SRM, 29 December 1915, *Letters*, vol. 1, 232.
- 37 Edward W. Said, *The Question of Palestine*, London 1992, 20.
- 38 EMF to SRM, 29 December 1915, *Letters*, vol. 1, 232.
- 39 Foreigners were exempt from native law: civil cases were heard in the Mixed Courts, where foreign and Egyptian judges applied

- the Napoleonic Code, while criminal cases were heard by the consuls.
- 40 Karl Baedeker, *Egypt and the Sudan*, London 1914, 15, 19.
 - 41 *AHG*/1982, xxxi.
 - 42 EMF to Malcolm Darling, 6 August 1916, *Letters*, vol. 1, 238. By 1911 'Anglo-Indian' had already officially replaced 'Eurasian' to describe people of mixed descent, but here Forster means a British citizen of long residence in India.
 - 43 EMF to Edward Carpenter, 18 May 1916, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 30.
 - 44 EMF to Malcolm Darling, 6 August 1916, *Letters*, vol. 1, 238.
 - 45 Robert Trevelyan, poet, was brother of the historian G. M. Trevelyan and of the Liberal MP C. M. Trevelyan, who advocated 'peace through negotiation' throughout the war. Goldsworthy Lowes Dickinson was a lecturer in political science at King's College, Cambridge, and a proponent of pacifism and of a 'league of nations' (a term he may have invented). His sisters at his London home in Langham Place were in part the inspiration for the Schlegel sisters and their home in *Howards End*.
 - 46 EMF to SRM, 20 November 1913, in Beauman, *Morgan*, 284.
 - 47 Benjamin Disraeli, speech at Crystal Palace, 24 June 1871, in *The Selected Speeches of the Earl of Beaconsfield*, ed. T. E. Kebbel, London 1882, 330-4.
 - 48 Nicholas Mansergh, *Survey of British Commonwealth Affairs*, London 1952, vol. 3, 256.
 - 49 *Howards End*, 320.
 - 50 *The Hill of Devi*, 223.
 - 51 *Howards End*, 320.
 - 52 *Ibid.*, 266.
 - 53 *Ibid.*, 179.
 - 54 *Ibid.*, 337.
 - 55 *Ibid.*, 258.
 - 56 *A Room with a View*, 60.
 - 57 E. M. Forster, 'Gippo English', *Egyptian Mail*, 16 December 1917.
 - 58 EMF to Goldsworthy Lowes Dickinson, 28 July 1916, *Letters*, vol. 1, 236.
 - 59 EMF to GLD, c. September-October 1916, in Beauman, *Morgan*, 295.
 - 60 *Working Men's College Journal* 14, 14 March 1915, 61, 58.
 - 61 EMF to Leonard Woolf, 12 February 1916, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 25.
 - 62 Forster, 'Gippo English'.
 - 63 *AHG*/1982, 177.
 - 64 *Ibid.*, 178-80.
 - 65 Graftley-Smith, *Bright Levant*, 52.
 - 66 EMF to Virginia Woolf, 15 April 1916, *Letters*, vol. 1, 234.
 - 67 *Ibid.*
 - 68 *Ibid.*
 - 69 Liddell, *Cavafy*, 165.
 - 70 EMF to Pericles Anastasiades, 1949, in *The Complete Poems of Cavafy*, trans. Rae Dalven, New York 1961, 288.
 - 71 EMF to George Savidis, 25 July 1958, *Letters*, vol. 2, 271.
 - 72 Now the Palace of Culture at 1 Sharia Horreya opposite the entrance to Sharia Salah-Salem, the former Rue Chérif Pasha.
 - 73 EMF to his mother, 26 August 1916, in J. H. Stape, *An E. M. Forster Chronology*, London 1993.
 - 74 EMF to GLD, 10 January 1917, in Stape, *Chronology*.
 - 75 In Forster's time the trams bore coloured symbols to indicate their routes: stars, crescents, triangles, circles, trefoils, lozenges and labels.
 - 76 Forster, 'Letter to Mohammed el Adl'.
 - 77 EMF to Edward Carpenter, 12 April 1916, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 35.
 - 78 EMF to FB, 2 July 1916, *Letters*, vol. 1, 235.
 - 79 EMF to his mother, 10 July 1916, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 27.
 - 80 EMF to FB, 2 July 1916, *Letters*, vol. 1, 235.
 - 81 *AHG*/1938, iii.
 - 82 *AHG*/1982, 33f., translation by Robin Furness.
 - 83 *Ibid.*, 173.
 - 84 *AHG*/1938, iii.
 - 85 *AHG*/1982, 182.
 - 86 EMF to Laura Forster (aunt), 25 August 1916, *Letters*, vol. 1, 240.
 - 87 EMF to GLD, 28 July 1916, *Letters*, vol. 1, 236.
 - 88 EMF to FB, 16 October 1916, *Letters*, vol. 1, 243.
 - 89 EMF to FB, 10 August 1915, *Letters*, vol. 1, 229.
 - 90 EMF to Laura Forster, 1 January 1917, *Letters*, vol. 1, 248.
 - 91 *AHG*/1982, 181.
 - 92 E. M. Forster, 'The Lost Guide', lecture given at the Aldeburgh Festival of Music and Arts,

1956. KCC.
- 93 E. M. Forster, *The Longest Journey*, London 1989, lxvi.
- 94 *Ibid.*, 3.
- 95 Diary, 18 August 1904, in Forster's introduction to *The Longest Journey*, lxvi.
- 96 *The Longest Journey*, 136.
- 97 *Ibid.*, 136, 138.
- 98 *Ibid.*, 137.
- 99 *Howards End*, 183.
- 100 EMF to FB, 8 November 1916, *Letters*, vol. 1, 244.
- 101 EMF to Malcolm Darling, 1 December 1916, *Letters*, vol. 1, 246.
- 102 EMF to Laura Forster, 21 December 1916, in Stape, *Chronology*, 61.
- 103 EMF to Laura Forster, 1 January 1917, *Letters*, vol. 1, 248.
- 104 EMF to FB, 6 January 1918, *Letters*, vol. 1, 280.
- 105 *Ibid.*
- 106 EMF to FB, 17 June 1917, *Letters*, vol. 1, 258.
- 107 EMF to FB, 6 January 1918, *Letters*, vol. 1, 280. For the unpurgated text (as quoted here), see Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 37.
- 108 EMF to FB, 6 January 1918, *Letters*, vol. 1, 280.
- 109 *Ibid.*
- 110 'Letter to Mohammed el Adl'.
- 111 These pressures were reinforced by the law. Homosexual relations between consenting adults were decriminalised in England only in 1967, when Forster was eighty-eight.
- 112 EMF to FB, 29 May and 1 June 1917, *Letters*, vol. 1, 256.
- 113 EMF to Forrest Reid, 2 February 1913, *Letters*, vol. 1, 187.
- 114 'Letter to Mohammed el Adl'.
- 115 KCC.
- 116 AHG/1982, 170.
- 117 Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 38.
- 118 EMF to FB, 18 July 1917, *Letters*, vol. 1, 262.
- 119 EMF to FB, 4 July 1917, *Letters*, vol. 1, 260.
- 120 Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 38.
- 121 'Letter to Mohammed el Adl'.
- 122 'Letter to Mohammed el Adl'. The word 'muddle' – derived from 'mud', which had a special resonance for Forster in Egypt and also in *A Passage to India* – occurs frequently in his writings, public and private. In his published work it first appears in *A Room with a View* (47): old Mr Emerson, finding Lucy without a Baedeker in the Church of Santa Croce at Florence, undertakes to show her the Giotto's, then suddenly speaks to her of his son. 'He has known so few women, and you have the time. . . . You are inclined to get muddled. . . . Let yourself go. Pull out from the depths those thoughts that you do not understand, and spread them out in the sunlight and know the meaning of them.'
- 123 William Plomer, *At Home*, London 1958, 107.
- 124 EMF to GLD, 25 June 1917 (continuation of 5 May 1917), *Letters*, vol. 1, 253.
- 125 Constantine Cavafy, *C. P. Cavafy: Collected Poems*, trans. Edmund Keeley and Philip Sherrard, London 1978, 53.
- 126 *Ibid.*, 41.
- 127 Liddell, *Cavafy*, 93f.
- 128 *Cavafy: Collected Poems*, 117.
- 129 The Italian reads, 'Our Consulate, our new, rich, magnificent Consulate, strong as our Cadorna [then in command of the Italian army on the Austrian front], deep as our sea, lofty as our heaven that moves the other stars, and quite convenient for the Ramleh Tramways terminus.'
- 130 EMF to Robert Trevelyan, 6 August 1917, *Letters*, vol. 1, 266.
- 131 E. M. Forster, 'The Poetry of C. P. Cavafy', in *Pharos and Pharillon*, London 1923, 91f.
- 132 Forster, 'The Complete Poems of C. P. Cavafy', 233.
- 133 Liddell, *Cavafy*, 179.
- 134 'The Complete Poems of C. P. Cavafy', 233.
- 135 *Ibid.*
- 136 Quoted in Diskin Clay, 'The Silence of Hermitos: Greece in the Poetry of Cavafy', in *The Mind and Art of C. P. Cavafy*, Athens 1983, 178.
- 137 'The Complete Poems of C. P. Cavafy', 233.
- 138 *Ibid.*
- 139 AHG/1982, 104, translation by George Valassopoulos.
- 140 *Cavafy: Collected Poems*, 28, 75, 146, 58.
- 141 Forster, 'The Poetry of C. P. Cavafy', 95f., translation by George Valassopoulos.
- 142 Plutarch, 'Mark Antony', 344.
- 143 EMF to FB, 31 July 1917, *Letters*, vol. 1, 264.
- 144 EMF to FB, 13 September 1917, *Letters*, vol. 1, 270.
- 145 EMF to FB, 18 February 1918, *Letters*, vol. 1, 286.
- 146 EMF to FB, 18 July 1918, *Letters*, vol. 1, 262.
- 147 Mohammed el Adl to EMF, 31 August 1917,

- Letters, vol. 1, 262.
- 148 EMF to FB, 25 August 1917, *Letters*, vol. 1, 267.
- 149 Ibid.
- 150 EMF to FB, 13 September 1917, *Letters*, vol. 1, 270.
- 151 EMF to FB, 17 June 1917, *Letters*, vol. 1, 258.
- 152 Mohammed el Adl to EMF, 31 August 1917, *Letters*, vol. 1, 262.
- 153 Stape, *Chronology*, 174.
- 154 Lytton Strachey to EMF, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 40.
- 155 EMF to FB, 25 August 1917, *Letters*, vol. 1, 267.
- 156 EMF to FB, 9 August 1917, KCC.
- 157 EMF to SRM, 8 September 1917, *Letters*, vol. 1, 269.
- 158 Liddell, *Cavafy*, 208.
- 159 EMF to FB, 11 October 1917, *Letters*, vol. 1, 274.
- 160 EMF to FB, 13 September 1917, *Letters*, vol. 1, 270.
- 161 EMF to FB, 30 September 1917, *Letters*, vol. 1, 271.
- 162 EMF to FB, 31 July 1917, *Letters*, vol. 1, 264.
- 163 EMF to FB, 25 August 1917, *Letters*, vol. 1, 267.
- 164 EMF to FB, 13 September 1917, *Letters*, vol. 1, 270.
- 165 EMF to FB, 30 September 1917, *Letters*, vol. 1, 271.
- 166 EMF to FB, 25 August 1917, *Letters*, vol. 1, 267.
- 167 E. M. Forster, 'Our Diversions: *Diana's Dilemma*', *Egyptian Mail*, 26 August 1917.
- 168 EMF to FB, 8 October 1917, *Letters*, vol. 1, 273.
- 169 EMF to FB, 30 September 1917, *Letters*, vol. 1, 274.
- 170 Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 41.
- 171 EMF to FB, 11 October 1917, *Letters*, vol. 1, 274.
- 172 Mohammed el Adl to EMF, 10 November 1917, *Letters*, vol. 1, 275.
- 173 KCC. It is a first-class ticket but at the concessionary half fare – one of the perks that so pleased Forster. Tickets were valid for stages, this one from the Ramleh terminus in town to the suburb of Cleopatra or vice versa. Most likely it dates from July 1917 or later, when Forster, following Irene, began living at Camp de César.

- 174 EMF to FB, 11 October 1917, *Letters*, vol. 1, 274.

CHAPTER 2

Alexandria from the Inside

- 1 EMF to GLD, 5 December 1917, in Stape, *Chronology*, 63.
- 2 EMF to FB, 18 February 1918, *Letters*, vol. 1, 286.
- 3 E. M. Forster, 'A View without a Room', an appendix in *A Room with a View*, 232.
- 4 EMF to FB, 18 February 1918, *Letters*, vol. 1, 286.
- 5 Of the twenty-six newspaper articles Forster wrote while in Alexandria, twenty-two were written after he had clinched his affair with Mohammed.
- 6 E. M. Forster, 'Alexandria Vignettes: Cotton from the Inside', *Egyptian Mail*, 3 February 1918; republished as 'Cotton from the Inside', in *Pharos and Pharillon*, 74.
- 7 Breccia, *Alexandria ad Aegyptum*, 15.
- 8 E. M. Forster, 'XX Century Alexandria: The New Quay', *Egyptian Mail*, 2 December 1917. The Cosmograph was a cinema.
- 9 E. M. Forster, 'Alexandria Vignettes: Between the Sun and the Moon', *Egyptian Mail*, 31 March 1918; republished as 'Between the Sun and the Moon', in *Pharos and Pharillon*, 87. Forster was following the opinion of his day in placing the Gate of the Sun somewhere in the vicinity of the Municipal (today's Shallalat) Gardens. Indeed, the remains of both Arab and Ptolemaic fortification walls can be seen in the gardens, and the Arabs built their Rosetta Gate there, most likely on the site of an older Hellenistic gate. But traces of an outer line of ancient fortification walls have been found a mile or so farther to the east, and there is an argument that it was this outer gate that was called the Gate of the Sun.
- 10 E. M. Forster, 'Alexandria Vignettes: Handel in Egypt', *Egyptian Mail*, 6 January 1918.
- 11 'Between the Sun and the Moon'.
- 12 E. M. Forster, 'A Musician in Egypt', *Egyptian Mail*, 21 October 1917.
- 13 EMF to Norman Douglas, 10 November, 1917, *Letters*, vol. 1, 275.

- 14 'The Poetry of C. P. Cavafy', 97.
- 15 'The Complete Poems of C. P. Cavafy', 234.
- 16 EMF to Robert Trevelyan, 23 August 1918, *Letters*, vol. 1, 294.
- 17 Liddell, *Cavafy*, 180.
- 18 Gaston Zananiri in conversation with the author. See also Liddell, *Cavafy*, 180.
- 19 Liddell, *Cavafy*, 163.
- 20 'The Poetry of C. P. Cavafy', 94.
- 21 In 1883–90 Sir Colin Scott-Moncrieff, an irrigation engineer who had worked on the vast canal system in northern India, comprehensively reorganised the irrigation system of Egypt. He divided Egypt into five circles of irrigation, two in the Nile Valley, three in the Delta, and he rebuilt Mohammed Ali's 1830s Delta Barrage and extensively recanalised the Delta, with the result that crop production, particularly cotton, increased phenomenally during the 1890s. The headquarters of the Irrigation Department was in Cairo, with the offices of the Third Circle of Irrigation devolved to Alexandria, which was immediately responsible for the western Delta, including El Beheira province, that is the 'lake province' (for Beheirat Mariut, Lake Mariut) lying west of the Rosetta arm of the Nile. The level of Lake Mariut was (and still is) controlled by a sluice opening onto the Mediterranean at Mex on the western outskirts of Alexandria.
- 22 The building once containing the offices of the Third Circle of Irrigation is now the Metropole Hotel near the Ramleh tram terminus. At street level is the Grand Trianon restaurant, café and patisserie, established during or just after the First World War.
- 23 The title has recently been restyled 'of Alexandria and all Africa', both forms recalling the title of the Roman 'Prefect of Alexandria and all Egypt' and the remark of Dio of Prusa, when visiting the city in the AD 70s, that Egypt was merely an 'appendage' of Alexandria (*Orations*, 32.36).
- 24 St Saba's was rebuilt in 1975, but the new church partly incorporates the old.
- 25 Liddell, *Cavafy*, 129.
- 26 *Cavafy: Collected Poems*, 34.
- 27 The Rue Missalla is now Sharia Safiya Zaghloul. The Café Al Salam is long gone. The Billiards Palace, on the west side of the street and towards its northern end, closed only in the early 1980s and was demolished in 1995. A shopping mall has been built in its place.
- 28 *Cavafy: Collected Poems*, 68.
- 29 'The Poetry of C. P. Cavafy', 91, 92.
- 30 The allusion is to the opening line of Cavafy's 'Exiles' written in 1914: 'It goes on being Alexandria still.' See *Cavafy: Collected Poems*, 146.
- 31 *Cavafy: Collected Poems*, 145. The title of the poem in Greek is 'Επάνοδος από την Ελλάδα', where 'επάνοδος' means not so much 'return' as 'going home', giving emphasis to the paradox that Hermippos and his friend, though Greek, are returning home from Greece.
- 32 Liddell, *Cavafy*, 30f.
- 33 *Ibid.*, 99f.
- 34 The house in which Cavafy was born in the Rue Chérif Pasha was let to his family by the Zoghebs.
- 35 Liddell, *Cavafy*, 41.
- 36 *Ibid.*, 123.
- 37 *Ibid.*, 128.
- 38 To provide some flavour of the poems as Forster knew them, the translations of 'The God Abandons Antony' and 'Alexandrian Kings' in the previous chapter are by Valassopoulos.
- 39 George Valassopoulos to EMF, 2 February 1944. KCC.
- 40 Liddell, *Cavafy*, 168.
- 41 *Ibid.*, 191.
- 42 *Cavafy: Collected Poems*, 59. 'Understanding', 'Tomb of Lanis' and 'Body, Remember...' were previously thought to have been published in January 1918 (see, for example, *Cavafy: Collected Poems* and Keeley, *Cavafy's Alexandria*). This was based on misinformation provided by George Savidis. But the author has been fortunate in seeing a copy of the October 1917 issue of *Grammata*.
- 43 For that matter Forster never told Cavafy about Maurice, writing to him in 1929, 'I quite forgot to tell you that I have written a novel... which cannot be published, and which I should like you to have seen.' See EMF to Constantine Cavafy, September 1929, in Pinchin, *Alexandria Still*, 141.
- 44 Keeley, *Cavafy's Alexandria*, 19.
- 45 *Cavafy: Collected Poems*, 22.
- 46 *Ibid.*, 105.

- 47 Keeley, *Cavafy's Alexandria*, 18.
- 48 *Ibid.*, 17.
- 49 *Cavafy: Collected Poems*, 122.
- 50 *Ibid.*, 53.
- 51 'The Complete Poetry of C. P. Cavafy', 337.
- 52 EMF to Christopher Isherwood, 16 July 1933, *Letters*, vol. 2, 117.
- 53 E. M. Forster, 'T. S. Eliot', in *Abinger Harvest*, Harmondsworth 1967, 102.
- 54 *Letters*, vol. 1, xi.
- 55 AHG/1982, 35, 37.
- 56 EMF to Siegfried Sassoon, 2 May 1918, *Letters*, vol. 1, 289.
- 57 EMF to SS, 3 August 1918, *Letters*, vol. 1, 292.
- 58 Liddell, *Cavafy*, 186.
- 59 Alexander Kitroeff, *The Greeks in Egypt, 1919-1937: Ethnicity and Class*, Oxford 1989, 50.
- 60 EMF to Robert Trevelyan, 6 August 1917, *Letters*, vol. 1, 266.
- 61 E. M. Forster, 'Cnidus', in *Abinger Harvest*, 192.
- 62 EMF to FB, 31 July 1917, *Letters*, vol. 1, 264.

CHAPTER 3

If Love is Eternal

- 1 Private collection.
- 2 AHG/1982, 204f.
- 3 E. M. Forster, 'Alexandria Vignettes: The Solitary Place', *Egyptian Mail*, 10 March 1918; republished as 'The Solitary Place', in *Pharos and Pharillon*, 82.
- 4 Horace, *Odes*, I.37.
- 5 AHG/1982, 29.
- 6 *Ibid.*, 30.
- 7 F. E. Adcock, *Greek and Macedonian Kingship*, London 1953, 171.
- 8 AHG/1982, 16.
- 9 EMF to FB, 18 February 1918, *Letters*, vol. 1, 286.
- 10 Quoted by Forster in EMF to FB, 23 March 1918, *Letters*, vol. 1, 288.
- 11 EMF to FB, 23 March 1918, *Letters*, vol. 1, 288.
- 12 *Ibid.*
- 13 EMF to FB, 11 October 1917, *Letters*, vol. 1, 274.
- 14 EMF to FB, 18 February 1918, *Letters*, vol. 1, 286.
- 15 EMF to FB, 14 May 1918, in Furbank, E. M. Forster, vol. 2, 49.

- 16 AHG/1982, xxxii.
- 17 EMF to his mother, 30 March 1918, *Letters*, vol. 1, 306.
- 18 D. H. Lawrence to EMF, 11 April 1923, in Pinchin, *Alexandria Still*, 153.
- 19 EMF to Robert Trevelyan, 23 August 1918, *Letters*, vol. 1, 294.
- 20 EMF to his mother, 4 November 1918, in Stape, *Chronology*, 65.
- 21 AHG/1982, xv.
- 22 *Ibid.*, xxvi.
- 23 *Ibid.*, 28.
- 24 *Clea*, AQ, 832.
- 25 EMF to FB, 16 July 1918, *Letters*, vol. 1, 290.
- 26 *Ibid.*
- 27 EMF to SS, 3 August 1918, *Letters*, vol. 1, 292.
- 28 EMF to Bertrand Russell, 12 February 1918, in Bertrand Russell, *Autobiography*, London 1968, vol. 2, 82.
- 29 EMF to SS, 2 May 1918, *Letters*, vol. 1, 289.
- 30 EMF to SS, 3 August 1918, *Letters*, vol. 1, 292. For Timothy the Cat, see E. M. Forster, 'Timothy the Cat and Timothy Whitebonnet', in *Pharos and Pharillon*. Each in turn was a fifth-century patriarch of Alexandria but the two held opposing views on the nature of Christ in the quarrel between monophysites and diophysites. For Plotinus, see below.
- 31 AHG/1982, 142.
- 32 Sir David Waley, *Edwin Montagu*, London 1964, 145.
- 33 AHG/1982, xxv.
- 34 *Ibid.*, 64.
- 35 *Howards End*, 58f.
- 36 *Ibid.*, 337.
- 37 AHG/1982, 84.
- 38 *Ibid.*, 69.
- 39 Plotinus, in AHG/1982, 71f., translation by Stephen MacKenna.
- 40 AHG/1982, 204.
- 41 'Historia Monachorum', in *The Desert Fathers*, trans. Helen Waddell, London 1936, 79f.
- 42 Eusebius, *The History of the Church*, trans. G. A. Williamson, Harmondsworth 1965, 9-4, 338.
- 43 AHG/1982, 56.
- 44 *Ibid.*, 79.
- 45 *Ibid.*, 235.
- 46 *Ibid.*, 79.
- 47 E. M. Forster, 'St Athanasius', in *Pharos and Pharillon*, 48.

- 48 Arius, a priest at St Mark's, had argued that as Christ was the Son of God, so there must have been a time when Christ was not. This endangered the unity of the godhead – the Father, the Son and the Holy Ghost – and opened the way to regarding Christ's nature as being not of the same substance as God's and, indeed, of his being inferior to God. Therefore in 325 the Council of Nicaea anathematised 'those who say that there was a time when the Son of God was not, and that he was not before he was begotten, and that he was made from that which did not exist; or who assert that he is of other substance or essence than the Father, or is susceptible of change'. Today Arianism survives among Unitarians.
- 49 AHG/1982, 61.
- 50 Ibid., 84.
- 51 Ibid., 61. Forster is quoting from Butler's *Arab Conquest of Egypt*; see note 52 below.
- 52 Forster read of Amr's letter to the caliph in Butler's *The Arab Conquest of Egypt*, where the point is made that the figures would be more accurate if divided by ten, and that their exaggeration indicates amazement rather than indifference. See Alfred J. Butler, *The Arab Conquest of Egypt*, Oxford 1978, 368.
- 53 AHG/1982, 62.
- 54 Mohammed el Adl to EMF, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 50.
- 55 Mohammed el Adl to EMF, 2 October 1918, *Letters*, vol. 1, 298.
- 56 Forster, 'The Lost Guide'.
- 57 EMF to Jasper Y. Brinton, 5 February 1936. Private collection. Copyright, instead of remaining Forster's, was vested in Whitehead Morris. In exchange he would receive a royalty of 25 per cent of the cover price of the first thousand copies sold, yielding Forster LE62.50 (LE = *livre égyptienne*, or Egyptian pound, worth £1.05 sterling), some at least paid in advance of the sale of the books. On subsequent printings or revised editions he was to receive a royalty of 20 per cent, and this again was unusual as royalties normally start at about 10 per cent and increase with sales. The agreement would have made it hard for Whitehead Morris to show a profit on the first thousand copies and probably goes some way to explaining the subsequent curious history of Forster's *Alexandria*.
- 58 EMF to Laura Forster, 28 October 1918, in Stape, *Chronology*, 65.
- 59 EMF to Forrest Reid, 10 January 1919, *Letters*, vol. 1, 298.
- 60 Mohammed el Adl to EMF, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 51.
- 61 Ibid.
- 62 EMF to FB, November 1918, *Letters*, vol. 1, 296.
- 63 EMF to FB, January 1919, *Letters*, vol. 1, 299.
- 64 The title of khedive was replaced by that of sultan in 1914, when Egypt's nominal subjection to the Ottoman Empire was abrogated and Britain established its Protectorate. Fuad, the son of the deposed Khedive Ismail, came to the throne as sultan in 1917.
- 65 Lord Cromer's farewell speech of 1907, in Hanna Wissa, *Assiout: The Saga of an Egyptian Family*, Lewes 1994, 200.
- 66 Graftey-Smith, *Bright Levant*, 59.
- 67 *Manchester Guardian*, 29 March 1919, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 58.
- 68 Quoted by Malcolm Darling to EMF, 11 July 1919, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 61.
- 69 *Daily Herald*, 30 May 1919, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 59. Winston Churchill, then secretary of state at the War Office, was giving British support to the White Russians in their attempt to overthrow Lenin's Bolshevik government. One of the few to favour a lenient peace with Germany, his policy was to 'Feed Germany; fight Bolshevism; make Germany fight Bolshevism'. Previously, as first lord of the admiralty, he had urged the Dardenelles campaign. Forster saw him as a cynical dealer in death and forever detested him above all politicians.
- 70 EMF to SS, May or June 1919, *Letters*, vol. 1, 302.
- 71 EMF to SRM, 29 December 1915, *Letters*, vol. 1, 232.
- 72 AHG/1982, 134.
- 73 Ibid., 177.
- 74 Forster's remark does a great injustice to St Mark's, which was built in 1845–54 by James Wild, who had already built the richly eclectic Christ Church, Brixton Hill, London (1839–41). Of his church in Alexandria, Wild said that though it 'agrees in plan and mass

- with the style of art used by the early church architects, it carries out a general sentiment of Arabian detail' (Mark Crinson, 'Leading into Captivity: James Wild and His Work in Egypt', *Georgian Group Journal*, 1993, 62). Forster seems to have had little appreciation of Islamic or Eastern Christian architecture and decoration, his own taste running to the Renaissance, so that 'the finest building in the city' (AHG/1982, 111), he said, was the Banco di Roma in the Rue Chérif Pasha, a modified copy of Rome's Palazzo Farnese built by Michelangelo.
- 75 AHG/1982, 110.
 - 76 EMF to G. H. Ludolf, 16 July 1919, *Letters*, vol. 1, 304.
 - 77 EMF to GHL, 10 October 1919, *Letters*, vol. 1, 306.
 - 78 EMF to GHL, 16 July 1919, *Letters*, vol. 1, 304.
 - 79 Mohammed el Adl to EMF, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 62.
 - 80 Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 63.
 - 81 EMF to GHL, 10 October 1919, *Letters*, vol. 1, 306.
 - 82 *Ibid.*
 - 83 AHG/1982, 125f.
 - 84 Peter Fraser, *Ptolemaic Alexandria*, Oxford 1972, vol. 1, 730.
 - 85 AHG/1982, 32.
 - 86 *Ibid.*, 103f.
 - 87 J. C. B. Richmond, *Egypt 1798-1952: Her Advance towards a Modern Identity*, London 1977, 182f.
 - 88 EMF to FB, 6 November 1919, *Letters*, vol. 1, 312.
 - 89 EMF to FB, 10 November 1920, *Letters*, vol. 1, 317.
 - 90 Labour Research Department, *The Government of Egypt*, London 1920.
 - 91 Graffley-Smith, *Bright Levant*, 76.
 - 92 EMF to FB, 10 November 1920, *Letters*, vol. 1, 317.
 - 93 EMF to Cavafy, 15 March 1921, in Pinchin, *Alexandria Snail*, 107.
 - 94 EMF to FB, 20 May 1921, *Letters*, vol. 2, 6.
 - 95 'Letter to Mohammed el Adl.'
 - 96 EMF to FB, 17 March 1921, *Letters*, vol. 2, 2.
 - 97 EMF to SRM, 16 May 1920, in Beauman, *Morgan*, 311.
 - 98 Lily Forster (mother) to EMF, c. 3 March 1921, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 67.
 - 99 E. M. Forster, 'Kanaya', unpublished MS, in Beauman, *Morgan*, 315.
 - 100 EMF to GLD, 6 August 1921, *Letters*, vol. 2, 10.
 - 101 'Kanaya', in Beauman, *Morgan*, 315.
 - 102 E. M. Forster, 'Reflections in India, 1: Too Late!', *Nation and Athenaeum*, 21 January 1922.
 - 103 Mohammed el Adl to EMF, c. September 1921, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 85f.
 - 104 'Letter to Mohammed el Adl'. Also in Beauman, *Morgan*, 320.
 - 105 EMF to his mother, 22 January 1922 (continuation of 19 January 1922), *Letters*, vol. 2, 18.
 - 106 EMF to FB, 28 January 1922, *Letters*, vol. 2, 21.
 - 107 EMF to GLD, 28 January 1922, in Furbank, *E. M. Forster*, vol. 2, 103.
 - 108 AHG/1982, 136.
 - 109 *Ibid.*, 209f. The assumption that Forster visited Jennings Bramly's Burg el Arab in 1922 is based on the following. Jennings Bramly himself said that the idea for a carpet industry there came only in 1919 and that it was some months before the first women were at work, which would date the construction of the carpet factory to some time after Forster's departure from Egypt (Wilfred Jennings Bramly, 1871-1960: *Memorabilia*, Cairo 1970, 17; see also 27). From the description of Burg el Arab in Forster's *Alexandria*, Anthony de Cosson, who knew the settlement's history well, assumed that Forster had been there in 1920, not before; also prior to its removal to Burg el Arab there had been a small carpet industry at Amriya, run by Nina Baird until her death there in 1919 (see Anthony de Cosson, *Mareotis*, London 1935, 129 and 146).
 - 110 E. M. Forster, 'A Birth in the Desert', *Nation and Athenaeum*, 8 November 1924.
 - 111 'Letter to Mohammed el Adl.'
 - 112 EMF to FB, 25 February 1922, *Letters*, vol. 2, 23.
 - 113 AHG/1982, 103.
 - 114 *Ibid.*, xix.
 - 115 EMF to Hilton Young, 15 February 1940, *Letters*, vol. 2, 171.
 - 116 Virginia Woolf, *Diary*, London 1977, vol. 2, 171.
 - 117 Mohammed el Adl to EMF, March 1922, in

- Furbank, E. M. *Forster*, vol. 2, 107.
- 118 Furbank, E. M. *Forster*, vol. 2, 108. See also *A Passage to India*, London 1924, 356, where later Forster, describing Fielding's thoughts at the death of Mrs Moore, wrote, 'It struck him that people are not really dead until they are felt to be dead. As long as there is some misunderstanding about them, they possess a sort of immortality. An experience of his own confirmed this. Many years ago he had lost a great friend, a woman, who believed in the Christian heaven, and assured him that after the changes and chances of this mortal life they would meet in it again. Fielding was a black, frank atheist, but he respected every opinion his friend held: to do this is essential in friendship. And it seemed to him for a time that the dead awaited him, and when the illusion faded it left behind it an emptiness that was almost guilt: "This is really the end", he thought, "and I gave her the final blow."'
- 119 EMF to GLD, 8 May 1922, *Letters*, vol. 2, 25.
- 120 Mohammed el Adl to EMF, 6 May 1922, in Furbank, E. M. *Forster*, vol. 2, 108.
- 121 Mohammed el Adl to EMF, 8 May 1922, in Furbank, E. M. *Forster*, vol. 2, 108.
- 122 EMF to his mother, 29 May 1922, *Letters*, vol. 2, 27.
- 123 Furbank, E. M. *Forster*, vol. 2, 109.
- 124 EMF to GHL, 13 July 1922, *Letters*, vol. 2, 42.
- 125 'Letter to Mohammed el Adl'.
- 126 *Cavafy: Collected Poems*, 86.
- 127 Egypt inherited the Capitulations (from the Latin 'capitula', meaning the heads or chapters of agreement) from the Ottoman Empire, where the system was introduced in the sixteenth century to encourage trade with Europe by exempting resident foreigners from the rigours of Islamic law and from local taxes, making them subject instead to their own consular authorities. In nineteenth- and twentieth-century Egypt there were fourteen Capitulatory powers: Belgium, Britain, Denmark, France, Greece, Holland, Italy, Portugal, Spain, Sweden, the United States, Austria, Germany and Russia - the last three losing their rights after the First World War. The system was reformed in 1875 by the creation of the Mixed Courts, in which foreign and Egyptian judges, following the Napoleonic Code, presided over civil cases involving foreigners of different nationalities or foreigners and Egyptians. In 1937 the Mixed Courts also assumed jurisdiction in criminal cases.
- 128 *Tachidromos*, 24 May 1921, in Kitroeff, *The Greeks in Egypt*, 45f.
- 129 Michael Salvagos to Allenby, 28 May 1921, in Kitroeff, *The Greeks in Egypt*, 46.
- 130 Graffey-Smith, *Bright Levant*, 84.
- 131 EMF to Gerald Brennan, 27 March 1923, *Letters*, vol. 2, 36.
- 132 EMF to GHL, 27 January 1924, *Letters*, vol. 2, 46.
- 133 *The Times Literary Supplement*, 31 May 1923.
- 134 EMF to Cavafy, 5 July 1923, *Letters*, vol. 2, 40.
- 135 EMF to Christopher Plomer, 2 July 1945, *Letters*, vol. 2, 46.
- 136 'Letter to Mohammed el Adl'.
- 137 EMF to SS, 1 August 1923, *Letters*, vol. 2, 45.
- 138 EMF to Malcolm Darling, 10 May 1923, in Beauman, *Morgan*, 333f.
- 139 EMF to SS, 31 December 1923, in Furbank, E. M. *Forster*, vol. 2, 120.
- 140 *A Passage to India*, 324.
- 141 Virginia Woolf, *Diary*, 23 January 1924, vol. 2, 289.
- 142 EMF to Malcolm Darling, 15 September 1924, *Letters*, vol. 2, 63.
- 143 Stape, *Chronology*, 99, states that in mid-February 1928 Forster received £23 13s 10d for the destruction of 246 copies by fire. In 'The Lost Guide' Forster says that the first edition, printed in December 1922, amounted to a thousand copies. This appears to be corroborated by a letter from Whitehead Morris to Judge Jasper Brinton dated 29 February 1936, which refers to the first edition: 'Previously we used to get rid of these books at the rate of about 100 copies a year, and to re-print less than 1,000 copies would be obviously uneconomical.' Of the original thousand copies printed in December 1922, several hundred were probably sold in the first year, and if a hundred or so were sold in each following year that would account for the 246 remaining copies destroyed early in 1928.
- 144 'The Lost Guide'.
- 145 Furbank, E. M. *Forster*, vol. 2, 159.
- 146 EMF to Sebastian Spratt, 8 August 1929, *Letters*, vol. 2, 76.
- 147 EMF to FB, 26 December 1926, *Letters*, vol. 2, 74.

- 148 EMF interviewed by Rika Singopoulos in *Tachidromos*, 26 September 1929, in *Forster in Egypt*, ed. Hilda Spem and Abdel Moneim Aly, London 1987.
- 149 EMF to Joe Ackerley, 9 September 1929, in Furbank, E. M. *Forster*, vol. 2, 161.
- 150 EMF to Joe Ackerley, September 1929, in Furbank, E. M. *Forster*, vol. 2, 161.
- 151 Cavafy to EMF, 15 October 1929, in Pinchin, *Alexandria Still*, 140f.
- 152 'Letter to Mohammed el Adl'.
- 153 EMF to P. N. Furbank, 16 July 1958, *Letters*, vol. 2, 271.
- 154 EMF to William Plomer, 20 November 1963, *Letters*, vol. 2, 287. Presumably the exception was Bob Buckingham.
- 155 EMF to Leonard Woolf, 24 May 1936, *Letters*, vol. 2, 140.

CHAPTER 4

High Society: A History and a Guide

- 1 Typescript of an article written in 1972 by Nancy B. Turck for the *Philadelphia Bulletin*, based on an interview with Jasper Yeates Brinton; the article was presumably published in that same year. Private collection.
- 2 Jasper Yeates Brinton, 'East and Near East: Memoirs of a Philadelphia Lawyer', unpublished manuscript, XIV, 2. Private collection.
- 3 Whitehead Morris to JYB, 9 February 1936. Private collection.
- 4 Bob Buckingham to JYB, 13 March 1936. Private collection.
- 5 EMF to JYB, 24 March 1936. Private collection.
- 6 EMF to Leonard Woolf, 27 March 1936, *Letters*, vol. 2, 139.
- 7 E. M. Forster, 'The Menace to Freedom', in *Two Cheers*, 10f.
- 8 JYB to EMF, 28 April 1938. Private collection.
- 9 These and the following remarks are from J. M. Marshall's typed notes 'E. M. Forster: Alexandria, A History and a Guide', where Forster's comments are written in the margins. Private collection.
- 10 AHG/1982, 112.
- 11 EMF to JYB, 11 June 1936. Private collection.
- 12 AHG/1982, 61.
- 13 Marshall first refers to *The Arab Conquest of Egypt* by A. J. Butler, listed by Forster among his authorities in his *Alexandria*, and then quotes from Breccia's *Alexandria ad Aegyptum*, 29f., and from Forster's *Alexandria*, AHG/1982, 62.
- 14 AHG/1982, 32.
- 15 AHG/1938, 69, repeated from AHG/1982, 84.
- 16 AHG/1982, 84.
- 17 Ibid., 33.
- 18 Ibid., 103.
- 19 JYB, 'Memoirs', IX, 2.
- 20 Ibid.
- 21 JYB, 'Memoirs', II, 13.
- 22 Ibid., VI, 17.
- 23 Ibid.
- 24 Turck, typescript for *Philadelphia Bulletin* article.
- 25 Jasper Yeates Brinton, diary, 22 November 1926. Private collection.
- 26 John Brinton, 'Stanley Bay', unpublished memoir. Private collection.
- 27 JYB, 'Memoirs', XII, 16ff.
- 28 Ibid., XI, 22.
- 29 JYB to his mother, 11 February 1922. Private collection.
- 30 JYB, diary, 4 December 1926.
- 31 Graftey-Smith, *Bright Levant*, 80.
- 32 JYB, 'Memoirs', XIV, 24.
- 33 JYB, diary, 14 November 1926.
- 34 Ibid., 13 November 1926.
- 35 Ibid., 17 November 1926.
- 36 Jasper Yeates Brinton, untitled notebook containing notes for 'Memoirs', 42. Private collection.
- 37 JYB, diary, 30 October 1926.
- 38 Ibid., 11 January 1927.
- 39 Ibid., 18 October 1926.
- 40 Ibid., 22 November 1926.
- 41 The Royal Institute of International Affairs, Information Department Papers No. 19, *Great Britain and Egypt 1914-1936*, London 1936, 14.
- 42 Graftey-Smith, *Bright Levant*, 104.
- 43 JYB, 'Memoirs', XI, 21.
- 44 JYB, diary, 3 November 1926, 21 December 1926, 4 November 1926.
- 45 Ibid., 9 January 1927.
- 46 Ibid., 21 November 1926.
- 47 JYB, untitled notebook, 30.
- 48 Ibid.
- 49 JYB, diary, 18 November 1926.
- 50 Ibid., 30 January 1927.

- 51 Ibid., 18 November 1926.
- 52 Ibid.
- 53 JYB, diary, 29 November 1926.
- 54 Kitroeff, *The Greeks in Egypt*, 171.
- 55 Liddell, *Cavafy*, 184.
- 56 Ibid., 203.
- 57 Photograph. Marta Loria Fuller collection.
- 58 JYB, diary, 29 December 1926.
- 59 Ibid., 21 January 1927.
- 60 Grafftey-Smith, *Bright Levant*, 15.
- 61 LD to Alan Thomas, postmark 21 May 1957. British Library.
- 62 JYB, untitled notebook, 30.
- 63 JYB, 'Memoirs', XI, 8.
- 64 T. S. Eliot to Jean de Menasce, 11 November 1942. Private collection.
- 65 Obituary of Felix de Menasce, *Jewish Chronicle*, 3 September 1943.
- 66 Gudrun Krämer, *The Jews in Modern Egypt, 1914-1952*, Seattle 1989, 190.
- 67 Fernand Braudel, *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, London 1973, vol. 2, 819.
- 68 Virtually the whole of Egypt's railway system was financed by four Sephardi families, the Menasces, the Rolos, the Suareses and the Cattaouis, the first two associated with Alexandria, the third with both Alexandria and Cairo, the last mostly with Cairo. The one significant exception was the line between Alexandria and Cairo, which was paid for by the Khedive Abbas. The first railway line in the Middle East, it was constructed in 1851-4 (as was the Alexandria railway station, still standing in Forster's time) by Robert Stephenson, son of George Stephenson, the inventor of the Rocket, the world's first steam locomotive.
- 69 Krämer, *The Jews in Modern Egypt*, 79.
- 70 Jehuda Reinharz, *Chaim Weizmann: The Making of a Statesman*, Oxford 1993, 19.
- 71 Benjamin Disraeli's background was similar to that of many Alexandrian Jews: his grandfather, Benjamin D'Israeli, was born at Cento, near Ferrara, but instead of going to Egypt he left Italy for London in 1748, where he became a successful businessman and member of the Stock Exchange.
- 72 Reinharz, *Weizmann*, 19.
- 73 Ibid., 30.
- 74 Krämer, *The Jews in Modern Egypt*, 279.
- 75 Reinharz, *Weizmann*, 252.
- 76 Ibid.
- 77 Ibid., 257.
- 78 Ronald Storrs, *Orientations*, London 1945, 366.
- 79 Samir Raafat, *Maadi 1904-1962: Society and History in a Cairo Suburb*, Cairo 1994, 65.
- 80 In 1924-5 Jean de Menasce was employed by Chaim Weizmann at the Zionist Organization's Geneva bureau.
- 81 Jacques Mawas, son of Denise and grandson of Rosette de Menasce, in conversation with the author.
- 82 Chaim Weizmann, *The Letters and Papers of Chaim Weizmann*, ed. Barnet Litvinoff, Jerusalem 1977, vol. 12, series A, 240.
- 83 Weizmann, *Letters*, vol. 16, series A, 448. In addition to his political activities, Chaim Weizmann was a noted chemist and the driving force behind the founding in 1934 of what since 1949 has been called the Weizmann Institute of Science at Rehovot, fourteen miles south of Tel Aviv.
- 84 Letter from Eric Vincendon, brother of Claude Vincendon, to the author, 10 July 1995.
- 85 Claude (Vincendon), *Mrs O'*, London 1957. Claude wrote under her first name only.
- 86 London's Hotel Cecil, larger even than the Savoy, was built in the Strand in the 1890s on land that had recently been sold by Lord Salisbury, the prime minister, whose family name was Cecil.
- 87 LD in Paul Hogarth, *The Mediterranean Shore: Travels in Lawrence Durrell Country*, London 1988, 58.
- 88 *Mountolive*, AQ, 350.
- 89 *Justine*, AQ, 31f.
- 90 Gaston Zananiri, *Rythmes disperses*, Cairo 1932. These lines are translated from the French by Hala Halim in her article on Zananiri, 'In the Absence of Regret', in *Al Ahram Weekly* 265, 21-7 March 1996, ii.
- 91 Nagui's *School of Alexandria* now hangs in the main meeting hall of the Governorate of Alexandria on Sharia Mohafza at the corner of Sharia Abu el Dardaa.
- 92 Taha Hussein, the first Egyptian to be nominated for the Nobel Prize, was head of the faculty of arts at Fuad University in Cairo when Robin Furness was professor of English there.

- 93 The Atelier opened in 1935 in the Rue Missalla, on the site of the present-day Metro cinema in the renamed Sharia Safiya Zaghloul, but very soon moved to 2 Rue St Saba, on the east side of the street at the corner of the Rue Fuad, so that its façade along the Rue Fuad stood directly opposite Pastroudis. After the war it migrated east along the Rue Fuad to the corner of the Rue du Musée (the street of the Graeco-Roman Museum). Since 1956 it has occupied the 'Palais Karam', once the home of the Syro-Lebanese Karam family at the corner of the Rue des Pharaons and the Rue de Corinthe (the latter now called the Rue Victor Bassili) in the Quartier Grec.
- 94 John Brinton, 'Burg el Arab', unpublished memoir. Private collection.
- 95 Forster, 'A Birth in the Desert'.
- 96 JYB, 'Memoirs', XI, 33.
- 97 'A Birth in the Desert'.
- 98 AHG/1938, iv.
- 99 JYB, 'Memoirs', XI, 36.
- 100 Vivien Jennings Bramly to Geneva Brinton, undated except for 'Tuesday', but c. early 1937. This and Vivien Jennings Bramly's following letters are from a private collection.
- 101 Mountolive, AQ, 599.
- 102 Krämer, *The Jews in Modern Egypt*, 125.
- 103 Ibid., 231.
- 104 Lord Killearn (Miles Lampson), *The Killearn Diaries 1934-1946*, ed. Trevor E. Evans, London 1972, 6 May 1936.
- 105 Graffey-Smith, *Bright Levant*, 138.
- 106 JYB, 'Memoirs', XI, 17f.
- 107 VJB to Geneva Brinton, undated except for 'Wednesday', but c. early 1937.
- 108 AHG/1982, 115.
- 109 VJB to Geneva Brinton, undated except for 'Monday - no Tuesday!', but c. first half of 1937.
- 110 VJB to JYB, undated except for 'Monday', but c. first half of 1937.
- 111 VJB to Geneva Brinton, undated except for 'Wednesday', but c. first half of 1937.
- 112 VJB to John Brinton, 21 July 1937.
- 113 John Brinton, 'Stanley Bay'.
- 114 Josie Brinton to her mother, 27 February 1937. This and Josie Brinton's following letters are from a private collection.
- 115 Josie Brinton to her mother, 3 March 1937.
- 116 Josie Brinton to her mother, 8 March 1937.
- 117 Josie Brinton to her mother, 20 March 1937.
- 118 Josie Brinton to her mother, 8 March 1937.
- 119 Josie Brinton to her mother, 21 May 1937.
- 120 Josie Brinton to her mother, 12 April 1937.
- 121 JYB, 'Memoirs', XI, 5.
- 122 Josie Brinton to her mother, 3 March 1937. Finney's Marlborough tapestries are now in the Victoria and Albert Museum, London.
- 123 Count Patrice de Zogheb, *Alexandria Memories*, Alexandria 1949, 39.
- 124 Josie Brinton to her mother, 3 December 1937.
- 125 Daphne du Maurier, *The Rebecca Notebook and Other Memories*, London 1981, 12f.
- 126 Josie Brinton to her mother, 8 March 1937.
- 127 Josie Brinton to her grandmother, 10 April 1937.
- 128 Draft letter from John Brinton to EMF, c. 1961. Private collection.
- 129 William Walker of Whitehead Morris to JYB, 26 November 1936. Private collection.
- 130 EMF to JYB, 5 March 1937. Private collection.
- 131 Draft letter from JYB to William Walker, 8 April 1937. Private collection.
- 132 EMF to JYB, 23 April 1937. Private collection.
- 133 EMF to William Walker, 23 April 1937 (carbon). Private collection.
- 134 JYB to EMF, 28 April 1938. Private collection.
- 135 Evelyn Waugh, *Officers and Gentlemen*, Harmondsworth 1964, 126f.

CHAPTER 5

Mixed Doubles as Usual

- 1 Undated article clipped from the *Egyptian Gazette* and held in the Forster archives at KCC. It is probably from December 1938, when the second edition of *Alexandria* was published, but as no archive copies of the newspaper have been found for late 1938 or early 1939, it has not been possible to date the article precisely.
- 2 Rudolf Hess to his mother, 1951, in Peter Padfield, *Hess: Flight for the Führer*, London 1991, 3.
- 3 JYB, 'Memoirs', XIII, 3f.
- 4 Josie Brinton to her mother, 14 June 1940.
- 5 Josie Brinton, diary, 14 June 1940.
- 6 JYB, 'Memoirs', alternative version of chapter XIII (marked 'not for publication'), 4f.
- 7 JYB, diary, 20 June 1940.

- 8 Josie Brinton, diary, 16 June 1940.
- 9 Ibid., 14 February 1940.
- 10 Ibid., 16 June 1940.
- 11 Ibid., 21 August 1940.
- 12 *A Bank in Banladesh: Being the Story of Barclays Bank (Dominion, Colonial and Overseas) during the Second World War 1939-45*, no author, 'for private circulation', [London] 1948, 117.
- 13 Josie Brinton, diary, 8 June 1940.
- 14 JYB, diary, 18 June 1940.
- 15 Ibid., 30 June 1940.
- 16 In fact one battleship, four cruisers and three destroyers.
- 17 Clea, AQ, 677.
- 18 JYB, diary, 23 June 1940.
- 19 Ibid., 27 June 1940.
- 20 Martin Gilbert, *Churchill: A Life*, London 1991, 667.
- 21 Clea, AQ, 817.
- 22 Artemis Cooper, *Cairo in the War, 1939-1945*, London 1989, 53.
- 23 JYB, 'Memoirs', alternative XIII, 1.
- 24 Josie Brinton, diary, 13 July 1940.
- 25 Josie Brinton to her mother, 5 September 1940.
- 26 Josie Brinton, diary, 8 September 1940.
- 27 Ibid., 11 September 1940.
- 28 Gilbert, *Churchill*, 675-7.
- 29 JYB, diary, 13 September 1940.
- 30 Josie Brinton to her mother, 2 October 1940.
- 31 JYB, diary, 23 October 1940.
- 32 Eden was Churchill's secretary of state for war at this time; he soon after became foreign secretary again.
- 33 Gilbert, *Churchill*, 692.
- 34 Ibid., 646.
- 35 EMF to Christopher Isherwood, 16 July 1933, *Letters*, vol. 2, 117.
- 36 Josie Brinton, diary, 11 November 1940.
- 37 Ibid., 22 November 1940.
- 38 Ibid., 7 December 1940.
- 39 Jean Lugol, *Egypt and World War II*, Cairo 1945, 136f.
- 40 JYB, 'Memoirs', alternative XIII, 13.
- 41 Ibid., 6.
- 42 *Egyptian Gazette*, 11 June 1942.
- 43 The Karam 'palace' is now the home of the Atelier; the Rue de Corinthe has been renamed the Rue Victor Bassili.
- 44 Josie Brinton, diary, 20 November 1940.
- 45 JYB, 'Memoirs', alternative XIII, 7.
- 46 JYB, diary, 10 November 1940.
- 47 JYB, 'Memoirs', alternative XIII, 7.
- 48 Claude (Vincendon), *The Rum Go*, London 1958, 56.
- 49 Jacqueline Carol (Jacqueline Klat), *Cocktails and Camels*, New York 1960, 36.
- 50 Josie Brinton to her mother, 2 October 1940.
- 51 JYB, 'Memoirs', alternative XIII, 9.
- 52 Josie Brinton, diary, 14 December 1940.
- 53 Inscription by an unidentified serviceman in Geneva Brinton's 'War Chronicles', her Alexandria guest book cum diary, 27 January 1941. Private collection.
- 54 Rowland Langmaid, 'The Med': *The Royal Navy in the Mediterranean, 1939-45*, London 1948, 49. Churchill addressed the Commons on 9 April 1941.
- 55 *Schindler's Guide to Alexandria*, Cairo 1943, 91.
- 56 Robert Crisp, *The Gods Were Neutral*, London 1960, 17ff.
- 57 *Schindler's Guide*, 88.
- 58 *Justine*, AQ, 47.
- 59 *The Guinness Book of Records*, London 1997, describes Robert Crisp as 'the only cricketer to have taken four wickets with consecutive balls more than once'. For his part in Operation Crusader against Rommel in November-December 1941 Crisp was decorated with the Military Cross.
- 60 Crisp, *The Gods Were Neutral*, 15ff.
- 61 Langmaid, 'The Med', 51f.
- 62 Crisp, *The Gods Were Neutral*, 209.
- 63 Fuller, *Decisive Battles*, vol. 2, 457.
- 64 'List of Personalities in Egypt', from Sir Miles Lampson to Anthony Eden, 22 July 1941, 65, Foreign Office file 1941: 12624/18/16: FO 371 27432. Public Record Office.
- 65 JYB, 'Memoirs', alternative XIII, 25f.
- 66 Ibid., 24ff.
- 67 John Cromer Braun, 'Lawrence Durrell's Arrival at Alexandria', in *Return to Oasis*, ed. Victor Selwyn et al., London 1980, xxviiiif.
- 68 Lawrence Durrell, *Spirit of Place*, ed. Alan G. Thomas, London 1971, 28.
- 69 This and John Cromer Braun's following remarks are from a conversation with the author.
- 70 LD interviewed by Ahmed Loutfi in *Le Progrès égyptien*, 1 November 1977.
- 71 Gerald Durrell, *My Family and Other Animals*, Harmondsworth 1959, 74.

- 72 George Seferis to HM, 25 December 1941, *Labrys* 5, July 1979, 83.
- 73 Theodore Stephanides, memoir of meetings with LD at Corfu, Athens, Cairo and Alexandria. British Library.
- 74 Marc Alyn, *The Big Supposer: Lawrence Durrell, a Dialogue with Marc Alyn*, London 1973, 55.
- 75 Stephanides, memoir.
- 76 Ibid.
- 77 LD to HM, 13 March 1941, in *DML*, 147.
- 78 LD to HM, before 13 February 1941, in *DML*, 144.

CHAPTER 6

Personal Landscape

- 1 Open letter from LD to George Seferis, *La Semaine égyptienne*, 28 October 1941, quoted in a letter from Seferis to HM, 25 December 1941, *Labrys* 5, July 1979, 82.
- 2 Lawrence Durrell, *Prospero's Cell*, London 1962, 131.
- 3 Rommel to his wife, 30 June 1942, in Erwin Rommel, *The Rommel Papers*, ed. Basil Liddell Hart, London 1953, 241.
- 4 Gilbert, *Churchill*, 709.
- 5 Killearn, *Diaries*, 27 January 1942.
- 6 *A Bank in Battledress*, 120f.
- 7 Ibid., 118f.
- 8 Countess Mary de Zogheb, unpublished diary, 29 June 1942. Private collection. Wrens: members of the Women's Royal Navy Service.
- 9 Ibid., 30 June 1942.
- 10 Cecil Beaton, *Near East*, London 1943, 133.
- 11 Ibid., 127.
- 12 JYB, diary, 30 June 1942.
- 13 JYB, 'Memoirs', alternative XIII, 35.
- 14 Jasper Yeates Brinton, 'Some Recent Discoveries at el-Alamein', *Bulletin de la Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie* 35, 1942.
- 15 JYB, diary, 30 June 1942.
- 16 Lawrence Durrell, *Blue Thirst*, Santa Barbara 1975, 50.
- 17 Rommel to his wife, 4 and 5 July 1942, in *The Rommel Papers*, 249f.
- 18 Mary de Zogheb, diary, 5 July 1942.
- 19 *Justine*, AQ, 87.
- 20 Letter from Mary Bentley Honor to the author, 16 October 2003.
- 21 Graffey-Smith, *Bright Levant*, 228.
- 22 LD to Anne Ridler, 1942, in *Spirit of Place*, 75.
- 23 Lawrence Durrell, *Collected Poems, 1931-1974*, London 1985, 103.
- 24 Basil Liddell Hart, *History of the Second World War*, London 1970, 390.
- 25 Gilbert, *Churchill*, 726.
- 26 The minister of state for the Middle East, based in Cairo, was appointed by the war cabinet in London, his function to regulate the often conflicting priorities of the various British ambassadors and military commanders in the region.
- 27 The above account has been assembled from the *Egyptian Gazette*, 28 August 1942, Geneva Brinton's 'War Chronicles' and JYB's 'Memoirs', alternative XIII, 33f.
- 28 Rommel to his wife, 30 August 1942, in *The Rommel Papers*, 275.
- 29 AHG/1982, xix.
- 30 *Mountolive*, AQ, 482.
- 31 *Balthazar*, AQ, 314.
- 32 AHG/1982, xvi.
- 33 Ibid., xix.
- 34 Penelope Durrell Hope recalling her mother's memories in *Lawrence Durrell, a BBC2 Bookmark programme*, 15 August 1998.
- 35 *Collected Poems*, 25.
- 36 Lawrence Durrell, untitled 'Bloomsbury' notebook dated 1938. British Library.
- 37 Margaret Bourke-White, *Interview with India*, London 1950, 81.
- 38 Lawrence Durrell, *Pied Piper of Lovers*, London 1935, 230.
- 39 *The Big Supposer*, 24.
- 40 A 'letter' sent in booklet form from LD to Alan Thomas, 31 January 1957, 'Alan Thomas, Hys Booke from Larry Durrell 1957'. British Library.
- 41 Ibid.
- 42 'Cities, Plains and People', in *Collected Poems*, 158.
- 43 *The Big Supposer*, 25.
- 44 *Spirit of Place*, 15.
- 45 'Alan Thomas, Hys Booke from Larry Durrell'.
- 46 *The Big Supposer*, 25f.
- 47 Observation made by Eve Durrell to the author; see also Douglas Botting, *Gerald Durrell: The Authorised Biography*, London 1999, 6.

- 48 LD quoted in Botting, *Gerald Durrell*, 73.
- 49 *Blue Thirst*, 22.
- 50 *Ibid.*, 34.
- 51 *Ibid.*
- 52 LD to Anne Ridler, late October 1939, in *Spirit of Place*, 61.
- 53 The exception is Durrell's first and highly autobiographical novel, *Pied Piper of Lovers*, published in 1935 and written before he had gone to Corfu, in which Indians are reduced to caricatures while India itself serves largely as the landscape of childhood's idyll. Durrell felt it had no literary merit and never allowed its republication; instead he regarded *The Black Book* as his true beginning as a novelist.
- 54 *The Big Supposer*, 125.
- 55 Gwyn Williams, *ABC of (D)GW*, Llandysul 1981, 86.
- 56 *AHG/1982*, xix.
- 57 *Ibid.*, xviii.
- 58 Stephanides, memoir.
- 59 Letter from LD to the author, 17 February 1982.
- 60 Quoted in an article from an unidentified French magazine sent by LD to the author, 17 February 1982, with the remark 'The vulgar press has started to stir up the Alexandrian puddle with romantic articles — three this month of which I enclose the latest. Actually the most accurate.'
- 61 Killlearn, *Diaries*, 24 October 1942.
- 62 W. E. Beryon-Tinker, *Dust upon the Sea*, London 1947, 202.
- 63 *Clea*, AQ, 732.
- 64 Williams, *ABC*, 62.
- 65 *Clea*, AQ, 732.
- 66 Rommel to his wife, 3 November 1942, in *The Rommel Papers*, 320.
- 67 *Egyptian Gazette*, 5 November 1942.
- 68 *The Rommel Papers*, 302.
- 69 Gilbert, Churchill, 734.
- 70 *The Big Supposer*, 60.
- 71 HM to LD, 1 September 1935, *DML*, 3.
- 72 *Blue Thirst*, 16f.
- 73 Lawrence Durrell, *The Black Book*, London 1977, 21.
- 74 HM to LD, 8 March 1937, *DML*, 56.
- 75 HM to LD, 13 March 1937, *DML*, 58.
- 76 HM to LD, 15 September 1942, *DML*, 153.
- 77 George Seferis, who wrote under the name George Seferis, was awarded the Nobel Prize for Literature in 1963.
- 78 George Seferis, *On the Greek Style*, London 1967, 126.
- 79 Liddell, *Cavafy*, 204.
- 80 LD in conversation with the author.
- 81 Philip Sherrard, *The Marble Threshing Floor: Studies in Modern Greek Poetry*, London 1956, 73.
- 82 *Ibid.*
- 83 *Ibid.*, 40.
- 84 *The Black Book*, 9.
- 85 LD to HM, late March 1937, *DML*, 63.
- 86 LD to HM, 21 July 1937, *DML*, 80. The Book of Miracles, later called the Book of Time, would eventually emerge between 1974 and 1985 as *The Avignon Quintet*.
- 87 HM to LD, 21 November 1942, *DML*, 156.
- 88 *AHG/1982*, xvii.
- 89 Williams, *ABC*, 86.
- 90 *Ibid.*, 83.
- 91 *Ibid.*, 87.
- 92 *Ibid.*, 31.
- 93 *AHG/1982*, xvii.
- 94 Graffey-Smith, *Bright Levant*, 134.
- 95 Thus Robert Liddell in *Cavafy*, 180, records the visit of 'an important English Sir' (unidentified); in a letter to the author dated 10 February 1987 Liddell wrote, 'I have since been told (I forget by whom) that this was my old friend Sir Walter Smart. This is most likely.'
- 96 Liddell, *Cavafy*, 210.
- 97 Seferis, *On the Greek Style*, 127.
- 98 *Ibid.*, 130.
- 99 Liddell, *Cavafy*, 118.
- 100 *Ibid.*, 211.
- 101 *Ibid.*, 205.
- 102 Robert Liddell, 'Cavafy', essay first published in *Personal Landscape* magazine, reprinted in *Personal Landscape: An Anthology of Exile*, ed. Robin Fedden et al., London 1945, 106. *Balthazar*, AQ, 338.
- 103 *AHG/1982*, xvif. Durrell wrote 'Petrides' but meant 'Perides'. Paul Petrides was a doctor and indeed another friend of Cavafy's but not one who wrote a book about him. This is clearly an error for 'Michael Perides', whose book on Cavafy was published in Athens in 1948.
- 104 Letter from Bernard de Zogheb to the author, 1 March 1999: 'Robert Liddell told me that Durrell at one point lived at

Anfouchy – on the sea front – but when? and for how long? – God only knows.
Liddell and Zogheb were very close friends; Liddell dedicated his *Cavafy: A Critical Biography* 'à Bernard de Zogheb et aux autres amis alexandrins'.

- 105 *Justine*, AQ, 41ff.
- 106 *Mountolive*, AQ, 623ff.
- 107 *Balthazar*, AQ, 226.
- 108 LD in *Bimbashi McPherson: A Life in Egypt*, ed. Barry Carman and John McPherson, London 1983, 7.
- 109 *Justine*, AQ, 104.
- 110 *Ibid.*, 105.
- 111 Ian MacNiven, *Lawrence Durrell: A Biography*, London 1998, 269.
- 112 *Collected Poems*, 154.
- 113 *Egyptian Gazette*, 8 April 1943.
- 114 *Justine*, AQ, 84f.
- 115 Open letter from LD to George Seferis, *La Semaine égyptienne*, 28 October 1941, quoted in a letter from Seferis to HM, 25 December 1941, *Labrys* 5, July 1979, 82.
- 116 George Seferis, 'The Greek Poems of Lawrence Durrell', *Labrys* 5, July 1979, 85.
- 117 George Seferis to HM, 25 December 1941, *Labrys* 5, July 1979, 82.
- 118 Seferis, 'The Greek Poems of Lawrence Durrell', 88.
- 119 *Collected Poems*, 99.
- 120 Seferis, 'The Greek Poems of Lawrence Durrell', 88.
- 121 Neither Anfushi nor 40 Rue Fuad are mentioned by Durrell's biographer, Ian MacNiven, who instead has him living at 11 bis (now 14) Rue des Pharaons in the Quartier Grec, a building then and now of expensive and enormous apartments, eight rooms or more. But MacNiven is uncertain from whom he obtained his information, while the evidence for 40 Rue Fuad is incontrovertible: Eve Durrell took the author to the place, and Paul Gotch, who together with his wife lived there with Durrell and Eve, has a captioned photograph of the building. Neither Gotch nor Eve knows anything about Durrell living in the Rue des Pharaons, nor for that matter about him living in Anfushi, which would have been before they knew him in Alexandria. The sole source for Anfushi is Liddell, who told Bernard de Zogheb; both are now dead.

CHAPTER 7

Mirrors

- 1 *Justine*, AQ, 82.
- 2 Baudrot stood at 2 Rue Fuad on the corner of the Rue Chérif Pasha, directly opposite the Mohammed Ali Club; it has since been converted to an office, and renumbered and renamed 1 Sharia Horreya.
- 3 The entrance to the Atelier was at 2 Rue St Saba, but the building (since replaced by another) flanked the Rue Fuad.
- 4 *Schindler's Guide*, 17.
- 5 Rosie Israel, 'Histoire de la famille de Maman', unpublished genealogy of the Cohen-Arazi and Palacci-Miram families, 1996. Private collection. Rosie Israel, née Cohen, is the daughter of Nessim Cohen-Arazi and Ventura Palacci-Miram, and is a cousin of Eve Durrell.
- 6 *Ibid.*
- 7 *Justine*, AQ, 57.
- 8 Lawrence Durrell, 'Notes for Alex', 9. British Library. A notebook begun in 1944, possibly incorporating notes from 1943. British Library pagination.
- 9 *Ibid.*, 6.
- 10 Melanie's niece, Naomi 'Moughee' Athanassian, in conversation with the author and Eve Durrell.
- 11 Archives of the Greek Community of Alexandria, biographies file, quoted in Kitroeff, *The Greeks in Egypt*, 153.
- 12 *Justine*, AQ, 186.
- 13 *Ibid.*, 188.
- 14 *Ibid.*, 54f.
- 15 JYB, 'Memoirs', XI, 14ff.
- 16 Alice Brinton, daughter of John and Josie Brinton, in conversation with the author.
- 17 Cooper, *Cairo in the War*, 243.
- 18 Killearn, *Diaries*, 4 February 1942.
- 19 Draft of telegram sent on 24 October 1941 from the war cabinet, London, to Sir Miles Lampson, Cairo, signed 'AE' (i.e. Anthony Eden), Foreign Office files. Public Record Office.
- 20 Sir Miles Lampson to Lancelot Oliphant, deputy under-secretary of state, Foreign Office, 6 January 1939, in Janice J. Terry, *The Wife: 1919–1952*, London 1982, 242.
- 21 Unpublished diary entry, 30 May 1940, in Cooper, *Cairo in the War*, 296.

- 22 Richmond, *Egypt 1798-1952*, 218.
- 23 The Gotches moved from Tanta to Alexandria on 28 June 1943 according to the caption accompanying a photograph of 40 Rue Fuad in Paul Gotch's photograph album of that time.
- 24 Lawrence Durrell, 'Imbecility File - This Egypt', scrapbook. British Library.
- 25 T. S. Eliot, *The Waste Land*, London 1922, lines 43 and 46; lines 372-7.
- 26 *Justine*, AQ, 126.
- 27 *Clea*, AQ, 700.
- 28 *Ibid.*, 702.
- 29 LD to HM, probably mid-July 1944, *DML*, 167. The letter is undated and in *DML* is dated by the editor as mid-May, continued late May 1944, but this second half of the letter may well date from as late as 11-25 July.
- 30 *Ibid.*
- 31 *Collected Poems*, 115.
- 32 *Justine*, AQ, 197.
- 33 Sir John Pentland Mahaffy (1839-1919) of Trinity College, Dublin, was author of *The Empire of the Ptolemies*, 1895. This was among the works Cavafy kept in his personal library.
- 34 *Justine*, AQ, 79.
- 35 *Ibid.*, 80.
- 36 *Ibid.*, 18.
- 37 Krämer, *The Jews in Modern Egypt*, 146.
- 38 B. L. Carter, *The Copts in Egyptian Politics 1918-1952*, Cairo 1988, 109.
- 39 Michael M. Laskier, *The Jews of Egypt, 1920-1970*, New York 1992, 48.
- 40 George Antonius to Walter Rogers, 24 August 1938. Archives of the Institute for Current World Affairs, Hanover, New Hampshire. Quoted in an unpublished paper by Professor William Cleveland of Simon Fraser University, British Columbia, 'George Antonius and the Making of *The Arab Awakening*', 26.
- 41 *Mountolive*, AQ, 553.
- 42 Sir Miles Lampson was made a baron in the New Year's Honours List of 1 January 1943, largely in reward for his Abdin Palace coup, and took the title Lord Killearn of Killearn after his birthplace in Scotland.
- 43 Killearn, *Diaries*, 26 January 1943.
- 44 Churchill's address to the Joint Session of Congress in Washington, 19 May 1943, in Langmaid, 'The Med', 79.
- 45 Langmaid, 'The Med', 101.
- 46 Williams, *ABC*, 31. Williams is wrong about George de Menasce's 'Wednesday afternoons', which were actually on Sundays and Tuesdays. See following chapter.
- 47 Gwyn Williams, 'Durrell in Egypt', *Twentieth Century Literature* 33:3, fall 1987, 301. Williams is referring to Gaston Zananiri, Clea Badaro, George de Menasce, Count Patrice de Zogheb and Michael Perides, who have already been identified in these pages. Carlo ('Joe') Soares appears later. Of the others less is known. Clement Barber, manager of the British Government Cotton Buying Commission, and his wife Margot promoted madrigal singing. Naguib (better known as Costa) Baladi was a philosopher; for him and his French wife jazz was a religion. Marcel Salinas was artistically linked with Paris; his wife Wanda later became a novelist. Jacques Fumaroli, a Corsican, was a director of financial and textile companies. Papassinassiou, if Emmanuel, was a *commerçant*. Sachs, if Freddy, was a *rentier*; if David, a banker; David died during the war and was married to Linda, a beautiful and cultured woman. Ivan Oumoff was the White Russian consul and was known as a dreamer with the heart of a child; he married an ugly but very rich Syro-Lebanese and raised a musical family. Barukh is known only to have been an *homme d'affaires*. Of Kerekreti nothing is known; he may be Bereketi who moved in Greek circles and whose daughter married first Cyril Sursock and then Prince Sadruddin Aga Khan.

CHAPTER 8

Prospero's Tower

- 1 LD to Diana Gould in Naples, postmark 27 April 1944. British Library.
- 2 Noël Coward, *Middle East Diary*, London 1944, 57.
- 3 *Blue Thirst*, 41.
- 4 Killearn, *Diaries*, 18 August 1943.
- 5 John Simpson, 'Noel Coward Was a Spy. Too', *Spectator*, 17-24 December 1994.
- 6 Coward, *Middle East Diary*, 92f.
- 7 *Ibid.*, 91f.

- 8 By the summer of 1943 the British and American governments were well aware of the Nazis' 'final solution' but believed that their best course was to win the war as quickly as possible and meanwhile not to arouse public criticism for failing to take specific and probably impracticable action against the genocide. The suppression of information ceased only in 1944.
- 9 In Paul Gotch's photograph album of the time, the caption reads: 'Move from 40 Fouad-el-Awal [Fuad the First] to 17 Maamoun - Moharrem Bey October 1st 1943.'
- 10 LD to HM, c. 25 December 1943, *DML*, 159.
- 11 LD to HM, 23 May 1944, *DML*, 171.
- 12 *Balthazar*, AQ, 234 and 365.
- 13 *Ibid.*, 365.
- 14 *Ibid.*, 234f.
- 15 JYB, diary, 30 October 1926.
- 16 MacNiven, *Lawrence Durrell*, 283.
- 17 *Justine*, AQ, 107.
- 18 Much of the biographical information on Clea Badaro is taken from the book by her sister, Jeanne Engalytcheff-Badaro, *Clea Badaro, 1913-1968: Sa vie, son oeuvre*, Alexandria 1978.
- 19 *Justine*, AQ, 197.
- 20 *Balthazar*, AQ, 371.
- 21 *Justine*, AQ, 199.
- 22 'Notes for Alex', 37.
- 23 LD to HM, mid-January 1937, *DML*, 42.
- 24 *Justine*, AQ, 108.
- 25 Charles Gibson Cowan, *The Voyage of the Evelyn Hope*, London 1946, 83.
- 26 Artemis Cooper, *Writing at the Kitchen Table: The Authorised Biography of Elizabeth David*, London 1999, 87.
- 27 LD in conversation with the author.
- 28 Henry Romilly (Robin) Fedden, 'A Study of the Monastery of St Anthony in the Eastern Desert', *University of Egypt, Faculty of Arts Bulletin* 5, 1937.
- 29 Henry Romilly (Robin) Fedden, *Suicide: A Social and Historical Study*, London 1938.
- 30 Robin Fedden, *Personal Landscape* (an account of the genesis of the wartime magazine *Personal Landscape*), London 1966, 5.
- 31 Fedden, *Personal Landscape*, 7.
- 32 Josie Brinton, diary, 8 February 1942.
- 33 Robin Fedden, 'Personal Landscape', *Personal Landscape* 1, January 1942, 8.
- 34 Lisa Chaney, *Elizabeth David: A Biography*, London 1998, 163.
- 35 Chaney, *Elizabeth David*, 165.
- 36 Cooper, *Writing at the Kitchen Table*, 89.
- 37 Caroline Lassalle, widow of George Lassalle, in conversation with the author.
- 38 Cooper, *Writing at the Kitchen Table*, 106f.
- 39 LD in conversation with the author.
- 40 Eve Durrell interviewed by Paul Gotch, 22 August 1996, corroborated by Eve Durrell's conversations with the author.
- 41 Chaney, *Elizabeth David*, 171.
- 42 Reported to the author by Lisa Chaney, who was told by George Lassalle's ex-wife Judith.
- 43 *Justine*, AQ, 69.
- 44 Eve Durrell interviewed by Paul Gotch, 10 May 1992.
- 45 Hugh Shire, 'George de Menasce OBE, 1890-1967', in *The George de Menasce Collection*, part 1, Spink, London 1971, 5.
- 46 Laskier, *The Jews of Egypt*, 104.
- 47 Cooper, *Cairo in the War*, 33 and 191, mistakenly reports that George de Menasce played the piano behind a screen owing to a phobia about showing his hands; in fact that was Count Patrice de Zogheb.
- 48 *Justine*, AQ, 148f.
- 49 *Mountolive*, AQ, 395.
- 50 LD to Tambimuttu, in Victor Selwyn, 'Preface', *Return to Oasis*, xx.
- 51 Gwyn Williams, 'To Robin Furness', in Gwyn Williams, *Flying in Egypt: The Story of a Verse War, 1943-45*, Port Talbot 1991, 15.
- 52 Bernard Spencer, 'From Cairo', in Williams, *Flying*, 14.
- 53 Lawrence Durrell, 'Against Cairo: An Ode', in Williams, *Flying*, 19.
- 54 Gwyn Williams, 'Lines Written upon Contemplation of the Mystery of the Sex Life of Mr Terence Rogers Tiller', in Williams, *Flying*, 20.
- 55 Robin Furness, 'Upon Tease: Epig.', in Williams, *Flying*, 21.
- 56 Lawrence Durrell, 'Premature Epitaphs and All', unpublished typescript, six bound copies produced for friends, 1944. British Library.
- 57 Liddell, 'From Cleopatra', in Williams, *Flying*, 26.
- 58 *Justine*, AQ, 49.
- 59 *Collected Poems*, 158.
- 60 HM to LD, 12 November 1943, *DML*, 158.

- 40 AHG/1982, 70.
 41 'Notes for Alex', 15 left.
 42 *Justine*, AQ, 28.
 43 Plotinus, *Enneads*, trans. Stephen MacKenna, London 1991, 1.1.8, 10.
 44 'Notes for Alex', 14 left.
 45 *Ibid.*, 5 right.
 46 *Justine*, AQ, 18.
 47 AHG/1982, xv.
 48 *Ibid.*, xvi.
 49 Sigmund Freud, *The Interpretation of Dreams*, London 1991, 214, where Freud makes reference to Plotinus' *Enneads*, IV.4.17.
 50 Plotinus, *Enneads*, IV.4.4.
 51 'Notes for Alex', 6 left.
 52 Freud, *The Interpretation of Dreams*, 44.
 53 'Notes for Alex', 23 right.
 54 *Justine*, AQ, 143.
 55 *Ibid.*, 144.
 56 *Ibid.*, 156.
 57 *Ibid.*, 143.
 58 LD to HM, c. September 1944, in MacNiven, *Lawrence Durrell*, 298.
 59 Georg Groddeck, *The Book of the It*, London 1949, xxiv. *The Book of the It* was first published in 1923 by the Internationaler Psychoanalytischer Verlag in Vienna, whose founding directors were Sigmund Freud, Sandor Ferenczi and Otto Rank.
 60 *Justine*, AQ, 17.
 61 LD to HM, September 1944, *DML*, 175.
 62 *Prospero's Cell*, 9.
 63 Killearn, *Diaries*, 14 November 1944.
 64 The Stern Gang, named after its founder Avraham Stern, was run from 1940 to 1945 by Yitzhak Shamir, the future leader of the right-wing Likud party, who from 1983 to 1984 and again from 1986 to 1992 was prime minister of Israel.
 65 Gilbert, *Churchill*, 803.
 66 *Ibid.*
 67 LD to HM, c. 1 March 1945, *DML*, 179.
 68 LD to HM, spring 1945, in *A Private Correspondence*, 200.
 69 LD to HM, c. 1 March 1945, *DML*, 179.
 70 LD to HM, spring 1945, in *A Private Correspondence*, 200.
 71 LD to HM, c. 1 March 1945, *DML*, 179.
 72 LD to HM, spring 1945, in *A Private Correspondence*, 200.
 73 *Ibid.*
 74 Jack Sarfatti to the author, 5 January 2001.
- The remark was made by Carlo Soares to Jack Sarfatti in Paris in 1979; Sarfatti also says he heard it repeated by 'the Krishnamurti/Theosophists when I was in Ojai'.
 75 Gabriel Josipovici in conversation with the author.
 76 HM to LD, 5 April 1937, *DML*, 68.
 77 Summary of *La Procession enchainée* in *Fondation Carlo Soares*, 1, Paris 1978, 8.
 78 LD to DG, 2 April 1945, British Library.
 79 'Notes for Alex', 19 left, 20 left and right.
 80 *Justine*, AQ, 85.
 81 Psalms, 33:6.
 82 'Notes for Alex', 26 right.
 83 Throughout all Durrell's notes and drafts and throughout *Justine* itself, this character is identified as 'I'. Only towards the end of *Balthazar* is he named as Darley – see AQ, 356.
 84 *Justine*, AQ, 96.
 85 *Ibid.*, 97.
 86 *Ibid.*, 33.
 87 Gilbert, *Churchill*, 816.
 88 Josie Brinton to her mother, 22 February 1945.
 89 JYB, 'Memoirs', alternative XIII, 10.
 90 LD to DG, 2 April 1945, British Library.
 91 MacNiven, *Lawrence Durrell*, 300.
 92 LD to T. S. Eliot, 17 November 1945, *Twentieth Century Literature* 33:3, fall 1987, 356.
 93 LD to T. S. Eliot, early summer 1945, *Twentieth Century Literature* 33:3, fall 1987, 355.
 94 LD to HM, 22 June 1945, *DML*, 181.
 95 LD to Gwyn Williams, summer 1945, *Flying*, 10; also *Spirit of Place*, 78.
 96 LD to HM, 28 February 1946, *DML*, 194.
 97 LD to HM, c. October 1945, *DML*, 186.
 98 'Notes for Alex', 29 left.
 99 AHG/1982, xix.
 100 *Justine*, AQ, 201.
 101 *Spirit of Place*, 79.
 102 *Collected Poetry*, 99.
 103 Lawrence Durrell, *The Greek Islands*, London 1978, 128.
 104 Gwyn Williams to LD, 7 November 1945, in MacNiven, *Lawrence Durrell*, 320.
 105 Williams, 'Durrell in Egypt', 301.
 106 Williams, *ABC*, 32.
 107 Elizabeth French, daughter of Alan Wace, in conversation with the author. It is not certain by what route Wace found out about

Menasce, but the embassy was following Zionist activities in Egypt and reports were being sent to Smart.

- 108 The palace scene was translated by M. E. F. Maxwell; J. S. Blake-Reed translated the hymn of Adonis and M. S. A. Wright translated the street scene. All three men were members of the Royal Archaeological Society; the first two were judges at the Mixed Courts.
- 109 AHG/1982, 37f.
- 110 Victor Emmanuel later moved to a villa in Smouha, a development built in the 1930s on the drained lake-bed of Hadra, between Moharrem Bey and Abou el Nawatir. In his final illness, however, he returned to the Ambron villa; he died there on 28 December 1947 and is buried behind the altar in St Catherine's, Alexandria's Roman Catholic cathedral. But Gilda Ambron's name is not among those 'which the passer-by may one day read upon the tombs in the cemetery'; her body, if it was found, seems to have been taken to Italy: there is no record of her burial in the registers of either the Italian or the Jewish communities in Alexandria.

EPILOGUE

A Passage from Alexandria

- 1 See Fraser, *Ptolemaic Alexandria*, vol. 1, 681ff, and Alan K. Bowman, *Egypt after the Pharaohs*, London 1986, 31.
- 2 'The Caballi', 3 right. In 'The Caballi' the text runs continuously over left- and right-hand pages. See *Justine*, AQ, 17.
- 3 Memorandum signed by Captain D. Sherret, RAMC, psychiatrist, Psychiatric Division, British Military Hospital, Hanover, BAOR, 5 [January 1953]. Eve Durrell collection.
- 4 H. Potner, psychiatrist, British Military Hospital, Hanover, to LD, 5 January 1953. Eve Durrell collection.
- 5 LD to Alan Thomas, [spring 1953]. British Library.
- 6 LD to HM, May (?) 1953, DML, 269.
- 7 LD to HM, postmark 24 October 1953, DML, 272. In referring to a '4-dimensional' novel which is 'taut and very short', Durrell clearly means the book in hand; the remark does

not indicate that he had any intention of writing a quartet.

- 8 *Justine*, AQ, 165.
- 9 *Ibid.*, 21. A year or two later Durrell would read Sigmund Freud's letter to Wilhelm Fliess, 1 August 1899, in Sigmund Freud, *The Origins of Psychoanalysis*, London 1954. 'Now for bisexuality!' wrote Freud, and Durrell would quote what followed (above the quotation from the Marquis de Sade) as a preface to *Justine*: 'I am accustoming myself to the idea of regarding every sexual act as a process in which four persons are involved. We shall have a lot to discuss about that.' The four persons are the female and male aspects of the man and the male and female aspects of the woman, a theme Freud addressed in many of his writings and which Durrell also made part of the 'four-dimensional' nature of his novel *Justine*.
- 10 'The Caballi', last pages.
- 11 LD to Theodore Stephanides, [April 1954]. British Library.
- 12 Lawrence Durrell, 'Justine Rough Draft', cover. British Library. Inside the front cover of this blue notebook Durrell at some later point wrote, 'Draft begun in Venice 21st Jan 1954 on notes from '46-'47 - some passages - shoot Mareotis - in 1943. Kyrenia 6 months with S. alone. Terribly happy - dog tired -'. His dating is confusing and can be misleading unless one examines the matter carefully. January 1954 does not indicate when Durrell began writing in this notebook; rather the inscription was written some time later and is meant as a summary of his work in 'Notes for Alex', 'The Caballi' and now in 'Justine Rough Draft'. In fact Durrell sailed from Venice in January 1953, and indeed he did first write 1953 but changed it to 1954, both the inscription and his correction probably being written in 1955, for immediately below it there is an outline of a hand which he has inscribed as 'Sapphy's hand March 1955'. Durrell offered a similar sort of summary when at some time he wrote on the back cover of 'The Caballi' '1944-1954', which does not mean he began the notebook in 1944, as it was apparently manufactured by the government only in 1949; rather he is taking into account his earlier work in 'Notes for Alex'. To summarise

- the chronology, then: in 'Notes for Alex', begun in 1944, Durrell works out his ideas and characters; in 'The Caballi', begun in 1953, he begins telling the story as it would more or less appear in the published version of *Justine*; and in 'Justine Rough Draft', begun in 1954, he continues that same story. Whatever notes he had from 1943 of his experience at a duck shoot were not after all put to use in 'Justine Rough Draft', as he abandoned writing in this notebook just as he was approaching the climactic duck shoot scene.
- 13 'Justine Rough Draft', 2. British Library pagination. The ellipsis represents about a dozen lines that Durrell copied out of Forster's quotation from Plotinus. See *Justine*, AQ, 147f.
 - 14 MacNiven, *Lawrence Durrell*, 419.
 - 15 LD to Alan Thomas, [1955]. British Library.
 - 16 First written in 'Justine Rough Draft', these lines appear in *Justine*, AQ, 153.
 - 17 Lawrence Durrell, poetry notebook. British Library.
 - 18 LD to HM, c. January (?) 1956, *DML*, 279.
 - 19 LD to HM, c. November 1955, *DML*, 278.
 - 20 LD to HM, c. January (?) 1956, *DML*, 279.
 - 21 LD to Richard Aldington, after 11 October 1957, in *Literary Lifelines*, ed. Ian S. MacNiven and Harry T. Moore, New York 1981, 31.
 - 22 Ibid.
 - 23 LD to HM, c. January (?) 1956, *DML*, 279.
 - 24 *Clea*, AQ, 832.
 - 25 LD to Alan Thomas, postmark 13 June 1956. British Library.
 - 26 Lawrence Durrell, *Bitter Lemons*, London 1959, 214.
 - 27 Ibid., 216.
 - 28 Ibid., 163f.
 - 29 *Balthazar*, AQ, 235.
 - 30 *Bitter Lemons*, 164.
 - 31 LD to Alan Pringle, editor at Faber and Faber, received 24 July 1956.
 - 32 LD interviewed by Edwin Newman on *Speaking Freely*, WNBC TV, 6 April 1970, broadcast a week later. After telling Faber in July 1956 that he wanted to write 'a series, I don't know how many', Durrell was still undecided about their number a month before the publication of *Justine*, writing to Miller in December 1955 that he was thinking of writing five Alexandrian novels.
 - 33 *Balthazar*, AQ, 209f.
 - 34 EMF to FB, 25 August 1917, *Letters*, vol. 1, 267.
 - 35 Jasper Yeates Brinton, 'A Philadelphian Describes the Mass Evacuation from Egypt', *Philadelphia Sunday Bulletin*, 25 November 1956.
 - 36 Hugh Thomas, *The Suez Affair*, London 1967, 164.

المؤلف في سطور:

مايكل هاج

هو كاتب ومصور فوتوغرافى وناشر.

وتعتبر قصة الإسكندرية لمايكل هاج إنجازًا بارزًا، لأنها لا تعتبر فقط مؤلف السيرة الذاتية لفورستر وكافانى وديوريل وعلاقاتهم بالمدينة ولكن لأن ذلك يعتبر تسجيلًا لتاريخ الإسكندرية الحافل بالتفاصيل الرائعة.

الترجمة فى سطور:

فضيلة محبوب محمد

- تخرجت فى كلية الألسن وحصلت على ماجستير فى الأدب من جامعة القاهرة.
- عملت مترجمة لدى سفارة نيجيريا بالقاهرة، ومركز الدراسات الإستراتيجية بالأهرام.

المراجع فى سطور:

ظاهر البربرى

كاتب ومترجم مصرى

صدر له فى مجال الترجمة:

١- أرض المساء وقصائد أخرى (مختارات من أشعار ديفيد هربت لورانس
David Herbert Lawrence، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،
٢٠٠٠.

٢- (إله الأشياء الصغيرة The God of Small Things) للكاتبة الهندية
أرونداتى روى Aruundhati Roy، طبعة ثانية: دار نينوى للنشر،
دمشق ٢٠٠٩.

٣- (من لا عزاء لهم The Unconsoled) للكاتب البريطانى كازو
إيشيجورو Kazou Ishiguro، المركز القومى للترجمة، القاهرة
٢٠٠٥.

٤- (عندما كنا يتامى When we were Orphans)، للكاتب البريطانى كازو
إيشيجورو Kazou Ishiguro، المركز القومى للترجمة، القاهرة
٢٠٠٨.

٥- (أجنحة الغبار Wings of Dust)، للكاتب البريطانى السودانى جمال
محجوب Jamal NahJoub، المركز القومى للترجمة، القاهرة ٢٠١٠.

B القيام بأعمال المراجعة والتحرير والتقديم للكتب التالية:

١- الطفل الخامس (دوريس ليسبنج)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الجوائز، ٢٠٠٩.

٢- موعد مع أخى، رواية للكاتب الكورى مون يول، المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩.

٣- العيش بالأمل: شعوب تتحدى العولمة (مجموعة باحثين من الولايات المتحدة)، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩.

أعمال إبداعية منشورة:

١- توقيعات على جسد المساء: (شعر) الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، وزارة الثقافة المصرية، القاهرة، ١٩٩٧.

٢- مدن فارمة للنسيان: (شعر) الهيئة المصرية العامة للكتاب، وزارة الثقافة المصرية، القاهرة، ٢٠٠١.

٣- فنص الأحلام: (رواية) طبعة أولى، الهيئة العامة (قصور الثقافة، ٢٠٠٣، طبعة ثانية الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣.

٤- ظلالهم كانت هنا: (رواية)، دائرة الشارقة للثقافة والإعلام، دولة الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٦.

التصحيح اللغوي: حامد أحمد

الإشراف الفني: حسن كامل

